

دُرُوسٌ وَفَتَاوَى مِنْ
الْحَبَشَةِ الشَّيْخِ الرَّفِيعِ

لَفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ
مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعَثِيمِيِّ
مُحَمَّدٌ لِلَّهِ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

المجلد الخامس

دُرُوسٌ
التفسيرُ بِدَايَةٍ مِنْ سُورَةِ الْقِيَامَةِ إِلَى سُورَةِ النَّاسِ

مِنْ إِصْدَارَاتِ
مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعَثِيمِيِّ الْخَيْرِيَّةِ



سَلْسَلَةُ مُؤَلَّفَاتِ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ

١٧٧

دُرُوسٌ وَفَتَاوَى مِنْ

الْحَرَمَيْنِ الشَّيْخِ زَيْدِ بْنِ

الْمُحَلَّدِ الْخَامِسِ

② مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ١٤٣٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين ، محمد بن صالح

دروس وفتاوى من الحرمين الشريفين . / محمد بن صالح العثيمين ط ١ -

القصيم ، ١٤٣٩ هـ / ١٨ مج .

٧٦٧ ص : ٢٤×١٧ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين : ١٧٧)

ردمك : ٣ - ٦٤ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٨ - ٦٩ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج ٥)

١ - الفتاوى الشرعية . ٢ - الفقه الحنبلي . أ . العنوان

١٤٣٩ / ٢٠٣٥

ديوي ٢٥٨.٤

رقم الإيداع : ١٤٣٩ / ٢٠٣٥

ردمك : ٣ - ٦٤ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٨ - ٦٩ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج ٥)

حقوق الطبع محفوظة

لِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيرياً بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ

يُطلب الكتاب من :

مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

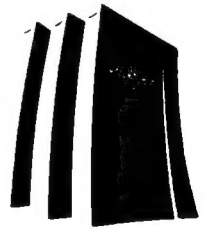
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩

هاتف : ٠١٦ / ٣٦٤٢١٠٧ - فاكس : ٠١٦ / ٣٦٤٢٠٠٩

جوال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦

www.binothameen.net

info@binothameen.com



الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الذرة الدولية للطباعة والتوزيع

١٢٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .

هاتف وفاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - ميمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

دُرُوسٌ وَفَتَاوَى مِنْ الْحَقِّيقِ الشَّيْخِ رَافِعِ

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الخامس

دُرُوسُ التَّفْسِيرِ بِدَايَةِ مَنْ سُورَةِ الْقِيَامَةِ إِلَى سُورَةِ النَّاسِ

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القيامة

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢]، وَهَذَا افْتِتَاحُ السُّورَةِ، وَآخِرُ السُّورَةِ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [٣٦] أَلَمْ يَكُنْ مِنْ مَنِّي يَمْنَى ۖ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَى ۖ [٣٨] فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۖ [٣٩] أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

هَذِهِ الْآيَاتُ تَقَرِّرُ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَيِّ إِنْسَانٍ يَعْمَلُ إِلَّا إِذَا آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَيَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِأَنَّ هُنَاكَ ثَوَابًا وَعِقَابًا، وَإِذَا لَمْ يَخْشَ الْإِنْسَانُ عِقَابًا، وَلَمْ يَرْجُ ثَوَابًا، فَإِنَّهُ لَا يَعْمَلُ، لَكِنْ مَتَى آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَحِينَئِذٍ يَتَحَقَّقُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَلِهَذَا يَقْرُنُ اللَّهُ تَعَالَى الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ بِالْإِيمَانِ بِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ.

يقول الله عزَّوجلَّ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ هَذَا نَفْيٌ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا أُقْسِمُ، لَا أَقُومُ، كُلُّهَا نَفْيٌ. (لَا أُقْسِمُ) جملةٌ مكوَّنةٌ من (لا) ومن فعلٍ مضارعٍ. و(لا أقومُ) جملةٌ مكوَّنةٌ من (لا) ومن فعلٍ مضارعٍ، لكن (لا أقسمُ) معناها الإثباتُ، لكنَّه جيءَ بـ (لا) لتنبيه المخاطبِ؛ كأنه يقالُ لنا: انتبهوا، أُقْسِمُ بيومِ القيامةِ. فـ(لا أُقْسِمُ) أي: أُقْسِمُ بيومِ القيامةِ أن يومَ القيامةِ حقٌّ، فالمقسَّمُ به والمقسَّمُ عليه في هذه الآيةِ شيءٌ واحدٌ؛ ولهذا قال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣]. فهذا القولُ وهو أن (لا) للتنبيه هو أحسنُ الأقوالِ وأصحُّها، وفيه قولانِ آخرانِ لا حاجةَ لِذِكْرِهِمَا؛ لأنَّهما مرجوحانِ.

ويومُ القيامةِ هو اليومُ الَّذي يُبعَثُ فيه النَّاسُ، وسُمِّيَ يومَ القيامةِ لأُمُورٍ ثلاثةٍ:

الأوَّل: أن النَّاسَ يقومونَ فيه لربِّ العالمينَ.

والثَّاني: أَنَّهُ يُقامُ فيه الأشهادُ.

والثَّالث: أَنَّهُ يُقامُ فيه القِسطُ؛ أي العدلُ، يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦]، ويقولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، ويقولُ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فيقامُ العدلُ، ويتبيَّنُ لكلِّ أحدٍ؛ فلهذا سُمِّيَ يومَ القيامةِ.

فالمقسَّمُ عليه هو المقسَّمُ به؛ أي ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أن يومَ القيامةِ حقٌّ، وإذا آمنَ الإنسانُ بذلكَ فلا بُدَّ أن يعملَ، وإذا لم يؤمنْ بذلكَ فإنَّه لن يعملَ،

وهل يظنُّ الإنسانُ أَنَّهُ خُلِقَ في هذه الدُّنيا سُدًى؛ لا يُؤمَّرُ ولا يُنْهَى، إن ظنَّ ذلك فقد أخطأ، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيِّ يَمْنَى﴾ [القيامة: ٣٧]، الجواب: بلى، و(نُطفة) أي قطرة يسيرة، ﴿مِّن مَّنِيِّ يَمْنَى﴾ أي يُراق، و(مَنِيٍّ) فَعِيلٌ بمعنى مفعول.

والإنسانُ سواءٌ أكان ذكراً أم أنثى هو نُطفة تُراق في الرَّحِمِ، ويتكون من هذه النُطفة إما ذكرٌ وإما أنثى، وقد قَسَمَ اللهُ ذلك إلى ثلاثة أقسامٍ فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ ٤٩ ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]

يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا خُلَصًّا، وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ خُلَصًّا، أو يُزَوِّجُهُمْ؛ يجعلهم أصنافاً ذكوراً وإناثاً، وهكذا جميع المواليد؛ فتجدُ من الناسِ مَن يُولدُ له إناثٌ بلا ذكورٍ، ومنهم مَن يُولدُ له ذكورٌ بلا إناثٍ، ومنهم مَن يُولدُ له ذكورٌ وإناثٌ، وكلُّ ذلك بِقدرةِ الخلاقِ العليمِ عزَّوجلَّ.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ ٣٨ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ [القيامة: ٣٨-٣٩] بعد أن كان نُطفةً ثُمَّ عِلْقَةً، جعل منه ﴿الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾؛ أي الصنفين الذكر والأنثى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠]، والجواب: بلى قادر؛ ولهذا ينبغي للإنسان إذا قرأ هذه الآية أن يقول: سُبْحَانَكَ فَبَلَى قَادِرٌ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

فإن قال قائلٌ: ما الداعي للقَسَمِ من عند الله عزَّوجلَّ، وهو جَلَّوَعَلَا أصدق القائلين قولاً، وهو صادق بلا قَسَمٍ، فما الفائدة من القَسَمِ؟

قلنا: الفائدة من ذلك:

أولاً: إظهار عظمة القسم به؛ لأن القسم كما حدّه العلماء: تأكيد الشيء بذكرٍ مُعْظَم. وإذا تأملتَ كلَّ ما أقسم الله به وجدته دالّاً على عظمة الربِّ عزَّوجلَّ.

ثانياً: الاعتناء بالمقسم عليه، وأنه أمرٌ مهمٌّ يُقسم عليه؛ ليثبت ويتأكد.

ثالثاً: أن القرآن جرى على الأسلوب العربيّ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِنُنْزِلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]

ومعلومٌ أن الأسلوب العربيّ جرت عادة العرب في كلامهم أن يعقدوا الشيء بالقسم، فيكون هذا من بلاغة القرآن؛ أن جرى على الأسلوب العربيّ المبين في كلِّ أساليبه؛ سواء كانت إنشائية أم خبرية. وعلى هذا فيكون هذا القسم من أجل إظهار بلاغة القرآن، ومطابقته تماماً للغة العربية.

إذن، هي ثلاث فوائد: العناية والتوكيد هذا واحداً، والثاني: مطابقة القرآن للأسلوب العربيّ، والثالث، وهو الذي ذكرناه أولاً: إظهار عظمة القسم به، وأنه شيءٌ عظيمٌ. ولهذا ذكرنا أن القسم هو تأكيد الشيء بذكرٍ مُعْظَم.

ومن أجل ذلك صار القسم بغير الله شركاً، فإذا أقسم الإنسان بغير الله عزَّوجلَّ فإنه يكون مُشْرِكاً، وإذا قال: والكعبة لأفعلن كذا وكذا، والكعبة مُعْظَمَةٌ فهي بيتُ الله عزَّوجلَّ، لكن نقول: هذا الرجلُ أشرك؛ لأنه أقسم بالكعبة.

وإذا قال: ومحمد بن عبد الله رسول الله. فأقسم بالرسول ﷺ، وهو سيّد بني آدم وأفضل الرسل، نقول: هذا رجلٌ أشرك؛ لأنه أقسم بغير الله.

وإذا قال: وحياة محمد. فقد أشرك، أي أقسم بحياته، وحياته صفته، فأقسم

بصفة المخلوق، فيكون مُشْرِكَاً.

والدليل أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»^(١).
و(أو) هنا إما للشك وإما للتنويع. وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَحْلِفُوا بِأَبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٢).

فإذا قال قائل: هَذَا الشِّرْكُ الَّذِي جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَهْوَ شِرْكٍ أَكْبَرُ، مُخْرِجٌ عَنِ الْمِلَّةِ، مُخَلَّدٌ صَاحِبُهُ فِي النَّارِ، أَمْ هُوَ شِرْكٌ أَصْغَرُ قَابِلٌ لِلْمَغْفِرَةِ؟

قلنا: فيه تفصيل؛ إذا كان يعتقد أن لَهَذَا المحلوف من التعظيم والعظمة مثل ما لله؛ فهو شِرْكٌ أَكْبَرُ. ولا أحد يكون له من العظمة مثل ما لرب العالمين أبداً، وإذا كان يعتقد فيه عَظَمَةً لكنها ليست كعظمة الله فهو شِرْكٌ أَصْغَرُ.

أما إذا كان سَبَقَ لِسَانٍ؛ فَإِنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ بِهِ الْإِنْسَانُ، فَكُلُّ مَا كَانَ سَبَقَ لِسَانٍ فَإِنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ بِهِ الْإِنْسَانُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وعلى هَذَا فلو قال الرجلُ لزوجته: أَنْتِ طَالِقٌ. وهو يريد: أَنْتِ طَاهِرٌ، لَكِنْ سَبَقَ لِسَانُهُ فَقَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ، فَإِنْ هَذِهِ الزَّوْجَةُ لَا تُطَلَّقُ.

(١) أخرجه أحمد (١٢٥/٢)، رقم (٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالأباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

والقاعدةُ في هَذَا أن اللفظَ إذا سبقَ على اللسانِ، فإنَّه لا حُكْمَ له، وهو لغوٌ من القولِ، والآياتُ الدالةُ على ذلك كثيرةٌ.

ولهَذَا نَصَحْنَا واحدًا من النَّاسِ قَالَ: وَالنَّبِيُّ أَن تُخْبِرَنِي عَنْ كَذَا وَكَذَا. يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ، فَقُلْتُ: لَا تَحْلِفْ بِالنَّبِيِّ، الْحَلِفُ بِالنَّبِيِّ شِرْكٌ، قَالَ: وَالنَّبِيُّ لَا أَحْلِفُ بِالنَّبِيِّ، فَحَلَفَ بِالنَّبِيِّ أَلَّا يَحْلِفَ بِالنَّبِيِّ.

فَهَذَا الظَّاهِرُ لِي أَنَّهُ سَبَقُ لِسَانٍ بِلا شَكٍّ؛ لِأَنَّهُ كَيْفَ أَنهَاءَ عَنْ ذَلِكَ ثُمَّ يَعُودُ وَيَقُولُ هَذَا، فَمَا كَانَ مِنْ سَبَقِ اللِّسَانِ فَإِنَّهُ لَا يُؤَاخَذُ بِهِ؛ لِأَن رَحْمَةَ اللَّهِ أَوْسَعُ مِنْ غَضَبِهِ، وَلِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحِبُّ الْعَفْوَ.

تنبيه: ذكرنا أن الحلفَ بغيرِ اللهِ شِرْكٌ؛ مع أننا نقرأُ في القرآن: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ⑤﴾ [الشمس: ١-٥]، و﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ⑥﴾ [الليل: ١]، وغير ذلك، وهذا حلفٌ بغيرِ الله، فما الجوابُ؟

الجواب: أن الله أن يُقسِمَ بما شاء من خلقه، ونحن لا نحجُرُ على الله، فله أن يفعلَ ما يشاء، ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ولهَذَا نجد أن الله تعالى حَرَّمَ على نفسه أشياء، وأوجبَ على نفسه أشياء، وليس لنا أن نُحرِّمَ على الله، أو نُوجبَ على الله، فالله حَرَّمَ على نفسه الظُّلْمَ فقال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»^(١). وأوجبَ على نفسه الرحمة، والدليلُ في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ [الأنعام: ٥٤] ولكن ليس لنا أن نوجب على الله بعقولنا.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - في النونية^(١):

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ
كَأَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ إِنْ كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ

إذن، لله أن يُقسِمَ بما شاء من خلقه، وإقسامه بخلقِه هو تعظيمٌ لنفسِه؛ لأنَّ عظمة المخلوق تدلُّ على عظمة الخالق، وإقسامه جَلَّوَعَلَا بمخلوقاته هو تعظيمٌ لنفسِه، وإظهارُ لعظمة هذا المحلوفِ به.

ونسأل الله تعالى أن يرزُقنا وإياكم فهمَ كتابِه والعملَ به، وإني أحثُّكم - بارك الله فيكم - على تدبُّرِ القرآن، وتفهُمِ معانيه، والاستعانةِ على ذلك بما قاله أهلُ العلم؛ ولا سيَّما ما يذكره ابنُ القيمِ رحمه الله فإنه إذا تكلمَّ على الآية أشبع، فعليكم بما تجدونه في تفسيرِ ابنِ القيمِ ممَّا فيه من الفوائدِ العظيمة.



الدرس الثاني:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، خاتم النبيين، وإمام
المتقين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦] هذا النفي موجه
للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عبد لله
بخالص العبودية وكمالها، فيأمره الله عز وجل وينهاه كسائر العباد، وليس للنبي
صلى الله عليه وعلى آله وسلم حق من الربوبية، لا قليل ولا كثير، حتى إن رجلاً
قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ما شاء الله وشئت. فقال له: «أجعلتني
الله ندا؟ بل ما شاء الله وحده»^(١).

ولا يخفى على كثير ممن قرؤوا سيرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كمال
عبوديته لله عز وجل فهو أتقى الناس لربه وأخشاهم له، وأعلمهم بما يتقي، صلوات
الله وسلامه عليه.

يقول عز وجل لنبيه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ وكان النبي صلى الله عليه
وعلى آله وسلم من حرصه على تلاوة القرآن يتعجل جبريل، بمعنى أن جبريل إذا
ألقاه إليه عجل به؛ لئلا يفوته شيء منه، فقال الله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ
بِهِ﴾ نعم الملتزم.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (على) هذه للإيجاب، فقد أوجب الله على نفسه أن

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٤/١، رقم ٧٨٣)، وأحمد (٢٨٣/١، رقم ٢٥٦١)،
والطبراني في الكبير (٢٤٤/١٢، رقم ١٣٠٠٥).

يُبَيِّنُ هذا القرآن، والله أن يُوجِبَ على نفسه ما شاء تَفْضُّلاً منه وكرماً، وإلا فليس للعباد عليه حقٌ واجبٌ إلا ما أوجبه الله على نفسه، واسمع إلى قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، (كتب) بمعنى أوجب، فليِّه أن يُوجِبَ على نفسه ما شاء، وله أن يُوجِبَ على عباده ما شاء؛ لأنَّ له الحكم وإليه الحكم، فهنا قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي: نحن نجمعه فلا يفوتك منه شيء، و﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أي: أن نقرأه.

﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغَ قُرْآنَهُ﴾ ضميرُ الفاعلِ في قوله: ﴿قَرَأَهُ﴾ يعودُ على الله، وضميرُ المفعولِ (الهاء) على القرآن، والقارئُ جبريل، وهو الذي يُمْلِي على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهنا أضاف الله فعلَ جبريلَ إلى نفسه، فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ﴾، لأنَّ جبريلَ رسولُ ربِّ العالمين عزَّ وجلَّ، وقراءته ما أنزلَ اللهُ به قراءةً لله عزَّ وجلَّ، ولهذا ينبغي للإنسان الذي يتعلَّم القرآن ألاَّ يُعَاجِلَ المُقَرِّئَ، بل يَنْتَظِرُ حتى يَقِفَ على مَقْطَعٍ من المَقَاطِعِ، ثم يَتَّبِعَ.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي: بيانه بالقول، والمعنى على الله تعالى، فعليه عزَّ وجلَّ بيانه بالقول، لا يَضِيعُ منه شيء، والمعنى: لا يُحَرِّفُ منه شيء، ولو حَرَّفَ أَحَدٌ شيئاً من كِتَابِ اللهِ لَقَيَّضَ اللهُ له مَنْ يَفْضَحُهُ، ويردُّ عليه تحريفه، كما تعلمون مما حَرَّفَ أَهْلُ الْبِدْعِ من كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ يُحَرِّفُونَ، ويأتي إليهم أهلُ السُّنَّةِ والجماعة، فيَنْقُضُونَ هذا التحريفَ وَيَفْضَحُونَهُمْ به، وسيأتي لهذا مثالٌ في السورة نفسها.

قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ [النحل: ٤٤]، أي للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا

نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴿٢٠﴾ أي: لِيُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ باللفظِ والمعنى، ولهذا ما تَرَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا يَخْفَى عَلَى النَّاسِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا بَيَّنَّهُ، وسيأتي لذلكِ مِثَالٌ فيما بعدُ من هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١] العاجلة هي الدنيا، والآخرة هي دارُ الآخرة، وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَتْرُكُونَ الْآخِرَةَ، مَا أَكْثَرَهُمْ، إِنَّ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدًا فِي الْأَلْفِ يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ؛ ولهذا صَحَّ أَنْ يُوجَّهَ الْخَطَابُ لِلْعُمُومِ؛ لِأَنَّ الْأَكْثَرِينَ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَيَذَرُونَ الْآخِرَةَ.

قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يَوْمَ تَقُومُ الْقِيَامَةُ ﴿نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ نَاضِرَةٌ الْأُولَى بِمَعْنَى حَسَنَةٍ؛ وَلِهَذَا كُتِبَ بِالضَّادِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ بِالضَّاءِ، أي: تَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهَذِهِ الْوُجُوهُ سَوْفَ تَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَانْظُرْ إِلَى اللَّطْفِ وَالْإِحْسَانِ بِإِضَافَةِ الرُّبُوبِيَّةِ هُنَا إِلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ، وَهِيَ رُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ غَيْرُ الرُّبُوبِيَّةِ الْعَامَّةِ؛ حَيْثُ رَبَّى اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَلَى مَا يُرْضِيهِ، وَأَبَاحَ لَهُمُ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِهِ عَزَّوَجَلَّ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا النَّظَرَ إِلَى وَجْهِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ أي: تَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِالْعَيْنِ رُؤْيَةً حَقِيقَةً، كَمَا بَيَّنَّهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَمِعَ إِلَى بَيَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]؛ حَيْثُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عِنْدَمَا نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ»، وَالْجُمْلَةُ هُنَا مُؤَكَّدَةٌ بِ(إِنَّ) وَبِالْسِّينِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّحْقِيقِ، «كَمَا

تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ»^(١).

وهذا نصٌّ صريحٌ على أنَّ رُؤْيَا اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِالْعَيْنِ حَقِيقَةٌ؛ لَأَنَّهُ شَبَّهَهُ بِأَمْرِ مَعْلُومٍ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، وَهُوَ رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَهِيَ مَعْلُومَةٌ لِكُلِّ النَّاسِ، وَلَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ، كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَوَاللَّهِ لَن يَرَى الْمُسْلِمُونَ بَيَانًا أَعْظَمَ مِنْ هَذَا الْبَيَانِ، وَلَوْ اقْتَصَرَ عَلَى جُمْلَةٍ (تَرَوْنَ رَبَّكُمْ) لَكَانَ الْمَعْنَى مَفْهُومًا؛ لِأَن (رَأَى) إِذَا تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، فَهِيَ رُؤْيَا بَصَرِيَّةٌ، وَإِنْ تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ فَهِيَ رُؤْيَا قَلْبِيَّةٌ؛ لِقَوْلِ الشَّاعِرِ^(٢):

رَأَيْتُ اللَّهَ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ مُحَاوَلَةً وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودًا

الرُّؤْيَا هُنَا رُؤْيَا عِلْمِيَّةٌ قَلْبِيَّةٌ، وَإِذَا قُلْتَ: رَأَيْتُ نَوْرًا، أَوْ: رَأَيْتُ زَيْدًا، أَوْ: رَأَيْتُ كَذَا. فَهِيَ رُؤْيَا بَصَرِيَّةٌ، وَخُذْ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ، إِذَا تَعَدَّى (رَأَى) إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ فَهِيَ رُؤْيَا بَصَرِيَّةٌ، وَإِلَى مَفْعُولَيْنِ فَهِيَ رُؤْيَا عِلْمِيَّةٌ قَلْبِيَّةٌ. وَإِذَا قُلْتَ: رَأَيْتُ زَيْدًا، فَسَقَطَ مَيْتًا. أَيِ ضَرَبْتُ رِثَتَهُ. وَهَذَا مِنْ سَعَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عِنْدَ رُؤْيَاهِ لِلْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ». وَأَكَّدَ هَذِهِ الرُّؤْيَا بِتَأْكِيدٍ مُبَالِغٍ، «كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ» أَيِ لَيْلَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ أَوْ خَمْسَ عَشْرَةٍ، «لَا تُصَامُونَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تُصَامُونَ»، وَفِي ثَلَاثَةٍ: «لَا تُصَارُونَ»^(٣). بِالرَّاءِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَلْحَقُكُمْ صِيَمٌ، وَلَا يَنْضَمُّ بَعْضُكُمْ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، رَقْمُ (٥٧٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاتِي الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ وَالْمَحَافِظَةِ عَلَيْهِمَا، رَقْمُ (٦٣٣).

(٢) انْظُرْ شَرْحَ أَدَبِ الْكَاتِبِ لِابْنِ قَتِيْبَةَ، لِلْجَوَالِيْقِيِّ (ص: ١٨).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ التَّوْحِيدِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ. [الْقِيَامَةُ: ٢٢-٢٣]، رَقْمُ (٧٤٣٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ مَعْرِفَةِ طَرِيقِ الرُّؤْيَا، رَقْمُ (١٨٣).

إِلَى بَعْضِ لِرَآءِهِ؛ لَأَنَّهُ وَاضِحٌ، وَلَا ضَرَرَ عَلَيْكُمْ فِي رُؤْيَيْتِهِ. وَفِي رَوَايَةٍ: «كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحُورًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»^(١)، وَهَذِهِ أَيْضًا رُؤْيَةٌ مُؤَكَّدَةٌ بِنَفْيِ مَا يُضَادُّهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: «لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»، وَلَيْسَ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ بَيَانٌ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نَادَىٰ مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا، قَالُوا: أَلَمْ يُبَيِّنْ وَجُوهَنَا، وَيُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ، وَيُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ؟ قَالُوا: بَلَىٰ، فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»^(٢). فَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي يُخْفَى، وَهُوَ الزِّيَادَةُ، بَيَّنَّهَ بِأَنَّهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ^(٣).

وَنَحْنُ نُؤْمِنُ إِيْمَانًا جَازِمًا، لَا شَكَّ عِنْدَنَا فِيهِ، أَنَّنَا نَرَى اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَيْ إِنَّ النَّاسَ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ، نُؤْمِنُ بِذَلِكَ كَمَا نَرَى الشَّمْسَ، وَكَمَا نَرَى الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؛ لِأَنَّ هَذَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعَ تُبَيِّنُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَجَاءَ فِي السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ مُتَوَاتِرًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمُتَوَاتِرُ يُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِيَّ عَلَى الْمَشْهُورِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَاسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ النَّازِمِ^(٤):

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ الصِّرَاطِ جَسْرُ جَهَنَّمَ، رَقْمُ (٦٢٠٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ مَعْرِفَةِ طَرِيقِ الرُّؤْيَةِ، رَقْمُ (١٨٢).

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ صِفَةِ الْجَنَّةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي رُؤْيَةِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، (٢٥٥٢)، وَابْنُ مَاجَةٍ: كِتَابُ الْإِيمَانِ وَفَضَائِلُ الصَّحَابَةِ وَالْعِلْمِ، بَابُ فِيمَا أَنْكَرَتِ الْجَهْمِيَّةُ، رَقْمُ (١٨٧).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ إِثْبَاتِ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رَقْمُ (١٨١).

(٤) ذَكَرَهُ الْكَتَانِيُّ فِي نَظْمِ الْمَتَانِثَرِ (ص: ١٨)، نَقْلًا عَنْ الشَّيْخِ أَبِي اللَّهِ مُحَمَّدٍ التَّائِدِيِّ (ت ١٢٠٩ هـ) فِي حَوَاشِيهِ عَلَى الْجَامِعِ الصَّحِيحِ.

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبَ وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبَ
وَرُؤْيَا شَفَاعَةً وَالْحَوْضُ وَمَسَحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

يعني هذه بعض المتواتر، وليست كل المتواتر.

إذن، أحاديث الرؤية - أي: رؤية المؤمنين ربهم - متواترة، لا يمكن إنكارها، ولكن من العجب العجيب أن بعض الناس أنكروا رؤية الله، أسأل الله أن يهديه، ولا أستطيع أن أقول: حرمه الله رؤيته، لا أستطيع والله ذلك؛ لأن الدعوة عليه بهذا صعبة جدًا، لكني أقول: أسأل الله أن يهديه؛ حتى يؤمن بما دل عليه النص؛ لأنه أنكروا الرؤية، وحرف جميع النصوص الواردة في ذلك، مع أنها لا تقبل التحريف، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فمهما حاولت أن تُقنع من لم يقذف الله نورًا في قلبه فلن تستطيع أن تقذف النور في قلبه، فرؤية الله حق.

نذكر الآن ما نستحضره من أدلة الكتاب العزيز:

الأول: قول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وذلك حينما كلمه الله عز وجل، فاشتاق إلى رؤيته فقال: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾. ووجه الدلالة أن رؤية الله سبحانه وتعالى لو كانت مستحيلة غير لا ثقة به ما سألها موسى عليه الصلاة والسلام، الذي هو من أولي العزم من الرسل، من الخمسة الكبار من الرسل، وهم: محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح؛ لأن الذين يقولون: إن الله لا يرى. حجتهم أن هذا غير لائق بالله، ولو أثبتنا رؤيته لأثبتنا العيب والنقص في حقه. ونحن نقول: هل يجوز لنبي

من أولي العزم أن يسأل الله ما لا يليق به؟ هذا لا يكون أبداً.

إذن، هذه الآية تدل على جواز رؤية الله عز وجل، وأنه يمكن أن يرى.

ولكن الله قال له: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾؛ لأن الإنسان في الدنيا لا يتحمل أن يرى الله عز وجل أبداً، وضرب الله له مثلاً، فقال: ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾، والجبل معروف، والمعروف يقولون: إنه لا يعرف، إنما يعرف المجهول النكرة، أما المعروف فتعريفه تحصيل حاصل. قال: ﴿أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ فقد تجلّى الرب عز وجل للجبل، وهذا ما حدث للجبل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: اندك الجبل وزال، فلما رأى موسى هذا المشهد العظيم صعب وخثر موسى صعباً.

العجب أن أولئك القوم الذين ينكرون الرؤية يستدلون بهذه الآية على نفي الرؤية، قالوا: إن الله قال: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾، و(لن) هذه نفي للتأييد. لكنهم كذبوا على اللغة، والقرآن يكذب هذا الزعم؛ أن تكون (لن) للتأييد، قال ابن مالك رحمه الله في الكافية^(١):

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّداً فَقَوْلُهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضِداً

وفي القرآن الكريم قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٤ ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥] ولكن سيأتي يوم يتمنى أهل النار أن يموتوا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا بِمَمْلِكٍ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] واللام دعائية

(١) شرح الكافية الشافية (٣/ ١٥١٥).

هنا، ولذلك جَزَمَتِ الْفِعْلُ، فهم سَوْفَ يَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِمْ؛ حتى يَسْتَرْجِعُوا مِنَ الْعَذَابِ، أَنْجَانِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ النَّارِ.

إِذْنُ (لَنْ) لَيْسَتْ لِلتَّأْيِيدِ، بَلْ هِيَ لِنَفْيِ مُؤَقَّتٍ، حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَاجَةُ.

الثاني: قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وذلك لِأَنَّ نَفْيَ الْإِدْرَاكِ دَلِيلٌ عَلَى أَصْلِ الرُّؤْيَةِ، وَلَوْ كَانَ أَصْلُ الرُّؤْيَةِ مُتَّفِقًا لَكَانَ التَّعْبِيرُ: لَا تَرَاهُ الْأَبْصَارُ. وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾، فَنَفَى الْأَخْصَّ، فَعَلِمَ وَجُوبُ الْأَعَمِّ وَهُوَ الرُّؤْيَةُ.

الْعَجَبُ أَنَّ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الرُّؤْيَةَ يَسْتَدِلُّونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَجَعَلُهَا فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِ الرُّؤْيَةِ، وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ مُقْتَضَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْكَلَامِ الْفَصِيحِ أَنَّهُ إِذَا نُفِيَ الْأَخْصُ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وَجُودِ الْأَعَمِّ، وَهَذَا وَاضِحٌ.

الثالث: آيَتُنَا الَّتِي نَحْنُ الْآنَ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وَالِدَلِيلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾.

الرابع: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ فِي شَأْنِ الْفُجَّارِ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ الرُّؤْيَةِ لَغَيْرِ هَؤُلَاءِ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: مَا قَرَّرَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حَيْثُ قَالَ: «إِذَا حُجِبَ هَؤُلَاءِ فِي حَالِ الْغَضَبِ، فَقَدْ بَانَ وَظَهَرَ لِلْآخِرِينَ فِي حَالِ الرِّضَا، وَلَوْ كَانَ مُحْجُوبًا عَنِ الْجَمِيعِ لَمْ يَكُنْ لِنَفْيِ الْحُجْبِ عَنْ هَؤُلَاءِ فَائِدَةٌ»^(١).

(١) أَخْرَجَهُ اللَّالِكَاثِيُّ فِي شَرْحِ أَصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ (٣/ ٥٦٠، رَقْمُ ٨٨٣)، وَنَصَهُ: قَالَ الشَّافِعِيُّ: فَلَمَّا أَنَّ حُجْبُوا هَؤُلَاءِ فِي السَّخَطِ كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿لَمَحْجُوبُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ هناك مَرِيئًا لولا الحجبُ.

الخامس: قولُ الله تعالى في السورة نفسها: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤-٣٥] أي: يَنْظُرُونَ إلى كُلِّ النعيم الذي أعطاهم الله عَزَّوَجَلَّ، ومنه النَّظَرُ إلى وَجْهِهِ؛ لأنَّ ذلك في مُقَابِلِ قوله في الفُجَّارِ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾.

السادس: قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ لأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهو أَعْلَمُ الخلق بكلامِ الله، فَسَّرَ الزيادةَ بأنها النَّظَرُ إلى وَجْهِ اللهِ الكريم^(١)، ولو أنَّ إنسانًا أرادَ أن يتوسَّعَ في هذا لَوَجَدَ أدلَّةَ أُخْرَى، ولكنَّ المؤمنَ يَكْفِيهِ دليلٌ واحدٌ من القرآن الكريم، أو صحيحِ السُّنة.

فعَقِيدَتُنَا أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُرَى يومَ الْقِيَامَةِ، يُرَى رُؤْيَةً حَقًّا، عِيَانًا كما يُرَى الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ولكنْ بِدُونِ إِحَاطَةٍ، لقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، لكن نُنَبِّهُ إلى أَنَّ اللهَ لَا يُرَى في الدُّنْيَا يَقْظَةً؛ لأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما تَحَدَّثَ عن الدَّجَالِ قال: «وَلَا تَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا»^(٢). فمُحَالٌ أَنْ يُرَى اللهُ تَعَالَى في الدُّنْيَا يَقْظَةً، أمَّا مَنَامًا فقد يُرَى؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ في الْمَنَامِ.

وفي وُقُوعِ ذلكَ لِغَيْرِ النَّبِيِّ نَظَرٌ، وقد ذَكَرَ عن الإمامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللهُ وَغَيْرِهِ من

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، وخروج عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج، ومأجوج، رقم (٤٠٧٧).

الصَّالِحِينَ أَنَّهُ رَأَى اللَّهَ فِي الْمَنَامِ^(١)، لكن في النَّفْسِ من هذا شَيْءٌ، وليسَ كُلُّ مَا ثَبَتَ للرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَثْبُتُ لِأُمَّتِهِ؛ لِأَنَّ آيَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ ثَبَّتْ لِبَعْضِ الْأُمَّةِ فَتَكُونُ كَرَامَاتٍ لَهَا.

المِهُمُّ أَنَّهُ يَكْفِينَا أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ اللَّهَ يُرَى حَقًّا فِي الْآخِرَةِ، أَمَا فِي الدُّنْيَا يَقْظَةً فَلَا يُرَى؛ لِأَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى: ﴿لَنْ تَرِنَنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَأَمَا مَنَامًا فَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَأَمَّا غَيْرُهُ فَمَحَلُّ نَظَرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

إِذْنًا، مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ إِثْبَاتُ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَأَلَّا تَحْرِمَنَا ذَلِكَ بِسُوءِ أَفْعَالِنَا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



(١) انظر: مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (٥٨٣).

سورة الإنسان

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي
اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ،
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

هذه السورة إحدى السورتين اللتين كان النبي ﷺ يقرأ بهما في فجر يوم
الجمعة، والسورة الأولى هي: ﴿الْمَ ۝١ تَنْزِيلُ﴾ [السجدة: ١-٢] السجدة^(١).

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾
[الإنسان: ١].

يقول الله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾،
والاستفهام هنا للتحقيق، والمعنى: قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن
شيئاً مذكوراً، وهذا حق، فالإنسان قبل أن يُخلق لم يكن شيئاً مذكوراً، وقد أتى
عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة، رقم (٨٩١)،
ومسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في يوم الجمعة، رقم (٨٨٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] وَبَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ابتداءً هذا الخلق فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. فالنطفة هي الماء القليل، والمراد به هنا مني الرجل، والأمشاج كما قال المتأخرون هي: الحيوانات المنوية، فَإِنَّ هَذِهِ النُّطْفَةَ تشتمل على حيواناتٍ منويةٍ كثيرةٍ جدًا.

ومعنى قوله تعالى: ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره بخلق السمع والبصر له، ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، وهذا اختبارٌ من الله ليختبر العبد، في ماذا يستعمل هذا السمع، وفي ماذا يستعمل هذا البصر، فقد يستعمل الإنسان سمعه للاستماع إلى ما حَرَّمَ الله، كالاستماع إلى الأغاني الماجنة، والاستماع إلى الموسيقى، وآلات الطرب إلا ما استُشِنِي منها، ومما استُشِنِي من آلات الطرب الدُّفُّ في الأفراح والأعراس، في الأفراح كأيام الأعياد، وفي الأعراس كأيام دخول الإنسان بزواجه، فإن هذا مما رُخِّصَ فيه^(١).

وَيَبْتَلِي اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ الْإِنْسَانَ بِالْبَصَرِ، فَيُعْطِيهِ الْبَصَرَ لِيَبْتَلِيَهُ، لِيَنْظُرَ هَلْ يَبْصُرُ فِيهَا أَحَلََّ اللَّهُ لَهُ، أَوْ فِيهَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ الْإِبْصَارِ فِيهَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَنْ يُطْلَقَ الْإِنْسَانُ بَصَرَهُ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ كَالنَّظَرِ إِلَى الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَالنَّظَرِ إِلَى الصُّورِ الْمُحَرَّمَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ سَمْعًا وَبَصَرًا ابْتِلَاءً وَابْتِحَارًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

(١) أخرجه الترمذي: أبواب النكاح، باب ما جاء في إعلان النكاح، رقم (١٠٨٩) بلفظ: «أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف».

ثم بَيَّنَّ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ هَدَى الْإِنْسَانَ السَّبِيلَ، أَي بَيَّنَّ لَهُ الطَّرِيقَ، إِمَّا شَاكِرًا، وَإِمَّا كَفُورًا، فَالْإِنْسَانُ الشَّاكِرُ هُوَ الَّذِي يَشْكُرُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى هِدَايَتِهِ لِهَذَا الطَّرِيقِ، وَهُوَ الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ هُوَ الْجَاهِدُ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ، فَانْقَسَمَ النَّاسُ بَعْدَ هِدَايَةِ اللَّهِ لَهُمْ إِلَى قَسْمَيْنِ: شَاكِرٍ قَائِمٍ بِطَاعَةِ الْمُنْعَمِ، وَكَافِرٍ جَحَدَ نِعْمَةَ الْمُنْعَمِ، وَلَمْ يَقُمْ بِالشُّكْرِ وَلَا بِالطَّاعَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلًَا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

ثم بَيَّنَّ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَزَاءَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلًَا وَسَعِيرًا﴾ أَعْتَدْنَا بِمَعْنَى هَيَّئْنَا، وَالسَّلَاسِلُ مَا يُرْبِطُ بِهِ الْمَجْرُمُ الْكَافِرُ، وَالْأَغْلَالُ أَنْ تُغْلَّ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَالسَّعِيرُ النَّارُ الْمُحْرِقَةُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَتَجِدُونَ جَزَاءَ الْكَافِرِينَ مُجْمَلًا فِي ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ: ﴿سَلَاسِلًا﴾، ﴿وَأَغْلَلًَا﴾، ﴿وَسَعِيرًا﴾.

ثم انتقل عَزَّوَجَلَّ إِلَى الْأَبْرَارِ، الَّذِينَ هُمْ ضِدُّ الْكَافِرِينَ وَالْفَجَّارِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۖ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۖ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۚ ۝٨ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۚ ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ۚ ۝١٠ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۚ ۝١١ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۚ ۝١٢ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ۚ ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَقْطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۚ ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۚ ۝١٥ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۚ ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ۚ ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ۚ ۝١٨﴾

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعًا أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا ﴿[الإنسان: ٧-٢٢]﴾.

وأطال سبحانه وتعالى في وصف ثواب الأبرار لأن الله تعالى فصل أعمالهم فقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُنْعَمُكَمُ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿[الإنسان: ٧-١٠]﴾ فنجد أن الله عز وجل فصل أعمالهم، وكان مقابل هذا التفصيل في الأعمال أن يقابل ذلك بتفصيل الجزاء.

أما الكفار فإن الله ذكر عملهم مجملًا، فكان جزاؤهم مجملًا، وهذا من بلاغة القرآن، فالله فصل أعمال الأبرار في عدة آيات، يوفون بالنذر، يخافون يومًا، يطعمون الطعام لوجه الله، يخافون من ربهم، فذكر الله تعالى أعمالًا متعددة، فكان مقابل ذلك أن يذكر جزاءهم مفصلاً كما ذكرت أعمالهم مفصلة، أما الكفار فذكرت أعمالهم مجملًا، وكان مقابل ذلك أن يذكر جزاؤهم مجملًا.

في هذه الآيات يقول تعالى: ﴿وَحُلُوعًا أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ﴾، وفي آيات أخرى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿الحج: ٢٣﴾، فهل هناك تعارض بين هذه الآيات؟

الجواب: لا تعارض بين الآيات، بل هم يحلون بحلي بعضه فضة، وبعضه ذهب، وبعضه لؤلؤ، ولك أن تتصور الحلي بالفضة البيضاء اللامعة، والذهب الأحمر، واللؤلؤ الصافي، لوجدت منظرًا عظيمًا يطرب الأعين، ويسر النفس،

فالباس الذي يتحلون به ثلاثة أنواع، هي الذهب، والفضة، واللؤلؤ، وهذا الحلُّ يكون في جميع الذراع لقول النبي ﷺ: «تَبْلُغُ الْحَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»^(١). والوضوء يبلغ المرافق، وعلى هذا كل الذراع يكون مملوءًا بالحلِّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣].

ثم قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾. فالقرآن هو كلام الله الذي بين أيدينا مكتوب في المصاحف، ومحفور في الصدور، هو كلام الله منزل غير مخلوق؛ لأن الله تعالى ذكر في عدة آيات أنه أنزله على محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فتارة يقول: أَنزَلْنَاهُ، وتارة يقول: نَزَّلْنَا، وذلك لأن القرآن ينزل إلى الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم شيئاً فشيئاً: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتَبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكِتَبِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

فالتعبير بـ(أَنزَلَ) باعتباره كاملاً، والتعبير بـ(نَزَّلَ) باعتباره مجزئاً ينزل شيئاً فشيئاً، وهنا يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾، يعنى شيئاً فشيئاً.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

فلما ذكر الله منته عليه بتنزيل القرآن أمره أن يصبر لحكم الله.

وهنا يرد سؤال: لما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ فكان من المتوقع أن يقول: فاشكر نعمة الله، فلماذا قال الله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم (٢٥٠).

قلنا: لأن تنزيل القرآن عليه، يترتب عليه عهد وميثاق أن يُبلّغه إلى الأمة، وتبليغه إلى الأمة يحتاج إلى صبر ومعاناة، لأنه سوف يُكذّب، وسوف يُؤذى على هذا الوحي، فيحتاج إلى صبر، ولهذا نقول لكلّ مَنْ مَنْ الله عليه بعلم: اصبر على ما أعطاك الله من العلم، وقم بالواجب نحو هذا العلم تعليمًا ودعوةً وخلقًا وأدبًا وعبادة؛ لأن الله لم يُحملك هذا العلم إلا وسيألك عنه يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ هل المراد به الحكم الكوني أو القدري؟ أو هما جميعًا؟

قلنا: هما جميعًا، والمعنى: اصبر لحكم الله الشرعي حيث ألزمه الله بأن يُبلّغ ما أنزل إليه من ربه، ولحكمه الكوني إذا جرى عليه من عباد الله ما يكره، ومن المعلوم أن النبي ﷺ جرى عليه من الأذى والصبر عليه ما جعله في قمة الصابرين، فقد أُوذي ﷺ إيذاءً شديدًا حتى إنه كان ذات يوم ساجدًا تحت الكعبة فجاء سفهاء قريش بسلى جزور، أي فرثها وما في بطنها، ووضعوه عليه وهو ساجد ﷺ^(١)، كل هذا إغاظه له، وإلا فإن من المعلوم أن قريشًا تُكْرِم من يأتي إلى البيت الحرام حتى إنهم يسقون الحجاج الماء المنقوع به الزبيب، ويخدمون الحجاج، ورسول الله ﷺ أحق الناس بالتكريم، ويؤذونه هذا الإيذاء، فأمر أن يصبر لحكم الله.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾: الآثم العاصي، والكفور الكافر، يعني لا تُطع لا هؤلاء ولا هؤلاء.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

وأما المؤمنون فقد أمر الله تعالى نبيه أن يُخَفِّضَ جَنَاحَهُ لِمَن اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.
 قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ
 إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٢٩-٣٠].

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ المشار إليه السورة وما ذكر فيها.

﴿تَذْكِرَةٌ﴾ يتذكر بها الإنسان وَيَتَّعِظُ، ثم يَنْقَسِمُ النَّاسُ إِلَى مُتَنَفِعٍ بِهَذِهِ التَّذْكِرَةِ
 وَغَيْرِ مُتَنَفِعٍ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن
 يَشَاءَ اللَّهُ ۝٣٠﴾.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن
 يَشَاءَ اللَّهُ ۝٣٠﴾؟

فَالْجَوَابُ: إِنَّ مَشِيئَةَ الْإِنْسَانِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَهَا، فَلَا يَشَاءُ
 الْإِنْسَانُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ فِيهِ الْمَشِيئَةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

وَبَيَّنَ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ الْأَمْرَ إِلَيْهِ لِأَجْلِ أَنْ نَتَّجِعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَلَّا نَفْخَرَ بِأَنْفُسِنَا
 إِذَا وَفَّقْنَا لِلطَّاعَةِ، بَلْ نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَرَمِ اللَّهِ وَنِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أَيِ فِي جَنَّتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَيِ مُؤَلَّمًا.



سورة المرسلات

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ
حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ
تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١] الواو في قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ واو
القسم، يعني أن الله أقسم بالمرسلات عُرْفًا، سواء قلنا: إنها الرياح، أو قلنا: إنها
الملائكة، فالرياح مُرسلة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، والملائكة
كذلك مُرسلة: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١].

أَقْسَمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فَقَالَ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ❶ فَالْعَصْفَتِ
عَصْفًا ❷ وَالنَّشِيرَتِ نَشْرًا ❸ فَالْفَرَقَتِ فَرَقًا ❹ فَالْمَلَقَتِ ذِكْرًا ❺ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿
[المرسلات: ١-٦]، والمقسم عليه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧]، يعني ما نُوعِدُ بِهِ
مِنَ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةٌ، وَلَا يُمَكَّنُ أَنْ يَتَخَلَّفَ، فَلَوْ قُدِّرَ أَنْ
الْخَلْقُ يُوجَدُونَ وَيُؤْمَرُونَ وَيُنْهَوْنَ وَتُسْتَبَاحُ دِمَاءُ الْمَخَالِفِينَ وَأَمْوَالُهُمْ، ثُمَّ لَا يَكُونُ
هَنَّاكَ بَعَثٌ؛ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا لَكَانَ خَلَقَ الْخَلْقَ عَبَثًا، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. فلا بُدَّ مِنَ الرجوع إلى الله، ولا بُدَّ مِنَ الحساب.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]؛ أي هملاً لا يُؤمر ولا يُنهى، فهذا لا يُمكن؛ لأن ذلك يُنافي حكمة الله عزَّ وجلَّ، فلا بُدَّ من بعث، ولهذا قال هنا: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾.

ما حكم الحلف بالمخلوقات؟

الحلف بغير الله شرك، لكنه شركٌ أصغر، فحتى لو حلفت بأشرف البشر محمدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وعلى هذا فقول بعض الناس: والنبى ما أفعلُ كذا، أو والنبى لأفعلنَ كذا، يكون حراماً لا يرضاهُ الله ولا رَسولُهُ، وعلى من حلف بالنبى أن يتوب إلى الله ولا يعود، وأن يعودَ لسانه الحلف بالله دون الحلف بالنبى ﷺ.

والحلف بالوطن الذي أنت تعيش بين أكنافه، بأن تقول: أقسمُ بوطني أن الأمر كذا وكذا، لا يجوز، وهو حرامٌ.

وكذلك الحلف بالشرف حرامٌ؛ مثل أن يقول: وشرفي لأفعلنَ كذا، أو يخاطبُ إنساناً ويقول: وشرفك إن هذا صحيح؟ فيقول: وشرفي إن هذا صحيح، فهذا أيضاً من الشرك، فالحلف لا يجوز إلا بالله.

لكن الله جَلَّ وَعَلَا لَهُ أَنْ يُقَسِّمَ بما شاء من خلقه؛ لأنه يُحكم ولا يُحكمُ عليه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فله أن يحكم بما شاء، وله أن يحلف بما شاء.

مثال: حكم السجود لغير الله أنه شركٌ أكبر، ولقد كان السجود لغير الله طاعةً عظيمةً، وجعله الله طاعةً وعبادةً مع أنه لغير الله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا

لَأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٣٤﴾. فانظر إلى أن الأمر أمر الله؛ يجعل الواجب واجباً، والحرام واجباً، والإخلاص شركاً، والشرك إخلاصاً؛ لأن له أن يحكم بما شاء.

كذلك: قتل الولد حرام: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]، وفي يوم من الأيام كان طاعةً يحمده عليه الفاعل؛ وذلك حين أمر الله تعالى إبراهيم أن يقتل ابنه، فامتثل وأطاع، وتلَّهُ للجبين -على جبينه- لِيَذْبَحَهُ، وإنما تلَّهُ على جبينه لئلا ينظر إلى وجهه وهو يريد قتله فيرحمه، فتلَّهُ للجبين لِيَذْبَحَهُ، ولكنه جاء الفرج من الله، ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥].

المهم أن الله أن يحلف بما شاء، والله تعالى أن يأمر بالسجود لغيره، والله تعالى أن يأمر بقتل النفس؛ لأن الحكم لله العلي الكبير، فنحن نقول: أقسم الله تعالى بما أقسم به في هذه السورة لأن له أن يقسم بما شاء، أما نحن فإن النبي ﷺ قال: «لا تحلفوا بأبائكم، ومن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»^(٢).

والحلف بالمخلوقات دليل على عظمة هذه المخلوقات؛ لأن الله لا يحلف

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١)،

ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف

بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله،

رقم (١٥٣٥).

إلا بشيء عظيم، فلا يَحْلِفُ بالشَّيْءِ الذي ليس له عظمةٌ وليس فيه دليلٌ على كمالِ الله عَزَّوَجَلَّ، بل لا بدَّ أن يحلفَ بمخلوقاتٍ عظيمةٍ؛ كما في هذه السورة وغيرها.

في هذه السورة -يا إخواني- يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦]. وفي بعض الآيات يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا، وَإِنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ، وَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿وَاللَّهُ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فكيف نجمعُ بين الآياتِ؟

فالآن ظاهرُ الآياتِ التعارضُ، ولكن اعلم أنه لا يوجدُ في كتابِ الله تعارضٌ، ولا يوجدُ في سنةِ الرسولِ ﷺ الثابتةُ عنه تعارضٌ، ولا يوجدُ بين القرآنِ والسنةِ الصحيحةِ تعارضٌ، ولا يوجدُ بين آياتِ القرآنِ تعارضٌ، ولا يوجدُ بين الأحاديثِ الثابتةِ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تعارضٌ، فلا يوجدُ بين القرآنِ والثابتِ من السنةِ تعارضٌ أبدًا؛ لأن الحقَّ لا يكونُ باطلاً: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، لكن التعارضُ قد يبدو لبعضِ الناسِ إما لقلَّةِ علمِهِ، وإما لقلَّةِ فهمِهِ، وإما لزيغِ قلبِهِ والعياذُ بالله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]. وإلا فلا يُمكنُ التعارضُ.

وقد ألفَ العلماءُ رَحِمَهُمُ اللهُ مؤلفاتٍ في درءِ تعارضِ النصوصِ الصحيحةِ، وبيَّنوا أوجهَ الجمعِ بَيْنَهَا، ومن ألفَ في ذلكَ محمدُ الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ، صاحبُ (أضواءِ البيانِ في تفسيرِ القرآنِ بالقرآنِ)، ألفَ جزءًا مُفيدًا سَمَاهُ (دفعُ إيهامِ الاضطرابِ عن آياتِ الكتابِ).

إذن، كيف نجمعُ بين الآياتِ التي تدلُّ على أن هؤلاء لا ينطقون ولا يؤذنُّ لهم فيعتذرون، وبين الآياتِ التي تدلُّ على أنهم يتكلمون؟

نقول: أولاً: مقدارُ يومِ القيامةِ خمسون ألفَ سنة: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، خمسون ألفَ سنةٍ ألا تتغيرُ الأحوال؟ ففي بعضِ الأحيان يتكلمون، وفي بعضِ الأحيان لا يتكلمون، فالأحوالُ تختلفُ في يومٍ من أيامنا نحنُ في أربعٍ وعشرين ساعة، فكيف بيومٍ مقدارُهُ خمسون ألفَ سنة؟!

فيقال: إن الناسَ يومَ القيامةِ لهم أحوالٌ، ففي بعضِ الأحوالِ لا يستطيعون أن يتكلموا، وفي بعضِ الأحوالِ يؤذنُّ لهم فيتكلمون، ولكن لا يمكنُ أن يُقبلَ اعتذارُهُم - أعني المشركين -، ولو حاولوا أن يعتذروا لشهدتْ عليهم جنوبُهم وألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يكسبون، فلا يستطيعون الخلاصَ.

مثالٌ آخر: بَيَّنَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن الناسَ يُحشرون منهم من تكونُ وجوهُهُم مُسْوَدَّةً، ومنهم من يُحشَرُ أَزْرَقَ، فقالَ تَعَالَى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، وقالَ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

فكيف يُجمعُ بين السوادِ والزرقَةِ؟

فلو قالَ قائلٌ: هذا تناقضٌ فإننا نقولُ: ليسَ فيه تناقضٌ، فالزمنُ طويلٌ، وليسَ قصيراً، فيمكنُ أن يتغيرَ، ويمكنُ أن يقالَ: بَعْضُهُم يُحشرون زُرْقًا، وبَعْضُهُم يُحشرون سُودًا. ويمكنُ أن يُقالَ: الزرقَةُ الحالكةُ قريبةٌ من السوادِ. فالهمُّ - يا إخواني - القرآنُ ليسَ فيه تناقضٌ.

في هذه السورةِ يَفْصِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيْنَ كُلِّ آيَتَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

من أجل أن يقرع الأسماع هذا التحذير العظيم، وهو التأكيد، ويل للمكذبين يوم القيامة بالحق؛ سواء كذبوا بالشرعة كلها أو كذبوا ببعضها؛ لأن من كذب ببعض الشرعة فقد كذب بالشرعة كلها؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿[النساء: ١٥٠-١٥١].

وقال تعالى لبني إسرائيل حين أخذوا ببعض الكتاب دون بعض: ﴿أَفْتَوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

إذن، كرر الله عز وجل هذا الوعيد للمكذبين لأهمية الموضوع، فالتكذيب ليس بالأمر الهين بعد قيام الحجة، أما إذا لم تقم الحجة فلا شيء حتى تقوم الحجة.

ولهذا أنكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رجل سَمِعَهُ يقرأ آية في الفرقان على خلاف ما كان يعرفه عمر رضي الله عنه، وجذبه إلى رسول الله ﷺ؛ لأنها جاءت على خلاف ما سمع، فأخذه إلى الرسول ﷺ فقرأ عمر الآية، فقال الرسول ﷺ: «هَكَذَا أُنزِلَتْ» وقرأ الرجل الآية فقال: «هَكَذَا أُنزِلَتْ»^(١). لأن القرآن أول ما نزل نزل على سبعة أحرف.

فعمر رضي الله عنه حين أنكر ما أنكر ليس مراده التكذيب أبداً، لكنه لم يبلغه،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، رقم (٢٤١٩)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، رقم (٨١٨).

وإذا لم يبلغه فهو معذور، وعلى هذا فمن ذكر له حديث مثلاً وكذب به لعدم ثقته في الناقل، فلا يعد هذا كافراً؛ لأنه لم يكذب بالحديث بعد علمه أنه من كلام الرسول ﷺ عليه الصلاة والسلام، لكن إذا كذب بالحديث وهو يقول: نعم قال الرسول ﷺ كذا ولكن ذلك لا صحة له، فحينئذ يكون كافراً، فلو قال: أنا أقوم بالصلاة، وأصلي، وأزكي، وأصوم، وأحج، لكن هذا الكلام الذي قاله الرسول غير صحيح. فنقول: هو كافر نعم، وأي إنسان يكذب بنص يعلم أنه من كلام الله أو كلام رسوله فهو كافر.

كذلك أيضاً ورد نظير ذلك، أو قريباً منه في التكرار، في سورة أخرى، وهي سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، تكررت أكثر من ثلاثين مرة؛ لأن كل آية بين جملتين فيهما من نعم الله، فيقول: ﴿فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]. أي: بأي نعم الله تكذبان، والخطاب للإنس والجن.

وليُعلم أنه لا يمكن أن يقع في القرآن تكرار إلا وله فائدة، لكن لقصور عقولنا وأفهامنا وحيلولة الذنوب بيننا وبين التوفيق للصواب قد يخفى علينا حكم ذلك، ولكننا نعلم علم اليقين أن لذلك حكماً كثيرة عظيمة.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ يَتْلُونَ كِتَابَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ؛ لَفْظًا وَمَعْنَى وَعَمَلًا، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ.



سورة النبأ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ (١) عَنِ النَّبِيَّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ ۚ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١-١٦].

ابتدأ الله تعالى سورة النبأ بهذا الاستفهام: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، ومعلوم عند أهل النحو أن (عن) هنا حرف جرّ، وأن (الميم) أصلها (ما) الاستفهامية، لكن حذف منها الألف؛ لأن القاعدة أن (ما) الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجرّ فإنه تُحذف ألفها.

قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يعني: عن أي شيء يتساءلون، وأي شيء يُشكل عليهم؟

وَأَيُّ شَيْءٍ يَشْكُونُ فِيهِ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ يُنْكِرُونَهُ؟ فَأَجَابَ اللَّهُ: ﴿عَنِ النَّبِيَّ الْعَظِيمِ﴾ [النبا: ٢]، ولهذا كَانَ يَنْبَغِي لِلْقَارِي إِذَا قَرَأَ أَنْ يَقِفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وَأَلَّا يَصِلَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا وَصَلَ لَمْ يَتَبَيَّنِ الْكَلَامُ، أَي لَمْ يَتَبَيَّنِ الْمَعْنَى، لَكِنْ إِذَا قُلْتَ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ فَهَذَا اسْتِفْهَامٌ، وَالْجَوَابُ: ﴿عَنِ النَّبِيَّ الْعَظِيمِ﴾ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿النبا: ٢-٣﴾.

وَالنَّبِيُّ الْعَظِيمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ هُوَ كُلُّ مَا أَنْبَأَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَهَمْ يَتَسَاءَلُونَ: هَلْ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ حَقٌّ فِي هَذَا الْأَمْرِ، أَوْ لَيْسَ بِحَقٍّ؟

وَوَصَفَ اللَّهُ هَذَا النَّبَاَ بِالْعَظَمِ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ نَبَأٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ؛ إِذْ إِنَّهُ نَبَأٌ ثَابِتٌ بِالنَّبُوَّةِ؛ بِالْوَحْيِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، فَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّقَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَدَّدَ؛ فَكَانُوا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

قِسْمٌ آمَنَ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَهُؤُلَاءِ إِنَّمَا يَتَسَاءَلُونَ مِنْ أَجْلِ تَقْرِيرِ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِمْ.

وَقِسْمٌ آخَرُ أَنْكَرَ وَجَحَدَ وَقَالَ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ سَاحِرٌ كَذَابٌ، إِنَّهُ كَاهِنٌ، إِنَّهُ شَاعِرٌ، إِنَّهُ مَجْنُونٌ.

وَالْقِسْمُ الثَّلَاثُ تَرَدَّدَ، تَعْصِفُ بِهِ الرِّيحُ مَرَّةً إِلَى هُنَا وَمَرَّةً إِلَى هُنَا، فَإِنْ يَسَّرَ اللَّهُ لَهُ قُرْآنًا صَلَاحٍ صَلَحَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِنْ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ قُرْآنًا السَّوْءِ فَسَدَ.

قَوْلُهُ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبا: ٤] (كلا) هنا بِمَعْنَى: حَقًّا سَيَعْلَمُونَ. وَاعْلَمْ أَنَّ (كلا) تَأْتِي بِمَعَانٍ كَثِيرَةٍ، وَكَذَلِكَ غَيْرُهَا مِنْ حُرُوفِ الْجُرِّ، وَحُرُوفُ الْمَعَانِي تَأْتِي

لمعانٍ كثيرة، والذي يُعَيَّنُ المعنى هو السياق وقرائن الأحوال، ولذلك كان للسياق تأثيرٌ في صرف اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يخالف الظاهر، وكذلك قرائن الأحوال، ومن ثمَّ أنكر شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من المحققين أن يكون في القرآن مجازاً^(١)؛ لأن المجاز يعني أن هذا اللفظ مستعملٌ في غير موضع له، وهذا ليس بصحيح، فالقرآن كلُّ ما فيه فهو حقيقةٌ وحقٌّ، وليس فيه مجازٌ.

ولهذا أدلةٌ كثيرة، منها أن من أبرز علامات المجاز صحة نفيه، وليس في القرآن شيءٌ يصحُّ نفيه، وأضرب لكم مثلاً: إذا قلت: رأيتُ أسداً يحمل سيفاً يهاجمُ الأعداء، فمعنى الأسد: الرجلُ الشجاع، ويمكنُ لأي إنسانٍ أن يقولَ لك: هذا ليس بأسدٍ، هذا بشرٌ من بني آدم، فيصحُّ أن يقع النفي على هذه الكلمة. وليس في القرآن شيءٌ يصحُّ نفيه.

وهل يمكنُ أن تقولَ في قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]: إن الذلَّ ليس له جناحٌ؟
الجواب: لا، فما دامَ الله أثبتَهُ فلا بدَّ أن نُثبتَهُ.

فلا يمكنُ أن تقولَ في قوله: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٧]: إن الجدارَ لا يريدُ.

فكلُّ ما في القرآن حقٌّ، ولا يُمكنُ نفيه، ولذلك لا يوجدُ في القرآن مجازٌ. فمن العلماء من قال: لا يوجدُ في القرآن ولا في اللغة العربية مجازٌ، وإن الكلمة في سياقها تُعَيَّنُ المراد، ولا يجوزُ أن يكون المراد غيرَ ما دلَّت عليه هذه

الكلمة في موضعها. وهذا هو الحق، وهو الذي ذهب إليه ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وتلميذه ابن القيم وغيرهما من المحققين، ونصره ابن القيم بأدلة قوية؛ مَنْ شاء أن يراجعها فليراجعها في كتابه (الصواعق المرسلة).

إذن نقول: القرآن ليس فيه مجاز؛ لأن الكلمة في موضعها دالة على المعنى المراد، ولا يمكن أن يُراد سواها، فقولُه: ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ ۝ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبا: ١-٤] ذكرنا أن (كَلَّا) لها معانٍ كثيرة، والذي يُعَيَّن المعنى هو السياق.

قولُه: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبا: ٥] السين هنا يقولون: إنها للتنفيس، وتفيد التحقيق والقرب؛ أي أنهم سَيَعْلَمُونَ حقًا ولا بدَّ، وسيعلمون عن زمنٍ قريبٍ لا بعيد.

قولُه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي سَيَعْلَمُونَ عن هذا النبأ الذي يتساءلون عنه تَسَاوُلَ إنكارٍ وشكٍّ وترددٍ - وصدق الله - ومتى يَعْلَمُونَ ذلك؟ يَعْلَمُونَهُ إذا أتى أحدهم الموت، فإنه يُشاهد الحق عيانًا، ولكنه لا يُمكن أن تُقبل توبته إذا شاهد الموت؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتُّ أَكُنَّ وَلَا الَّذِينَ يَمْوَتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

قولُه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [النبا: ٦] ﴿أَلَمْ نَقُولِ أَهْلَ الْبَلَاغَةِ وَأَهْلَ النُّحُوِّ أَيضًا: إِنَّ هِمزَةَ الاستفهام إذا دخلت على النفي فإنها للتقرير، فمعنى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ أي: قد جعلنا، ومعنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] أي: قد شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ، وهنا ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ أي: قد جعلنا.

قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ أي كالمهاد في سهولتها ويسرها، ولذلك ليست رخوة بحيث لا يستقر عليها شيء، وليست صلبة بحيث لا ينتفع بها أحد، ولكن الله عز وجل جعلها بين بين؛ حتى ينتفع الناس بها وتكون لهم كالمهاد.

قوله: ﴿وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٧] الجبال معروفة، وهي هذه المشاهدة، وما أكثرها فيما حول مكة -شرفها الله- وسماها أوتادا لأنها تُرسي الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا ۖ مَنَعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَمَ لَكُمْ﴾ [النازعات: ٣٢-٣٣]، فهي بمنزلة الوتد للخيمة تُثبت الأرض عن الاضطراب، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أي أن تضرب، فهذه الجبال العظيمة تحفظ توازن الأرض حتى لا تضرب بالناس، وتثبت الأرض أيضا حتى لا تميد بالناس.

قوله: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبا: ٨] (أزواجا) بمعنى: أصنافا؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢] أي أصنافهم وأشكالهم. وقال تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾ [ص: ٥٨]؛ أي أصناف، فمعنى ﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافا، فما هذه الأصناف؟

ذكر وأنثى صنف وصنف، شقي وسعيد، أبيض وأسود، طويل وقصير، حسن الخلق وسيئ الخلق، فهذه أنواع كثيرة لا تُحصى من الأصناف في بني آدم.

ولذلك اعلم أن اختلاف الناس في أخلاقهم الباطنة أشد من اختلافهم في أخلاقهم الظاهرة، يعني كلنا الآن لنا وجوه، ولنا أيدي، ولنا أرجل، ولا نجد واحدا مثل الآخر من كل وجه أبدا ولا يمكن.

إذن، الخلق -وهو الصفة الباطنة في الإنسان- مختلف، فلا نجد اثنين اتفقا في

الأخلاق، فقد يتفقدان في بعض الأخلاق ويكونان مثلاً حسني الأخلاق وحسني المحادثة وحسني المقابلة، لكن يختلفان في شيء؛ لأن الله تعالى خلقنا أزواجاً، أي أصنافاً، بل إن الرجل الواحد ينظر إلى يده اليمنى وإلى يده اليسرى فيجد بينهما اختلافًا؛ فالتشققات مختلفة، واليمين أقوى، ومجري الدم - العروق - تختلف في اليد اليمنى واليسرى، والأنامل تختلف - يعني أطراف الأصابع - تختلف بين اليد اليمنى واليسرى، ولو أنك ذهبت تسأل أهل العلم بالتشريح لوجدت اختلافًا كثيرًا.

لذلك نقول: إن الله سبحانه وتعالى خلقنا أصنافاً وأشكالاً، ولهذا قال ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي أصنافاً مختلفة في الخلقة والخلق.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩] أي: قاطعاً للتعب والمشقة، ولهذا كان في النوم فائدتان:

الفائدة الأولى: قطع التعب السابق، فالإنسان عندما يتعب تعباً شديداً ثم ينام ينقطع التعب، ثم يستقيظ وهو مستريح، فهذا قطع.

الفائدة الثانية: تجديد للقوة في المستقبل، فيجد الإنسان بعد النوم أنه قام نشيطاً، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الإنسان أن يقوم ليله ولا ينام وقال: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(١).

فلا يجوز للإنسان أن يرهق نفسه، اللهم إلا أحياناً، فربما يُرخص للإنسان ألا ينام مثل العشر الآخر من رمضان؛ كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة، رقم (١٣٦٩).

يَقُومُ فِيهَا اللَّيْلَ كُلَّهُ وَلَا يَنَامُ^(١)، أَمَا مَا سِوَى ذَلِكَ فَمَا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةً إِلَى السَّحَرِ أَبَدًا إِلَّا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ.

إِذْنُ، النَّوْمُ ثُبَاتٌ، فَهُوَ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ، فَلَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَسْهَرَ لَيْلَهُ، وَأَنْ يُتْعِبَ نَفْسَهُ، وَلَا يَنْبَغِي أَيْضًا الْعَكْسُ؛ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا نَائِمًا خَمُولًا كَسُولًا، بَلْ يَكُونُ عَدْلًا مُتَوَسِّطًا.

قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا﴾ [النبا: ١٠] يَعْنِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِبَاسًا، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّيْلَ مُظْلَمٌ، وَالظُّلْمَةُ تَسْتُرُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا هَذِهِ الْأَنْوَارُ الَّتِي مِنْ اللَّهِ بِهَا عَلَيْنَا لَوَجَدَتِ اللَّيْلُ حَالِكًا يَسْتُرُ مَنْ فِيهِ، حَتَّى إِنْ الرَّجُلَ لَيَكُونُ إِلَى جَنْبِكَ وَلَا تَدْرِي مَاذَا يَقُولُ وَلَا مَاذَا يَفْعَلُ، فَالَلَّيْلُ بِمَنْزِلَةِ اللَّبَاسِ، يُغَطِّي الْأَرْضَ وَيُغَطِّي الشَّيْءَ عَنِ الْعَيُونِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١١] أَي زَمَنًا لِلْمَعَاشِ، أَي لِبَطْلِ الْعَيْشِ؛ لِأَنَّ فِي النَّهَارِ يَخْرُجُونَ إِلَى مَصَالِحِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا: ١٢] الْفَاعِلُ فِي (بَنَيْنَا) اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَبَنَاءُ اللَّهِ تَعَالَى لِلسَّمَوَاتِ لَا تَظُنُّ أَنَّهُ كِبَاءُ الْإِنْسَانِ لِلْبَيْتِ، فَفِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ لِلْبَيْتِ يَأْتِي بِالْعَمَالِ، وَيَأْتِي بِالزَّنَابِيلِ، وَيَأْتِي بِالطُّوبِ، وَيَأْتِي بِالطِّينِ، وَيَأْتِي بِالْخَشَبِ، وَأَمَّا بِنَاءُ اللَّهِ السَّمَوَاتِ فَهُوَ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: كُنْ فَيَكُونُ.

(١) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ: كِتَابَ فَضْلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، بَابُ الْعَمَلِ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، رَقْم (٢٠٢٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِعْتِكَافِ، بَابُ الْاجْتِهَادِ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، رَقْم (١١٧٤) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِثْرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ».

وقد بين الله عز وجل أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام؛ أولها الأحد،
 وآخرها الجمعة؛ الأرض في أربعة أيام، والسماء في يومين؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ
 إِنِّي كُنتُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾
 وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ
 ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾
 فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴿[فصلت: ٩-١٢]﴾.

وقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾. أي: قوية، وهذا يبين معنى قوله تعالى:
 ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي بقوة، وليست الأيدي هنا جمع يد، ولكنها
 مصدر (أَدَّيْتُ)، فتقول: «أَدَّ الشَّيْءُ» بمعنى قوي، (يُئِدُّ) يقوى (أيدًا) بمعنى قوة.
 يقول بعض الناس إذا سمعوا مثل هذا التفسير: إن هذا تحريفٌ كتحرif
 أهل التعطيل في قول الله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] أي بقوتي.

فنقول: كلا، كلمة (أيد) هنا لم يُضفها الله عز وجل إلى نفسه، لكن ﴿بِيَدَيَّ﴾
 أضافها الله إلى نفسه، ففرق بين هذا وهذا، ولذلك لا يجوز أن تُفسر الأيد في قوله
 تعالى: ﴿بِأَيْدٍ﴾ أي بيد الله عز وجل وحرامٌ علينا؛ لأن الله لم يُضفها إلى نفسه، ولو أننا
 فسرناها بيد الله لَكُنَّا أَضَفْنَا إِلَى اللَّهِ مَا لَمْ يُضَفْهُ لِنَفْسِهِ.

إذن ﴿بِأَيْدٍ﴾ أي بقوة، ولا إشكال في هذا ولا تحريف، ولا يجوز أن تفسر
 بأنها يد الله عز وجل؛ لأن الله تعالى لم يُضفها إلى نفسه.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبا: ١٣] يعني خَلَقْنَا أَيْضًا سِرَاجًا جَعَلْنَاهُ
 وَهَّاجًا، ويعني بذلك الشمس؛ فإنها سراجٌ تَسْتَنِيرُ بها الأرض كلها، ويدلُّك لهذا

أنه إذا ارتفعت الشمس وطلعت الشمس بطل كل ضوء، يقول الشاعر^(١):

فإنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبدُ مِنْهُنَّ كوكبٌ

فالشمس تغطي كل شيء، وهي سراج وهاج، أي شديد الحرارة، والشمس كتلة عظيمة تنير الأفق وتنير الأرض، وهي أيضًا شديدة الحرارة، انظر إلى بعدها الآن، وانظر إلى حرارتها في أيام الصيف، فلا تكاد تُمثي على الأرض من شدة حرارتها، فقد اكتسبت الأرض هذه الحرارة من الشمس، فعلى بعدها هذا البعد العظيم تصل حرارتها إلى الأرض، بينما لو توقد جميع نيران الدنيا لم تتجاوز الأمطار، ولذلك قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.

قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبا: ١٤] يعني من السحاب، وسماها معصرات لأن المطر يخرج منها كالنقط تخرج من الثوب المعصور، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣] من بينه. و﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ أي: كثير الشج والصب.

قوله: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۖ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبا: ١٥-١٦] اللام هنا للتعليل؛ أي أنزل الله عز وجل هذا المطر من أجل أن يخرج به الحب والنبات والجنات والبساتين الكثيرة أَلْفَافًا؛ أي كثيرة الأشجار، التي يلتف بعضها إلى بعض.

إلى آخر ما ذكر الله في هذه السورة؛ حيث تكلم جل وعلا عن البعث، وعن نفخ الصور، وعن مآل المتقين، ومآل المجرمين.

وفي القرآن عبر وعظات، ولذلك أكرّر عليكم -بارك الله فيكم- أن تكثرُوا

(١) من شعر النابغة في النعمان. الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ١٦٣).

تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ، وَتَفْهَمَ الْقُرْآنَ، فَفِيهِ الْعِبْرُ، وَفِيهِ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ، وَبِهِ يَقْوَى الْإِيمَانُ،
وَيَتَضَحُّ النُّورُ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي وَإِيَّاكُمْ مَنْ يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَيَقْدُرُونَهُ حَقَّ
قَدْرِهِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.



سورة التكوير

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ١٥-٢٩].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

في هذه الآيات أقسم الله تعالى بأربعة أشياء، وقولنا: أقسم يُشْكِلُ عليه أن الآية (لا أقسم)، فكيف تُفسَّرُ النفي بالإثبات؟

الجوابُ عن هذا أن نقول: الآية ليس فيها نفي، بل فيها (لا)، والمرادُ بها في هذا الموضع التنبيه؛ تنبيه المخاطب لما سيليقي إليه؛ لأنه إذا كان الأمر هاماً حَسَنَ أن يُنبَّهَ المخاطبُ قبل أن يُخاطَبَ؛ ليكونَ على استعدادٍ لِقَبُولِ ما يَسْمَعُهُ.

ولهذه الآية نظائر كثيرة في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾

[القيامة: ١]، وقوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨]، وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]. فالمراد بـ(لا) هنا التنبيه.

قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ﴾ ١٥ ﴿الْجَوَارِ الْكُنُفِ﴾ [التكويد: ١٥-١٦] هذان جنسان من النجوم معروفان عند أهل الاتباع، الذين يتبعون النجوم ومنازلها ليستدلوا بها على الأوقات.

قوله: ﴿وَأَلِيلَ إِذَا عَسَسَ﴾ [التكويد: ١٧] قال بعض المفسرين: إن معنى قوله: ﴿عَسَسَ﴾ أي دخل، وبعضهم قال: إذا أقبل وإذا أدبر، والصحيح أن الآية شاملة للمعنيين جميعاً، إلا أنه يؤيد القول بأن المراد (إذا أقبل) قوله: ﴿وَالصُّبْحَ إِذَا نَفَسَ﴾ [التكويد: ١٨]، الصُّبْحُ يَعْنِي الإصباح، وهو ابتداء ضوء الشمس في الأفق.

واعلم أن الفجر فجران: فجر صادق وفجر كاذب، والفرق بينهما من حيث المشاهدة من وجوه ثلاثة:

الفرق الأول: الفجر الصادق: مُسْتَطِيرٌّ - بالراء - في الأفق، يمتد من الشمال إلى الجنوب كأنه جناح طائر. والفجر الكاذب: مُسْتَطِيلٌ - باللام - في الأفق، يعني أنه ليس عرضاً ولكنه طوياً يمتد من المشرق إلى المغرب، وجاء في الحديث أنه كذب السرحان^(١) أي كذب الذئب.

الفرق الثاني: الفجر الصادق يزداد نوراً، فلا ظلمة بعده، يعني متى ظهر الفجر الصادق فالنور يزداد حتى طلوع الشمس، فلا ظلمة بعده. والفجر الكاذب

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (ص: ١٢٣، رقم ٩٧).

يُظْلِمُ، يعني يَبْقَى حوالي ثلاثين دَقِيقَةً أو نحوها ثم يُظْلِمُ فيعودُ الجَوْ مُظْلِمًا كما كان قبل ذلك.

الفرق الثالث: أن الفجرَ الصادقُ ضوءه متَّصِلٌ بالأفق، والفجرُ الكاذبُ بينه وبين الأفق ظُلْمَةٌ، فليس متَّصلاً بالأفق.

هذا من حيثُ الفروقُ المحسوسة، أما الفروقُ الشرعيَّةُ فالفجرُ الكاذبُ لا يَتعلَّقُ به حُكْمٌ، يعني لا يَحْرُمُ به الطعامُ على الصائم، ولا تَحِلُّ به صلاةُ الفجرِ، والفجرُ الصادقُ تَحِلُّ به صلاةُ الفجرِ، ويَحْرُمُ فيه الطعامُ على الصائم، فهذا فرقٌ شرعيٌّ.

قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ المرادُ بالصُّبْحُ هنا الصادقُ؛ لأنَّه هو الَّذي يَنْتَقِلُ به الجَوْ من اللَّيْلِ إلى النهارِ، ولهذا كان مُبتدأُ النهارِ شرعاً هو طُلُوعُ الفجرِ، أما لُغَةً: فمُبتدأُ النهارِ طُلُوعُ الشمسِ، فهناك فرقٌ بين المعنى اللُّغويِّ والشرعيِّ بالنسبة للنهارِ؛ فابتداءُ النهارِ شرعاً من طُلُوعِ الفجرِ، وابتداءُ النهارِ لُغَةً من طُلُوعِ الشَّمْسِ.

قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩] ﴿إِنَّهُ﴾ الضميرُ يعودُ على القرآنِ الكريمِ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا الرَّسُولُ هو الرَّسُولُ الْمَلَكِيُّ، يعني جبريل، وسُمِّيَ كَرِيماً لِبَهَائِهِ وَحُسْنِهِ، وقيامِهِ بأمرِ الله عَزَّوَجَلَّ على الوجهِ الأكملِ.

قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ [التكوير: ٢٠] أي: صاحبُ قوَّةٍ؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥].

قوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي عندَ صاحبِ العرشِ، وهو الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال

اللهُ تَعَالَى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]. إذن فـ(ذُو الْعَرْشِ) أي صاحبُ الْعَرْشِ، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فمعنى قوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿مَكِينٌ﴾ أي: ذي مكانةٍ وشرفٍ ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، فكما فضل اللهُ النبيينَ بَعْضَهُمْ على بعضٍ، وفضلَ اللهُ الخلائقَ بَعْضَهَا على بعضٍ، فضلَ اللهُ الملائكةَ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ.

قوله: ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوين: ٢١] أي: له كلمةٌ يُطَاعُ عليها ﴿ثُمَّ﴾ أي: هُنَاكَ في السَّمَاءِ ﴿أَمِينٌ﴾ أي: مُؤْتَمَنٌ على ما يُرْسَلُ به من الوحيِ إلى الرُّسُلِ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

وَيَذُلُّكَ على أَنَّهُ مُطَاعٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أخبر أَنَّهُ «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيَنَادِي جِبْرِيلُ في أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ في أَهْلِ الْأَرْضِ»، والعكسُ إذا أَبْغَضَ اللهُ رَجُلًا^(١).

الشاهدُ مِنْ هَذَا قولُ جبريلَ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ». إذن، هو مُطَاعٌ هُنَاكَ.

﴿أَمِينٌ﴾ أي: مُؤْتَمَنٌ على الوحيِ الَّذِي يُرْسِلُهُ اللهُ به إلى الأنبياءِ والرسلِ.
قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوين: ٢١] لَمَّا تَكَلَّمَ عَزَّوَجَلَّ على الرُّسُولِ الْمَلَكِيِّ ذَكَرَ الرُّسُولَ الْبَشَرِيَّ، وهو مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب المقة من الله تعالى، رقم (٦٠٤٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حبه لعباده، رقم (٢٦٣٧).

بِمَجْنُونٍ ﴿١﴾. والخطابُ لِقُرَيْشٍ، أي: ما الَّذِي هو صَاحِبٌ لَكُمْ تَعْرِفُونَهُ، وتَعْرِفُونَ صِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَعَقْلَهُ الرَّاجِحَ، بِمَجْنُونٍ.

وَالْعَجَبُ - يَا إِخْوَانَنَا - أَنْ قُرَيْشًا كَانُوا يُسَمُّونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ الْوَحْيِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ، وَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَدَعَاهُمْ لِلْحَقِّ قَالُوا: إِنَّهُ سَاحِرٌ كَذَّابٌ مَجْنُونٌ. وما أشبه ذلك، فيقول: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ يعني: ما الَّذِي تَعْرِفُونَهُ وَلَيْسَ بِغَرِيبٍ عَلَيْكُمْ، بل هو صَاحِبٌ لَكُمْ، ما هو بِمَجْنُونٍ، بل هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَكْمَلُ النَّاسِ عَقْلًا وَأَسَدُّهُمْ رَأْيًا، وَأَقْوَاهُمْ أَمَانَةً.

وَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرِيدُ أَنْ يَكْتُمَ شَيْئًا مِمَّا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ لَكَتَمَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، كَلِمَاتٌ عَظِيمَةٌ يُوجِّهُهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَنْقُلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ أي: رَأَى مُحَمَّدٌ جَبْرِيلَ ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] أي: الْبَيِّنِ الظَّاهِرِ الْعَالِي، فَإِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَأَى جَبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً فِي غَارِ حِرَاءَ^(١)، وَمَرَّةً فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ لَمَّا عُرِجَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(٢)، وَهَذِهِ الرُّؤْيَةُ هِيَ الَّتِي فِي غَارِ حِرَاءَ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿رَآهُ بِالْأُفُقِ﴾. إِذْنًا، مُحَمَّدٌ فِي الْأَرْضِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٣).

قوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكويد: ٢٤] يعني ما صاحبكم أيضًا على الغيب - وهو الوحي الذي أوحاه الله إليه - ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي: بخيل، وفي قراءة: (بِظَنِينٍ)^(١) أي بمُتَّهَم، بل هو أكمل الناس أمانةً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكويد: ٢٤] الضمير في قوله: ﴿هُوَ﴾ يعودُ على القرآن، ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ يعني بقول كاهن؛ لأن الكهنة تنزلُ عَلَيْهِمُ الشياطين بما استمعت من الوحي، فيتلقاها الكاهنُ ويكذبُ عليها مئةَ كذبةٍ، ويحدثُ الناسَ، فهم شياطينُ، وشياطينُ الإنسِ يَتَلَقَّوْنَ السَّمْعَ من شياطينِ الجنِّ. وقوله: ﴿رَجِيمٍ﴾ أي: مرجومٌ مُبْعَدٌ مطرودٍ عن رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكويد: ٢٦] أي: فبعدَ هذا الإيضاح، وبيان أن هذا القرآن الكريم قولُ رسولٍ كريمٍ، وأنَّ صاحبكم الذي نزلَ عليه هذا الوحي ليس بمجنونٍ، فأين تذهبون بعدَ هذا؟ وهذا الاستفهامُ للإنكارِ والتحدِّي.

قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [التكويد: ٢٧] (إِنْ) هنا بمعنى (ما)، ويدلُّ لذلك أن (إِلا) أتت بعدها: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا﴾ أي: ما هو إلا ذكرٌ للعالمين، أي: تذكيرٌ لهم، فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ تَذَكَّرَ، وَمَنْ لَمْ يَهْتَدِ أَنْكَرَ.

قوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكويد: ٢٨]. لَمَّا قال: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ عمومًا أبدل منها قوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾، وَمَنْ لَمْ يَشَأْ فَلَيْسَ ذِكْرًا لَهُ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِالْقُرْآنِ.

قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكويد: ٢٩] لَمَّا بَيَّنَّ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ ذِكْرٌ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَسْتَقِيمَ، بَيَّنَّ أَنَّ مَشِيئَةَ الْعَبْدِ تَابِعَةٌ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ، فقال: ﴿وَمَا

(١) الحجة في القراءات السبع (ص: ٣٦٤).

تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٠﴾.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أولاً: جواز إقسام الله تبارك وتعالى بالمخلوقات.

ووجه ذلك أن الله أقسم بالنجوم، وبالليل، وبالصبح.

وهل لنا أن نقسم بالمخلوقات؟

الجواب: ليس لنا أن نقسم بالمخلوقات، ولو عظمت عندنا وعند الله. ولهذا

لا يجوز للإنسان أن يقول: والنبي، يعني أن يقسم بالنبي ﷺ، ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١).

وقال: «لَا تَحْلِفُوا بِأَبَائِكُمْ»^(٢).

وقال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»^(٣).

ونحن نسمع هنا في المسجد الحرام من بعض إخواننا من يقسم بالنبي ﷺ فيقول: والنبي ما فعلت كذا. ومن الناس من يقسم بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن الناس من يقسم بعيسى بن مريم عليه السلام، وكل هذا من الشرك بالله عز وجل،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بأبائكم، رقم (٦٦٤٦)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٢٥/٢)، رقم (٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالأباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

فلا إقسام إلا بالله تبارك وتعالى، أو صفة من صفاته؛ كعزة الله، فتقول: بعزة الله لأفعلن كذا وكذا، وأما ما عدا ذلك فالإقسام به شرك، لكن لله تبارك وتعالى أن يقسم بمن شاء من خلقه.

ثانيًا: من فوائد هذه الآيات الكريمة: بيان أن هذا الوحي الذي جاء به محمد ﷺ قول جبريل، والدليل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠].

فإن قال قائل: كيف تقول: إنه قول جبريل، وهو قول رب العالمين؟

فالجواب: أنه أضيف إلى جبريل لأنه نزل به من عند الله، وقد ذكر الله تعالى في آية أخرى أن القرآن الكريم قول محمد ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٠]، المراد بالرسول الكريم هنا محمد ﷺ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢].

إذن، أضيف إلى محمد ﷺ لأنه بلغه أمته، وأضيف إلى جبريل لأنه بلغه للرسول، والقائل به ابتداءً هو الله عز وجل، فالقرآن الكريم كلام الله تعالى حقًا، تكلم به حقيقةً بالفاظٍ مُريدًا معانيه عز وجل، وليس كلام جبريل، ولا محمد ﷺ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه لا يمكن أن يكون الكلام الواحد من متكلمين.

فالقرآن إذن يجب علينا أن نعتقد أنه كلام الله، ألفاظه ومعانيه، وليس الكلام هو اللفظ دون المعنى، ولا المعنى دون اللفظ.

ثالثًا: من فوائد هذه الآيات الكريمة: بيان مكانة جبريل عليه السلام؛ لقوله:

﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢٠-٢١].

رابعًا: ومن فوائد هذه الآيات الكريمة قوة توبيخ قُرَيْشٍ، الَّذِينَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهو منهم وليس بعيدًا، وكان عليهم أن يكونوا أول مؤمن به؛ لَأَنَّهُ صَاحِبُهُمْ يَعْرِفُونَهُ، وَمِنْ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَن يُؤْمِنُوا بِهِ، وَيُؤْخَذَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

خامسًا: ومن فوائدها أيضًا بيان كَمَالِ عَقْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لَأَنَّهُ إِنَّمَا نَفَى عَنْهُ الْجَنُونَ لِكَمَالِ عَقْلِهِ، وَلِدَفْعِ دَعْوَى هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ لَهُ، الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

سادسًا: ومن فوائد هذه الآيات أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَيْرُ مُتَّهَمٍ بِمَا يَقُولُهُ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤].

سابعًا: ومن فوائد هذه الآيات إثبات مشيئة العبد، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ مُجْبَرًا عَلَى عَمَلِهِ، بَلْ لَهُ مَشِيئَةٌ وَإِرَادَةٌ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ السَّمْعُ وَالْعَقْلُ وَالْوَاقِعُ.

وللإنسان مشيئة، فمثلاً يتكلم بمشيئته، وَلَا يَشْعُرُ أَحَدٌ أَنَّ أَحَدًا يُجْبَرُهُ، فَلِلْإِنْسَانِ مَشِيئَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا، لَكِنَّ مَشِيئَتَنَا تَابِعَةٌ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَنَا، وَخَلَقَ مَا فِيْنَا مِنْ أَوْصَافٍ وَأَفْعَالٍ وَأَقْوَالٍ، فَمَشِيئَتُنَا تَابِعَةٌ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ، بِمَعْنَى أَنَّا إِذَا شِئْنَا شَيْئًا عَلِمْنَا بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ شَاءَ أَنْ نَشَاءَ، لَا شَكَّ فِي هَذَا، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِ اللَّهِ مَا لَا يُرِيدُهُ عَزَّجَلَّ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ فَبِمَشِيئَةِ اللَّهِ.

ولو قال قائل: هذا جمع بين النقيضين، فكيف تقول: للإنسان مشيئة. ومشيئته

تابعة لمشيئة الله؟

قلنا: ليس هناك تناقض؛ لأننا نعلمُ بالمحسوسِ والمعقولِ والواقعِ أَنَّ الإنسانَ له مَشِيئَةٌ يُضَافُ إليها فعلُ العبدِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شَتَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، فلِلإنسانِ مَشِيئَةٌ لا شكَّ، لكنَّ الَّذِي أودَعَ فيه هذه المَشِيئَةَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

إذن، مَشِيئَتُنَا تابعةٌ لمَشِيئَةِ اللهِ، ونحن إذا شِئْنَا شَيْئًا عَلِمْنَا بِأَنَّ اللهَ شَاءَ مِنَّا أَنْ نَشَاءَ، ثُمَّ إِنْ فَعَلْنَاهُ تَمَّ الأَمْرُ، وإلا قد يَنْصَرِفُ الإنسانُ عن شيءٍ أَرَادَهُ أَوَّلًا ثُمَّ يَنْصَرِفُ عنه ثَانِيًا.

وَضَلَّ في هذه المسألة -يا إخواني- طائفتان؛ طائفةٌ تقولُ: الإنسانُ ليسَ له مَشِيئَةٌ، وإنما يَفْعَلُ جَبْرًا؛ لَأَنَّهُ مُدَبَّرٌ. وهؤلاء ضَلُّوا سَوَاءَ السَّبِيلِ؛ لَأَنَّهُ لو كان الإنسانُ مُجْبَرٌ لم يُمدَحْ فاعِلُ الإحسانِ، ولم يُذَمَّ فاعِلُ الإساءة؛ إذ إِنَّ المحسِنَ لا نَمْدُحُهُ لأن هذا غَضَبٌ عليه، والمسيءَ كذلك لا نَذُمُّهُ لأنَّ هذا غَضَبٌ عليه.

كذلك أيضًا لو كان الإنسانُ مُجْبَرٌ ما صَحَّ أَنْ يُثَابَ المُطِيعُ، ولا أَنْ يُعاقَبَ العاصي؛ لأنَّ العاصيَ يقولُ: أنا ليس لي إرادةٌ وليس لي قُدْرَةٌ. وعليه لا يَحْسُنُ أَنْ يُعاقَبَ، وما عُقوبةُ الإنسانِ المُجْبَرِ إلا كقولِ القائل^(١):

أَلْقَاهُ فِي اليمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ
إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلِ بِالماءِ

إذن، هذا القولُ بأنَّ النَّاسَ مُجْبَرُونَ على أَعْمَالِهِمْ ليسَ لهم فيها إرادةٌ ولا مَشِيئَةٌ قولٌ باطلٌ، يُبْطِلُهُ السَّمْعُ والعقلُ والواقعُ.

وقال آخرونَ بالعكسِ، قالوا: الإنسانُ مُسْتَقِلٌّ، يَفْعَلُ ما يشاءُ بدونِ إرادةٍ

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم (١/ ١٥٥).

الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا قبيحٌ، وكيف يُمكنُ للإنسان أن يفعلَ ما يُخالفُ إرادةَ الله، والله ملكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، بيده مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ!

فإذن، كِلَا القولينِ باطلٌ، وسَبَبُ ذلك أن بعضَ النَّاسِ يأخذُ من النصوصِ بَأَطْرَافِهَا، وَيَدْعُ الطرفَ الآخرَ فيَضِلُّ، فهؤلاء الجَبَرِيَّةُ نَظَرُوا إلى عمومِ مُلْكِ الله عَزَّوَجَلَّ وأنَّ كُلَّ شَيْءٍ بيده، فقالوا: الإنسانُ ما له إرادةٌ ولا مَشِيئَةٌ ولا قُدْرَةٌ على العملِ أيضًا. والآخرونَ رَأَوْا أنَّ اللهَ تَعَالَى أَضَافَ الأَفْعَالَ إلى فَاعِلِهَا وأثبتَ لهم المَشِيئَةَ، والوَاقِعُ يَشْهَدُ بذلك، فَأَخَذُوا بهذا ونَسُوا أنَّ اللهَ تَعَالَى له مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، والصوابُ أن الإنسانَ له مَشِيئَةٌ، وله إرادةٌ، وأنه يَفْعَلُ باختيارِهِ، وأنه لا يُجْبَرُ على عَمَلِهِ، لكننا نَعْلَمُ أن ما يَقَعُ في الكَوْنِ فَإِنَّمَا يَقَعُ بِمَشِيئَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

مراتبُ القَدَرِ أربعُ:

المرتبةُ الأولى: العِلْمُ.

والثانيةُ: الكِتَابَةُ.

والثالثةُ: المَشِيئَةُ.

والرَّابِعةُ: الخَلْقُ.

وبهذا يقولُ ناظِمُ هذا البيتِ:

عِلْمٌ كِتَابَةٌ رَبَّنَا مَشِيئَةٌ وَخَلْقُهُ وَهُوَ إِجَادٌ وَتَكْوِينٌ

المرتبةُ الأولى: العلمُ:

معناه أن تؤمنَ بأنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، لا يَعْزُبُ عنه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في

السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، حَتَّى مَا يُؤَسِّسُ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ، وَيَحْدُثُ بِهِ نَفْسَهُ،
فَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُؤَسِّسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]،
وهو عليمٌ بكلِّ شيءٍ جملةً وتفصيلاً، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

المرتبة الثانية: الكتابة:

أي الكتابة في اللوح المحفوظ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلْقَلَمِ: «اكْتُبْ -يَعْنِي فِي
اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ- قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ
السَّاعَةُ»^(١). فكتب القلم ما هو كائنٌ إلى يومِ الْقِيَامَةِ، بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ. ودليلُ هذا
قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ
وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

المرتبة الثالثة: المشيئة:

ودليلها قولُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال
تَعَالَى: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، لكن دليلُ كونِ
فعلِ الإنسانِ بمشيئةِ اللَّهِ قولُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن،
باب ومن سورة ن، رقم (٣٣١٩).

بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿البقرة: ٢٥٣﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وفي الآية الثانية: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

إذن، مشيئة الله عامّة لما يُريدُه من فعله، وما يُريدُه من خلقه جَلَّ وَعَلَا.

المرتبة الرابعة: الخلق:

كُلُّ شَيْءٍ موجودٌ فهو مخلوقٌ لله، كائنٌ بعد أن لم يكن، والدليل قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، فكلُّ شَيْءٍ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَالِقُهُ، وأعمالُ العبادِ مخلوقةٌ لله؛ لأنَّ عملَ العبدِ نَتِيجٌ عن عزيمةٍ وقُدرةٍ، والعزيمةُ والقُدرةُ مخلوقتان لله، فالإنسانُ عَمَلُهُ مخلوقٌ لله، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

فهذه مراتبُ أربعٍ في الإيمانِ بالقدرِ، لا يمكنُ أن يتمَّ الإيمانُ بالقدرِ الَّذِي هو أحدُ أركانِ الإيمانِ السِّتَةِ إلا إذا آمَنَ الإنسانُ بهذه المراتبِ الأربعة: العلم، الكتابة، المشيئة، الخلق.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَني وإياكم من المؤمنين بِقَدْرِ اللهِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا بَالُنَا نَأْخُذُ بِالْأَسْبَابِ؟

قلنا: لا شَكَّ أَنَّ الإنسانَ يَفْعَلُ الأسبابَ، وإذا فَعَلَ الأسبابَ فقد تَتَمُّ أمورٌ وقد لا تَتَمُّ، فربما يَفْعَلُ الإنسانُ السَّبَبَ ويَحْجُزُ في الطَّائِرَةِ، وَيَأْخُذُ (كارت) الدخولِ

في الطائفة، ثم لا تطير الطائفة.

إذن، أنا فعلت الأسباب لكن لو أراد الله أن يتم الأمر لتمام.

ولذلك اسمع هذا الحديث واجعله نصب عينيك دائماً: قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير» يعني: المؤمن الضعيف والقوي كلاهما فيه خير، «أحرص على ما ينفعك، واستعين بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء» يعني خلاف ما تريد «فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١). فعلينا أن نفعل الأسباب، أما أن تتم الأمور فهذا إلى الله عز وجل.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

سورة الانفطار

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ۝١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۝٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسُ مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴿[الانفطار: ١-٥].

هَذِهِ مَشَاهِدُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أحيانًا يُعَبِّرُ بِالْانْفِطَارِ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَأحيانًا يُعَبِّرُ بِالْانْشِقَاقِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

فَهَذِهِ السَّمَاءُ الْعَظِيمَةُ الشَّدِيدَةُ الْقُوَّةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَتَفَطَّرُ أَيُّ تَتَشَقَّقُ: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: ١٩-٢٠]، هَذِهِ الْجِبَالُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي لَا تَذُكُّهَا الْمَعَاوِلُ الْقُوَّةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ هَبَاءً مَشْثُورًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]؛ لِأَنَّ الَّذِي خَلَقَهَا عَزَّوَجَلَّ

قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلَهَا كَذَلِكَ فِي لَحْظَةٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] يَعْنِي: انشَقَّتْ كَمَا تَنْفَطِرُ الْأَرْضُ مِنْ نَبَاتٍ، تَنْشُقُ السَّمَاءُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] ﴿الْكَوَاكِبُ﴾: هِيَ كِبَارُ النُّجُومِ، وَعِظَامُ النُّجُومِ، تَنْتَثِرُ: أَيِ تَتَفَرَّقُ وَتَتَطَايَرُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]: الْبِحَارُ تُفَجَّرُ، وَتُوقَدُ نَارًا، الْآنَ الْجِبَالُ أَمْسَكَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَفَاضَتْ عَلَى الْأَرْضِ، لَكِنَّ اللَّهَ أَمْسَكَهَا بِقُدْرَتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تُفَجَّرُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤] يَعْنِي: نُشِرَتْ، فَالْقُبُورُ الْآنَ ثَابِتَةٌ عَلَى أَصْحَابِهَا، لَكِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثَرُ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَخْرُجُونَ مِنْهَا، يَنْبُتُ الْإِنْسَانُ فِي قَبْرِهٖ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ، حَتَّىٰ إِذَا تَكَامَلَ الْجَسَدُ -بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يُفْخَ فِي الصُّورِ، فَخَرَجَتِ الْأَرْوَاحُ مِنَ الصُّورِ، وَحَلَّتْ كُلُّ رُوحٍ فِي جَسَدِهَا لَا تُخْطِئُهُ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، ﴿قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ مَا الَّذِي حَدَثَ.

فَإِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ الْأَرْبَعَةُ: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] يَعْنِي: عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَا أَخَّرَتْ؛ مَا قَدَّمَتْ فِي أَوَّلِ حَيَاتِهَا، وَمَا أَخَّرَتْ فِي آخِرِ حَيَاتِهَا، وَبِأَيِّ وَسِيلَةٍ تَعْلَمُ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ؟ بِالْكِتَابِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أَيِ: عَمَلِهِ، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] أَيِ: مَفْتُوحًا، ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ

عَلَيْكَ حَسِيْبًا ﴿[الإسراء: ١٤].

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: «وَاللَّهِ لَقَدْ أَنْصَفَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيْبًا عَلَى نَفْسِكَ»^(١). وَأَنْتَ بِنَفْسِكَ تَنْظُرُ الْكِتَابَ مَكْتُوبًا فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ، فَاقْرَأْهُ وَحَاسِبْ نَفْسَكَ، حِينَئِذٍ يَعْلَمُ الْإِنْسَانُ مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أَيُّ شَيْءٍ غَرَّكَ بِرَبِّكَ حَتَّى انْتَهَكْتَ حُرْمَاتِهِ، وَكَذَّبْتَ رُسُلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

قَوْلُهُ: ﴿خَلَقَكَ﴾ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. وَالْجَوَابُ: هُوَ مَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ وَيَقُولُ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ فَيَكُونُ الْجَوَابُ أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ وَلَا هُمْ الْخَالِقُونَ، إِذَنْ فَالَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

وَلِذَلِكَ قَالَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ سَمِعَهَا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَكَانَ مِنْ أَسْرَى بَدْرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَكَادَ قَلْبِي يَطِيرُ مِنْ شِدَّةِ وَقْعِهَا، وَوَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي^(٢).

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٥٤٥، رقم ١٥٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب، رقم (٤٠٢٣).

إِذْ، ﴿مَا غَرَّكَ رَبِّكَ أَكْبَرِ﴾ ٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ﴿أَيُّ: جَعَلَكَ سَوِيًّا فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِكَ، كُلُّهَا سَوِيَّةً، الرَّأْسُ، وَالْعَيْنُ، وَالْفَمُ، وَالْأَنْفُ، وَالرَّقَبَةُ، وَالْقَلْبُ، وَالرِّئَةُ، وَالْكَبِدُ، وَالْأَمْعَاءُ، كُلُّهَا مُتَنَاسِبَةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أَيُّ: جَعَلَكَ ذَا قَامَةٍ، فَالْحَصَانُ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، عَلَى يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، ظَهْرُهُ فَوْقَ، كَذَلِكَ الْحَيَوَانَاتُ الْآخَرَى كَالْبَعِيرِ وَالشَّاةِ وَالْبَقَرِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَالْإِنْسَانُ مُعْتَدِلٌ، ذُو قَامَةٍ، أَشْرَفُ أَعْضَائِهِ رَأْسُهُ جَعَلَهُ اللَّهُ فَوْقَ، وَلِذَلِكَ إِذَا سَجَدَ الْإِنْسَانُ فِي الصَّلَاةِ صَارَ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ مِمَّا إِذَا كَانَ قَائِمًا، لِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ»^(١). وَالْحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّكَ لَمَّا وَضَعْتَ أَعْلَى مَا فِيكَ فِي أَسْفَلٍ - فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُوَارِي قَدَمَيْكَ - رَفَعَكَ اللَّهُ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»^(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]

يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ رَكَّبَ بَنِي آدَمَ فِي أَيِّ صُورَةٍ شَاءَهَا، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦] وَلِنَنْظُرَ لِلْأَدَمِيِّينَ الَّذِينَ أَمَامَنَا، فَلْيَسُوا عَلَى صُورَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ فِيهِمُ الطَّوِيلُ وَالْقَصِيرُ، وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ، فِيهِمْ مَا بَيْنَ ذَلِكَ، فِيهِمُ الْجَمِيلُ، فِيهِمُ الْمُتَوَسِّطُ، فِيهِمُ الَّذِي دُونَ ذَلِكَ، وَهَلُمَّ جَرًّا. ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ٨ وَلَا أَحْسَنُ مِنْ صُورَةِ بَنِي آدَمَ فِيمَا نَعْلَمُ، إِنَّ نَظَرَ فَبِالْمُقَابِلِ، وَإِنْ وَقَفَ فَبِالْعِتْدَالِ، وَهَلُمَّ جَرًّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ﴾ [الانفطار: ٩]

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

أَيُّ بَعْدَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ: ﴿تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أَيُّ: بالجزاء؛ لَأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ: لَا بَعْثَ وَلَا جَزَاءَ، وَيَقُولُ قَائِلُهُمْ: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، وَأَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، هُمْ يُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ، يُكَذِّبُونَ بِالْجَزَاءِ، يَقُولُونَ: لَيْسَ هُنَاكَ جَزَاءٌ، وَالْإِنْسَانُ إِذَا مَاتَ انْتَهَى أَمْرُهُ، وَلَا عَوْدَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كُنِينٍ﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي: اللَّهُ وَكُلُّ عَلَيْكُمْ هَؤُلَاءِ.

قَوْلُهُ: ﴿كِرَامًا كُنِينٍ﴾ هُمْ مَلَائِكَةٌ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ يَكْتُبُونَ: ﴿كِرَامًا كُنِينٍ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢].

كُلُّ مَا نَفْعَلُ يَعْلَمُونَهُ، وَيَكْتُبُونَهُ، وَكُلُّ مَا نَقُولُ يَكْتُبُونَهُ أَيْضًا.

وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَحْذَرَ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يُسَجَّلَ عَلَيْهِ مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِيهِلِكَ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ حَافِظٌ يَحْفَظُهُ وَيَكْتُبُ كُلَّ مَا عَمِلَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، كَلِمَةً: ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ عَامَّةٌ تَعْمُ كُلَّ قَوْلٍ، وَوَجْهُ الْعُمُومِ أَنَّهَا نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، وَالنَّكِرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تَكُونُ عَامَّةً، وَالنَّكِرَةُ فِي سِيَاقِ النَّهْيِ كَذَلِكَ تَكُونُ عَامَّةً كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، فَكَلِمَةُ ﴿شَيْئًا﴾ يَعْنِي: أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ.

مَسْأَلَةٌ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ هَلْ عُمُومُهَا مُؤَكَّدٌ أَمْ غَيْرُ مُؤَكَّدٍ؟

الجواب: نعم مؤكّد بـ(من)، و(من) مؤكّدة لأَنَّها زائدة، ولأنَّ كُلَّ حرفٍ زائدٍ يفيدُ التَّوكيدَ، هَذِهِ قاعدةٌ بلاغيةٌ وعربيةٌ؛ لأَنَّها أَكْثَرُ بـ(من) لأَنَّها زائدةٌ، وعلاماتُ الزائدةِ أَنْ يَسْتَقِيمَ الكلامُ بِحذفِها، أو أَنْ يَسْتَقِيمَ الكلامُ مَعَ حذفِها، فهي -إذن- زائدةٌ، والزيادةُ تفيدُ التَّوكيدَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]، وكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. إذن، كُلُّ قولٍ فَإِنَّهُ يُكْتَبُ، لديه رقيبٌ عتيدٌ.

رَوَى عن إمامِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَحْمَدُ بنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ، أَنَّ رجلاً دخلَ عَلَيْهِ وهو مريضٌ يئنُّ من مَرَضِهِ، فقال: يا أبا عبدِ اللهِ، ما هَذَا؟ كيفَ تئنُّ بمرضِكَ، وقد قالَ طاوُسٌ -من التَّابِعِينَ المعروفين-: إِنَّ المَلَكَ يَكْتُبُ حَتَّى أَنِينِ المريضِ. فَأَمْسَكَ أَبُو عبدِ اللهِ عَنِ الأَنِينِ^(١).

فكُلُّ شَيْءٍ يُكْتَبُ، والحسناتُ كثيرةٌ واللهِ الحَمْدُ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الحَرفَ الواحدَ مِنَ القُرْآنِ فِيهِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، والرَّجُلُ إِذَا أَسْبَغَ الوُضوءَ فِي بَيْتِهِ، وَخَرَجَ للمَسْجِدِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً وَاحِدَةً إِلَّا رَفَعَ اللهُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، مَنْ يُحْصِي الخُطُواتِ؟ فَالْخَيْرُ كَثِيرٌ، ثُمَّ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حَيْثُ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] هُوَ يَغْفِرُ عَزَّوَجَلَّ الذُّنُوبَ الَّتِي دُونَ الشَّرِكِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلَكِنْ: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣].

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾، الْأَبْرَارُ جمع: بَرٌّ، والبرُّ: كَثِيرُ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، إِذَنْ، فالْمُرَادُ

(١) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١١٩/٢).

بالأبرارِ مَنْ كَثُرَتْ حسناتهم وخيراتهم، فآمنُوا بالله، وقاموا بالواجب، وكمَّلُوا بالمستحبِّ.

قوله: ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ (في) تُفيدُ الظرفية، فكأنهم مُنغمِسُونَ في النعيم، النعيمُ مُحيطٌ بهم من كُلِّ وجهٍ. ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ فهم في نعيمٍ في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ في الدنيا، وفي القبر، وفي البعث.

نعيمُ الأبرارِ في الدنيا وَرَدَ في القرآنِ والسُّنة، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

هَذَا النِّعَمُ، حياةٌ طيبةٌ. مَا قَالَ اللهُ: نُكثِرُ أَمْوَالَهُ، وَأَبْنَاءَهُ، وَقُصُورَهُ، وَسِيَارَتَهُ، لَا، بَلْ قَالَ: نُحْيِيهِ حَيَاةً طَيِّبَةً، دَائِمًا فِي طَيِّبٍ. فَسَّرَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١). هَذَا لِلْمُؤْمِنِ؛ لِأَنَّهُ -أَيُّ: الْمُؤْمِنِ- إِذَا أَصَابَتْهُ السَّرَّاءُ عَلِمَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَشَكَرَ اللهُ عَلَيْهَا، وَقَامَ بِطَاعَةِ اللهِ.

وَإِذَا أَصَابَتْهُ الضَّرَاءُ يَصْبِرُ، لَا يَتَضَجَّرُ، وَلَا يَتَحَسَّرُ، وَلَا يَحْزَنُ حُزْنًا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ الْمَشْرُوعِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فِيرْضَى وَيَسْتَسْلِمُ، يَقُولُ: أَنَا مَخْلُوقٌ مِنْ جَمَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَالْخَالِقُ عَزَّوَجَلَّ يَفْعَلُ مَا شَاءَ، فَإِذَا أَصَابَنِي الضَّرُّ فَمِنْ اللهِ. فَيَصْبِرُ، وَيَحْتَسِبُ، يَمُوتُ لَهُ الْمَيِّتُ فَيَصْبِرُ، يُصَابُ بِبَدَنِهِ فَيَصْبِرُ، يُصَابُ بِمَالِهِ فَيَصْبِرُ.

فِي الْقَبْرِ -انْظُرْ إِلَى نَعِيمِ الْقَبْرِ، إِذَا دُفِنَ الْمَيِّتُ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، حَتَّى إِنَّهُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرفاق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

ليسمعُ قرعَ نعالهم، يسمعُ وهو مدفونٌ بالأرضِ قرعَ نعالهم، يُسمِعُهُ مَنْ يُسْمِعُ كُلَّ شَيْءٍ عَزَّوَجَلَّ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، وَيَسْأَلَانِهِ عَنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ: عَنْ رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ، فَيَجِيبُ بِالصَّوَابِ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ، فَيَنَادِي مَنَادٌ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَنَعِيمِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّةَ بَصَرِهِ^(١)، فَيَرَى أَنَّهُ انْتَقَلَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهَا، وَلَا يَنْدَمُ عَلَى فَوَاتِ الدَّارِ، وَلَكِنَّهُ يَنْدَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَزْدَادَ عَمَلًا صَالِحًا فَقَطْ، لَا عَلَى أَنَّهُ فَارَقَ الدُّنْيَا.

أَمَّا النَّعِيمُ فِي الْآخِرَةِ فَحَدَّثَ وَلَا حَرَجَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] عَنْ النَّارِ، ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ١٠٢ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢-١٠٣]، تَتَلَقَّاهُمْ، فَالْوَفْدُ إِذَا تَلَقَّاهُ خَدَمُ الْمَلِكِ سُرَّ بِهِذَا، هَؤُلَاءِ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

فَالنَّعِيمُ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْقَبْرِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِي الْجَنَّةِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، يَعْنِي: الدَّارَ الْحُسْنَىٰ، وَالْحُسْنَىٰ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: اسْمٌ تَفْضِيلٍ، يَعْنِي: الَّتِي لَا أَحْسَنَ مِنْهَا، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وَالزِّيَادَةُ فَسَّرَهَا أَعْلَمُ الْخَلْقِ بَكِتَابِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ»^(٢)،

(١) أخرجه أحمد (٢٨٧/٤، رقم ١٨٧٣٣).

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٣٠٢/٣، رقم ٢٣٣٠)، والشاشي في مسنده (٣٨٩/٢، رقم ٩٩٠).

وَهَذَا أَعْلَى وَأَعْلَى مَا يَكُونُ مِنَ النَّعِيمِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَالنَّظَرُ إِلَى اللَّهِ ثَابِتٌ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ، وَالْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ، بَلْ يَرَوْنَ النَّظَرَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَعْلَى وَأَعْلَى مَا يَكُونُ مِنَ النَّعِيمِ.

الْأَدْلَةُ عَلَى رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ يَعْنِي: حَسَنَةٌ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] تَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ بِأَنَّ النَّظَرَ نَظَرُ الْعَيْنِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ يَعْنِي: حَسَنَةٌ بَهِيَّةٌ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا بِأَعْيُنِهَا الَّتِي فِي الْوَجْهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وَالزِّيَادَةُ هِيَ النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوتُونَ﴾ [المطففين: ١٥] الْكُفَّارُ لَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ وَجْهِ اللَّهِ، فَتَدُلُّ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَفْهُومِهَا عَلَىٰ أَنَّ عَكْسَهُمْ لَيْسَ مُحْجُوبًا عَنِ اللَّهِ، يُقَوِّي هَذَا فِي نَفْسِ السُّورَةِ فِي آخِرِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَى الْأَرْأْيِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ قِصَّةٌ مُطَابِقَةٌ تَمَامًا لِلْوَضْعِ الْحَالِيِّ لِلْبَشَرِ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] فِي الدُّنْيَا يَقُولُ: مَا هَذَا، مُطَوِّعٌ مُتَشَدِّدٌ. إِلَى آخِرِ الْأَلْقَابِ، ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ ٢٩

وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠] فَمَنْ الْمَارُّ الْمُجْرِمُ أَمْ الَّذِينَ آمَنُوا؟

فَنَقُولُ: الْآيَةُ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ، تَحْتَمِلُ هَذَا وَهَذَا، وَهَذَا مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ، يَعْنِي: إِذَا مَرَّ الْمُؤْمِنُونَ بِالْمُجْرِمِينَ تَغَامَزُوا بِهِمْ، وَإِذَا مَرَّ الْمُجْرِمُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ قَاعِدُونَ تَغَامَزُوا بِهِمْ، فَلَا يَسْلَمُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَذْيَتِهِمْ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ أي: المجرمون ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾
 أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿[المطففين: ٣١]﴾ يَعْنِي: يَقُولُونَ لِأَهْلِيهِمْ: الْيَوْمَ مَرَّ بِنَا فَلَانُ الْمَطْوَعُ،
 وَقُمْنَا نَتَغَامَزُ؛ احْتِقَارًا لَهُ، يَفْرَحُونَ بِهَذَا.

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢] يَعْنِي: إِذَا رَأَى
 الْمُجْرِمُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: هَؤُلَاءِ ضَالُّونَ، مَا عِنْدَهُمْ عَقْلٌ، مَا عِنْدَهُمْ فِقْهٌ، رَجَعِيُونَ،
 وَمَا أَشْبَهَ هَذَا، وَهَذَا يَنْطَبِقُ عَلَى وَقْتِنَا الْآنَ، كَثِيرٌ مِمَّنْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ دِينٌ يَقُولُونَ
 لِأَهْلِ الدِّينِ: إِنَّهُمْ ضَالُّونَ، رَجَعِيُونَ، لَا يَعْرِفُونَ قِيَمَةَ الْحَيَاةِ! وَوَاللَّهِ إِنَّ الْمُؤْمِنَ هُوَ
 الَّذِي عَرَفَ قِيَمَةَ الْحَيَاةِ، وَإِنَّ الْمَجْرِمَ هُوَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ قِيَمَةَ الْحَيَاةِ، بَلْ خَسِرَ
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [المطففين: ٣٣] يَعْنِي: مَا جَعَلَهُم
 اللَّهُ حَفَظَةً يَتَّبِعُونَ الْأَبْرَارَ، لَكِنِّهِمْ أَهْلُ عَدَوَانٍ وَظَلَمٍ.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]

﴿فَالْيَوْمَ﴾ يَعْنِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾

تَفْسِيرُ الْآيَةِ: فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ مِنَ الْكُفَّارِ، هَذِهِ الضَّحْكَةُ الَّتِي
 لَا بُكَاءَ بَعْدَهَا، لَكِنْ ضَحْكُ الْفُجَّارِ مِنَ الْأَبْرَارِ، يَعْقِبُهُ النَّدَمُ، وَالْبُكَاءُ، الَّذِي
 لَا يَنْفَعُ.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (٣٤) عَلَى الْأَرَايِكِ يَنْظُرُونَ ﴿[المطففين: ٣٤-٣٥]

أَوَّلُ مَا نَقُولُ: يَنْظُرُونَ إِلَى اللَّهِ، فِي الْمُقَابِلِ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾
 [المطففين: ١٥] أَيْضًا يَنْظُرُونَ إِلَى النَّعِيمِ الَّذِي أَعْطَاهُمُ اللَّهُ، حَتَّىٰ إِنَّ أَدْنَاهُمْ مَنْ يَنْظُرُ

فِي مُلْكِهِ أَلْفِي عَامٍ يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ، يَنْظُرُونَ أَيْضًا إِلَى أَهْلِ الْجَحِيمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠]، ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يَعْنِي: مَا الَّذِي حَصَلَ وَهُمْ فِي مُنَادِمَةٍ فِي الْجَنَّةِ، فِي سُرُورٍ، فِي انْبِسَاطٍ وَفِي حُبُورٍ.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿لَكِنَّهُ قَرِينٌ سُوءٌ، يَقُولُ:﴾ (يَقُولُ أَيْ أَنَّكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ) ٥٢ ﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٠-٥٣]، قَالَ لَهُ: تُصَدِّقُ أَنَّنَا إِذَا مِنَّا وَكُنَّا عِظَامًا وَتُرَابًا، نُبْعَثُ وَنُجَازَى، تُصَدِّقُ بِهَذَا؟ انْظُرْ جَلِيسَ السُّوءِ، يَرِيدُ مِنْ هَذَا الْمُؤْمِنِ أَنْ يُشَكِّكَ فِي هَذَا، وَيُكْفِرَهُ.

﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ﴾ [الصافات: ٥٤] يَعْنِي: يَقُولُونَ: نَنْظُرُ إِلَى هَذَا، إِلَى هَذَا الْقَرِينِ، يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ فِي الْجَنَّةِ: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ﴾، هُنَا لِلتَّشْوِيقِ، وَالْعَرْضِ أَيْضًا، ﴿فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] ﴿فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ﴾ أَيُّ: رَأَى قَرِينَهُ فِي الدُّنْيَا الَّذِي كَانَ يُشَكِّكُهُ، رَأَاهُ: ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أَيُّ: فِي قَعْرِهَا وَأَصْلِهَا، فَقَالَ لَهُ: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ﴾ [الصافات: ٥٦].

مَسْأَلَةٌ: الْجَنَّةُ فِي أَعْلَى عِلِّيْنِ، وَالنَّارُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، كَيْفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَيُخَاطَبُهُ، هَلْ هَذَا مُمْكِنٌ؟

الْجَوَابُ: يُمَكِّنُ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ بِهَذَا؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا وَجِدَ فِي الدُّنْيَا مِنْ صُنْعِ الْإِنْسَانِيِّ، هُنَاكَ الْآنَ هَوَاتِفُ، تُكَلِّمُ صَاحِبَكَ وَتَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ وَهُوَ فِي الْمَشْرِقِ وَأَنْتَ فِي الْمَغْرِبِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَهَذَا مِنْ صُنْعِ الْبَشَرِ، فَكَيْفَ بَصْنَعِ الْخَالِقِ عَزَّوَجَلَّ!

﴿قَالَ تَأَلَّهْ إِنْ كِدْتَ لِتَزِدِنِي ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾
[الصافات: ٥٦-٥٧]، فلننظرُ إلى هذا النعيم، إذن:

الأوّل: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣] إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

والثاني: النعيمُ الَّذِي أعطاهم الله تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ.

والثالثُ: إِلَى الْفُجَّارِ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ.

دليلٌ آخرُ: مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اشْتاقَ إِلَى رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ لَمَّا كَلَّمَهُ اللَّهُ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَلِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣] يَعْنِي: لِلْوَقْتِ الَّذِي وَعَدْنَاهُ، وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، ﴿فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴿اشْتاقَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ قَالَ اللَّهُ: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَرَانِي، يَعْنِي: فِي الدُّنْيَا، ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرَنِي﴾ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴿فَإِنَّكَ الْجَبَلُ مِنْ عَظَمَةِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ حِينَئِذٍ خَرَّ مُوسَى صَعِقًا، أُغْمِيَ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ودلالةُ هَذِهِ الْآيَةِ لَيْسَ عَلَى النَّظَرِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَكِنْ عَلَى إِمْكَانِ نَظَرِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ مُوسَى لَنْ يَطْلُبَ شَيْئًا مُسْتَحِيلًا.

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُرَى؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَا يُرَى، لَقَالَ: «لَا تَرَاهُ الْأَبْصَارُ» فَلَمَّا قَالَ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾ عَلِمْنَا أَنَّ الْأَبْصَارَ تَرَاهُ وَلَكِنْ لَا تُدْرِكُهُ، وَمَنْ الَّذِي يُحِيطُ بِصُرِّهِ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ! أَيُّ بَصَرٍ يُحِيطُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ! لَا يُمَكِّنُ، فَالْأَبْصَارُ لَا تُدْرِكُهُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ، هَذِهِ أَرْبَعُ آيَاتٍ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، فَسَّرَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، مَعَ أَنَّهُ يَكْفِي الْمُؤْمِنَ دَلِيلٌ وَاحِدٌ.

أَمَّا السُّنَّةُ: فَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ مُتَوَاتِرٌ، وَالْمُتَوَاتِرُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ يُفِيدُ الْيَقِينَ، وَانْظُرْ إِلَى نَظْمٍ جَمَعَ فِيهِ عِدَّةَ مَسَائِلَ مِنَ الْمُتَوَاتِرِ، يَقُولُ:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبَ:

يَعْنِي: مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ.

وَمَنْ بَنَىٰ لِلَّهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبَ

يَعْنِي: مَنْ بَنَىٰ لِلَّهِ بَيْتًا، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ.

وَرُؤْيَا شَفَاعَةً وَالْحَوْضُ

وَرُؤْيَا: هَذَا الشَّاهِدُ، أَيُّ: رُؤْيَا اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ

شَفَاعَةً: يَعْنِي: شَفَاعَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَغَيْرِهِ فِي أَهْلِ الْكِبَائِرِ.



الدرس الثاني:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين،
وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد
أن محمدًا عبده ورسوله، سيد المرسلين، وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه ومن
تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ ⑥ أَكْبَرِ ⑦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ⑧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ⑩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑪ كِرَامًا كُنُيْنَ ⑫ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑬ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ⑭ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ⑮ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ⑯ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ⑰﴾ [الانفطار: ١-١٦].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ④﴾ هذه أربعة أشياء، ويكون بعدها ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ⑤﴾ أي: كل نفس ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑥﴾. هذه السماء التي أخبر الله تعالى أنه بناها بأيدي أي بقوة، وأخبر أنها شديدة فقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ⑦﴾ [النبا: ١٢]؛ هذه السماء التي قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ⑧ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ⑨ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ⑩ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ⑪﴾ [الملك: ٣-٤].

فلا يمكن أن ترى فيها خللاً، ولا ضعفاً، بل هي قويّة؛ لأن الله سبحانه وتعالى

بناها بأيدي؛ أي بقوة.

فهذه السماء إذا كان يوم القيامة انفطرت، أي: تَمَرَّقَتْ؛ لأن الأمر انتهى وانقضى، والذي أَرَادَهُ جَلَّوَعَلَا حَصَلَ في هذه الخليفة.

ولعلَّ أحدًا يكون في قلبه هاجسٌ حيثُ ذَكَرْتُ أن معنى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي بقوة؛ إذ يظنُّ البعض أن المراد أيدي الله عزَّوَجَلَّ، وليس كذلك؛ لأن الأيدَ هنا لم تُصَفْ إلى الله، فما قال: بأيدينا، بل قال: ﴿بِأَيْدٍ﴾، ولا يحِلُّ لنا أن نُصِيفَ إلى الله ما لم يُصِفْهُ إلى نفسه.

ومعنى (الأيد) في اللغة العربية القوة، يُقال: آد، والمضارعُ: يَئيدُ، والمصدر: أَيْد.

قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ۝٢ سُبْحَانَ اللَّهِ! هذه الكواكبُ العظيمةُ الرفيعةُ المنيعةُ التي جعلها الله تعالى مصابيحَ في السماء، وإذا شئت أن تعرفَ عَظَمَتَهَا فابعدُ عن أنوارِ الكهرباءِ تَجِدِ العظمةَ العظيمةَ، سُبْحَانَ اللَّهِ العظيم! هذه الكواكبُ إذا كان يومُ القِيَامَةِ انتثرت؛ تَفَرَّقَتْ وتناثرت.

قوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ [الانفطار: ٣] يُفَجَّرُ بَعْضُهَا على بَعْضٍ، ولا تكونُ الأرضُ يابسةً؛ لأنَّ الله تعالى إذا كان يومُ القِيَامَةِ فإنه يَقْبِضُ الأرضَ بيده جَلَّوَعَلَا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

فهذه ثلاثة أشياء: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ۝١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ

فُجِرَتْ ۝٣.

والرابعة: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ [الانفطار: ٤] يعني بُعِثَ ثَرَابُهَا، وَخَرَجَ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالنَّاسُ الْآنَ إِذَا مَاتُوا دُفِنُوا فِي الْأَرْضِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

فتبعثر القبور ويخرج الناس من قبورهم لرب العالمين، حُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا، حُفَاءَ لَيْسَ عَلَيْهِمْ نِعَالٌ، عُرَاءَ لَيْسَ عَلَيْهِمْ كِسَاءٌ، غُرْلٌ يَعْنِي غَيْرَ مَخْتُونِينَ، فَجِلْدَةُ الْحَشْفَةِ تَعُودُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَهَذَا الَّذِي أَخَذَ مِنَ الْإِنْسَانِ يَعُودُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

فاليدُ إِذَا قُطِعَتْ بِحَادِثٍ، أَوْ بِقِصَاصٍ، أَوْ بِسَرِقَةٍ فَإِنِهَا تُدْفَنُ فِي أَيْ مَكَانٍ، ثُمَّ يَمُوتُ مَنْ قُطِعَتْ يَدُهُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَادَتْ هَذِهِ الْيَدُ الَّتِي قُطِعَتْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾.

هذا المشهدُ العَظِيمُ تَأْمَلُوهُ - يَا إِخْوَانِي - فِي كِتَابِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَمَشْهَدٌ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَمَشْهَدٌ تَزِيغٌ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ، وَتَشْخَصُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ.

ثم بَعْدَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْأَرْبَعَةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ﴾. وَ(نَفْسٌ) هُنَا نَكِرَةٌ لَكِنِهَا بِمَعْنَى الْعُمُومِ، ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ﴾ يَعْنِي كُلَّ نَفْسٍ ﴿مَا قَدَمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

وَتَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِهَا؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ [الإسراء: ١٣-١٤] يَعْنِي يُقَالُ: اقْرَأْ كِتَابَكَ، مَا نَظَلِمُكَ، فَأَنْتَ اقْرَأْ كِتَابَكَ ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

قال بعض السلف: «يَا ابْنَ آدَمَ، أَنْصَفَكَ مَنْ خَلَقَكَ، جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ»^(١). يعني عاملك بالإنصاف والعدل، فلا تُظلم، هذا كتابك اقرأه، فحينئذ يعلم الإنسان ما قَدَّمَ وأخَّر، يعني ما عمِلَه في أولِ عُمرِه، وما عمِلَه في آخرِ عُمرِه، يجذُه مكتوبًا، سُبْحَانَ اللَّهِ!

أرأيتم -يا إخواني- لو أن شخصًا وُضِعَ على صدرِه مُسَجِّلٌ يُسَجِّلُ كُلَّ ما يقول، ألا يخافُ مَن وَضَعَه أن يقول فيه ما يكرهه؟! إذن لماذا لا نخافُ الله عزَّوجلَّ، ولماذا لا نخافُ من هذا الكتابِ الَّذي نَلْقاه منشورًا.

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يجعلَ فيه الخيرَ لنا ولكم.

وهل الَّذي يوجَدُ في الكتابِ هي الأعمالُ فقط أم الأعمالُ والأقوالُ؟

الجوابُ: الأعمالُ والأقوالُ، واسمَعْ قولَ الله عزَّوجلَّ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ

رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُنَجِّينِي وإياكم، فالأمرُ ليس بهيِّن، فهناك رَقِيبٌ وَعَتِيدٌ على كُلِّ قولٍ تقوله، رَقِيبٌ حَاضِرٌ يكتبُ، فلو قال إنسانٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، والحمدُ لله، ولا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، واللهُ أَكْبَرُ. فإنها تُكْتَبُ، ولو أَنَّ رَجُلًا اغْتَابَ أخاهُ المُسْلِمَ فإن الغيبةَ تُكْتَبُ، ولو أَنَّ الإنسانَ تكلَّمَ بكلامِ اللغو الَّذي ليس فيه خيرٌ ولا شرٌّ فإنه يُكْتَبُ؛ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقَدْ قِيلَ للإمامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو مَرِيضٌ يَتَنُّ مِنْ مَرَضِهِ: إن طأوسا -وهو رجلٌ من كبارِ التابعين- يَكْرَهُ الأَيْنِ فِي المَرَضِ، فَأَمْسَكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ

(١) الزهد والرفائق لابن المبارك (١/ ٥٤٥، رقم ١٥٦٣).

الأنين حتى مات^(١)؛ خوفاً من أن يُكْتَبَ، اللَّهُمَّ أَنْجِنَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.
والأمرُ خطيرٌ، فَمَنْ يُحْصِي الْكَلَامَ الَّذِي يَقَعُ مِنَّا فِي مَجَالِسِنَا وَفِي أَسْوَاقِنَا، وَفِي
مَسَاجِدِنَا، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ! لَكِنَّهُ يُحْصَى.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] أَيُّ شَيْءٍ
غَرَّكَ بِاللَّهِ حَتَّى تَعْصِيَ اللَّهَ وَتُخَالِفَهُ فِيمَا أَمَرَكَ، مَعَ أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ كَرِيمٌ، وَمِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى
أَنَّ الْحَسَنَةَ بَعْشِرَ أَمْثَالِهَا، فَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْحَسَنَةَ
تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضَعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ^(٢). اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَلَيْسَ
هَذَا غَايَةَ الْكَرَمِ، فَهَذَا الْكَرَمُ الْعَظِيمُ، فَمَنْ الَّذِي غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ.
إِذْنًا، ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، وَأَطِعْ رَبَّكَ تَكْسِبِ الْحَسَنَاتِ، وَلَا تُخَالِفْ أَمْرَ اللَّهِ
وَتَقَعُ فِي نَوَاهِيهِ، فَتَقَعُ فِي غَضَبِهِ.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ﴾ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾
[الانفطار: ٧-٨] سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ هَلْ أَحَدٌ يُنْكِرُ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ؟
أَبَدًا، لَا يُمْكِنُ، إِلَّا الْمَكَابِرُ، فَكَلْنَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَنَا، وَلَمْ يَخْلُقْ أَبُوكَ
أَوْ أُمُّكَ أَوْ رِئِيسُكَ، فَمَا خَلَقَكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿فَسَوِّكَ﴾ أَيُّ فِي الْخَلْقَةِ، وَجَعَلَكَ
سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا.

ولهذا لا يوجد أحدٌ من الحيوانِ كَالْإِنْسَانِ مُسْتَقِيمًا، ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أَيُّ: جَعَلَكَ
ذَا عَدَالٍ.

(١) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١١٩/٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء، رقم (٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان،
باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، رقم (١٢٩).

ثم قال: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦]. فليست أنت الذي يختار الصورة، بل من يختارها هو الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

وإذا علمنا ذلك فواجب علينا أن نلجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ أحوالنا؛ في عبادتنا، وفي مُلَمَّاتنا، وفي كلِّ حالٍ، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦٢]؟ لا والله.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ [الانفطار: ٩] انتقال من الأول إلى الثاني، والذين: الجزاء، والذي يُكذِّبُ بالذين هم الكفار، الذين يُنكرون البعث، ويقول قائلهم: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، والجواب: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

ويقولون: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْنَا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]، يعني هل نُبعث ونُدان ونُجازى، هذا زعمهم أنه لا يمكن، والجواب: ممكن، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] في نفخة واحدة ﴿قَالُوا يَنْوَلِّنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ فيُجَابُونَ ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]. سُبْحَانَ الَّذِي على كلِّ شيءٍ قديرٌ، صيحة واحدة يُصاح بهم: اخرجوا، احضروا، فإذا هم جميعٌ لدينا مُحضَرُونَ.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]؛ لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً قال له: كن. فيكون، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ

كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ [القمر: ٥٠]، يعني: ما أمر الله عزَّ وجلَّ للشيء إذا أَرَادَهُ إِلَّا واحدةً كَلَمْحٍ بالبصر، فيكون الشيء كَلَمْحٍ البصر، ونحن لا نتصور شيئاً أسرع من لمح البصر، وهي صيحة واحدة.

إِذْ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالَّذِينَ وَالْجَزَاءِ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ ضَالُّونَ، وأنهم لم يَقْدُرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ، ولم يَعْرِفُوا عِظَمَةَ الله، وإلا لَآمَنُوا بهذا.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿١١﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ هَؤُلَاءِ الحافظون هم الملائكة ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَاعِدٌ﴾ [ق: ١٧]، الله أكبر! ما أعظم عناية الله تعالى بابن آدم! فكل إنسان عنده ملكان؛ واحد على اليمين وواحد على الشمال، يكتبان ما قال وما فعل، لكنهم كرام، لا يمكن أن يظلموا الإنسان، ولا أن ينقصوا من حقه شيئاً؛ لأنهم كرام ﴿كَتِيبِينَ﴾ يعني يكتبون ما قال الإنسان، وما فعل الإنسان.

وهنا قد يَتَنَطَّعُ مُتَنَطَّعٌ، وَيَتَعَمَّقُ مُتَعَمَّقٌ، ويقول: كيف يكتبون؟ بماذا يكتبون؟

بأي قلم؟ وعلى أي صحيفة؟

فنقول: هذا سؤال محرم لا يحل، فكل أمور الغيب لا تُورد عليها سؤالا، وموقفنا من أمور الغيب الإيمان والتسليم، أما بماذا يكتبون وعلى أي شيء يكتبون؟ فهذا لا يحل لنا أن نسأل عنه.

واسمِعْ قول الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ، إمام دار الهجرة، وهو يُقرِّرُ في مسجد

النبي ﷺ، ومعه تلاميذه، جاء رجلٌ وقال: يا أبا عبد الله ﷺ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوِي؟

[طه: ٥]، كيف استوى؟

والاستواءُ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ، وكذلك في الحديث، لكن في الْقُرْآنِ في سبعة مواضع يُقَرَّرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، فنحن نُؤْمِنُ بهذا، ونُشْهِدُ اللهَ وملائكته وأنبياءه وجميع خلقه بأنه اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ جَلَّوَعَلَا.

قال: كيف استوى؟ يريد أن يشرح الإمام مالكٌ رَحِمَهُ اللهُ كيفية استواءِ الله على العرش، وهذا سؤالٌ عظيمٌ وَرَدَ عَلَى قَلْبِ الْإِمَامِ وكأنه أثقلَ حَجَرٍ فِي الْأَرْضِ، فَأُطْرِقَ، وَجَعَلَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فهُؤَلَاءِ سَلَفُنَا الَّذِينَ يَقْدِرُونَ اللهُ حَقَّ قَدْرِهِ، فَجَعَلَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: «يَا هَذَا، الْإِسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»^(١). وغيرُ مجهولٍ يعني أَنَّهُ معلومٌ.

فمعنى اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ: عَلَا عَلَى الْعَرْشِ، وَالْعَرْشُ هُوَ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي نَعْلَمُهَا، وَالسَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ بِالنِّسْبَةِ لِلْكَرْسِيِّ كَحَلْقَةِ أَلْقَيْتُ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! حَلْقَةُ الْمِغْفَرِ صَغِيرَةٌ وَضِيقَةٌ إِذَا أَلْقَيْتُ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَإِنَّهَا تَكُونُ لَا شَيْءَ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكَرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الْحَلْقَةِ^(٢)، سُبْحَانَ اللهِ! هَذَا الْعَرْشُ الْعَظِيمُ اسْتَوَى اللهُ عَلَيْهِ، أَي: عَلَا عَلَيْهِ، لَكِنْ كَيْفَ؟ الْإِمَامُ مَالِكٌ يَقُولُ: «الْكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» يعني: عَقُولُنَا لَا تُدْرِكُ الْإِسْتِوَاءَ كَيْفَ يَكُونُ، «وَالْإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ» أَي بِالْإِسْتِوَاءِ عَلَى مَا أَرَادَ اللهُ، «وَالسُّؤَالُ عَنْهُ» يعني عَنْ كَيْفِيَّتِهِ «بِدْعَةٌ»، فَالْإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَرَّرَ ذَلِكَ فِي سَبْعَةِ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٢٥ / ٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٠٥ / ٢)، رقم (٨٦٧).
(٢) أخرجه ابن حبان (٧٧ / ٢)، رقم (٣٦١) أنه ﷺ قال: «..مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكَرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةِ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكَرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ...».

مواضع من كتابه، والسؤال عنه بدعةٌ لأنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يَسْأَلُوا عَنْ كَيْفِيَّتِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ عندهم من الأدب مع الله ورسوله ما يَمْنَعُهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ الكيفية.

إذن، استوى على العرش يعني علا وارتفع، وكيف استواؤه؟ لا نذري فهو غير معقول، وحكم الإيمان به أنه واجب، وحكم السؤال عنه أنه بدعة. فهذا الذي قاله مالك، وتلقاه الناس بالقبول.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا»، معنى «ما أراك» أي: ما أظنك. واعلم أنه يقال: أرى، ويقال: أرى، فإذا قيل: أرى، فبمعنى أعلم، وإذا قيل: أرى، فبمعنى أظن.

وقد اجتمع هذان في حديث الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام: أُتِيَ بِكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان مريضًا، والقمل يتناثر على وجهه من رأسه، من أجل المرض، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا كُنْتُ أَرَى الْوَجَعَ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى»^(١) يعني بعيني، وأرى الأولى بمعنى أظن، يعني ما كنت أظن أن الوجع بلغ بك لهذه الحال.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا» ثم أمر به أن يُخْرَجَ من مسجد الرسول ﷺ، قال: أخرجوه؛ لأن مثل هذا السؤال سؤال في غير محله، ولا يقع إلا من أهل البدع وأشباههم.

(١) أخرجه البخاري: أبواب المحصر، باب: الإطعام في الفدية نصف صاع، رقم (١٨١٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، ووجوب الفدية لحلقه، وبيان قدرها، رقم (١٢٠١).

وهل كلُّ شيءٍ جديدٌ يُعتبرُ بدعةً؟

نقول: لا، فالآن الساعةُ التي تُلبَسُ لا يُقالُ: إنّها بدعةٌ ويجبُ عليك أن ترميَ بها!! وكذلك الأَقلامُ، إذن البدعةُ هي كُلُّ ما يَتَعَبَّدُ به الإنسانُ لله تعالى ولم تكن في شرع الله. فاضبطِ البدعةَ -يا أخي- لأنّه يَنبَنِي عليها مَسائلُ.

أهلُ العقائدِ الفاسدةِ يَتَعَبَّدُونَ لله بها، يقولون: هذا هو الواجبُ علينا، فالواجبُ أن نُؤوِّلَ كلَّ الصفاتِ إلا ما اسْتَشْنِي عندهم، وآخرون يقولون: الواجبُ أن نُؤوِّلَ جميعَ الصفاتِ. والذين يبتدعون في الدين أذكّاراً أو صلواتٍ أو صياماً يَتَقَرَّبُونَ بذلك إلى الله، لا شكَّ أنّهم ما فعلوا هذا، ولا أَتَعَبَّوْا أَنْفُسَهُمْ، إلا تَقَرُّباً لله عَزَّوَجَلَّ، يعني قَلَّ مَنْ يفعلُ هذا مُراغمةً لأهلِ السُّنة، لكن يتقربون بها إلى الله، فننظرُ هل هذه العباداتُ شرَّعها الله أم لم يشرَّعها، فإن شرَّعها فهي عبادةٌ، وإن لم يشرَّعها فهي بدعةٌ وضلالةٌ.

وهنا نقول: الأصلُ في العباداتِ المنعُ حتّى يقومَ دليلٌ، فالعبادةُ ليست مثلَ المعاملاتِ، ولا مثلَ الصنائعِ، فالعبادةُ وسيلةٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فلا بُدَّ أن يأذنَ اللهُ بها، وإلا فهي باطلةٌ مردودةٌ على صاحبها، ولا يَزْدَادُ بها إلا بُعداً من الله عَزَّوَجَلَّ، قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١). يعني مردوداً على صاحبه، فلا ينفعُه عندَ الله، ولا يُقَرِّبُه إلى الله، بل «كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

ومن أمثلة البدع ما يحدث في شهر رجب، رجب مُضَرَّ إحدى القبائل الكبرى في قريش، وهناك ربيعة لها رَجَبٌ تحرّم فيه القتال، لكنه رمضان، فهما قبيلتان من العرب؛ إحداهما لها رَجَبٌ الحقيقي، وأخرى لها رجب رَمَضان، ورجب من الأشهر الحرم التي هي أربعة أشهر في السنة، وهي ذو القعدة - بالفتح أحسن - وذو الحجة، ومحرّم، ورجب.

فهذه أربعة في الجاهلية يحرمون فيها القتال، ولا أحد يقاتل أحداً، حتى لو رأى الرجل قاتل أبيه فلا يقتله، فهذه الأشهر محترمة عنده؛ لأنّ الأشهر الثلاثة المتوالية أشهر حج، يعني: سفر الناس للحج في ذي القعدة، ومحرّم شهر رُجوعهم، حتى يأمن الناس الذين يذهبون إلى الحج ذهاباً وإياباً، وإن كان المحرم ليس من أشهر الحج؛ لأنّ أشهر الحج تنتهي بانتهاء ذي الحجة، ورجب يعتمرون فيه؛ لأنّه نصف العام: محرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، هذه خمسة، والسادس هو رجب، فرجب تُعَظَّمُه مُضَرُّ، ولهذا قال النبي ﷺ: «وَرَجَبُ مُضَرَّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ»^(١).

وهذا الشهر لا شك أنّه شهر محرّم، ولكن هل يَتميّز بشيء؟

نقول: لا يَتميّز عن الأشهر الثلاثة صاحباته بشيء؛ لا بصيام، ولا بصلاة، ولا بأيّ شيء من الأعمال، اللهم إلا العمرة؛ فقد وردَ عن الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَعْتَمِرُونَ فِيهِ، أمّا غيرُ هذا فلا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣١٩٧)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (١٦٧٩).

مِنَ الْبِدْعِ فِي شَهْرِ رَجَبٍ:

أولاً: صلاة تُسَمَّى صلاة الرَّغَائِبِ، وتكونُ في أولِ ليلةِ جُمُعَةٍ، بين المغربِ والعشاءِ، وهي اثنتا عشرة ركعةً، فهذه بدعةٌ، ولا يحِلُّ للإنسانِ أن يتعبدَ لله بها؛ لأن هذه الصلاة تحتاجُ إلى دليلٍ، وليس هناك دليلٌ، حتَّى إن النّوويَّ رَحِمَهُ اللهُ وهو شافعيُّ المذهبِ أنكرها بشدةٍ، قال: إِنَّهَا بِدْعَةٌ قَبِيحَةٌ مُنْكَرَةٌ^(١). فَوَصَفَهَا بِالْقُبْحِ؛ لأنها شُرِعَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ اللهِ، وأولُ ما أُحْدِثَتْ في القرنِ الرَّابِعِ الهجريِّ، فمضتِ القرونُ الثلاثةُ المفضَّلةُ وما يَعْرِفُونَ هذه الصَّلَاةَ، حتَّى ابْتَدَعَتْ في القرنِ الرَّابِعِ الهجريِّ، فهل يمكنُ أن تُشْرَعَ عبادةٌ بعد موتِ الرَّسُولِ! نقولُ: لا؛ لأنَّ الله يقولُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

فَمَنْ ابْتَدَعَ عِبَادَةً لَمْ تَكُنْ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ فَإِنَّهُ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ؛ لَأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ مِنْ هَذِهِ الْبِدْعَةِ أَنَّ الدِّينَ نَاقِصٌ لَمْ يُكْمَلْ؛ لَأَنَّا نَقُولُ: هَذِهِ الْبِدْعَةُ إِمَّا أَنَّهَا دِينٌ أَوْ غَيْرُ دِينٍ، فَإِنْ قَالَ: إِنَّهَا غَيْرُ دِينٍ قُلْنَا: فَلِمَاذَا تَتَعَبَّدُ لِلَّهِ بِهَا؟ وَإِنْ قَالَ: دِينٌ. فنقولُ: هذا يعني أنك لم تؤمنُ بأنَّ اللهَ أكملَ الدِّينَ، وإلا فلا داعِيَ لَهَا.

ثانيًا: كذلك أيضًا في شهرِ رَجَبٍ أُحْدِثَ بَعْضُ النَّاسِ صَدَقَاتٍ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْهُ، وَحَلَوَى تُقَدَّمُ، وَاحْتِفَالًا يُشَبَّهُ الْإِحْتِفَالَ بِالْعِيدِ، فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا؟! هَلْ كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَصْحَابُهُ يَفْعَلُونَ هَذَا؟ الْجَوَابُ: لَا، إِذَنْ هُوَ بِدْعَةٌ، فَدَعِ الشَّهْرَ يَمُرُّ كغَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ.

ثالثًا: وأُحْدِثَ بَعْضُ النَّاسِ صِيَامَ رَجَبٍ، وَصِيَامُهُ عَلَى الْخُصُوصِ لَمْ يَرِدْ

(١) المجموع شرح المذهب (٥٦/٤).

في حديث عن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولهذا كره الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ إفراد رجب بالصَّوم^(١).

والشَّهْرُ الَّذِي يُكْثَرُ فِيهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الصَّوْمِ غير رمضان هو شَعْبَانُ، فقد كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ الصِّيَامَ فِي شَعْبَانِ، حَتَّى إِنَّهُ يَصُومُهُ إِلَّا قَلِيلًا^(٢).

إذن، ذكرنا في رجب صلاة الرغائب، والصدقات، وإفراده بالصَّوم. رابعًا: يقولون: إن المعراج الَّذِي صار للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان ليلة سبع وعشرين من رجب، فنقول: أين الدَّلِيلُ؟ فلا يوجد دليل، فهذه كتب التاريخ بين أيدينا؛ ابن كثير في (البداية والنهاية) وغيره لم يذكروا أنها في سبع وعشرين من رجب، وإن كانت اشتهرت بعد ذلك بهذا لكن الكلام على الأول، وأقرب ما يكون أن يكون المعراج في ربيع الأول، الشهر الَّذِي بُعِثَ فِيهِ الرَّسُولُ ﷺ، فهذا أقرب ما يكون.

فإحداث احتفال ليلة سبع وعشرين من رجب بناءً على أنها ليلة المعراج هذا خطأ تاريخي وخطأ شرعي، تاريخي لأن ذلك لم يثبت، وتعبدني لأنه حتى لو ثبت أن المعراج في تلك الليلة فإحداث عبادة فيه أو احتفال أو عيد هو بدعة، نقول: هل كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يفعل ذلك؟

أنا أقول لكم: لا، ما كان يحتفل ليلة سبع وعشرين من رجب.

(١) انظر: المغني لابن قدامة (٣/ ١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب صوم شعبان، رقم (١٩٦٩)، ومسلم: كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان، رقم (١١٥٦).

وهل كان جاهلاً بأن ذلك مشروع؟

نقول: لا يمكن أن يكون قائد الأمة، ومن علمه الله ما لم يكن يعلم، أن يكون جاهلاً بشيء من شريعة الله.

إذن، لا يمكن أن يكون جاهلاً، فإن قلت: هو عالم، قلنا: ولماذا لم يفعلها؟ أكون متهاوناً - وحاشاه ذلك - بأمر الله؟ فهذا لا يمكن.

لذلك أنا أنصح إخواني المسلمين من هذا المكان؛ من المسجد الحرام، أن يدعوا هذه الأشياء التي ما أنزل الله بها من سلطان.

والمعراج لا شك أنه بالنسبة للرسول ﷺ هو خير ليلة كانت له فيما نعلم؛ لأنه عُرج به إلى السموات السبع، وكلم الله عز وجل، وفرض الله عليه الصلوات الخمس، وأسري به أيضاً في نفس الليلة من المسجد الحرام؛ من الحجر؛ من الحطيم، أسري به إلى بيت المقدس، فاجتمع بالأنبياء، كل الأنبياء اجتمع بهم، وصلى بهم إماماً عليه الصلاة والسلام، وهو آخرهم بعثاً، وفيهم من هو أكبر منه سنّاً مثل نوح؛ وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومع ذلك تقدمهم عليه الصلاة والسلام وصلى بهم إماماً، وعُرج به إلى السموات السبع، كلما مرّ بسماء خاطبه من أراد الله أن يخاطبه، وبعدما يرُد السلام يقول: «مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»، إلا آدم فقال: «مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»، وكذلك إبراهيم عليهما السلام^(١).

وعاد من السموات السبع إلى الأرض، وجاء إلى مكة في ليلة واحدة، لا إله

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء، رقم (١٦٣).

إِلَّا اللَّهُ! مَنْ يَصِلُ إِلَى هَذَا الْمَدَى إِلَّا بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

إذن، ذكرنا في رجب صلاة الرغائب، والصدقات، وإفراذه بالصيام، وليلة المعراج.

أقول لكم هذا وأنا أعلمُ أني مسؤولٌ أمامَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، أقول: هذه كُلُّهَا لا أصلَ لها، وَمَنْ أَرَادَ النِّجَاةَ وَالسَّلَامَةَ فَلْيَقْتَصِرْ عَلَى مَا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَفْعَلُونَهُ، وَكَفَى بِنَا عَمَلًا، وَكَفَى بِهِمْ أُسْوَةً، وَأَرْخِ نَفْسَكَ يَا أَخِي.

والعجبُ أن كثيرًا مِمَّنْ هُمْ نَشِيطُونَ فِي هَذِهِ الْبِدْعِ أَنَّكَ تَرَاهُمْ لَا يَتَسَابِقُونَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ الْوَاضِحَةِ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ، فبَعْضُهُمْ يَرِيدُ الْخَيْرَ لَكِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ، يَعْنِي لَا تَظَنَّ أَنَّ كُلَّ مُبْتَدِعٍ يَرِيدُ الشَّرَّ، فبَعْضُهُمْ يَرِيدُ الْخَيْرَ، وَعَلَامَةٌ مَنْ يَرِيدُ الْخَيْرَ أَنَّهُ إِذَا ذُكِّرَ وَنُبِّهَ رَجَعَ إِلَى الْحَقِّ، وَقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ.

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى فِي هَذَا الْمَكَانِ أَنْ يَهْدِيَ إِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ لِاتِّبَاعِ السَّنَةِ وَالْإِبْتِعَادِ عَنِ الْبِدْعَةِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

استطردنا في ذلك من أجل قول الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا». قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢] فلا يَخْفَى عَلَيْهِمْ، فَكُلُّ فِعْلٍ تَفْعَلُهُ فَهُمْ يَعْلَمُونَهُ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَكْتُبُونَهُ.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿[الانفطار: ١٣-١٤].

هذان صنفان من النَّاسِ لَا ثَالِثَ لِهَما، فَكُلُّ بَنِي آدَمَ إِمَّا بَرٌّ وَإِمَّا فَاجِرٌ. وَدَلِيلُ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وقال تعالى في يوم القيامة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ
 تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ
 لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا
 زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ
 فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴿١٠٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
 وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ ﴿١٠٩﴾ [هود: ١٠٣-١٠٨] فذكر أن الناس في ذلك
 اليوم منهم شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ، فلا ثالثَ لهما أبداً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ يعني الكفار،
 فالأبرار في نعيم -اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْأَبْرَارِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْأَبْرَارِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا
 مِنَ الْأَبْرَارِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ- وهذا النعيم في الدنيا والآخرة، فلا أحدَ أَنْعَمَ بآلَا مِنْ
 أَهْلِ الْبِرِّ، وَلَا أَطِيبُ قَلْبًا مِنْ أَهْلِ الْبِرِّ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ
 وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالسُّرُورِ لَجَالَدُونَا بِالسُّيُوفِ»^(١).

وقال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ
 خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ
 أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢). فلا أحدَ أَنْعَمَ مِنَ الْمُؤْمِنِ.

ويَدُلُّ لهذا أيضًا قولُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى
 وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ هذا في الحياة الدنيا، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْإِيمَانَ يَا رَبَّ

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (ص: ٨١، رقم ٨٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

العالمين ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. فتأملوا كلام الله عزَّوجلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾. ما قال: فلنؤفِّرَنَّ له المال، ولا قال: فلنُثْرِفَنَّهُ في الدنيا، بل قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾. حتَّى ولو كان لا يجدُ درهمًا فحياته طيبة. وفي الآخرة يقول: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وهذا أحسن ما يكون من الجزاء.

إذن، الأبرارُ في نعيمٍ في الدنيا والآخرة، اللهم اجعلنا من الأبرار.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ وهم الكفار ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ في الدنيا وفي الآخرة.

فإن قال قائل: إننا لا نرى الكفار الآن تتسعَّرُ بهم النارُ حتَّى يكونوا في

جحيم؟

قلنا: في قلوبهم، يعني لو فتَّشتَ في قلبِ الكافرِ لوجدته في جحيم، ولو كان في أكثر ما يكون من الترفِ البدنيِّ، فالنعيمُ نعيمُ القلبِ، أما نعيمُ البدنِ فهو ترفٌ ماله التلَفُ، فهم في جحيمٍ في الدنيا بما يحدثُ في قلوبهم من الظُّلمةِ والوَخْشَةِ من الله، والوَخْشَةِ من الخلقِ، وسوءِ الظنِّ بالله، وغير ذلك.

وفي الآخرة في جحيم، وهذا ما فيه إشكال، وهذا كلامُ الله عزَّوجلَّ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]؟ لا أحد. فالله عزَّوجلَّ أخبرَ عن هذا، فاخترَ أحدَ الأمرين، فماذا تختارُ: أن تكونَ مع الأبرارِ أم مع الفُجَّارِ؟ نقول: مع الأبرارِ، لا شك، فكلُّ إنسانٍ يَتَمَنَّى هذا ويسأل الله.

لكن لا تعتمدِ على نفسك، واسأل الله الثبات، إِنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ لما أُخْبِرَ أَنَّهُ

ما من قلبٍ من قلوبِ بني آدمَ إلا وهو بينُ أَصْبُعَيْنِ من أصابعِ الرحمنِ يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، قالَ هو ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»^(١).

فَمَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُثَبِّتَهُ، فَإِنْ لَمْ يُثَبِّتْكَ اللَّهُ هَلَكْتَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَضْرِبُكَ بِالسَّهَامِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، إِنْ رَأَى مِنْكَ إِقْبَالًا عَلَى الطَّاعَةِ أَصَابَكَ بِالْوَسْوَاسِ، وَإِنْ رَأَى مِنْكَ إِدْبَارًا أَصَابَكَ بِالتَّأْثِيرِ، فَاصْحُ وَانْتَبِهْ.

وَكثِيرٌ مِنَ النَّاسِ التَّزَمُوا وَأَقْبَلُوا عَلَى اللَّهِ، فَجَاءَهُمُ الشَّيْطَانُ يُوسُوسُ لَهُمْ وَسَاوِسَ لَا يَمْكِنُ أَنْ تُذَكَّرَ، وَسَاوِسُ مُحِبُّ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَقَعَ مِنَ السَّمَاءِ وَيَمُوتَ، أَوْ يُحَرِّقَ، وَلَا يَتَكَلَّمُ بِمَا عِنْدَهُ، وَهَذَا أَمْرٌ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَالصَّحَابَةُ قَالُوا: «إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ» يَعْنِي مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالشُّكُوكِ وَمَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^(٢). أَيِ خَالِصِ الْإِيمَانِ.

وَمَعَ هَذَا أَيْضًا أَمَرَنَا ﷺ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ بِأَمْرَيْنِ هُمَا الدَّوَاءُ، قَالَ: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَه»^(٣). فَإِذَا أَصَابَتْكَ هَذِهِ الشُّكُوكُ فَقُلْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَأَعْرِضْ عَنْهَا وَانْتَهْ عَنْهَا، وَانْسَهَا، وَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ سَتَزُولُ عَنْكَ.

وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَشْكُونَ مِنْ هَذِهِ الْوَسَاوِسِ حِينَ التَّزَمُوا، فَنَقُولُ: اثْبُتْ، وَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْهَا، وَتَنَاسَهَا حَتَّى تَزُولَ عَنْكَ بِإِذْنِ اللَّهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب

الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

وليس لهذه الوسائس دواءٌ إلا هذا الذي قال الرسول ﷺ.

قيل لابن مسعودٍ أو ابن عباسٍ: إن اليهود يقولون: نحن لا نوسوس في صلاتنا... ومعنى لا نوسوس: لا نفكر، فإذا دخلوا لصلاة حَضَرَتْ قُلُوبُهُمْ، والمسلمون يُوسوسون في الصلاة، وسُبْحَانَ اللَّهِ! يُوسوس في أشياء ما فيها فائدة، وإذا انتهت الصلاة راحت الوسائس، ثم إذا وسوس بشيء وحاول أن يُثَبِّت نفسه انفتح عليه شيء آخر، فصارت صلاته هكذا وسائس، فيصلي جسداً، ولا يصلي قلباً.

اليهود يريدون أن يُراغموا المسلمين فقالوا: نحن نُصلي ولا نوسوس. ف قيل لابن مسعودٍ أو ابن عباسٍ: إنهم يقولون هكذا، فأجاب بجوابٍ عجيب، قال: «صَدِّقُوا، وَمَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ بِقَلْبِ خَرَابٍ»^(١)؟! الله أكبر! يعني قلوبهم خربةٌ فما يجيء الشيطان ليوسوس لها؛ لأنها خرابٌ، فهل أحدٌ من الناس يأتي إلى خرابٍ لِيَسْكُنَهُ! لكنه يَسْكُنُ العمار.

إذن، الشيطان فرغ منهم، فقلوبهم خربةٌ، فلا يأتي يوسوس إليهم.

قوله: ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۖ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٥-١٦].

فعلينا -أيها الإخوة- أن نعرف أن الناس ينقسمون إلى قسمين: برٌّ وفاجر، فالأبرار دائماً في نعيم، والفجَّار دائماً في جحيم، ثم النهاية، وهو الجحيم الأكبر يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ كما قال في آية أخرى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، فيبقون فيها أبداً الأبد،

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/٦٠٨) عن بعض السلف.

إلى ما لا نهاية له؛ لأنَّ الدَّلِيلَ في تَأْيِيدِ النَّارِ قَطْعِيٌّ، والأقوالُ الشَّاذَّةُ لا عِبْرَةَ بها.
وفي القرآن الكريم ثلاثُ آياتٍ صريحةٌ في أَنَّ أَهْلَ النَّارِ خَالِدُونَ فيها أَبَدًا:
الآيَةُ الأولى: في سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩].

الآيَةُ الثَّانِيَةُ: في الْأَحْزَابِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].
الآيَةُ الثَّالِثَةُ: في الْجَنِّ: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وبعدَ ثلاثِ آياتٍ من كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُخَبِّرُ بها بتأييدِ خلودِ أَهْلِ النَّارِ فيها؛ لا يُمكنُ أن نقولَ: إنَّهم لا يُخلَّدون أَبَدًا، ونحن لا نَحْكُمُ على أمورِ الغيبِ إلا بما أخبرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا كان من عقيدةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ خَالِدُونَ فيها أَبَدًا، وأنَّ أَهْلَ النَّارِ خَالِدُونَ فيها أَبَدًا. أَجَارَنَا اللهُ وإياكم منها.



الدرس الثالث:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي
اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ،
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] يعني انشَقَّتْ، وذلك يومَ
القيامة.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ اُنْثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] يعني تفرَّقت بعد أن كانت مُجْتَمِعَةً.
﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ [الانفطار: ٣] بعد أن كانت ممسوكَةً، فالآن الْبِحَارُ ممسوكَةٌ،
فلا تَرَى جِدَارًا يُمَسِّكُهَا، هي على سَطْحِ الْأَرْضِ، ومع ذلك أُمْسِكُهَا بِقُدْرَتِهِ رَبُّ
العالمين، فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَتَفَجَّرُ.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤] يعني نُشِرَ أَهْلُهَا وَخَرَجُوا مِنْهَا، وذلك يومَ
القيامة فَإِنَّ الْقُبُورَ تُبْعَثَرُ.

إِذَا حَصَلَ هَذَا ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] يعني عَلِمَتْ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، يبدو ذلك في صحائفِ أَعْمَالِهِ، ويلقى
كِتَابًا مَنْشُورًا فيُقَالُ لَهُ: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ① الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ

فَعَدَلَكَ ﴿[الانفطار: ٦-٧] ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] أَي: فِي أَيِّ صُورَةٍ شَاءَهَا رَكَّبَكَ عَزَّجَلَّ، لَيْسَ مِنْ كَدِّ أُمَّكَ، وَلَا مِنْ كَدِّ أَبِيكَ، أَيُّ شَيْءٍ غَرَّكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ بِرَبِّكَ؟ يُغَرُّ الْإِنْسَانُ بِرَبِّهِ شَيْئَانِ: الدُّنْيَا وَالشَّيْطَانُ، كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، هَذَا الَّذِي يُغَرُّ الْإِنْسَانُ بِرَبِّهِ حَتَّى يَنْسَى فَضْلَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، بَلْ وَيَنْسَى كَيْفَ خُلِقَ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٦].

﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أَي: أَوْجَدَكَ مِنَ الْعَدَمِ، ﴿فَسَوَّكَ﴾ أَي: جَعَلَكَ سَوِيًّا لَا نَقْصَ فِيكَ، ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أَي: جَعَلَكَ مُسْتَقِيمًا تَقِفُ عَلَى قَدَمَيْكَ، وَالْبَهَائِمُ عَلَى أَرْبَعٍ، وَعَلَى أَكْثَرٍ مِنْ أَرْبَعٍ، وَفِيهِمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رَجْلَيْنِ، وَقِيلَ: مَعْنَى عَدَلَكَ أَي جَعَلَكَ مُسْتَقِيمًا فِي الصُّورَةِ عَلَى أَحْسَنِ شَيْءٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨].

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ [الانفطار: ٩] أَي: بِالْجُزْءِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كُنِينًا ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] هَؤُلَاءِ الْحَفَظَةُ جَعَلَهُمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ حَفَظَةً عَلَى الْإِنْسَانِ، يَكْتُبُونَ مَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَاقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَنْتَلَقَى التَّلَاقِيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٦-١٧] وَاحِدٌ عَلَى الْيَمِينِ، وَوَاحِدٌ عَلَى الشِّمَالِ، الَّذِي عَلَى الْيَمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ، وَالَّذِي عَلَى الشِّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ مَعَهُ مَلَكَانِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ [ق: ١٨] يَعْنِي: أَيُّ لَفْظٍ يَلْفِظُ بِهِ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ

رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ق:١٨﴾ ﴿رَقِيبٌ﴾ يعني: مُرَاقِبٌ لَا يَتْرُكُ شَيْئًا، ﴿عَتِيدٌ﴾ حَاضِرٌ لَا يَغِيبُ يَكْتُبُ كُلَّ قَوْلٍ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! أَيَّ قَوْلٍ يَكْتُبُ؟! اَسْمَعْ يَا أَخِي، إِنَّ حَمْدَتَ اللَّهِ كَتَبَ، وَإِنْ قَرَأْتَ الْقُرْآنَ كَتَبَ، وَإِنْ أَمَرْتَ بِالْمَعْرُوفِ كَتَبَ، وَإِنْ نَهَيْتَ عَنْ مُنْكَرٍ كَتَبَ، كُلُّ قَوْلٍ يُكْتُبُ.

والإنسانُ على خَطَرٍ، إِذَا كَانَ كُلُّ قَوْلٍ يُكْتُبُ فَاَلْمَسْأَلَةُ خَطِيرَةٌ جَدًّا، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ أَنْصَحُ الْخَلْقِ لِلْخَلْقِ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١)، لِئَلَّا يُكْتُبَ عَلَيْهِ.

وَإِذَا تَكَلَّمَ الْإِنْسَانُ بِقَوْلٍ مُحَرَّمٍ كَالشَّتَمِ وَاللَّعْنِ وَالْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ يُكْتُبُ، وَالدَّلِيلُ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ﴿ق:١٨﴾ أَيَّ قَوْلٍ يَكُونُ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿ق:١٨﴾ يَكْتُبُهُ.

فَإِذَا لَقِيتَ أَخَاكَ وَقُلْتَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ. يُكْتُبُ لَكَ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَا أَكْثَرَ مَا فَرَّطْنَا فِي الْحَسَنَاتِ، مَا أَكْثَرَ مَا لَقِينَا إِخْوَتَنَا وَلَمْ نُسَلِّمْ، بَلْ إِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِذَا سَلَّمَ الْإِنْسَانُ عَلَى شَخْصٍ اسْتَنْكَرَ، فَالسَّلَامُ الْآنَ أَصْبَحَ مَجْهُولًا بَيْنَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَعَ الْأَسْفِ الشَّدِيدِ.

وَلَوْ كَانَ رَجُلٌ فِيهِ مَرَضٌ فَهُوَ يَتْنُ مِنْ مَرَضِهِ فَيُكْتُبُ هَذَا الْأَنِينُ، فَذَكَرَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ يُكْتُبُ، «دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ فِي مَرَضِهِ فَوَجَدَهُ يَتْنُ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ طَاوَسًا يَقُولُ: إِنَّ أُنَيْنَ الْمَرِيضِ يُكْتُبُ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، رَقْمُ (٦٠١٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْحَثِّ عَلَى إِكْرَامِ الْجَارِ وَالضَّيْفِ، رَقْمُ (٤٧).

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. فأمسك الإمام أحمد رحمه الله عن الأئين^(١).

وطاوس من التابعين مشهور، فأمسك عن الأئين خوفاً من أن يكتب عليه. إذا دار الأمر بين أن تقول أو لا تقول، فالأفضل ألا تقول، لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».

﴿كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ﴾ ① ﴿وَيَنْ عَلَيْكُمْ لِحَفِظِينَ﴾ ② ﴿كِرَامًا كَنِينٍ﴾ [الانفطار: ٩-١١] انظر كيف وصفهم الله بالكرم، يعني ليس عندهم ظلم، ولا يحملون الإنسان ما لم يقله، ولا ينقصون عما يقوله، بل هم كرام كاتبون.

ولو سأل سائل: هل معنى ذلك أنهم معهم قلم وقرطاس؟

نقول: الله أعلم، علينا أن نصدق، وليس علينا - بل وليس لنا - أن نسأل عن كيفية ذلك، فانتبهوا لهذا الأمر، أمور الغيب صدق بها إن كنت تريد السلامة، ولا تبحث عنها، هذه نصيحتي لكم.

لما خلق الله القلم قال له: «اكتب». قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة^(٢)، وذلك في اللوح المحفوظ، فإذا جاء من يسأل: من أين القلم هذا؟ أم من حديد أم من رصاص أم من صفر؟ نقول: يا أخي الله أعلم، لا تسأل، صدق بقلم كتب ولا تسأل.

(١) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١١٩/٢).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ن، رقم (٣٣١٩).

أو جاء آخر يسأل يقول: من أي شيء هذا اللوح؟ أمن خشب، أو من حجارة، أو من حديد؟ نقول: الله أعلم، واسكت عما تذكر.

ثم يأتي من يسأل فيقول: كيف يسع هذا اللوح كل ما يكون إلى يوم القيامة؟ كيف يكون كبره؟ نقول: الله أعلم، ولا تسأل هذا السؤال، آمن ولا تسأل.

والحمد لله الذي أرانا ونحن أحياء أن الشيء الصغير يستوعب شيئاً كثيراً وهو صغير، في لوح من معدن على قدر القرص الصغير يسجل فيه ملايين الكلمات، التفسير بجميع مؤلفاته، والحديث بجميع مؤلفاته، وهو قرص صغير من صنع البشر، فكيف يصنع الله عز وجل الذي أتقن كل شيء.

في قول الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾، أي أهل الجنة، ﴿عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿[الصافات: ٥٠-٥١] يَعْني صديق في الدنيا، ﴿يَقُولُ﴾ أَيْنَكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿[الصافات: ٥٢-٥٣]، يعني يقول له: لا تُصَدِّقُ أنك ستبعث بعد أن تكون تراباً وعظاماً، كيف تُصَدِّقُ؟! هذا قرينه في الدنيا، قال الرجل من أهل الجنة: ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلِعُونَ﴾ [الصافات: ٥٤] قالوا: نعم، فمَشَوْا، ﴿فَاطْلَعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]، أي في قرار النار في أسفل السافلين وهو في أعلى عليين، قال له: ﴿تَاللَّهِ﴾، يعني والله ﴿إِنْ كِدْتَ لِتُزَيِّنَ﴾ ٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿[الصافات: ٥٦-٥٧].

بعض الناس قال: كيف يرى هذا في أعلى عليين، وهذا في أسفل السافلين؟ كيف يتكلم معه؟! نقول: الله على كل شيء قدير، صدق ولا تبحث، وأرانا الله سبحانه وتعالى ذلك من صنع البشر في الإنترنت، فترى صاحبك ومحدثه، كأنك في

مجلسه، سَمِعْنَا بِهِ، وَلَمْ نَرَهُ، وَهَذَا مِنْ صُنْعِ الْبَشَرِ فِي أَقْصَى مَكَانٍ يُشَاهِدُهُ وَيَتَكَلَّمُ
مَعَهُ كَأَنَّهُ جَالِسٌ مَعَهُ، هَذَا وَهُوَ مِنْ صُنْعِ الْبَشَرِ، فَكَيْفَ بَصْنَعِ اللَّهِ؟! وَلِذَلِكَ
لَا تَسْأَلُوا عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ.

وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الْخَلَائِقِ قَدَرِ مِيلٍ، وَلَا يَحْتَرِقُونَ، فِي الدُّنْيَا
لَوْ دَنَتِ الشَّمْسُ عَنْ مَرْكَزِهَا شَعْرَةً وَاحِدَةً لَأَحْرَقَتِ الْأَرْضَ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هِيَ
عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ قَدَرِ مِيلٍ، وَلَا تَحْرِقُهُمْ، لَا تَقُلْ: كَيْفَ؟ فَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،
أَلَيْسَ النَّاسُ يَقْفُونَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَافِيَةً أَرْجُلَهُمْ عَارِيَةً أَجْسَامُهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ
طَعَامًا، وَلَا شَرَابًا، وَلَا نَوْمًا، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِمْ مَشَقَّةٌ شَدِيدَةٌ إِلَّا عَلَى الْمُؤْمِنِ، اللَّهُمَّ
اجْعَلْنَا مِنْهُمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَهُوَ يَسِيرٌ.

وَيَأْتِي أَحَدُهُمْ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وَيَسْأَلُ:
مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ هَذَا الْعَرْشُ؟ أَمِنْ ذَهَبٍ؟ أَوْ مِنْ لَوْلُؤٍ؟ أَوْ مِنْ نُحَاسٍ؟ نَقُولُ:
اسْكُتْ لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ، أَمِنْ بَعَرَشٍ عَظِيمٍ، وَلَا تَقُلْ: كَيْفَ هُوَ؟ وَلَا مِنْ أَيْنَ هُوَ؟
ثُمَّ يَسْأَلُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ يَقُولُ: مَا مَعْنَى اسْتَوَى؟
وَكَيْفَ اسْتَوَى؟ نَقُولُ: اسْكُتْ، لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ، أَمِنْ بِأَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ،
أَيَّ عِلًّا عَلَيْهِ وَلَا تُجَاوِزْ هَذَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: مَعْنَاهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ. نَقُولُ: كَذَبْتَ، أَتَقُولُ: اسْتَوَى عَلَى
الْبَعِيرِ؟ أَتَقُولُ: اسْتَوَى عَلَى السَّمَاءِ؟ أَتَقُولُ: اسْتَوَى عَلَى الْأَرْضِ؟ لَا، لَا يَسْتَقِيمُ هَذَا،
اسْتَوَى: أَيَّ عِلًّا عَلَى الْعَرْشِ عُلُّوا حَقِيقًا كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْ
الْكَيْفِيَّةِ.

وأذكر قصة عجيبة تدلُّ على شدة تعظيم السلفِ لرب العالمين، وأنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مَرَّاحِلٌ عظيمة، سأل الإمام مالكا رَجُلٌ وَهُوَ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ * كيف استوى؟ قد يكون سَيِّئَ النِّيَّةِ، وقد يكون جاهلاً حقيقةً، المهم أن مالكا رَحِمَهُ اللَّهُ أَطْرَقَ برأسه حتى علاه الرَّحَضَاءُ -أي العرق- مِنْ شِدَّةِ هَذَا السُّؤَالِ، هَذَا السُّؤَالُ مَا يَسْأَلُهُ إِلَّا إِنْسَانٌ مَتَجَرِّئٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ كَلِمَتُهُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُكْتَبَ بِهَاءِ الذَّهَبِ عَلَى صَفْحَاتِ الْفِضَّةِ، قَالَ لَهُ: «يَا هَذَا، الْإِسْتَوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ» يعني: معلومٌ وَهُوَ الْعُلُوُّ عَلَى الشَّيْءِ «وَالْكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» يعني: ما نعقله ولا نستطيعُ «وَالْإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ»، الْإِيْمَانُ بِالْإِسْتَوَاءِ وَاجِبٌ لِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَهُ فِي الْقُرْآنِ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ، «وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»، لِأَنَّ السَّلَفَ مَا سَأَلُوا عَنْهُ، وَلِأَنَّ السُّؤَالَ عَنْهُ مِنْ دَيْدَنِ أَهْلِ الْبِدْعِ، قَالَ: «وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا». ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ مِنَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ^(١).

أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ تَعْزِيرًا لَهُ، وَإِذْلَالًا لَهُ، وَإِنْ كَانَ لِلنَّاسِ الْحَقُّ فِي الْجُلُوسِ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ، لَكِنْ أَخْرَجَهُ لِأَنَّ هَذَا مُضِلٌّ يُضِلُّ النَّاسَ، فَاللَّهُمَّ ارْضَ عَنْ مَالِكٍ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا اتِّبَاعَ آثَارِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ.

إِذْنًا، عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَأَنْ نُؤْمِنَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، أَوْ أَخْبَرَ عَنْ رَسُولِهِ، وَعَلَيْنَا أَنْ نَلْقَى اللَّهَ عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ، أَنْشُدْكُمْ اللَّهُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، أَنْ تَبْقَوْا عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ، إِنَّ الرَّحْمَنَ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى أَيَّ عِلَاوًا

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ (٦/ ٣٢٥)، وَابِيهَقِي فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ (٢/ ٣٠٥، رَقْم ٨٦٧).

يليق بجلاله، وَلَيْسَ معناه اسْتَوَى، فإن هذا كذبٌ على اللغة العربية، والقرآنُ نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ، وهذا أيضًا جنايةٌ على النصِّ من وجهين:

الوجه الأول: أنه إنكار على المعنى الذى دَلَّ عليه.

الوجه الثاني: إثبات معنى لم يدُلَّ عليه، فصار جنايةً في الإثبات، وجنايةً في

النفى.

أخي المسلم، لا تَمُتْ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ، إِنَّ اللَّهَ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ، أَيْ: عَلَا عَلَيْهِ عَزَّجَلَّ عَلُوا يَلِيقُ بجلاله، وَلَيْسَ معناه اسْتَوَى.

وهناك أدلةٌ في القرآن واللغة تدلُّ على ذلك، منها قولُ الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨] (استويتَ) معناها علوتَ عليه، واستقررتَ فيه.

واسْمَعْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ١٢ ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٣] معنى ﴿اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿عَلَوْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ولا إشكال، ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ ﴿تَرْكَبُ عَلَى ظَهْرِ الناقَةِ، وعلى ظَهْرِ السفينة، وعلى ظَهْرِ السيارة، وعلى ظَهْرِ الطائرة، كل هذه دخلت في الْفُلْكِ، فالْفُلْكَ يشملُ ثلاثة أنواع: فُلْكَ جَوِّيٍّ، وفُلْكَ بَحْرِيٍّ، وفُلْكَ بَرِّيٍّ، فالْفُلْكَ الْجَوِّيُّ الطَّائِرَاتُ، وَالْبَحْرِيُّ السُّفُنُ، وَالْبَرِّيُّ السَّيَّارَاتُ، أما الْأَنْعَامُ فظَاهِرٌ، وهي الْإِبِلُ، وما يركبُ مِنَ الْبَهَائِمِ.

فالواجبُ علينا أَنْ نَلْقَى اللَّهَ بِعَقِيدَةٍ هِيَ أَنْ اسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ يَعْنِي عُلُوَّهُ

عليه، وَلَيْسَ اسْتِيلَاءَهُ عَلَيْهِ.

إذا قلت: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] إذا قلت: استوى على العرش. فلمن يكون ملك العرش قبل هذا الاستيلاء؟! هل لآخر صار بينه وبين الله معركة واستوى عليه الله وأخذه منه، أهذا معقول؟! و(ثُمَّ) هذه للترتيب لمهلة، خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، كيف تقول استوى؟

ثم نسأل: هل الأرض والسماء ملك لله؟ الجواب: كل شيء ملك لله، إذن، قل: إِنَّ اللَّهَ اسْتَوَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وهذا لا يقوله أحد، فهل تقول: استوى على ظهر الناقة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] فهو عالٍ على كل شيء، كل المخلوقات تحته عَزَّوَجَلَّ، قال النبي ﷺ: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ»^(١). عالٍ على كل شيء بنفسه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

أدلة علو الله تعالى:

أدلة العلو خمسة أنواع: كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وإجماع الصحابة، والعقل، والفطرة.

أولاً: الكتاب: الأدلة في القرآن كثيرة على وجوه متنوعة، منها قول الله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] الأعلى اسم تفضيل، يعني فوق كل شيء، وقال الله

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] الْعَلِيُّ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ تَقْتَضِي الثُّبُوتَ والاستمرار.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] ويعني نفسه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥] يعني يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ. وَقَالَ تَعَالَى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وَقَالَ تَعَالَى ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] أي تصعد.

فالأدلة كثيرة، لا تكاد تُحصى كثرةً في القرآن الكريم، والمتكلم بالقرآن هو الله تَعَالَى، وَهُوَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَنْ نَفْسِهِ بِشَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ حَقٌّ؛ لَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِهِ.

ثانياً: السُّنَّة: السُّنَّة دَلَالَتُهَا عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ وَجْهِهِ: الأول: قولية، والثاني:

فعلية، والثالث: إقرارية:

أما القولية فلقد قال النَّبِيُّ ﷺ لأصحابه لِيَرُدُّوا عَلَى أَبِي سُفْيَانَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، لَمَّا قَالَ: اْعْلُ هُبْلُ، قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ»^(١). وكان يقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»^(٢). ويقول ﷺ فِي رُقِيَةِ الْمَرِيضِ: «رَبُّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ»^(٣). والأحاديث في هذا كثيرة.

(١) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب السير، باب التعبئة، رقم (٨٥٨١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٦).

أما الفعلية: فقد جاءت في مناسبة الحج، في حجة الوداع، حين خطب النبي ﷺ المسلمين يوم عرفة خطبة عظيمة بليغة، ثم قال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قالوا: نعم. قال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قالوا: نعم. قال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قالوا: نعم. ثلاث مرات، فقال بأصبعه الكريمة يرفعها إلى السماء: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»^(١)، يَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ، يعني يردُّهَا إِلَيْهِمْ، «اللَّهُمَّ» يرفعُ أَصْبَعَهُ فَوْقَ، «اشْهَدْ» يَشِيرُ بِهَا تَحْتَ عَلَى هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ أَقْرَأُوا بِالْبَلَاغِ.

ونحن نُشْهَدُ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ، وَجَمِيعَ خَلْقِهِ أَنْ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ أَتَمَّ بِلَاغٍ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَنْ يَجْزِيَهُ عَنَا خَيْرًا.

الإقرارية: معاوية بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ لَهُ جَارِيَةٌ مَمْلُوكَةٌ غَضِبَ عَلَيْهَا يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ فَصَكَّهَا، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا غَضِبَ مَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ، فَندَمَ عَلَى مَا فَعَلَ وَأَرَادَ أَنْ يَعْتِقَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتْنِي بِهَا». فجاءت الجارية فقال لها النبي ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَيْنَ اللَّهُ؟»، و(أَيْنَ) يُسْتَفْهَمُ بِهَا عَنِ الْمَكَانِ، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. جَارِيَةٌ مَا تَعَلَّمَتْ، وَلَا دَرَسَتْ، لَكِنَّا الْفِطْرَةُ، قَالَ لَهَا: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»^(٢). وهذه دَلَالَةٌ إِقْرَارِيَّةٌ، أَقَرَّهَا، لَمْ يَقُلْ: كَفَرَتْ بِهَذَا، وَلَمْ يَقُلْ: كَذَبَتْ، بَلْ قَالَ: «إِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». لَهَا قَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ.

ثالثا: إجماع الصحابة: أجمع الصحابة - وهم خير الأمة وسلف الأمة وقادة الأمة - عَلَى أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ، أَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَعَلِمْنَا إِجْمَاعَهُمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٥)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (١٦٧٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

بأنهم لم يأت عن واحدٍ منهم حرفٌ واحدٌ يقول: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ. وهم يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، فما قال أحدٌ منهم يوماً من الأيام: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْتَوْ عَلَى الْعَرْشِ، وَلَيْسَ فِي السَّمَاءِ. أبداً، وهذا يعني أنهم أَجْمَعُوا على هذا.

وهذه قاعدةٌ أَرْفُهَا لَطَالِبُ الْعِلْمِ، أَنَّكَ إِذَا لَمْ تَجِدْ فِي كَلَامِ الصَّحَابَةِ مَا ظَاهِرُهُ يُخَالِفُ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ، فهذا إجماعٌ منهم؛ لأنَّ الصَّحَابَةَ يَعْرِفُونَ مَعْنَى الْقُرْآنِ، نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ، وَفِي عَصَرِهِمْ، وَفِي الْأَحْوَالِ الَّتِي يُشَاهِدُونَ فِيهَا النُّزُولَ، فَهَمَّ أَعْلَمُ النَّاسِ بَكِتَابِ اللَّهِ لَا شَكَّ، فَإِذَا لَمْ يَرِدْ عَنْهُمْ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ، أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ دَاخِلَ الْعَالَمِ، وَلَا خَارِجَهُ، وَلَا مُتَصِلًا، وَلَا مُفَصَّلًا، وَلَا مُبَايِنًا، وَلَا مُحَايِدًا، إِلَى آخِرِهِ، عَلِمْنَا أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ إِلَّا بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَكَلَامُ النَّبِيِّ ﷺ.

فهذا تقريرُ إجماعِ الصَّحَابَةِ فهو دليلٌ في هذه الصِّفَةِ وفي غيرها مِنَ الصِّفَاتِ.

رابعاً: العقل: دَلَالَةُ الْعَقْلِ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ، أَسْأَلُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ، أَيُّهُمَا أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ الْعُلُوُّ أَوْ النُّزُولُ؟ الْعُلُوُّ طَبْعًا، وَلِهَذَا فَإِنَّ النَّاسَ يَمْدَحُونَ الشَّيْءَ بِأَنَّهُ عَالٍ، يَقُولُونَ: وَاللَّهِ هَذَا كَلَامٌ عَالٍ مِمَّا تَرَى، هَذَا طَعَامٌ عَالٍ مِمَّا تَرَى. فَالْعُلُوُّ بَلَا شَكٍّ أَنَّهُ صِفَةُ كِمَالٍ، فَهَلْ تَرْضَى أَنْ تُنْكَرَ صِفَةُ الْكِمَالِ عَنِ اللَّهِ؟ بِالطَّبَعِ لَا تَرْضَى، فَالْعَقْلُ يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْعُلُوَّ صِفَةُ كِمَالٍ، وَالسُّفْلُ صِفَةُ نَقْصٍ.

خامساً: الْفِطْرَةُ: الْفِطْرَةُ هَذِهِ مَا فُطِرَ عَلَيْهِ الْخَلْقُ، أَنْتَ لَوْ لَمْ تَقْرَأْ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ. مِثْلًا لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِكَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ، وَلِهَذَا نَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ يُنْكَرُونَ أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ يَقُولُونَ: الْآنَ أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي وَعَجَائِزِ نَيْسَابُورَ، الْفِطْرَةُ، يَقَالُ: إِنَّ أَبَا الْمَعَالِي الْجَوْنِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ يُقَرِّرُ عَلَى

مسألة الاستواء والعلو، فقال له أبو العلاء الهمداني: يا شيخ دعنا من الكلام على مسألة العرش، لكن أخبرني عن هذه الضرورة التي يجدها كل إنسان في قلبه، ما قال عارف قط: يا الله. إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو^(١). أنت الآن إذا دعوت وقلت: يا الله، يذهب القلب إلى السماء، حتى إن الإنسان أحياناً للضرورة يرفع يديه، فهذا دليل فطري.

فشيءٌ دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ هل يُنْكِرُ؟! لا والله لا يُنْكِرُ، ولا يُنْكِرُهُ إِلَّا مُكَابِرٌ.

جاءنا رَجُلٌ فَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعِيهِ وَشَمَّرَ عَنْ سَاقِيهِ وَقَالَ: جِئْتُكُمْ بِالذَّلِيلِ الَّذِي يَقْطَعُ قَوْلَكُمْ، وَيُفَنِّدُ حُجَّتَكُمْ. قلنا: نحن لا نريد إلا الدليل، قال: ماذا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] كيف تقولون في هذا؟ قلنا: الإجابة سهلة، نقول: ماذا تقول في قوله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]؟ وماذا تقول في قوله تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]؟ أنت إن أولت هذا فنحن نُؤَوِّلُ ما ذكرت، كُلُّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أنه مُحِيطٌ بِالْخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَسُلْطَانًا، لَا أَحَدَ، لَوْ سَلِمَ مِنَ الْبِدْعَةِ، يَدُورُ فِي عَقْلِهِ أَنَّهُ مَعَنَا فِي الْمَكَانِ، لَا أَحَدٌ يَقُولُ هَذَا.

وأضرب لكم أيها المسلمون أمثالا أبرأ بها إلى الله من مسؤوليتكم، وأقيم

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١/ ١٨٨).

الحُجَّةَ عليكم: إذا قلت: إِنَّ اللَّهَ معنا في كُلِّ مَكَانٍ وَلَيْسَ عَالِيًا. قلنا: لو فَرَضْنَا ذلك على زعمهم فنحن هنا في المَسْجِدِ الحَرَامِ معنا في المكانِ هنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أنا أريدُ أَنْ أَبْطَلَ قَوْلَهُ بشيءٍ ملموسٍ محسوسٍ، وهناك ناسٌ الآن خارجَ المسجدِ يبيعون السِّلْعَ في دكاكينهم، فأين يكونُ اللهُ؟ في الدُّكَّانِ؟

ويوجد ناسٌ هناك في محلاتِ الصيانةِ يُصْلِحُونَ السياراتِ، هل يمكنُ أَنْ يقولَ قائلٌ: اللهُ معهم هناك في هذا المحلِّ؟ هل يقولُ بهذا أحدٌ؟! هل يقولُ بهذا عاقلٌ؟! سبحانك هذا بُهتانٌ عظيمٌ.

أقولُ أيضًا: أحدنا في المسجدِ ينتظرُ والآخَرُ في الحَمَّامِ يَبُولُ وَيَتَغَوَّطُ، أين اللهُ بِالنِّسْبَةِ للذي يَبُولُ وَيَتَغَوَّطُ؟ هل اللهُ معه في الحُشِّ؟ قاتَلَ اللهُ عُقُولًا تذهبُ هذا المذهبَ.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَأَنْ يُؤْمِنَ عَلَيْهَا بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ قَبْلَ أَنْ تَلْقَى رَبَّهَا عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ.

لا أقولُ -واللهِ- هذا شِمَاتَةٌ بهم، ولكن نقولُ هذا لِئَلَّا يَغْتَرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بهذا القولِ، ونحن نسألُ اللهَ لَهُمُ الْهُدَايَةَ، هُدَايَةَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَاللهِ لَا نُكِنُّ لَهُمْ عداوَةً، وَلَا بغضًا إِذَا هَدَاهُم اللهُ، وَلَكِنَّا نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ، أَنْ يَنْتَشِلُوا أَنْفُسَهُمْ وَإِخْوَانَهُم الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ الْبَاطِلَةِ.

إِنْ هَذَا الْقَوْلُ يَلْزِمُ مِنْهُ إِمَّا أَنْ يَتَجَزَّأَ اللهُ أَجْزَاءً فِي كُلِّ شَيْءٍ جُزْءٌ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ يَتَعَدَّدَ، وَكِلَاهُمَا بَاطِلٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ فهذا لا إشكالَ فيه لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ مُحِيطٌ بِنَا عِلْمًا

وَقُدْرَةٌ وَسُلْطَانًا وَتَدْبِيرًا، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي مَكَانِنَا.

أَلَيْسَتْ الْعَرَبُ تَقُولُ بِلِسَانِهَا الْمَبِينِ إِذَا سَافَرُوا: مَا زِلْنَا نَسِيرُ وَالْقَمَرُ مَعَنَا. فَأَيْنَ مَكَانُ الْقَمَرِ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ! الْقَمَرُ لَيْسَ مَعَهُمْ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَيَكُونُ الْقَمَرُ فِي الْعُلُوِّ وَالرَّبُّ يَكُونُ مَعَهُمْ عَلَى الرَّاحِلَةِ؟! لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! الضَّابِطُ يَقُولُ لِلْجَنْدِ: اذْهَبُوا إِلَى سَاحَةِ الْقِتَالِ وَأَنَا مَعَكُمْ. وَهُوَ فِي غُرْفَةِ الْعَمَلِيَّاتِ، هَلْ هُوَ مَعَهُمْ بِذَاتِهِ؟ لَا، لَكِنْ مَعَهُمْ بِالتَّدْبِيرِ يُدَبِّرُهُمْ وَيُوجِّهُهُمْ، هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ وَاضِحٌ.

وَيَقَالُ لِلرَّجُلِ: هَلْ زَوْجُكَ مَعَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ يُصَلِّي، وَهِيَ فِي بَيْتِهَا تَطْبَخُ الطَّعَامَ.

إِذَنْ، الْمَعِيَّةُ مَعْنَاهَا الْمَصَاحَبَةُ، وَهِيَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِهِ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْهَا الْاِخْتِلَاطُ، وَلَا الْحُلُولُ فِي الْمَكَانِ.

عِبَادَ اللَّهِ، أَنْتُمْ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ، مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ، أَرْجُو أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ فِي كَلَامِي هَذَا انْتِشَالٌ لَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْبِدْعَةِ الْبَاطِلَةِ؛ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْخَلْقِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَقَدْ سَمِعْتُمْ مَا قَرَّرْنَاهُ فِي الْأَمْثَلَةِ.

فَالْتَقَ رَبُّكَ وَأَنْتَ تَوْمَنُ بِأَنَّهُ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْخَلْقُ بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ لَا شَيْءَ، جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ»^(١)، السَّمَوَاتُ السَّبْعُ كُلُّهَا بِأَفْلَاقِهَا وَنَجُومِهَا وَشَمْسِهَا وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ

(١) أخرجه ابن حبان (٧٧/٢)، رقم (٣٦١).

ببحارها ورمالها وأنهارها بالنسبة للكرسي كحلقة أُلقيت في فلاة من الأرض، وحلقة الدرع صغيرة جدًا، أي مثل حلقة السلسلة، لو ألقيتها في فلاة من الأرض ماذا تشغل من الأرض؟ لا شيء، وإنَّ فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة.

إذن، ما نسبة الكرسي للعرش؟ لا شيء، هذا وهي كلها مخلوقة، فكيف بالخالق عزَّ وجلَّ؟ الخالق فوق كل شيء، وكل شيء فهو تحت الخالق عزَّ وجلَّ ولا يُحيط به شيء من الممكنة أبدًا؛ لأنه فوق كل شيء.

هذه عقيدتي، وأرجو الله تعالى أن تكون عقيدة كل مسلم، وأن ينتشل من يعتقد أن الله في كل مكان من هذه البدعة الباطلة حتى يلقي الله وهو على ما جاءت به الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسلام-.

انتهى الكلام على هذا، والخلاصة أننا نؤمن ونعتقد بأن الله نفسه فوق كل شيء، ونؤمن ونعتقد بأن الله تعالى استوى على العرش، أي علا عليه علوًّا يليقُ بجلاله، لا نُكيِّفه، ولا نَتَخَيَّلُه أبدًا، نؤمن كما جاء في النص.

هذه هي العقيدة الصحيحة، وعلمتم الجواب عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

واعلم أخي المسلم -ولا سيَّما طالب العلم- أن القرآن لا يُمكن أن يتناقض أبدًا؛ لأنَّ الله قال في كتابه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فإن زعم أحد أن في آيات من القرآن شيئًا من

التناقض فاعلم أنَّ البلاء منه لا من القرآن، إما أن يكون قاصراً الفهم - وما أكثر الذين لا يفهمون - وإما أن يكون ناقص العلم - وما أكثر الذين لا يعلمون - وإما أن يكون في قلبه مرض حال بينه وبين فهم كتاب الله، كما قال عز وجل: ﴿إِذَا نُنزلُ عَلَيْهِ ءِآيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١٣] قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا﴾ [المطففين: ١٤] لَيْسَتْ أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

أثر المعاصي على الإنسان:

والمعاصي تحول بين المرء وبين العلم حتى يلتبس عليه الشيء الواضح، قال الله تبارك وتعالى يخاطب النبي ﷺ يأمره بأن يحكم بين الناس بما أنزل الله ويقول بعد ذلك: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦] فدل هذا على أن الاستغفار سبب لفتح العلوم، وهو كذلك، فالمعاصي تحول بين المرء وبين فهم كتاب الله وسنة رسوله، فإذا أشكل عليك مسألة فاستغفر الله، كرر الاستغفار فيفتح الله عليك، يقول الشافعي رحمه الله^(١):

شَكَوْتُ إِلَى وَكَيْعٍ سُوءَ حِفْظِي فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَقَالَ اْعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ وَنُورُ اللَّهِ لَا يُؤْتَى لِعَاصِي

هذا يقوله الشافعي لشيخه.

وكما أن المعاصي تحول بين الإنسان وبين العلم فإنها تحول بين الإنسان وبين الطاعة، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْنَا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩] الذنوب تُوجب الذنوب، ولهذا قال العلماء رحمه الله المعاصي بريد

(١) ديوان الإمام الشافعي (ص: ١٠٦).

الكفر، اللَّهُمَّ اغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار.

انتهى الكلام على ما يتعلق بالعلو، وأسأل الله تعالى أن يملأ قلوبكم بمعرفة
الله وحقوقه، واتباع كتابه وسنة رسوله، وأن يهدي من اشتبه عليهم الأمر فالتبس
عليهم إلى صراطٍ مستقيم.



الدرس الرابع:

إِن الْحَمْدَ لِلّٰهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللّٰهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُّضِلِّهِ اللّٰهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٤-٥] في ذلك اليوم تعلم النفوس ما قدَّمَتْ وأخَّرت، ووسيلة الإعلام تجدها في القرآن: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، لن يتعب في فك الكتاب، بل سيأتيه منشورًا مفتوحًا، ويُقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

قال بعض السلف: «والله لقد أنصفك من جعلك حسيبًا على نفسك»^(١). وهذا حق، وفي الكتاب تجد أنك عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا، وكل شيء محفوظ، وفي يوم القيامة يُخرج هذا الكتاب، حينئذ يعلم الإنسان ما قدَّم وأخَّر. ونحن لا نعلم ما سبق في أعمالنا، ولم نُحصِه، من خير أو شر، وكذلك ما تأخر، لا نعلمه، إذن: نحن في الدنيا ننسى ما سبق، ونجهل ما لحق، لكن يوم القيامة نعلم ما قدَّمنا وما أخَّرنا.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الانفطار: ٦] يخاطب الله هنا الإنسان، والإنسان هنا المراد به الجنس، ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] أي: أي شيء غرَّك به؟ أي شيء

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (١/٥٤٥، رقم ١٥٦٣).

جَعَلَكَ تَكْفُرُ بِهِ؟ أَيُّ شَيْءٍ جَعَلَكَ تَكْفُرُ بِكُتُبِهِ وَبِرُسُلِهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ؟ وَهَذَا
الاسْتِفْهَامُ اسْتِفْهَامُ انْكَارٍ وَتَعْجِبٍ، وَالكَرِيمُ: ذُو الْكَرَمِ، وَهُوَ الْعَطَاءُ وَالْفَضْلُ الَّذِي
لَا نِهَايَةَ لَهُ.

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ﴾ [الانفطار: ٧] ﴿خَلَقَكَ﴾، أَي: أَوْجَدَكَ.

﴿فَسَوَّنَكَ﴾ أَي: جَعَلَكَ سَوِيًّا؛ وَلِهَذَا لَا يَوْجَدُ صُورَةٌ فِي الْحَيَوَانَاتِ أَحْسَنَ مِنْ
صُورَةِ الْإِنْسَانِ أَبَدًا، فَالْإِنْسَانُ سَوِيٌّ مُسْتَقِيمٌ، يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ، وَيَدَاهُ مَكْرَمَتَانِ،
لَا تَبَاشِرَانِ الْأَرْضَ، وَأَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ يَعْرِفُهَا الَّذِينَ لَهُمْ اخْتِصَاصٌ بِهَذَا.

﴿فَعَدَّلَكَ﴾ أَي: جَعَلَكَ مُعْتَدِلًا مُسْتَقِيمًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾
[الانفطار: ٨]، فَنَحْنُ الْآنَ نَجِدُ أَمَامَنَا عَالَمًا مِنْ بَنِي آدَمَ، قَدْ اخْتَلَفَتْ صُورُهُمْ، فِيهِمْ
الطَوِيلُ وَالْقَصِيرُ، وَالْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ اقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي
يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦] فَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَصَوِّرُنَا فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ
يَشَاءُ، مِمَّا مَنْ هُوَ أَسْوَدُ، أَوْ أَبْيَضُ، طَوِيلٌ أَوْ قَصِيرٌ، فَالْمُصَوِّرُ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿كَلَّا﴾ أَي: عَجَبًا أَوْ حَقًّا، ﴿بَلْ تُكْذِبُونَ بِالْإِذْنِ﴾ [الانفطار: ٩] أَي: تُكْذِبُونَ
بِالْجَزَاءِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ يَطْلُقُ عَلَى مَعْنَيْنِ: الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: الْعَمَلُ. وَالْمَعْنَى الثَّانِي: الْجَزَاءُ.

فَمِنْ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، فَالدِّينُ
بِمَعْنَى الْجَزَاءِ، وَالثَّانِي فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، أَي: يَوْمِ
الْجَزَاءِ. وَفِي الْمَثَلِ السَّائِدِ: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، أَي: كَمَا تَعْمَلُ تُجَازَى.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠] أَكَّدَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ عَلَيْنَا حَافِظِينَ بِمُؤَكَّدَيْنِ:

إِنَّ، واللام في قوله ﴿لَحَافِظِينَ﴾، والحافظون: هم الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومكانهم عن اليمين وعن الشمال، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ يَنْفَخُ الْمُنْفَخِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۚ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]، فأَيُّ قولٍ تقوله فتذكر أن عندك رَقِيبًا يراقب ويحفظ، وعَتِيدًا حَاضِرًا لَا يَغِيبُ، هؤلاء الحفظة يكتبون كل ما يقول الإنسان، وهم يكتبون كل قولٍ، سواء كان فيه ثواب أم لا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ [ق: ١٨]، و﴿قَوْلٍ﴾ هنا نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تفيده العموم، وزيد توكيدها بـ(من) الزائدة إعرابًا، لا الزائدة معنى.

إذن: كل قولٍ تقوله من خيرٍ أو شرٍّ أو لغوٍ فهو مكتوبٌ، تكتبه الملائكة، ولو كان عند الإنسان مُسَجِّلٌ صَوْتٍ في جيبه، وكلما تكلم سجَّل، لملأ الغُرفَ من أشرطة التسجيل، والملائكة يكتبون، وكل ما تتكلم به مكتوبٌ عند الله.

قال بعض العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: وإنهم يكتبون حتى أُنِينَ المريض. لأن الأُنِينَ إذا كان باختيار الإنسان فهو عبارة عن التشكي، أمّا إذا كان الأُنِينُ بغير اختياره فلا يُكْتَبُ عليه؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ مَرِيضٌ وَيُثْنُ مِنْ شِدَّةِ الْمَرَضِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، إِنْ طَاوَسَا يَقُولُ: إِنَّ الْمَلِكَ يَكْتُبُ حَتَّى أُنِينَ الْمَرِيضِ. فَقَطَعَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ الْأُنِينَ^(١). فهوؤلاء هم العلماء الذين يخشون الله حقَّ خشيته، مع أنه بلغه عن تابعيٍّ من التابعين، وليس عن رسولِ الله ﷺ.

(١) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١١٩/٢).

كتابة الملائكة للأعمال:

﴿كَرَامًا كَبِيرًا﴾ [الانفطار: ١١] أي: ذَوِي كَرَمٍ، وَالكَرِيمُ إِنْ لَمْ يُعْطِ لَمْ يَأْخُذْ؛ وَلِهَذَا لَا يَكْتُبُونَ ظُلْمًا، فَلَا يَكْتُبُونَ عَلَى الْعَبْدِ مَا لَمْ يَعْمَلْ مِنَ الْمَعَاصِي، وَلَا يَكْتُبُونَ لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْ مِنَ الطَّاعَاتِ، بَلْ هُمْ كِرَامٌ، ﴿كَبِيرًا﴾ وَلَا نَعْرِفُ كَيْفَ يَكْتُبُونَ، أَوْ بِمَ يَكْتُبُونَ، وَلَا نَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ مَالِكٌ فِي اسْتِوَاءِ اللَّهِ عَلَى الْعَرْشِ، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِجَمِيعِ مَا بَانَ لِلَّهِ مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ السَّمَوَاتِ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَيْهِ، أَي: عَالٍ عَلَيْهِ، وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: إِنْ لِلَّهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. فَهَذَا خَطَأٌ، لَوْ فَكَّرَ صَاحِبُهُ فِي الْأَمْرِ لَوَجَدَ أَنَّهُ أَكْبَرُ مَسْبِيَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَاللَّهُ تَعَالَى نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، أَمَّا عِلْمُهُ فَهُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

فَقَدْ سَأَلَ رَجُلٌ الْإِمَامَ مَالِكًا وَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كَيْفَ اسْتَوَى. يَقْصِدُ: صِفْ لِي اسْتِوَاءَهُ وَكَيْفِيَّتَهُ، فَأُطْرَقَ مَالِكٌ هَكَذَا بِرَأْسِهِ، حَتَّى جَعَلَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا مِنْ شِدَّةِ السُّؤَالِ وَالْحَجَلِ، فَهَذَا سُؤَالٌ لَا يَلِيقُ، وَفِيهِ تَكَلُّفٌ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ كَلِمَاتُهُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُكْتَبَ بِأَعْلَى مِدَادٍ، قَالَ لَهُ: «يَا هَذَا، الْاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»^(١). أَرْبَعُ جُمَلٍ عَظِيمَةٍ.

«الاستواء غير مجهول» يعني: أنه معلوم، فكلُّنا يعرف معنى استوى على كذا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٣) لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴿[الزخرف: ١٢-١٣]، لَتَسْتَوُوا: أَي لَتَرْكَبُوا عَلَى ظُهُورِهِ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴿[المؤمنون: ٢٨]، أي: عَلَوْتَ عَلَيْهِ وَرَكِبْتَهُ.

إذن: استواء الله على عرشه يعني عُلُوا عَلَيْهِ، وهذا العُلُو خاص بالعرش، غير العُلُو العام على جميع المخلوقات.

«والكيف غير معقول» أي: إن عقولنا لا تدرك كيف استوى الله على العرش، فهذا غير ممكن.

«والإيمان به واجب» أي: الإيمان بالاستواء.

«والسؤال عنه بدعة» أي: السؤال عن كَيْفِيَّتِهِ، لكن السؤال عن معناه ليس فيه شيء؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهم أحرص منا على معرفة الله، وأشد منا حُباً لله، وأعلم منا بالله، ما سألوا الرسول عن هذا، مع أنهم لو وجَّهوا السؤال لوجَّهوه إلى مَنْ يَعْلَمُ كَيْفَ يُجِيبُهُمْ.

«وما أراك إلا مبتدعاً» أراك: أي: أظنك إلا مُبْتَدِعاً؛ لأن أهل البدع هم الذين يسألون عن هذه الأشياء، ثم أمر به فأخرج من المسجد النبوي، ولم يحتج على إخراجِه أحدٌ من الناس بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤]؛ لأن مثل هذا الرجل المبتدع يجب أن يُخرج من بيوت الله؛ لأن الله قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]، ولم يقل: أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا الْبِدْعُ. فلذلك كان رأي مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صواباً؛ حيث أمر به، فأخرج من المسجد.

على كل حال كتابة الملائكة أعمال الناس معلومة، وهي: تقييد الشيء، والكيف مجهول، لو كان بعلمنا بالكيفية خير لكان الله أعلمنا بذلك؛ لأنه ما من

خير إلا أعلمنا الله به حتى نفعله، وما من شرٍ إلا أعلمنا الله به حتى نتجنبه.

وهذه قاعدة في جميع أمور الغيب، فكلُّ أمور الغيب لا يمكن أن نتحدث عن كَيْفِيَّتِهَا إذا لم تكن كَيْفِيَّتُهَا معلومةً بالكتاب والسنة.

كثيرٌ منا يعلم أن الإنسان إذا دُفِنَ في قبره، وأتاه الملكان، وسألاه عن ثلاثة أشياء: هي: مَنْ رَبُّكَ؟ ما دينك؟ من نبيك؟ إذا أجاب بصواب نادى منادٍ من السماء أن: صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. ويوسع قبره مدَّ البصر^(١).

فلو قال قائل: كيف يُوسَّع مدَّ البصر والمقبرة كلها لا تكون مدَّ البصر؟ نقول: هذا معناه التشكيك في خبر الرسول عليه الصلاة والسلام، والسؤال عن هذا بدعة، نحن نؤمن بما جاء في الكتاب والسنة دون أن نسأل عن كَيْفِيَّتِهَا. وسأضرب لكم مثلاً لذلك: أنتم تنامون في الليل على فراشٍ طوله مثلاً أربع أذرع، أي: يزيد عن طولكم قليلاً، وعن عرضكم قليلاً، ويرى الإنسان في منامه أنه في فلاة من الأرض واسعة، وأحياناً في بساتين، وأحياناً بين الجبال، وأحياناً بين أودية، وهو لا يزال على فراشه. فإذا كانت هذه حال الروح في النوم فكيف بحالها في الموت؟!!

واعلم أن النوم وفاة، لكنها وفاة صغرى، والدليل على أن النوم وفاة قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وهذه الوفاة العظمى، ﴿وَأَلْتَمَسْتُ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، فإذا كان هذا في الروح قبل أن تخرج من البدن، فما

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

بَالِكُ بِالرُّوحِ بَعْدَ خُرُوجِهَا مِنَ الْبَدَنِ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي النُّونِيَّةِ^(١):

شَأْنُ الرُّوحِ أَعْجَبُ شَأْنٍ

أي: من أعظم الأمور العجيبة؛ ولهذا لما سألوا الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنِ الرُّوحِ، قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] أي: مِنْ شَأْنِ اللَّهِ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِكُمْ.

ثُمَّ قَالَ مُبَكِّتًا لَهُمْ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] كَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: مَا بَقِيَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْعُلُومِ إِلَّا أَنْ تَعْرِفُوا الرُّوحَ حَتَّى تَسْأَلُوا عَنْهَا، وَهَذَا تَبَكِّيتٌ لَهُمْ، وَالَّذِي فَاتَنَا مِنَ الْعُلُومِ أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ، فَلَيْسَ عِنْدَنَا مِنَ الْعُلُومِ إِلَّا قَلِيلٌ، فَكَيْفَ نَسْأَلُ عَنِ الرُّوحِ؟!

كَذَلِكَ الَّذِي يَسْأَلُ عَنْ صِفَاتِ اللَّهِ، وَيَقُولُ مِثْلًا: كَيْفَ اسْتَوَى؟ أَوْ كَيْفَ يَكْتُبُ الْمَلَائِكَةُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ؟ أَقُولُ: مَا بَقِيَ عَلَيْكَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا هَذَا، حَتَّى تَسْأَلَ عَنْهُ ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار: ١٢] أي: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ؛ حَيْثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»^(٢). فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ، فَالْإِنْسَانُ يَحْدُثُ نَفْسَهُ بِأَشْيَاءَ فَظِيعَةٍ عَظِيمَةٍ، لَكِنْ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ فَهُوَ مَعْفُودٌ عَنْهُ.

(١) النونية (ص: ١٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

فمثلاً هناك رجلٌ همٌّ أن يعملَ ذنباً، وعزمَ عليه، لكنه لم يفعلهُ، فلا يُكْتَبُ عليه، بل إذا تركهُ لله أثابهُ عليه، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً»^(١). لَأَنَّهُ تَرَكَهَا اللهُ، فلا تُكْتَبُ عليه، بل تَكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٌ، إلى أن يشاءَ اللهُ.

إذا همَّ الإنسانُ بالحَسَنَةِ ولم يفعلْها عَجْزاً عنها، فإنه يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُهَا، ولا إذا كان قد شَرَعَ فيها، أو كان مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يفعلْها، ولكن عَجَزَ عنها، فإنه يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُهَا؛ لَأَنَّهُ هَمَّ بِهَا، وَسَعَى فِيهَا، وَلَكِنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا بِقَدَرِ اللهِ، فهذا يُكْتَبُ لَهُ الْأَجْرُ كَامِلاً، والدليلُ: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بِلَدِ الْكُفْرِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ مَاتَ، يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُ الْمُجَاهِدِينَ؛ لَأَنَّهُ عَجَزَ عَنْ اسْتِكْمَالِ الْعَمَلِ، وَاللهُ تَعَالَى ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

وهناك دليلٌ آخَرُ فِيمَنْ عَجَزَ عَنِ الْعَمَلِ، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَعْمَلَهُ، فإنه يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُهُ كَامِلاً، دليُّهُ: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَاحِباً مُقِيباً»^(٢).

فلنفرض مثلاً أن إنساناً من عَادَتِهِ أَنْ يَتَهَجَّدَ فِي اللَّيْلِ، وَأَنْ يَكْثُرَ النَّوَافِلُ، وَلَكِنَّهُ سَافِرٌ، وَمَنْعَهُ السَّفَرُ مِنْ أَنْ يَفْعَلَ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ فِي الْحَضَرِ، فَيُكْتَبُ لَهُ الْأَجْرُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة، رقم (١٣١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم (٢٨٣٤).

كاملاً، كأنه فعلٌ ذلك تماماً.

كذلك إنسانٌ مَرَضٌ، كان من عادته أن يصومَ يومَي الاثنينِ والخميسِ، وأن يُكثِرَ النوافِلَ، ولكنه مَرَضَ، ولم يتمكّن من ذلك، فإنه يُكتبُ له الأجرُ كاملاً، أي: يُكتبُ له أجرُ صيامِ الاثنينِ والخميسِ، وما يفعله من نوافِلَ؛ لأنه تركَ ذلك عجزاً، أو مع المشقة، وهذا من فضلِ الله تعالى وكرمِهِ، هذه واحدة.

الثانية: إذا همَّ الإنسانُ بالحسنةِ وفعلها فعلاً فإن الحسنة تُكتبُ له بعشرِ أمثالها، إلى سبعِ مئةٍ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرة.

الثالثة: إذا همَّ بها وتركها رغبةً عنها، لا عجزاً عن فعلها، ولا عن استكمالها، فإنها تُكتبُ له حسنةٌ كاملةٌ، هو لم يفعل، فكيف تُكتبُ له؟ ولكننا نقول: مجردُ همِّ الإنسانِ بالحسناتِ له ثوابٌ؛ لأنه يدلُّ على رغبته في الحسناتِ، فصارتِ المسألةُ ثلاثةَ أقسامٍ:

القسم الأول: إذا همَّ بالحسنةِ وعجزَ عنها، أو عن إكمالها، فإنها تُكتبُ له حسنةٌ واحدةٌ، أي: يكونُ كمن فعلها، فيُكتبُ له الأجرُ كاملاً، والدليل: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، وكذلك قولُ النبي ﷺ: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَاحِبًا مُقِيمًا».

القسم الثاني: إذا همَّ بالحسنةِ وتركها من دونِ فعلٍ، فتُكتبُ له حسنةٌ كاملةٌ؛ لأن مجردَ همِّ الإنسانِ بالحسناتِ حسنةٌ، لأنه يدلُّ على حُسنِ قصده وإرادته، وقد صحَّ به الحديثُ عن الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

القسم الثالث: من هم بحسنة وفعلها؛ فإنها تُكتب له مضاعفة عشر أمثالها، والدليل على هذا من القرآن: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وَمِنَ السُّنَّةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِئَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ»^(١).

أما السيئات إذا هم بها الإنسان، وعمل بها، كُتِبَتْ سيئة واحدة فقط، لا زيادة عليها، وهذا من فضل الله: الحَسَنَاتُ تُضَاعَفُ، وَالسَّيِّئَاتُ لَا تُضَاعَفُ، بَلْ تُكْتَبُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وكذلك صحَّ عن النَّبِيِّ ﷺ أنه: «مَنْ عَمِلَ السَّيِّئَةَ كَتَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(٢)، وَإِنْ هَمَّ بِهَا وَلَمْ يَعْمَلْهَا فَعَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

القسم الأول: أن يدعها عجزاً عنها، أي يفعل الأعمال التي توصل إليها، لكن عجز، فهذا يكون كفاعليها، مثال ذلك: رجل أتى بالسُّلَمِ، وتسَلَّقَ الجدار؛ لیسْرِقَ، فلما أطلَّ على البيت إذا بصاحب البيت يقظان، فنزل، فتُكتبُ عليه عقوبة السارق؛ لأنه عجز عنها، هو فعل الأسباب، فعجز، فيُكتبُ له عقوبة العاصي.

والدليل على هذا قول النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا» أي بالقتل، «فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل - يقصدون أن القاتل في النار، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة، رقم (١٣١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة، رقم (١٣١).

خَلِيدًا فِيهَا وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿[النساء: ٩٣]﴾ - فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^(١).

وهذا واضح، فهذا الرَّجُلُ معه السيف، يريد أن يقتل، لكن غلبه ضَعْفُهُ، فيكون القاتِلُ والمقتولُ في النَّارِ: القاتِلُ لأنه قاتِلٌ، والمقتولُ لأنه كان حَرِيصًا على قَتْلِ صَاحِبِهِ، لكن عَجَزَ.

القسمُ الثَّانِي: أن يَهْمَ بالسَّيِّئَةِ فَيُتْرَكُهَا لِلَّهِ، فهذا يُكْتَبُ له حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ، مثال ذلك: رجلٌ هَمَّ أن يَغْتَابَ شَخْصًا، وَالْغَيْبَةُ هِيَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، فلما تَذَكَّرَ أن الْغَيْبَةَ حَرَامٌ، من كبائر الذُّنُوبِ، سوف يُعَاقَبُ عَلَيْهَا، فَتَرَكَهَا لِلَّهِ، فهذا يُوَجَّرُ عَلَيْهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «لِأَنَّهُ إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَائِي»^(٢).

أي: من أَجْلِي. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ»^(٣). أي: مِنْ أَشْرَافِ الْقَوْمِ، وَلَيْسَتْ مِنَ النِّسَاءِ الدَّنِيئَاتِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ ضَعْفٌ جَنَسِيٌّ، بل هو قَادِرٌ وَلَوْ أَرَادَ إِجَابَتَهُ، لَكِنَّهُ قَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ. فَتَرَكَهَا، فَهَذَا الَّذِي تَرَكَ هَذِهِ الشَّهْوَةَ الْمَحْرَمَةَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهَا، وَقُوَّةِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿وَلَنْ طَافِنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، رقم (٣١)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨).

(٢) أخرجه ابن منده في الإيمان (١/٤٩٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

الدَّاعِي إِلَيْهَا، وَعَدَمِ الْمَانِعِ وَالصَّارِفِ، يُظِلُّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ.

ومثل ذلك ما حكاه النَّبِيُّ ﷺ، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ: «أَنَّ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ آوَاهُمُ اللَّيْلُ إِلَى غَارٍ» والغَارُ هو: الكَهْفُ، والكَهْفُ فَتْحَةٌ كَبِيرَةٌ فِي الْجَبَلِ، هَؤُلَاءِ قَدْ آوَاهُمُ اللَّيْلُ إِلَى هَذَا الْغَارِ، «فَدَخَلُوا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ صَخْرَةً كَبِيرَةً سَدَّتِ الْبَابَ، عَجَزُوا عَنْ إِزَالَتِهَا، فَقَالُوا: تَوَسَّلُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ». لَأَنَّ التَّوَسَّلَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ جَائِزٌ. «فَقَالَ أَحَدُهُمْ: كَانَ لَهُ أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ». وَكَانَ يَسْرَحُ فِي غَنَمِهِ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ أَوَى إِلَى أَهْلِهِ: إِلَى أَبَوَيْهِ وَإِلَى أَوْلَادِهِ، وَفِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي لَمَّا وَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ وَجَدَ أَنَّ أَبَوَيْهِ قَدْ نَامَا، فَكَّرَهُ أَنْ يُوقِظَهُمَا، وَالصَّبِيَّانُ عِنْدَهُ يَتَضَاغَوْنَ مِنَ الْجُوعِ، فَكَّرَهُ أَنْ يَسْقِيَهُمَا قَبْلَ أَبَوَيْهِ، فَبَقِيَ الْإِنَاءُ فِي يَدِهِ حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَ الْأَبَوَانِ فَسَقَاهُمَا، ثُمَّ سَقَى الْأَوْلَادَ». وَهَذَا الْعَمَلُ فِي غَايَةِ الْبِرِّ.

«فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ قَلِيلًا، لَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا».

أَمَّا الثَّانِي فَتَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِأَنَّهُ كَانَ لَهُ ابْنٌ عَمٌّ، وَكَانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا، فَكَانَ يُرَاوِدُهَا عَنْ نَفْسِهَا، يَطْلُبُ مِنْهَا فِعْلَ الْفَاحِشَةِ، لَكِنْ تَأَبَّى عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهَا عَفِيفَةٌ، وَالرَّجُلُ حِينَ طَلَبَهَا لَيْسَ بِعَفِيفٍ، وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ أَحْوَجَتْهَا الدُّنْيَا، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ تَطْلُبُ مِنْهُ مَالًا، فَأَبَى إِلَّا أَنْ تُمَكِّنَهُ مِنْ نَفْسِهَا، وَكَانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا، هِيَ مِنْ أَجْلِ الضَّرُورَةِ مَكَّنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا. «فَلَمَّا جَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِهِ قَالَتْ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَفْضُ الْخَاتِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ». كَلِمَةٌ جَعَلَتْ الرَّجُلَ يَرْتَعِدُ، وَمَعْنَى: «لَا تَفْضُ الْخَاتِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ» أَي: أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، فَقَامَ عَنْهَا خَوْفًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهِيَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَهَذَا مِنْ كِمَالِ الْعِفَّةِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَانْفَرَجَتِ

الصَّخْرَةَ، لَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهُوَ الَّذِي يَأْمُرُ الصَّخْرَةَ فَتَنْزَحْزَحُ.

أما الثالثُ فَإِنَّهُ تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِكَمَالِ الْأَمَانَةِ، «فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجْرَاءَ» اسْتَأْجَرَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأُجْرَةِ، وَلَمْ يُعْطِ أَحَدَهُمْ أَجْرَهُ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ الْأَجِيرُ، وَهَذَا الرَّجُلُ نَمَّا لَهُ أَجْرُهُ، فَجَعَلَ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي، فَجَاءَهُ الْأَجِيرُ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، وَقَالَ: يَا فُلَانُ أَعْطِنِي أَجْرِي. فَقَالَ: «كُلُّ مَا تَرَى مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْبَقَرِ فَهُوَ أَجْرُكَ». وَهَذَا مِنْ تَمَامِ الْبَرَكََةِ مِنَ اللَّهِ، فَقَدْ جَعَلَ أَجْرَهُ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ كُلِّ مَا يَرَاهُ بَعَيْنِيهِ. «فَقَالَ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَسْتَهْزِئْ». يَعْنِي: أَنْ أُجْرَةَ إِنْسَانٍ لَا تُسَاوِي كُلَّ هَذَا الْمَالِ الْعَظِيمِ. قَالَ: «لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، وَهَذَا مَالُكَ، فَاسْتَأْجَرْتَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَأَنْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»^(١).

الشاهد من هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي سُقِيَ هُوَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي هَمَّ بِالْمَعْصِيَةِ وَتَرَكَهَا لِلَّهِ.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: تَرَكَ السَّيِّئَةَ لَا خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَلَا عَجْزًا عَنْهَا، لَكِنَّهُ طَابَتْ نَفْسُهُ، فَهَذَا لَا يَأْتُمُّ، وَلَا يُوجِرُ؛ لَا يَأْتُمُّ لِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ مَعْصِيَةً، وَلَمْ يَحَاوِلْ فِعْلَهَا، وَلَا يُوجِرُ لِأَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْهَا لِلَّهِ.

الْقِسْمُ الرَّابِعُ: رَجُلٌ لَا تَطْرَأُ لَهُ الْمَعْصِيَةُ إِطْلَاقًا مِنَ الْأَصْلِ، لَا يَفَكِّرُ فِيهَا، فَهَذَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك أجره فعمل فعمل فيه المستأجر فزاد، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم (١٠٠).

لَا يُكْتَبُ لَهُ وَلَا عَلَيْهِ، وَهَذَا كَثِيرٌ، وَالنَّاسُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - لَا يَفَكَّرُونَ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ، وَلَا فِي الزَّنى، وَلَا فِي اللَّوَاطِ، وَلَا فِي السَّرِقَةِ، فَهَؤُلَاءِ لَا يُؤْجَرُونَ، وَلَا يَأْتُمُونَ.

فهذه أقسامُ تَرْكِ المعصية، والملائكة الكرام الذين يكتبون ما أمرهم الله بكتابته، وهو ما جاءت به النصوص على حسب التقسيم الذي ذكرناه.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]: الأبرارُ جمعُ برٍّ، وضدُّهم الفجَّارُ، وهو جمعُ فاجرٍ، والأبرارُ هم: كثيرون الخيرات، كثيرون الأعمال الصالحات، كثيرون الإحسان إلى الناس، هؤلاء هم الأبرار، الذين أكثر مما يكون به البرُّ في عبادة الله، وفي معاملته عباد الله.

﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ والنَّعيمُ في الدنيا والآخرة؛ لأنها لم تُقيَّد الأبرار في نعيم في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

إذن، المؤمن طيبة نفسه، إِنْ أَصَابَتْهُ السَّرَاءُ شَكَرَ، وقام بالشُّكر، وَإِنْ أَصَابَتْهُ الضَّرَاءُ صَبَرَ، وقام بالصبر، ولم يتصجّر، وقال: هذا قدرُ الله، وما شاء فعل، وأنا عبده، وهو ربي، يفعل بي ما يشاء.

إذن، البرُّ في نعيم في الدنيا، وَإِنْ شِئْتَ زِيَادَةً عَلَى هَذَا الدَّلِيلِ فَاقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وَهَذَا فِي الدُّنْيَا، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقاق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

[النحل: ٩٧] وهذا في الآخرة، فالمؤمن حياته طيبة.

ولهذا قال بعض السلف: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيف^(١). والملوك وأبناء الملوك مترفون في الدنيا، منعمون في الدنيا، لكنهم لو يعلمون ما فيه أهل الخير من النعيم القلبي، وانشرح الصدر، ورضا النفس، لجالدوهم عليها بالسيف.

وقد ذكر المؤرخون عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه عذب مراراً، وسجن مراراً، ولما أدخلوه السجن ذات مرة، قال: ما يفعل أعدائي بي، إن حبسي خلوة - خلوة بالله عز وجل - وإن نفيت سياحةً، وإن قتلي شهادةً، وإن جتيتي في صدري^(٢). والشاهد هنا قوله: جتيتي في صدري. لأنه راضٍ، والله لو رَضِينَا بالله عز وجل ما كنا لنحزن أبداً على ما يُصِيبُنَا، وعلى ما يخالفُنَا، ولقلنا: هذا تدبيرُ الله، وهو أعلمُ بنا، وهو ربُّنا. فإذا رضي الإنسان بالله صار في نعيم.

أما نعيم الآخرة فحدث ولا حرج، قال الله تعالى فيه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، فلا تعلم النفس ما أُخْفِيَ لها من قُرَّةِ الأَعْيُن؛ لأنه قُرَّةٌ لا يتصورها الإنسان، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(٣). أعددت أي: الله نفسه عز وجل لعباده الصالحين ما لا عين رأت

(١) هذا قول إبراهيم بن أدهم، كما في حلية الأولياء، لأبي نعيم (٧/ ٣٧٠).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٥١٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب، رقم (٢٨٢٤).

مِنَ النَّعِيمِ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ.

وفي سُورَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ تَفْصِيلِ النَّعِيمِ الشَّيْءُ الْعَظِيمُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩] عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ فَلَا يُلْحَقُهُمُ الْفَنَاءُ ﴿يَا كُوبَ وَأَبَارِقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨]، أَي: مِنْ خَمْرِ صَافٍ، ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩].

﴿إِذَا رَأَيْنَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]، الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَأَيْنَهُمْ﴾ يَعُودُ عَلَى الْأَبْرَارِ أَوْ عَلَى الْوِلْدَانِ، عَلَى قَوْلَيْنِ. قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِذَا رَأَيْتَ أَهْلَ الْجَنَّةِ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا مِنْ حُسْنِهِمْ وَصَفَائِهِمْ، وَصَفَاءُ الْجِسْمِ يَدُلُّ عَلَى صَفَاءِ الْقَلْبِ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا رَأَيْنَهُمْ﴾ يَعُودُ عَلَى الْوِلْدَانِ، فَالضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ هُنَا الضَّمِيرُ فِي ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يَعُودُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، لَكِنْ ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بَعْدَهَا ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ وَالضَّمِيرُ فِيهَا يَعُودُ عَلَى الْوِلْدَانِ.

وَعَلَى هَذَا إِذَا كَانَ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْأَبْرَارِ نَقِفْ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ كَيْ لَا تَكُونَ الْجُمْلَةُ مَتَّصِلَةً بِالَّتِي قَبْلَهَا. أَمَّا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَى الْوِلْدَانِ، فَإِنَّ الْأَحْسَنَ أَلَّا نَقِفَ.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣] النَّعِيمُ يَرَادُ بِهِ نَعِيمُ الدُّنْيَا وَنَعِيمُ الْآخِرَةِ. ﴿وَلِإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤] الْفُجَّارُ فِي جَحِيمٍ فِي الْآخِرَةِ وَلَا شَكَّ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٥]، لَكِنْ حَتَّى فِي الدُّنْيَا لَا تَجِدُ قَلْبَ الْكَافِرِ، وَإِنْ نَعِمَ بَدَنُهُ، نَاعِمًا أَبَدًا، بَلْ هُوَ فِي جَحِيمٍ يَفَكَّرُ، إِذَا فَكَّرَ فِي الْمَوْتِ ضَاقَ صَدْرُهُ

وضاقت عليه الدنيا كلها، وإذا أصابه مرض اضطلى قلبه من النار.

أيضا الكافر إذا رأى أن غيره يفوقه مالا أو قوة أو أولادا مات حسرة؛ لأنه حسود؛ فلذلك نقول: الفجار في جحيم في الدنيا وفي الآخرة.

﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٥] أي: يصلون هذه النار، ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: يوم

الجزاء.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٦] وهذا كقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] فهم لا يخرجون منها، ولا يغيبون عنها، ولا يفترون عنهم العذاب، بل إنهم يقولون لخزنة جهنم: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]. انظر إلى مدى الذل والخزي، فهم يطلبون من خزنة جهنم أن يدعوا ربهم، ولم يقولوا لخزنة جهنم: ادْعُوا رَبَّنَا؛ لأنهم يخجلون أن يضيفوا ربوبية الله إليهم، وهم في محل غضبه، ولم يقولوا: يُمِسِّكُ الْعَذَابَ عَنَّا يَوْمًا، بل قالوا: ﴿يُخَفِّفْ﴾ فقط، ولم يقولوا: دائما، بل قالوا: ﴿يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

وهذا مما يدل على حسرتهم، وعلى شدة عذابهم، فهم في جحيم، يصلونها يوم الدين، بل قالوا أعظم من ذلك، قالوا لمالك خازن النار: ﴿وَنَادَا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: يهلكنا، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَّا تَكُونُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] لا قضاء فيه ولا موت، ويقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨]. زد على ذلك أنهم يقولون لأرحم الراحمين عز وجل: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فيرد عليهم الجبار: ﴿قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وهي كلمة عظيمة، أن يقول الملك الرحيم الجبار: ﴿أَخْسُوا فِيهَا

وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿ حِينَئِذٍ يَنْقَطِعُ مِنْهُمْ كُلُّ رَجَاءٍ، وَيَيَأْسُونَ كُلُّ الْيَاسِ، فَهُمْ مَا كَثُورَ.
 فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلِ النَّارُ كَالْجَنَّةِ مُؤَبَّدَةٌ، أَمْ يَلْبَسُونَ فِيهَا سِنِينَ عَدِيدَةً، ثُمَّ
 تُحْمَدُ وَمَنْ فِيهَا؟

فالجواب: هِيَ مُؤَبَّدَةٌ، وَهَذَا أَمْرٌ قَطْعِيٌّ لَا إِشْكَالَ فِيهِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
 فِيهِ إِشْكَالٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] فَهِيَ مُؤَبَّدَةٌ، وَصَرَّحَ
 اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِأَنَّهُمْ مَخْلَدُونَ فِيهَا أَبَدًا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنْ كَلَامِهِ الْعَظِيمِ:

الموضع الأول: قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ
 اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾
 [النساء: ١٦٨-١٦٩] أَتُرِيدُونَ أَصْدَقَ مِنْ هَذَا؟ وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْكَلَامُ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ،
 الْعَالَمُ بِمَا يَقُولُ، الْخَالِقُ لِمَا يُرِيدُ.

الموضع الثاني: قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ
 سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

الموضع الثالث: قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْجَنِّ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ
 جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا مَجَالَ لِلشَّكِّ، وَلَا لِلتَّشْكِكِ،
 وَلَوْلَا أَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ فِي ذَلِكَ قَوْلًا. لَأَنْكَرْنَا هَذَا غَايَةَ الْإِنْكَارِ، وَالْمَرَدُّ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ
 وَرَسُولِهِ، وَالْقُرْآنُ صَرِيحٌ، وَالْجَنَّةُ أَيْضًا جَاءَتْ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ فِي ذِكْرِ التَّقْيِيدِ
 الْمُؤَبَّدِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبا: ٢٢]، وَالْأَحْقَابُ:
 جَمْعُ حُقْبٍ، وَهُوَ الزَّمَنُ أَيْ: أَزْمَانًا؟

فالجواب: أن معنى الآية: لا يثين أحقاباً كثيرة لا نهاية لها، ويدل على مراد الله عز وجل الآيات الأخرى الدالة على التعبير الصريح.

وبعضهم أجاب بجواب آخر، فقال: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (٢٣) لا يدوقون فيها برداً ولا شرباً ﴿[النبا: ٢٤] وأحقاباً أخرى على خلاف ذلك، لكن يكفيننا قولنا إنها أحقاب لا نهاية لها، كما دلت عليه الآيات الأخرى.

فإن قال قائل: أليس الله يقول: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقال في أهل الجنة: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] ففرق بينهما؟ قلنا: التفريق بينهما هو الأوجب، والمعنى: لكن ما شاء ربك زيادةً على ذلك فهو واقع.

وأما قوله في أهل الجنة: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وقوله في أهل النار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] ففي غاية المماثلة؛ لأن آية أهل النار كأن مَوْرِدًا أُوْرِدَ: كيف يفعل الله ذلك؟ كيف يفعل الله بهؤلاء هذا العذاب المؤبد؟ فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] في آية أهل الجنة، فالمقام مقام عطاء، فقال: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي: غير مقطوع، بل هو دائم.

فإذا قال إنسان: أعمار بني آدم الأولين طويلة، فنوح لبث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً، وأعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى السبعين غالباً، فكيف يجازيهم الله سبحانه وتعالى بعذاب مؤبد أبدي وأعمارهم قصيرة؟ والجواب: هؤلاء لم يظلمهم الله، بل أعذر لهم، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب،

وبَيَّنَ الأمرَ، وأَوْضَحَهُ، فليس في هذا ظُلْمٌ.

أَرَأَيْتَ لو أَنَّ إِنْسَانًا قَالَ لَكَ: إِذَا مَشَيْتَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ فَسَوْفَ تَقَعُ فِي نَارٍ. فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تَمْشِيَ فِي الطَّرِيقِ، وَهَذَا الَّذِي حَذَّرَكَ هُوَ الَّذِي أَوْقَدَ النَّارَ، فَهَلْ هُوَ غَاشٌّ لَكَ أَوْ ظَالِمٌ؟ أَبَدًا، بَلْ بَيَّنَ لَهُمُ الْأَمْرَ وَوَضَّحَ، فَيَكُونُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَقُوا فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ قَدْ أَعَذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَبَيَّنَ لَهُمْ، وَأَنْزَلَ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَقَالَ: ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

إِذَنْ، مِنْ عَقِيدَتِنَا الثَّابِتَةِ الرَّاسِخَةِ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَخْلَّدُونَ فِيهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ، وَأَنَّ أَهْلَ النَّارِ مَخْلَّدُونَ فِيهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ، هَذِهِ عَقِيدَتُنَا الَّتِي نَرْجُو اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ نَلْقَاهُ وَنَحْنُ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا هِيَ مُقْتَضَى كَلَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَكَلَامِ رَسُولِهِ.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧] (مَا) هُنَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ، وَالْمُرَادُ بِالْإِسْتِفْهَامِ التَّهْوِيلُ وَالتَّعْظِيمُ، أَيُّ شَيْءٍ أَدْرَاكَ بِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ. وَ(أَدْرَاكَ) أَيُّ: أَعْلَمَكَ، وَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا التَّفْصِيلُ فِي الْخِطَابِ الْمَوْجَّهِ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَذَكَرْنَا أَنَّهُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

الْأَوَّلُ: أَنْ يُوجَدَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ هُوَ وَحْدَهُ. وَمِثَالُهُ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، فَهَذَا خَاصٌّ بِهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِلْأُمَّةِ.

الثَّانِي: أَنْ يُوجَدَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ هُوَ وَأُمَّتُهُ. وَمِثَالُهُ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١] فَالْخِطَابُ هُوَ لِلْخُصُوصِ، ثُمَّ وَجَّهَ إِلَى عُمُومِ النَّاسِ.

الثَّالِثُ: أَنْ لَا يُوجَدَ دَلِيلٌ. وَهَذَا كَثِيرٌ، وَمِنْهُ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧]، أَيُّ: مَا أَعْلَمَكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ، أَوْ مَا أَعْلَمَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، لِلْعُمُومِ.

والفعل (أذرى) ينصب ثلاثة مفاعيل، وهي في هذه الآية: المفعول الأول الكاف الضمير، وجملة ﴿مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ فالمبتدأ والخبر سد مسد مفعولي أذرى الثاني والثالث.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩] في ذلك اليوم لا تملك نفس لنفس شيئا، فالأب لا يملك إنقاذ ابنه، والأم لا تملك إنقاذ ابنتها، ولا أحد يملك لأحد شيئا، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۖ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ۖ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أُمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

ففي الدنيا مثلاً لو شب حريق تجد الأم تفدي ابنتها بنفسها، لكن في الآخرة لا، فكل إنسان مشغول بنفسه.

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] ليس هناك ملك ولا رئيس ولا وزير ولا أمير، ليس لأحد أمر إلا لله عز وجل، قال الله عز وجل: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ [غافر: ١٨]، والآزفة هي الساعة القريبة، من أزف الشيء إذا اقترب، قال الشاعر^(١):
أَزِفَ التَّرْحُلُ غَيْرَ أَنْ رِكَابَنَا لَمَّا تَزُلْ بِرَحَالِنَا وَكَأَنَّ قَدِ

فَأَزِفَتْ أَي: قَرُبَتْ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَذُرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مِمَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٨-١٩] قبله فيها: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]،

وهذا معنى قوله: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

انتهى الكلام على هذه السورة العظيمة، وأنا أحثُّكم على تدبر القرآن وتفهم معانيه؛ لأنه أنزل عليكم كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، لم يقل: ليقرؤوه فقط، بل قال: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. فبين الله تعالى الحكمة من إنزال القرآن، وهو التدبر ثم العمل.

ولكن عليكم بالتفاسير الأثرية، كتفسير ابن كثير، وتفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي، وما أشبهها من هذه التفاسير المضمونة في العقيدة والفكر، وغير ذلك. واحذروا التفاسير التي يخشى منها، إما في العقيدة كتفسير بعض المعتزلة، كالكشف وهو تفسير الزمخشري، فهو تفسير جيد، لكن في علم اللغة: بلاغة وإعراباً وتضريفاً، وغير ذلك، والمفسرون الذين من بعده، والذين ينحون منحاه، كلهم عيال عليه، يأخذون من كلامه، لكن فيه اعتزال، وهذا مشكل، فهو يفسر القرآن على مذهب المعتزلة، وهذه مشكلة، فالطالب الذي لا يدرك حقيقته يسير وراءه معجباً بقوة أسلوبه حتى يهلك، فاحذروا مثل هذه التفاسير، وعليكم بالتفاسير الأثرية.



سورة المطففين

الدرس الأول:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَلَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [المطففين: ١-٦].

هذه السورة ابتدأها الله تعالى بالوعيد بالويل، وهي كلمة إما أن يُرادَ بها وادٍ في جهنم، وإما أنها كلمة وعيد وتهديد؛ ولهذا ابتدئت بالتنكير الدال على التعظيم، وبين الله أن المطففين هم الذين يريدون من الناس كمال حقوقهم، ولكنهم يهضمون الناس حقهم.

﴿أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ يعني استوفوا حقهم بالكيل، يستوفون الحق كاملاً، ولكنهم إذا كالأوا الناس، أي: إذا كالأوا للناس ما يجب للناس عليهم، أو وزنواهم، أي: أو وزنوا لهم؛ يخسرون الكيل والميزان، فيريدون أن يكون حقهم كاملاً، وأن ينقصوا الناس حقوقهم.

ويجب علينا ألا ننظر إلى هذه الآيات على أنها خاصة في الطعام الذي يُكال

أَوِ الَّذِي يُوزَنُ، وَلَكِنَّهَا مِثْلُ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُوفُّوهُ حَقَّهُ كَامِلًا وَلَكِنَّهُ يَنْقُصُهُمْ حُقُوقَهُمْ.

فَمَنْ ذَلِكَ مَا يَكُونُ بَيْنَ طَلِبَةِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ تَبَعًا لَهُ، وَيَهْضُمُهُمْ حَقَّهُمْ، وَيَغْمِطُهُمْ اجْتِهَادَهُمْ، وَلَا يَرَى لِأَقْوَالِهِمْ شَيْئًا مِنَ الْحِظِّ وَالنَّصِيبِ إِذَا كَانَتْ تُخَالِفُ مَا يَرَاهُ هُوَ بِنَفْسِهِ، فَيُرِيدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَكُونُوا تَبَعًا لَهُ، وَلَا يَتَّبِعُ النَّاسَ حَتَّى فِيهَا هُوَ الْحَقُّ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّهُ شَبَهُ مَعْصُومٍ، وَأَنَّ غَيْرَهُ مُعَرَّضٌ لِلْخَطَأِ.

وَهَذَا لَهُ نَصِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ؛ لِأَنَّهُ يَعْذِرُ نَفْسَهُ بِاجْتِهَادِهِ، وَلَا يَعْذِرُ النَّاسَ بِاجْتِهَادِهِمْ، وَقَدْ سَبَقَ وَأَنَّ نَبَهْنَا عَلَى هَذَا كَثِيرًا، وَقُلْنَا: إِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَرَى أَنَّهُ عَلَى صَوَابٍ فِي اجْتِهَادِهِ، يَجِبُ أَنْ يَقْدُرَ النَّاسَ قَدْرَهُمْ، وَأَلَّا يَرَى أَنَّهُمْ عَلَى خَطَأٍ فِي اجْتِهَادِهِمْ؛ لِأَنَّهُ إِذَا رَأَى ذَلِكَ -أَي: رَأَى أَنَّهُ عَلَى صَوَابٍ فِي اجْتِهَادِهِ وَأَنَّ غَيْرَهُ عَلَى خَطَأٍ فِي اجْتِهَادِهِ- فَهَذَا هُوَ الْمَطْفُفُ، الَّذِي إِذَا اِكْتَالَ عَلَى النَّاسِ اسْتَوْفَى، وَإِذَا كَالَهُمْ أَخْسَرَ.

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ النَّاسَ قِسْمَانِ: فُجَّارٌ، وَأَبْرَارٌ، أَمَّا الْفُجَّارُ فَالْمُرَادُ بِهِمْ هُنَا الْكَفَّارُ، فَكِتَابُهُمْ فِي سَجِّينَ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى؛ لِأَنَّهُ فِي النَّارِ. وَأَمَّا الْأَبْرَارُ فَفِي عِلِّيِّينَ، فِي أَعْلَى مَكَانٍ؛ لِأَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَالْجَنَّةُ مِنْهَا الْفِرْدَوْسُ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَسَقْفُهُ عَرْشُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَالْجَنَّةُ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وَالنَّارُ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ.

وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ أَنَّ هُنَاكَ قَوْمًا مُجْرِمِينَ، يَضْحَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ، وَإِذَا مَرَّ بِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ تَغَامَزُوا بِهِمْ سُخْرِيَةً وَاسْتَهْزَءُوا، وَإِذَا رَجَعُوا إِلَى أَهْلِهِمْ رَجَعُوا مُتَفَكِّهِينَ بِمَا نَالُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ السُّخْرِيَةِ وَالِاسْتَهْزَاءِ، وَإِذَا رَأَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، أَي: مُنْحَرِفُونَ عَنِ الْحَقِّ، مُجَانِبُونَ لِلصَّوَابِ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ الْيَوْمَ ذَكَرَهَا اللَّهُ عَمَّنْ سَبَقَ مِنَ الْمَجْرِمِينَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا هَذَا الْجَرَمَ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَجْرِمِينَ يَرَوْنَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُتَأَخِّرِينَ، وَأَنْهُمْ رَجَعِيُونَ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَزَفُوا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هُمُ التَّقَدِّمِيُّونَ، وَهُمْ الَّذِينَ عَلَى حَقٍّ، وَهُمْ الَّذِينَ يَقُودُونَ الْمَجْتَمَعَ إِلَى التَّقَدُّمِ وَالِازْدِهَارِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ يَقُودُونَ الْمَجْتَمَعَ إِلَى الْهَاسِيَةِ، وَإِلَى ضَلَالٍ فِي الْعَقِيدَةِ وَإِلَى خَطَأٍ فِي الْفِكْرِ، وَانْحِرَافٍ فِي الْعَمَلِ، كُلُّ مَا يَدْعُوهُ تَقَدُّمًا - وَهُوَ مُخَالَفٌ لِلشَّرْعِ - فَإِنَّهُ مُتَأَخِّرٌ، وَلَكِنْ لَا يَزَالُونَ يَسْخَرُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ.

وَمَوْقِفُ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَؤُلَاءِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَوْقِفَ الصَّارِمِ الصَّامِدِ، الَّذِي لَا تُزْحِزُّهُ هَذِهِ الْعَوَاصِفُ، وَسَوْفَ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ لِأَهْلِ الْحَقِّ، طَالَ الزَّمَنُ أَمْ قَصُرَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، فَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤].

وَكَانَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا يَضْحَكُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لَكِنَّهُمْ يَضْحَكُونَ ضَحِكًا بَعْدَهُ بَكَاءٌ، أَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَضْحَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمَجْرِمِينَ ضَحِكًا لَا بَكَاءَ بَعْدَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (٣٤) عَلَى الْأَرَايِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُوبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿[المطففين: ٣٤-٣٦].

رؤية المؤمنين لله تعالى يوم القيامة:

وفي هذه الآية من صفات الله: إثبات رؤية الله عز وجل، أي: إن الله تعالى يرى؛ ولكن رؤية الله لا تكون إلا في الآخرة، ورؤية المؤمنين لله عز وجل في الآخرة ثابتة في القرآن، وفي السنة، وإجماع السلف، ولم ينكرها أحد من سلف الأمة، ففي كتاب الله عدة آيات تدل على أن الله سبحانه وتعالى يرى يوم القيامة، منها هذه الآية: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، الضمير في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ﴾ يعود إلى الفجار.

وإذا كان الفجار محجوبين عن الله دل على أن الأبرار غير محجوبين عن الله؛ لأنهم لو حجبوا عن الله لم يكن بينهم وبين الفجار فرق، ولما كان للتنصيب على حجب الفجار عن الله فائدة، ولا نعلم فائدة لهذا إلا أن الأبرار ينظرون إلى الله.

ولهذا قال الشافعي رحمه الله: «مَا حُجِبَ عَنْهُ الْفَجَّارُ فِي حَالِ السَّخَطِ؛ إِلَّا لِيَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ أَوْ الْأَبْرَارُ فِي حَالِ الرِّضَا»^(١).

ومن هذه الآيات الدالة على رؤية الله تعالى يوم القيامة قوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرْوَاحِ يُنْظَرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥]، فإن هذه الآية يستدل بها أهل السنة على رؤية الله عز وجل، ووجه ذلك أنه حذف فيها المفعول، أي: لم يذكر المنظور إليه، وإذا كانت في مقام الثناء ومقام المدح؛ فإن أعظم ما يُنظر إليه وأفضل ما يُنظر إليه، وألذ ما يُنظر إليه هو الله عز وجل؛ ولهذا لا يجد المؤمنون ألذ من النظر إلى وجه الله عز وجل، أسأل الله أن لا يحرمنا إياها.

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٦٠، رقم ٨٨٣)، ونصه: قَالَ الشَّافِعِيُّ: فَلَمَّا أَنَّ حُجْبُوا هَؤُلَاءِ فِي السَّخَطِ كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] فقال في الأولى: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ بِالضَّادِ، وَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بِالظَّاءِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْأُولَىٰ مِنَ النَّصْرَةِ أَوْ مِنَ النَّصَارَةِ وَهِيَ الْحُسْنُ، وَالثَّانِيَةُ مِنَ النَّظَرِ وَهِيَ الرُّؤْيَةُ، تَقُولُ: نَظَرْتُ إِلَيْهِ: إِذَا رَأَيْتَهُ.

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهِيَ الْوَجْهُ النَّاطِرَةُ؛ لِأَنَّ الْوَجْهَ النَّاصِرَةَ هِيَ وَجْهُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٢٨﴾ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦]، فَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الزِّيَادَةَ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ^(١)، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ تَفْسِيرَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْقُرْآنِ هُوَ أَقْوَىٰ مَا يُفَسَّرُ بِهِ الْقُرْآنُ، بَعْدَ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يُفَسَّرُ إِمَّا بِكَلَامِ اللَّهِ، أَوْ بِكَلَامِ الرَّسُولِ، أَوْ بِكَلَامِ الصَّحَابَةِ، أَوْ بِكَلَامِ التَّابِعِينَ، أَوْ بِكَلَامِ الْأَئِمَّةِ وَالْعُلَمَاءِ مِنْ بَعْدِهِمْ.

وَأَعْلَىٰ أَنْوَاعِ التَّفْسِيرِ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ، ثُمَّ تَفْسِيرُهُ بِالسَّنَةِ، فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فَسَّرَ الزِّيَادَةَ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ؛ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِهَا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَمَّا السَّنَةُ فَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِرُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَيْنَانَا بِأَبْصَارِهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَكَمَا تَرُونَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ إِلَّا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم (١٨١).

وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»^(١).

وَالصَّلَاةُ الَّتِي قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ هِيَ صَلَاةُ الْفَجْرِ، وَالصَّلَاةُ الَّتِي قَبْلَ غُرُوبِهَا هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢). الْبَرْدَانِ: الْفَجْرُ وَالْعَصْرُ؛ لِأَنَّ الْفَجْرَ فِي بَرَادِ اللَّيْلِ، وَالْعَصْرُ فِي بَرَادِ النَّهَارِ، وَقَدْ أَنْشَدُوا آيَاتًا فِيهَا ذَكَرُ الرُّؤْيَا وَأَنَّهَا مُتَوَاتِرَةٌ^(٣):

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبَ وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبَ
وَرُؤْيَا شَفَاعَةً وَالْحَوْضُ وَمَسَحَ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

مِمَّا تَوَاتَرَ: يَعْنِي أَنَّ هُنَاكَ أَحَادِيثُ مُتَوَاتِرَةٌ غَيْرُ هَذِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «مِمَّا تَوَاتَرَ»، وَقَالَ فِي النَّهَايَةِ: «وَهَذِي بَعْضُ»، فَمِمَّا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَمْ يُنْكَرْهَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَإِنَّمَا حَدَثَ إِنكَارُهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْمَفْضَلَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مُنْكَرَهَا حَرِيٌّ بِأَنْ يُحْرَمَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْأَلَا يَرَى رَبَّهُ؛ لِأَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَرَى، مَعَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، وَأَثَبَتْهُ لَهُ رَسُولُهُ ﷺ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٣)، ومسلم:

كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٤٢)، ومسلم:

كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (١٠١١).

(٣) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص: ١٨)، نقلاً عن الشيخ أبي الله محمد التاودي (ت ١٢٠٩ هـ) في

حواشيه على الجامع الصحيح.

الدرس الثاني:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي
اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ،
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ وَإِذَا
كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿[المطففين: ١-٣].

قَوْلُهُ: ﴿وَيْلٌ﴾: كلمةٌ وعيدٌ يُتَوَعَّدُ بِهَا النَّاسُ.

قَوْلُهُ: ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾: الْمُطَفِّفُونَ بَيْنَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى
النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، وَهَذَا مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ.
فَالْمُطَفِّفُونَ هُمْ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ فَإِذَا كَالُوا
لَهُمْ، ﴿أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ، ﴿يُخْسِرُونَ﴾، فَهُمْ يُنْقِصُونَ، فَهَذَا الْمُطَفِّفُ، إِنْ
كَانَ الْحَقُّ لَهُ اسْتَوْفَاهُ كَامِلًا، وَإِنْ كَانَ الْحَقُّ عَلَيْهِ نَقَصَ فِيهِ، وَهَذَا لَيْسَ خَاصًّا فِيهِ
يُكَالُ وَيوزَنُ، إِنَّمَا هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، وَالْحُكْمُ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْحَقُوقِ، لَكِنَّ الرَّبَّ
عَزَّوَجَلَّ ذَكَرَ الْكَيْلَ وَالْوِزْنَ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ.

فَالْمَوْظَفُ إِذَا جَاءَ لِأَمِينِ الصَّنْدُوقِ وَكَانَ رَاتِبُهُ عَشْرَةُ آلَافِ رِيَالٍ، وَأَعْطَاهُ
عَشْرَةَ آلَافِ رِيَالٍ إِلَّا رِيَالًا وَاحِدًا، فَيَقُولُ الْمَوْظَفُ لِأَمِينِ الصَّنْدُوقِ بَاقِ رِيَالٍ أَعْطَانِي

إياه، ولكن هذا الموظف تجده يأتي بعد بدء الدوام بساعة، ويخرج قبل نهاية الدوام بساعة، فهذا يعد من المطففين.

فإذا اكتال على الناس استوفى، فإذا أتى إلى أمين الصندوق قال أعطني حقي كاملاً، لكن عند أداء الوظيفة لا يؤدّيها على الوجه الكامل، فيتأخر على بداية الدوام، أو يتقدم قبل انتهاء الدوام، وربما يأتي في أول الدوام، ولا يخرج إلا في آخر الدوام، ولكن إذا جاءه الناس يراجعونه فإذا هو مشغول في التليفون بأمور خاصة، فهذا يعتبر مضيعاً للواجب، ومن المطففين، فهذا الرجل يفرض في حق الدولة، مقصر في حق الشعب، فهو جامع بين التفريط، وبين العدوان.

عكس ذلك قوم نزيهون بريئون حريصون على إبراء الذمة، يأتون في أول الدوام، ويخرجون في آخر الدوام، ويقولون ليس عندنا عمل الآن فهل يجوز أن نقرأ القرآن، فيجوز لأنه لم يفرض ولم يعتد.

ويقول ليس عندي عمل الآن هل يجوز أن أصلي ركعتي الضحى؟

نقول: نعم لكن لا تتعدى مكان العمل، صل في مكان العمل، في الغرفة التي أنت تعمل فيها، حتى إذا جاء أحد وجدك حاضراً.

فالتظيف ضابطه أن يأخذ الإنسان بجميع حقوقه، وأن ينقص الحقوق التي عليه، فالرجل مع زوجته يطالبها أن تقوم بكل حقوقه، ويقصر في حقوقها فنسميه مطففاً، فكل من طالب بحقه وقصر في حق الآخرين فإنه مطفف وله هذا الوعيد: ﴿وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ ۝١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦].

قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ الظنُّ هنا بمعنى اليقين، أي: أفلا يتيقن هؤلاء أنهم مبعوثون ليومٍ عظيمٍ، وهذا اليومُ يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين، ويكونُ قيامُهم كما وصفَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، يأتونَ كما خُلِقُوا في بطونِ أمهاتهم حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا، وكذلك وصفَ النبي ﷺ قيامَ الناسِ يومَ القيامةِ «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا»^(١). حُفَاةٌ: غيرُ مُتَعَلِّينَ، عُرَاةٌ: غيرُ مُكْتَسِبِينَ، غُرُلًا: غيرُ مُحْتَوِينَ، وفي بعضِ ألفاظِ الحديثِ «بُهْمًا»: قالَ العلماءُ أي ليسَ معهم مالٌ، لأن الله قالَ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا، «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ»^(٢)، قالَ الراوي: لا أدري أرادَ بالميلِ المسافةَ، أو أرادَ به ميلَ المكحلةِ، وسواءٌ هذا أو هذا فإن الشمسَ تكونُ قربةً من العبادِ.

فإن قيل: كيف يَبْقَى الناسُ، والشمسُ منهم بهذا القُرْبِ؟

فالجوابُ: أن أحوالَ الآخرةِ لا تقاسُ بأحوالِ الدنيا، أليسَ الرجلُ في الجنةِ ينظرُ إلى مُلكِهِ في الجنةِ مسيرةَ ألفِ عامٍ، يَنظُرُ أَقْصَاهُ كما ينظرُ أَدْنَاهُ، لكن في الدنيا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، رقم (٢٨٦٤).

لا يَقْدِرُ على هذا، فَأَنْتَ وَظِيفْتُكَ فِيما أَخْبَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ أَنْ تَقُولَ:
أَمَّا وَصَدَّقْنَا، وَلَا تَقُولُ كَيْفَ وَلَمْ؛ لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ لَكَ.

فِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الْمُؤْمِنُونَ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ وَالْمَكَانُ وَاحِدٌ،
وَمَعَ ذَلِكَ فَالْكَفَّارُ فِي ظُلُمَاتٍ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَغْرُقُ حَتَّى يَصِلَ الْعَرَقُ إِلَى كَعْبِيهِ،
وَبَعْضُهُمْ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى حِقْوِيهِ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى الْوَجْهِ، وَهُمْ فِي مَقَامٍ
وَاحِدٍ، وَفِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَيَخْتَلِفُونَ هَذَا الْاِخْتِلَافَ، فَمَوْقِفُنَا مِنْ هَذَا الْاِخْتِلَافِ
هُوَ التَّصَدِيقُ، وَالْأَنْقِيسَ أَحْوَالِ الْآخِرَةِ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا.

فَالرُّبُّ عَزَّجَلَّ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، عَالٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَيَنْزِلُ آخِرَ اللَّيْلِ إِلَى السَّمَاءِ
الدُّنْيَا، فَيَقُولُ «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ
لَهُ»^(١). وَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ كَيْفَ يَنْزِلُ وَهُوَ عَالٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَوْظِيفْتُكَ أَنْ تَقُولَ
أَمَّا وَصَدَّقْنَا، أَمَا كَيْفَ وَلَمْ فِي أُمُورٍ غَيْبِيَّةٍ فَهَذَا لَا يُرَدُّ عَلَيْهِ.

وَمَا غُرَّ مَنْ غُرَّ مِنَ النَّاسِ الْمُنْكَرِينَ لِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَاسُوا الْغَائِبَ عَلَى
الْحَاضِرِ الْمَشَاهِدِ، فَضَلُّوا، وَلَوْ أَنَّهُمْ سَلَكُوا مَسْلَكَ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ وَالْإِذْعَانِ،
لَسَلِمُوا مِنْ هَذِهِ الْبِدْعِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وَأُمُورِ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۚ وَإِذَا مَرُّوا
بِهِمْ يَنْغَامِرُونَ ۚ وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۚ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ
لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ التَّهَجُّدِ، بَابُ الدُّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، رَقْمُ (١١٤٥)، وَمُسْلِمٌ:
كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، وَالْإِجَابَةُ فِيهِ، رَقْمُ (٧٥٨).

ثم قَسَمَ اللهُ النَّاسَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى قَسْمَيْنِ: أَبْرَارٍ، وَضُدَّهُمُ الْفَجَّارُ، وَبَيْنَ ثَوَابِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَبِهِمُنَا مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾

انتبهوا للضمائر، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾، المجرمُ يَضْحَكُ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَوَصَفَ اللهُ كُلَّ مَنْ يَضْحَكُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ مُجْرِمٌ، فَإِذَا رَأَيْتَ أَحَدًا يَضْحَكُ مِنْ فِعْلِ الْمُؤْمِنِ بِمَا يُوَافِقُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَصِفْهُ بِأَنَّهُ مُجْرِمٌ، فَإِذَا ضَحِكَ إِنْسَانٌ عَلَى شَخْصٍ مُطَبِّقٍ لِلشَّرِيعَةِ كإِعْفَاءِ اللَّحِيَةِ، فَهَذَا مُجْرِمٌ، لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾

أحياناً يَمُرُّ المجرمُ بالمؤمنِ وهو جالسٌ، فَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ تَغَامَزُوا، أَوْ بِالْعَكْسِ، فَقَدْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ هُوَ الَّذِي يَمُرُّ بِالْمُجْرِمِ، فَالضَّمَاثِرُ هُنَا صَالِحَةٌ لِهَذَا وَهَذَا.

قوله: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾

الْمُنْقَلِبُ هُوَ الْمُجْرِمُ، يَنْقَلِبُ لِأَهْلِهِ، وَيَرَى أَنَّهُ مُتَنَعِّمٌ بِضَحِكِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ، إِذَا رَأَى الْمُجْرِمُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ.

الآن اختلفَ الأسلوبُ، صَارُوا يَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ رَجَعِيُونَ. وَالآيَةُ تَقُولُ هَؤُلَاءِ ضَالُّونَ، فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ، وَإِنْ اختلفَتِ العبارةُ، جَاءَتْ عِبَارَةٌ جَدِيدَةٌ جَاءَ بِهَا النِّصَارَى، مِثْلَ أَنْ يَقُولُوا: هَؤُلَاءِ أَصُولِيُونَ، أَوْ هَؤُلَاءِ مُتَشَدِّدُونَ، أَوْ هَؤُلَاءِ مُتَطَرِفُونَ، أَوْ

على طرفِ الجدارِ يمكنُ أن يسقطُوا من الجدارِ، كُلُّ هذا المقصودُ منه تشويهُ المتمسكِ بالإيمانِ.

ونحنُ لا ننكرُ أنه يوجدُ من الإخوةِ مَنْ هو متشددٌ في الدينِ، كُلُّ شيءٍ عندهُ بدعةٌ، بل كُلُّ شيءٍ عندهُ كفرٌ، لكن هؤلاءِ إن قالوا: إنَّ هذا من الدينِ الإسلاميِّ، فهمُ مُحْطِئونَ في ذلكَ، ولا نَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ كما يُكْفَرُونَ هُمْ مَنْ شَاؤُوا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، ولا إِنَّهُمْ ضَلَّالٌ، ولكنْ نَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ، أو هَذَا التَّصَرُّفَ خطأً.

نحنُ لا نقولُ: إن كُلَّ داعيةٍ لله عَزَّوَجَلَّ يكونُ على صوابٍ في طريقِ الدعوةِ، بل قَدْ يُحْطِئُ كَثِيرًا، لكن نقولُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَصِفُونَ الدُّعَاةَ بِأَنَّهُمْ ضَالُّونَ، أو بِأَنَّهُمْ مَظْطَرَفُونَ، أو متشددونَ، أو أَنَّهُمْ أَصُولِيونَ، أي يَتَمَسَّكُونَ بِأَصْلِ دِينِهِمْ، إن كانَ كذلكَ فكلمةُ أَصُولِيٍّ تَنْطَبِقُ حَتَّى عَلَى الْقَسَّاسِينَ، فَالْقَسَاوِسَةُ النَّصَارَى هُمْ أَصُولِيونَ يَتَعَصَّبُونَ لِدِينِهِمْ وَيَتَمَسَّكُونَ بِهِ، وَلِهَذَا عَدَلَ النَّصَارَى عَنْ كَلِمَةِ مُسْلِمِينَ إِلَى كَلِمَةِ أَصُولِيِّينَ، يَعْنِي كَلِمَةَ مُسْلِمِينَ تُهَدِّدُهُمْ يَرْتَجِفُ النَّصَارَى مِنْهَا، لَا يُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ صَحْوَةُ الْمُسْلِمِينَ صَحْوَةُ إِسْلَامٍ، بَلْ صَحْوَةُ أَصُولِيَّةٍ كَمَا يَزْعُمُونَ.

فَأَسَالِبُ الْمَجْرِمِينَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ مَغْزَاهَا وَاحِدٌ، وَهُوَ الْحَطُّ مِنْ قَدْرِ الْمَتَمَسِّكِينَ بِدِينِ اللَّهِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾

[المطففين: ٣٤].

قَوْلُهُ: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ (ال) هُنَا لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ، فَأَقْرَبُ الْعُهُودِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ عَهْدُ ذِكْرِيٍّ.

فاليوم، يعني بذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الناسُ لربِّ العالمين.

قوله: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ﴾ من الكفار، مُتَعَلِّقٌ بما بعدها لا بما قبلها والمعنى: فاليوم الذين آمنوا يضحكون من الكفار، ولهذا يحسنُ أن تَقِفَ قليلاً عند قولك: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ لأجل أن يَعْرِفَ السامعُ أن قوله ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ متعلقةٌ بما بعدها، ويكونُ المعنى: فاليوم الذين آمنوا يضحكون من الكفار.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾، فرحاً وسروراً بنعمة الله، حيث لم يكونوا مثل هؤلاء المجرمين، أما ضحك المجرمين في الدنيا فكان عاقبته البكاء والندم والحزن والبأس.

قوله: ﴿عَلَى الْأَرْأْيِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥] الأرائك، جمع أريكة، وهي السرر الفخمة التي هي المتكأ، يَنْظُرُونَ إلى ما أعدَّ الله لهم من النعيم، ومنه النظرُ إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي سورة الصافات قال الله عَزَّوَجَلَّ في أهل الجنة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۖ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۖ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۖ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ءَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٠-٥٣]، يعني كان لي في الدنيا قرينٌ مُّكذَّبٌ بالبعث يقول: هل تُصدقُ أننا إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً نُبعثُ ونُجازى؟ لكن المؤمنُ رفضَ هذا القرين، ومَشَى في طريقِ مُعَاكِسٍ، فآمَنَ بالبعثِ والجزاء.

فيقول الرجلُ من أهل الجنة، ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلِعُونَ﴾ [الصافات: ٥٤] هل هنا للتشويق، يعني: هلا تَطْلِعُونَ إلى هذا القرين، ﴿فَاطْلَعَ فَرَّءُهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] أي رأى قرينه الذي كان يَقُولُ في الدنيا كيفَ تصدقُ بالبعث، ﴿فَرَّءُهُ

فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿ فِي أَصْلِهَا وَقَعْرِهَا، قَالَ لَهُ: ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴾ [الصفات: ٥٦]،
لَتُهْلِكَنِي لَوْ اتَّبَعْتُكَ، ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصفات: ٥٧]، أَيَّ مَنْ
الْمُحْضَرِينَ لِلْعَذَابِ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ مَنْ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ فِي الْجَنَّةِ يَنْظُرُ إِلَى مَنْ هُوَ فِي أَسْفَلِ
السَّافِلِينَ فِي النَّارِ؟

قُلْنَا: مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا مَا يَشْهَدُ بِإِمْكَانِيَةِ ذَلِكَ، فَالتِّلْفِيزِيُونُ الْآنَ، يَخْطُبُ رَئِيسُ
الْقَوْمِ فِي بَلَدِهِ، وَنَشَاهِدُهُ نَحْنُ مَعَ هَذَا الْبَعْدِ الْعَظِيمِ، مَعَ أَنَّ الصَّنْعَةَ صَنَعَةُ بَشَرٍ،
فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ عَزَّوَجَلَّ.

يَخَاطَبُهُ يَقُولُ: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴾، يَخَاطَبُهُ وَذَاكَ يَسْمَعُ، وَهَذَا مُمْكِنٌ، لِأَنَّ
أَحْوَالَ الْآخِرَةِ لَيْسَتْ كَأَحْوَالَ الدُّنْيَا، بَلْ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا مَا يَشْهَدُ لِذَلِكَ، وَهُوَ
الْهَاتِفُ فَيَكَلِّمُكَ مَنْ فِي أَقْصَى الْمَشْرِقِ، أَوْ فِي أَقْصَى الْمَغْرِبِ، وَأَنْتَ فِي بَلَدِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ ثَوَابَ الْكِفَارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين: ٣٦].

الْجُمْلَةُ هُنَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ، وَالْمُرَادُ بِالْإِسْتِفْهَامِ هُنَا التَّحْقِيقُ أَيُّ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ
ثَوَّبَ الْكَفَّارَ وَجَازَاهُمْ جَزَاءَ فَعْلِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى
الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١].



الدرس الثالث:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمْ حَاجُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١-١٥].

يقول الله تبارك وتعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

أولاً: الكلام على البسملة هل هي من القرآن أو ليست من القرآن؟

والجواب: أن البسملة من القرآن بلا شك، وهي آية مستقلة ليست من السورة التي بعدها، ولا من السورة التي قبلها، ولهذا كان الراجح من أقوال العلماء أن البسملة ليست من الفاتحة، بل هي مستقلة، فلو قرأ الإنسان الفاتحة من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] إلى آخرها فصلاته صحيحة؛ لأن البسملة ليست من الفاتحة.

ويدل على أنها ليست من الفاتحة أنها لم تكن آية من أي سورة من القرآن،

فكل سُورِ الْقُرْآنِ فِيهَا الْبِسْمَلَةُ إِلَّا (بَرَاءَةٌ)، وَلَا تُعَدُّ مِنَ السُّورَةِ.

وَيَدُلُّ لِهَذَا أَيْضًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَجْهَرُ بِهَا فِي الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ، يَعْنِي الْمَغْرَبَ وَالْعِشَاءَ وَالْفَجَرَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ لَا يَجْهَرُونَ بِالْبِسْمَلَةِ فِي الْفَاتِحَةِ^(١)، وَهَذَا يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْفَاتِحَةِ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ مِنْهَا لَجْهَرَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَمَا يَجْهَرُ بِبَقِيَةِ الْآيَاتِ، هَذَا دَلِيلٌ ثَانٍ.

دَلِيلٌ ثَالِثٌ: أَنَّهُ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجْدِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(٢).

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»، فَلَنَنْظُرُ كَيْفَ هَذِهِ الْقِسْمَةُ: ثَلَاثُ آيَاتٍ لِلَّهِ، وَثَلَاثُ آيَاتٍ لِلْعَبْدِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير، رقم (٧٤٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب حجة من قال: لا يَجْهَرُ بِالْبِسْمَلَةِ، رقم (٣٩٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

وآية بينهما:

الذي لله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ② الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ③ مَلِكٌ يَوْمَ
الدِّينِ ﴿[الفاتحة: ٢-٤] كُلُّ هَذِهِ حَقٌّ لِلَّهِ مُحَضَّرٌ.

والذي للعبد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ④ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿[الفاتحة: ٦-٧].

والآية الرابعة وهي الوسطى من السبع: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
[الفاتحة: ٥] بين الله وبين العبد. وهذا دليل واضح.

إذن، البسمة آية مُسْتَقِلَّةٌ من كتاب الله، ليست من الفاتحة ولا من غيرها من
السور، ولكنها آية مُسْتَقِلَّةٌ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] (ويل) كلمة وعيد، وهي كثيرة
في القرآن، وهي مبتدأ، وقوله: ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ خبر المبتدأ متعلق بمحذوف، والتقدير:
ويل كائن للمطففين.

ومن المطفف؟

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ ⑤ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿
[المطففين: ٢-٣] إذا اكتالوا على الناس يستوفون: يأخذون حقهم كاملاً، وإذا كالوا
للناس يخسرون: أي ينقصون، فهم ظلمة يأخذون حقهم كاملاً، ويُعطون حق
غيرهم ناقصاً.

وهل هذا الحكم خاص بما يُكَالُ ويوزن أو بكل الحقوق؟

الجواب: بكلِّ الحقوق، لكنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَ الكَيْلَ والوزنَ للتمثيلِ فقط، وإلا ففي جميعِ الحقوقِ كلُّ إنسانٍ يريدُ أن يأخذَ حَقَّهُ كاملاً من النَّاسِ، ويُعْطِيَهُمْ حَقَّهُمْ ناقصاً، فإنه داخلٌ في هذه الآية: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

والنَّاسُ في هذه المعاملة أربعة أقسام:

الأول: مَنْ يَسْتَوْفِي حَقَّهُ كاملاً وَيُوفِّي الَّذِي عَلَيْهِ كاملاً، وهذا عَدْلٌ، لا إشكال فيه.

والثاني: مَنْ يَأْخُذُ حَقَّهُ كاملاً، وَيَنْقُصُ حَقَّ النَّاسِ، وهذا مُطَفِّفٌ.

والثالث: مَنْ يُعْطِي الحَقَّ كاملاً إِذَا كَانَ عَلَيْهِ، وَإِذَا كَانَ لَهُ تَسَامَحَ فِيهِ، وَأَخَذَهُ ناقصاً، وهذا مُحْسِنٌ.

والرَّابِعُ: مَنْ يَنْقُصُ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِ، وَالَّذِي لَهُ، وهذا ظَالِمٌ بالنسبةِ لحَقِّ الغير، أما بالنسبةِ لحَقِّ نَفْسِهِ فهو حُرٌّ.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤] يعني أَلَا يَتَيَقَّنُ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ، متى؟ ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٥]، واللام هنا للتوقيف؛ كقوله تَعَالَى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

قال: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هذا اليومُ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] يقومون من قبورهم.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧] يعني أَنَّهُمْ

كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ فِي سَجِينٍ ﴿٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿١٠﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٢﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٣﴾ إِذَا تُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴿١٤﴾ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ﴿١٥﴾ قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ [المطففين: ٨-١٣] يقول هذا إما جحودًا وإنكارًا، وإما لأن الله طبع على قلبه فلا يصل إليه نور القرآن، ويظنُّ هذا من الأساطير التي ليس لها فائدة.

فكون الإنسان يقول: أساطير الأولين نقول: يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ:

المعنى الأول: أن يقول ذلك على سبيل الجحود والإنكار، وإن كان يعتقد أنه حق.

وإما أن يكون هذا اعتقاده؛ لأن الله طمس على قلبه فلا يرى عظمة هذا القرآن.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ يعني كلا ليس أساطير الأولين، بل هو كلام الله ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وهذا يرجح المعنى الثاني الذي قلنا في قولهم: أساطير الأولين: إنهم من أجل الذنوب التي تراكمت على قلوبهم -والعياذ بالله- صاروا لا يعرفون الحق.

قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] يعني: حقًا إنهم لمحجوبون عن الله عز وجل في ذلك اليوم، وغيرهم غير محجوب، فالفجاء محجوبون عن الله لا يرونه، وغيرهم ليسوا محجوبين، بل يرون الله عز وجل.

وهل هذه الرؤية للمؤمنين رؤية حقيقية، أو هي بمعنى قوة اليقين؟ لأن من كان على يقين تام كأنها يشاهد ما تيقنه، فنحن الآن نؤمن بأن الدار الآخرة حق،

وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، كَأَنَّا نُشَاهِدُهَا رَأْيَ عَيْنٍ، فَهَلْ مَعْنَى قَوْلِنَا: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللَّهَ أَيَّ: يَتَيَقَّنُونَهُ، فَيَكُونُ فِي قُلُوبِهِمْ كَالْمُرْتَبِيِّ بِالْعَيْنِ، أَوْ أَنَّهَا رُؤْيَا حَقِيقَةً؟

الجواب: الثَّانِي؛ رُؤْيَا حَقِيقَةً، فَاَلْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ كَمَا يَشَاءُ اللَّهُ، أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَرَوْنَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَرَاكَ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ.

وَلَقَدْ زَاغَ قَوْمٌ حَجَبَهُمُ اللَّهُ عَنِ الْحَقِّ، كَمَا حَجَبَ الْكَفَّارَ عَنْ رُؤْيَيْهِ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَا يُرَى، وَمُحَالٌ أَنْ يُرَى. وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ ضَلُّوا سَوَاءَ السَّبِيلِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ ضَلُّوا سَوَاءَ السَّبِيلِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ صَرِيحٌ، وَالسُّنَّةُ صَرِيحَةٌ، فِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يُرَى:

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] المعجمة الأولى في (ناصر) أَخْتُ الصَّادِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أَخْتُ الطَّاءِ، إِذْنٌ يَخْتَلِفُ الْمَعْنَى كَمَا اخْتَلَفَ اللَّفْظُ، ﴿نَّاصِرَةٌ﴾ يَعْنِي: حَسَنَةٌ بَهِيَّةٌ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أَيُّ تَنْظُرُ بِعَيْنِهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ النَّظَرَ إِذَا أُضِيفَ إِلَى الْوَجْهِ فَالْمُرَادُ النَّظَرُ بِالْعَيْنِ، فَهَذِهِ آيَةٌ صَرِيحَةٌ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أَيُّ بِالْعَيْنِ، فَهَذَا الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ.

وَالدَّلِيلُ الثَّانِي: الْآيَةُ الَّتِي مَعَنَا: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾

قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاللَّهُ مَا حَجَبَ هَؤُلَاءِ إِلَّا وَأَوْلَتْكَ يَنْظُرُونَ»^(١).
يَعْنِي مَا حَجَبَ الْفَجَارَ إِلَّا وَالْأَبْرَارُ يَنْظُرُونَ.

(١) أَخْرَجَهُ اللَّالِكَاثِيُّ فِي شَرْحِ أَصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ (٣/ ٥٦٠، رَقْم ٨٨٣)، وَنَصَبَهُ: قَالَ الشَّافِعِيُّ: فَلَمَّا أَنَّ حُجُبًا هَؤُلَاءِ فِي السَّخَطِ كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا.

الدليل الثالث: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦] فسر أعلم الناس بكلام الله عزَّ وجلَّ مُحَمَّدٌ رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فسر الزيادة بأنها النظرُ إلى وجهه الله^(١)، ولا يمكنُ أن نرى أحداً يُفسِّر القرآنَ أعلمَ بالقرآنِ من رسولِ الله، ولا يمكنُ أن نرى أحداً أعلمَ بمعاني كلامِ الله من رسولِ الله، وقد فسر الزيادة بأنها النظرُ إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ.

الدليل الرابع: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في أهلِ الجنة: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] نُفسِّر المزيْدَ بأنه النظرُ إلى وجهِ الله، كما فسر النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الزيادة بأنها النظرُ إلى وجهِ الله.

الدليل الخامس: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٣] ينظرونَ كلَّ ما فيه النعيمُ، وأَجَلُ النعيمِ وألذُّه وأعظمُّه النظرُ إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ.

فهذه خمسُ آياتٍ من كتابِ الله تدلُّ على أنَّ الله تعالى ينظرُ إليه عباده الأبرارُ المؤمنونَ.

الدليل السادس من القرآن: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لم يقل: لا تراه، بل قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾، ونفي الإدراكِ يدلُّ على ثبوت أصلِ الرؤيةِ لكن بدون إدراكٍ.

وهذه الآية من العجبِ أن بعضهم قال: إنَّها تدلُّ على نفي الرؤية، ولكنه

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١).

أخطأ خطأ عظيماً؛ إما لعجمته ولُكُنته وكونه لا يعرف مدلول كلام العرب، أو لعدم تأمله، الله أعلم، لكن الآية عند التأمل تدل على رؤية الله عز وجل.

فهذه ست آيات من كتاب الله يثبت الحكم بواحدة منها، فكيف وهي آيات متتابعة على معنى واحد.

أما السنة: فإن أحاديث السنة متواترة بأن المؤمنين يرون الله عز وجل، منها قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ». وهل أوضح من القمر ليلة البدر؟ أبداً، فالقمر في أول الشهر وآخر الشهر ضعيف، لكنه عند منتصف الشهر واضح، «لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ» يعني لا يضم بعضكم بعضاً فيقول: يا فلان تعال لأريك، تعال انظر. لأن الشيء واضح كالقمر ليلة البدر، «فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»^(١).

والمراد بالصلاتين: الصلاة التي قبل طلوع الشمس: الفجر، والتي قبل غروبها: العصر، فهاتان الصلاتان هما أفضل الصلوات، وأفضلهما العصر؛ لقول الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وهي صلاة العصر. ومع الأسف أن بعض الناس لا يحافظ على صلاة العصر؛ لأنه ينام بعد الظهر، ولا يحافظ على صلاة الفجر لأنه ينام بالليل، فيسهر إلى قرب الفجر ثم ينام إلى أن يأتي وقت العمل، إلا من شاء الله.

وأخبر النبي ﷺ أَنَّا نَرَى رَبَّنَا عَيْنًا كَمَا نَرَى الشَّمْسَ صَحْوًا، ليس دُونَهَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣).

سَحَابٌ^(١)، فانظر إلى تحقيق الرؤية وتثبيتها بهذا التشبيه، شبه رؤية الله برؤية هذين الكوكبين الشمس والقمر لوضوحهما وبيانها. وليس المراد تشبيه المرئي بالمرئي، كلاً والله؛ لأن الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].
ومما قيل^(٢):

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبَ وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبَ
وَرُؤْيَا شَفَاعَةً وَالْحَوْضُ وَمَسَحُ خُفَيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

الشاهد من هذين البيتين قوله: «وَرُؤْيَا»، وهو كذلك، فأحاديث الرؤية متواترة، والمتواتر يقول العلماء: إنه يُفيد العلم اليقيني، فإذا انضمت هذه الأحاديث إلى الآيات الكريمة التي ذكرناها، وهي ست آيات، وانضم إلى ذلك إجماع الصحابة؛ لأنه لم يرد عن الصحابة حرف واحد بنفي رؤية الله عز وجل؛ تبين أن من خالف ذلك فهو ضالٌّ.

نسأل الله أن يهديهم، ولا نسأل الله أن يحرمهم رؤيته، بل نقول: نسأل الله أن يهديهم حتى يروا ربهم عز وجل.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).
(٢) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص: ١٨)، نقلاً عن الشيخ أبي الله محمد التاودي (ت ١٢٠٩ هـ) في حواشيه على الجامع الصحيح.

الدرس الرابع:

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبيِّنا محمد خاتم النبيين، وإمام
المتقين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإننا سمعنا فيما قرأه أئمتنا سورة المطففين، وهي قول الله تعالى ﴿وَيْلٌ
لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ
۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
[المطففين: ١-٦].

فهذه السورة ابتدأها الله عزَّ وجلَّ بالوعيد بالويل، وهي كلمة إما أن يُراد بها
وادي في جهنم، وإما أنها كلمة وعيد وتهديد، ولهذا ابتدئت بالتنكير الدال على التعظيم،
وبيَّن الله أن المطففين هم الذين يريدون من الناس كمال حقوقهم، ولكنهم يهضمون
الناس حقهم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾.

معنى قوله تعالى: ﴿أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ استوفوا حقهم في الكيل،
يستوفون حقهم كاملاً، ولكنهم إذا كالأ للناس ما يجب للناس عليهم ﴿أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾
أي: وزنوا لهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾ الكيل والميزان يريدون أن يكون حقهم كاملاً، وأن
ينقصوا الناس حقوقهم.

لا تنظروا إلى هذه الآية على أنها خاصة في الطعام الذي يُكأل أو الذي
يوزن، ولكنها مثل لكل من أراد من الناس أن يوفوه حقه كاملاً، ولكنه ينقصهم
حقوقهم.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَكُونُ بَيْنَ طَلَبَةِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ تَبَعًا لَهُ، فِيهِضَمَهُمْ حَقَّهُمْ، وَيَغْمِطَهُمْ اجْتِهَادَهُمْ، وَلَا يَرَى لِأَقْوَالِهِمْ شَيْئًا مِنَ الْحِطِّ وَالنَّصِيبِ إِذَا كَانَتْ تُخَالِفُ مَا يَرَاهُ هُوَ بِنَفْسِهِ، فَيُرِيدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَكُونُوا تَبَعًا، وَلَا يَتَّبِعُ النَّاسَ حَتَّى فِيمَا هُوَ الْحَقُّ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّهُ شَبَهُ مَعْصُومٍ، وَأَنَّ غَيْرَهُ مُعَرَّضٌ لِلخَطَأِ.

وَهَذَا لَهُ نَصِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ؛ لِأَنَّهُ يَعْذِرُ نَفْسَهُ فِي اجْتِهَادِهِ، وَلَا يَعْذِرُ النَّاسَ فِي اجْتِهَادِهِمْ، وَقَدْ نَبَّهْنَا عَلَى هَذَا كَثِيرًا فِي هَذَا الْمَجْلِسِ وَفِي مَجَالِسٍ أُخْرَى، وَقُلْنَا: إِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَرَى نَفْسَهُ عَلَى صَوَابٍ فِي اجْتِهَادِهِ يَجِبُ أَنْ يُقَدَّرَ النَّاسَ قَدْرَهُمْ، وَأَلَّا يَرَى أَنَّهُمْ عَلَى خَطَأٍ فِي اجْتِهَادِهِمْ؛ لِأَنَّهُ إِذَا رَأَى أَنَّهُ عَلَى صَوَابٍ فِي اجْتِهَادِهِ، وَأَنْ غَيْرَهُ عَلَى خَطَأٍ فِي اجْتِهَادِهِ فَهَذَا هُوَ الْمُطْفَفُ الَّذِي إِذَا اكْتَالَ عَلَى النَّاسِ اسْتَوْفَى، وَإِذَا كَالَهُمْ أَخْسَرَ.

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ النَّاسَ قِسْمَانِ: فُجَّارٌ وَأَبْرَارٌ، أَمَّا الْفُجَّارُ - وَالْمُرَادُ بِهِمْ هُنَا الْكُفَّارُ - فَكُتَابُهُمْ فِي سَجِّينَ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى؛ لِأَنَّهُمْ فِي النَّارِ، وَأَمَّا الْأَبْرَارُ فَفِي عِلِّيِّينَ فِي أَعْلَى مَكَانٍ لِأَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَالْجَنَّةُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ مِنْهَا الْفِرْدَوْسَ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَسَقْفُهُ عَرْشُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فَالْجَنَّةُ فِي عِلِّيِّينَ وَالنَّارُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ.

وَذَكَرَ اللَّهُ فِي آخِرِ السُّورَةِ أَنَّ هُنَاكَ قَوْمًا مُجْرِمِينَ يَضْحَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ، وَإِذَا مَرَّ بِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ تَغَامَزُوا بِهِمْ سُخْرِيَةً وَاسْتَهْزَأُوا، وَإِذَا رَجَعُوا إِلَى أَهْلِهِمْ رَجَعُوا مَتَفَكِّهِينَ بِمَا نَالُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ السُّخْرِيَةِ وَالِاسْتَهْزَاءِ، وَإِذَا

رَأَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢] أَي مَنحَرِفُونَ عَنِ الْحَقِّ مَجَانِبُونَ لِلصَّوَابِ.

وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ عَمَّنْ سَبَقَ هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي الَّذِينَ أَجْرُمُوا هَذَا الْيَوْمَ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ يَرَوْنَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مَتَأَخِّرُونَ، وَأَنَّهُمْ رَجَعِيُونَ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ انْحَرَفُوا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هُمُ التَّقَدُّمِيُّونَ، وَهُمْ الَّذِينَ عَلَى الْحَقِّ، وَهُمْ الَّذِينَ يَقُودُونَ الْمُجْتَمَعَ إِلَى التَّقَدُّمِ وَالرُّقْيِ عَلَى زَعْمِهِمْ.

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ يَقُودُونَ الْمُجْتَمَعَ إِلَى الْهَاطِيَةِ، إِلَى ضَلَالٍ فِي الْعَقِيدَةِ وَخَطَأٍ فِي الْفِكْرِ، وَانْحِرَافٍ فِي الْعَمَلِ، كُلُّ مَا يَدْعُوهُ تَقَدُّمًا، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِلشَّرْعِ فَهُوَ مَتَأَخِّرٌ، وَلَكِنْ لَا يَزَالُونَ يَسْخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَوْقِفُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَوْقِفَ الصَّابِرِ الصَّامِدِ الَّذِي لَا تُزْخِرُهُ هَذِهِ الْعَوَاصِفُ، وَسَوْفَ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ لِأَهْلِ الْحَقِّ طَالَ الزَّمَنُ أَمْ قَصُرَ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، فَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ.

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]، وَكَانَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا فِي الدُّنْيَا يَضْحَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لَكِنَّهُمْ يَضْحَكُونَ ضَحِكًا بَعْدَهُ الْبُكَاءُ، أَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَضْحَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُجْرِمِينَ ضَحِكًا لَا بُكَاءَ بَعْدَهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُوْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

وفي هذه الآية من صفات الله مسألة كبيرة عظيمة وهي إثبات رؤية الله عز وجل
فالله سبحانه وتعالى يرى، ولكن رؤية الله لا تكون إلا في الآخرة.

ورؤية المؤمنين لله عز وجل في الآخرة ثابتة بالقرآن وبالسنة وإجماع السلف،
ولم ينكرها أحد منهم، ففي كتاب الله عدة آيات تدل على أن الله سبحانه وتعالى يرى
بالأبصار عياناً منها هذه الآية ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]
الضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعود إلى الفجار، وإذا كان الفجار محجوبين عن الله دل على أن
الأبرار غير محجوبين عن الله؛ لأنهم لو حجبوا عن الله لم يكن بينهم وبين الفجار
فرق، ولما كان للتنصيص على حجب الفجار عن الله فائدة ولا نعلم فائدة لهذا
إلا أن الأبرار ينظرون إلى الله، ولهذا قال الشافعي رحمه الله: «لما أن حجب هؤلاء
في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا»^(١).

ومنها قوله تعالى ﴿عَلَى الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]، فإن هذه الآية يستدل بها
أهل السنة على رؤية الله عز وجل ووجه ذلك أنه حذف فيها المفعول، أي لم يذكر
المنظور إليه، وإذا كانت في مقام الثناء ومقام المدح فإن أعظم ما ينظر إليه وأفضل
ما ينظر إليه وألذ ما ينظر إليه هو الله عز وجل ولهذا لا يجد المؤمنون الذ من النظر إلى
وجه الله عز وجل.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ﴾ [٢٢] إلى ربها ناظرة ﴿[القيامة: ٢٢-٢٣]﴾
الأولى بالضاد والثانية بالظاء، والفرق بينهما أن الأولى ﴿ناصرة﴾ من النصرة أو من

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٦٠، رقم ٨٨٣)، ونصه:
قَالَ الشَّافِعِيُّ: فَلَمَّا أَنَّ حُجِبُوا هَؤُلَاءِ فِي السَّخَطِ كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا.

النَّصَارَةُ بِالضَّادِ وَهِيَ الْحُسْنُ، وَالثَّانِيَةِ مِنَ النَّظَرِ، وَهُوَ الرُّؤْيَةُ، تَقُولُ: نَظَرْتُ إِلَيْهِ: أَيْ رَأَيْتُهُ، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَهِيَ الْوَجْهُ النَّاصِرَةُ؛ لِأَنَّ الْوَجْهَ النَّاصِرَةَ هِيَ وَجْهُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَجْهٌ يُؤْمِدُ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فَقَدْ فسر النَّبِيُّ ﷺ الزِّيَادَةَ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ^(١)، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ تَفْسِيرَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْقُرْآنِ هُوَ أَقْوَىٰ مَا يُفَسَّرُ بِهِ الْقُرْآنُ بَعْدَ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يُفَسَّرُ إِمَّا بِكَلَامِ اللَّهِ، أَوْ بِكَلَامِ الرَّسُولِ، أَوْ بِكَلَامِ الصَّحَابَةِ، أَوْ بِكَلَامِ التَّابِعِينَ أَوْ بِكَلَامِ الْأَثَمَةِ وَالْعُلَمَاءِ مِنْ بَعْدِهِمْ.

وَأَعْلَىٰ أَنْوَاعِ التَّفْسِيرِ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ، ثُمَّ تَفْسِيرُهُ بِالسُّنَّةِ، فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فَسَّرَ الزِّيَادَةَ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ الْمَرَادُ بِهَا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَأَمَّا السُّنَّةُ فَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِرُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَيْنَانَا بِأَبْصَارِهِمْ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»^(٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم (١٨١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، باب (٥٥٤)، ومسلم:

كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

الصَّلَاةُ الَّتِي قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ هِيَ صَلَاةُ الْفَجْرِ، وَالصَّلَاةُ الَّتِي قَبْلَ غُرُوبِهَا هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١)، الْبَرْدَانِ: الْفَجْرُ وَالْعَصْرُ؛ لِأَنَّ الْفَجْرَ فِي بَرَادِ اللَّيْلِ وَالْعَصْرَ فِي بَرَادِ النَّهَارِ.

وَقَالَ النَّازِمُ^(٢):

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبَ وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا وَاخْتَسَبَ
وَرُؤْيَا شَفَاعَةً وَالْحَوْضُ وَمَسَحَ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

مما تواتر: يَعْنِي هُنَاكَ أَحَادِيثُ مُتَوَاتِرَةٌ غَيْرُ هَذِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: مِمَّا تَوَاتَرَ، وَقَالَ فِي النَّهَايَةِ: وَهَذِي بَعْضُ.

فَمِمَّا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَلَمْ يُنْكِرِ الرُّؤْيَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَإِنَّمَا حَدَّثَ انْكَارُهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْمُفْضَلَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مُنْكَرَهَا حَرِيٌّ بِأَنْ يُحْرِمَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَلَّا يَرَى رَبَّهُ؛ لِأَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَرَى مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، وَأَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ ﷺ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الفجر والعصر، رقم (٦٣٥).
(٢) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص: ١٨)، نقلًا عن الشيخ أبي الله محمد التاودي (ت ١٢٠٩ هـ) في حواشيه على الجامع الصحيح.

الدرس الخامس:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُذْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَإِلَهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ»^(١) فَصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، صَلُّوا عَلَيْهِ كُلَّمَا ذُكِرَ اسْمُهُ؛ فَإِنَّ جِبْرِيلَ دَعَا عَلَى مَنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، عَلَى مَنْ سَمِعَ اسْمَهُ يُذَكَّرُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

إِنَّ حَقَّ نَبِينَا عَلَيْنَا أَعْظَمُ مِنْ حَقِّ أَيِّ بَشَرٍ، أَعْظَمُ مِنْ حَقِّ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْبَنَاتِ وَالْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ، وَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْقَذَنَا بِهِ مِنَ الْهَلَاكِ، هَدَانَا بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَنَا بِهِ مِنَ الْعَمَى، وَأَرْشَدَنَا بِهِ مِنَ الْغَوَايَةِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اسْتَمَعْنَا فِي قِرَاءَةِ الْفَجْرِ هَذَا الْيَوْمَ إِلَى سُورَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ: أُولَاهُمَا سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ، وَالثَّانِيَةُ سُورَةُ الْغَاشِيَةِ.

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٩٢/١٠ رقم ٤٢٧٧)، من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٦٤٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١٨٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقول الله عزَّ وجلَّ في سورة المطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾ [المطففين: ١-٣] (وَيْلٌ) كَلِمَةٌ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ، وَالْمُطَفِّفُونَ بَيْنَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾ [المطففين: ٣] لَا بُدَّ أَتْيَا الْقَارِئِ أَنْ تَصِلَ الثَّانِيَةَ بِالْأُولَى؛ لِأَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ لَمْ يَكُونُوا مُطَفِّفِينَ؛ إِذْ كُلُّ إِنْسَانٍ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَوْفِيَ الْحَقَّ لِنَفْسِهِ، لَكِنْ التَّطْفِيفُ جَاءَ مِنَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾ أَيُّ: إِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ فَإِنَّهُمْ يُخْسِرُونَ، أَيُّ: يَنْقُصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، فَهُمْ لَأَنْفُسِهِمْ يَأْخُذُونَ بِالْحَقِّ تَامًّا، وَأَمَّا لغيرِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَنْقُصُونَ ذَلِكَ.

إِذَنْ: فَهُمْ قَدْ جَانَبُوا الْعَدْلَ فِي مُعَامَلَةِ عِبَادِ اللَّهِ؛ إِذْ كَانُوا يَأْخُذُونَ حُقُوقَهُمْ كَامِلَةً، لَكِنَّهُمْ يَنْقُصُونَ الْخَلْقَ حَقَّهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [المطففين: ٤-٥].

وَهَذَا الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ يُوبِّخُهُمْ؛ حَيْثُ لَا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ النَّاسَ سَوْفَ يُبْعَثُونَ وَيُجَازُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

وَانْتَبِهْ إِلَى كَلِمَةِ يَقُولُهَا النَّاسُ الْيَوْمَ، إِذَا فَعَلْتَ خَيْرًا قَالَ: جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي مَوَازِينِ عَمَلِكَ. وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ فِيهَا نَظَرٌ، وَالصَّوَابُ أَنْ تَقُولَ: جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي مَوَازِينِ حَسَنَاتِكَ؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ إِمَّا حَسَنٌ وَإِمَّا سَيِّئٌ، فَإِذَا قُلْتَ: جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي مَوَازِينِ عَمَلِكَ، أَيُّ الْعَمَلِ؟ يُمَكِّنُ أَنْ يُرِيدَ الْعَمَلَ السَّيِّئَ، بِمَعْنَى أَنْ يَكْتُبَ اللَّهُ

هَذَا لَكَ سَيِّئَةٌ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُرِيدَ الْعَمَلَ الْحَسَنَ، فَيَكْتُبُهَا اللَّهُ حَسَنَةً، وَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ مُحْتَمِلًا لِمَا يَسُوءُ وَمَا يَسُرُّ فَلْيُعَدَّلْ عَنْهُ إِلَى كَلَامٍ يَسُرُّ.

فَإِذَا قُلْتَ: جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي مَوَازِينِ حَسَنَاتِكَ، صَارَ الْكَلَامُ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي مِيزَانِ الْحَسَنَاتِ.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هَذَا الْيَوْمُ الْعَظِيمُ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَوْصَافِهِ وَمِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ فِيهِ مَا لَا يَتَّسِعُ الْمَقَامُ لِدِكْرِهِ، لَكِنَّهُ مَعْلُومٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الْمُطَفِّفِينَ: ٦] يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَافِيَةً أَقْدَامُهُمْ، عَارِيَةً أَجْسَامُهُمْ، شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ، زَاهِلَةً قُلُوبُهُمْ ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الْحَجَّ: ٢].

ثُمَّ قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى قِسْمَيْنِ ﴿كَلَّا﴾ أَي: حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحِينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الْمُطَفِّفِينَ: ٧-١٠].

كِتَابُ الْفُجَّارِ - وَهُمْ الْكُفَّارُ - فِي سِجِّينَ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى فِي أَدْنَى مَنَزَلَةٍ ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحِينٌ﴾ [الْمُطَفِّفِينَ: ٨] وَهَذَا الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ، أَي: أَيُّ شَيْءٍ أَذْرَاكَ بِهَذَا ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [الْمُطَفِّفِينَ: ٩] مَكْتُوبٌ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ.

﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الْمُطَفِّفِينَ: ١٠-١١] (وَيَلَّ) كَلِمَةٌ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أَي: يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ يَوْمَ الدِّينِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يُدَانُونَ فِيهِ، أَي: يُجَازَوْنَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، كُلُّ مُجَازَى

عَلَى عَمَلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الدِّينَ يَرِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَلَى مَعْنَيْنِ:

المعنى الأول: العمل.

المعنى الثاني: الجزاء عن العمل.

فِيمَا جَاءَ مُرَادًا بِهِ الْعَمَلُ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]
أَي: لَكُمْ عَمَلُكُمْ وَلِيَ عَمَلِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ
عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وَيَأْتِي الدِّينُ بِمَعْنَى الْجَزَاءِ عَلَى الْعَمَلِ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ
الدِّينِ﴾ أَي: يَوْمَ الْجَزَاءِ عَنِ الْعَمَلِ.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ﴾ أَي: يَوْمَ الدِّينِ ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ ١٢ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ
أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ [المُطَفِّفِينَ: ١٢-١٣] أَي: لَا يُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ، أَي: مُتَعَدٍّ
لِحُدُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَادٍ عَلَى حُقُوقِ اللَّهِ، أَثِيمٌ، أَي: مُكْتَسِبٌ لِلْإِثْمِ، وَجَاءَتْ (أَثِيمٌ)
بَدَل (أَثِمٌ) إِشَارَةً إِلَى أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ لَازِمَةٌ لَهُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا﴾ [المُطَفِّفِينَ: ١٣] أَي: إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُ الْوَحْيِ النَّازِلِ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ ﴿قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ١٣] أَسَاطِيرُ جَمْعُ أُسْطُورَةٍ، وَهِيَ الْكَلَامُ الَّذِي
يُنْقَلُ وَهُوَ لَعْوٌ مِنَ الْقَوْلِ، لَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ يُلْقَى فِي الْمَجَالِسِ مِنْ أَجْلِ
أَنْ يُزِيلَ الْمَلَلُ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، لَكِنَّهُ أُسْطُورَةٌ مِنَ الْأَسَاطِيرِ.

فَإِذَا رَأَيْتَ مِنْ قَلْبِكَ أَنَّهُ لَا يَتَأَثَّرُ بِالْقُرْآنِ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ يُلْقِي فِي قَلْبِكَ أَنَّهُ

أساطير؛ فاعلم أن في قلبك زيغاً - أعود بالله - فعالج نفسك قبل أن يفجأك الموت، ثم لا تنفعك التوبة؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتُّتُ الْكُفْرَ﴾ [النساء: ١٨] فإذا شاهدت الموت لا ينفعك التوبة.

انظر إلى فرعون، آمن قبل أن يموت، لما أدركه الغرق، ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] ف قيل له: ﴿ءَاَلَكُنَّ أَتَى: آلَان تُوْمِنُ﴾ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

انظر الذل العظيم، كان جباراً على بني إسرائيل، وكان يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم، والآن جعل نفسه تابعاً لهم، لم يقل: آمنت بالله، بل قال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل.

وهذا غاية الذل أن يكون هذا اليوم، يحسب نفسه تابعاً لبني إسرائيل، وكان في الأول جباراً عنيداً عليهم، لكن هذا جزاء من عصي الله عز وجل أن يذيقه الله الذل في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

أقول: إن الإنسان إذا أتاه الأجل لا تنفعه التوبة.

﴿كَلَّا﴾ يعني: ليس الأمر كما قال، لكن هناك شيء منعه من وصول تأثير الآيات إلى قلوبهم، ألا وهو الرين ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] أي تجمع عليها، وغشي عليها ما كانوا يكسبون من الأعمال، فإن الأعمال السيئة تحول بين المرء وبين الحق - أعاذنا الله وإياكم من ذلك - ولهذا حذر النبي ﷺ من محقرات الذنوب، بأن يقول الإنسان: هذا ذنب صغير لا يهمني، يفعله ويتوب إلى الله.

لَا تَحْقِرِ الذَّنْبَ، قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ»^(١) وَضَرَبَ لَذَلِكَ مَثَلًا بِقَوْمٍ
تَزَلُّوا أَرْضًا، وَأَرَادُوا أَنْ يُوقِدُوا نَارًا، فَصَارَ هَذَا يَأْتِي بِعُودٍ، وَهَذَا يَأْتِي بِعُودٍ، وَهَذَا
يَأْتِي بِعُودٍ، حَتَّى جَمَعُوا حَطْبًا كَثِيرًا، وَأَوْقَدُوا نَارًا عَظِيمَةً، وَهَكَذَا الذُّنُوبُ، تَتَرَاكُمُ
عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى تَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُؤْيَا الْحَقِّ، وَتَحُولَ بَيْنَ الْحَقِّ وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى
هَذَا الْقَلْبِ؛ وَلِذَلِكَ فَتَشْ قَلْبِكَ، فَإِذَا رَأَيْتَ مِنْ قَلْبِكَ أَنَّهُ لَا يَتَأَثَّرُ بِالْقُرْآنِ، وَلَا
يُعَظِّمُ الْقُرْآنَ، وَلَا يَهْتَدِي بِالْقُرْآنِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ رَانَ عَلَى قَلْبِكَ مَا كُنْتَ تَكْسِبُ مِنْ
الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِذٍ لَمَّحُوجُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ١٥] لَمَّا حُجِبُوا عَنْ نُورِ آيَاتِهِ فِي
الدُّنْيَا حُجِبُوا عَنْ رُؤْيَايِهِ فِي الْآخِرَةِ ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِذٍ لَمَّحُوجُونَ﴾ يُحْجَبُونَ عَنْ
اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَلَا يَرَوْنَهُ كَمَا أَنَّهُمْ حُجِبُوا -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- بِذُنُوبِهِمْ عَنْ رُؤْيَا النُّورِ
وَالْحَقِّ الَّذِي فِي آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَاسْتَدَلَّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْأَبْرَارَ يَرَوْنَ اللَّهَ،
وَجْهَ الدَّلَالَةِ يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا حَجَبَهُمْ عَنْهُ فِي السُّخْطِ إِلَّا لِأَنَّ أَوْلِيَاءَهُ
يَنْظُرُونَهُ فِي الرِّضَا^(٢)، قَالَ: هُنَاكَ أَبْرَارٌ وَفُجَّارٌ، وَهُنَاكَ جَزَاءٌ لِهَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، فَإِذَا
حُجِبَ هَؤُلَاءِ عَنْ رُؤْيَا اللَّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ الْآخِرِينَ يَرَوْنَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا
اسْتِدْلَالٌ جَيِّدٌ وَاضِحٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْجَمِيعُ مُحْجُوبِينَ عَنِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ لَتَخْصِيصِ
هَؤُلَاءِ بِالْحُجْبِ فَائِدَةٌ.

(١) أخرجه أحمد (٣٣١ / ٥)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره (١٥٤ / ١٠)، والواحدي في التفسير الوسيط (٤٤٦ / ٤)، وانظر
تفسير القرطبي (٢٦١ / ١٩).

إِذَنْ: يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَبِهَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ إِبْثَاتٍ وَضِدِّهِ، إِبْثَاتِ الْحَجْبِ عَنِ الْفُجَّارِ، وَإِبْثَاتِ الرُّؤْيَةِ لِلْأَبْرَارِ؛ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَهُ مَنْطُوقٌ وَمَفْهُومٌ، وَلَهُ إِيْمَاءٌ وَإِشَارَةٌ.

إِذَنْ: يَجِبُ عَلَيْنَا عَقِيدَةٌ أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرَى فِي الْآخِرَةِ، يَرَاهُ الْأَبْرَارُ -اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا ذَلِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ- وَهَلْ هُنَاكَ أُدْلَةٌ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْأَبْرَارَ يَرَوْنَ اللَّهَ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ، هُنَاكَ أُدْلَةٌ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يُرَى بِالْأَبْصَارِ عَيَانًا، اقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [الْقِيَامَةُ: ٢٢-٢٣] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ مِنَ النَّصَارَةِ وَهِيَ الْحُسْنُ ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مِنَ النَّظَرِ وَهُوَ الْإِبْصَارُ، فَإِذَا أُضِيفَ النَّظَرُ إِلَى الْوَجْهِ يَكُونُ بِالْعَيْنِ. إِذَنْ: تَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِالْعَيْنِ.

دَلِيلُ ثَالِثٌ: قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونُسُ: ٢٦] وَالدَّلِيلُ هُوَ تَفْسِيرُ أَعْلَمَ الْخَلْقِ بِكِتَابِ اللَّهِ -وَهُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ- فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَسَّرَ الزِّيَادَةَ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ ^(١)، وَلَيْسَ بَعْدَ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ مَجَالٌ لِقَائِهِ، فَإِذَا فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ كَلَامَ اللَّهِ بِشَيْءٍ وَجَبَ أَنْ يُفَسَّرَ بِهِ؛ لِأَنَّا نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِكِتَابِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] أَيُّ: لِأَهْلِ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِي (٦٥/١٥)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي التَّفْسِيرِ (٦/١٩٤٥)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَأَخْرَجَهُ بِمَعْنَاهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ إِبْثَاتِ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ رُبَّمَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رَقْمُ (١٨١)، مِنْ حَدِيثِ صَهْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ مَا يَشَاؤُونَ ﴿وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]
 ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: مزيدٌ على ما يشاؤون، يُعْطِي اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَهْلَ الْجَنَّةِ نَعِيمًا
 لَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ عَلَى الْبَالِ، فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ
 بَشَرٍ، أَسْأَلَ اللهُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَهْلِهَا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ مَنْ قَالَ لَكَ: إِنَّهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ؟
 قُلْنَا: لِأَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَسَّرَ الزِّيَادَةَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللهِ.
 إِذَنْ: فَالْمَزِيدُ يَدْخُلُ فِيهِ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿عَلَى الْأَرَايِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٢٣] الْمَفْعُولُ
 هُنَا مُحَذُوفٌ، قَارِنْ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٢٣] بِقَوْلِهِ ﴿لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ١٥] فِي الْفَجَارِ
 يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَنْظُرُونَ، وَالَّذِي مَا يَنْظُرُونَ هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

إِذَنْ: يَنْظُرُونَ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مِنَ النَّعِيمِ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ رَبِّهِمُ الْكَرِيمِ.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾

[الأنعام: ١٠٣].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تَسْتَدِلُّ بِنَفْيِ عَلَى إِبْثَابِ؟ اللهُ يَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ
 الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وَأَنْتَ تَقُولُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ
 يُرَى؟

فَالْجَوَابُ: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وَالْإِذْرَاكُ

أَخْصٌ مِنَ الرُّؤْيَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَرَى الشَّيْءَ وَلَا يُدْرِكُهُ لِبُعْدِهِ، أَوْ لضعْفِ نَظَرِ الرَّائِي،

أَوْ لَغَيْرِ ذَلِكَ، وَنَفْيُ الْأَخْصِّ يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ الْأَعْمِّ؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ الْكَلَامُ إِذَا نَفَيْتَ الْأَخْصَّ وَالْأَعْمَّ مُنْتَفٍ؛ إِذْ إِنَّهُ لَوْ كَانَ الْأَعْمُّ مُنْتَفِيًا لَكَانَ الْأَوَّلَى بِالْمُتَكَلِّمِ أَنْ يَنْفِي الْأَعْمَّ حَتَّى يَدْخُلَ فِيهِ الْأَخْصُّ، فَلَمَّا نَفَى الْإِذْرَاكَ دَلَّ عَلَى وُجُوبِ أَصْلِ الرُّؤْيَةِ؛ وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ نِفَاةُ الرُّؤْيَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يُرَى بِهِذِهِ الْآيَةِ، وَسُبْحَانَهُ اللَّهُ الْحَكِيمُ!

كَانَ اسْتِدْلَالُهُمْ بِالْآيَةِ دَلِيلًا عَلَيْهِمْ، وَهَكَذَا كُلُّ مُبْطِلٍ يَنْفِي الْحَقَّ إِذَا اسْتَدَلَّ بآيَةٍ أَوْ بِحَدِيثٍ صَحِيحٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّ دَلِيلَهُ يَكُونُ دَلِيلًا عَلَيْهِ.

وَأَذْكُرْكُمْ بِمَا قَالَهُ حَبْرُ الْأُمَّةِ -الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عُلُومًا، وَعَقْلًا كَبِيرًا، وَإِدْرَاكًا وَاسِعًا- شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ فِي كِتَابِهِ: (دَرْءُ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ): إِنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِكُلِّ مَنْ أَتَى بِدَلِيلٍ صَحِيحٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ مِنَ السُّنَّةِ يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى بَاطِلِهِ، فَإِنِّي مُسْتَعِدٌّ أَنْ أَجْعَلَ دَلِيلَهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

فَهَذِهِ الْآيَةُ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] اسْتَدَلَّ بِهَا نِفَاةُ الرُّؤْيَةِ، لَكِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ دَلِيلٌ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَفَى الْإِذْرَاكَ لَا أَصْلَ الرُّؤْيَةِ، وَنَفْيُ الْإِذْرَاكِ يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ أَصْلِ الرُّؤْيَةِ، وَهَذَا وَاضِحٌ جَدًّا.

الدَّلِيلُ السَّابِعُ مِنَ الْقُرْآنِ: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ سَأَلَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي ﴿[الأعراف: ١٤٣] فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ رُؤْيَةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَتْ مُسْتَحِيلَةً.

وَجْهَ الدَّلَالَةِ: أَنَّهَا لَوْ كَانَتْ رُؤْيَا اللَّهِ مُسْتَحِيلَةً لَكَانَتْ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمُسْتَحِيلٌ أَنْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَهُوَ الثَّالِثُ مِنْ أُولِي الْعِزِّمِ - مُسْتَحِيلٌ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى مَا كَانَ مُسْتَحِيلًا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا فِيهَا يَسْتَحِيلُ وَيَجِبُ لِلَّهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُعَانِدًا، وَكِلَاهُمَا لَا يَلِيقُ بِمَقَامِهِ.

وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ فِي طَلَبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّظَرَ إِلَى اللَّهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ رُؤْيَا اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

هَذِهِ الْأَدِلَّةُ السَّبْعَةُ مِنَ الْقُرْآنِ، وَرَبِّهَا خَفِيَ عَنَّا بَعْضُ الْأَدِلَّةِ، لَكِنْ يَكْفِي الْمُؤْمِنَ دَلِيلٌ وَاحِدٌ.

أَمَّا السُّنَّةُ فَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهَا مُتَوَاتِرَةٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ، وَالْمُتَوَاتِرُ هُوَ الْمُتَابِعُ الْمُتَكَثِّرُ الَّذِي يُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِيَّ، وَلَقَدْ صَرَّحَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى عَيْنَانَا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَكَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»^(١) اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْبَيَانُ الْعَظِيمُ.

قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ» وَإِذَا قَالَ: «سَتَرُونَ رَبَّكُمْ» كَفَى وَفَهُمَ النَّاسُ ذَلِكَ، لَكِنْ زَادَ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ الْوَاضِحَ: «كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» وَلَا أَحَدَ يَشْكُ بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ إِذَا رَأَاهُ أَنَّهُ رَأَى الْقَمَرَ حَقِيقَةً؛ لِأَنَّهُ رَأَاهُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ أَوْسَعَ مَا يَكُونُ النُّورُ فِي الْقَمَرِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم (٨٠٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهنا قصة تدل على ذكاء بعض الناس، يُقال: إنَّ أحدَ العلماءِ أتى إليه رجلٌ ثقةٌ دينٌ، فشَهِدَ عندهُ أَنَّهُ رَأَى الْهِلَالَ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِيَ رِجَالٌ، لَكِنْ عَجَزُوا أَنْ يُذَرِّكُوهُ، قَالَ: ائْتِ بِهِمْ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَاهُ. وَهَذَا الرَّجُلُ أَصَرَ عَلَى أَنَّهُ رَأَاهُ، فَتَحَيَّرَ الْقَاضِي! كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الْجَمَاعَةُ لَمْ يَرَوْهُ وَهَذَا الرَّجُلُ وَحْدَهُ رَأَاهُ؟!

فَقَالَ لَهُ: أَرَأَيْتَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، رَأَيْتُهُ يَقِينًا، قَالَ: فِي أَيِّ مَكَانٍ؟ قَالَ: فِي الْمَكَانِ الْفُلَانِيِّ، قَالَ الْقَاضِي: فَلَنَمُضِ أَنَا وَأَنْتَ، فَذَهَبَ الْقَاضِي مَعَ الرَّجُلِ إِلَى الْمَكَانِ، وَقَالَ لَهُ: أَتَرَاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، هَذَا الْهِلَالُ.

فَنَظَرَ الْقَاضِي فَلَمْ يَرَ شَيْئًا فَتَعَجَّبَ، فَمَسَحَ الْقَاضِي حَاجِبَهُ، وَقَالَ لَهُ: أَرَأَيْتَهُ؟ قَالَ: لَا أَرَاهُ الْآنَ، غَابَ الْقَمَرُ. وَإِذَا بِهَا شَعْرَةٌ بَيَضاءُ فِي حَاجِبِهِ مُقَوَّسَةٌ كَأَنَّهَا الْهِلَالُ، وَهَذَا الرَّجُلُ يَشْهَدُ أَنَّهُ رَأَى الْهِلَالَ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ رَأَى شَعْرَةً مُقَوَّسَةً بَيَضاءَ فِي حَاجِبِهِ.

إِنَّمَا أَتَيْتُ بِهَذَا؛ لِأَنَّ الْقَمَرَ يَخْفَى فِي أَوَّلِ طُلُوعِهِ، فِيهِ أَوَّلِ الشَّهْرِ يَخْفَى، وَكَذَلِكَ فِي آخِرِهِ، لَكِنْ لَيْلَةُ الْبَدْرِ لَا يَخْفَى، وَلَمَّا تَرَأَى النَّاسُ الْهِلَالَ فِي عَهْدِ عُمرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ حَاضِرًا مَعَهُمْ، قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا الْهِلَالُ، وَشَهِدُوا، وَلَمْ يَرَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: سَأَرَاهُ وَأَنَا نَائِمٌ عَلَى فِرَاشِي؛ حَيْثُ يَرْتَفِعُ الْهِلَالُ وَيَكْبُرُ فَيَرَاهُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَى فِرَاشِهِ.

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّنَا نَرَى رَبَّنَا - وَنَسْأَلُ اللَّهَ إِلَّا يُحَرِّمَنَا مِنْ ذَلِكَ - نَرَاهُ كَمَا نَرَى الشَّمْسَ صَاحُوا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ^(١)، وَالشَّمْسُ فِي الصَّحْوِ لَا تَخْفَى.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم (٨٠٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب

وَأَجْمَعَ السَّلَفُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَأُئِمَّةِ التَّابِعِينَ، وَأُئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرَى فِي الْآخِرَةِ، وَلَمْ يَأْتِ حَرْفٌ وَاحِدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ يَنْفِي رُؤْيَا اللَّهِ عَزَّجَلَّ، لَكِنْ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَنْكَرُوا رُؤْيَا اللَّهِ مَعَ وُجُودِ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ الْوَاضِحَةِ الصَّرِيحَةِ الصَّحِيحَةِ ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى لَهُمْ أَنْ يَهْدِيَهُمْ، وَأَنْ يُبَيِّنَ لَهُمُ الْحَقَّ، وَيَرْزُقَهُمْ اتِّبَاعَهُ، فَنَحْنُ لَا نَدْعُو عَلَى أَحَدٍ خَالَفَنَا، لَكِنَّا نَدْعُو لَهُ بِالْهِدَايَةِ، وَنَقُولُ: نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى الْحَقِّ وَيَتَبَيَّنَ لَهُ، إِنَّ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى حَقٌّ، ثَابِتَةٌ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ نَفَاهَا.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَحْرِمَ رُؤْيَا مَنْ يُنْكِرُ رُؤْيَا اللَّهِ، وَهُوَ دُعَاءٌ شَدِيدٌ لَا شَكَّ، وَالْأَوَّلَى أَنْ نَقُولَ: اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَهُمُ الْهِدَايَةَ؛ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ، وَيَأْخُذُوا بِهِ، كَمَا أَخَذَ بِذَلِكَ أَسْلَافُهُمْ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۖ﴾ ١٦ ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٦-١٧] ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۖ﴾ ١٦ ﴿يَعْنِي النَّارَ﴾ ١٦ ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ ١٦ ﴿تَوْبِيخًا وَتَبْكِيتًا وَإِهَانَةً وَإِذْلَالًا﴾ ١٦ ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ١٦ ﴿وَفِي هَذَا التَّوْبِيخِ إِيلَامٌ عَظِيمٌ لِقُلُوبِهِمْ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِمُ الْإِيلَامُ الْقَلْبِيُّ وَالْإِيلَامُ الْجَسَدِيُّ، يَصِلُونَ الْجَحِيمَ وَيُؤَبِّخُونَ﴾ ١٦ ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧].

ثُمَّ انْتَقَلَ الْقُرْآنُ إِلَى الْكَلَامِ عَنِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ هُمْ ضِدُّ الْفُجَّارِ ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ
الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْفُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ
الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ
يَنْظُرُونَ ﴿المُطَفِّفِينَ: ١٨-٢٣﴾.

الْأَرَائِكُ هِيَ السُّرُرُ الْفَخْمَةُ الْمُغَطَّاةُ بِالْكِسَاءِ، وَهِيَ مِنْ أَفْخَرِ السُّرُرِ ﴿يَنْظُرُونَ﴾
إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ النَّعِيمِ، وَإِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ أَنْعَمُ مَا يَكُونُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ
يَرَوْا رَبَّهُمْ عَزَّوَجَلَّ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ
إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»^(١).

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ قَارِنْ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وُجُوهُ يَوْمَذِ
نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [الْقِيَامَةُ: ٢٢-٢٣] يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَنْظُرُونَ﴾ أَيُّ:
يَنْظُرُونَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ النَّعِيمِ، وَأَعْلَاهُ وَأَفْضَلُهُ وَالَّذُهُ عِنْدَهُمْ هُوَ النَّظَرُ إِلَى
وَجْهِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوفِّقَنِي وَإِيَّاكُمْ لِذَلِكَ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ يَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى.

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٢٥] الرَّحِيقُ هُوَ الْخَالِصُ، وَنَوْعُ هَذَا
الَّذِي يُسْقَوْنَ مِنْهُ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقِتَالِ سُورَةِ مُحَمَّدٍ فَقَالَ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي
وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ
لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [مُحَمَّدٍ: ١٥].

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء «أي بعد الذكر»،
رقم (١٣٠٥)، من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ معنى الآسِن: المتغير؛ لأنَّ مياه الدنيا تتغير، لكن ماء الجنة - رَزَقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ الشَّرْبَ مِنْهُ - لَا يَتَغَيَّرُ مَهْمَا كَانَ، وَلَمْ يَأْتِ هَذَا الْمَاءُ مِنْ آبَارٍ أَوْ مِنْ أَمْطَارٍ، إِنَّمَا هَذَا مَاءٌ خَلَقَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ، وَالْعَجَبُ أَنَّ هَذِهِ الْأَنْهَارَ تَجْرِي بِدُونِ أُخْدُودٍ، أَيُّ: لَا تُوجَدُ حَوَاجِزُ وَلَا حُفَرٌ يَجْرِي فِيهَا النَّهْرُ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي النُّونِيَّةِ:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ سُبْحَانَ مُمَسِّكِهَا عَنِ الْفَيْضَانِ^(١)

فالنَّهْرُ يَجْرِي حَيْثُ أَرَدْتَ، تُصَرِّفُهُ أَنْتَ كَمَا تُرِيدُ، بِدُونِ أَنْ تُحْفِرَ لِهَذَا النَّهْرِ، وَبِدُونِ أَنْ تُقِيمَ أُخْدُودًا لَهُ.

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ ﴿لَنْ يَتَغَيَّرَ﴾ ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [مُحَمَّدٍ: ١٥] هُنَا رَبِّمَا يَسْأَلُ سَائِلٌ يَقُولُ: كَيْفَ يَحِلُّ شُرْبُ الْخَمْرِ، وَقَدْ حَرَّمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ خَمْرَ الدُّنْيَا خَمْرَةٌ خَبِيثَةٌ، تَغْتَالُ الْعُقُولَ، وَتَذْهَبُ بِهَا، وَيَحْصُلُ بِهَا الشَّرُّ وَالْبَلَاءُ. أَمَّا خَمْرَةُ الْآخِرَةِ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصَّافَّاتِ: ٤٧] وَلَا تُصَدِّعُ الرُّؤُوسَ، وَلَا تُخَرِّبُ الْبُطُونَ، فَهِيَ خَالِيَةٌ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ حُرِّمَتْ خَمْرَةُ الدُّنْيَا، كَمَا أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُقَاسَ أَحْكَامُ الْآخِرَةِ بِأَحْكَامِ الدُّنْيَا.

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [مُحَمَّدٍ: ١٥] أَيُّ: مُصَفًّى مِمَّا يَشُوبُهُ مِنَ الْكَدَرِ، فَإِنَّ عَسَلَ الدُّنْيَا مُخْتَلِطٌ بِشَوَائِبِ النَّحْلِ، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَا.

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥] أي: رَحِيقٍ خالصٍ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ مَخْتُومٍ، ثُمَّ بَيَّنَ بِمَاذَا هُوَ مَخْتُومٌ؟ فَقَالَ: ﴿خَتَمُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٦] مَا أَلَذَّ هَذَا الشَّرَابَ إِذَا كَانَ آخِرُهُ فِيهِ الْمِسْكُ!

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] أي: لِيَتَسَابَقِ الْمُتَسَابِقُونَ عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي يُوصِلُهُمْ إِلَى هَذَا الْجَزَاءِ، وَصَدَقَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَاللَّهُ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الَّذِي يُتَنَافَسُ فِيهِ، لَيْسَ الَّذِي يُتَنَافَسُ فِيهِ الْقُصُورُ وَالْمَرَائِبُ الْفَخْمَةُ وَغَيْرُ ذَلِكَ، لَكِنَّهُ هَذَا الثَّوَابُ الْجَزِيلُ الْعَظِيمُ.

ذَكَرْنَا الْخَمْرَ أَنَّهُ مِنْ شَرَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، لَكِنْ هَلِ الْخَمْرُ فِي الدُّنْيَا مُحَرَّمٌ؟
الجواب: نَعَمْ.

وَهَلْ أَحِلَّ لِلْعِبَادِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ؟

الجواب: نَعَمْ، أَحِلَّ لِلْعِبَادِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] فَهَذَا وَاضِحٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَلَّهُ، وَذَكَرَ النَّاسَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ ﴿نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧].

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ، فَالْشَّيْءُ الَّذِي يَصْعُبُ عَلَى النُّفُوسِ أَنْ تَنْزِعَ مِنْهُ مَرَّةً وَاحِدَةً يَكُونُ بِالتَّدرِيجِ، جَاءَتِ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] وَمَا دَامَ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَنْ يَفْعَلَهُمَا وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ، فَانْتَهَى مِنَ النَّاسِ مَنْ انْتَهَى بِهَذِهِ الْآيَةِ.

ثم جاءت الآية الثالثة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] وهذا يقتضي ألا تشرب الخمر قرب وقت الصلاة، فيكون هناك امتناع منها في جزء كبير من الوقت، خمسة أوقات لا تشرب الخمر فيها، والإنسان إذا امتنع من شربها خمسة أوقات في اليوم واللييلة فسوف يكون في ذلك تدرُّج.

ثم جاءت الآية الرابعة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١] قَالَ الصَّحَابَةُ: انْتَهَيْنَا يَا رَبَّنَا انْتَهَيْنَا^(١).

فبين الله عز وجل أن هذه الأشياء رجس من عمل الشيطان، وأمرنا أن نتجنبها، وحينئذ حُرِّمَتِ الخمر تحريمًا باتًا؛ ولهذا كان تحريمها من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وقال أهل العلم: من أنكر تحريم الخمر وهو عاش في المسلمين فإنه كافر؛ لأنه أنكر ما يعلم تحريمه بالضرورة من دين الإسلام.

ومن شربها غير مستحل لها فإنه يُعاقب بالجلد، كان الرجل يُؤتى به قد سكر في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام فيقوم الصحابة يضربونه، منهم من يضرب بيده، ومنهم من يضرب بثوبه، ومنهم من يضرب بنعله، نحو أربعين جلدة، وبقي الأمر هكذا في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(١) أخرجه أحمد (٥٣ / ١)، وأبو داود: كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر، رقم (٣٦٧٠)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٤٩)، والنسائي: كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، رقم (٥٥٤٠)، من حديث عمر رضي الله عنه.

ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ وَكَثُرَ الشُّرْبُ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمُونَ فَتَحُوا الْبِلَادَ، وَكَانَ أَهْلُهَا يَتَعَاطُونَ
الْحَمْرَ، فَكَثُرَ الشُّرْبُ، فَجَمَعَ عُمَرُ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ إِذَا
أُشْكِلَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ جَمَعَ الصَّحَابَةَ وَشَاوَرَهُمْ؛ لِأَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يُرِيدُ إِلَّا الْحَقَّ، فَجَمَعَهُمْ
وَقَالَ: مَا تَرَوْنَ؟ الشُّرْبُ كَثُرَ فِي النَّاسِ، وَأَرْبَعُونَ جَلْدَةً لَا تَكْفِي، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
ابْنُ عَوْفٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخَفَّ الْحُدُودِ ثَمَانُونَ جَلْدَةً، وَالَّذِي هُوَ ثَمَانُونَ جَلْدَةً
مِنَ الْحُدُودِ هُوَ قَذْفُ الْمُحْصَنِ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ
ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] قَالَ: أَخَفَّ الْحُدُودِ ثَمَانُونَ، فَجَعَلَهَا عُمَرُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً^(١).

وَيُرَوَّى عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا شَرِبَ هَذَى، وَإِذَا هَذَى افْتَرَى، وَجَزَاءُ
الْمُفْتَرِي بِالْقَذْفِ ثَمَانُونَ جَلْدَةً^(٢)، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ أَقَرَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّ شَارِبِ الْحَمْرِ
ثَمَانِينَ جَلْدَةً.

وَإِذَا جَلَدْنَاهُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، ثُمَّ عَادَ وَشَرِبَ جَلَدْنَاهُ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، فَإِنْ عَادَ
وَشَرِبَ جَلَدْنَاهُ الثَّلَاثَةَ، فَإِنْ عَادَ وَشَرِبَ، فَفِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ، فَمِنْهُمْ
مَنْ قَالَ يُقْتَلُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُجْلَدُ.

فَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُقْتَلُ فَلِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ
فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاقْتُلُوهُ»^(٣).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الحمر، رقم (١٧٠٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٤٢)، وعبد الرزاق في المصنف (٧/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٠)، وأبو داود: كتاب، باب إذا تتابع في شرب الخمر، رقم (٤٤٨٤)،

والنسائي: كتاب الأشربة، باب ذكر الروايات المغلطات في شرب الخمر، رقم (٥٦٦٢)، وابن

ماجه: كتاب الحدود، باب من شرب الخمر مرارًا، رقم (٢٥٧٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا يُقْتَلُ، وَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مَنْسُوخٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ ضَعَّفَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَصَّلَ كَشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: إِنْ انْتَهَى النَّاسُ بِالْجُلْدِ اكْتَفَيْنَا بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا فَإِنَّهُ يُقْتَلُ؛ رَدْعًا لِلنَّاسِ^(١). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ غَايَةُ الْفِقْهِ؛ لِأَنَّ قَتْلَهُ حَيْثُ مِنْ بَابِ دَفْعِ الصَّائِلِ، وَالصَّائِلُ إِذَا لَمْ يَنْتَهُ إِلَّا بِالْقَتْلِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ قَتْلُهُ.

يَقُولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٢٧] التَّسْنِيمُ أَيُّ: الشَّيْءِ الْعَالِي، مَأْخُودٌ مِنْ سَنَامِ الْبَعِيرِ، وَهُوَ أَعْلَى جِسْمِهَا ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٢٨] وَالْمُقَرَّبُونَ هُمُ الْأَبْرَارُ السَّابِقُونَ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٢٩] وَانْتَبِهْ لِهَذَا الْمَشْهَدِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أَيُّ بِالْكَفْرِ وَالْفُسُوقِ ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ أَيُّ: كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَضْحَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَسْخَرُونَ بِهِمْ، وَيَسْتَهْينُونَ بِهِمْ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ، وَإِنَّهُمْ خَشَوْ، فَيَضْحَكُونَ.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٣٠] هَلِ الْمُرَادُ: إِذَا مَرَّ الْمُجْرِمُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ، أَوْ إِذَا مَرَّ الْمُؤْمِنُونَ بِالْمُجْرِمِينَ؟

الْجَوَابُ: الْآيَةُ صَالِحَةٌ لِلْوَجْهَيْنِ، وَقَدْ أُعْطَيْنَاكُمْ قَاعِدَةً مُفِيدَةً فِي التَّفْسِيرِ: إِذَا اخْتَمَلَتِ الْآيَةُ مَعْنَيْنِ لَا مَرَجَّحَ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ، وَلَا يُنَافِي أَحَدُهُمَا الْآخَرَ فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَيْهِمَا.

لنُطَبِّقَ هَذَا عَلَى الْآيَةِ: إِذَا مَرَّ الْمُجْرِمُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ يَتَغَامَزُونَ، يَغْمِزُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، انْظُرْ هَذَا الْمُسْكِينَ! انْظُرْ هَذَا الرَّجْعِيَّ! انْظُرْ هَذَا الضَّالَّ! هَذِهِ وَاحِدَةٌ.

إِذَا مَرَّ الْمُؤْمِنُونَ بِالْمُجْرِمِينَ عَابِرِينَ قَالُوا: انْظُرْ هَذَا مِنَ الضُّلَّالِ، مِنَ الرَّجْعِيِّينَ، مِنَ الَّذِينَ لَا فَائِدَةَ مِنْهُمْ ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٣٠] إِذَنْ: الْآيَةُ صَالِحَةٌ لِلْوَجْهَيْنِ جَمِيعًا.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٣١] أَي: إِذَا انْقَلَبَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ، أَي مُتَنَعِّمينَ بِمَا جَرَى مِنْهُمْ مِنَ الضَّحِكِ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَالتَّغَامُزِ بِهِمْ.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٣٢] إِذَا رَأَى الْمُجْرِمُونَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: هَؤُلَاءِ ضَالُّونَ، وَيَنْطَبِقُ هَذَا عَلَى مَا يُوجَدُ فِي عَصْرِنَا الْيَوْمَ مِنْ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِسْلَامَ تَأَخَّرَ، وَإِنَّ التَّمَسُّكَ بِهِ تَأَخَّرَ، وَإِنَّ الْمُتَمَسِّكَ بِهِ رَجْعِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى عَصْرِ النَّاقَةِ وَالْجَمَلِ، وَيُوجَدُ هَذَا الْآنَ مِنَ الْمُلْحِدِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، لَكِنْ نَقُولُ لَهُمْ: انْتَظِرُوا جَزَاءَكُمْ.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٣٤] وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا وَاللَّهِ الضَّحِكُ الَّذِي لَا بُكَاءَ بَعْدَهُ، أَمَّا ضَحِكُ الْمُجْرِمِينَ بِالْمُؤْمِنِينَ بِالْدُّنْيَا فَإِنَّ بَعْدَهُ الْبُكَاءَ الطَّوِيلَ.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٣٥] أَي: يَنْظُرُونَ إِلَى عَذَابِ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴿أَي: مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ ٥٢ إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا

وَعِظْلًا أَوَّنَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ [الصَّافَّاتِ: ٥٠-٥٣] لَهُ قَرِينٌ صَاحِبٌ يَقُولُ: أَنْكِرُ الْبَعْثَ، كَيْفَ إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا كَيْفَ نُبْعَثُ وَنُجَازَى؟! أَنْكِرُ هَذَا ﴿٥٤﴾ قَالَ ﴿٥٥﴾ أَيُّ: الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِأَصْحَابِهِ: ﴿٥٦﴾ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٧﴾ [الصَّافَّاتِ: ٥٤] وَالْأَسْتِفْهَامُ هُنَا لِلتَّشْوِيقِ، يُشَوِّقُهُمْ إِلَى أَنْ يَطَّلِعُوا إِلَى قَرِينِهِ ﴿٥٨﴾ فَأَطْلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٩﴾ [الصَّافَّاتِ: ٥٥] أَيُّ: فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٠﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٦١﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٦٢﴾ [الصَّافَّاتِ: ٥٦-٥٧] مُخَاطَبُهُ وَهُوَ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ، وَذَاكَ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ رَأَاهُ وَكَيْفَ خَاطَبَهُ؟

قُلْنَا: مَوْقِفْنَا مِنْ مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ أَنْ نَقُولَ: آمَنَّا وَصَدَّقْنَا، وَهَذَا شَيْءٌ فَوْقَ عُقُولِنَا، يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَصَدِّقَ بِهِ، ثُمَّ نَقُولُ: إِنَّهُ وَقَعَ مَا يَدُلُّ عَلَى إِمْكَانِ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، فَالآنَ تُوجَدُ أَجْهَزَةٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَاطَبَ بِهَا النَّاسُ وَيَتَرَاءَوْنَ مِنْ بَعِيدٍ، وَالَّذِينَ عَاشُوا فِي أَوْرُوبَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا نَعْرِفُ، سُبْحَانَ اللَّهِ! تُعْقَدُ نَدَوَاتٌ، وَاحِدٌ فِي أَقْصَى الْمَشْرِقِ وَالثَّانِي فِي أَقْصَى الْمَغْرِبِ، وَتُوضَعُ فِي التَّلْفَازِ نَدْوَةٌ، أَوْ فِي التَّلْفُونِ -فِي التَّلْفُونِ أَيْضًا يُشَاهَدُ الْإِنْسَانُ الْمُتَكَلِّمُ- هَذَا وَهُوَ مِنْ صُنْعِ الْآدَمِيِّ، فَكَيْفَ بِمَا هُوَ صُنْعُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؟!

﴿هَلْ تُؤْثِرُونَ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الْمُطَفِّفِينَ: ٣٦] يَعْنِي قَدْ تُؤْثِرُ وَجُوزِي الْكُفَّارُ عَلَى مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَالْكَفْرِ بِآيَاتِهِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُخْتِمَ لَنَا وَلَكُمْ بِخَاتِمَةِ السَّعَادَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَ مُسْتَقْبَلَ أَمْرِنَا خَيْرًا مِنْ مَاضِيهِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



سورة البروج

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣ قِيلَ أَصْحَبُ الْأُخْدُودِ ٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ الَّذِينَ فتنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ١٠ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١-١١].

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣ قِيلَ أَصْحَبُ الْأُخْدُودِ ٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ إلى آخر السورة، وفي هذا إشكال؛ وهو أن الله تعالى أقسم بالسَّماءِ ذاتِ البروج، مع أن الإقسام بغير الله شرك كما تقرر، فكيف نجمع بين هذا وبين قولنا: إن الحلف بغير الله شرك؟

الجواب: أن الله أن يحلف بما شاء من خلقه، وأمَّا الخلق فلا يحلفون إلا بالله،

أو باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته.

أرأيتم السُّجُودَ لغيرِ الله؟ فإنه شِرْكٌ، ومع ذلك كان تَرْكُ السُّجُودِ لغيرِ الله كُفْرًا، وذلك حينَ أمرَ اللهُ الملائكةَ أنْ تسجدَ لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إبليسَ استَكْبَرَ وكان من الكافرينَ، فانظرِ الآنَ: السُّجُودُ لغيرِ اللهِ شِرْكٌ، وكان حينَ أمرَ اللهُ به لغيرِ اللهِ كان عبادةً، وكان تَرْكُهُ كُفْرًا.

وكذلك قتلُ النفسِ؛ وأعظمُها أنْ يقتلَ الإنسانَ ولده، فهو من كبائرِ الذنوبِ، ولما أمرَ اللهُ نبيَّه إبراهيمَ الخليلَ أنْ يَقْتُلَ ابنه، صَارَ قتلُهُ عبادةً وطاعةً.

إذن، اللهُ تَعَالَى أنْ يفعلَ ما شاء، وأنْ يحكمَ بما شاء، فهو ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾.

(ذَاتِ) بمعنى: صاحبة، والْبُرُوجُ جمعُ بُرْجٍ، وهي عبارةٌ عن مجموعاتٍ عظيمةٍ كبيرةٍ منَ النجومِ، سُمِّيَتْ بُرُوجًا لأنها تُشَبِّهُ البناياتِ العظيمةَ الكبيرةَ، والْبُرُوجُ اثْنَا عَشَرَ بُرْجًا؛ ثَلَاثَةٌ لِلرَّبِيعِ، وَثَلَاثَةٌ لِلشَّاءِ، وَثَلَاثَةٌ لِلصَّيْفِ، وَثَلَاثَةٌ لِلخَرِيفِ، فعندَ استواءِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ بعدَ الشَّاءِ يكونُ هَذَا الرَّبِيعُ، وعندَ انتهاءِ اللَّيْلِ فِي الطُّولِ، والنَّهَارِ فِي الْقِصْرِ يكونُ الشَّاءُ، ثُمَّ إِذَا رَجَعَتِ الشَّمْسُ حَتَّى يَتَسَاوَى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فَهَذَا فَصْلُ الْخَرِيفِ، ثُمَّ فَصْلُ الصَّيْفِ.

وَالْحَمَلُ وَالثَّوْرُ وَالْجُوزَاءُ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ لِلرَّبِيعِ.

وَالسَّرَطَانُ وَالْأَسَدُ وَالسُّنْبُلَةُ لِلصَّيْفِ.

والميزان والعقرب والقوس للخريف.

والجدى والدلو والحوث للشتاء.

فهذه اثنا عشر بُرجًا، أقسم الله تعالى بها لعظمتها وعظم خلقها.

قوله: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢] هو يوم القيامة، وأقسم الله به لأنه يوم الجزاء

وإقامة العدل.

قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣] أيضًا يوم القيامة، وفيه الشاهد والمشهود

عليه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

قوله: ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْضُودِ﴾ [البروج: ٤] هذا هو جواب القسم الذي هو ﴿وَالسَّمَاءِ

ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وما عطف عليه؛ لأن كل قسم لا بد فيه من مقسم، ومقسم به، وصيغة
قسم، ومقسم عليه، أربعة أشياء.

قال الله تعالى: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦] وهذه الآية جمعت

أركان القسم الأربعة:

﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ هذه صيغة القسم.

المقسم هو الواو في (يخلفون)

و(الله) المقسم به.

﴿وَأَنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ المقسم عليه.

فقوله: ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْضُودِ﴾، هذا جواب القسم.

وأصحابُ الأخدودِ هم الَّذِينَ خَدُّوا فِي الْأَرْضِ؛ أَي حَفَرُوا أَخْدُودًا، مِنْ أَجْلِ أَنْ يُلْقُوا فِيهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحْرِقُوهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ أَي: صَاحِبَةُ الْوَقُودِ، وَهُوَ الْحَطْبُ الَّذِي يُوقَدُ بِهِ، وَكَوْنُهَا وَصِفَتْ بِأَنَّهَا ذَاتُ الْوَقُودِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا وَقُودًا عَظِيمًا.

قوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٦] (هم) يعودُ على أصحابِ الأخدودِ، (عليها) على النارِ أَيْ حَوْلَهَا، (قُعُودٌ) يَتَفَرَّجُونَ وَالنَّارُ تَأْكُلُ الْمُؤْمِنِينَ، لَكِنَّهُمْ يَتَفَرَّجُونَ عَلَيْهِمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- لِقَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ، وَشِدَّةِ حَنَقِهِمْ وَعِدَاوَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ.

قوله: ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٧] (هم) أَي الْقُعُودُ ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يَشَاهِدُونَهُمْ وَهُمْ يَتَفَكَّهُونَ بِهَذَا الْمَشْهَدِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-.

وما ذنبُهُمْ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] هَذَا الَّذِي نَقَمُوا مِنْهُ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ لَوْ كَانُوا عُقَلَاءَ أَنْ يُكْرِمُوهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، لَكِنَّهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- قَتَلُوا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ شَرًّا قِتْلَةً، وَذَلِكَ بِمَا أَوْقَدُوا مِنَ النَّارِ وَأَلْقَوْهُمْ فِيهَا.

قوله: ﴿الَّذِي لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩] فَهُوَ الْمَالِكُ عَزَّجَلَّ مُلْكًا مُطْلَقًا، لَا أَحَدَ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ، وَلَا أَحَدَ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ فِيمَا فَعَلَ فِي مُلْكِهِ.

فقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَي: كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا يُصْنَعُ فِي هَذَا الْكَوْنِ، أَوْ يَقَعُ فِي هَذَا الْكَوْنِ، فَاللَّهُ تَعَالَى شَهِيدٌ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ عَزَّجَلَّ شَهِيدٌ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] فتنوهم أي صدوهم عن دينهم، وقيل: إن الفتنة هنا بمعنى الإحراق؛ أي أحرقوهم، وهما متلازمان؛ لأنهم صدوا الناس عن دينهم، وأحرقوا من لم يرجع عن دينه.

قال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾. انظر إلى سعة رحمة الله، يُحرقون أوليائه، ثم يعرض عليهم التوبة. ولو تابوا لعفا الله عنهم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ الذي هو عذاب النار؛ لأن النار تُحرق أهلها، ولكنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها؛ ليدوقوا العذاب أبد الآبدين، هكذا يفعل بهم -والعياذ بالله- تحرقهم النار، ثم تعود الجلود، ثم تُحرق، ثم تعود، ثم تحرق من أجل أن يتكرر العذاب عليهم أبد الآبدين.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١].

من أوصاف القرآن أنه مثان، تُثنى فيه المعاني؛ فلما ذكر عذاب هؤلاء، ذكر نعيم المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أركان الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

أضاف إلى ذلك: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فلا بُدَّ من إيمان وعمل، فالإيمانُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩).

وحده لا يكفي، ولكن يجب أن يُعلم أن الإنسان إذا آمنَ حقاً بهذه الستّة، فإنّه سوف يعمل عملاً صالحاً، لكن مع هذا لا بُدّ من العمل الصالح، والعمل الصالح ما جمع شرطين:

الأول: الإخلاص لله.

والثاني: اتباع شريعة الله.

وإنما قلنا: اتباع شريعة الله؛ ليشمل إيمان هذه الأمة وإيمان من سبقهم. أما الإخلاص لله فإذا فُقد بطل العمل؛ ففي الحديث الصحيح القدسي: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١).

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢).

إذن، لا بُدّ أن يكون العمل على شريعة الله، وأن يكون خالصاً لله عزَّ وجلَّ. قوله: «لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» جنات جمع جنة، والجنة هي الدار التي أعدّها الله تعالى لأوليائه، وفيها «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(٣).

-
- (١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).
 (٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).
 (٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب، رقم (٢٨٢٤).

قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (مِنْ تَحْتِهَا) ليس المراد من تحت أرضها، بل هذه الأنهار تجري على السطح، ولكن المراد بقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت أشجارها وقصورها، والأنهار جمع نهر، وقد بين الله تعالى في سورة القتال أن الأنهار أربعة أنواع:

أنهار من عسل مُصَفًّى، ونهر من لبن، ونهر من ماء، ونهر من خمر، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وهذه الأنهار كلها موصوفة بصفة مدح وكمال:

ماء غير آسن: أي غير مُتَغَيَّرٍ، لا يقبل التغير إطلاقاً، بينما ماء الدنيا إذا أبطأ تغير، وصار آسناً، أي مُتَغَيَّرًا.

وأنهار من لبن لم يتغير طعمه: ولبن الدنيا إذا أبطأ تغير.

وأنهار من خمر لذة للشاربين: وقد وصف الله هذا الخمر في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۖ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ۖ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصفات: ٤٥-٤٧]؛ فهي لا تُصدِّعُ الرأس ولا تُخلُّ بالعقل، بل هي لذة مُطلقة.

والرابع: أنهار من عسل مُصَفًّى؛ لم يخرج من بطون النحل، ولكنه مما خلقه الله عزَّ وجلَّ في تلك الجنة.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها.

قال: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١] (الكبير) صفة الفوز، وهذا التركيب

-أي إذا أتى المبتدأ والخبر وكلاهما معرفةً - يَدُلُّ على الحَصْرِ، والحَصْرُ: إثباتُ الحُكْمِ في المذكور، ونَفْيُهُ عَمَّا سِوَاهُ؛ أي ذلك هو الفوز، وما سِوَاهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ فَوْزًا كَبِيرًا، بل الفوز الكبير هو دخول الجنة، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ ذُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

من فوائد هذه الآيات: الصبر:

وفي هذه الآيات فوائد كثيرة، لكن نُنبِّه على شيءٍ واحدٍ، وهو الصبرُ على الأذى في الله، فهؤلاء صَبَرُوا على التعذيب بالنار؛ لأنَّ هؤلاء المؤمنين صَبَرُوا على الإحراق بالنار مع الثبات على دينهم، وأكثرُ النَّاسِ على خلاف ذلك، فأكثرُ النَّاسِ على قولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] ثم ارتدَّ عن دينه خوفاً من فتنة النَّاسِ، وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللّٰهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على طَرَفٍ ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

لكنَّ المؤمنَ يَثْبُتُ على الإيمان، ويقولُ كما قَالَ السحرة لِفِرْعَوْنَ حينَ آمَنُوا، قالوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢] ولا يُهْمُّنا، فالْحَيَاةُ الدُّنْيَا مُنْقَضِيَّةٌ، مُنْتَهِيَّةٌ، لن تَدُومَ، ولكنَّ الشَّأْنَ كُلَّ الشَّأْنَ على أيِّ حالٍ يموتُ الْإِنْسَانُ؛ ولذلك لا تُفَكِّرُ متى تموتُ ولا أين تموتُ؛ لأنَّك مهما طالت بك الدُّنْيَا فمآلُكَ إلى الموتِ، ولا تفكِّرُ متى تموتُ؛ هل بعدَ عُمُرٍ طویلٍ أو بعدَ عُمُرٍ قصيرٍ، فكلُّ هَذَا سَيَذْهَبُ كَأَنَّهُ سَاعَةٌ، لكن فكِّرْ يا أخي المسلم على أيِّ حالٍ تموتُ، واسألِ الله دائماً حُسْنَ الخاتمة، وأن يجعلَ خَيْرَ عُمُرِكَ آخِرَهُ، وخيرَ عَمَلِكَ خَوَاتِمَهُ؛

لأن الأعمال بالخواصيم؛ كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا»^(١).

والمراد بـ «حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ» أي في زمن البقاء، لا في درجات العمل؛ لأن الإنسان لو عمل عملاً صالحاً يصل إلى ألا يبقى بينه وبين الجنة إلا ذِرَاعٌ، فإن الله لن يَخْذُلَهُ، لكن يعمل عملاً ظاهره الصلاح حتى إذا قُرب الأجل -والعباد بالله- انْتَكَسَ. نسأل الله السلامة.

وفي الصحيح أن رجلاً كان مع النَّبِيِّ ﷺ في غزوة، وكان هذا الرجل شجاعاً؛ لا يدعُ شاذةً ولا فاذةً للعدو، وتعجب الناس من إقدامه وشجاعته، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» -أعاذنا الله وإياكم منها- فكبر ذلك على المسلمين، وقالوا: إذا كان هذا الرجل الشجاع المقدام من أهل النار، فمن يكون من أهل الجنة؟! فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ أَبَدًا، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ، كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ. فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابُهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم -صلوات الله عليه- وذريته، رقم (٣٣٣٢)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٣).

لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ فَوَضَعَ نَضْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابُهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَمُوتُ لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فَيَمُوتُ لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١).

فَفَتِّشْ يَا أَخِي عَنْ قَلْبِكَ، هَلِ الْقَلْبُ ثَابِتٌ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ، مُخْلِصٌ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَأُبَشِّرْ بِالْخَيْرِ، وَهَلْ هُوَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ؛ فَصَحِّحِ الْمَسَارَ، وَصَحِّحِ النِّيَّةَ، وَأَخِلْ قَلْبَكَ مِنَ الْحَقْدِ وَالْبَغْضَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَخِلْ قَلْبَكَ مِنَ الشُّكِّ، وَالشَّرْكِ، وَالنِّفَاقِ، حَتَّى تَكُونَ الْعَاقِبَةُ لَكَ حَمِيدَةً إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِحَمْدِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، رقم (٢٧٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١١٢).

الدرس الثاني:

إِن الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

وفي هذه السورة العظيمة قصَّ الله علينا نبأ أصحابِ الأخدودِ الذين ضربوا أخاديدَ في الأرضِ لمن آمنَ بالله، وجعلوا يُحْرِقُونَهُمْ في هذه الأخاديدِ ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، ولكن هؤلاء المؤمنون قد رسَخَ الإيمانُ في قلوبهم، وآمنوا بالله إيمانًا عميقًا، وآمنوا بأنهم إذا انتقلوا من هذه الدارِ الفانيةِ المملوءةِ بالكدرِ فإنهم يَنْتَقِلُونَ إلى دارٍ خيرٍ منها؛ كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧] فالآخرةُ خيرٌ وأبقى لكنها لمن اتقى؛ كما قال الله تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧]، أما من لم يتقِ الله فإن الآخرةَ شرٌّ له من الدنيا.

وذكر أن الحافظَ ابنَ حجرٍ لما كان قاضيَ القضاةِ بمصرَ مرَّ يومًا بالسوقِ في موكبٍ عظيمٍ وهيئةٍ جميلةٍ، فهجمَ عليه يهوديٌّ يبيعُ الزيتَ الحارَّ، وأثوابه ملطخةٌ بالزيتِ، وهو في غايةِ الرثاثةِ والشناعةِ، فقبضَ على لجامِ بغلتهِ وقال: يا شيخَ

الإسلام، تزعمُ أن نبيكم قال: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(١). فأَيُّ سِجْنٍ أنتَ فيه، وأَيُّ جَنَّةٍ أنا فيها؟! فقال: أنا بالنسبةِ لما أعدَّ اللهُ لي في الآخرةِ مِنَ النِّعَمِ كأني الآنَ في السِّجْنِ، وأنتَ بالنسبةِ لما أعدَّ لك في الآخرةِ مِنَ العذابِ الأليمِ كأنك في جنةٍ! فأسلمَ اليهوديُّ^(٢).

وَصَدَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

[النساء: ٧٧].

أقول: إن هؤلاء المؤمنين الذين نَقِمَ منهم هؤلاء المجرمون أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، هؤلاء صَبَرُوا على ما أُوذُوا، والصبرُ على الإيذاءِ في الله عَزَّوَجَلَّ مِنْ خِصَالِ الرِّسَالِ الْكَرَامِ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ يعني: جَمَعَ لَهُم بَيْنَ التَّكْذِيبِ وَالْإِيذَاءِ ﴿حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤] يعني: فَاصْبِرْ فَأَنْتَ عَلَى حَقٍّ.

إذن، أوجهُ كلمتي هذه إلى الشباب، خاصة الذين وُفِّقُوا لِلاتِّزَامِ وَالتَّزَمُّوا بِدِينِ اللهِ وَآمَنُوا بِاللَّهِ، وَاتَّجَّهُوا اتِّجَاهًا سَلِيمًا، وَلَكِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ إِيذَاءٌ؛ إِمَّا مِنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِمْ سَابِقًا، وَإِمَّا مِنْ بَعْضِ أَهْلِيهِمُ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ؛ كَمَا شَكَا إِلَيْنَا كَثِيرٌ مِنَ الشَّبَابِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ مِنْ قِبَلِ أَهْلِيهِمْ، فَيَكُونُ أَهْلُهُمْ قَدْ شَبُّوا وَشَابُوا عَلَى الْمُنْكَرَاتِ وَعَلَى الْمَحْرَمَاتِ، فَإِذَا رَأَوْا هَذَا الْمُلْتَزِمَ مِنْ فَتَى أَوْ فَتَاةٍ آذَوْهُ إِيذَاءً

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦).

(٢) فيض القدير (٣/٥٤٦).

عظيماً، فأقول لهؤلاء: اصبرُوا، اصبرُوا، اصبرُوا؛ فإن العاقبة للمتقين، ولا تياسُوا من روح الله، وانصحُوا أهليكم؛ فإنه رُبَّ كلمة أثَّرت في القلب كما كان ذلك كثيراً، فكثيراً ما نياسُ من أن يهدي الله أحداً من الناس لتوغُّله في الفسوق والفجور، ولكن يهديه الله عزَّجَل، فالقلوبُ بين أضْبَعَيْنِ من أصابع الرحمن عزَّجَل يُصَرِّفُها كيف يشاء^(١). اللهم صرِّف قلوبنا إلى طاعتك، اللهم مقلِّب القلوب ثبَّت قلوبنا على دينك يا رب العالمين.

فهؤلاء الفتية الذين صبرُوا على أن يُحرقُوا بالنار، وثبَّتُوا على إيمانهم لنا فيهم أُسوةٌ، وهذه الأمة خيرُ الأمم، فإذا كان مَنْ سَبَقَنَا يصبرُونَ على هذا الأذى فلنكن نحنُ أولى منهم بذلك، فلنصبرْ فإن العاقبة للمتقين، وأما ما يحصلُ من بعض الشباب من عدم الصبر واللجوء إلى العنف والإفساد والتخريب فهذا لا شك أنه خِلَافُ طريقِ المرسلين، وخِلَافُ هديِ السلفِ الصالح، بل الواجبُ الصبرُ.

ولذلك نجدُ أن عاقبة العنف والشدة وأن يريد الإنسان أن يهتدي الناس بين عشية وضحاها، فيلجأ إلى القوة؛ نجدُ أن العاقبة تكونُ سيئةً، وتكونُ العاقبةُ سيئةً ليس فقط على هؤلاء الذين باشرُوا هذا الفعل الأهوج، ولكن حتى على غيرهم من دعاة الحق؛ لأنهم يكونون سبباً في ردع غيرهم عن دعوتهم إلى الله.

إذن، يجبُ الصبرُ واستعمالُ الحكمة وعدمُ العنف، والذي لا يأتي اليوم يأتي غداً، والذي لا يأتي غداً يأتي بعد غدٍ، والذي لا يُدركُهُ الإنسانُ في حياته ودعوته حقٌّ يدركُهُ بعد مماته؛ فإنَّ الداعي إلى الحقِّ له أجرٌ مَنْ عَمِلَ بِهِ ولو بعد موته،

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

فلا تَسْتَعْجِلْ يا أَخِي، ولا تَسْتَعْمِلْ ما يكونُ سَبَبًا لضررك وضرر غيرك؛ فإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أُوذِيَ أَشَدَّ الإيذاءِ في مَكَّةَ، ومع ذلك لم يؤمر بالجهاد، ولم يؤمر بالقتال؛ لأن السلطة كانت في ذلك الوقت للكافرين؛ لمشركي قريش.

ومن السفه عقلاً والضلal ديناً أن يُقاومَ الإنسانُ السلاحَ المكثفَ الشديدَ بمثلٍ سكينِ المطبخ، وعصا الراعي.

إذن، يا أخي انتظر واصبر فإن العاقبة للمتقين، وادعُ إلى الله لكن بالحكمة وبالوسيلة التي تكون أقرب إلى المقصود، واعلم أن مُنابذة الحُكَّامِ من الأمور المنهي عنها، نهى عنها النبي ﷺ وأمرنا أن نصبر فقال: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا، فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شَبْرًا، فَمَاتَ عَلَيْهِ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(١).

لذلك أحثُّ إخواننا الَّذِينَ يَجْدُونَ في وُلاتِهِمْ ما يُخَالِفُ شريعةَ الله، مما لا يَصِلُ إلى الكفر، أحثُّهم على الصبر وانتظار الفرج، وأن يدعُوا إلى الله تعالى بالحكمة، وألا يحاولوا إطلاقاً أن يخرجوا الخروج المسلح؛ فإن العاقبة في ذلك سيئة، ومن دَرَسَ التاريخَ من أوله إلى يومنا هذا علمَ حقيقة ما وقع، وأنه لا يَحْصُلُ من ذلك إلا الشرُّ والبلاءُ، فلنصبر ولنحتسب حتى يأتي الله بأمره.

أعودُ إلى قصة أصحابِ الأخدودِ فأقول: هؤلاء الذين أُخْرِقُوا بالنارِ من

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم (٧١٤٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، رقم (١٨٤٩).

أَجَلِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ؛ لَا شَكَّ أَنَّ الَّذِينَ أَحْرَقُوهُمْ أَتَوْا إِثْمًا عَظِيمًا، وَذَنْبًا كَبِيرًا، وَعَدَوَانًا عَلَى غَيْرِهِمْ، وَلَكِنْ اسْتَمَعَ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] أَي: صَدَّوْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، أَوْ أَحْرَقُوهُمْ؛ لِأَنَّ الْفِتْنَةَ تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ؛ مِنْهَا الْإِحْرَاقُ، وَمِنْهَا الصَّدُّ عَنْ دِينِ اللَّهِ، فَهَذَا ﴿فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ أَحْرَقُوهُمْ، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ صَدَّوْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَأَيُّهُمَا أَوْلَى: الْإِحْرَاقُ، أَمْ الصَّدُّ عَنْ دِينِ اللَّهِ؟

قُلْنَا: كِلَاهُمَا حَقٌّ، وَإِنِّي أُعْطِيكُمْ قَاعِدَةً مُفِيدَةً فِي التَّفْسِيرِ، بَلْ وَفِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ: كُلُّ نَصٍّ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ السُّنَّةِ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ، لَا يَتَضَادَانِ، وَلَا مَرَجَحَ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ، فَالْوَاجِبُ حَمْلُ النَّصِّ عَلَيْهِمَا.

وَلِهَذَا أَمْثَلُهُ كَثِيرَةٌ: مِنْهَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أَيِ صَدَّوْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ أَوْ أَحْرَقُوهُمْ.

وَنَاتِي بِمِثَالٍ يَوْضَحُ حَتَّى تَقْيِسُوا عَلَيْهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧-١٨] قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ: (عَسْعَسَ) يَعْنِي أَدْبَرَ. وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ: (عَسْعَسَ) يَعْنِي أَقْبَلَ. وَالْكَلِمَةُ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمُتَضَادَّةِ، يَعْنِي مِنْ كَلِمَاتِ الْأَضْدَادِ الَّتِي يَكُونُ اللَّفْظُ فِيهَا صَالِحًا لِلْمَعْنَى وَضَدُّهُ، فَيَحْمِلُ النَّصُّ عَلَيْهِمَا كِلَيْهِمَا؛ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا صَالِحٌ، فَاللَّيْلُ فِي إِقْبَالِهِ وَاللَّيْلُ فِي إِدْبَارِهِ لَا شَكَّ أَنَّ آيَةَ عَظِيمَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ اللَّهُ أَكْبَرُ! مَا أَحْلَمَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ! عَرَضَ عَلَيْهِمُ التَّوْبَةَ قَبْلَ أَنْ يَذْكُرَ

وعيده؛ لأن جملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ هِيَ محلُّ المبتدأ، وخبرُهُ: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، فذكرَ التوبةَ قبلَ أن يذكُرَ الجزاءَ، كأنَّهُ يعرِضُ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَتُوبُوا، وأنهم إذا تابوا رفعَ اللهُ عنهم العقوبةَ.

فانظرْ إلى حِلْمِ اللهِ! يحرقون أوليائه بالنارِ ويفتنونهم عن دينهم ثم يعرِضُ عليهم التوبةَ، أتجدونَ حِلْمًا أوسعَ من هذا؟! أبدًا والله، إن الله تعالى حليمٌ، لا يعاجلُ بالعقوبةِ، بل يُمهِّلُ العاصيَ، ولكنه إذا تَمَادَى العاصي في عِصْيَانِهِ فإنَّ الله تعالى يأخذه أخذًا شديدًا، قال النبيُّ -صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه-: «إِنَّ اللهَ عَزَّجَلَ يُمِلِّي لِلظَّالِمِ» يعني يُمهِّله «فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» وتلا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (١).

فمنَ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ نأخذُ فوائدَ: أعظمُها فائدةٌ سعةُ حلمِ اللهِ عَزَّجَلَ، وأنه حليمٌ لا يُعَجِّلُ بالعقوبةِ، بل يعرِضُ التوبةَ الرافعةَ للعقوبةِ لعلَّ العبدَ يتوبُ إلى اللهِ عَزَّجَلَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَتُوبَ عَلَيْنَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

ومنَ فوائدِ هذه الآية أن الكافرَ إذا أسلمَ عفا اللهُ عنه فيما سلفَ مما فيه اعتداءٌ على الخلقِ، ومما فيه اعتداءٌ في حقِّ الخالقِ، فإنَّ اللهَ يعفو عنه حتى لو كان الكافرُ قتلَ ألفَ مسلمٍ، فإذا تابَ تابَ اللهُ عليه، ورفعَ عنه عقوبةَ القتلِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

ودليل هذا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، كلُّ ما سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ، وقولُ النبي ﷺ لعمرُو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟»^(١). وهذا من أعظمِ الترغيبِ في الإِسْلامِ.

ولذلك نقولُ فيمن كان في أولِ أمرِه على ضلالٍ؛ لا يُصَلِّي ولا يصومُ، ويفعلُ المحرماتِ، فهنا إذا كان لا يُصَلِّي فقد وصلَ إلى درجةِ الكفرِ، نقولُ له: إذا تُبَّتْ تَابَ اللهُ عَلَيْكَ، ليسَ عليك قضاءُ صلاةٍ ولا قضاءُ صومٍ ولا غيرُ ذلك؛ لأنَّ مَنْ تَابَ مِنَ الْكُفْرِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وكذلك مَنْ تَابَ مِنَ الْفُسُوقِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَتُوبُ عَلَيْهِ؛ لأنَّ التوبةَ تَهْدِمُ ما قبلها.

ولكنْ يَبْقَى عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَا مَعْنَى التَّوْبَةِ، وما شروطُ التَّوْبَةِ:

التَّوْبَةُ: هِيَ الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ إِلَى طَاعَتِهِ، وَهِيَ قِسْمَانِ: تَوْبَةٌ مُقَيَّدَةٌ، وَتَوْبَةٌ مُطْلَقَةٌ.

فالتَّوْبَةُ الْمُقَيَّدَةُ أَنْ تَتُوبَ مِنْ ذَنْبٍ مُعَيَّنٍ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى غَيْرِهِ، وَالتَّوْبَةُ الْمُطْلَقَةُ أَنْ تَتُوبَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فَتُفَكِّرُ فِي نَفْسِكَ وَكُلِّ ذَنْبٍ أَنْتَ عَلَيْهِ تَتُوبُ مِنْهُ.

والتَّوْبَةُ الْعَامَّةُ الْمُطْلَقَةُ يَكُونُ مَنْ قَامَ بِهَا مِنَ التَّوَابِينَ، فَيُسَمَّى تَوَابًا، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، أما التَّوْبَةُ الْخَاصَّةُ الْمُقَيَّدَةُ مِنْ ذَنْبٍ مُعَيَّنٍ فَهَذِهِ يُقَالُ فِيهَا: إِنَّ الْإِنْسَانَ تَابَ مِنْ هَذَا، وَلَكِنْ لَا يُقَالُ: إِنَّهُ مِنَ التَّوَابِينَ؛ وَذَلِكَ لِكَوْنِهِ مُصَرًّا عَلَى ذَنْبٍ آخَرَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، رقم (١٢١).

وبهذا المعنى وبهذا التقرير يتبين أن الإنسان إذا كان من أهل السنة، وكان ملتزمًا بمذهب السلف، وخرج عن مذهب السلف في شيء معين، فإننا لا نقول: إنه مبتدع، وانتبه إلى هذه النقطة؛ لأن بعض الجهال السفهاء إذا رأوا من أحد العلماء الذين لهم قدم صدق في العلم، وقدم صدق في الدعوة إلى الله، وقدم صدق في منفعة عباد الله، وقد أسبغ الله عليهم من قبول بين الأمة الإسلامية مما يدل على رضاه عز وجل عنهم؛ نجد بعض الجهال السفهاء إذا كان قد صدر من مثل هؤلاء بدعة قالوا: هذا مبتدع، يجب ألا نقبل كتبه، ويجب أن نحرق كتبه. نسأل الله العافية!

ومن السفهاء من قال: يجب أن يُحرق (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، ويجب أن يُحرق (شرح صحيح مسلم)؛ لأن مؤلفيهما فيها شيء من البدع، سبحان الله! ألا ينظر هؤلاء إلى ما لهدين العالمين من قدم صدق في الإسلام ودعوة إلى الحق، وحسنات عظيمة تمحو السيئة الواحدة أو السيئات التي لا تقابل ولا عشر معشار الحسنات، فهذا ليس من العدل، وليس من الإنصاف، وليس من الشرع، بل هو ظلم وجور.

وأقول: إنه إذا تبين للإنسان الفرق بين العموم والخصوص، وبين الإطلاق والتقييد، عرف أن من سلك بدعة من البدع في مسألة من المسائل مع كونه معروفًا بالتزام السنة، ونشر الحق، والدعوة إليه، فإنه لا يصح أن نسميه مُبتدعًا على وجه الإطلاق، نعم نقول: هو ابتدع في هذا القول، لكن لا نقول: إنه مبتدع، ففرق بين التسمية المطلقة، وبين الوصف المقيّد. فانتبه يا أخي لهذا، واتزن في أمورك وفي

حُكْمِكَ فِي عِبَادِ اللَّهِ وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ.

ذَكَرْنَا أَنَّ التَّوْبَةَ نَوْعَانِ: مُقِيدَةٌ وَمُطْلَقَةٌ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: عَامَةٌ وَخَاصَّةٌ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ يَصِحُّ أَنْ تُسَمِّيَ صَاحِبَهَا مِنَ التَّوَّابِينَ، وَأَمَّا الْخَاصَّةُ أَوِ الْمُقِيدَةُ بِذَنْبٍ مُعَيَّنٍ فَلَا يَصِحُّ أَنْ نَعْطِيَهُ وَصْفَ التَّوَّابِينَ عَلَى وَجْهِ الْإِطْلَاقِ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْعَدْلُ، فَالْعَدْلُ أَنْ مَنْ اسْتَحَقَّ وَصْفًا عَلَى الْإِطْلَاقِ أُعْطِيَ الْوَصْفَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَمَنْ اسْتَحَقَّ وَصْفًا عَلَى وَجْهِ التَّقْيِيدِ، أُعْطِيَ الْوَصْفَ عَلَى وَجْهِ التَّقْيِيدِ، هَذَا هُوَ الْعَدْلُ.

وَالْإِنْسَانُ سَوْفَ يَحَاسِبُ عَلَى كُلِّ كَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ فَمِهِ، أَوْ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ يَضْمُرُهُ فِي قَلْبِهِ إِذَا كَانَ مِمَّا يُؤَاخِذُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ مِنْهَا مَا يُؤَاخِذُ عَلَيْهِ وَمِنْهَا مَا لَا يُؤَاخِذُ عَلَيْهِ.

شُرُوطُ التَّوْبَةِ:

وَالتَّوْبَةُ لَهَا شُرُوطٌ، وَشُرُوطُهَا خَمْسَةٌ:

الْشَّرْطُ الْأَوَّلُ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، بِأَلَّا يَحْمَلَ الْإِنْسَانُ عَلَى التَّوْبَةِ مَرَاعَاةَ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، أَوْ مَرَاعَاةَ أَمْرٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهُ تَابَ لِلَّهِ خَوْفًا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، وَرَجَاءً لثَوَابِ اللَّهِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ قَدْ أَخْلَصَ فِي تَوْبَتِهِ، أَمَّا مَنْ تَابَ رِيَاءً وَسَمْعَةً، أَوْ لِأَجْلِ أَنْ يَرْضَى عَنْهُ فَلَانٌ أَوْ فَلَانٌ، أَوْ خَوْفًا مِنْ سَيْفٍ، أَوْ خَوْفًا مِنْ عَصَا، أَوْ خَوْفًا مِنْ ذَمٍّ، فَهَذَا لَا تَوْبَةَ لَهُ، فَلَا بَدَّ مِنَ الْإِخْلَاصِ.

الْشَّرْطُ الثَّانِي: النَّدَمُ عَلَى مَا فَعَلَ مِنَ الذَّنْبِ. وَالنَّدَمُ: انْكَسَارُ الْقَلْبِ وَتَحَسُّرُهُ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ، أَمَّا مَنْ لَا يُوَثِّرُ فِيهِ الذَّنْبُ شَيْئًا فِي قَلْبِهِ فَتَوْبَتُهُ نَاقِصَةٌ،

ولا بُدَّ أن يندَمَ على ما فعلَ، والندمُ وإن كان انفعالاً في النفس وليس فعلاً بالجوارح، لكنَّ الإنسانَ يُمكنه أن يندَمَ، يعني يمكنه أن يتفعل كما لو فعلَ معه إنسانٌ شيئاً يقتضي الغضبَ فغضبَ. فعلى كل حالٍ لا بُدَّ من الندمِ.

الشرطُ الثالثُ: الإقلاعُ عن الذنبِ، يعني أن يترك الإنسانُ ذنبه، فلو تابَ الإنسانُ ولكنه مُصرٌّ على الذنبِ، كرجلٍ قال: أتوبُ إلى الله من النظرِ المحرمِ إلى امرأةٍ لا يحلُّ له النظرُ إليها لشهوةٍ، ولكنه كلما مرَّت به امرأةٌ أتبعها بصره، فهذه التوبةُ غيرُ صحيحةٍ، بل حقيرةٌ، فالأمرُ أن هذا مستهزئٌ بالله، كيف يقولُ لربه: إنه تائبٌ، وهو مقيمٌ على معصيته؟! والله لو قال لك قائلٌ من البشرِ، وأنت تلومُه على فعلِ شيءٍ: سامحني، هذا شيءٌ فعلته ولكن سامحني، وتراه يفعلُه، فهل هذا صدقك في قوله: إنه تابَ منه؟ أبداً، بل استهزأ بك. فلا بدَّ أن يدعَ الإنسانُ الذنبَ.

مثالٌ آخرُ: هؤلاء الذين يأكلون الربا -نسأل الله العافية- والربا ملعونٌ أكله، فلو قال قائلٌ منهم: اللهم إني أتوبُ إليك من أكلِ الربا. وفي أثناء ذلك قال للمحاسبِ: كم الربحُ اليومَ، العشرةُ أحدَ عشرَ أم اثنا عشرَ، فهذا ليس بصادقِ التوبةِ، بل هذا كالمستهزئِ بالله عزَّ وجلَّ.

إذن، لا بدَّ من الإقلاعِ عن الذنبِ، والإقلاعُ عن الذنبِ إن كان الذنبُ تركَ واجبٍ فالإقلاعُ عنه أن يأتي بالواجبِ، وإن كان الذنبُ فعلٌ محرمٍ فالإقلاعُ عنه أن يتركَ المحرمَ.

فلنضربَ لكلِّ واحدٍ مثلاً: رجلٌ عرفَ أنه أخطأ بمنعِ الزكاةِ وقال: إنه تائبٌ إلى الله، وكان عليه ثلاثُ سنواتٍ لم يؤدِّ الزكاةَ، فهل تصحُّ توبته إذا أدى

زكاة هذا العام دون زكاة العامين السابقين؟

الجواب: لا تصح؛ لأنه لم يُقْلَعِ عن الذنب، فإذا كان صادقاً في توبته من ترك الواجب فليقم بفعل الواجب، وإلا فهو كاذب، وعلى هذا فالتوبة من ترك الواجب أن يقوم بفعل الواجب.

وهناك التوبة من الذنب بفعل المحرم، كأن يقول: إنه تاب من النظر المحرم، أو من الربا، أو من الغيبة، أو ما أشبه ذلك من الذنوب، ولكنه باق على ما هو عليه.

وإذا كان قد تاب من ظلم الناس وأكل أموالهم وخزنته مملوءة بأموال الناس، فما تتحقق التوبة، وتتحقق التوبة بأن يرد هذه الأموال إلى أهلها، فإن قال: إنه تاب من أكل أموال الناس، وأموال الناس في بطنه أو في صندوقه، فإنه لم يتب، فلا بد أن يؤدي الأموال التي ظلمها إلى أصحابها.

كذلك رجل جاء تائباً يسأل ويقول: إنه قد أخذ مال هذا سرقة، أو جحده، مع وجوب بذله لصاحبه أو ما أشبه ذلك، فكيف يتوب؟

قلنا: أعط صاحب إياه، قال: إن صاحبه قد مات، فلمن يعطيه؟ قلنا: يعطيه ورثته، قال: إن إعطاءه ورثته يشق عليه، فنقول: ولو شق عليك، فأنت السبب في ذلك، قال: أخشى بالمراجعات والاتصالات بالهاتف أن أغرم أكثر مما أخذت، قلنا له: ولو غرمت أكثر مما أخذت، ما دام يمكن أن توصل الحق إلى أهله فإيصالك إياه في الدنيا خير من أخذه منك من حسناتك يوم القيامة، فإذا قال: لا أعرف له ورثة لأنه رجل من غير بلاده ولا يدري ما قبيلته، فإننا نقول: تصدق به، وأنوه لمن هو له.

وهل هذه الصدقة أجرها للميت أم للورثة؟

نقول: العلماء اختلفوا؛ فمن العلماء من قال: يكون الأجر للميت؛ لأنه صاحب المال الأول. ومنهم من قال: إنه للورثة لأنهم أصحاب المال أخيراً، فهذا المال للميت أولاً لكن في النهاية صار للورثة؛ لأن الإنسان من حين أن تخرج روحه يكون جميع ما عنده لورثته، حتى ثوبه الذي هو عليه يكون للورثة.

إذن، إذا كان الذنب متعلقاً بأحد من المخلوقين فلا بد أن يوصل الحق إلى أهله، وإلا لم تصح توبته.

وإذا كان الحق ضرباً، يعني إنسان ضرب شخصاً عدواناً بغير حق، فكيف يتخلص منه؟

نقول: يذهب إلى صاحبه ويقول: إنه ظلمه بالضرب، ويتحلل منه؛ فإن سألته فهذا المطلوب، وإلا قال: الآن خذ من بدني مثل ما جئت عليك، فإذا كان ضربه على ظهره فإنه يقول: هذا ظهري لك، اضربني.

ولكن هل يجوز لمن أراد أن يضربه استيفاء لحقه أن يضربه أشد من ضربه إياه؟

نقول: لا يجوز؛ لأن الله يقول: ﴿وَجَزَاؤُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ولكن هناك طريق آخر أحسن من هذا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

فأنت -أخي المسلم- إذا جاء أخوك يعتذر إليك بكونه جنى عليك أو اغتابك عند الناس، فإن من حقه عليك الحق المستحب أن تعفو عنه، وأنت إذا عفوت

عنه فأجرُك على كريم، وهو الله عزَّ وجلَّ، وأجرُك على الله أحسن من كونك تقتصُّ لنفسِكَ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

الشرط الرابع: العزم على ألا يعودَ إلى الذنبِ في المستقبل، فأما إذا تاب وأقلعَ لكن في نيته أن يعودَ، أو متردِّدٌ هل يعودُ إلى الذنبِ فيما لو حصلتْ له فرصةٌ، أو لا يعودُ، فإن توبته لا تصحُّ، فلا بدَّ أن يعزمَ على ألا يعودَ.

فإذا تاب من الغيبة -والغيبة كما تعرفون من كبائر الذنوب، وهي أن يذكر أخاه في غيبته بما يكره- لكنه متردِّدٌ يقول: ربما لو يأتي ذكرٌ لهذا الرجل أعدتُ اغتيابي إياه، فلا تصحُّ توبته؛ لأنه لم يعزمَ على ألا يعودَ، ولا بدَّ من أن يعزمَ على ألا يعودَ.

فإن عزمَ على ألا يعودَ لكنه في يومٍ من الأيام سَوَّلتْ له نفسه ففعلَ الذنبَ، فإن التوبة الأولى مقبولة، ويحتاجُ إلى تجديدِ توبةٍ للذنبِ الجديد.

ولهذا سأذكرُ عبارتَيْن: إحداهما خطأً والأخرى صوابٌ:

العبرة الأولى: يشترطُ لصحة التوبة ألا يعودَ. وهذه خطأ.

والعبرة الثانية: يشترطُ لصحة التوبة أن يعزمَ على ألا يعودَ، وهذه هي الصوابُ: العزمُ على ألا يعودَ؛ لأنك لو قلت: من شروطِ التوبة ألا يعودَ، ثم تاب بجميعِ الشروطِ إلا أنه عادَ فيما بعدُ، فعلى قولنا: إنه يشترطُ ألا يعودَ تكونُ التوبة الأولى غيرَ صحيحةٍ، وهذا غلطٌ، بل التوبة الأولى صحيحةٌ، ويحتاجُ أن يقدمَ توبةً جديدةً للذنبِ الجديد.

إذن، فالعبرة الصحيحة هي العزمُ على ألا يعودَ، فإن عادَ فإن توبته الأولى صحيحةٌ ومقبولةٌ، وعليه أن يجددَ توبةً للذنبِ الجديد.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقتٍ تقبل فيه التوبة، وهذا من أخطر الشروط؛ وذلك نوعان: النوع الأول: زمنٌ عامٌّ، والنوع الثاني: زمنٌ خاصٌّ:

أما الزمن العام الذي تنقطع به التوبة فهو طلوع الشمس من مغربها، فالشمس التي تدور الآن على الأرض تأتي من المشرق وتغرب من المغرب، هذه الشمس سيأتي يومٌ من الأيام ويأمرها ربها عزَّ وجلَّ أن ترجع من حيث أتت، وأن تخرج من المغرب، وحينئذ يؤمن الناس كلهم، حتى أكفر عباد الله يؤمن؛ لأنه يتبين له الآن أن للكون خالقاً، وأنها ليست طبيعة تتفاعل وينفعل بعضها مع بعض، فيؤمن كل الناس، ويتوب المذنبون، لكن هل تنفع التوبة؟ الجواب: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَيْتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وبعض الآيات المرادة في هذه الآية هي طلوع الشمس من مغربها.

إذن، مَنْ تاب من الذنب بعد أن تخرج الشمس من مغربها فتوبته غير مقبولة؛ لأن من شروط التوبة أن تكون في زمن قبول التوبة.

أما الزمن الخاص فهو أن يتوب الإنسان قبل حضور أجله، ومَنْ منا يعلم متى يحضر أجله؟ لا أحد يعلم، قد يموت الإنسان على فراشه، وقد يموت على مكتبه، وقد يموت وهو قابض على مقود السيارة، وقد يموت وهو يمشي في السوق، فلا أحد يعلم.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).

من هنا نعرف أن التوبة واجبة على الفور، وأنه يجب على الإنسان أن يبادر بالتوبة، ولا يتأخر؛ لأنه لا يدري متى يموت - أحسن الله لي ولكم الخاتمة - فإذا حضر الأجل لم تنفع التوبة؛ لأنه فات الأوان وشوهد الغائب بالعيان، واستمع إلى قول الله عز وجل: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْ كُنْ﴾ [النساء: ١٨]؛ لأنهم حضرهم الموت وعابنوا الغائب، وعرفوا أنهم منتقلون عن الدنيا، فتأبوا لكن لم ينفع.

فهذا قول الله الخبري الحكمي، وانظر إلى فعل الله عز وجل الكوني القدري: فرعون قد علم أنه من أشد الناس ذنبًا، بل قال الله فيه وفي قومه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وفي قراءة: (ادخلوا آل فرعون أشد العذاب)^(١)، فرعون أدركه الغرق، فغرق في بحر يفصل بين آسيا وأفريقيا، وهو بحر القلزم، ويعرف الآن بالبحر الأحمر، غرق فرعون بهذا البحر والبحر ماء، وكان هذا الرجل الطاغية كان يفخر بالأنهار تجري من تحته، ويقول لقومه: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَكْفُمِ الْيَسَّ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [٥١] أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ﴿يُشِيرُ إِلَى مُوسَى﴾ [ولا يكاد يبين] [الزخرف: ٥١-٥٢]، أي لا يكاد يفصح بالكلام؛ لأن موسى عليه الصلاة والسلام فيه لكمة في لسانه، فليس يتكلم كلامًا منطلقًا واضحًا، ولهذا قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي﴾ [طه: ٢٧]، ولم يقل: احلل عقدة لساني، فأجاب الله دعاءه وحل عقدة من لسانه على قدر ما يفهم الكلام فقط، قال: احلل عقدة من لساني

(١) انظر: حجة القراءات (ص: ٦٣٣).

يَفْقَهُوا قَوْلِي فَقَطْ، مَا أَرَادَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، أَرَادَ أَنْ يُفْهَمَ كَلَامُهُ فَقَطْ، فَأَجَابَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ وَحَلَّ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ.

وانظر القناعة من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الرسلَ لَا يُرِيدُونَ الْمَتَاعَ بِالدُّنْيَا، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَقُومُ بِهِ الدِّينُ.

وَيَحْضُرُنِي الْآنَ - وَإِنْ كُنْتُ أَخْرُجُ عَنِ الْمَوْضُوعِ قَلِيلًا - قِصَّةُ أَحَدِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ ابْتُلُوا، وَمِنْهُمْ أَعْمَى ابْتُلِيَ بِالْعَمَى، وَجَاءَهُ الْمَلِكُ، أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مَلَكًا يَسْأَلُهُمْ مَا يُرِيدُونَ، فَقَالَ الْأَعْمَى: «يُرِدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ»^(١). فَمَا قَالَ: يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي لِأَرَى بِهِ النُّجُومَ فِي الْبَحْرِ، بَلْ قَالَ: «يُرِدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ». إِذَنْ سَأَلَ قَدَرَ الْكِفَايَةِ وَلَيْسَ زَائِدًا عَنِ الْكِفَايَةِ.

أَعُودُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَدْ غَرِقَ بِالْمَاءِ الَّذِي كَانَ يَفْتَخِرُ بِهِ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ: آمَنْتُ بِالَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ. وَالَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنْ انْظُرْ إِلَى الذَّلِّ وَالْخِزْيِ وَالْعَارِ لِهَذَا الرَّجُلِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ؛ كَانَ يَبْطِشُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْآنَ جَعَلَ نَفْسَهُ تَابِعًا لَهُمْ، فَمَا قَالَ: آمَنْتُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بَلْ قَالَ: آمَنْتُ بِالَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ. اسْتَصْغَارًا لِنَفْسِهِ وَاحْتِقَارًا لَهَا، وَاسْتِذْلَالًا لَهَا، فَذَلَّ حَتَّى صَارَ مِنْ أَتْبَاعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فَقِيلَ لَهُ: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ بِدَنُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب، رقم (٢٩٦٤).

بلا رُوح ﴿لِتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢] أي علامة، والذين خَلَفَهُ هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ؛ لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَرْعَبَهُمْ فِرْعَوْنُ، وَبَلَغَ رَعْبُهُ قَعَرَ قُلُوبِهِمْ، فَلَنْ يَطْمَئِنُّوا حَتَّى يُشَاهِدُوا هَذَا الطَّاعِيَةَ قَدْ مَاتَ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ كَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ قَدْ أَرْعَبَكُمْ وَجَاءَكُمْ خَبَرٌ صَادِقٌ مُتَوَاتِرٌ وَقَالَ: إِنَّ عَدُوَّكُمْ قَدْ مَاتَ. هَلْ تَطْمَئِنُّونَ إِلَى هَذَا الْخَبَرِ الصَّادِقِ الْيَقِينِيِّ مِثْلَمَا تَطْمَئِنُّونَ إِلَى مُشَاهَدَتِكُمْ لِلْعَدُوِّ أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ قَدْ مَاتَ؟

نقول: اطمئنن الإنسان لكونِ عَدُوِّهِ قَدْ مَاتَ أَمَامَ عَيْنِهِ أَبْلَغُ مِنْ اطمئننائه بالخبر، ولهذا قَالَ: ﴿لِتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾، فَإِذَا شَاهَدَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ اطمأننوا أَنَّ عَدُوَّهُمْ انْتَهَى، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ عَدُوٌّ.

فهذا شاهد؛ شاهدٌ بالقضاءِ القدرِيِّ لكونِ التوبةِ لَا تُقْبَلُ إِذَا حَضَرَ الْأَجْلُ. إذن، لَا بَدَّ أَنْ تَكُونَ التوبةُ فِي زَمَنِ تَقْبَلُ فِيهِ التوبةُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي زَمَنِ تَقْبَلُ فِيهِ التوبةُ فَلَا قَبُولَ لَهَا.

الوصية:

فانتبه يا أخي، وَلَا تَضْحَكْ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تَلْعَبْ بِعَقْلِكَ، وَلَا تَقُلْ: تُبْتُ مِنْ الذَّنْبِ. وَأَنْتَ مُصِرٌّ عَلَيْهِ، أَعَاذَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَفَكَّرْ فِي أَمْرِكَ، هَلْ أَنْتَ تَائِبٌ حَقًّا، وَهَلْ يَصِحُّ أَنْ تُوصَفَ بِالتَّوَّابِ، وَانْظُرْ فِي الْأَمْرِ، وَلَا تَضْحَكْ عَلَى نَفْسِكَ.

ولهذا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا حَقُّ أَمْرِي مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ أَنْ يُوصِيَ فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ»^(١). لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَا يَأْمَنُ، فَمَا حَقُّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب الوصايا وقول النبي ﷺ: «وصية الرجل مكتوبة عنده»، رقم (٢٧٣٨)، ومسلم: كتاب الوصية، باب، رقم (١٦٢٧).

المسلم أن يبيت ليلتين إلا وقد كَتَبَ وَصِيَّتُهُ، وليست الوصية التي يعرفها العامة الآن أن يُوصي بالثلث أو الربع أو الخمس، بل الوصية المهمة التي ليس للمسلم حق أن يبيت ليلتين إلا وقد كتبها هي الحقوق الواجبة عليه، فأنت مثلاً اشتريت من شخص شيئاً بعشرة ريالات، وليس معك شيء، فما معك عشرة ريالات، فقلت: سوف آتي بها إليك فقيدها. فإن قيل: عشرة ريالات قليلة، قلنا: تكتبها ولو كانت عشرة ريالات، فما تدري، فلو مت ضاع حق الرجل، فلو جاء الرجل إلى الورثة بعد موتك وقال: أنا لي على فلان عشرة ريالات. سيقول له الورثة: هات البينة، ولهم حق أن يقولوا: هات البينة؛ لأن المال ليس لهم الآن، ولا يمكن أن يُعطوه كل ما ادعاه، فإذا كان الإنسان قد كَتَبَ هذه الدراهم العشرة فلن يحتاج إلى بينة.

والورثة يحب عليهم بمجرد أن يموت الإنسان أن ينظروا في دفاتره؛ ما الذي عليه، ولا يحل لهم أن يأخذوا من التركة عود الكبريت حتى يتبين أنه لا دين عليه؛ لأن الورثة ليس لهم حق في المال إلا بعد وفاء الدين، فتجدون في القرآن الكريم لما ذكر المواريث قال: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١].

وأسفًا لبعض الناس الظلمة الذين لا يخافون الله ولا يحترمون الميت، فتجدهم من حين أن يموت الميت يستولون على ماله، ولا يبحثون هل عليه دين أو لا، وهذا حرام عليهم، فإذا كان الرجل معروفًا بمعاملة الناس فلا بد أن يبحثوا قبل أن يأخذوا المال على وجه الميراث، ولا بد أن يبحثوا هل أحد يطلبه، حتى إني أقول لكم: قال العلماء: يجب الإسراع في قضاء دين الميت، وينبغي أن يؤدي دين

الميت قبل أن يدفن، سبحانه الله! قبل أن يدفن، وهو سيدفن بعد موته بساعة مثلاً! فالعلماء يقولون: ينبغي أن يُقضى الدين قبل أن يدفن، حتى يدفن ونفسه غير معلقة بدينه.

وأكثر الناس يأكل مال الميت من ضررٍ على ضررٍ ولا يبحث عن دينه، والميت قد يكون معروفًا باشتباكاتِه مع الناس في المعاملات؛ له وعليه. وهذا من الخطأ، ومن العقوق، سواء كان الموروث والدًا أو والدّة.

فنسأل الله لنا ولكم التوبة النصوح؛ التي أمرنا الله بها في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨]. وتأمل يا أخي قول الله تعالى: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ حتى يقطع على الإنسان باب الجزم بقبول التوبة، فقد يتوب الإنسان لكن تكون توبته غير نصوح، وهو لا يدري، فلا تقبل لذلك، قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ و(عسى) من الله وعد، لكن فعل العبد هو الذي يُحشى ألا يكون على وجه الصواب، فتب إلى الله توبة نصوحًا؛ فإن الله ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه.



الدرس الثالث:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ قِيلَ أَصْحَبُ الْأَخْدُودِ ﴿[البروج: ١-٤] إِلَى آخِرِهِ.

بَدَأَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى السُّورَةَ بِالْقَسَمِ بِالسَّمَاءِ، وَوَصَفَهَا بِأَنَّهَا ذَاتُ بُرُوجٍ، وَالْبُرُوجُ عِنْدَ الْفَلَكَائِينَ اثْنَا عَشَرَ بُرْجًا، وَلِكُلِّ بُرْجٍ نُجُومٌ مَعِينَةٌ، وَأَصْلُهَا الْمَكَانُ الْعَالِي؛ لِأَنَّ هَذِهِ النُّجُومَ فِي السَّمَاءِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهُ وَعِدَ بِهِ، وَهُوَ سُرُورٌ لِلْمُتَّقِينَ، وَثُبُورٌ لِلْمُجْرِمِينَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أَقْسَمَ اللَّهُ أَيْضًا بِالشَّاهِدِ وَالْمَشْهُودِ، وَذَلِكَ أَيْضًا يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ هَذَا الْيَوْمَ مَشْهُودٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] وَأَمَّا الشَّاهِدُ فَهُمُ الرُّسُلُ، شُهَدَاءُ عَلَى أُمَّهاتهم؛ لِأَنَّ الرِّسَالَةَ بَلَّغْتُهُمْ، فَهَذِهِ الْأُمَّةُ شَاهِدَةٌ عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ بِأَنِّ رُسُلَهُمْ بَلَّغُوهُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومن الشُّهُودِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: شُهُودُ الْجَوَارِحِ وَالْجُلُودِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

قَوْلُهُ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ هَذَا هُوَ جَوَابُ الْقَسَمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، وَأَصْلُ جَوَابِ الْقَسَمِ أَنْ يُقَرَّنَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى التَّوَكُّيدِ كَاللَّامِ، وَ(قَدْ)، فَتَقُولُ: وَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، وَقَدْ تُحَذِّفُ اللَّامَ وَتَبْقَى (قَدْ)، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ②﴾ [الشمس: ١-٢] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ③﴾ [الشمس: ٩]، وَقَدْ تُحَذِّفُ اللَّامَ وَ(قَدْ)، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ④ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ⑤ وَشَهِيدٍ وَمَشْهُودٍ ⑥ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ⑦﴾ وَأَصْلُهَا: لَقَدْ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، وَلَكِنْ حُذِفَتِ اللَّامُ وَ(قَدْ).

قَوْلُهُ: ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ الْأُخْدُودُ: هِيَ السَّوَاقِي الَّتِي تُحْفَرُ فِي الْأَرْضِ، وَصَنَعَهَا الْمُجْرِمُونَ الَّذِينَ أَحْرَقُوا بِهَا الْمُؤْمِنِينَ، فَخَدُّوا أَخَادِيدَ فِي الْأَرْضِ، وَوَضَعُوا فِيهَا الْحَطَبَ، وَأَوْقَدُوا فِيهَا النَّارَ، وَعَرَضُوا النَّاسَ عَلَيْهَا، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ أَلْقَوْهُ فِي النَّارِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ⑧ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑨﴾ [البروج: ٥-٦]، وَانْظُرِي إِلَى هَذَا الِاسْتِكْبَارِ وَهَذَا الْعُلُوِّ وَهَذِهِ الْغَطْرَسَةُ، حَيْثُ إِنَّ بَنِي آدَمَ يُحَرِّقُونَ بِالنَّارِ، وَهَؤُلَاءِ قُعُودٌ كَأَن لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جَبْرِيَّتِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ، وَعُتُوِّهِمْ وَفُجُورِهِمْ: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ⑩ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑪﴾.

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّارَ مُلْكُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَتَصَرَّفُ بِهَا كَمَا يَشَاءُ، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ تَحْرِقْهُمْ، كَمَا جَرَى ذَلِكَ لِلْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّ أَعْدَاءَ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُقَابِلُوا الْحَقَّ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

فَعَلَيْكَ ﴿[الأنبياء: ٦٨] فَفَعَلُوا، وَنَفَذُوا، وَأَوْقَدُوا نَارًا عَظِيمَةً، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُمْ لَمَّا أَرَادُوا أَنْ يُلْقُوا إِبْرَاهِيمَ فِيهَا أَلْقَوْهُ عَنْ طَرِيقِ الْمَنَجْنِيقِ -الْمَنَجْنِيقُ مِثْلُ الْمَدَافِعِ- يَعْنِي: وَضَعُوهُ فِي كِفَّةِ الْمَنَجْنِيقِ، ثُمَّ رَمَوْهُ مِنْ بُعْدٍ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ قُرْبَ النَّارِ لَشِدَّةِ حَرَارَتِهَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ بِقُدْرَتِهِ قَالَ لِهَذِهِ النَّارِ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فَكَانَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا؛ بَرْدًا ضِدَّ الْحَرَارَةِ، وَسَلَامًا ضِدَّ الْحَرِيقِ، فَلَمْ تَحْرِقْهُ، وَلَمْ تُؤْذِهِ، وَصَارَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: لَوْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِهَذِهِ النَّارِ: كُونِي بَرْدًا، لَأَهْلَكَتْ إِبْرَاهِيمَ بِرُودَتِهَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ كُلُّهَا خَاضِعَةٌ لِأَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَمْرِ الْكَوْنِيِّ.

فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأَخْذُودِ النَّارُ أَحْرَقَتْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ وَضَعُوا فِيهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَقُلْ لَهَا: كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيْهِمْ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَتَغَطَّرِينَ، أَعْنِي: الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، بَقُوا وَكَانَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿[البروج: ٥-٦]، ﴿إِذْ هُمْ﴾ أَيُّ: أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ، ﴿عَلَيْهَا﴾ عَلَى النَّارِ، ﴿قُعُودٌ﴾ يَنْظُرُونَ كَيْفَ تَضْطَرُّ أَيْدَانُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُلْقُوا فِيهَا.

﴿وَهُمْ﴾ أَيُّ: أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ، ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٧] يُشَاهِدُونَهُمْ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا صَنَعَ الْآخَرُونَ.

بِأَيِّ ذَنْبٍ أَخْرَقُوا هَؤُلَاءِ بِالنَّارِ: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] أَيُّ: مَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ إِلَّا إِيْمَانَهُمْ بِاللَّهِ، وَهَذَا لَيْسَ مُنْكَرًا، بَلْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ، وَهَذَا هُوَ الْمَفْرُوضُ -أَعْنِي: الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ- لَكِنَّ هَؤُلَاءِ

الْكَفَرَةُ الْفَجْرَةُ نَقَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

وانظر كيف قال: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، ﴿الْعَزِيزِ﴾ يَعْنِي: الْعَالِي، يَعْنِي: أَنْ هَؤُلَاءِ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ وَإِنْ غَلَبُوا الْمُؤْمِنِينَ بِإِحْرَاقِهِمْ، فَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَهُمْ، وَالْعِزَّةُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿الْحَمِيدِ﴾ الْمَحْمُودِ عَلَى كُلِّ حَالٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِأَنَّ الْحَمِيدَ هُنَا بِمَعْنَى مَحْمُودٍ، وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى حَامِدٍ، وَالْمَعْنِيَانِ صَحِيحَانِ، فَهُوَ حَمِيدٌ أَيْ: مَحْمُودٌ، وَيُحْمَدُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، حَامِدٌ لَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ مِنْ عِبَادِهِ، وَلِذَلِكَ أَثْنَى اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ، وَعَلَى الرُّسُلِ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لَأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا: لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

إِذَنْ، ﴿الْحَمِيدِ﴾ بِمَعْنَى: حَامِدٍ، وَبِمَعْنَى مَحْمُودٍ.

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَصَابَهُ مَا يُسْرُّ بِهِ، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وَإِذَا أَصَابَهُ مَكْرُوهٌ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»^(١).

وَهُنَا عِبَارَةٌ يَتَنَاقَلُهَا بَعْضُ النَّاسِ، يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُحْمَدُ عَلَى مَكْرُوهٍ سِوَاهُ، وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ غَيْرُ صَوَابٍ؛ لِأَنَّهَا مُخَالِفَةٌ لِمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُهُ، إِذْ إِنَّهُ يَقُولُ؟ «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

أَمَّا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُحْمَدُ عَلَى مَكْرُوهٍ سِوَاهُ، فَهَذَا غَلْطٌ، كَأَنَّكَ تَمُنُّ عَلَى رَبِّكَ أَنْ حَمَدْتَهُ عَلَى الْمَكْرُوهِ، ثُمَّ إِنَّ كَلِمَةَ (مَكْرُوهٍ) تُعْلَنُ إِعْلَانًا بَيِّنًا أَنَّ هُنَاكَ نَوْعًا مِنَ الْكَرَاهَةِ لِمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكْرَهُ الْمَقْضِيَّ، لَكِنْ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَه: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ فَضْلِ الْحَامِدِينَ، رَقْمُ (٣٨٠٣).

لَا يَكْرَهُ الْقَضَاءَ، فَقَضَاءُ اللَّهِ مَرْضِيٌّ عَنْهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَالْمَقْضِيُّ هُوَ الَّذِي فِيهِ شَيْءٌ مَكْرُوهٌ، شَيْءٌ مَرْضِيٌّ عَنْهُ.

لَكِنْ عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ لَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَهَا، بَلْ يَتَجَنَّبُهَا، وَيَقُولُ مَا قَالَه النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البروج: ٩]، ﴿لَهُ مُلْكٌ﴾ فِيهَا مَبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، وَالْخَبَرُ هُنَا مُقَدَّمٌ لِإِفَادَةِ الْحَضَرِ، يَعْنِي: إِنَّ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَا أَحَدٌ يُشَارِكُهُ، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ شَيْئًا مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]، اسْتَمِعْ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي سَقْنَاهَا الْآنَ، تَجِدُ أَنَّهَا قَطَعَتْ كُلَّ أَمَلٍ لِلْمَشْرِكِينَ بِاللَّهِ، الَّذِينَ يَدْعُونَ غَيْرَ اللَّهِ، مَاذَا يُرِيدُونَ؟ يُرِيدُونَ أَنْ تَنْفَعَهُمْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ، سَوَاءٌ كَانَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ مَنْصُوبَةً أَوْ كَانَتْ قُبُورًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَكُلُّ مَا يُدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهَذَا شَتَائُهُ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِقْلَالِ، وَلَيْسَ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ مُلْكٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ، وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ يَعْنِي: هَذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، لَيْسَتْ مِشَارَكَةً لِلَّهِ، إِذَنْ، نَفَى عَنْهَا الْمَلِكَ الْإِسْتِقْلَالِيَّ فِي عِبَارَةٍ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾، وَنَفَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ شَرَكَةٌ فِي مُلْكِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنِ ظَهِيرٌ﴾ ﴿٢﴾ أَيُّ: مَنْ مُسَاعِدٍ وَمُعَاوِنٍ، يَعْنِي: لَيْسَ لِلَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ مَعِينٌ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ مُلْكِهِ، إِذَنْ، لَيْسَ لَهَا مُلْكٌ اسْتِقْلَالِيٌّ، وَلَا مُلْكٌ شَرَكِيٌّ، وَلَا مُسَاعِدَةٌ وَلَا مُعَاوَنَةٌ.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ﴿٣﴾، أَيْضًا نَفَى الشَّفَاعَةَ، يَعْنِي: هَذِهِ الْأَصْنَامُ لَا تَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ الْمَعْبُودَةِ أَنْ تَشْفَعَ أَبَدًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَأْذِنُ بِالشَّفَاعَةِ إِلَّا إِذَا رَضِيَ عَنِ الشَّافِعِ وَعَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ، فَقَطَعَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَمِيعَ أَطْمَاعِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ.

وَلِذَلِكَ، الَّذِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى قَبْرِ فُلَانٍ أَوْ قَبْرِ فُلَانٍ مِمَّنْ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ، وَيَدْعُونَهُمْ، نَقُولُ: هَؤُلَاءِ سَفَهَاءُ فِي الْعُقُولِ، ضَلَالٌ فِي الْأَدْيَانِ، لَيْسَ عِنْدَهُمْ عَقْلٌ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ دِينٌ، أَمَّا كَوْنُهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ عَقْلٌ، فَلِأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ، لَا نَفْعٌ وَلَا ضَرٌّ، وَأَمَّا كَوْنُهُمْ ضَلَالًا فِي الْأَدْيَانِ فَلِأَنَّ هَذَا مِنَ الشَّرْكِ، وَالشَّرْكُ أَعْظَمُ الضَّلَالِ.

وَلِذَلِكَ، يَجِبُ عَلَى عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ عِبَادَةِ الْقُبُورِ، وَالِاسْتِغَاثَةِ بِأَهْلِهَا، أَنْ يُبَيِّنُوا لِلْعَامَّةِ أَنَّ هَذَا شِرْكٌ، وَأَنَّ مَنْ اتَّخَذَهُ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

يَجِبُ عَلَى عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى طُلَّابِ الْعِلْمِ، أَنْ يُبَيِّنُوا لِلْعَامَّةِ الَّذِينَ ضَلُّوا

ولم يهتدوا للحق، أن يُبينوا للعامة أنه لا يُعبد إلا الله، ولا يُستغاث إلا بالله، وأن هؤلاء المقبورين جثث هامدة، وقد تكون الديدان أكلتهم، وقد يكونون مضمحلين نهائياً إلا عجب الذنب، فإنه يبقى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾.

بعده ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ هؤلاء الذين يدعون من دون الله، قد يدعون أنهم إنما يريدون أن يكونوا شفعاء، وأنهم إنما عبدوهم ليقربوهم إلى الله، ولكن هذا غلط؛ لأنه لا يمكن أن تشفع هذه الأصنام إلا بإذن الله، ولا يمكن أن يأذن الله لها بالشفاعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، أي: تُحْصَبُونَ بها وتُرمون بها أنتم وأصنامكم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠]، أتدرون ماذا قال المشركون لما نزلت هذه الآية؟ قالوا: إذن عيسى يُعبد من دون الله، فيكون من حَصَبِ جَهَنَّمَ، فأجاب الله مباشرة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وعيسى ابنُ مريم ﷺ ممن سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَىٰ، فيكون خارجاً من العموم.

وهل عيسى ابنُ مريم يرضى أن يُعبد من دون الله؟ لا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]، أي: ليس من حقي أن أعبد من دون الله، والعبادة حق لله وحده.

وهل النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَمْلِكُ لِأَحَدٍ نَفْعًا أَوْ ضَرًّا؟

لا يَمْلِكُ، فلا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَضُرَّهَا أَوْ يَنْفَعَهَا؟ لا، وانظُرْ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ لَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١٨٨]، هَذِهِ حَقِيقَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرًا إِيَّاهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٠] حَتَّى أُعْطِيَكُمْ مَا تَسْأَلُونَنِي، ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ يَعْنِي: وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾.

إِذَنْ، هُوَ بَشَرٌ مِثْلُنَا يَنْسَى كَمَا نَنْسَى، وَيَتَأَلَّمُ كَمَا نَتَأَلَّمُ، وَيَجُوعُ كَمَا نَجُوعُ، وَيَعْطَشُ كَمَا نَعْطَشُ، هُوَ بَشَرٌ، وَيَنَامُ كَمَا نَنَامُ، كَمَا قَالَ: «أَقُومُ وَأَنَامُ»^(١).

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ﴾، ﴿قُلْ﴾ يَعْنِي: لِلْأُمَّةِ كُلِّهَا، ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٢]، يَعْنِي: حَتَّىٰ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَنِي بِسُوءٍ، فَإِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّهُ، ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أَيُّ: مُلْجَأٌ وَمَعَاذًا عِنْدَ إِصَابَةِ الضَّرِّ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

فَاقْطَعْ تَعَلُّقَكَ بِغَيْرِ اللَّهِ، لَا بِالنَّبِيِّ، وَلَا بِالْمَلِكِ، وَلَا بِالْوَلِيِّ، وَلَا بِأَيِّ أَحَدٍ، وَاجْعَلْ اتِّجَاهَكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. ﴿وَمَا نَقْمُوا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي النِّكَاحِ، رَقْمُ (٤٧٧٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ لِمَنْ تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ وَوَجَدَ مَوْتَهُ، وَاسْتِغْثَالَ مِنْ عَجْزٍ عَنِ الْمَوْتِ بِالصَّوْمِ، رَقْمُ (١٤٠١).

مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ [البروج: ٨-٩]، ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ فاللهُ شهيدٌ عليه، مطلعٌ عليه، عالمٌ به، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، مَنْ هُمْ؟ الآيةُ عامَّةٌ، لكن يدخل فيها أول ما يدخل أصحاب الأُخدود، ﴿الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ صدَّوهم عن دين الله، وعدَّوهم في دين الله.

قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، انظرُ كَرَمَ الله عَزَّجَلَّ قَبْلَ أَنْ يَذْكُرَ عِقَابَهُمْ عَرَضَ عَلَيْهِمُ التَّوْبَةُ، فانظرُ إِلَى كَرَمِهِ عَزَّجَلَّ يُعَذِّبُونَ أَوْلِيَاءَهُ، وَيُحْرِقُونَهُمْ بِالنَّارِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَعْزِضُ عَلَيْهِمُ التَّوْبَةَ، وَلَوْ تَابُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ، فَمَهْمَا عَظُمَ ذَنْبُكَ إِذَا رَجَعْتَ إِلَى رَبِّكَ وَتُبْتَ إِلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتُوبُ عَلَيْكَ.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، لَا تَسْتَكْثِرِ الذَّنْبَ، وَلَا تَسْتَغْظِمِ الذَّنْبَ، فَإِنَّهُ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَفْوِ اللَّهِ، وَقَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى رَحْمَتِهِ، وَلَكِنْ أَقْبِلْ إِلَى اللَّهِ بِصَدَقٍ وَإِخْلَاصٍ، وَتُبْ إِلَى رَبِّكَ، وَمَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَهْمَا عَظُمَ ذَنْبُهُ.

قَوْلُهُ: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ جَهَنَّمُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ يَعْنِي: الْعَذَابُ الَّذِي يُحْرِقُهُمْ كَمَا أَحْرَقُوا أَوْلِيَاءَهُ فِي الدُّنْيَا

يُخْرِقُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِذُنُوبِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، بِشَرَطٍ أَنْ لَا يَتُوبُوا، فَإِنْ تَابُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

شُرُوطُ التَّوْبَةِ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ، بِأَنْ لَا يَحْمِلَ الْإِنْسَانُ عَلَى التَّوْبَةِ مُرَاءَاةَ النَّاسِ، أَوْ أَنْ يُمدَحَ عِنْدَهُمْ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَيَكُونُ الْحَامِلُ لَهُ عَلَى التَّوْبَةِ هُوَ خَوْفُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَرَجَاءُ ثَوَابِهِ وَرَحْمَتِهِ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: النَّدَمُ عَلَى مَا فَعَلَ مِنَ الذَّنْبِ، بِحَيْثُ يَتَأَسَّفُ وَيَحْزَنُ أَنْ فَعَلَ هَذَا الذَّنْبَ.

الشَّرْطُ الثَّلَاثُ: الْإِقْلَاعُ عَنِ الذَّنْبِ فِي الْحَالِ، فَلَا يُسَوِّفُ وَيَقُولُ: أَتُوبُ غَدًا، أُقْلِعُ غَدًا، بَلْ يَتُوبُ فَوْرًا؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ وَاجِبَةٌ عَلَى الْفَوْرِ، إِنْ كَانَتْ فِي حَقِّ اللَّهِ فَأَمْرُهَا ظَاهِرٌ، يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ بِحَقِّ الْآدَمِيِّينَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ حَقُّوْقُهُمْ.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: أَنْ يَعِزَّمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ، يَعْنِي: يَنْوِي بِقَلْبِهِ نِيَّةً عَازِمَةً جَازِمَةً أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ، وَلَكِنْ هَلِ الشَّرْطُ (أَنْ لَا يَعُودَ) أَمْ (الْعِزْمُ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ)؟

الشَّرْطُ: أَنْ يَعِزَّمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ، فَلَوْ فُرِضَ أَنَّهُ عَزَمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ، ثُمَّ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ فَعَادَ، فَالتَّوْبَةُ الْأُولَى صَحِيحَةٌ، لَكِنْ يَحْتَاجُ إِلَى تَجْدِيدِ التَّوْبَةِ عَنْ مُمَارَسَةِ الذَّنْبِ مَرَّةً أُخْرَى.

الشَّرْطُ الْخَامِسُ: أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُقْبَلُ فِيهِ التَّوْبَةُ، وَذَلِكَ أَنْ تَكُونَ قَبْلَ حُضُورِ الْأَجَلِ، فَإِنْ كَانَتْ بَعْدَ حُضُورِ الْأَجَلِ لَمْ تَنْفَعْ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْفَ﴾ [النساء: ١٨]، وأن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها؛ لأنها إذا طلعت الشمس من مغربها فلا توبة؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ عَائِدَتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ولقول النبي ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

تنبيه:

أوصيكم بالحرص على فهم القرآن الكريم؛ لقول الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ: لِيَتَفَهَّمُوهَا، وَيَعْرِفُوهَا، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

وعليكم بكتب التفسير الموثوقة التي يوثق بمؤلفيها في دينهم وعقيدتهم، مثل تفسير ابن كثير، وتفسير الشيخ ابن سعدي، وتفسير القرطبي على ما فيه من بعض المخالفات.



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).

الدرس الرابع:

إِن الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١-١٠].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ الواو حرف قسم، والسماء مَقْسَمٌ به، و﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وصفٌ لهذه السماء، أي: صاحبة البروج، والبروج جمع بُرْج، وهو البناء العالي. والبروج التي في السماء هي نجومٌ عظيمة، كل طائفة تُسَمَّى بُرْجًا، وهي -أي البروج- اثنا عشر بُرْجًا: الحَمَل، والثَّوْر، والجُوزَاء، والسَّرَطَان، والأَسَد، والسُّنْبُلَة، والمِيزَان، والعَقْرَب، والقَوْس، والجَدْي، والدَّلُو، والحُوت.

فهذه اثنا عشر بُرْجًا، كلُّ ثلاثة منها في فصلٍ، ففصلُ الربيع له الثلاثة الأولى، ثم فصلُ الصيف القيظ له الثلاثة الثانية، ثم الخريف له الثلاثة الثالثة، ثم الشتاء له الثلاثة الرابعة.

أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ

خالِقِهَا عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّ هَذِهِ السَّمَاءَ مَعَ عُلُوهَا وَقُوَّتِهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَيْسَتْ قَدِيمَةً، أَيْ لَيْسَتْ أَزَلِيَّةً، بَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ، وَلَيْسَتْ أَبَدِيَّةً؛ لِأَنَّهَا سَوْفَ تَتَلَفُ فِي النِّهَايَةِ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

ثُمَّ أَقْسَمَ بِشَيْءٍ آخَرَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّهُ يَوْمٌ عَظِيمٌ، وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَوْصَافٍ كَثِيرَةٍ عَظِيمَةٍ لَا يَتَّسِعُ الْمَقَامُ لِذِكْرِهَا، وَلَكِنِهَا مَوْجُودَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَشَهِيدٌ وَمَشْهُودٌ﴾ هَذَا أَيْضًا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ شَهِيدٌ وَمَشْهُودٌ، هَذِهِ الْأُمَّةُ شَاهِدَةٌ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَهَا؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ثُمَّ هَذِهِ الْأُمَّةُ يَشْهَدُ عَلَيْهَا رَسُولُهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي نَفْسِ الْآيَةِ: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، يَعْنِي كَيْفَ تَكُونُ الْحَالُ.

طَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ مَسْعُودٍ أَحْسَنَ الْقُرَّاءِ قِرَاءَةً، حَتَّى إِنْ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ

غَضًا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ^(١). يعني به عَبْدَ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ - قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه، يقول: فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ: «حَسْبُكَ الْآنَ». فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ^(٢). لَأَنَّهُ تَذَكَّرَ هَذِهِ الْحَالِ الْعَظِيمَةَ.

يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

إذن، الشاهدُ والمشهودُ يكونُ يومَ الْقِيَامَةِ.

قوله: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤] هذه الجملةُ جوابُ الْقَسَمِ، والقسمُ هو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، قال أهلُ النحو: وقد حُذِفَ منها شيئان: اللامُ و(قد)، والتقديرُ: لقد قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ.

وأصحابُ الأخدودِ: هم قومٌ كفرَ بينهم قومٌ مؤمنون، فأراد هؤُلاءِ الكفارُ أن يَنْتَقِمُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِإِيْمَانِهِمْ، وأنتم تعلمون أن الكافرَ عدوٌّ للمؤمن؛ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المتحنة: ١].

فكلُّ كافرٍ مهما أَلَانَ الْقَوْلَ وَوَسَّعَ الْوَجْهَ لِلْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ، وَلَا تَغْتَرَّ بِلَيْنِ

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فضل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم (١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ: حسبك، رقم (٥٠٥٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب فضل استماع القرآن، رقم (٨٠٠).

القول من الكافر فإنه عدوك، فهؤلاء القوم الكفرة خدوا أخاديد في الأرض، وهي حُفَرٌ واسعة، وملئوها حطبًا، وكل من بقي على إيمانه ألقوه في هذه النار إحراقًا، يعني أنها جريمة بشعة، وعقوبة منكرة أن يُحرق هؤلاء في النار، لكن العدو قد ملئ قلبه حقدًا وحنقًا على المؤمنين، فحفروا هذه الأخاديد وملئوها حطبًا ومن لم يكفر ألقوه فيها، ولكن هؤلاء الذين ألقوا في النار احترقوا في نار الدنيا، لكنهم انتقلوا إلى نعيم الآخرة؛ لأنهم قتلوا دون دينهم، فهم شهداء، فانتقلوا من دار المحن والفتن والبلاء إلى دار النعيم المقيم، أما هؤلاء الذين أحرقوهم فقال الله فيهم:

﴿قِيلَ اصْحَبْ الْأَخْذُودَ ۖ﴾ [البروج: ٦] النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿١﴾ أي صاحبة الوقود. والوقود ما توقد به النار من حطب أو غيره.

وفي قوله: ﴿ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ إشارة إلى أن الحطب عظيم، ولهذا قال: ﴿ذَاتِ الْوُقُودِ﴾.

قوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٦] هؤلاء الكفرة على هذه النار قعود، أي: حولها قريبون منها.

قوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٧] يشاهدونهم يطرحون في النار حتى تُحرقهم؛ لكن هم في الواقع -أعني هؤلاء الكفرة- مسرورون، إلا أنه سرور سيكون بعده أحران.

قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: ما أنكروا عليهم إلا هذا ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وهل هذا يُنكر أو يُمدح ويُحمد فاعله؟

نقول: الثاني، لكنَّ الكافر لا يريدُ هذا، بل يريدُ الكفر.

والعزيزُ: الغالبُ، والحميدُ: المحمودُ لما له من كمالِ الصفاتِ وكمالِ النعمِ والإفضالِ جَلَّوَعَلَا.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البروج: ٩] فما جرى على المؤمنين من العذابِ فإنه داخلٌ في مُلكِهِ، وهو الَّذي قَدَّرَهُ، ولكنه لحكمةٍ عظيمةٍ، وغايةٍ حميدةٍ، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ شَهِيدٌ على كُلِّ شَيْءٍ في السَّماءِ أو الأرضِ؛ قَرَبَ أو بَعُدَ.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

بماذا فتنوا المؤمنين والمؤمنات؟

كانوا يأتون بالرجلِ المؤمنِ -أو المرأة- ويقولون: إمَّا أَنْ تَرْجِعَ عن إيمانِكَ، وإمَّا أَنْ تُلْقَى في النارِ، وحَفَرُوا أُخْدُودًا في الأرضِ وأَضَرَمُوا فيه النيرانَ، وصارَ مَنْ يَصْبِرُ على دينِهِ يُلْقَى في النارِ، وهذه فتنةٌ عظيمةٌ.

فهم فتنوا المؤمنين عن دينِهِمْ، وأَحْرَقُوهُمْ بالنارِ لأنهم مؤمنون بالله، وهذه فتنةٌ عظيمةٌ، ولكن رَضِيَ اللهُ عن المؤمنين الَّذِينَ فُتِنُوا، وصَبَرُوا على ما فُتِنُوا في دينِهِمْ، ولم يَجْعَلُوا فِتْنَةَ النَّاسِ كعذابِ اللهِ بل صَبَرُوا.

وبهذا نعلمُ أَنَّهُ يجبُ علينا أن يكونَ لنا أُسْوَةٌ فِيمَنْ سَبَقَنَا مِنْ سَلَفِ هذه الأُمَّةِ، وفيمن سَبَقَنَا من الأُمَمِ، وذلك بالصبرِ على الأذى في دينِ اللهِ، فاصبرُ يا أخي، فنحنُ نعلمُ أَنَّهُ لا بُدَّ من فتنةٍ.

والفتنُ أنواعٌ كثيرةٌ؛ فِتْنٌ حِسِّيَّةٌ في تعذيبِ الإنسانِ وسجنِهِ وغيرِ ذلك، وفِتْنٌ معنويَّةٌ بالتضييقِ النفسيِّ على أهلِ الخيرِ، وفِتْنٌ فِكْرِيَّةٌ بالتشكيكِ في الإسلامِ وفي شرائعِهِ.

فكُلُّ هذا سَيَكُونُ، وكُلُّ هذا كائِنُ، لكنْ مَوْقِفُنَا هو الصبرُ، واللهُ مع الصابرينَ. كذلك يجبُ علينا ونحنُ أعزَّاءُ إن شاءَ اللهُ تَعَالَى بِدِينِنَا؛ أنْ نُقَابِلَ أعداءَنَا لا مُقَابِلَ المُدَافِعِ، ولكنْ مُقَابِلَ المهاجِمِ، فنحنُ مَعَنَا الحقُّ، ومعنا سلاحٌ، فلا يجوزُ أبداً أنْ نُدَاهِنَهُمْ ولا أنْ نَسْتَسَلِمَ لَهُمْ، بل يجبُ أنْ نكونَ صُرَحَاءَ أَمَامَهُمْ، وأنْ نكونَ أعزَّاءَ، فلما قال المنافقون: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ قال اللهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

فالعزةُ للمؤمنِ، فاصبرْ وستكونُ العاقبةُ لك، فإنْ لم تكنْ لك في حياتِكَ فهي لك في الآخرةِ، وإذا لم تكنْ لك في حياتِكَ فهي عِزَّةٌ للمَبْدَأِ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، وهو الإيمانُ، يَعْتَزُّ بِهِ مَنْ يُقَلِّدُكَ وَيَتَأَسَّى بِكَ، فعلينا بالصبرِ.

وهل أُوذِيَ المسلمونَ من سَلَفِ هذه الأمة؟

نقول: نعم أُوذُوا، حَتَّى إن إمامَ المتقينَ ورسولَ ربِّ العالمينَ أُوذِيَ، أَلَمْ تَعْلَمُوا معاشَرَ المسلمينَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ سَاجِدًا تَحْتَ الكعبةِ سَاجِدًا لِلَّهِ، فَاجْتَمَعَ مَلَأٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَبَعَثُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ إِلَى جَزُورٍ لِبَنِي فَلَانٍ يَأْتِي بِسَلَاهَا^(١) وَفَرَثُهَا^(٢) وَدَمِهَا يَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ

(١) السلى: هو اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان. انظر: النهاية (سلا).

(٢) الفرث: هو ما في كرش الحيوان. فتح الباري (١٠/٧٣).

ساجدٌ، سُبْحَانَ اللَّهِ! أتجدون أشدَّ من هذا الإيذاء؟! إنسانٌ يعبدُ اللهَ تحتَ بيتِ اللهِ في آمنٍ بقعةٍ من بقاعِ الأرضِ ويُوَضَّعُ على ظَهْرِهِ سَلَى الجَزُورِ وهو ساجِدٌ، حتَّى تأتيَ ابنتُه أُمَّةٌ مِنْ إِمَاءِ اللَّهِ -وهي حُرَّةٌ، لكنَّها مِنْ إِمَاءِ اللَّهِ، وكلُّ النساءِ إِمَاءُ اللَّهِ، وكلُّ الرجالِ عبيدُ اللَّهِ- فتَزِيلُ الأذى عن ظَهْرِهِ^(١)، ففي هذا أذِيَّةٌ.

وأتى النبي ﷺ هو وألفٌ وأربعُ مئةٍ من أصحابِه مُعْتَمِرِينَ يُلْبُونُ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، ومعهم الهدْيُ، فَمَنَعَتْهُمْ قُرَيْشٌ، وقالوا: ما يَمَكِّنُ أن تدخلوا مَكَّةَ أبداً، مع أن قريشاً لو أتى بدويٌّ جافٍ لم تَمْنَعْهُ من الوصولِ إلى البيتِ، والنبي ﷺ مُنِعَ من الوصولِ إلى البيتِ، وهو أولى الناسِ بالبيتِ، وصَبَرَ، وصارت المفاوضاتُ بينه وبين قريشٍ^(٢).

فأقولُ يا إخواني: أنا أعلمُ أَنَّهُ يوجدُ في بعضِ البلادِ الإسلاميةِ من يُؤذَى في اللهِ، ويُعَذَّبُ في اللهِ، ويُفْتَنُ في دينِهِ، ولكن عليه بالصبرِ وانتظارِ الفرجِ، فإن الفرجَ قريبٌ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(٣).

فهؤلاء القومُ أصحابُ الأخدودِ ﴿الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة، لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (١/٣٠٧، رقم ٢٨٠٤)، والطبراني (١١/١٢٣، رقم ١١٢٤٣)، والضياء (١٠/٢٣، رقم ١٣).

إلى الله ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ كما أحرَقُوا أولياء الله أحرَقَهُم الله بالنار، وإن تابوا فلا عَذَابَ عليهم، فليس عليهم عَذَابُ جَهَنَّمَ ولا عَذَابُ الْحَرِيقِ.
قال بعض السلف: «مَا أَحْلَمَ اللهُ، إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ أَوْلِيَاءَهُ بِالنَّارِ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ!»^(١).

إذن، فَمَنْ تَابَ مِنَ الذَّنْبِ وَلَوْ عَظُمَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ.

وفي هذه الآيات بحوث:

البحث الأول: شروط التوبة:

واعلم أن للتوبة شروطاً خمسة:

الأول: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ.

والثاني: الندم على فعل المعصية.

والثالث: الإقلاع عن المعصية.

والرابع: العزم على ألا يعود.

والخامس: أن تكون في وقت قبول التوبة.

الشرط الأول: الإخلاص:

الإخلاص لله ألا يحمل الإنسان على التوبة الخوف من المخلوقين أو مُراءاة المخلوقين، فإن كان الحامل على التوبة الخوف من المخلوقين لم تصح توبته؛ لقول

(١) تفسير مجاهد (ص: ٧١٨).

الله تَعَالَى في الحديثِ الْقُدْسِيِّ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١).

الشرطُ الثاني: الندمُ:

الندمُ على المعصية يعني بأن يكونَ الإنسانُ مُتَأَسِّفًا أن وقعتَ منه هذه المعصيةُ، فتجدُهُ مُنْكَسِرَ القلبِ مُنِيبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، يَخْشَى عِقَابَ اللهِ.

الشرطُ الثالثُ: الإقلاعُ عن الذنبِ:

فأما أن يقولَ: إِنَّهُ تَائِبٌ، وهو مستمِرٌّ في ذنبه فلا توبةَ له، فلو أن رجلاً تابَ من الكذبِ، والكذبُ كما نعلمُ جميعًا حرامٌ، ومن أخلاقِ المنافقينَ، لو قال: إِنَّهُ تَابَ من الكذبِ، ولكنه يكذبُ وما زالَ يكذبُ، فلا تَصِحُّ توبتُهُ؛ لَأَنَّهُ لم يُقْلِعْ، بل إن توبته هذه كالأستهزاءِ بالله عَزَّوَجَلَّ.

كذلك إنسانٌ كان يَسْرِقُ من أموالِ النَّاسِ، ويحصدُ ما يجبُ عليه من الديونِ، فقال: إِنَّهُ تَائِبٌ، ولم يَرُدِّ الأموالَ إلى أهلِها، فلا تَصِحُّ توبته؛ لَأَنَّهُ لم يُقْلِعْ عن الذنبِ.

فإذا سرقَ من شخصٍ مئةَ ريالٍ، ثم نَدِمَ وتَابَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولكن قال: أنا أستحي أن أَرُدَّ العشرةَ إليه. قلنا: لم تَصِحَّ توبتك؛ لَأَنَّهُ لم يُقْلِعْ إلى الآن، فالمعصيةُ تحت يديه، فلا بُدَّ أن تَرُدَّ العشرةَ إلى الَّذِي أَخَذَهَا مِنْهُ، وإلا فالتوبةُ غيرُ صحيحةٍ.

فإذا قال: أَخَجَلُّ أن أَرُدَّهَا إليه، أو أَخْشَى أن أُعْطِيَهُ عشرةً يقولُ: إنك

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

سَرَقْتَ مِئَةً، وهذا ممكنٌ وواردٌ بلا شكٍّ، فماذا يصنعُ؟ نقولُ: الحمدُ لله، إذا اتقيتَ اللهَ جَعَلَ لَكَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا، انظرُ إلى واحدٍ من أصحابِهِ أَهْلِ الثِّقَةِ وَقُلْ: يَا فُلَانُ، الْقَضِيَّةُ كَذَا وَكَذَا، وَأَنَا سَرَقْتُ مِنْ فُلَانٍ عَشْرَةَ رِيَالَاتٍ، وَلَا أُسْتَطِيعُ الْآنَ أَنْ أَرُدَّهَا إِلَيْهِ مَصَارَحَةً، فَخُذْهَا - جزاك اللهُ خيرًا - وَأَعْطِهَا إِيَّاهُ. وهذا يمكنُ، المهمُّ أَنَّهُ يَسْعَى بِأَيِّ وَسِيلَةٍ إِلَى أَنْ يَرُدَّ الْمَظَالِمَ إِلَى أَهْلِهَا قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذَ مِنْ حَسَنَاتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الشرطُ الرَّابِعُ: العزمُ على ألا يعودَ:

فأما من تابَ وفي نيَّته أَنَّهُ إِنْ تيسَّرتْ لَهُ المعصيةُ مرَّةً أُخْرَى عادَ إِلَيْهَا فَلَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ، وهذا يقعُ أحيانًا، فَيُيَسِّرُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ، وَيَقُولُ: تُبْنَا مِنْهَا، لَكِنْ فِي نِيَّتِهِ لَوْ تيسَّرتْ لَهُ لَفَعَلَهَا، فهذا لا توبةَ لَهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَعِزِّمَ عَلَى الْأَلَا يَعُودَ، فَإِنْ عَزَمَ عَلَى الْأَلَا يَعُودَ ثُمَّ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ فَفَعَلَهَا، فَهَلْ لَهُ أَنْ يَتُوبَ ثَانِيَةً أَوْ لَا؟

نقولُ: نَعَمْ يَتُوبُ ثَانِيَةً، ثُمَّ ثَالِثَةً، ثُمَّ رَابِعَةً، وَكَلِمَا أَذْنِبَ وَتَابَ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ.

الشرطُ الْخَامِسُ: أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ فِي وَقْتٍ تُقْبَلُ فِيهِ التَّوْبَةُ:

فإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُقْبَلُ فِيهِ التَّوْبَةُ فَلَا توبةَ لَهُ، وهذا نوعانِ:

النوعُ الْأَوَّلُ: بِاعْتِبَارِ كُلِّ وَاحِدٍ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: بِاعْتِبَارِ الْجَمِيعِ.

النوعُ الْأَوَّلُ: بِاعْتِبَارِ كُلِّ وَاحِدٍ: فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ لَمْ تُقْبَلْ

تَوْبَتُهُ، فَإِذَا شَهِدَ الْمَوْتَ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ، وَلَوْ تَابَ. وَالذَّلِيلُ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ التَّنَّ﴾ [النساء: ١٨].

فهذا ليس له توبة، ولأنَّ هذا التائب توبته توبة اضطرار، وليست عن اختيار، فلما رأى العذاب قال: تُبْتُ، فما ينفع هذا.

وبهذا نعلم أنه يجب على الإنسان أن يُبادر بالتوبة. أسأل الله أن يتوب عليَّ وعليكم.

ويدلُّ لهذا الأمر الواقع، فكثيرٌ منا يعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أغرق فرعون في البحر الأحمر، فإنَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما خَرَجَ من مِصْرَ بقومه تبعه فرعونُ بجنوده، أما موسى فَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ، فَضْرَبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ فَانْفَلَقَ الْبَحْرُ - الْمَاءُ الْمَائِعُ الْجَارِي - إِلَى اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا، فَصَارَ طَرَقًا وَالْمِيَاهُ واقفةٌ وليست جامدةً، وهي سيالةٌ لكن وَقَفَتْ بِأَمْرِ اللهِ عَزَّجَلَّ، ثُمَّ إِنَّ الْبَحْرَ يَبَسَ فِي الْحَالِ: ﴿فَاضْرِبْ لَهُم مَّطَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧].

فَخَرَجَ موسى بقومه حَتَّى صَارُوا إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ، وَتَبِعَهُمْ فرعونُ بجنوده داخلًا في هذه الطُّرُقِ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَحْرَ فَانطَبَقَ عَلَى فرعونَ بجنوده وَغَرِقُوا إِلَّا فرعونَ، ففرعونُ لما ﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، وهو كان بالْأَوَّلِ يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ويقولُ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وَيُقَتَّلُ أَبْنَاءُ بني إِسْرَائِيلَ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ.

والآن انظر إلى الذلَّ العظيم: ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو

إِسْرَءِيلَ ﴿١٠﴾، ولم يقل: إلا الله، فالآن اتَّبَعَ بني إسرائيلَ وانقادَ لهم وصارَ من أتباعِهِمْ ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ فقل: ﴿ءَاكْفَنَ﴾ يعني الآن تؤمنُ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ١١ ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ﴾ بَدَنٌ بلا رُوح؛ لَأَنَّهُ مات وغرق.

لكن لماذا أنجاه الله تعالى ببدينه؟ ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩١-٩٢]؛ لأنَّ بني إسرائيلَ قد أَرَعَبَهُمْ فرعونُ أَشَدَّ الرَّعِبِ، فأرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يُخْرِجَ بَدَنَهُ ليشاهدوا أَنَّهُ قَدْ مات؛ لَأَنَّهُ لو لم يُشاهدوه لَذَهَبَ بِهِم الوهمُ كُلُّ مَذْهَبٍ، ولقالوا: يمكنُ أن الرجلَ حَمَلَهُ الموجُ إلى الساحلِ ونَجَا، وصارَ عندهم سُكُوكٌ، فلما شاهدوه بأعينِهِمْ عَلِمُوا أَنَّهُ غَرِقَ، وأنهم نَجَوْا منه، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ فنَجَا بَدَنُهُ ثُمَّ بعد ذلك هَلَكَ مع حِيتَانِ البحرِ، أو في أيِّ مكانٍ، اللهُ أَعْلَمُ. المقصودُ أن التوبةَ بعدَ أن يشاهدَ الإنسانُ العذابَ، ويحضُرُه الموتُ، لا تُقْبَلُ.

النوعُ الثاني: باعتبار الجميع: أما العامُّ فطلوعُ الشمسِ من مَغْرِبِهَا، وإذا طلعتِ الشمسُ من مَغْرِبِهَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ. ونحنُ نعلمُ الآنَ أن الشمسَ تَطْلُعُ من المشرقِ، وتغربُ في المغربِ، فإذا قَرُبَتِ السَّاعَةُ طَلَعَتِ الشمسُ من المغربِ، يَغْنِي رَجَعْتُ بِأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! من يستطيعُ أن يَرُدَّهَا؟! لا أَحَدٌ يستطيعُ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فإذا رآها النَّاسُ آمَنُوا كُلُّهُمْ، حتَّى الملاحدةُ يُؤْمِنُونَ؛ لأنهم يَعْلَمُونَ الآنَ أن لها ربًّا يُدَبِّرُهَا، فيؤمنون باللهِ عَزَّوَجَلَّ، لكن لا يَنْفَعُهُمُ الإِيْمَانُ بعدَ أن تَطْلُعَ الشمسُ من المغربِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ﴾ وهو طلوعُ الشمسِ من مَغْرِبِهَا

﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقال النبي ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

فانتبه يا أخي لشروط التوبة، وتب إلى الله قبل أن يفجأك الموت، وحينئذ لا ينفع الندم، قال النبي ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِئَةً مَرَّةً»^(٢). والرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم مئة مرة، يقول: أستغفر الله وأتوب إليه، أستغفر الله وأتوب إليه.. حتى يكمل مئة مرة.

فينبغي لنا نحن أن نستغفر الله ونتوب إليه مئة مرة، وأن نجعل ذلك عند النوم في آخر حياتنا اليومية حتى يكون هذا الاستغفار وهذه التوبة ماحية لما عملناه في يومنا، كما أن من قال: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»، في اليوم مئة مرة غُفِرَتْ ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر^(٣).

فاحرص على هذين الأمرين: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» مئة مرة، و«أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» مئة مرة.

البحث الثاني:

كيف أقسم الله تعالى بالسَّماء وهي مخلوقة، والإقسام بالمخلوق بالنسبة إلينا

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسييح، رقم (٦٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسييح والدعاء، رقم (٢٦٩١).

حرام، ونوع من الشرك، فكيف أقسم الله تعالى بها حرمة على العباد؟

والجواب على هذا الإشكال أن نقول: الله عز وجل أن يُقسم بما شاء من خلقه، فنحن لا نحكم على الله، ولكن الله هو الذي يحكم علينا، ومع هذا لا يُقسم تبارك وتعالى بشيء من خلقه إلا وفيه آيات عظيمة تدل على عظمة الخالق، فيكون القسم بهذا المخلوق تعظيماً لله عز وجل.

أما نحن فلا يحل لنا أن نُقسم بمخلوق مهما علت مرتبته؛ فلا نُقسم بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يعني لا نقول: والنبي، ولا نقول: والرسول، ولا نُقسم بجبريل، ولا نُقسم بالشمس ولا بالقمر، ولا بأي مخلوق؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيُحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١).

وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» أو قال: «أشرك»^(٢).
وحينئذ يُعتبر الحلف بغير الله نوعاً من الشرك، ولقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣). لأن (واللات) حلف بغير الله، فهو نوع من الشرك، فليقل: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٥/٢)، رقم (٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب لا يحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت، رقم (٦٦٥٠)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب من حلف باللات والعزى، فليقل: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، رقم (١٦٤٧).

إِلَّا اللَّهَ، فيداوي الشرك بالتوحيد؛ لأن دواء الشيء يكون بضده.

البحث الثالث:

هل هذا الذي وَقَعَ من هَوْلَاءِ الْكُفْرَةِ يُشَابَهُ ما وَقَعَ اليومَ من الرُّوسِ - قَاتَلَهُمُ اللَّهُ وَأَذَلَّهُمْ - على إخواننا في الشيشان؟

نقول: نعم؛ لأن هَوْلَاءِ الرُّوسِ إِنَّمَا قَامُوا بهذه الحربِ على الشيشانِ لأنهم آمنوا بالله، ولأنه دَبَّ فيهم التوحيدُ، والمتابعةُ الصحيحةُ للرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهَوْلَاءِ الْكُفْرَةِ الرُّوسُ وغيرُهم من الكفارِ يعلمون أن المسلمين لو عادوا إلى دينهم الأولِ الَّذِي عَلَيْهِ أَسْلَافُهُم من الصَّحَابَةِ والتابعينَ لاكتسحوهم؛ لأن الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فتحوا بإسلامهم وإيمانهم مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، واكتسحوا مُلْكَ الْفُرسِ ومُلْكَ الرُّومِ، والفرسُ والرومُ في ذلك الوقتِ يُشْبِهَانِ الْأَمْرِيكَانَ وَالسُّوفِيَّتَ، دولتان عظيمتان.

هَوْلَاءِ الرُّوسِ خافوا إن دَبَّ الْإِسْلَامُ الصَّحِيحُ في الْقُوقَازِ أن يَقْضِيَ عَلَيْهِمْ، ولهذا سَمِعْنَا أن الغربَ لَمَّا فَتَتْهُ اللَّهُ الْإِتِّحَادُ السُّوفِيَّتِيَّ قالوا: الآن انتهينا من الشُّيُوعِيَّةِ وزال خَوْفُنَا منها، لكن بَقِيَ علينا خوفٌ من شيءٍ أعظمَ منها ألا وهو الْإِسْلَامُ.

وَصَدَقُوا فيما قالوا، فالإسلامُ الصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ السلفُ الصالحُ وَاللَّهُ ثُمَّ وَاللَّهُ ثُمَّ وَاللَّهُ لو أن الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ طَبَّقَتْهُ لاكتسحتْ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا.

أقول ذلك لأنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣].

ولقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) الَّذِينَ
 إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ
 الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

لكنَّ الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ اليومَ في حالٍ يُرثى لها، وفي حالٍ تفرَّق وبَدع وتمردٍ
 على الحُكَّامِ، وتسلَّطٍ من الحُكَّامِ على الرعايا، وهكذا، فلذلك حتَّى الآن لم يُكتب
 لها النصرُ، وصارت الحروبُ بينها وبين شِرْذِمَةٍ من اليهودِ مرارًا وفي النهايةِ اكتسَحَ
 اليهودُ جزءًا كبيرًا من أراضي المسلمين.

واليهودُ كانوا يقاتلون عن عقيدةٍ، وإن كانت عقيدةً باطلةً، لكن الذين كانوا
 يقاتلونهم كانوا يُقاتِلُونهم للعُروبةِ، والقوميَّةِ، ولذلك لم ينجحوا، ولو قاتلوا
 بالإسلام، مع تطبيقهم له عقيدةً وقولًا وعملاً، لانتصروا عليهم بالتأكيد؛ لأنَّ أذلَّ
 عبادِ الله هم اليهودُ، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا﴾ في أيِّ
 مكانٍ كانوا فالذِّلَّةُ مَضْرُوبَةٌ عليهم، ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل
 عمران: ١١٢]، الحبلُ من الله الإسلامُ، فإذا أسلموا صار لهم العِزَّةُ؛ فعبدُ الله بنُ سَلامٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من اليهودِ، ومن أحبارِ اليهودِ، ومع ذلك أسلمَ وحسُن إسلامُه.

﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني أن غيرهم يقوِّيهم ويكون معهم، وإلا فهم أذلةٌ،
 يقول الله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾
 [الحشر: ١٤]، أما مقابلةٌ وجهًا لوجهٍ فلا، لكنَّ الخطابَ في قوله: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾
 للصحابية الذين قاموا بالإسلام حقَّ القيام، عقيدةً وقولًا وعملاً، فالآن هل هم
 لا يُقاتِلُونَنَا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ؟

نقول: لا، يُقَاتِلُونَنَا وَجْهًا لوجه؛ ذلك لأن قناتنا^(١) ضُعُفَتْ، لِضَعْفِ دِينِنَا
وتفرُّقنا، وتمزُّقنا.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْمَعَ كَلِمَتَنَا عَلَى الْحَقِّ، وَأَنْ يَنْصُرَنَا عَلَى أَعْدَائِنَا، وَأَنْ
يَجْعَلَنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ، وَصَالِحِينَ مُصْلِحِينَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ
وعلى آله وصحبه.



(١) القناة: الرمح. والمراد: السلاح والقوة. انظر: تاج العروس (قنو).

سورة الطارق

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَخَلِيلُهُ وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَأُوذِيَ فِي اللَّهِ، فَصَبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَصَلَّوْا تُ اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَتْبَاعِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَأَنْ يَخْشَرَنَا فِي زُمْرَتِهِ، وَأَنْ يَسْقِينَا مِنْ حَوْضِهِ، وَأَنْ يُدْخِلَنَا فِي شَفَاعَتِهِ، وَأَنْ يَجْمَعَنَا بِهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَمَّا بَعْدُ:

فَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الثَّانِي، عَامِ سَبْعَةِ عَشَرَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ وَأَلْفٍ، يَسَّرَ اللَّهُ لَنَا أَنْ نَلْتَقِيَ بِإِخْوَانِنَا هُنَا فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهُ لِقَاءً نَافِعًا لَنَا وَلَكُمْ.

الْحَثُّ عَلَى تَدَبُّرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ:

وكما هي عادتنا في مثل هذه اللقاءات المباركة هنا، وفي المسجد الحرام نتكلم أولاً على ما قرأه إمامنا في صلاة المغرب؛ وذلك لأن تفسير القرآن علمه أمرٌ مهمٌ، فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فوصف الله القرآن بأنه مباركٌ، ولا شك أنه كذلك، فهو مباركٌ في تلاوته، مباركٌ في أثره، ومباركٌ في تأثيره، فآثارُ هذا القرآن الكريم حين كانت الأمة الإسلامية متمسكةً به، آثارتُ عظمةً بالغةً، ملكت به الأمة الإسلامية مشارق الأرض ومغاربها، ودكت به عروش ملوك الفرس والروم، حتى صارت أكثر بقاع الأرض تابعةً لهذا الدين الإسلامي.

لهذا كان القرآن مباركاً، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾، ﴿يُؤْذِي﴾ أي: بالقرآن، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] فهو مباركٌ بكل أنواع البركة، ومن كل وجه.

ولكن هل الحكمة من إنزاله أن نقرأه تعبداً لله تعالى بقراءته، ورجاء لحصول الثواب، أم أن الأمر وراء ذلك؟

الجواب: الأمر وراء ذلك، لا شك أن تلاوته، ورجاء الثواب بذلك، لا شك أنه أمر مقصودٌ مهمٌ، والإنسان إذا قرأ القرآن فله بكل حرفٍ عشرُ حسناتٍ، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(١). لكن المقصود

(١) أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، رقم (٢٩١٠).

أمرٌ وراء ذلك، وهو: ﴿لِيَذَّبَرُواْ عَابِتِهِ﴾، ومعنى التدبر: التأمل، والتفكير في المعنى حتى نصل إليه ونعرفه، ثم بعد ذلك تأتي النتيجة والثمرة: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] لِيَتَذَكَّرَ أي: يتعظ بما فيه من المواعظ والحكم والأسرار.

قوله تعالى: ﴿أُولُواْ الْأَلْبَابِ﴾ أي: أصحاب العقول، فكل من كان أعقل فهو لهذا القرآن أتبع، وأشد تمسكا.

إذن، الفائدة من إنزال هذا القرآن شيان: أن يتدبر الناس كتاب الله، وأن يتذكر أولو الأبواب، وهذا يعني أنه فرض علينا أن نفهم معاني كلام الله عز وجل وإنك لو تأملت لوجدت أكثر المسلمين اليوم لا يعرفون من القرآن إلا رسمه، ولفظه فقط، ولا يعرفون المعنى إلا قليلا، ولهذا لو سألت أي واحد حتى ولو كان طالب علم: ما المراد بكذا وكذا؟ لوجدته يتشكك ويتردد، ولهذا أحثكم -بارك الله فيكم- على تفهم معاني القرآن.

فإن قال قائل: بم نعرف هذه المعاني؟

قلنا: الطريق إلى ذلك شيان:

الشيء الأول: تلقى المعاني من أفواه العلماء، لكن العلماء الموثوق بهم، وليس كل من قال: إنه عالم يتلقى قوله؛ لأن من العلماء من ليسوا بعلماء، أو من العلماء من ليسوا بأمناء، لكن العالم حقيقة هو الذي لديه العلم والأمانة: ﴿إِن خَيْرَ مَنِ اسْتَنْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

الطريق الثاني: أن نقرأ ما كتب في تفسير القرآن، ولكن أي كتاب نقرؤه؟ هل كل ما فسر به القرآن نقرؤه؟ لا؛ لأن المفسرين رحمهم الله على أنحاء شتى، لا بد

أَنْ نُّطَالِعَ كُتُبَ التَّفْسِيرِ مِنْ مُؤَلِّفِينَ مُوثِقِينَ فِي عِلْمِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ، مِثْلَ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَتَفْسِيرِ ابْنِ سَعْدِي، وَتَفْسِيرِ صَاحِبِ هَذَا الْكَرْسِيِّ أَبِي بَكْرٍ الْجَزَائِرِيِّ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يُوثَقُ بِعِلْمِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ.

ثُمَّ هُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ أُوصِي بِهِ طَلَبَةُ الْعِلْمِ خَاصَّةً، وَهُوَ أَنْ يَتَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ كَلَامَ اللَّهِ بِنَفْسِهِ أَوَّلًا، فَإِذَا تَوَلَّدَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَعْنَى، فَلْيَرْجِعْ إِلَى كُتُبِ التَّفْسِيرِ؛ حَتَّى لَا يَضِلَّ، وَإِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَمَرَّنَ هُوَ بِنَفْسِهِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ مَعَانِي كِتَابِ اللَّهِ، وَأَلَّا يَكُونَ إِمَّعَةً يَقْرَأُ فَقَطْ وَيَحْفَظُ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَفْهَمَ.

لِذَلِكَ أَحُثُّ طَلَبَةَ الْعِلْمِ بِالذَّاتِ عَلَى أَنْ يَتَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ مَعْنَى الْآيَةِ أَوَّلًا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا تَكَوَّنَ عِنْدَهُ مَعْنَى يَرْجِعُ إِلَى كَلَامِ الْعُلَمَاءِ؛ حَتَّى لَا يَضِلَّ، وَلِأَنَّ الْإِنْسَانَ رَبَّمَا يَضِلُّ، وَرَبَّمَا يَفْهَمُ الْآيَةَ عَلَى غَيْرِ مَعْنَاهَا، وَلَا سِيَّامًا مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ مِرَانٌ وَمُتَابَعَةٌ لِمَعَانِي الْقُرْآنِ.

لِهَذَا اخْتَرْتُ أَنْ أَبْدَأَ جَلَسَاتِي هَذِهِ بِتَعْلِيْقٍ سَرِيعٍ حَوْلَ مَا قَرَأَهُ إِمَامُنَا فِي الصَّلَاةِ الَّتِي يَتْلُوهَا هَذَا اللَّقَاءُ، وَهِيَ سُورَةُ الطَّارِقِ، لِلتَّذْكِيرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا قَدْ فَسَّرْنَاهَا قَبْلَ ذَلِكَ.

نَقُولُ: أَوَّلًا: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١] هَذِهِ الصَّيْغَةُ صِيغَةُ قَسَمٍ، أَقْسَمَ اللَّهُ بِشَيْئَيْنِ: بِالسَّمَاءِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ، وَالطَّارِقِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ، فَكَيْفَ جَازَ الْقَسَمُ بِالْمَخْلُوقِ؟

نَقُولُ: لِلخَالِقِ أَنْ يُقْسِمَ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، أَوْ مِنْ آيَاتِهِ، أَوْ مِنْ أَسْمَائِهِ، أَوْ مِنْ صِفَاتِهِ، أَمَا نَحْنُ فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نُقْسِمَ إِلَّا بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى

إِلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١).

فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَاعِدَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ التَّفْسِيرِ، وَهِيَ أَنَّهُ يُرْجَعُ فِي التَّفْسِيرِ أَوَّلًا إِلَى كَلَامِ اللَّهِ، بِمَعْنَى: أَنْ تُفَسَّرَ الْقُرْآنَ أَوَّلًا بِالْقُرْآنِ، يُؤْخَذُ هَذَا مِنْ تَبْيِينَ مَعْنَى الطَّارِقِ بِقَوْلِهِ: ﴿الْتَجِمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣].

إِذَنْ، أَوَّلُ مَا تُفَسَّرُ الْقُرْآنَ بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يُفَسَّرُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، حَيْثُ إِنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهِ وَاحِدًا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُفَسَّرُ بِمَا فَسَّرَتْ بِهِ السُّنَّةُ؛ لِأَنَّ أَعْلَمَ الْخَلْقِ بَكِتَابِ اللَّهِ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا مُنَازَعَةَ فِي ذَلِكَ.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قَالَ الصَّحَابَةُ: أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»^(٢).

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، قَالَ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»^(٣).

وَمِنْ ذَلِكَ تَفْسِيرُهُ ﷺ الزِّيَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الشَّهَادَاتِ، بَابُ كَيْفِ يَسْتَحْلِفُ، رَقْمُ (٢٦٧٩).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ ظَلَمَ دُونَ ظَلَمَ، رَقْمُ (٣٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ صَدَقَ الْإِيمَانُ وَإِخْلَاصُهُ، رَقْمُ (١٢٤).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ فَضْلِ الرَّمْيِ وَالْحِثِّ عَلَيْهِ، وَذِمَّ مِنْ عِلْمِهِ ثُمَّ نَسِيَهُ، رَقْمُ (١٩١٧).

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ إِثْبَاتِ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ رَبِّهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رَقْمُ (١٨١).

بعد ذلك نرجع إلى تفسير الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَأَنَّ الصَّحَابَةَ أَعْلَمُ النَّاسُ بَعْدَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بمعاني كلام الله؛ لَأَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ، وَفِي عَصَرِهِمْ، وَفِي الْحَالَاتِ الَّتِي يُنَزَّلُ عَلَيْهَا مَعْنَى الْقُرْآنِ؛ لَأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ يُخَصَّصُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي يَنْزِلُ فِيهَا.

ثم بعد ذلك كبار التابعين، وَلَا سِيَّمَا الَّذِينَ أَخَذُوا عَنِ الصَّحَابَةِ، كَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَيْرِهِ مِنَ التَّابِعِينَ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] معنى ﴿تُبْلَى﴾ تُخْتَبَرُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿السَّرَائِرُ﴾ يعني: القلوب.

وهنا نأخذ قاعدة: الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فِي الصُّدُورِ، وَالْحِسَابُ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا فِي الْجَوَارِحِ، وَفِي الدُّنْيَا يُحَاسَبُ الْإِنْسَانُ، وَيُقَوَّمُ الْإِنْسَانُ عَلَى حَسَبِ عَمَلِهِ الظَّاهِرِ، وَتُوكَلُّ السَّرَائِرُ إِلَى اللَّهِ، وَفِي الْآخِرَةِ لَا مَفَرَّ، فَالْعِبْرَةُ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ قُلُوبَنَا وَقُلُوبَكُمْ.

ولهذا يجب علينا أن نعتني بقلوبنا أكثر من جوارحنا، فكم من إنسان صلى إلى جنبه إنسان آخر، وبينهما في الفضل والثواب والدرجة عند الله كما بين السماء والأرض، اعتباراً بما في القلوب، ولهذا طهروا قلوبكم من الشرك، ومن الشك، ومن النفاق، ومن الحقد والغل على المسلمين، إلى غير ذلك مما يجب أن يطهر القلب منه؛ لَأَنَّ الْمَدَارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ.

واستمع إلى قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لَا يُكَلِّمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، والمكَلُومُ: يعني: المَجْرُوحُ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجُرْحُهُ يَنْعَبُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ»^(١).

الشاهدُ قوله: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ»، انتبه لهذا القيد، ولهذا قال البخاري رحمه الله في صحيحه على هذا الحديث: لَا يَقُولُ فُلَانٌ شَهِيدٌ^(٢). حتى لو قُتِلَ في المعركة بين المسلمين والكفار، لا تَقُلْ: شهيدٌ، بل قُلْ: فُلَانٌ يُرَجَى أَنْ يَكُونَ شَهِيدًا، أما أَنْ أَقُولَ: شهيدٌ. والرَّسُولُ ﷺ يقول: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ». فهذا لَيْسَ بجائزٍ، وكيف نقول هكذا والرَّسُولُ ﷺ تَبَرَّأَ مِنْ أَنْ يُطْلَقَ لفظُ الشهيد عَلَى ما يظهرُ مِنْ حالِهِ، فقال: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ».

ثم اعتبرُوا بالقصة الَّتِي جَاءَتْ أَيْضًا فِي صحيح البخاري: كان هناك رَجُلٌ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَكَانَ شُجَاعًا قَوِيًّا مِقْدَامًا، لَا يَدْعُ لِلْعَدُوِّ شَاذَةً وَلَا فَادَّةً إِلَّا قَضَى عَلَيْهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، والرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ». فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَةِ، وَشَقَّ عَلَيْهِمْ، كَيْفَ يَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ الشُّجَاعُ الْمِقْدَامُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمْ -أَيُّ: أَحَدُ الصَّحَابَةِ-: وَاللَّهِ لَا لَزَمَتَهُ، أَيُّ: أَتَابَعُهُ وَأَنْظُرُ مَا التَّيْجَةُ، فَأُصِيبَ هَذَا الرَّجُلُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من يخرج في سبيل الله عز وجل، رقم (٢٨٠٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦).

(٢) كتاب الجهاد والسير، باب لَا يَقُولُ فُلَانٌ شَهِيدٌ؛ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ، قبل حديث رقم (٢٨٩٨).

بِسَهْمٍ مِنَ الْعَدُوِّ، فَجَزَعَ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ -والله أعلم-: كَيْفَ يُصَيِّبُنِي السَّهْمُ وَأَنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ الشُّجَاعُ الْمِقْدَامُ؟ فَسَلَّ سَيْفَهُ، وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ الصَّدْرِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- فَجَاءَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ مُلَازِمًا لَهُ، وَقَالَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ، فَوَضَعَ نَضْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ وَذُبَابُهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَمَّا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فَيَمَّا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١).

أَجَارَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ ذَلِكَ، اللَّهُمَّ أَصْلِحْ قُلُوبَنَا.

المسألة صعبة، فالقُلُوبُ لَا بُدَّ مِنْ تَطْهِيرِهَا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ إِذَا صَلَحَ الْقَلْبُ وَطَهَّرَ، فَالْجَوَارِحُ تَبَعٌ لَهُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢).
اللَّهُمَّ أَصْلِحْ قُلُوبَنَا.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۖ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١-١٢] الرَّجْعُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، رقم (٢٧٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١١٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

يعني: المطر، والصدع: التشقق إذا أمطرت السماء على الأرض، ونبتت، عندما يكون أول النبات تنشق الأرض عن النبات، فأقسم الله بالسماء ذات الرجوع، وبالأرض ذات الصدع؛ لأن كل أحد ينظر إلى الأرض الميتة ليس فيها خضراء تُطربها السماء، فتشقق بالنبات، فيحيي الله الأرض بعد موتها.

أيضاً الإنسان سوف يموت ويدفن، وتأكله الأرض، إلا من شاء الله، ثم يُخرج منها، فالقادر على إخراج هذه الحبة اليابسة من باطن الأرض قادر على أن يحيي الإنسان بعد موته، قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾، يعني: هامدة ليس بها خضراء، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

والله إن لنا لموعداً نحشر فيه إلى الله عز وجل حُفَاةً عُراةً غُرلاً، لا مال، ولا ولد، ولا زوجة، ولا قريب، ولا نسب، بل الواحد منا يفر من: ﴿أَخِيهِ ٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

أسأل الله أن يجعلني وإياكم في ذاك اليوم من السعداء، إنه على كل شيء قدير. قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥] الذين يكيدون هم الكفار، يكيدون للرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]

﴿وَإِكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦]، يعني: أعظم من كيدهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾، وما أكثر مكر الله بمن يَمْكُرُ به،

فَمَكَرَ بِفِرْعَوْنَ حِينَ حَشَرَ الْمَدَائِنَ يُرِيدُ بِذَلِكَ الْقَضَاءَ عَلَى مُوسَى وَقَوْمِهِ: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴿الشعراء: ٦٠-٦١﴾
يعني: عَلَى كُلِّ حَالٍ هَالِكُونَ؛ لِأَنَّ الْبَحْرَ أَمَامَهُمْ، وَفِرْعَوْنَ عَدُوَّهُمْ خَلْفَهُمْ، فَأَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ بَحْرٌ عَظِيمٌ وَاسِعٌ، فَمَاذَا يَصْنَعُونَ؟

قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَقَالَ الْآمِنِ الْمُؤْمِنِ الْمُطْمَئِنِّ، قَالَ: ﴿كَلَّا﴾ يعني: لَسْنَا بِمُذْرِكِينَ، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ﴿الشعراء: ٦٢﴾، اللَّهُ أَكْبَرُ! ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ﴿النحل: ١٢٨﴾.

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ ﴿الشعراء: ٦٣﴾ عَصَاً مِنْ خَشَبٍ يَتَكَيُّ عَلَيْهَا، وَيَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِهِ ضَرْبَ بَهَا الْبَحْرَ، وَفِي لَحْظَةٍ أَبْلَغَ مِنْ طَرْفَةِ الْعَيْنِ انْفَلَقَ الْبَحْرُ - لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - وَكَانَ اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا، وَلَيْسَ طَرِيقًا وَاحِدًا، وَيُبْسُ فِي الْحَالِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ.

وَإِنَّمَا كَانَ اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا اثْنِي عَشَرَ سَبْطًا، وَجُعِلَ الْمَاءُ السِّيَالُ بَيْنَهُمْ كَالْجِبَالِ، وَهُوَ بِصِفَتِهِ، فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ صَارَ ثَلْجًا، لِأَنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ تَحَوَّلَ إِلَى ثَلْجٍ، وَلَوْ تَحَوَّلَ إِلَى ثَلْجٍ وَمَرَّ النَّاسُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ لَتَجَمَّدُوا، لَكِنَّهُ - بِإِذْنِ اللَّهِ - وَقَفَ هَذَا الْمَاءُ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ، ﴿فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿الشعراء: ٦٣﴾، وَالطُّودُ: الْجَبَلُ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ فِي هَذِهِ الْأَطْوَادِ ثُقُوبٌ - يَعْنِي: فُرْجًا - يَنْظُرُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى يَطْمَئِنُّوا عَلَى نَجَاةِ إِخْوَانِهِمْ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، ﴿فَأَضْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ ﴿طه: ٧٧﴾ وَسُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ! أَرْضُ

كُلُّهَا طِينٌ، وَمَضَى عَلَيْهَا مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مِنَ السَّنَوَاتِ، وَالْمَاءُ فَوْقَهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فِي لَحْظَةٍ صَارَتْ يَبَسًا، وَفِي لَحْظَةٍ تَمَرَّقَ هَذَا الْمَاءُ، وَصَارَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللَّهِ ۖ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

أَيْنَ عُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ؟! هَلْ يُمْكِنُ لِلطَّبِيعَةِ أَنْ تَفْعَلَ هَذَا؟ لَا وَاللَّهِ، وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْقَدَ لَهُ الْمُكَذِبُونَ نَارًا عَظِيمَةً، ثُمَّ أَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ رَمَوْهُ بِالْمَنْجَنِيْقِ عَلَى النَّارِ؛ لِأَنَّهُا تَحْرِقُ مَنْ قَرُبَ مِنْهَا؛ لِشِدَّتِهَا وَكَثَرَتِهَا وَعَظَمَتِهَا، فَرَمَوْهُ بِالْمَنْجَنِيْقِ فِي النَّارِ، فَقَالَ اللَّهُ لِلنَّارِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، هَذِهِ النَّارُ الْمَحْرِقَةُ صَارَتْ بَرْدًا، لَكِنَّهُ لَيْسَ الْبَرْدُ الْقَارِصَ الَّذِي يَقْتُلُ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَسَلَامًا﴾، قَالَ الْعُلَمَاءُ: لَوْ قَالَ ﴿بَرْدًا﴾ بَدُونَ أَنْ يَقُولَ ﴿وَسَلَامًا﴾ لَكَانَتْ تُهْلِكُهُ، لَكِنَّ اللَّهَ جَلَّوَعَلَا قَالَ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، فَكَانَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيْهِ.

أَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَقَادِرٌ عَلَى قَلْبِ الْأَشْيَاءِ، وَتَغْيِيرِ طَبَائِعِهَا؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أَقُولُ: فِرْعَوْنُ كَادَ لِمُوسَى، وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ ظَفَرَ بِهِ، حَيْثُ وَصَلَ إِلَى نُقْطَةِ الصُّفْرِ إِلَى غَايَةِ لَا بُدَّ - عَلَى حَسَبِ فَهْمِ فِرْعَوْنٍ - أَنْ يَهْلِكَ، حَتَّى الَّذِينَ آمَنُوا مَعَ مُوسَى قَالُوا: ﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾، فَظَنَّ الْخَبِيثُ أَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ مُوسَى وَقَوْمِهِ.

خَرَجَ مُوسَى وَقَوْمُهُ مِنَ الْبَحْرِ سَالِمِينَ، وَدَخَلَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ عَلَى أَنَّهُمْ سَوْفَ يُذَرِّكُونَ مُوسَى، فَلَمَّا تَكَامَلَ مُوسَى وَقَوْمُهُ خَارِجِينَ، وَفِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ دَاخِلِينَ، أَمَرَ

اللَّهُ الْبَحْرَ أَنْ يَعُودَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَانطَبَقَ عَلَيْهِم -الله أكبر- حتى كانوا في قَعْرِ الْبَحْرِ، وَهَلَكُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَفِرْعَوْنُ الَّذِي كَانَ يَفْتَخِرُ بِالمَاءِ أَوَّلًا، حَيْثُ قَالَ لِقَوْمِهِ قَبْلُ: ﴿الْيَسَّ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، افْتَخَرَ بِأَنْ لَهُ مُلْكُ مِصْرَ.

ثُمَّ خَلَفَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانَ بِالْأَمْسِ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، وَافْتَخَرَ بِالْأَنْهَارِ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ، فَأَهْلَكَهُ اللَّهُ بِالمَاءِ الَّذِي كَانَ يَفْتَخِرُ بِهِ بِالْأَمْسِ، وَاسْتَكْبَرَ عَلَى قَوْمِ مُوسَى، وَبِالتَّالِي صَارَ تَابِعًا لَهُمْ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ: ﴿ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] سُبْحَانَ اللَّهِ! كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُقَتَّلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْإِيمَانِ، أَمَا الْآنَ فَأَذْعَنَ وَذَلَّ، وَقَالَ: ﴿ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، لَمْ يَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ؛ ذُلًّا -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- وَخِزْيًا أَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانَ بِالْأَمْسِ يُقَتَّلُهُمْ، وَيُذَبِّحُهُمْ، صَارَ الْآنَ تَابِعًا، فَقِيلَ لَهُ: ﴿ءَاَلَيْكَ تَوَكُّلٌ بِمَا آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، ﴿ءَاَلَيْكَ تَكُونُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩١-٩٢]، بِالْبَدَنِ لَا بِالرُّوحِ، الرُّوحُ ذَهَبَتْ مَعَ الْأَرْوَاحِ مِنَ الْغَرَقِ إِلَى الْحَرَقِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- قَالَ تَعَالَى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، لَكِنْ نَجَّاهُ اللَّهُ بِبَدَنِهِ لِيَكُونَ آيَةً وَعَلَامَةً عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ قَدْ أَرْعَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَدْ مَاتَ؛ لِأَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَلَغَ مِنْ رُعْبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الْكَافِرِ الْعَنِيدِ مَبْلَغًا عَظِيمًا، فَقَدْ لَا يُصَدِّقُونَ بِأَنَّهُ غَرِقَ، وَقَدْ يَقُولُ الشَّيْطَانُ لَهُمْ: إِنَّهُ لَمْ يَغْرُقْ، إِنَّهُ نَجَا، أَنْجَتْهُ الْأَمْوَاجُ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مِثْلًا، فَإِذَا شَاهَدُوهُ بِأَعْيُنِهِمْ حِينَئِذٍ يَطْمَئِنُّونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢] أَي:

مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ﴿ءَايَةٌ﴾ أَي: علامة عَلَى أَنَّكَ هَلَكْتَ، وَلَمْ يَبْقَ لَكَ شَيْءٌ.
 عَلَى كُلِّ حَالٍ، أَنَا جِئْتُ بِهَذَا الْمِثَالِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكِيدُ لِأَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ،
 وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا
 أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦].

قوله تعالى: ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَتَيْنَهُمُ رُؤُودًا﴾ [الطارق: ١٧] مَهْلُهُمْ يعني: تَأَخَّرَ، وَدَعَاهُمْ
 يَأْمَنُوا مَكْرَ اللَّهِ، وَيَسْتَدْرِجُهُمُ اللَّهُ، ﴿أَتَيْنَهُمُ رُؤُودًا﴾ أَي: قَلِيلًا، وَسَوْفَ يَجِدُونَ جَزَاءَهُمْ.



الدرس الثاني:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ④ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ⑧ يَوْمَ بُدِيَ السَّرَائِرُ ⑨ فَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ⑩ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ⑪ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ⑫ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ⑬ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ⑭ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ⑮ وَآكِيذٌ كِيدًا ⑯ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤُودًا ﴿[الطارق: ١-١٧].

قول الله تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿يُقْسِمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالسَّمَاءِ، وَالسَّمَاءِ هُنَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهَا كُلُّ مَا عَلَاكَ، فَكُلُّ مَا عَلَاكَ فَهُوَ سَمَاءٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِالسَّمَاءِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ، فَيَكُونُ مُفْرَدًا أُرِيدَ بِهِ الْجَنْسُ، فَيَعُمُّ كُلَّ السَّمَوَاتِ.

وَأَيُّمَا كَانَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُقْسِمَ بِشَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى آيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَهَذِهِ السَّمَوَاتُ الْوَاسِعَةُ الْأَرْجَاءِ، الْعَالِيَةُ الْبِنَاءِ، الْقَوِيَّةُ، بَنَاهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ

وَمَا بَنَاهَا ﴿[الشمس: ٥].

وإياك يا أخي أن تعتقد أن قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ يعني أن الله بنى السماء بيده، كلاً؛ فقد قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فالله تعالى خلق السموات بالكلمة، وليس بيده جلّ وعلا؛ ولهذا يُخطئ مَنْ يظنُّ أن قوله: ﴿بِأَيْدٍ﴾ جمعٌ يد، وإنما هي مصدرٌ أدَّيْتُ، والمصدر أَيْدٍ؛ كباعٌ يبيع والمصدر بيعٌ، وكالٌ يكيل كَيْلاً. ولهذا لم يُضفها الله إلى نفسه؛ كما أضافها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١].

وعلى هذا فلا يجوز أن نعتقد أبداً بأن الله خلق السماء بيده.

إذن، هذه السموات العظيمة جديرة بأن يُقسم الله بها، حيث قال: ﴿وَالسَّمَاءَ﴾، فالواو هنا حرفٌ قسمٍ، و(الطارق) معطوفٌ على (السماء)، والمعطوف له حكمُ المعطوف عليه، وعلى هذا فيكون الله تعالى أقسمَ بالطارق.

وما الطارق؟ قال الله عز وجل تفخيماً: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ يعني: أي شيء أعلمك عن هذا الطارق الذي كان جديراً أن يُقسم به. فسره الله بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، فهذا الطارق، وسُمِّي طارقاً لأنه يبرزُ ليلاً. والطارق في اللغة العربية هو القادم إلى أهله ليلاً، أو الوافد ليلاً، وعلى هذا فالطارق هو النجم.

وقوله تعالى: ﴿الثَّاقِبُ﴾ أي يثقبُ ظلامَ الليل بضياءه؛ ولهذا لو خرجت إلى محلٍّ ليس فيه كهرباء لوجدت أنوارَ النجوم ظاهرةً بيّنةً، فهو يثقبُ الظلامَ بضياءه، ويثقبُ الشيطانَ بشهابه، فالشياطينُ تراكبُ حتى تصل إلى السماء لتسترق السمع،

ولهذه الشياطين كُهانٌ في الأرضِ يَتَلَقَّوْنَهُمْ، فيأتيه الشيطانُ بخيرِ السَّماءِ، ثُمَّ يُشِيعُهَا الكاهنُ بين النَّاسِ، ويكونُ - أعني الكاهنَ - حَكَمًا بين النَّاسِ يحكمُ بينهم؛ ولهذا كانوا في الجاهلية يأتون إلى الكهانِ يتحاكمون إليهم، لكنَّ الإسلامَ أَبْطَلَ ذلك وقال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»^(١).

إذن، النجمُ الثاقبُ يَثْقُبُ الظلامَ بضياءه، هَذَا واحدٌ، ويثْقُبُ الشياطينَ بِشَهابه، وتفسيرُ الطارقِ بالنجمِ الثاقبِ تفسيرٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا أحدَ يفسِّرُ القرآنَ بمثلِ ما يفسِّره مَنْ تكلَّم بالقرآنِ، وهو الله.

ولهذا يقولُ العلماءُ: يُرْجَعُ في تفسيرِ القرآنِ:

أولاً: إلى تفسيرِ الله عَزَّوَجَلَّ.

ثانياً: إلى تفسيرِ النَّبِيِّ ﷺ. ولا تفسيرَ يُعَارِضُ ذلك أبداً.

ثالثاً: إلى تفسيرِ الصَّحابةِ، ولا سِوَا الفُقهَاءِ منهم المُعْتَنُونَ بالتفسيرِ؛ كعبدِ الله ابنِ عباسٍ.

رابعاً: إلى أكابرِ علماءِ التابعينَ الَّذِينَ تَلَقَّوْا تفسيرَ القرآنِ عن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ مثلُ مُجاهِدِ بنِ جَبْرِ. فهذه أربعُ مراتبَ.

وتفسيرُ الله له أمثلةٌ كثيرةٌ في القرآنِ، مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾

﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٨] قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب في الكاهن، رقم (٣٩٠٤)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب النهي عن إتيان الحائض، رقم (٦٣٩).

لَنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ [الانفطار: ١٩].

ونحو قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾

[القارعة: ١-٣] قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ [القارعة: ٤].

والأمثلة كثيرة في هذا.

وتفسير النبي ﷺ عليه الصلاة والسلام أيضا له أمثلة؛ منها قول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ

أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦] الحسنَى مبتدأ مؤخر، و(للذين) خبرٌ مُّقدَّم. فما

الحسنَى وما الزيادة؟

فسرها النبي ﷺ بأن الحسنَى هي الجنة، وأن الزيادة هي النظر إلى وجه الله

الكريم^(١).

أسأل الله تعالى أن يوفّقني وإياكم لذلك، وأن يجعلنا ممن يراه ربه وهو راضٍ

عنه، ويرى ربه وهو راضٍ عنه.

إذن، فقد فسرها النبي ﷺ عليه الصلاة والسلام بأنها النظر إلى وجه الله، فلو أن أحداً

قال في الزيادة بغير ما قال الرسول ﷺ فلا نقبله أبداً مهما كان.

وعلى هذا فيستفاد من هذه الآيات الكريمة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴿٢٦﴾﴾

أن أهل الجنة يرون الله عز وجل رؤية عينية، وليس رؤية قلبية، فيرونه بأبصارهم كما

قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم (١٨١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم:

كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣).

وأخبر في الحديث الآخر أن المؤمنين يرون ربهم عياناً بأبصارهم كما يرون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب^(١).

وفي الحديث: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»^(٢)، وَلَا أَلَدًا وَلَا أَنْعَمَ وَلَا أَطِيبَ مِنْ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ.

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوفِّقَنِي وَإِيَاكُمْ لَذَلِكَ.

وحينئذٍ نؤمن إيمانًا عقديًا جازمًا بأن المؤمنين يرون الله عَزَّوَجَلَّ يومَ القيامةِ في الجنةِ بأبصارهم؛ كما يرون القمر ليلةَ البدر لا يُضامون في رؤيته.

فإن قال قائل: أليس الله تعالى قال لموسى حين ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِي ﴿[الأعراف: ١٤٣]؟

فالجواب: بلى قال ذلك، لكن موسى سأل الله الرؤية في الدنيا، ولا يمكن لأحد أن يرى الله عَزَّوَجَلَّ أبدًا في الدنيا؛ لأنَّ الأبصار لا تتحمَّل ذلك؛ ولهذا ضَرَبَ اللهُ له مثلًا فقال: ﴿أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ والجبل كما نعلم جميعًا أصمُّ، فهو أحجارٌ غليظةٌ متينةٌ ﴿فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ وبقي على حاله ﴿فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ فلما تجلَّى ربُّه لِلْجَبَلِ ﴿مَاذَا كَانَ الْجَبَلُ؟﴾ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ انهدَّ، وحينئذٍ ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ أغمي عليه؛ لأنَّه رأى أمرًا هائلًا لم تتحمَّله نفسه، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿[القيامة: ٢٢] -

[٢٣]، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الصلاة، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٥).

أي: تنزيهاً أن يحيط بك أحدٌ وأنت أعظم من كل شيء ﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ وَانَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] تبت إليك من أي شيء؟ وهل أذنب موسى حتى يقول: تبت إليك؟

نقول: هو سأل ما ليس له به علم، ولهذا لما قال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَنبِي مِنْ أَهْلِ وَإِنْ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] قال الله له: ﴿يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. ولهذا تاب موسى من هذا السؤال.

ومنا الآن طلاب علم إذا مروا بصفة من صفات الله جعلوا يمزقونها ليس ينكرونها، لكن يتنطعون ويتعمقون فيها حتى أصبحوا ممثلين للرب عز وجل بالخلق، فيبحث معك فيقول: إن لله أصابع؟ نقول: حق لله أصابع، فيقول: ما كيفية الأصابع؟ كم الأصابع؟ له أظفار؟ له فواصل؟ وما أشبه ذلك، وهذا حرام، فمسائل الصفات آمن بها على ما جاءت ولا تسأل، فإن سألت هلك.

وانظروا إلى الأئمة رَحِمَهُمُ اللَّهُ، قال رجل للإمام مالك: يا أبا عبد الله، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟

فهو ما سأل عن المعنى، فلو قال: ما معنى استوى فإنه سوف يجيب، لكن قال: كيف استوى؟ وهل أنت مطالب بأن تسأل عن الكيفية؟! أبداً.

فأطرق مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو في مسجد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أطرق برأسه حتى أصبح يتصبب عرقاً؛ من ثقل السؤال على نفسه، ثم رفع رأسه وقال: «الاستواء»

غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»^(١).

كلمات من نور، ما شاء الله! يُوفِّقُ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِ بِالْكَلِمَاتِ الَّتِي تَكُونُ نِبْرَاسًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَيُرْوِي بَعْضُ الْعُلَمَاءِ هَذَا الْكَلَامَ فيقول: «الاستِواءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ».

وقوله: «الاستِواءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ» يعني معلوماً، «وَالْكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» يعني أننا لا نُدْرِكُهُ بِعُقُولِنَا، وَكَيْفَ نُدْرِكُ كَيْفِيَّةَ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ بِالْعَقْلِ وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ فِي الْحِسِّ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؟! والإدراك بالحس سهل، فكلُّ يُدْرِكُ بِالْحِسِّ، حَتَّى أَبْلُدُ مِنْ فِي الْعَالَمِ يُدْرِكُ بِالْحِسِّ، فَالَّذِي لَا يُدْرِكُ بِالْحِسِّ -بمعنى لا تدركه الأبصار ولا تُحِيطُ بِهِ- لَا يُدْرِكُ بِالْعَقْلِ. بمعنى أننا لا نعلم كيفيات صفاته أبداً.

«وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ» أي: الإيمان بالاستِواءِ واجبٌ؛ لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ، وَمَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ وَجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نُسَلِّمَ بِهِ، وَأَنْ نُثْبِتَهُ.

«وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ» أي: السُّؤَالُ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى؛ لَأَنَّ الْمَعْنَى يَقُولُ: «غَيْرُ مَجْهُولٍ»، فَهُوَ مَعْرُوفٌ، لَكِنْ أَنْ تَسْأَلَ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ فَهَذَا بِدْعَةٌ.

ولماذا كان بدعة؟

نقول: كان بدعةً لوجهين:

الوجه الأول: أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَسْأَلُوا عَنْهُ الرَّسُولَ ﷺ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الصَّحَابَةَ أَحْرَصُ مِنَّا عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَجِيبُهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذِي

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

هُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ، فَالسَّبَبُ الْمَقْتَضِي مَوْجُودٌ، وَانْتِفَاءُ الْمَانِعِ مَوْجُودٌ، وَمَعَ ذَلِكَ مَا سَأَلُوا الرَّسُولَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ عُقُولَنَا أَقْصَرُ وَأَحْقَرُ مِنْ أَنْ تُدْرِكَ كَيْفِيَّةَ صِفَةِ اللَّهِ، فَآمَنُوا بِالْإِسْتِوَاءِ وَلَمْ يَسْأَلُوا عَنْهُ.

وَسُبْحَانَ اللَّهِ! الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ وَأَنْتَ تَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَسْأَلُ عَنْهُ، أَنْتَ أَعْلَمُ بِاللَّهِ مِنْهُمْ؟! أَنْتَ أَشَدُّ تَعْظِيمًا لِلَّهِ مِنْهُمْ؟! أَنْتَ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْهُمْ؟! كَلَّا، فَهُوَ بِدْعَةٌ.

الوجه الثاني: أَنَّ السُّؤَالَ عَنْ كَيْفِيَّةِ صِفَاتِ اللَّهِ مِنْ سِمَاتِ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَمَعْنَى سِمَاتِهِمْ: عَلَامَاتُهُمْ، فَأَهْلُ الْبِدْعِ هُمُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ عَنِ الْكَيْفِيَّاتِ لِيُخْرِجُوا الْمُثْبِتِينَ. تَعْرِفُونَ أَنَّهُ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ - وَلَا زَالٍ - كَانَ الْخِلَافُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ، فَانْقَسَمَ النَّاسُ فِيهَا إِلَى سِتَّةِ أَقْسَامٍ ذَكَرَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي آخِرِ (الْفَتْوَى الْحَمَوِيَّةِ)، فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهَا فَلْيَرْجِعْ^(١).

لَكِنَّ أَهْلَ الْبِدْعِ يَقُولُونَ لِأَهْلِ الْإِثْبَاتِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كَيْفَ اسْتَوَى؟ ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] كَيْفَ الْيَدَانِ؟ كَيْفَ الْبَسْطُ؟ فَيَتَوَقَّفُ الْإِنْسَانُ لِأَنَّهُ مَا يَعْرِفُ هَذَا، قَالَ: إِذْنُ مَا عِنْدَكَ عِلْمٌ، وَلَسْتُ كُفْتًا بِأَنْ تُسْأَلَ عَنْ صِفَاتِ اللَّهِ، وَهَذَا إِحْرَاجٌ، وَلَكِنْ ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ السُّنَّةِ كَلَامًا جَيِّدًا مُفْجِحًا، قَالَ: إِذَا قَالَ لَكَ الْجَهْمِيُّ: كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَقُلْ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ اسْتَوَى، وَلَمْ يُخْبِرْنَا كَيْفَ اسْتَوَى^(٢).

(١) الفتوى الحموية (ص: ٥٤١).

(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٣٠٥).

سُبْحَانَ اللَّهِ! كلامٌ منضبطٌ واضحٌ؛ أخبرنا أنَّه استوى ولم يُخبرنا كيف استوى، وأخبرنا أن له يدين ولم يُخبرنا كيف اليدان، وأخبرنا أنَّه خَلَقَ آدَمَ بيديه كما قال اللهُ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي﴾ [ص: ٧٥] ولكن لو جاء إنسانٌ يسأل: كيف خَلَقَ بيديه؟ فيجبُ علينا أن نقول: الخلقُ معلومٌ، نعم إن الله أخبرنا أنَّه خَلَقَهُ بيده، ولم يُخبرنا كيف خَلَقَهُ، ولا كيف يده.

وهذه أمور غيبيةٌ يجبُ علينا أن نقتصرَ فيها على ما جاء به النصُّ؛ ولهذا أسلمَ طريقةً فيما يتعلَّقُ بأسماءِ الله وصفاته هي طريقةُ السلفِ الصَّالحِ، الَّذِينَ هم أهلُ السُّنَّةِ والجماعة، أما طريقةٌ غيرهم من الطرقِ فإنَّها كلُّها فاسدةٌ؛ لما يلزمُ فيها من اللوازمِ الباطلة، ولو لم يكن فيها إلَّا مخالفةُ ظاهرِ الكتابِ والسُّنَّةِ ومخالفةُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لكفى؛ فإنَّ الصَّحابةَ مُجمِعُونَ على إثباتِ النصوصِ كما هي.

فإذا قال قائلٌ: ما دليلك على أنَّهم مُجمِعُونَ على أن النصوصَ كما هي؟

قلنا: لأنَّ القرآنَ نَزَلَ بلغةِ العربِ، وأعربُ العربِ الصَّحابةُ، فنزل القرآنُ بلغتهم، ولم يأتِ حرفٌ واحدٌ منهم يفسِّرُ القرآنَ بخلافِ ظاهره فيما يتعلَّقُ بصفاتِ الله.

إذن، فهم مُجمِعُونَ عليها، ولا يُحتاجُ أن نقول: هاتِ النقلَ.

إذن، نقول: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا فسرَّ القرآنَ بشيءٍ أخذنا به، وإذا فسرَّه الرُّسولُ بشيءٍ أخذنا به، وإذا فسرَّه علماءُ الصَّحابةِ بشيءٍ أخذنا به، وإذا فسرَّه أئمةُ التابعينَ الَّذِينَ تَلَقَّوْا عِلْمَ التفسيرِ عن الصَّحابةِ أخذنا به، وما عدا ذلك فليس بحُجَّةٍ.

قوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] (إن) بمعنى (ما)، و(لها) بمعنى (إلا)، فيكون تقدير الآية: ما كل نفس إلا عليها حافظ؛ لأن (إن) إذا جاءت بعدها (إلا) فهي للنفي؛ كقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨]، وما أشبه ذلك من الآيات الكثيرة.

يعني: ما كل نفس إلا عليها حافظ يحفظها ويحفظ عنها؛ أما يحفظها فدليلة قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] هذه من القرآن، ومن السنة أن من قرأ آية الكرسي في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولم يقربه الشيطان حتى يصبح^(١)، فهذا حفظ النفس لحظ النفس.

وحفظ النفس للمحاسبة يعني أن الله جعل على كل نفس واحداً من الملائكة يحفظون أعماله؛ كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ﴿١﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ٩-١٠]، هؤلاء الحافظون غير قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] فكل إنسان عليه حافظ يحفظه من أمر الله ويحفظ عليه أعماله، ويكون الحساب عليها يوم القيامة، ولهذا سَمَّاهُ اللهُ يوم الحساب.

فهذا الذي يُكْتَبُ عَلَى الْإِنْسَانِ يحاسب عليه يوم القيامة، وكيف يحاسب؟ قال الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] مفتوحاً ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] قال بعض السلف: «يَا ابْنَ آدَمَ، أَنْصَفَكَ مَنْ خَلَقَكَ، جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً، فترك الوكيل شيئاً فأجازته الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، رقم (٢٣١١).

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك (١/٥٤٥، رقم ١٥٦٣).

إي والله هذا الإنصاف، يعني ليس هناك مَنْ يدّعي عليك يقول: هات البيّنة وإلا قولك مردود، فهذا كتابٌ موجودٌ اقرأه وكفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا.

وما الذي يكتب في هذا؟

استمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَنْتَقَى الْمَتْلَقَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾ واحدٌ على اليمين وواحدٌ على الشمال ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦-١٨] (راقبٌ) يعني: مُراقِبٌ، (عتيدٌ) يعني: حاضرٌ لا يغيبُ، وكلمة (قَوْلٍ) يقولُ العلماءُ: إنها نصٌّ في العموم؛ لأنَّ النكرة في سياقِ النفي للعموم، لكن قد يقترنُ بها ما يجعلها نصًّا في العموم لا تحتملُ شيئًا آخر، وهو (مِنْ)، و(مِنْ) حرفٌ جرٌّ زائدٌ، وإذا دخلَ حرفُ الجرِّ الزائدُ على كلمةٍ كان مؤكِّدًا لمَدلولِ السياق.

إذن ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ نقول: (مِنْ) حرفٌ جرٌّ زائدٌ إعرابًا وليس زائدًا معنًى؛ لأنَّ معناه توكيدُ النفي.

قال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أيُّ قولٍ؟

الجوابُ: كلُّ الأقوالِ، ما دَامَ قلنا: (قَوْلٍ) بالنفي المؤكِّدِ بـ(مِنْ) فمعناه كلُّ القولِ؛ من خيرٍ أو شرٍّ أو لغوٍ؛ لأنَّ كلامَ الإنسانِ ثلاثةُ أقسامٍ: خيرٌ وشرٌّ ولغوٌ، ومن القسمِ الأولِ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١). إذن، لا يقولُ اللغو، ولا يقولُ الشرَّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، رقم (٤٧).

واستمع إلى أوصاف عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] سالمين منه بعيدين عنه.

وما أكثر اللغو في كلامنا، بل ما أكثر الزور، والزور هنا ليس شهادة الزور، بل كل قول محرم فهو زور، فما أكثره!

وقد قيل للإمام أحمد بن حنبل وهو مريض، وكان رحمه الله يئن من المرض: إن طاوساً - وهو من التابعين - يكره الأنين في المرض. فأمسك عن الأنين رحمه الله فتصبر وتحمل المرض ولا يئن؛ خوفاً من أن يكتب عليه^(١).
إذن ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: ما كل نفس ﴿لَمَّا عَلَتْهَا حَافِظٌ﴾.

قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥] اللام لام الأمر، ولهذا سكنت بعد الفاء، ولام الأمر تسكن بعد الفاء وبعد الواو وبعد (ثم)؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ وبعدها: ﴿وَلَيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلَيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، ولهذا يخطئ بعض القراء فيقول: «هذا بلاغ للناس ولينذروا به» وهذا خطأ ولحن يحيل المعنى، وأكثر الناس ما يحس بهذا الشيء، فقراءة البعض: «هذا بلاغ للناس ولينذروا به» خطأ؛ لأنك إذا سكنتها بعد الواو صارت لام أمر، فيختلف المعنى. ولهذا الصواب أن يقول: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] تكسرها.

وبعدها: ﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢] إذا قرأ الإنسان: (وليعملوا) بسكون اللام فهو خطأ يحيل المعنى؛ لأنه يجعل اللام لام أمر، وهي لام تعليل.

(١) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١١٩/٢).

وكذلك بعدها ﴿وَلِيدَ كَرٍ﴾ [إبراهيم: ٥٢]؛ لأنك لو سكنتها اختلف المعنى.

فالقاعدة: لامُ التعليل مكسورة دائماً، ولامُ الأمر مكسورة إلا إذا دخل عليها واو العطف أو فاء العطف أو (ثم). وذكرنا الأمثلة.

إذن، قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ﴾ هذه لامُ الأمر، وليست لامُ التعليل، والدليل أنها سكنت بعد الفاء، وهذا دليل لفظي، والدليل المعنوي أن الله أمرنا أن ينظر الإنسان مم خلق.

قوله: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (٦) يخرج من بين الصلب والترائب [الطارق: ٦-٧] ماء الرجل يخرج من بين الصلب والترائب، والترائب: الصدر، والصلب: الظهر، خلق من هذا الماء المهيّن، وأصله الأول خلق من تراب، من حمّا مسنون، فهذا أصل الإنسان، وما تولّد منه من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب.

قوله: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨] إن الله عزّ وجلّ، الضمير في (إنه) يعود على الله، وإن لم يتقدّم ما يعود إليه الضمير، لكن السياق يدلّ عليه. ﴿رَجْعِهِ﴾ أي: الإنسان، ﴿لَقَادِرٌ﴾ يوم القيامة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

ففي قوله: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ استدلل الله عزّ وجلّ بالأشدّ على الأسهل، فالابتداء أشدّ من الإعادة، والإعادة أهون.

والدليل على أن الإعادة أهون: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ﴾ أي: إعادته ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وهذا واضح أن الإعادة أهون من الابتداء.

يقول: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجِيمٍ لَقَادِرٌ﴾ فالذي خلقه من ماءٍ دافقٍ قادرٌ على أن يرّجعه يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وانتبه يا أخي لهذه الجملة، نسأل الله أن يقوّينا وإياكم على إخلاصها: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ يوم القيامة تُختبرُ السرائرُ، وليس الظواهرُ، والسرائرُ: القلبُ؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩-١٠]، فيوم القيامة ما يُحاسبُ الإنسانُ على أعماله الظاهرة، وإلا لَنَجَحَ المنافقون؛ لأنَّ المنافقين يأتون بالأعمالِ الصَّالحةِ ظاهرها الصَّحَّةُ، لكن على قلوبٍ خريّة، فإذا كان يوم القيامة خانتهم قلوبُهم، فتبلى السرائرُ، فلا يوجد عند أحدٍ منجاةٌ إلّا مَنْ كانت سريرته طيبةً. نسأل الله أن يطيبَ سريرتنا.

إذن ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ تُختبرُ، والحسابُ في الدنيا على الظواهر، وفي الآخرة على السرائر.

وانظر إلى المنافقين في عهد الرّسول ﷺ يُعلنون الإسلامَ، ويأتون إلى الصَّلاة، ويتصدقون، ويقولون للرّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ. ويذكرون الله لكن قليلاً، ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، والرّسولُ يعلمُ بعضهم ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعَرَّفْنَاهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعَرَّفْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] حتى إنه أَسْرَّ إلى حذيفة بن اليمان بأسماء رجالٍ عيّنهم، ومع ذلك لم يقتلهم؛ لئلا يُقال: إن مُحَمَّدًا يقتل أصحابه^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦]، رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، رقم (٢٥٨٤)، أنه ﷺ أبى أن يقتل عبد الله ابن أبي المنافق وقال: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ».

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَؤُلَاءِ لَيْسُوا أَصْحَابًا لَهُ؛ لَأَنْتُمْ أَعْدَاءُ لَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُمْ أَعْدَاؤُكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، إِذْنِ نَقُولُ: هُمْ أَصْحَابُهُ ظَاهِرًا، وَالْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا عَلَى الظَّاهِرِ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ عَلَى الْبَوَاطِنِ.

وَلِهَذَا أَصْلَحَ سَرِيرَتَكَ يَا أَخِي، وَانْظُرْ إِلَى قَلْبِكَ هَلْ فِيهِ إِيمَانٌ، وَهَلْ هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِاللَّهِ، لَا يَرْجُو إِلَّا اللَّهَ، وَلَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا يَسْتَسْلِمُ إِلَّا لِلَّهِ، فَاحْمَدِ اللَّهَ وَازْدَدْ مِنْ هَذَا خَيْرًا، وَلَوْ فِيهِ بَلَاءٌ فَاحْذَرُ.

وَهُنَاكَ قِصَّةٌ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ لَا يَتْرِكُ لِلْعَدُوِّ شَاذَةً وَلَا فَاذَةً، فَهُوَ شُجَاعٌ، مُقْدَامٌ، مُصِيبٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَةِ، كَيْفَ يَكُونُ هَذَا الْمَجَاهِدُ الْبَطْلُ الْمَغَوَارُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَقَالُوا: أَيُّنَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: لَا تَبِعْنَهُ، فَإِذَا أَسْرَعَ وَأَبْطَأَ كُنْتُ مَعَهُ، حَتَّى جُرِحَ، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نِصَابَ^(١) سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ، وَذُبَابُهُ^(٢) بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَجَاءَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ». فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَمَّا يَبْذُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ لِمَنْ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَمَّا يَبْذُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٣).

(١) نصاب السيف: مقبضه. اللسان (نصب).

(٢) ذبابه: طرفه. النهاية (ذب).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، رقم (٢٧٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١١٢).

نعوذ بالله من ذلك، اللَّهُمَّ أعِزَّنَا من هَذَا، اللَّهُمَّ أعِزَّنَا من هَذَا، اللَّهُمَّ أعِزَّنَا من هَذَا.

إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار؛ لأن قلبه فيه سريرة خبيثة أودت إلى سوء الخاتمة، نسأل الله العافية.

ولهذا أحث نفسي وإياكم يا إخواني على إصلاح الباطن، وعلى تفقيد القلب، فكلنا يتوضأ ويطهر ظاهره، وكلنا يغتسل من الجنابة، ويطهر جسمه كله، لكن القلب هل منا من يغسله كل يوم؟ قل من يغسله.

وأجل العبادات الصلاة، ولكن كثير من الناس لا يفعلها إلا على وجه العادة، فيصبح يتوضأ ويذهب ليصلي الفجر، لكن لا يحس بأن هذه الصلاة دخلت قلبه حتى كان في صلاته متصلاً بربه.

كان بعض السلف -وهو عروة بن الزبير- قد أصيب في أحد أعضائه، ف قيل له: إنه لا يمكن أن تنجو منه حتى تقطع رجلك، وليس هناك بئج، فقال: دعوني أصلي، فلما شرع في الصلاة قطعوا رجله؛ وذلك أنه إذا دخل في الصلاة اتصل قلبه بالله عز وجل، والاتصال بالله ينسي كل شيء^(١).

وانظر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لما نهى أصحابه عن الوصال -والوصال: ألا يفطر الإنسان بين اليومين، بل يواصل- قالوا: إنك تواصل؟ قال: «إني لست كهيتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني»^(٢).

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ١٢٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الوصال، رقم (١٩٦٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، رقم (١١٠٥).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَى ذَلِكَ لَانْشَغَالِهِ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يَهْتَمُّ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَهَذَا حَقٌّ. وَلِهَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي مَعْشُوقَتِهِ^(١):

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا عَنْ الشَّرَابِ وَتُلْهِيَهَا عَنِ الزَّادِ
إِذَا قَامَتْ تَتَحَدَّثُ إِلَى عَشِيقِهَا نَسِيتَ الْأَكْلَ وَالشَّرْبَ وَكُلَّ شَيْءٍ، وَالْمَشْتَغِلُ
قَلْبُهُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يَنْسَى.

وَلَكِنْ أَيُّمَا أَكْمَلُ حَالًا: عُروَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ الَّذِي انْشَغَلَ عَنْ قَطْعِ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ
فِي صَلَاتِهِ، أَوْ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ الَّذِي كَانَ يَجْهِّزُ الْجَيْشَ وَهُوَ يُصَلِّي^(٢)؟
الْجَوَابُ: لَا شَكَّ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَكْمَلُ حَالًا؛ لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ عِبَادَتَيْنِ.

وَهَا هُوَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ أَكْمَلُ الْخَلْقِ، كَانَ إِذَا سَمِعَ بُكَاءَ
الصَّبِيِّ خَفَّفَ الصَّلَاةَ^(٣)، فَكَانَ عِنْدَهُ وَعِيٌّ، وَعِنْدَهُ عَقْلٌ، لَكِنْ بَعْضُ النَّاسِ
لَا يَتَحَمَّلُ الْجَمْعَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا فَيَعِجْزُ.

وَلِهَذَا سُئِلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عَنْ شَخْصٍ مَاتَ لَهُ وَلَدٌ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُعَزُّوْنَ
وَهُوَ يَضْحَكُ وَيَتَبَسَّمُ رَاضِيًا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، لَكِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا
مَاتَ ابْنُهُ إِبْرَاهِيمُ قَالَ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَذْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى
رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»^(٤). فَهَذَا أَكْمَلُ مِنْ حَالِ الرَّجُلِ الَّذِي

(١) انظر زاد المعاد (٢/ ٣٣).

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا: كتاب الصلاة، باب يفكر الرجل الشيء في الصلاة. وابن أبي شبة (٢/ ٤٢٤)، أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنِّي لَأَجْهِّزُ جَيْشِي وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ».

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، رقم (٧٠٧).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ»، رقم (١٣٠٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، رقم (٢٣١٥).

عَجَزَ أَنْ يَتَحَمَّلَ الْجَمْعَ بَيْنَ الصَّبْرِ وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ فَجَعَلَ يَتَبَسَّمُ.

قوله: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] وهو الْإِنْسَانُ، فَلَيْسَ لَهُ قُوَّةٌ فِي نَفْسِهِ يُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهِ وَلَا نَاصِرٌ يُدَافِعُ عَنْهُ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا وَجَدَ النُّصْرَةَ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ متى؟ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ٥١ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ١١ ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ ١٢ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ [الطارق: ١١-١٣] السَّمَاءُ هُنَا: مَا عَلَا، لَا شَكَّ، فَمَا هِيَ السَّمَاءُ الْمُحْفَظَةُ؛ لِأَنَّ الرَّجْعَ هُوَ الْمَطَرُ، وَالسَّحَابُ هُوَ الَّذِي يَأْتِي مِنْهُ الْمَطَرُ.

قوله: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ الصَّدْعُ: التَّشَقُّقُ، إِذَا نَزَلَ الْمَطَرُ عَلَى الْأَرْضِ نَبَتَ الْحَبُّ فِي جُوفِ الْأَرْضِ، ثُمَّ يَتَفَخُّ، وَحِينَئِذٍ تَتَصَدَّعُ الْأَرْضُ، فَأَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْمَطَرِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ، وَبِالْأَرْضِ الَّتِي قَبِلَتْ هَذَا الْمَطَرَ وَأَنْبَتَتْ عَلَى ﴿إِنَّهُ﴾ أَيِ الْقُرْآنِ ﴿لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾؛ لِأَنَّ بِالْمَطَرِ حَيَاةَ الْأَرْضِ، وَبِالْقُرْآنِ حَيَاةَ الْقُلُوبِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ٦٩ ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٦٩-٧٠].

فَالْقُرْآنُ تَحْيَا بِهِ الْقُلُوبُ، وَهُوَ قَوْلُ فَصْلٍ، يَعْنِي يَفْصِلُ بَيْنَ الْأُمُورِ، وَيَفْصِلُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَبَيْنَ الشَّرِّ وَالْتَّوْحِيدِ، وَبَيْنَ الْإِتْبَاعِ وَالْإِبْتِدَاعِ، وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَبَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، بَلْ يَفْصِلُ بَيْنَ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَانْظُرِ الْفَصْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي حَصَلَ بِهِ عِزُّ الْإِسْلَامِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٤] بل هُوَ جَدٌّ، وأجدُّ الجدُّ.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥] أي: الكفَّار، ولا سيَّما كفَّار قُرَيْشٍ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦] يكيدون جميعًا وأكيدُ أنا وَحْدِي كَيْدًا، وجمعهم لن يَهْزِمَ رَبَّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ، عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ وَهُمْ جَمْعٌ.

وقوله: ﴿كَيْدًا﴾ في الموضعين للتعظيم، يعني يكيدون كيدًا عظيمًا، وأكيدُ كيدًا أعظم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

فأعظمُ كيدٍ كاده المشركون للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في الْقُرْآنِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يعني بالحبس، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ واضح، ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مَكَّةَ، فقال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾. فخرج النَّبِيُّ ﷺ من بينهم ولم يفعلوا شيئًا؛ لأنَّ الله تعالى خيرُ الماكِرِينَ، فانظرِ الحيلةَ العظيمةَ.

يقولون: إن كبار قُرَيْشٍ اجتمعوا في دارِ الندوة فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتُمْ. فذكروا آراء من جملتها هذا الرأي العظيم؛ الاتفاقُ عَلَى القتلِ، قالوا: يجتمعُ شبابُ أقوياء من قبائل متفرقة، ويُعطى كلُّ واحدٍ منهم سَيْفًا بَتَّارًا، ويضربون مُحَمَّدًا ﷺ ضربة رجلٍ واحدٍ، حَتَّى يَقْضُوا عَلَيْهِ، وَحِينَئِذٍ يَضِيعُ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ، فلا تستطيعُ بنو هاشمٍ أن تأخذَ بِالثَّارِ من جميعِ القبائلِ، وَحِينَئِذٍ يَرْضُونَ بِالذِّيَّةِ، ولكن هذا لم يحدث^(١).

(١) انظر سيرة ابن هشام (٧/٣).

قوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧] مهِّلْ يعني: انتظر بهم. وأمهِّلهم، ﴿رُوَيْدًا﴾ أي: زمنا قليلا حتى يؤخذوا، والحمد لله ما صار إلا مدة وجيزة بعد أن خرج الرسول ﷺ من مكة خائفا على نفسه، فبعد ثماني سنوات رجع إليها منصورا مظفرا حُكْمُ قُرَيْشٍ بيده.

ذكر المؤرخون أن النبي ﷺ لما دخل مكة قال: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ»^(١). فهو الآن يؤمّنهم وكانوا بالأول يخيفونه، والآن هو الذي يخيفهم.

ثم لما انتهى الأمر وقام على باب الكعبة وقُرِئ تحتها ينتظرون ماذا يفعل؛ لأنه فاتح، ففعل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فعلَ الحليم الرحيم، قال لهم: فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرُونَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟» قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»^(٢).

وقال: «فإني أقول كما قال يوسف: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾»^(٣). فهذا حلم مع القدرة.

فانظر إلى كيد هؤلاء وإلى كيد الرب عز وجل أيهما أعظم؟ إن كيد الله -يا إخواني- أعظم.

ولهذا يُقال: هل الكيدُ صفة مدح أو صفة ذم؟

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الخراج والإمارة، باب ما جاء في خبر مكة، رقم (٣٠٢٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/٤١٢).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠/١٥٤، رقم ١١٢٣٤)، والبيهقي في السنن الكبرى

(٩/١١٨، رقم: ١٨٠٥٤)

يقال: فيه تفصيل، فإذا كان في مقابلة كيد العدو فهو صفة مدح، وإذا كان ابتداءً فهو صفة ذم، وكذلك المكر والاستهزاء والسخرية كلها على هذا الباب، فإن كانت في محلها فهي صفة مدح؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ ①٤ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ①٥ ﴿وَإَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

وقال: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَتَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠].

وقال: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣] وهلم جرا.

وهذه السورة كما اتضح سورة عظيمة، وإنني أحث الشباب خاصة وغيرهم أيضا على فهم كتاب الله، لا على أن يقرأوه تعبدا بتلاوته فقط، إن الله يقول في كتابه: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فلا بد من التدبر، والتدبر هو تفهم المعنى، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ يتعظوا به.

ولهذا كان الذين يقرأون القرآن من الصحابة لا يتجاوزون عشر آيات من كتاب الله حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل^(١)، لكننا مع الأسف الآن تأتي إلى فصل كامل في الجامعة تقول: فسّر لي هذه الآية، فلا تكاد ترى واحدا منهم يفسرها، وهذا نقص.

فإذا كنا نحرص على شرح الأحاديث الواردة عن النبي عليه الصلاة والسلام فلماذا لا نحرص على تفسير كلام الله؟! فهذا أولى وأعظم، والإنسان -سبحان الله! اسأل مجرباً- كلما تأمل كتاب الله اتضح له من المعاني ما لم يكن يعرفها من قبل ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]، وجرب تجذ.

وفي القرآن حل كل شيء يشكل عليك، والدليل ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، لكن أحياناً يكون بيان القرآن بالأصالة، وأحياناً يكون بيان القرآن بالإحالة على السنة، فأحياناً يكون الأمر واضحاً في القرآن: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، فهذا واضح لا يحتاج إلى تفسير، لكن تأتي: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] والزيادة هذه ما نعرف معناها حتى فسرنا النبي عليه الصلاة والسلام^(١).

لكن ما من إنسان يتدبر القرآن إلا وجد فيه من العلوم العظيمة ما لا يجدها في غيره، فإن جئت في النحو وجدت شواهد، وإن جئت في البلاغة وجدت شواهد، وإن جئت في البيان وجدت شواهد، وإن جئت في العقائد وجدت شواهد، وفي الفقه وجدت شواهد، وفي كل شيء.

قالوا: إن بعض علماء المسلمين اجتمع في مطعمٍ من مطاعم أورباً ومعه نصراني في نفس المطعم، لكن ليسوا على مائدة واحدة فيما يظهر، فجاء النصراني متحدثاً قال: إن كتابكم نزل تبياناً لكل شيء، فكيف صنعت هذه السلطة، وكيف

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم (١٨١).

صُنِعَ هَذَا الْخُبْزُ، وَكَيْفَ صُنِعَ هَذَا اللَّحْمُ.. وَهَذَا لَيْسَ هَمَّهُ إِلَّا بَطْنُهُ، وَكَأَنَّهُ يَرِيدُ مِنَ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ كِتَابَ مَطْبَخٍ.

وَكَانَ الرَّجُلُ الْعَالِمُ ذَكِيًّا، قَدْ أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكَاءً، قَالَ الْعَالِمُ: يَا صَاحِبَ الْمَطْعَمِ، تَعَالَى، كَيْفَ صَنَعْتَ هَذَا؟ قَالَ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا، وَذَكَرَ الْوَصْفَةَ تَمَامًا. قَالَ: هَكَذَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، فَتَعَجَّبَ النَّصْرَانِيُّ وَتَسَاءَلَ: كَيْفَ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، هَاتِ مِنْ أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ إِلَى آخِرِ النَّاسِ مَا نَجِدُ هَذَا، فَقَالَ: مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ؛ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِخُصُوصِهَا لَكِنْ فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنْ كُلَّ شَيْءٍ لَا تَعْلَمُهُ اسْأَلْ عَنْهُ أَهْلَ الْعِلْمِ بِهِ، فَلَوْ سُئِلْتُ مَثَلًا عَنْ إِعْرَابِ ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِيبُ﴾ [الفاتحة: ٥] أَقُولُ: مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ.

أَقُولُ: إِنِّي أَحْتُ نَفْسِي وَإِيَاكُمْ عَلَى تَدَبُّرِ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَتَفْهَمِ مَعْنَاهُ؛ فَفِيهِ الْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ، وَسَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَعِلْمٌ مُتَنَوِّعٌ، وَهُدَايَةٌ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (طه: ١٢٣-١٢٥). وَلَيْسَ يَعْتَرِضُ عَلَى اللَّهِ، وَلَكِنْ يَقُولُ: مَا السَّبَبُ؟ قَالَ: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ (طه: ١٢٦).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.



سورة الأعلى

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي
اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوْا تُ اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ،
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

الْبِسْمَلَةُ يُؤْتِي بِهَا فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ إِلَى سُورَةِ النَّاسِ،
إِلَّا فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهَا بِسْمَلَةٌ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ لِلْفَصْلِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
الْأَنْفَالِ؛ وَلِهَذَا أَشْكَلْتُ عَلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَجَعَلُوا بَيْنَهَا فَاصِلًا دُونَ أَنْ
يَضَعُوا الْبِسْمَلَةَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ تَحَرِّيِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَالْبِسْمَلَةُ يُؤْتِي بِهَا فِي كُلِّ سُورَةٍ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ السُّورَةِ الَّتِي تَلِيهَا، فَهِيَ
لَيْسَتْ مِنَ الْفَاتِحَةِ، وَلَا مِنَ الْبَقَرَةِ، وَلَا مِنْ آلِ عِمْرَانَ، وَلَا مِنْ سُورَةِ النَّاسِ،
وَلَا مِنَ السُّورِ الَّتِي بَيْنَ ذَلِكَ، بَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقْلَةٌ، هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ^(١).

وَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهَا آيَةٌ مِنَ الْفَاتِحَةِ، وَلَيْسَتْ آيَةٌ مِنْ غَيْرِهَا، لَكِنَّ
الصَّحِيحَ أَنَّهَا لَيْسَتْ آيَةٌ لَا مِنَ الْفَاتِحَةِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا بَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقْلَةٌ، وَعَلَى هَذَا

(١) نيل الأوطار للشوكاني (٣/ ٣٤٦).

فَتَكُونُ آيَاتُ الْفَاتِحَةِ كَالَّتَالِي:

الآيَةُ الْأُولَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الآيَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

الآيَةُ الرَّابِعَةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الآيَةُ الْخَامِسَةُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

الآيَةُ السَّادِسَةُ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

الآيَةُ السَّابِعَةُ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وهذه الْقِسْمَةُ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ السُّورَةَ نِصْفَيْنِ، الثَّلَاثُ الْآيَاتُ الْأُولَى مِنْهَا لِلَّهِ، وَالثَّلَاثُ الْآخِرَةُ مِنْهَا لِلْعَبْدِ، وَالرَّابِعَةُ مِنْهَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْآيَةَ الْوُسْطَى هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَقَبْلَهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ وَبَعْدَهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

قَوْلُهُ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أَي: نَزَّهَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَالتَّسْبِيحُ هُوَ التَّنْزِيهِ، أَي: نَزَّهَ اللَّهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، فَاللَّهُ تَعَالَى كَامِلٌ فِي ذَاتِهِ، وَفِي أَسْمَائِهِ، وَفِي صِفَاتِهِ.

قَوْلُهُ: ﴿الْأَعْلَى﴾ الَّذِي هُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ جَلَّوَعَلَا؛ لِأَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ، وَالسَّمَوَاتُ السَّبْعُ، بِالنِّسْبَةِ لِلْكَرْسِيِّ كَحَلْقَةِ أَلْقَيْتَ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَحَلْقَةُ الدَّرْعِ إِذَا أَلْقَيْتَهَا فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ،

فَيَكُونُ حَجْمُهَا بِالنِّسْبَةِ لِمِسَاحَةِ الْأَرْضِ لَا شَيْءَ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكَرْسِيِّ، كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الْحَلَقَةِ.

إِذَنْ، الْكَرْسِيُّ بِالنِّسْبَةِ لِلْعَرْشِ كَحَلَقَةِ أُلْقِيَتْ فِي فِلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ الْأَعْلَى جَلَّوَعَلَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]، فَاللَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الَّذِي بَدَأَ الْكَوْنَ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَسَوَّى الْكَوْنَ، أَيُّ: جَعَلَهُ خَلْقًا سَوِيًّا كَامِلًا لَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ [الأعلى: ٣] قَدَّرَ الْمَقَادِيرَ عَزَّوَجَلَّ وَكَانَ هَذَا التَّقْدِيرُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْقَلَمَ، وَهُوَ قَلَمٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَاللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ لَيْسَ كَالْوَحَاةِ مِنْ خَشَبٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ زَجَاجٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَلَا تَظَنُّهُ صَغِيرًا، بَلْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يَسَعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ لِأَنَّهُ كَتَبَ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ.

وَخَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: «اكتب»، قَالَ الْقَلَمُ: «رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟» إِذَنْ هُوَ عَقَلَ الْمَعْنَى، قَالَ: «اكتب مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١). فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، كُلُّ ذَلِكَ فِي لَمَحِ الْبَصَرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، فَالْقَلَمُ كَتَبَ فِي الْحَالِ، كَتَبَ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ن، رقم (٣٣١٩).

قَوْلُهُ: ﴿فَهْدَى﴾ أَي: فَهَدَى المَخْلُوقَاتِ، هَدَى كُلَّ مَخْلُوقٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ، حَتَّى إِنَّ الْجَنِينَ يَنْزِلُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ، وَيَطْلُبُ الثَّدْيَ، وَالَّذِي دَلَّهُ وَهْدَاهُ إِلَى ثَدْيِ أُمِّهِ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَيِ الثَّدْيَيْنِ^(١).

كَذَلِكَ الْبَعِيرُ يَنْزِلُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ، وَالَّذِي يَدُلُّهُ وَيَهْدِيهِ عَلَى ضَرْعِ الْأُمِّ لِيَشْرَبَ اللَّبَنَ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَكُلُّ مَخْلُوقٍ هَدَاهُ اللَّهُ لِمَا خُلِقَ لَهُ، حَتَّى الْحَشَرَاتُ مَهْدِيَّةٌ لِمَا خُلِقَتْ لَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ ④ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿[الأعلى: ٤-٥].

قَوْلُهُ: ﴿أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أَي: النَّبَاتُ، وَالزُّرُوعُ.

قَوْلُهُ: ﴿غُثَاءً أَحْوَى﴾ الْغُثَاءُ: مَعْرُوفٌ هُوَ مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنَ الْقَشُورِ وَالْأَعْوَادِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَأَحْوَى: أَسْوَدَ، وَقِيلَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْمَرْعَى أَخْضَرَ خَضِرَةً تَامَّةً، حَتَّى كَادَ لَشِدَّةِ خَضِرَتِهِ أَنْ يَكُونَ أَسْوَدَ.

وقيل: المعنى أَنَّ هَذَا الْمَرْعَى، وَالنَّبَاتَ الْغَضَّ الْأَخْضَرَ، يَجْعَلُهُ اللَّهُ ۖ هَامِدًا يَابِسًا، وَأَنَّ هَذَا مِثَالٌ لِأَعْمَالِ الْكَفَّارِ نَضْرَةً حَسَنَةً لَكِنَّهَا لَا تَنْفَعُهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦].

الَّذِي يُقَرِّئُ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُقَرِّئُ النَّبِيَّ ﷺ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْرِكْ يَدَيْهِ لِسَانِكَ لَتَتَجَلَ بِهٖ ۝ ١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ ١٧ ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٨]، فَالَّذِي يَقْرُؤُهُ جِبْرِيلُ، لَكِنْ أَضَافَ اللَّهُ الْقِرَاءَةَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ جِبْرِيلَ رَسُولُهُ، قَالَ تَعَالَى:

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٠٥).

﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٨-١٩]، وهنا قال: ﴿سُنْقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦]، أي فلا تنسى ما نُقِرْتُكَ بل سيبقى ويمكث في قلبك حتى تُبلِّغه للناس.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٧].

قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ لكن إن شاء الله تعالى أن يُنسيك آية من القرآن أنساك الله، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

قوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أي: الله عز وجل يعلم ما يجهر به الناس، وما يخفى بما دون ذلك، فالله يعلمه جل وعلا فما من كلمة تنطقها إلا والله يعلمها سرا، كانت أو خفاه.

قوله تعالى: ﴿وَيُنِيرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: ٨].

وعد الله النبي عليه الصلاة والسلام بأنه يُيسره لليُسرى، وهي التيسير في كل شيء؛ ولهذا كان أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على آله وسلّم مُيسرا، فعمل عليه الصلاة والسلام أعمال أهل اليُسرى في كل أحواله؛ لأن الله وعده ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩].

أي: ذكر الناس بما أوحى الله إليك من كتاب الله، إن نفعت الذكرى، فذكر على كل حال، فلا بُدَّ من التذكير، ولا بُدَّ من نشر الشريعة، سواء نفعت أم لم تنفع، فهو كقولنا: «علم فلان إن كان العلم ينفعه».

ومعلوم أنَّ العلمَ ينفعُ، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ يعني أيَّ إنَّ الذِّكْرَى ستَنفَعُ.

وقال بعضُ العلماء: بل هي شرطيةٌ، والمعنى ذكَّر في الحال التي تنفعُ الذِّكْرَى فيها، وأمَّا إذا آيست ولم تَطْمَعْ في تذكُّرِ النَّاسِ فلا تُذكِّر.

قوله تعالى: ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ (١٠) وَيَنْجَنِبُهَا الْأَشْقَى ﴿[الأعلى: ١٠-١١].

بيِّن الله تعالى أنَّ النَّاسَ بعدَ الذِّكْرَى يَنْقَسِمُونَ إلى قسمين:

القِسْمُ الأوَّلُ: من يَخْشَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ فيتذكَّر، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا سُومًا وَغُمِيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا نُنَادِيهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، فإذا كان العبدُ يَخْشَى اللهَ، وذكَّر بالله، وخَوْفُ بالله، تذكَّر وارتدَّع عن المحرم، وقام بالواجب عليه.

القِسْمُ الثاني: الأشقى الذي كُتِبَ لَهُ السَّقَاوَةُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فهو يَتَجَنَّبُ الذِّكْرَى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلى: ١٢].

يَصْلَى النَّارَ حَتَّى يَكُونَ حَمًّا، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، كما قال الله تعالى فِي وَصْفِهِمْ: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿الْكُبْرَى﴾ وصفٌ للنَّارِ، وليس المانعُ أَنَّ فِيهِ نَارًا كُبْرَى وَصُغْرَى، فهذا وصفٌ للنَّارِ بِأَنَّهَا كُبْرَى، وقد ذكرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كَانَتْ لَكَافِيَةً قَالَ: «فُضِّلَتْ

عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»^(١). ومع ذلك يصلها الأذى الذي لم يتذكر بالقرآن.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١٣].

قد يُشكّل على بعض الناس، فيقول: كيف يكون لا حياة ولا موت؟ والإنسان إما إن يكون حيًا، وإما أن يكون ميتًا؟

قلنا: النّفي هنا نفي كمال، أي لا يموت موتًا كاملاً فيستريح، ولا يحيى حياة كاملة فيسعد في حياته، وإلا فإنهم أحياء يتمنون الموت، قال الله تعالى عن أصحاب النار، وهم يُنادون مَالِكًا خازن النار: ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِئُوثٌ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فلا موت يستريحون به من العذاب، ولا حياة يسعدون بها.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

كلمة جامعة، وهي حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب، فهي سعادة من زكّى نفسه وطهرها من الشرك، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ① وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ [الشمس: ٩-١٠].

قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٥].

أي: ذكر الله عزّ وجلّ فعظمه، وقام يصلي؛ لأن الصلاة تشتمل على ذكر الله عزّ وجلّ كما أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ② وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿ [الأعلى: ١٦-١٧].

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٩٢).

(بَلْ) هُوَ لِلْإِضْرَابِ الْإِنْتِقَالِي لَا لِلْإِضْرَابِ الْإِبْطَالِي، فَاَلْمَعْنَى أَنْكُمْ بَعْدَ هَذِهِ الذِّكْرِ، تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، أَيْ: تَقَدِّمُونَهَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى، فَهِيَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَبْقَى مِنَ الدُّنْيَا.

فَجَمَعَ بَيْنَ الْخَيْرِ الزَّمْنِيِّ، وَالْخَيْرِ الذَّاتِيِّ، الْخَيْرُ الزَّمْنِيُّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَبْقَى﴾، وَالذَّاتِيُّ بِقَوْلِهِ: ﴿خَيْرٌ﴾؛ وَلِهَذَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ: «لَمَْوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١). فَالدُّنْيَا لَيْسَتْ خَيْرًا وَلَيْسَتْ أَبْقَى، فَمَتَاعُهَا قَلِيلٌ، وَمَا جَاءَ فِيهَا مِنْ صَفْوٍ فَإِنَّهُ يُكَدَّرُ؛ وَلِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ الْحَكِيمُ^(٢):

لَا طِيبَ لِلْعِيشِ مَا دَامَتْ مُنْغَصَّةٌ لِذَاتِهِ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ

أَيْ: طِيبُ الْعِيشِ لِذَاتِهِ مُنْغَصَّةٌ، إِذَا تَذَكَّرْتَ الْمَوْتَ وَالْهَرَمَ، فَإِنْ طَالَتْ بِكَ الْحَيَاةُ صِرْتَ هَرِمًا، وَضَيَّقَتْهَا حَتَّى عَلَى أَهْلِكَ، وَإِنْ مِتَّ انْتَهَيْتَ مِنَ الدُّنْيَا، فَكَيْفَ يَطِيبُ الْعِيشُ، كَمَا أَنَّ الدُّنْيَا مُنْغَصَّةٌ لِذَاتِهَا.

قَالَ الشَّاعِرُ الْحَكِيمُ أَيْضًا^(٣):

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

فَلَا تَكَادُ تَمُرُّ عَلَيْكَ عَشْرَةُ أَيَّامٍ صَافِيَةٌ بِدُونِ كَدَرٍ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ كَدَرٍ، إِمَّا فِي نَفْسِكَ، أَوْ أَهْلِكَ، أَوْ جِيرَانِكَ، أَوْ بَلَدِكَ، أَوْ حُكُومَتِكَ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ لَا يَذْهَبُ الْإِنْسَانُ فِي أَيِّ سَاعَةٍ يَدْعُوهُ الدَّاعِي فِي أَيِّ لَحْظَةٍ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ سَقَطَتْ مِنْهُ اللَّقْمَةُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

(٢) انظر: شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، وجمع الهوامع (١/ ٣٧٣).

(٣) البيت للنمر بن تولب، كما في كتاب سيويه (١/ ٨٦).

مِنْ يَدِهِ وَمَاتَ، وَسَقَطَ مِنْهُ فَنَجَانُ الشَّيْ وَمَاتَ، فَمِنْ السَّفَهِ أَنْ نُؤَثِّرَ الْحَيَاةَ عَلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [الأعلى: ١٨].

آرَاءُ الْعُلَمَاءِ فِي الْمَشَارِ إِلَيْهِ:

الرَّأْيُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

الرَّأْيُ الثَّانِي: أَنَّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾.

الرَّأْيُ الثَّلَاثُ: أَنَّهُ كُلُّ السُّورَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٩].

وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ جَمِيعَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، كَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ تَحْتَ عَلَى التَّذَكُّرِ بِالْوَحْيِ، وَتَلُومُ مَنْ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ.



سورة الفجر

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤﴾

[الفجر: ١-٤].

خَمْسَةُ أَشْيَاءَ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهَا، وَكُلُّهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَالْوَاوُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ لِلْقَسَمِ، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ لِلْقَسَمِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عَاطِفَةً، فَإِنْ كَانَتْ لِلْقَسَمِ فَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْسَمَ بِاللَّيَالِي، وَإِنْ كَانَتْ عَاطِفَةً فَالْمَعْطُوفُ عَلَى الْمُقْسَمِ بِهِ مُقْسَمٌ بِهِ، وَهَكَذَا نَقُولُ فِي الْبَاقِي.

أَقْسَمَ اللَّهُ بِالْفَجْرِ الَّذِي هُوَ الصَّبْحُ، وَهُوَ بَدَايَةُ نَوْرِ الشَّمْسِ؛ لِأَنَّ بَهَذَا الْفَجْرَ تَزُولُ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ، وَهُوَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، فَلَوْ اجْتَمَعَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَقْدُمُوا الْفَجْرَ عَنْ وَقْتِهِ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ خَمْسَ دَقَائِقَ

لَا يَسْتَطِيعُونَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يُؤْخِرُوهُ خَمْسَ دَقَائِقَ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْرِجَ فِيهِ مَا اسْتَطَاعُوا، إِذَنْ مَا دَامَ الْخَلْقُ تَعَجِزُ عَنْ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ.

وَكُلُّ شَيْءٍ يَعْجِزُ الْمَخْلُوقُ عَنْهُ، فَهُوَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَلَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴿أَيُّ: فِي النَّهَارِ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

قَوْلُهُ: ﴿وَلَيْالٍ عَشْرٍ﴾ هَذَا مُقَسَّمٌ بِهِ، وَطَرِيقُ الْإِقْسَامِ بِهِ أَحَدُ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَدَاةُ الْقَسَمِ حِينَ نَقُولُ: إِنَّ الْوَائِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَيْالٍ﴾ لِلْقَسَمِ، وَإِمَّا الْعَطْفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالْفَجْرِ﴾، وَحِينَئِذٍ نَقُولُ: الْمَعْطُوفُ عَلَى الْمُقَسَّمِ بِهِ مُقَسَّمٌ بِهِ، كَمَا لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَكَلْتُ تَمْرًا وَخَبْزًا، الْوَائُ حَرْفُ عَطْفٍ، (خَبْزًا) مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ، أَكَلْتُ تَمْرًا وَخَبْزًا، (خَبْزًا) مَعْطُوفٌ عَلَى التَّمْرِ، إِذَنْ، مَأْكُولٌ أَمْ غَيْرُ مَأْكُولٍ؟ مَأْكُولٌ، الْمَعْطُوفُ عَلَى الْمَأْكُولِ مَأْكُولٌ، وَالْمَعْطُوفُ عَلَى الْمُقَسَّمِ بِهِ مُقَسَّمٌ بِهِ.

وَالْمُرَادُ بِاللَّيَالِي الْعَشْرِ؟

قِيلَ: الْمُرَادُ بِاللَّيَالِي الْعَشْرِ لَيَالِي عَشْرِ رَمَضَانَ الْآخِرَةِ، وَأَقَسَمَ اللَّهُ بِهَا؛ لَشَرَفِهَا، وَلِكُونِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَإِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ كَائِنَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَلِهَذَا مَنْ قَامَ الْعَشْرَ الْآخِرَ مِنْ رَمَضَانَ كُلِّهَا، فَقَدْ أَصَابَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، سَوَاءً شَعَرَ بِهَا أَمْ لَمْ يَشْعُرْ؛ لِأَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَدْ يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِهَا

وقد لا يَشْعُرُ، لَكِنَّا نَجْزِمُ جَزْمًا أَن مَن قَامَ لِيَالِي الْعَشْرِ كُلِّهَا فَقَدْ أَصَابَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَطْعًا.

فَلَيْلَةُ الْقَدْرِ لَا تَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْعَشْرِ، سِوَاءَ شَعُرَ بِهَا أَمْ لَمْ يَشْعُرْ، أَيْ: سِوَاءَ اطَّلَعَ عَلَى عِلَامَاتِهَا الَّتِي ذَكَرَهَا الْعُلَمَاءُ، أَمْ لَمْ يَطْلُعْ، فَأَحْيَانًا يَمُنُّ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَيَجِدُ فِي إِحْدَى لَيَالِي الْعَشْرِ انْشِرَاحًا فِي صَدْرِهِ، وَطُمَأْنِينَةً فِي قَلْبِهِ، وَرَغْبَةً فِي الْخَيْرِ، وَهَذَا مِنْ عِلَامَاتِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

أَحْيَانًا إِذَا كَانَ الْمَكَانُ بَعِيدًا عَنْ الْأَضْوَاءِ، تَتَمَيَّزُ لَيْلَةُ الْقَدْرِ عَنْ غَيْرِهَا بِأَنَّهَا بَيَضَاءٌ، كَأَنَّ فِيهَا سَرَاجًا، لَكِنُ بِالنِّسْبَةِ لِحَالِنَا الْيَوْمَ لَا يَتَبَيَّنُ هَذَا، لَكثَرَةِ الْأَضْوَاءِ، لَكِنِ اخْرُجْ إِلَى الْبَرِّ تَجِدِ الْفَرْقَ الْعَظِيمَ، لَكِنِ مِنْ أَهَمِّ مَا يَكُونُ مِنَ الْعِلَامَاتِ: طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ، وَانْشِرَاحُ الصَّدْرِ، وَالرَّغْبَةُ فِي الْخَيْرِ، هَذِهِ مِنْ عِلَامَاتِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ أَيَّامُ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ الْأُولَى، الَّتِي تَبْدَأُ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ إِلَى يَوْمِ الْعِيدِ، وَرُجِّحَ هَذَا الْقَوْلُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ» -أَيْ: عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ- قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهَا شَيْءٌ»^(١). يَعْنِي: خَرَجَ بِمَالِهِ مِنَ الْفَرَسِ أَوِ الْبَعِيرِ أَوِ الْمَتَاعِ، ثُمَّ عُقِرَ جَوَادُهُ، وَأُزْهِقَتْ نَفْسُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهَذَا أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَائِلِ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، أبواب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، رقم (٩٦٩).

والعشرُ الأوائلُ من شهرِ ذي الحِجَّةِ لا يدري كثيرٌ من الناسِ عن فضله شيئاً، فيظنُّ بعضُ الناسِ أنَ العَشرَ الآخرَ من رَمَضانَ أَفْضَلُ مِنَ العَشرِ الأوائلِ من شهرِ ذي الحِجَّةِ، والأمرُ بالعكسِ، العَمَلُ الصَّالِحُ في العَشرِ الأوائلِ من ذي الحِجَّةِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ في العَشرِ الآخرِ من رَمَضانَ.

وَرُبَّمَا يَسْتَغْرِبُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ هَذَا لَجَهْلِهِمْ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ العَشرَ الأوائلَ من شهرِ ذي الحِجَّةِ تَمُرُّ بِالنَّاسِ، وَلَا يَقْدِرُونَ لَهَا قَدْرًا، لَا فِي الصَّيَامِ، وَلَا فِي الصَّدَقَةِ، وَلَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَلَا بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَجْهَلُونَهَا، وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى طَلِبَةِ الْعِلْمِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي تَخْطُرُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، أَنْ تُبَيَّنَ؛ حَتَّى يَعْرِفَ النَّاسُ.

لو قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَجْعَلَ الْمُرَادَ بِاللَّيَالِي العَشرِ هَذَا وَهَذَا؟

قُلْنَا: الظَّاهِرُ لَنَا أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِاللَّيَالِي العَشرِ، لَيَالِي عَشرِ رَمَضانَ الْأَخِيرَةِ، وَأَيَّامُ عَشرِ ذي الحِجَّةِ الْأُولَى؛ لِأَنَّ لَدِينَا قَاعِدَةً فِي التَّفْسِيرِ مُهِمَّةٌ، وَهِيَ أَنَّ اللَّفْظَ إِذَا كَانَ مُحْتَمَلًا لِمَعْنَيْنِ عَلَى السَّوَاءِ، وَلَا مَنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَالْوَاجِبُ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: هَلِ العَشرُ الأوائلُ من ذي الحِجَّةِ فِيهَا صِيَامٌ؟

نَقُولُ: نَعَمْ، العَشرُ الأوائلُ من ذي الحِجَّةِ فِيهَا صَلَاةٌ، وَفِيهَا صِيَامٌ، وَفِيهَا صَدَقَةٌ، وَفِيهَا حَجٌّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَثْرِ﴾ مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ قَسَمٌ بِالْمَخْلُوقِ، وَقَسَمٌ بِالْخَالِقِ، فَالْقَسَمُ بِالْمَخْلُوقِ هُوَ الْقَسَمُ بِالشَّفَعِ الْمَخْلُوقِ، وَالْوَثْرُ هُوَ الْخَالِقُ

عَزَّجَلَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوِثْرَ»^(١). أَمَّا الشَّفْعُ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُ زَوْجَيْنِ، الْآدَمِي زَوْجَانِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٠] وكذلك بقية الحيوانات، السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ زَوْجَانِ.

فالشَّفْعُ الْمَخْلُوقُ، وَالْوِثْرُ الْخَالِقُ، وَبِنَاءٌ عَلَى هَذَا يَكُونُ الشَّفْعُ وَالْوِثْرُ إِقْسَامًا بِكُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّهُ مَا تَمَّ إِلَّا خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ.

قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَسَّرَ﴾، فَالْفَجْرُ أَوَّلُ مَا أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ، وَهُوَ مُدَّةُ النَّهَارِ، ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَسَّرَ﴾ آخِرُ مَا أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ فِي هَذِهِ الْإِقْسَامَاتِ، وَهُوَ أَوَّلُ اللَّيْلِ، فَيَكُونُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَقْسَمَ بِإِقْبَالِ النَّهَارِ وَإِقْبَالِ اللَّيْلِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَسَّرَ﴾ ① هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجَرٍ ﴿[الفجر: ٤-٥] أَي: هَلْ أَحَدٌ يَفْهَمُ الْحِكْمَةَ مِنَ الْإِقْسَامِ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَالْحَجَرُ فِي ﴿لِذِي حَجَرٍ﴾ يَعْنِي: الْعَقْلُ، وَالْجَوَابُ: نَعَمْ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهَا: الْفَجْرُ، لَيَالٍ عَشْرَ، الشَّفْعُ وَالْوِثْرُ، وَاللَّيْلُ إِذَا يَسَّرَ، فِي هَذِهِ الْإِقْسَامَاتِ لَا شَكَّ أَنَّ فِيهَا دَلَالَةً عَظِيمَةً عَلَى عَظَمِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا وَعَلَى عَظَمِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ لِأَنَّ الْقَسَمَ بِالشَّيْءِ تَعْظِيمٌ لَهُ، وَلِهَذَا يُفَسِّرُ الْعُلَمَاءُ الْقَسَمَ بِأَنَّهُ تَأْكِيدُ الشَّيْءِ بِذِكْرِ مُعْظَمٍ عَلَى صِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ.

تنبيهات:

التَّنْبِيهُ الْأَوَّلُ: هَلْ يُجُوزُ أَنْ تُقْسِمَ بِالْمَخْلُوقَاتِ؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب: لله مئة اسم غير واحد، رقم (٦٤١٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم (٢٦٧٧).

نقول: لا يجوز أن نقسم بالمخلوقات، والدليل قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصُمْتُ»^(١). وقوله: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ»^(٢). وهذا يدل على أن الحلف بغير الله من الشرك، ولكنه يكون شركًا أكبر إن اعتقد الحالف به أن لهذا المخلوق من العظمة والجلال مثل ما للخالق، ويكون شركًا أصغر إذا لم يعتقد أن لهذا المحلوف به من العظمة والجلال مثل ما لله.

وإذا كان الحلف بغير الله شركًا، فالذي جاء في هذه الآيات حلف بغير الله، فما الجواب؟

الجواب: إن الذي أقسم بهذه المخلوقات هو الخالق، وهو سبحانه وتعالى حاكم لا محكوم عليه، وأمر لا مأمور، وناه لا منهي، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسَيْنِ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] فالله تعالى له أن يحلف بما شاء من خلقه، أمّا نحن فإننا عبيد لله عز وجل مأمورون بما نؤمر به، منهيون عما ننهى عنه، فإذا نهينا عن الحلف بغير الله، وجب علينا أن نمسك.

التنبيه الثاني: لو قال إنسان: إن أعظم البشر هو النبي ﷺ ألا يجوز الحلف به؟

الجواب: لا يجوز الحلف بالرّسول ﷺ وهو أعظم البشر؛ لأن الحلف من

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب كيف يستخلف، رقم (٢٦٧٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله، رقم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٥/٢)، رقم (٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

خَصَائِصِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فلو قال قائل: والنبي لأفعلن كذا وكذا، فنقول: هذا حرام.

مَسْأَلَةٌ: نسمع كثيرًا من الناس يحلفون بالنبي، يقول: والنبي أجبني عن سؤالي، والنبي إني محتاج!! فماذا نقول لهذا السائل؟

أولاً: ننصحه، فنقول: هذا لا يجوز، ثم بعد ذلك نجيب عن سؤاله، وإنما أقول هذه الطريقة؛ اقتداءً بيوسف عليه الصلاة والسلام فإنه سئل وأجاب أولاً قبل أن يجيب بالنصيحة، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَنِى أَعَصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَنِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] إلى أن قال: ﴿يَصْدِحِى السِّجْنُ ۖ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

يوسف عليه الصلاة والسلام دخل معه السجن فتيان، وذلك حينما سُجِنَ يوسف لأنه أبى أن يجيب امرأة العزيز لما تريد منه، حيث راودته عن نفسه، وغلقت الأبواب، وكانت قد هيأت نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وفي قراءة: (هَيْتُ لَكَ) ^(١) يعنى: هيأت نفسي، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، وأبى ﷺ فأدخل السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ فرأى كل واحدٍ منهما رؤيةً أحدهما قال: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَنِى أَعَصِرُ خَمْراً﴾، والآخر قال: ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَنِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزاً﴾، الرؤية لا يعرفها إلا من أعطاه الله تعالى فِرَاسَةً، ﴿نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾

(١) انظر: السبعة في القراءات، لابن مجاهد (٣٤٧).

إِنَّا نَرْزُقُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ فَصَاحِبُ الْإِحْسَانِ مَرْمُوقٌ، صَاحِبُ الْإِحْسَانِ مَقْصُودٌ؛
لَأَنَّ الرَّجُلَ الْمُحْسِنَ يَأْلَفُهُ النَّاسُ، وَيُحِبُّونَهُ، وَيَأْتُونَ إِلَيْهِ يَشَاوِرُونَهُ فِي مَشَاكِلِهِمْ،
وَلِهَذَا قَالُوا: إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، قَالَ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧]، وَكَأَنَّهُمْ لَهُمْ مَوْعِدٌ، يَأْتِيهِمُ الطَّعَامُ، وَهَذَا
مَعْرُوفٌ، فَالسَّجْنَاءُ يُقَرَّرُ لَهُمُ الْغَدَاءُ بَعْدَ الظُّهْرِ السَّاعَةَ الْوَاحِدَةَ، وَكَانَ السَّجْنُ
مُقَرَّرًا لَهُ طَعَامٌ فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِ﴾ أَيُّ: بِتَأْوِيلِ مَا رَأَيْتُمَا، ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ أَيُّ: قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ الطَّعَامُ،
﴿ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾.

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى مَعْنَى يَكُونُ سَبَبًا لِلْعِلْمِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ
لَا يَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]، وَمَنْ أَخْلَصَ فِي تَوْحِيدِهِ لِلَّهِ
فَتَحَّ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ مَا لَا يَفْتَحُهُ عَلَى غَيْرِهِ.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾
[يوسف: ٣٨].

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: ﴿يَصْصَحِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ﴾.

فَعَرَضَ عَلَيْهِمَا التَّوْحِيدَ قَبْلَ أَنْ يُجِيبَهُمَا عَنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَيْهِمَا، وَقَالَ: ﴿أَمَّا
أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا﴾، فَالَّذِي رَأَى نَفْسَهُ يَعْصُرُ خَمْرًا هُوَ الَّذِي يَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا،
وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ [يوسف: ٤١]،

وهو الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِهِ خَبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ؛ لِأَنَّ الْخَبْزَ عَلَى الرَّأْسِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَأْكُلَ الطَّيْرُ مِنْهُ، إِلَّا إِذَا كَانَ صَاحِبُهُ لَا يَسْتَطِيعُ الدِّفَاعَ عَنْهُ، أَرَأَيْتَ لَوْ وَضَعْتَ إِنَاءً فِيهِ الْخَبْزُ فَوْقَ الرَّأْسِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَأْتِيَ الطَّيُورُ تَأْكُلُ مِنْهُ وَأَنْتَ مُتَحَرِّكٌ، لَكِنْ هُوَ اسْتَدَلَّ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُصَلَّبَ، ثُمَّ تَأْكُلَ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ. ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

أَتَيْتُ بِهِذِهِ الْقِصَّةَ؛ لِأَبَيِّنَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمَفْتِي إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ، وَرَأَى أَنَّ الْمُسْتَفْتِيَ أَخْطَأَ فِيهَا هُوَ أَهَمُّ، أَنْ يَنْصَحَهُ، فَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ، اسْتَفْتَى مُسْتَفْتٍ، وَقَالَ: إِنَّهُ طَافَ بِالْبَيْتِ، وَلَمْ يُصَلِّ خَلْفَ الْمَقَامِ، وَرَأَيْنَاهُ قَدْ حَلَقَ لِحْيَتَهُ - وَحَلَقَ اللَّحْيَةَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَتْرَكَ رَكَعَتَيْنِ خَلْفَ الْمَقَامِ - فَهَذَا نَأْتِي بِالْوَقْتِ، وَنَقُولُ لَهُ: نَرِيدُ أَنْ نَفْتِكَ، وَلَكِنْ قَبْلَ الْفَتْوَى سَنَنْصَحُكَ بِأَمْرٍ أَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ إِعْفَاءُ اللَّحْيَةِ، أَنْ تُعْفِيَ لِحْيَتَكَ؛ لِأَنَّ حَلَقَ اللَّحْيَةِ مَعْصِيَةٌ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيْثُ قَالَ: «أَعْفُوا اللَّحْيَ وَحُفُّوا الشَّوَارِبَ»^(١). فَحَلَقَ اللَّحْيَةَ مُوَافَقَةً لِهَذِي الْمَجُوسِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَ«مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(٢). فَحَلَقَ اللَّحْيَةَ مُجَانِبَةً لِهَذِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَمَنْ شَدَّ عَنْ طَرِيقِهِمْ، فَهُوَ عَلَى خَطَرٍ.

الدَّلِيلُ الثَّانِي عَلَى ضَرُورَةِ إِعْفَاءِ اللَّحْيَةِ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - كَانَ عَظِيمَ اللَّحْيَةِ، وَكَانَ كَثَّ اللَّحْيَةِ، يَعْنِي: غَلِيظَةً كَثِيرَةَ الشَّعْرِ، وَالْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ، حِينَمَا رَجَعَ مُوسَى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ، وَوَجَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب تقليم الأظافر، رقم (٥٨٩٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في لباس الشهرة، رقم (٤٠٣١).

قد عبدوا العجل، ماذا صنع بأخيه هارون؟ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠] أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ، ممسكاً لحيته، فقال له: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾، وبيّن له العذر، قال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

فهذا الذي سَأَلَكَ يَقُولُ: إِنَّهُ طَافَ بِالْبَيْتِ، ولكنه لم يُصَلِّ ركعتين خلف المقام، وهو حالقٌ لحيته، نَقُولُ: قبل أن تُفتّيه ينبغي أن تَنْصَحَهُ بإِعْفَاءِ اللحية أولاً، ولكن لا تَنْصَحَهُ بالعنف والغِلظة، والتَّخجيلِ أمامَ النَّاسِ، بل بِالْحُسْنَى تَكُونُ النصيحة، وتكونُ فيما بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؛ لَأَنَّ هَذِهِ هِيَ النصيحة، وهو أسرع وأدعى لِأَنْ يَقْبَلَ.

لكن لا تَفْضَحْهُ، أو تَقُلْ له: يا مَنْ وَافَقَ المجوسَ في هَدْيِهِمْ، وخَالَفَ الرُّسُلَ في هَدْيِهِمْ، يا مَنْ عَصَى رَسُولَ اللَّهِ، ومن عَصَى رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ.

ولقد حدثني مَنْ أَثِقُ بِهِ أَنْ واعظاً قامَ يَعِظُ فِي بَعْضِ المساجِدِ، ويتكلمُ عَلَى حَلْقِ اللحية، وَيَقُولُ: مَنْ حَلَقَ لِحْيَتَهُ فَقَدْ كَفَرَ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١). وَقَالَ: إِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ تَبَرَّأَ مِنْهُ، فلا تَبَرُّوْا إِلَّا مِنْ مُشْرِكٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤]، فهذا جهلٌ عَظِيمٌ، يريدُ أَنْ يُكْفِّرَ نِصْفَ المسجدِ لجهله، قد تَكُونُ نِيَّتُهُ حَسَنَةً لَكِنَّهُ جَاهِلٌ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصيام، رقم (١٤٠١).

وَنَحْنُ قَدْ جَرَّبْنَا وَسَمِعْنَا مَنْ جَرَّبَ أَنَّ النَّصِيحَةَ بِاللِّطْفِ وَالْإِقْنَاعِ، أَنْفَعُ
بكَثِيرٍ مِنَ الْعُنْفِ، وَهَذَا مِصْدَاقُ قَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ
الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»^(١).
فَعَلَيْكُمْ بِالرَّفْقِ فِي الْأُمُورِ، فَإِنَّ الرَّفْقَ كُلَّهُ خَيْرٌ.

قَوْلُهُ: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥] نعم فِيهِ قَسَمٌ، لَكِنْ يَحْتَاجُ إِلَى
تَأْمَلٍ وَتَدْبِيرٍ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهَا، وَأَنَا أَدْعُو الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا إِلَى تَدْبِيرِ
كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ تَدْبِيرُوا الْقُرْآنَ، تَفَهَّمُوا مَعْنَاهُ؛ حَتَّى تَتَلَذَّذُوا بِقِرَاءَتِهِ، وَتَتَنَفَّعُوا بِذَاخِرِ
عِلْمِهِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ تَبَيَّنَ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَقُرَّاءَتُهُ خَيْرٌ، وَفِي كُلِّ حَرْفٍ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ
بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَكِنْ تَضِيعُ مِنْهُ الْفَائِدَةُ الْكُبْرَى إِذَا لَمْ يَتَدَبَّرْهُ الْإِنْسَانُ، فَتَدْبُرُوا الْقُرْآنَ،
فَمَا بَانَ لَكُمْ مِنْ مَعْنَاهُ فَذَلِكَ، وَمَا لَمْ يَبَيِّنْ لَكُمْ مِنْ مَعْنَاهُ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الْعِلْمِ الْمَوْثُوقَ
بِهِمْ فِي عِلْمِهِمْ، وَدِينِهِمْ، وَأَمَانَتِهِمْ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَتْلُونَ كِتَابَكَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ لَفْظًا وَمَعْنَى وَعَمَلًا، وَنَسْأَلُكَ أَنْ
تَجْعَلَ كِتَابَكَ قَائِدًا لَنَا إِلَى الْجَنَّةِ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،
وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣).

الدرس الثاني:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

بَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا ابْتُلِيَ بِالنَّعْمَةِ قَالَ: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾، وَإِذَا ابْتُلِيَ بِتَضْيِيقِ الرِّزْقِ قَالَ: ﴿رَبِّي أَهْنَنِ﴾، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ يَعْنِي: لَيْسَ الْمَعْنَى كَذَلِكَ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ وَنَعَّمَهُ؛ يَكُونُ إِكْرَامُهُ إِيَّاهُ إِكْرَامًا لَهُ، قَدْ يَكْرِمُ اللَّهُ الْكَافِرَ بِالنَّعْمَةِ، وَلَكِنْ يَمْهَلُهُ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ.

أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩]، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨]، فَلَمْ يَنْفَعَهُمْ هَذَا الْإِكْرَامُ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِهِ.

ونحن - والله الحمد - في هذه البلاد قد من الله علينا بنعم لا تُوجد في غيرها: أمن، رخاء، سعة رزق، فهذه النعم إذا لم تُشكر صارت نقماً، وأعقبتها النقم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٦-٩٩].

ولهذا قال العلماء: إذا رأيت الرجل يعصي الله ونعم الله تعالى عليه وافرّة، فاعلم أن هذا استدراج من الله. والاستدراج مأله الحية، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] ^(١).

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الفجر: ١٦] أي: ضيق عليه الرزق، ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ ففقط من رحمة الله، واستحسر، وخاب ظنه بربه، والأمر ليس كذلك، بل قد يبتلي الله سبحانه وتعالى الإنسان بالفقر لمصلحة الإنسان؛ حتى لا يطغى بالرزق والنعمة، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ: إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَّوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى» ^(٢). فلا تظن إذا ضيق الله عليك الرزق أن الله مُهينك، بل هذا قد يكون من مصلحتك، ومن تربيّتك، كما نحجب المريض مثلاً عن شهية الطعام.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، رقم (٤٤٠٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (٢٢ / ٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٨ / ٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٩٥ / ٧).

فمثلاً يُقَدِّمُ إلى ابنك المريضِ طعاماً شهياً يشتهيهِ، وقد مُنِعَ عنه بسببِ الحمى
 مثلاً، فمن مصلحته أن نمنعه من هذا الطعامِ الشهيِّ؛ حتى تستقيمَ صحتهُ، كذلك
 يبتلي الله سبحانه وتعالى بعضَ الناسِ بضيقِ الرِّزْقِ؛ امتحاناً، لعلَّهُ يرجعُ إلى رَبِّهِ،
 ولا يطغى بنعمِ الله عزَّ وجلَّ.



سورة البلد

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

مقدمة في تدبر القرآن الكريم:

إن هذا القرآن الكريم نزل من عند ملك الملوك عزَّ وجلَّ، وعلى هذا فيجب علينا أن نُعَظِّمَ هذا القرآن حقَّ تعظيمه، وأن نتقرب إلى الله تعالى بتلاوته. ولا يكفي في تعظيم القرآن والعمل بالقرآن أن نقرأه لفظاً، بل لا بدَّ أن نعرف معناه؛ إذ إن مَنْ قرأ القرآن ولم يعرف معناه فهو وَمَنْ لم يقرأ على حدٍّ سواءٍ. أقول ذلك لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيً﴾ [البقرة: ٧٨] أي إلا قراءة، والأميُّ هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، فوصف الله هؤلاء الذين لا يعرفون القرآن إلا قراءة بأنهم أميُّون، وهذا يدلُّ على أنه لا بدَّ أن نتعلم معنى القرآن.

وأيضاً لا يمكن -يا أخي- أن تعمل بشيء وأنت لا تعرف معناه؛ فمثلاً: ﴿أَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: ٧٢] هذا كلام الله عزَّ وجلَّ، فلا يمكن أن تعرف كيف تُصَلِّي حتى تعرف معنى ﴿أَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾، فلا بدَّ إذن من معرفة معاني كلام الله عزَّ وجلَّ وإلا لكنت والذي لا يقرأ على حدٍّ سواء.

والدليل على هذا -يا إخواني- أن مَنْ لا يَعْرِفُ المعنى كالذي لا يقرأ -قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨] أي: إلا قراءة، فوصفهم بالأميين.

وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ والمراد بهذا الكتاب القرآن ﴿لِيَذَّبَرُوا عَابَتِهِ﴾ يعني: يتفهموها ويتعلموها، الأمر الثاني: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] يتذكر يعني يتعظ، فإذا عِلِمَ معاني هذا القرآن اتَّعَظَ به، وعَمِلَ به.

إذن، يَجِبُ عَلَيْنَا أولاً: حفظ القرآن، ثانياً: العلم بمعناه، ثالثاً: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

فلا بدَّ من هذا، فلم ينزل القرآن لمجرد أن تتلوهُ، وتلاوة القرآن لا شك أنها قرابة إلى الله عزَّ وجلَّ، وَمَنْ قرأ القرآن فله بكلِّ حرفٍ حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، ولكن الفائدة من القرآن إنما تكون في تدبر آياته.

ولقد كان هدي السلف الصالح على هذا المسير وهذا الطريق، قال أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله: «حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقَرِّئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما، أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ^(١).

يعني يتعلمونها لفظاً ويقرؤونها ويحيدونها وما فيها من العلم ويعرفون معناها، ويعملون بها. وكان الواحد منهم يبقى في قراءة البقرة إلى ثلاث سنوات أو خمس سنوات؛ لأنه لا يتجاوز عشر آيات حتى يعرف المعنى والعمل ويقوم بها، وكان الرجل إذا قرأ سورة البقرة وآل عمران جدّ فيهما، أي صار جاداً.

بناءً على هذه المقدمة -يا إخواني- أحبّ -ولا سيّما من طلبة العلم- أن يحرصوا على فهم معنى القرآن الكريم، وذلك بمراجعة كتب التفسير الموثوق بمؤلفيها، أو بمراجعة العلماء، أما أن يقرأ وهو لا يدري المعنى فإنه يصير هو والجاهل سواءً.

وبناءً على هذا سنتناول آيات من سورة البلد:

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝﴾ [البلد: ١-٢].

قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، هل (لا أقسم) هنا إثبات أو نفي؟ أي هل المعنى: لست بمقسم، أو المعنى أقسم؟

نقول: معنى النفي لا يستقيم، إذن ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ معناه: أقسم بهذا البلد، و(لا) هنا قال علماء اللغة العربية: إنها للتوكيد والتنبيه، حتى يتنبه الإنسان أكثر، فهي إذن للتوكيد والتنبيه.

قوله: ﴿أُقْسِمُ﴾ أي: أحلف، والقسم: الحلف واليمين.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠، رقم ٢٣٥٢٩).

فلا يوجد في الدنيا مثل هذا الأمن في هذا البلد، ولهذا قال الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين: ١-٣]، فجعل الله البلد نفسه آميناً؛ لأن كل من حل في هذا المسجد فهو آمن، فالأدمن آمن، والصيد،

والشجر، والحشيش، كل ذلك آمنٌ.

ولهذا كان جديرًا بأن يُقسمَ الله عزَّ وجلَّ به.

ثم قال: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ هذا زيادةُ شرفٍ أن حَلَ في هذا البلدِ محمدٌ رسولُ الله ﷺ، ولهذا قال: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، وهذا زيادةُ شرفٍ للبلدِ الحرامِ؛ أن حَلَ فيه سيدُ الأنام، صلواتُ الله وسلامُه عليه.

ولماذا هاجر الرسولُ عنه وهو أشرفُ بلادِ الله، وهو مكانُ بعثته وولادته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

قال النبي ﷺ في مكة: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»^(١).

إذن، لم يخرج اختيارًا، ولكن اضطرارًا بإذنِ الله عزَّ وجلَّ، خرجَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من مكة التي هي أحبُّ البلادِ إلى الله وأحبُّ البلادِ إلى الرسولِ ليقيمَ دينَ الله؛ حتى يرجعَ فاتحًا منصورًا، سبحانه الله! خَرَجَ منها طريدًا خائفًا على نفسه، واختفى في غارِ جبلٍ يقالُ له: ثورٌ؛ لأن قريشًا كانت تطلبه، تريدُ أن تقتله، ولكنه اختفى في هذا الغارِ لمدةِ ثلاثِ ليالٍ، وكانَ صاحبه في هذا الغارِ أبو بكرٍ الصديقُ، الذي قالَ الله عنه: ﴿إِلَّا نَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] الله أكبر! إيمانٌ قويٌّ، أبو بكرٍ يقولُ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا»؛ لأن قريشًا تطلبه في كلِّ الأرضِ، فوقفوا على الغارِ الذي بهِ الرسولُ

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٥، رقم ١٨٧٣٧).

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأبو بكر، يقول: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا» فيجيبه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا»^(١). فلا يقدر أحد أن ينالهم بسوء.

وهذه القصة تذكرنا بشبيهة لها، إن الله أرسل موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى فرعون، وإن فرعونَ بجنوده وجيوشه وقوته وسلطته أراد أن يقضي على موسى وصحبه، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴿وَصَحْبِهِ﴾ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦].

لما عَلِمَ موسى وقومه بهذا خرجوا بإذن الله متجهين إلى ناحية الشرق؛ إلى الأرض المقدسة فلسطين -أنقذها الله من اليهود- ووصلوا إلى البحر الأحمر، الذي كان يُعرف قديماً ببحر القلزم، وقالوا لموسى: إنا لمدركون؛ ففرعون وجنوده خلفنا، والبحر أمامنا، فأين نذهب؟ إن خضنا البحر غرقنا، وإن لحقنا فرعونَ بجنوده أدركنا وأهلكنا، فقال موسى ﷺ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فانظر إلى المعية هنا جاءت مثلما جاءت في ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ الله أكبر! هكذا اليقين، وهكذا الثقة، فإذا حلت الكوارث وضائق الأمور فارجع إلى علام الغيوب، فهو ملجؤك يا أخي. أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن ملجؤه ربه.

وانظر إلى القدرة الإلهية والآية النبوية؛ أوحى الله إلى موسى أن اضرب

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم (٣٦٥٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨١).

بعصاك البحر - والعصا من شجرٍ عاديٍّ - فضربه مرةً واحدةً، ضَرَبَ هذا البحر المتلاطم الأمواج فانفلق، لا إله إلا الله! انفلق فكان كلُّ فرقٍ كالطود العظيم، والطود: الجبل العظيم، ضَرَبَهُ فصَارَ جبلاً، صارَ اثني عشرَ طريقاً؛ لأنَّ أسباطَ إسرائيلَ كانوا اثني عشرَ، فانفلق - سبحانه الله - البحرُ وصارَ الماءُ كالجبالِ، معَ أن الماءَ جوهرٌ سيالٌ وليسَ بجامدٍ، لكنْ وقفَ بإذنِ الله، وأما الطينُ الذي كان حاملاً لهذا الماءِ في قاعِ البحرِ فقد قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُم مَّطَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧]، يَبَسَ هذا الطينُ في الحالِ، اللهُ أكبرُ! إن اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

فدخلَ موسى ونفذوا، ثم دخلَ فرعونُ بجنوده فأمرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ البحرَ أن يعودَ إلى حالِهِ، فانطبقَ على فرعونَ وقومه، فقالَ فرعونُ حينَ أدركهُ الغرقُ، فرعونُ الذي استدلَّ بني إسرائيلَ جعلَ نفسَهُ تابِعاً لَهُمْ فقالَ: ﴿ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولم يقل: إلا اللهُ، قالَ: ﴿إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ احتقاراً لنفسِهِ وإذلالاً لَهَا أن كان اليومَ تابعاً لبني إسرائيلَ، بينما كان سابقاً منَ المسرفينَ المفسدينَ المُقتَلينَ المذبِّحينَ.

فَقِيلَ لَهُ: ﴿ءَاتَنَ﴾ يعني الآنَ تؤمنُ وقد كنتَ كافراً ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٩١ ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩١-٩٢]. والقائلُ ﴿نُنَجِّكَ﴾ هو اللهُ، قالَ: ﴿نُنَجِّكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ لأنَ بني إسرائيلَ - يا إخواني - قد رعبَهُم فرعونُ، وإذا انطبقَ البحرُ على فرعونَ وقومِهِ فقد يقولونَ: ربما نجاَ هذا الرجلُ ولم يغرق، فاللهُ نجاهُ بيدِنِهِ، لا بروحِهِ، فروحُهُ إلى الحرقِ وإلى النارِ، لكنْ بدُّهُ نجا؛ حتى يستيقنَ بنو إسرائيلَ

أنه قد هلك. فهذه آيات عظيمة.

القَسَمُ بغير الله:

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ فَأَقْسَمُ بِالْبَلَدِ - وهو مكة - فما حكمُ القسمِ

بالمخلوقات؟

نقول: القسمُ بالمخلوقات حرامٌ، فلا يجوزُ أن تقول: أَقْسِمُ بِحَيَاتِكَ، أَقْسِمُ بِحَيَاةِ النَّبِيِّ، أَقْسِمُ بِجَبْرِيلَ، أَقْسِمُ بِمِيكَائِيلَ، فالقسمُ بغيرِ الله حرامٌ؛ لقولِ النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَضْمُتْ»^(١). فإما أن يحلفَ بالله وإلا يترك الحلفَ.

فإذا قال قائلٌ: فكيف أقسم الله تعالى بمكة، والقسمُ حرامٌ؟

فالجوابُ: إن الحاكمَ هو الله، فهو الذي يحكمُ، فاللهُ يحكمُ ولا يُحكمُ عليه، هو يحكمُ على العبادِ، ويحكمُ بينَ العبادِ، ولكن العبادُ لا يحكمونَ عليه.

إذن، له أن يُقسمَ بما شاء، ولهذا يُقسمُ بالبلدِ مكة، ويقسمُ بالشمسِ، ويقسمُ بالليلِ، ويقسمُ بما شاء، وأقسمَ بالرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ قَالَ: ﴿لَعَنُوكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

فالإقسامُ يكونُ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بما شاء، وليسَ لنا أن نحكمَ على الله؛ لأن الحاكمَ هو الله؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، فلا يستطيعُ أحدٌ مِنَ النَّاسِ أن يحكمَ بينَ العبادِ، أو أن يحكمَ العبادُ إلا بحكمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَمَنْ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ فَقَدْ حَادَ عَنِ الطَّرِيقِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

إِذِنْ، الْحَلْفُ بِغَيْرِ اللَّهِ حَرَامٌ، أَمَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَلَهُ أَنْ يَحْلِفَ بِهَا شَاءَ.

الطلاقُ المعلقُ:

وهنا مسألةٌ فقهيةٌ: رجلٌ قالَ لزوجته: إِنْ كَلِمَتِ فَلَانًا فَأَنْتِ طَالِقٌ، فكَلِمَتُهُ، فَهَلْ تُطَلَّقُ أَوْ لَا تُطَلَّقُ؟

الجوابُ: تُطَلَّقُ، وهذا مذهبُ الأئمةِ الأربعة: مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، يقولون: إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لزوجته: إِنْ كَلِمَتِ فَلَانًا فَأَنْتِ طَالِقٌ. فكَلِمَتُهُ طُلِّقَتْ، وَإِنْ قَالَ لَهَا: إِنْ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِي فَأَنْتِ طَالِقٌ. فخرَجْتَ، فَإِنِهَا تُطَلَّقُ، فَهُوَ قَالَ هَكَذَا، وَالتَزَمَ إِنْ خَرَجْتَ فَأَنْتِ طَالِقٌ، فَإِنْ خَرَجْتَ فَإِنِهَا تُطَلَّقُ.

وَلَكِنْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَالَ: إِنِهَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»^(١). فَسَأَلَ الرَّجُلَ الَّذِي قَالَ لزوجته: إِنْ كَلِمَتِ فَلَانًا فَأَنْتِ طَالِقٌ، أَوْ إِنْ خَرَجْتَ فَأَنْتِ طَالِقٌ. نَسَأَلُهُ: مَاذَا أَرَادَ، فَهَلْ تَرِيدُ أَنْ الزَّوْجَةَ بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمَ فَلَانًا لَا رَغْبَةَ لَكَ فِيهَا، أَوْ تَرِيدُ أَنْ تَمْنَعَهَا مِنْ كَلَامِ فَلَانٍ، فَهُوَ رَبِّهَا يَرِيدُ أَنْ يَمْنَعَهَا مِنْ كَلَامِ فَلَانٍ، لَا أَنْ يُطَلِّقَهَا؛ لِأَنَّهُ يُحِبُّهَا، لَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُهَيِّبَهَا، وَأَنْ يُوَكِّدَ عَلَيْهَا أَلَّا تَكَلِّمَهُ، فِيرَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِطَلَاقٍ، وَأَنَّهُ يَمِينٌ.

وَمَنْ نَصَرَ هَذَا الْقَوْلَ نَصْرًا كَبِيرًا شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٢)، قَالَ: إِنْ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وَهَذَا لَمْ يَنْوَ فِرَاقَ زَوْجَتِهِ، وَزَوْجَتُهُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: بَدَأَ الْوَحْيَ، بَابُ كَيْفَ كَانَ بَدَأَ الْوَحْيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَقْمُ (١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، رَقْمُ (١٩٠٧).

(٢) مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى (٢٢٥/٣٣).

أغلى عنده من ماء عيونه، ولا يريد طلاقها أبداً، لكن لما كان الطلاق مكروهاً إليها علّق طلاقها على هذا الفعل لتكرهه كما تكره الطلاق.

ومع الأسف فإن كثيراً من الناس اليوم تساهلوا في هذه المسألة، وصار يقول لزوجته: إن فعلت كذا - لأدنى سبب - فأنت طالق، ثم يذهب إلى العالم الفلاني أو العالم الفلاني ويقول له: ما تقول؟ قال: أقول: هذا يمين، وعليك كفارة يمين، ولا تترك الزوجة.

ولكن مذهب الأئمة الأربعة أنهم يقولون: تطلق، سواء نوى اليمين أو نوى الطلاق، ولذلك أحرص إخواني المسلمين من أن يتجرؤوا على هذا، فليتقوا الله في أنفسهم وأهليهم.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



الدرس الثاني:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ﴾ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿[البلد: ١-٢]﴾ إِلَى الْآخِرِ.

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ الْقَسَمُ تَأْكِيدُ الشَّيْءِ بِذِكْرِ عَظِيمٍ كَأَنَّ الْمُقْسِمَ يَقُولُ: لِعَظَمَةِ هَذَا الشَّيْءِ أُؤَكِّدُ هَذَا الْخَبَرَ. فَإِذَا قُلْتُ لَكُمْ: طَلَعَ الْفَجْرُ. فَهَذَا خَبَرٌ غَيْرُ مُؤَكَّدٍ، فَإِذَا قُلْتُ: وَاللَّهِ لَقَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ، أَصْبَحَ خَبَرًا مُؤَكَّدًا بِالْيَمِينِ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ: الْقَسَمُ يُوَكِّدُ الشَّيْءَ، وَلَكِنْ لَا يُوَكِّدُ إِلَّا بِعَظِيمٍ، كَأَنَّ الْحَالِفَ يَقُولُ: بِقَدْرِ عَظَمَةِ هَذَا الشَّيْءِ الَّذِي حَلَفْتُ بِهِ أُؤَكِّدُ لَكَ الْخَبَرَ.

فلنرجع إلى الآية: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (لا) نافية، والواقع أنه إثبات، وأن ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ بمعنى: أُقْسِمُ، وجاءت (لا) للتوكيد والتَّيْبِيهِ، لأنَّ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمَقْرَّرَةِ فِي الْبَلَاغَةِ وَالنَّحْوِ أَنَّ الْحُرُوفَ الزَّائِدَةَ تُفِيدُ التَّوَكِيدَ وَالتَّيْبِيَةَ، فَهَذَا (لَا) مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى زَائِدَةٌ، لَكِنْ الْغَرَضُ مِنْهَا التَّوَكِيدُ وَالتَّيْبِيَةُ، كَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: انْتَبَهُوا واسمعوا الْقَسَمَ.

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ويعني بهذا البلد مكة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ ۚ﴾ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿[التين: ١-٣]﴾، فَهَذَا الْبَلَدُ أَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَشْرَفُ الْبِقَاعِ، لَا يَوْجَدُ بُقْعَةٌ فِي الْأَرْضِ أَشْرَفُ مِنْ هَذَا الْمَسْجِدِ، حَتَّى

ما زيد في المسجد فله حكمه، كان هذا المسجد في عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أصغر بكثير مما هو عليه الآن، لكن قال أهل العلم: ما زيد في المسجد فهو منه. ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ أي ساكن ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢] لأنه يجتمع شرف النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهو أشرف بني البشر، قال عليه الصلاة والسلام: «أنا سيد ولد آدم»^(١). وشرف المكان، أي أقسم بهذا البلد وأنت يا محمد ساكن في هذا البلد، حال في هذا البلد.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ٣] الواو الأولى هي حرف عطف، ولا يصح أن تكون للقسم لأن الباء في قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ لا تدخل على الواو، والواو أيضًا لا تذكر مع وجود فعل القسم، إذن الواو في قوله: ﴿وَوَالِدٍ﴾ حرف عطف، يعني ولا أقسم بوالد وما ولد، يعني البشر، كلهم والد ومولد، وغير البشر من الحيوان أيضًا والد ومولد.

إذن، هذا الخلق العظيم المتوالد دليل على قدرة الخالق عز وجل، وعظم المخلوق دليل على عظمة الخالق، فأنت لو رأيت بابًا مصنوعًا على شكل جميل عرفت أن الصانع لهذا الباب حاذق، فعظمة المخلوق دليل على عظمة الخالق.

إذن، أقسم الله بالوالد وما ولد لأن هذا التوالد بين المخلوقات الحيوانية لا شك أنه دليل على عظمة الخالق، ولو ذهبت إلى علماء الطب، لوجدت في بدنك العجب العجيب، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، يعني في أنفسكم آيات أفلا تبصرون.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).

البَشَرُ أربعةُ أقسامٍ: موجودٌ بلا أُمٍّ ولا أبٍ، وموجودٌ بأُمٍّ بلا أبٍ، وموجودٌ بأبٍ بلا أُمٍّ، وموجودٌ بين أبٍ وأُمٍّ، وهذا غالبُ البشرِ.
فالموجودُ بلا أبٍ ولا أُمٍّ هو آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَهُ اللهُ مِنْ تُرَابٍ، ثم قال له: كُنْ. فكانَ.

والموجودُ من أبٍ بلا أُمٍّ حَوَاءُ، خُلِقَتْ مِنْ أبٍ، وَهُوَ آدمُ، وبلا أُمٍّ.
والموجودُ من أُمٍّ بلا أبٍ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، آخِرُ أنبياءِ بني إسرائيلَ، الذي رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ حَيًّا وسينزلُ آخِرَ الزمانِ، سينزلُ حاكمًا بشريعةِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يعني لن يأتيَ بشريعةٍ جديدةٍ؛ لأن آخِرَ الشرائعِ شريعةُ محمدٍ ﷺ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يجعلني وإياكم مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهَا.

والمخلوقُ بينَ أبٍ وأُمٍّ سائرُ الناسِ، فسائرُ الناسِ مخلوقونَ مِنْ أُمٍّ وأبٍ، فسبحانَ الذي خَلَقَ فسوًى، فهذا التقسيمُ إلى أربعةِ أقسامٍ، ويوجدُ تقسيمٌ آخَرُ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤٩] إِي وَاللهِ، وَاللهِ لَا مَالِكَ سِوَى اللهِ، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا﴾ [الشورى: ٤٩] هذا واحدٌ ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] اثنانِ ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ [الشورى: ٥٠] يعني يُصَنِّفُهُمْ ﴿ذَكَرًا وَإِنثًا﴾ [الشورى: ٥٠] هذه ثلاثة، والرابعُ ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠].

فالناسُ الآنَ أربعةُ أقسامٍ، مِنَ النَّاسِ مَنْ يُولَدُ لَهُ ذُكُورٌ دُونَ إِنَاثٍ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُولَدُ لَهُ إِنَاثٌ دُونَ ذُكُورٍ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُولَدُ لَهُ مِنَ الصَّنَفَيْنِ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يُولَدُ لَهُ؛ لِأَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ

مُجِيرٌ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] القرآن أعلى أنواع الفصاحة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ هذه الآية جوابُ القسم، يعني هذا هو المُقَسَّمُ عليه، المُقَسَّمُ عليه بهذه المخلوقات العظيمة هو هذا، حال الإنسان، يا أَيُّهَا الإنسانُ اعْرِفْ قَدَرَ نَفْسِكَ، أَقْسَمَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بهذه الأمور العظيمة لِيُبَيِّنَ حَالَك: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ فالإنسانُ هو كُلُّ الناسِ، واخْتَلَفَ العلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ في معنى قوله: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ فقيل: إن معناه في أحسن شيء؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وأصلُ الكَبَدِ الشيءُ المرتفعُ، فقالوا: إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ كَرِيمًا مَرْفُوعًا إِلَّا مَنْ أَعْرَضَ وَتَوَلَّى. وقيل معنى ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي في مُكَابَدَةِ الأمور؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُكَابِدُ الْأُمُورَ؛ في أمور الدنيا وأُمُورِ الْآخِرَةِ وَأُمُورِ الْأَهْلِ وَأُمُورِ الْمَجْتَمَعِ، إِلَّا مَنْ مَاتَ قَلْبُهُ، فَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ فَهُوَ مَيِّتٌ، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ حَيُّ الْقَلْبِ لَا بُدَّ أَنْ يُكَابِدَ الْأُمُورَ، فَأَحْيَانًا يُصَابُ بِمَرَضٍ، وَأَحْيَانًا يُصَابُ بِفَقْرٍ، وَأَحْيَانًا يُصَابُ بِمَيِّتٍ عَزِيزٍ عَلَيْهِ، وَأَحْيَانًا يُصَابُ بِمَشَاكِلَ في مجتمعه، وَأَحْيَانًا يُصَابُ بِمَشَاكِلَ في مجتمع المسلمين عموماً، هذا والله هو الواقعُ، الْإِنْسَانُ في مُكَابَدَةِ الدُّنْيَا هذا هو الْأَصْلُ، ولهذا يقولُ الشاعِرُ الْجَاهِلِيُّ، وَهُوَ صَادِقٌ فِيمَا قَالَ^(١):

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

فهذا هو الواقعُ، قَسْ هذا في نَفْسِكَ، فَتَجِدُ نَفْسَكَ يَوْمًا مَسْرُورًا مُسْتَأْنَسًا، وفي يومٍ آخَرَ بِالْعَكْسِ، وفي هَذَا يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ

(١) البيت للنمر بن توبل، كما في كتاب سيبويه (١/ ٨٦).

الْقَوْمَ قَرَحَ مِثْلَهُ، وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿ [آل عمران: ١٤٠] يَشِيرُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَأُحُدُ الْجَبَلُ الْمَعْرُوفُ فِي الْمَدِينَةِ، هَذِهِ غَزْوَةٌ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ بِنَحْوِ أَلْفِ رَجُلٍ، لَكِنْ فِيهِمُ الْمُؤْمِنُونَ وَفِيهِمُ الْمُنَافِقُونَ، فَرَجَعَ الْمُنَافِقُونَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ نَحْوَ ثَلَاثِ الْجَيْشِ، وَبَقِيَ نَحْوُ سَبْعِ مِئَةِ نَفَرٍ، وَدَارَ الْقِتَالُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَفْضَلِ قَائِدٍ مِنَ الْبَشَرِ وَجُنُودِهِ أَفْضَلُ جُنُودٍ مِنَ الْبَشَرِ، الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مَعَهُمْ فِي جَنَاتِ النِّعَمِ، وَفِي أَوَّلِ الْأَمْرِ كَانَتِ الْغَلْبَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَجَعَلُوا يَجْمَعُونَ الْغَنَائِمَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَمَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ عَلَى الرُّمَاءِ، وَهُمْ مَنْ يُجِيدُونَ الرَّمِيَّ، وَكَانُوا نَحْوَ خَمْسِينَ رَجُلًا وَقَالَ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَانَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ فَهَزَمُوهُمْ»^(١). فَلَمَّا رَأَوْا هَؤُلَاءِ الرُّمَاءُ أَنَّ الْغَنَائِمَ تُجْمَعُ غَلَبَهُمْ مَا فِي نَفْسِهِمْ مِنْ إِرَادَةِ الدُّنْيَا، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ: الْغَنِيمَةُ الْغَنِيمَةُ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنْسَيْتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالُوا: وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ. فَزَلُّوا وَكَانَ فِي قَرِيشٍ فُرْسَانٌ أَقْوِيَاءُ مِنْهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَيْفُ اللَّهِ، فَلَمَّا رَأَوْا الثَّغْرَةَ خَالِيَةً دَخَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْخَلْفِ، وَحَصَلَ مَا حَصَلَ حَتَّى عَلَى نَبِينَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فِدَاؤُهُ أَبِي وَأُمِّي وَنَفْسِي، شُجَّ وَجْهُهُ، وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، وَكَانَ يَوْمًا شَدِيدًا، وَشَاعَ فِي النَّاسِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، رقم (٣٠٣٩).

أَنَّ مُحَمَّدًا قُتِلَ، ومعلوم أنه إذا قُتِلَ القائدُ انهزمَ الجيشُ، ولكنه من الشيطان، فصعدَ النبي ﷺ على أحدٍ، هو وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ، أربعة، فجعلَ الجبلُ يرتجفُ، الله أكبرُ! سُبْحَانَ اللَّهِ! جَبَلٌ عَظِيمٌ أَصَمُّ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ صَارَ يَرْتَجِفُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اثْبُتْ أَحَدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ»^(١)، فسكنَ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ يُخَاطَبُ النَّبِيُّ ﷺ الْجَمَادُ؟

فالجوابُ: أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِغَرِيبٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَخْطُبُ الْجُمُعَةَ عَلَى جَذَعِ نَخْلَةٍ فِي مَسْجِدِهِ، وَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمَنْبَرُ صَارَ يَخْطُبُ عَلَى الْمَنْبَرِ وَتَرَكَ الْجَذَعَ، يَقُولُ الصَّحَابَةُ: فَصَارَ لِهَذَا الْجَذَعِ حَيْنٌ مِثْلَ حَيْنِ الْعِشَاءِ لِفَقْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَزَلَّ وَجَعَلَ يُسَكِّتُهُ كَمَا تُسَكِّتُ الْأُمُّ وَلَدَهَا فَسَكَتَ^(٢).

وهذا موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ -وَبَنُو إِسْرَائِيلَ تَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ عَتَاةٌ جُنَاةٌ- يَدْعُونَ أَنَّ مُوسَى فِيهِ أَلَمٌ، أَنَّهُ آدَرٌ -أَيُّ كَبِيرُ الْخِصْيَةِ- وَكَانُوا يُؤْذُونَهُ وَيُعِيرُونَهُ بِهَذَا، فَزَلَّ ذَاتَ يَوْمٍ يَغْتَسِلُ وَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ فَهَرَبَ الْحَجَرُ بِالثَّوبِ، فَجَعَلَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَرْكُضُ وَرَاءَهُ وَيَقُولُ: «ثَوْبِي حَجَرٌ ثَوْبِي حَجَرٌ»^(٣). لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي أَمْسَى هَذَا الْحَجَرُ حَتَّى كَانَ فِي وَسْطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرَأَى مُوسَى عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَبَرَّاهُ مِمَّا يَقُولُونَ لِإِرِيَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَعْيُنِهِمْ أَنَّهُمْ كَذَبُوا فِيهَا ادَّعَوْا عَلَى مُوسَى، ثُمَّ جَعَلَ مُوسَى يَضْرِبُ الْحَجَرَ، لِأَنَّهُ جَنَى جَنَايَةً

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رقم (٣٦٧٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٣٩٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ رقم

(٣٢٢٣)، ومسلم: كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانا في الخلوة، رقم (٣٣٩).

عظيمة، يأخذ ثوب الرجل ويفرّ به.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ ضَرَبَهُ مُوسَى وَهُوَ جَمَادٌ؟

قلنا: لأن هذا الحجر فعل فعل العاقل، حيث هرب بالثوب، فجعلت عقوبته عقوبة العاقل.

نرجع إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠] استشهد من الصحابة في تلك الغزوة سبعون نفرًا من سبع مئة، فالنسبة عشرة في المئة، وهذه مصيبة عظيمة، مع ما أصابهم من الهلع والحزن والغم، ولكن اسمع قول الله عزّ وجلّ مُسلّيًا الصحابة، قال: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤]، ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: الصحابة، ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: الكفار.

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾ وبعدها ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، فأنتم ترجون من الله ما لا يرجون، ترجون الجنة وهم لا يرجون ذلك لأنهم كفار، ولذلك لما قام أبو سفيان يوم أحد وجعل ينادي: أفيكم محمد؟ قال النبي ﷺ: «لَا تُجِيبُوهُ» إهانة له وإذلالًا، لأنه في ذلك الوقت كان سيّد قريش من المشركين، قال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ قال: «لَا تُجِيبُوهُ»، قال: أفيكم ابن الخطّاب؟ قال: أمّا هؤلاء فقد كفيتموهم فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه فقال: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، هَا هُوَ ذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَإِنَّا أَحْيَاءُ، وَلَكَ مِنَّا يَوْمٌ سَوْءٍ، فلما قال: يَوْمٌ بِيَوْمٍ بَذَرٍ، والحرب سجال. فيوم بذر قتل من المشركين سبعون رجلًا وأسر سبعون، فالقتلى سواء، ولكن زاد الأسر،

و(سجّال) يعني تكون مرة على هذا ومرة على هذا، قال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا سَوَاءٌ قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتَلَاكُمْ فِي النَّارِ.

فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ ثم ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

ثم قال أبو سفيان مفتخرًا بآلهته الباطلة: اعلُّ هُبْلُ. وهُبْلُ صنم كان يعبدُه المشركون، فمعنى: اعلُّ هُبْلُ، أي من العُلُوِّ والرَّفْعَةِ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «أَجِيبُوهُ»، في أول الأمر لما كان يتكلم عن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر قال: «لَا تُجِيبُوهُ»، ولكن هنا لما وصل الأمر إلى ذي الجلال والإكرام والعظمة والسلطان قال: «أَجِيبُوهُ». قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ»^(١). صدق رسول الله، الله أعلى من كل شيء، وأجل من كل شيء، ولو شاء الله لانتصر منهم، ولكن اسمع كلام الله في سورة القتال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] والنتيجة ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ [محمد: ٤-٦].

فهزم المسلمون وقائدُهم محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لحكمٍ عظيمة، ذكر ابن القيم رحمه الله في (زاد المعاد في هدي خير العباد)، وهو كتاب جليل فقهِي وتاريخي وأدبي أحت كل واحد منكم على اقتنائه، ذكر في قصة أحدِ مصالِحِ عظيمة وحكمًا عظيمة^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصي إمامه، رقم (٣٠٣٩).

(٢) زاد المعاد، لابن القيم (٣/ ٢١١) وما بعدها.

أقول: بَارَكَ اللهُ فيكم: سبب ما حصل في غزوة أُحُدٍ معصيةٌ واحدةٌ وهي المخالفة، قال: ابْقُوا في مكانكم. لكن ما بَقُوا، ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَسِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْبَبَكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فمعصيةٌ واحدةٌ هُزِمَ فيها أعظمُ جُنْدٍ بأعظمِ قائدٍ، فماذا تقولون في حالِ المسلمين اليوم؟! عندهم معاصٍ عظيمةٌ، فكيف تَرْجُو النصرَ وأسبابُ الهزيمة بين أيدينا؟ والله لن نَنْتَصِرَ إِلَّا إِذَا أَتَيْنَا بِالْشَرِطِ الَّذِي قَالَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١] فعاقِبَةُ الْأُمُورِ لَيْسَتْ بِيَدِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَلَا بِيَدِ الدَّوْلَةِ الْفُلَانِيَّةِ وَلَا الْفُلَانِيَّةِ، بَلْ بِيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولو شاءَ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْ أَعْدَائِنَا، وَلَكِنَّ الْبَلَاءَ فِينَا الْآنَ، إِنَّا مَتَفَرِّقُونَ لَسَنًا أُمَّةً وَاحِدَةً، بَلْ هِيَ أَحْزَابٌ، أَفْكَارٌ مُتَعَارِضَةٌ، وَعَقَائِدُ مُتَبَايِنَةٌ، فَأَيْنَ الْأُلْفَةُ؟

إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ صَاحِبَ مُنْكَرٍ وَنَصِيحَتَهُ رَبِّمَا يَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَعَادَاةٌ بِحُجَّةٍ أَنَّكَ مِنَ الْقَوْمِ الْفُلَانِي، فَمَا هَذَا؟ نَحْنُ أُمَرْنَا إِنْ تَنَازَعْنَا فِي شَيْءٍ أَنْ نَرْدُّهُ إِلَى اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَّنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ مُقْسِمًا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] هذه واحدة ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥] هذه الثانية، فَلَا تَضِيقُ نَفُوسُهُمْ بِمَا حَكَمْتَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، وَالثَّالِثَةُ: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] انْقِيَادًا تَامًا، وَلِهَذَا أَكَّدَ الْفِعْلَ بِالْمَصْدَرِ فَقَالَ: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

وإذا تأملنا حال الأمة الإسلامية اليوم وجدناها خالية من أكثر أسباب النصر، ولذلك فإن عدد المسلمين اليوم أكثر من مليار، فما ظنكم بهذا المليار؟! لو كان أفرأقا من الجراد وليس الآدميين وسلط على اليهود لأكلهم، ومع كثرة العدد عندنا موارد طبيعية عظيمة من جوف الأرض، ومن ظهر الأرض، ولكن مع الأسف الشديد لدينا إعراض كبير عن أسباب النصر.

ولذلك أدعوكم من هذا المسجد، وفي هذه الأيام المباركة أن تكونوا كما قال الله عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١] اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.

وما هذه الاجتماعات المشروعة إلا لتحقيق الوحدة، فالآن يجتمع المسلمون في هذه الأيام من بلاد كثيرة، وأقطار كثيرة، وجهات كثيرة؛ لأجل أن يعرف بعضهم بعضاً، وينصح بعضهم بعضاً، ويألف بعضهم بعضاً، فربما لا تدري عني شيئاً، ولا أدري عنك شيئاً، لكن إذا جمعنا هذا المجتمع العظيم عرف بعضنا بعضاً، وشكنا بعضنا إلى بعض ما يجد في نفسه من أمور دينية، أو دنيوية، أو اجتماعية، لكن الواقع تجد زحاماً في الطواف، وزحاماً في المسعى، وزحاماً عند الجمار، لا يرحم بعضنا بعضاً، ولا يهتم أحد، تجد الرجل أمامه امرأة عجوز تمشي بكل مشقة لكن يطحنها طحناً ولا يبالي، أو بنت صغيرة، أو طفل صغير، وقد قال النبي ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، اِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(١).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠، رقم ٦٤٩٤)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم (١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح.

هؤلاء الناس اجعلهم كأنهم أولادك، فارحمهم، والله لو رَحِمْتَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَرَحِمَكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ.

فالمسلمون اليوم لا يُحَقِّقُونَ ما أراد الله مِنْ هذه الاجتماعات، وفي البلد الواحد يوجد اجتماعٌ عامٌّ في كل جمعة، ويوجد اجتماعٌ خاصٌّ في كل صلاة، ولا نجدُ المسلمين إذا جاؤوا إلى صلاةِ الْجُمُعَةِ وانصرفوا منها لا نجدُ قلوبَ بعضهم مملوءةً بحبِّ الآخرين، ولكني أَسْأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَحَقِّقَ هذا.

حتى في الصلواتِ الْخَمْسِ، إذا جاء المسلمون إلى الصلواتِ الْخَمْسِ لا يتفقدُ بعضهم بَعْضًا، لا يسألون: لماذا تَغَيَّبَ فلانٌ؟ هل هو مريضٌ؟ أو عنده دَيْنٌ يُطَالَبُ به فَيَسْتَحِي أَنْ يُقَابِلَ الْغُرَمَاءَ؟ وما أشبه ذلك، مَعَ أَنَّ الشَّرْعَ إِنَّمَا شَرَعَ ذَلِكَ لِهَذَا الْحُكْمِ.

فالحاصلُ أَنَّ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْيَوْمَ تَحْتَاجُ إِلَى عِلْمَاءَ يَوْجِّهُونَهَا تَوْجِيهًا سَلِيمًا، وَإِلَى أُمَرَاءَ يُنْفِذُونَ مَا قَالَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يُعْلَمُ مَا قَالَ اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْعِلْمَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فَأُولُو الْأَمْرِ هُمُ الْعِلْمَاءُ وَالْأُمَرَاءُ، الْعِلْمَاءُ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ بَبَيَانِ الشَّرِيعَةِ، وَالْأُمَرَاءُ الَّذِينَ لَهُمُ الْحُكْمُ فَيُطَبِّقُونَ الشَّرِيعَةَ، فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ بِطَاعَةِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ.

وَالْعَجَبُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ: الْأُمَرَاءُ لَا طَاعَةَ لَهُمْ، أُولُو الْأَمْرِ هُمُ الْعِلْمَاءُ فَقَطْ. وَلَكِنْ هَذَا خَطَأٌ فِي الْفَهْمِ وَالتَّطْبِيقِ؛ لِأَنَّ لِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ: أُولُو الْأَمْرِ هُمُ الْأُمَرَاءُ دُونَ الْعِلْمَاءِ. وَنَحْنُ نَقُولُ: أُولُو الْأَمْرِ هُمُ الْعِلْمَاءُ وَالْأُمَرَاءُ، الْعِلْمَاءُ عَلَيْهِمُ

بيان الشريعة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] والأمراء عليهم تنفيذ الشريعة، وحينئذ لو أن كلاً منا قام بواجبه لحصل خير كثير.

الأمة الإسلامية في أول عمرها نشأت نشأة ضعيفة، ثم بما معها من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله والعمل بهما ملأت أو عمت مشارق الأرض ومغاربها، فوصلوا إلى الصين من الشرق، ووصلوا إلى أقصى الغرب، ولما دخلت الأهواء، وصار كثير من الناس يريد أن ينصر رأيه بالباطل أو بالحق تفرقت الأمة وفسدت، وصارت دويلات صغيرة متفرقة مهينة في أعين الأعداء، حتى سمعنا أن بعض الكفار من النصارى واليهود يقول: يجب أن يكون المسلمون والنصارى واليهود على حد سواء. ويسمونه وحدة الأديان، أو التقارب بينها، ف سبحان الله! لا يمكن هذا للمسلمين، صحيح أن المسلمين عليهم أن يوفوا بالعهد إذا عاهدوا، لا شك، وهذا من تمام الإسلام ومحاسنه، أما أن نجعل دين النصارى واليهود ديناً قيمياً مقبولاً عند الله، لا والله أبداً، والذي يساوي بين هذه الأديان الثلاثة على خطر عظيم، يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ لماذا؟ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] بعضهم أولياء بعض ضد المسلمين، لكن فيما بينهم هم متعادون، قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]، فهما عدوان، أما تجاه المسلمين فهم سواء، فكيف يمكن أن نقول: إن الدين واحد، وقد قال الله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؟! وكيف

يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: الْأَدْيَانُ وَاحِدَةٌ، وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]؟! فلا يمكنُ أَنْ يَقُولَ هَذَا مُسْلِمٌ.

إِنَّ عَلَى أَدْبَائِنَا، وَعَلَى عُلَمَائِنَا أَنْ يُبَيِّنُوا أَنَّ هَذَا الْفِكْرَ خَطَأٌ وَبَاطِلٌ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَدِينُ الْمُسْلِمِينَ غَيْرُ دِينِ الْيَهُودِ، وَغَيْرُ دِينِ النَّصَارَى، النَّصَارَى الْآنَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الْمَسِيحَ، وَلِهَذَا سَمَّوْا أَنْفُسَهُمْ بِالْمَسِيحِيِّينَ بَدَلًا عَنْ النَّصَارَى، نَقُولُ: لَوْ أَدْرَكَ الْمَسِيحُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِيَيْنَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: «لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^(١).

وَفِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ كَانَ إِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ الرَّسُولُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَعَ ذَلِكَ نَقُولُ: إِنَّ عَلَى النَّصَارَى أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَشَّرَ بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فَهَذَا الرَّسُولُ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، قَالَ النَّصَارَى: الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى اسْمُهُ أَحْمَدُ، وَهَذَا اسْمُهُ مُحَمَّدٌ، لَيْسَ هَذَا الرَّسُولُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى، وَالرَّسُولُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى سَيَأْتِي.

نَقُولُ: أَنْتُمْ إِذَا أَقْرَرْتُمْ بِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ حَقٌّ فَاقْرَءُوا الْآيَةَ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾

[الصف:٦] فهل جاءكم أحدٌ غيرُ محمدٍ؟ و(جاء) فِعْلٌ ماضٍ يَدُلُّ على وقوعِ المَجِيءِ، لكن من حكمةِ الله عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ أَنْطَقَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَقُولَ (أحمد) بدل (محمد)، لأن (أحمد) اسمُ تفضيلٍ يَدُلُّ على عَظَمَةِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأنه أَحْمَدُ الناسِ لله، وَأَحَقُّ الناسِ أَنْ يُحْمَدَ مِنَ البَشَرِ، هذا هُوَ الَّذِي جَعَلَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْطِقُ بكلمةِ (أحمد)، حتى يعرفَ بنو إسرائيلَ أن محمداً ﷺ أَهْلٌ أَنْ يُتَّبَعَ مِنْ أَجْلِ اسمِ التفضيلِ.

فعلى كُلِّ حَالٍ هَذِهِ فِكْرَةٌ حَدِثَتْ أَخيراً.



سورة الشمس

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبيينا محمد خاتم النبيين، وإمام
المتقين، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإننا نشكر الله سبحانه وتعالى أن يسر هذا اللقاء، الذي نرجو أن يكون مباركاً
في مسجد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولقد استمعنا إلى ما قرأه إمامنا في
هذه الليلة في صلاة المغرب في الركعة الأولى، وهو قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾
[الشمس: ١].

نتكلم بما يسر الله على هذه السورة: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ أقسم الله تبارك وتعالى
بالشمس؛ لأنها من آيات الله تعالى، كما سبق أن بيناه، أقسم بها مع أنها من
المخلوقات، والقسم بالمخلوقات علينا محرّم، فلا يجوز للإنسان أن يقسم بأي مخلوق،
حتى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يجوز أن يقسم به، فلا يجوز أن تقول:
ونبي الله، لقد كان كذا وكذا. هذا حرام، ومن الشرك.

ولا يجوز أيضاً أن تقسم بالكعبة بيت الله، فلا يجوز أن تقول: والكعبة، لقد
كان كذا وكذا.

ولا يجوز أن تقسم بالسما أو الأرض أو النجوم أو غيرها، ودليل هذا قول
النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيُحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيُصْمِتْ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم (٢٦٧٩).

وقال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ»^(١).

فلا يجوز أن يُقسم الإنسان ببلده، ولا يجوز أن يُقسم بعروبته، ولا يجوز أن يُقسم بأُمته، الحلف بغير الله شرك، لكن هل هو شرك أكبر مُخرج من الملة، أم هو شرك أصغر؟ نقول: الأرجح أنه شرك أصغر، إلا إذا اعتقد الحالف بغير الله أن لهذا المخلوف به من العظمة مثلما لله، فحينئذ يكون شركاً أكبر؛ لأنه أشرك مع الله تعالى فيما يختص به أحداً غيره.

فإذا قال قائل: فهمنا من هذا أن الحلف بغير الله شرك، إما أكبر وإما أصغر، فكيف أقسم الله بالشمس؟ نقول: إن الله عزَّ وجلَّ يحكم ولا يُحكم عليه، كما أنه يُجبر ولا يُجار عليه، فالحكم لله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ [الأنعام: ٦٢]، والآيات في هذا كثيرة، فإذا كان الربُّ عزَّ وجلَّ يحكم ولا يُحكم عليه، فله أن يحلف بما شاء من خلقه، وله أن يحلف بنفسه، فقد حلف الله بنفسه، وحلف بمخلوقاته، وله الحكم في ذلك كما يشاء.

إذن، لا منافاة بين النهي عن الحلف بغير الله وحلف الله عزَّ وجلَّ بمخلوقاته، ووجه الجمع بين كون الحلف بغير الله شركاً ومع ذلك يحلف الله تعالى بالمخلوقات هو أن الله يحكم ولا يُحكم عليه، فله أن يحلف بما شاء من خلقه.

حسنًا، لو سألتكم: ما حكم قتل الإنسان ابنه؟ لقلتم: لا يجوز؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

إِمْلَتِي ﴿ [الإسراء: ٣١]، وَقَتْلُ الابْنِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ كَانَ قَتْلُ الابْنِ طَاعَةً لِلَّهِ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ الَّذِي أَتَاهُ عَلَى كِبَرٍ وَبَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ، فَرَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُهُ، وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَخِيٍّ، فَإِذَا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَهُوَ وَخِيٍّ، وَلِهَذَا قَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ»^(١).

رَأَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ يَذْبَحُ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَ لِلابْنِ - وَالابْنُ فِي شَبَابِهِ، صَغِيرٌ -: ﴿رَبُّنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، بِهِذِهِ اللَّطَافَةِ: ﴿رَبُّنِي﴾ لَمْ يَقُلْ: يَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: ﴿رَبُّنِي﴾ بِهِذِهِ اللَّطَافَةِ وَالرَّقَّةِ: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ فَكَانَ جَوَابُ الْابْنِ: ﴿قَالَ يَتَأْتٍ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾. مَا أَكْرَمَ الْأَبَ، وَمَا أَكْرَمَ الْابْنَ، وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَعْزِضْ هَذَا عَلَى ابْنِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَشِيرَهُ فِي أَمْرِ أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، كَلَّا، وَاللَّهُ لَيُنْفِذَنَّ أَمْرَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، لَكِنْ لَيَنْظُرُ مَاذَا عِنْدَ هَذَا الْابْنِ.

فَكَانَ عِنْدَهُ هَذَا الْجَوَابُ الْعَظِيمُ: ﴿قَالَ يَتَأْتٍ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: اذْبَحْنِي، بَلْ نَبَّهَهُ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَالطَّاعَةِ: ﴿أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ هُوَ الذَّبْحُ، لَكِنَّ الْابْنَ لَمْ يَقُلْ: اذْبَحْنِي، بَلْ قَالَ: ﴿أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾، مِنْ أَجْلِ أَنْ يُنَبِّهَ أَبَاهُ عَلَى أَنْ يُنْفِذَ هَذَا؛ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ فَلَمْ يَجْزَمْ، وَلَمْ يَقُلْ: سَتَجِدُنِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠).

صَابِرًا، أَوْ: مِنَ الصَّابِرِينَ، بل قال: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾؛ لَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا جَزَمَ عَلَى الْفِعْلِ خُذَلَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَأْنِي إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ غَدًا ۖ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[الكهف: ٢٣-٢٤]﴾. فَاَلابْنُ قَالَ لِأَبِيهِ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وَلَمْ يَجْزَمْ؛ لِئَلَّا يُخْذَلَ.

وهذه مَسْأَلَةٌ أَنْبَهُكُمْ عَلَيْهَا - بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ - وَهِيَ أَلَا تَجْزِمُ عَلَى شَيْءٍ مُسْتَقْبَلٍ إِلَّا أَنْ تَقْرِنَهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ؛ لَأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَجْزِمُ جَزْمًا أَكِيدًا عَلَى الْفِعْلِ، ثُمَّ لَا يَفْعَلُ، إِمَّا لِمَرَضٍ يَخْذُثُ لَهُ، أَوْ لَشَاغِلٍ يَشْغَلُهُ، أَوْ لِهَمَّةٍ انْصَرَفَتْ، أَوْ لغير ذلك، لَكِنْ قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. يَسْهُلُ لَكَ الْأَمْرُ، وَسَأَذْكُرُ لَكُمْ قِصَّةً تُبَيِّنُ لَكُمْ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ نَكْمَلَ الْكَلَامَ عَلَى الْآيَةِ.

قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ [الصفات: ١٠٣] يَعْنِي: اسْتَسْلَمَا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَعَزَمَا عَلَى التَّنْفِيزِ، ﴿وَتَلَّهُ، لِلْجَبِينِ﴾ [الصفات: ١٠٣]، التَّلُّ هُوَ إِبْرَاهِيمُ، وَالتَّلُولُ هُوَ إِسْمَاعِيلُ، ﴿وَتَلَّهُ، لِلْجَبِينِ﴾ أَي: عَلَى جَبْهَتِهِ، وَإِنَّمَا تَلَّهُ عَلَى جَبْهَتِهِ لِئَلَّا يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِ الْإِبْنِ حِينَ يَهْوِي بِالسَّكِينِ إِلَى رَقَبَتِهِ، فَتَمْنَعُهُ الرَّقَّةُ، وَلَكِنْ جَاءَ الْفَرْجُ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] وَالَّذِي قَالَ عَنْهُ نَبِيُّهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّيْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(١)، وَلِذَلِكَ قَالَ الْحَكِيمُ^(٢): «أَشْتَدِّي أَرْزَمَةً تَنْفَرِجِي».

(١) أخرجه أحمد (٣٠٧/١)، رقم (٢٨٠٤)، والطبراني (١٢٣/١١)، رقم (١١٢٤٣)، والضياء (٢٣/١٠)، رقم (١٣).

(٢) هو أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري الأصل المعروف ابن النحوي، وقصيدته التي منها الشطر هي المنفرجة، انظر شرح المنفرجة (ص: ٤٣).

في هذه اللحظة الرهيبة جاء الفرَج من الله عزَّ وجلَّ وناداهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَنْ يَتَابَرَهِيْمُ
 ١٠٤﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا ﴿[الصفات: ١٠٤-١٠٥] وأنفذتها، لكن أنفذها حُكْمًا لا واقِعًا؛
 لأنَّ الله نَسَخَ وَجوبَ ذَبَحِ الابنِ.

والشَّاهدُ من هذه القِصَّة أن الشَّيْءَ المُحَرَّمَ الَّذِي من كِبَائِرِ الذُّنُوبِ إذا أَمَرَ
 اللهُ به يَكُونُ طَاعَةً، مَعَ أَنَّهُ من أَكْبَرِ الذُّنُوبِ؛ لأننا نَحْنُ عبيدُ اللهِ يَفْعَلُ ما شاء،
 يَحْكُمُ علينا بالواجبِ سَمْعًا وطَاعَةً، وبالمُحَرَّمَ نَجْتَنِبُهُ سَمْعًا وطَاعَةً، وهَلُمَّ جَرًّا،
 فالربُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَاكِمٌ وليسَ مُحْكُومًا عليه، إذن فله أن يَحْلِفَ بما شاء.

والقِصَّةُ الَّتِي وَعَدْتُكُمْ أَنْ أَقُولَهَا هِيَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَحَدُ الْأَنْبِيَاءِ
 الْكَرَامِ الَّذِينَ وَهَبَهُمُ اللهُ الرِّسَالَةَ وَالْمُلْكَ، فَسُلَيْمَانُ مَلِكٌ نَبِيٌّ، أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى مُلْكًا
 لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا غَيْرَهُ، فَسَخَّرَ لَهُ حَتَّى الشَّيَاطِينَ تَقُومُ بِأَمْرِهِ: ﴿كُلَّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾
 [ص: ٣٧]، فالَّذِي يَبْنِي قُصُورًا فَخْمَةً عَظِيمَةً، وَالَّذِي يَغُوصُ فِي الْبَحْرِ وَيَأْتِي بِالذُّرِّ
 وَغَيْرِهِ مِنَ الْجَوَاهِرِ الْعَظِيمَةِ، وَالْقِسْمُ الثَّلَاثُ مِنَ الشَّيَاطِينِ ﴿وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي
 الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨] هَؤُلَاءِ عُصَاةٌ، فَقَرَّنَهُمْ سُلَيْمَانُ بِالْأَصْفَادِ، غَلَّ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ؛
 لِأَنَّ اللهَ أَعْطَاهُ مُلْكًا عَظِيمًا، قَالَ سُلَيْمَانُ دَاعِيَا رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي
 لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، وَلَمَّا تَفَلَّتِ الشَّيْطَانُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي صَلَاتِهِ، وَأَرَادَ أَنْ
 يُمْسِكَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيَرْبِطَهُ فِي سَارِيَةِ الْمَسْجِدِ يَلْعَبُ بِهِ الصَّبِيَّانُ وَأَهْلُ
 الْمَدِينَةِ، لَكِنْ ذَكَرَ قَوْلَ اللهِ عَنْ سُلَيْمَانَ: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ
 أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٣٥) فَتَرَكَهُ (١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة،
 والتعود منه وجواز العمل القليل في الصلاة، رقم (٥٤٢).

إِذْ، أَعْطَى اللَّهُ سُلَيْمَانَ مُلْكًا وَنُبُوَّةً، وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْيَوْمِ - وَكَانَ مُحِبُّ الْجِهَادِ -
 أَقْسَمَ وَقَالَ: «لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ يُقَاتِلُ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ - أَوِ الْمَلِكُ -: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَلَمْ
 تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَائِهِ إِلَّا وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ، وَلَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ.
 لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ»^(١).

الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى هَذَا رَغْبَتُهُ فِي الْجِهَادِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ
 عِنْدَهُ عَزْمٌ أَكِيدٌ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ، فَالَّذِي مِنْ قِبَلِهِ حَصَلَ، وَالَّذِي مِنْ قِبَلِ اللَّهِ لَمْ يَحْصُلْ،
 فَجَامَعَ سَبْعِينَ امْرَأَةً، وَأَتَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ بِشِقِّ إِنْسَانٍ، أَيْ نِصْفِ إِنْسَانٍ، يَعْنِي
 مَا حَصَلَ وَلَا وَاحِدٌ مِنَ السَّبْعِينَ، اللَّهُ أَكْبَرُ!

فَقَالَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ،
 لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ». وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

إِذْ، ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[الكهف: ٢٣-٢٤]، وَأَنْتَ لَوْ حَلَفْتَ وَقُلْتَ: وَاللَّهِ لَا أَزُورَنَّ فُلَانًا الْيَوْمَ. هَكَذَا، وَمَضَى
 الْيَوْمُ وَلَمْ تَزُرْهُ، وَجَبَ عَلَيْكَ كَفَّارَةٌ يَمِينٍ، لَكِنْ لَوْ قُلْتَ: وَاللَّهِ لَا أَزُورَنَّ فُلَانًا الْيَوْمَ
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَلَمْ تَزُرْهُ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْكَ، مَعَ أَنْ هَذِهِ يَغْفُلُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ،
 فَيَحْلِفُونَ بِدُونِ أَنْ يَقُولُوا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَهُمْ إِذَا قَالُوا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، حَصَلَتْ لَهُمْ
 فَائِدَتَانِ عَظِيمَتَانِ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في اليمين، رقم (٦٧٢٠)، ومسلم:
 كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

الفائدة الأولى: أَنَّ اللَّهَ يُسِّرُ لَهُمْ مَا حَلَفُوا عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ: «لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَخْنَثُ».

الثانية: أَنَّهُ لَوْ حَنَثَ وَلَمْ يُتِمَّ الِیْمِینَ، لَمْ تَكُنْ عَلَيْهِ كَفَّارَةٌ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] ضُحَاهَا: يَعْنِي ارْتِفَاعَهَا فِي الْأَفُقِ حَتَّى يَخْضَلَ الضُّحَى، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ.

قوله: ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا نَلَّهَا﴾ [الشمس: ٢] أَقْسَمَ اللَّهُ بِالْقَمَرِ، لَكِنَّهُ مُقَيَّدٌ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا نَلَّهَا﴾، وَيَكُونُ الْقَمَرُ تَالِيًا لِلشَّمْسِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْقَمَرُ إِلَى الشَّمْسِ وَهُوَ تَالٍ لَهَا إِذَا كَانَ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ، وَفِي آخِرِ الشَّهْرِ يَكُونُ قَرِيبًا، لَكِنَّهُ سَابِقٌ عَلَيْهَا، فَيَكُونُ اللَّهُ تَعَالَى أَقْسَمَ بِأَوَّلِ النَّهَارِ، وَأَقْسَمَ بِأَوَّلِ الشَّهْرِ، نَأْخُذُ أَنَّهُ أَقْسَمَ بِأَوَّلِ النَّهَارِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ وَنَأْخُذُ أَنَّهُ أَقْسَمَ بِأَوَّلِ الشَّهْرِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا نَلَّهَا﴾ حَيْثُ يَكُونُ الْقَمَرُ تَالِيًا لِلشَّمْسِ، وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا، فَأَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ يَكُونُ الْقَمَرُ أَقْرَبَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْ بَقِيَّةِ اللَّيَالِي، فَإِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ: أَلَمْ يَكُنِ الْقَمَرُ قَرِيبًا مِنَ الشَّمْسِ فِي آخِرِ الشَّهْرِ، فِي تِسْعٍ وَعَشْرِينَ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا خَارِجٌ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا نَلَّهَا﴾؛ لِأَنَّ الْقَمَرَ فِي آخِرِ الشَّهْرِ تَتْلُوهُ الشَّمْسُ، وَلَا يَتْلُوها هُوَ.

قوله: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ ② وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا [الشمس: ٣-٤]، النَّهَارُ إِذَا جَلَّى الْبَسِيطَةَ، وَأَوْضَحَهَا، وَاتَّضَحَ مَا كَانَ خَفِيًّا فِي اللَّيْلِ، فَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، أَنْتُمْ الْيَوْمَ فِي الْمَدِينِ لَا تَعْرِفُونَ مِقْدَارَ النَّهَارِ، بِسَبَبِ الْأَضْوَاءِ وَالْكَهْرِبَاءِ، فَلَا يَدْرِي الْإِنْسَانُ، لَكِنْ لَوْ كُنْتُمْ فِي الْبَرِّ وَلَيْسَ عِنْدَكُمْ إِضَاءَةٌ، لَوْ جَدُّتُمْ لظُهُورِ النَّهَارِ طَعْمًا لَذِيذًا، فَالنَّهَارُ يُجَلِّي الْبَسِيطَةَ، وَيُوضِّحُهَا، وَيَتَبَيَّنُ بِهِ مَا كَانَ خَفِيًّا، الْآنَ نَحْنُ فِي أَنْوَارِ

عظيمة، لكن لا يُمكنُ أن نرى بهذه الأنوارِ ما نراه إذا طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فحتَّى وإن كانت هناك أنوارٌ قويَّةٌ، لكن لا تكونُ مثلَ الشَّمْسِ.

قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يعني: يُغَطِّيها، اللَّيْلُ - سُبْحَانَ اللَّهِ - لباسٌ، كما قال الله تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبا: ١٠] يَسْتُرُ الْأَرْضَ، ولا يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ قَدْرَ هَذَا اللَّبَاسِ إِلَّا إذا كان في الطَّائِرَةِ، إذا كان في الطَّائِرَةِ وقد غَابَتِ الشَّمْسُ عن الأرضِ، ونَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَجَدَ كَأَنَّهَا مُغَطَّاةٌ بِعَبَاءَةٍ سَوْدَاءَ، سُبْحَانَ اللَّهِ! اللَّيْلُ يُغَطِّيها، وهذه من آياتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِالنَّهَارِ إِذَا ذَهَبَ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ ⑤ ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ [الشمس: ٥-٦] السَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا، هل (مَا) بمعنى (مَنْ)، فَيَكُونُ اللَّهُ تَعَالَى أَقْسَمَ بِالسَّمَاءِ وَبِمَنْ بَنَاهَا، وهو الله، كما قال تَعَالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا: ١٢]، أم (مَا) في قوله: ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ، أي: والسَّمَاءُ وَبِنَايَتِهَا؟ الجواب الثاني أَقْرَبُ، وأنها مَصْدَرِيَّةٌ؛ لِأَنَّ التَّعْبِيرَ بـ(مَا) بَدَلُ (مَنْ) فَيَمْنُ لَهُ عِلْمٌ وَإِرَادَةٌ قَلِيلٌ، وَعَلَى هَذَا نَجْعَلُ (مَا) مَصْدَرِيَّةً، أي: والسَّمَاءُ وَبِنَايَتِهَا.

وكذلك في قوله: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ تكون: (مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، و(طَحَاهَا) فَسَّرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ⑥ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿[النازعات: ٣٠-٣١] هَذَا هُوَ طَحُوهَا.

حَسَنًا، فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ عَنِ الْأَرْضِ هَلْ هِيَ كُرْوِيَّةٌ أَمْ غَيْرُ كُرْوِيَّةٍ، نَقُولُ لَهُ: هل لهذا السُّؤَالِ فَائِدَةٌ؟ وَالَّذِي يُجِيبُ نُطَالِبُهُ بِالتَّعْلِيلِ، فَإِنْ قَالَ: فِيهِ فَائِدَةٌ. نَقُولُ

له: بَيِّنِ الفائدة، وإن قال: ما فيه فائدة. قلنا: حَسَنًا رَبَّنَا تَأْتِي الفائدة.

ولبيان الفائدة نَسْأَلُ سُؤَالًا: ماتَ رَجُلٌ فِي الْقَصِيمِ عَنْ أَخِيهِ الَّذِي لَا يَرِثُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ وَهُوَ فِي الْمَدِينَةِ، وَمَاتَ الَّذِي فِي الْمَدِينَةِ عَنْ أَخِيهِ الَّذِي فِي الْقَصِيمِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَارِثٌ غَيْرُهُ، أَيُّهُمَا الَّذِي يَرِثُ الْآخَرَ، فَهَذَانِ أَخَوَانِ شَقِيقَانِ، أَحَدُهُمَا فِي الْمَدِينَةِ، وَالْآخَرُ فِي الْقَصِيمِ، مَاتَا عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، أَيُّهُمَا يَرِثُ الْآخَرَ؟

أقول -بارك الله فيكم-: يَرِثُ الَّذِي فِي الْمَدِينَةِ أَخَاهُ الَّذِي فِي الْقَصِيمِ؛ لِأَنَّ الشَّمْسَ تَغْرُبُ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ غُرُوبِهَا فِي الْقَصِيمِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْوَارِثُ حَيًّا بَعْدَ مَوْتِ الْمَوْرَثِ.

فَهَذَا مِنْ فَائِدَةٍ كَوْنِهَا كُرُوبِيَّةٌ؛ لِأَنَّ الْأَرْضَ لَوْ كَانَتْ غَيْرَ كُرُوبِيَّةٍ، لَكَانَ مَغِيبُ الشَّمْسِ فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ وَاحِدًا، فَهَذَا دَلِيلٌ حَسَنٌ، وَفِيهِ فَائِدَةٌ.

يعني لو قَالَ قَائِلٌ: مَا الْفَائِدَةُ مِنْ كَوْنِنَا نَعْرِفُ أَنَّهَا سَطْحِيَّةٌ أَوْ كُرُوبِيَّةٌ؟

نقول: له فَوَائِدُ، مِنْهَا هَذِهِ، ثُمَّ إِنَّ الدَّلِيلَ الْمَحْسُوسَ وَاضِحٌ، فَلَوْ أَنَّ طَائِرَةً قَامَتْ مِنْ مَطَارٍ جَدَّةٍ مُتَّجِهَةً نَحْوَ الْغَرْبِ، وَصَارَتْ بِهَذَا الْاِتِّجَاهِ، فَإِنَّهَا تَعُودُ جَدَّةً وَلَا بُدَّ؛ لِأَنَّهَا سَتَدُورُ عَلَى الْأَرْضِ، هَذَا شَيْءٌ مَعْرُوفٌ، وَلَيْسَ فِيهِ إِشْكَالٌ، وَقَالَ الْعُلَمَاءُ الْأَقْدَمُونَ، كَابِنِ حَزْمٍ، وَشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، وَغَيْرُهُمَا، وَلَيْسَ فِيهِ إِشْكَالٌ.

وهناك أَيْضًا سُؤَالٌ ثَانٍ هُوَ الَّذِي أَرَى أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْ إِضَاعَةِ الْوَقْتِ فِيهِ، وَهُوَ: هَلِ الْأَرْضُ تَدُورُ، أَوْ لَا؟ لَا نَقُولُ: تَدُورُ، وَلَا نَقُولُ: لَا تَدُورُ؛ لِأَنَّ الْبَحْثَ فِي هَذَا بَحْثٌ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ -فِيهَا أَرَى- وَعَلَى هَذَا فَتَرَكُهُ أَحْسَنُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشَّمْسُ: ٧-٨] هَذَا

الْقَسَمُ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾، يعني أن النفوس كُلُّهَا سَوَّاهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي أَحْسَنِ تَسْوِيَةٍ، وَأَحْسَنِ تَعْدَادٍ لِقَبُولِ الْحَقِّ أَوْ رَفْضِهِ، ﴿فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ يعني يَبَيِّنُ لَهَا الْفُجُورَ، وَيَبَيِّنُ لَهَا التَّقْوَى عَلَى أَيْدِي الرُّسُلِ مِنْ وَجْهِهِ، وَعَلَى النُّفُوسِ مِنْ وَجْهِهِ آخَرَ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيمَا يُرَوَى عَنْهُ: «مَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ سَيِّئًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ»^(١). النُّفُوسُ مُلْهَمَةٌ لِلْفُجُورِ وَالتَّقْوَى، تَعْرِفُ الْفُجُورَ وَتَعْرِفُ التَّقْوَى، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَلْهَمَهَا، فَمَنْ الْمُفْلِحُ؟ الْمُفْلِحُ هُوَ: ﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] أَي: زَكَّى نَفْسَهُ بِأَنْ قَامَ بِطَاعَةِ اللهِ بِفَعْلِ الْمَأْمُورَاتِ وَتَرْكِ الْمَنْهِيَّاتِ.

فَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ أَي: زَكَّى نَفْسَهُ وَطَهَّرَهَا مِنْ أَذْرَانِ الْمَعَاصِي وَالشُّرُكِ حَسَبَ الْإِسْطَاعَةِ، إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يُكَلِّفْنَا مَا لَا نُطِيقُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَانْقُضُوا اللهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، إِذَنْ نَحْنُ مَأْمُورُونَ بِأَنْ نُزَكِّيَ نَفُوسَنَا مَا اسْتَطَعْنَا.

وَالتَّزْكِيَةُ لِلنُّفُوسِ تَكُونُ فِي حَقِّ اللهِ، وَحَقِّ الْآدَمِيِّينَ، فَالتَّزْكِيَةُ لَهَا فِي حَقِّ اللهِ بِأَنْ تَقُومَ بِطَاعَةِ اللهِ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ بِصَدْرِ مُنْشَرِّحٍ وَنَفْسٍ رَاضِيَةٍ، وَالتَّزْكِيَةُ لَهُ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخْلُوقِينَ بِأَنْ تُعَامِلَهُمْ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بِهِ، هَذَا هُوَ الْمِيزَانُ، أَنْ تُعَامِلَ النَّاسَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بِهِ، دَلِيلُ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢). فَنَفَى النَّبِيُّ ﷺ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٨٤، رقم ٣٦٠٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، رقم (٤٥).

كَمَالَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْإِنْسَانُ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرْحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ» وَكَلَّمْنَا نَحِبُّ هَذَا، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعْطِيَنَا إِيَّاهُ «فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» هَذَا فِي حَقِّ اللَّهِ، «وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(١). وَشَاهِدُنَا عَلَى الْكَلَامِ الْآخِرِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»، فَأَنْتَ الْآنَ إِذَا وَجَدْتَ أَخَاكَ فِي ضَيْقٍ وَحَرْجٍ، فَقَدَّرَ نَفْسَكَ أَنْتَ الَّذِي فِي ضَيْقٍ وَحَرْجٍ حَتَّى تُحَاوِلَ أَنْ تَرْفَعَ عَنْ هَذَا الْأَخِ الضَّيْقَ وَالْحَرْجَ.

وَإِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ أَنْعَمَ عَلَى أَخِيكَ بِنِعْمَةٍ فَافْرَحْ لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتِمُّ إِيْمَانُكَ حَتَّى تَفْرَحَ لَهُ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِنِعْمَةٍ فَأَحِبَّ لِأَخِيكَ مَا تُحِبُّهُ لِنَفْسِكَ، عَلَى عَكْسِ الْحَسَدَةِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - الَّذِينَ إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى غَيْرِهِمْ بِنِعْمَةٍ كَرِهُوا ذَلِكَ، وَتَمَنَّوْا أَنْ تَزُولَ، بَلْ حَالُوا فِعْلًا أَنْ يُزِيلُوهَا، فَتَجِدُ الرَّجُلَ مَثَلًا يَتَكَلَّمُ عَنْ شَخْصٍ آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَالًا، وَصَارَ هَذَا الرَّجُلُ يُنْفِقُ الْمَالَ فِي سُبُلِ الْخَيْرِ، فَتَجِدُ الْحَسَدَةَ تَقُولُ: وَاللَّهِ فَلَانٌ مَا شَاءَ اللَّهُ، يُنْفِقُ الْمَالَ فِي سُبُلِ الْخَيْرِ، لَكِنَّهُ يَكْذِبُ فِي الْمَقَالِ بَعْضَ الْأَحْيَانِ، يَتَحَدَّثُ بِالْكَذِبِ، مَا الَّذِي جَاءَ هَذَا لِهَذَا؟!

مَا دَامَ يُنْفِقُ أَمْوَالَهُ فِي سُبُلِ الْخَيْرِ فَأَتْنِ عَلَيْهِ، وَلَا تُحِبُّ بـ (لَكِنْ)، لَكِنْ هَذِهِ تَقَطُّعُ الْعُنُقِ، لَكِنْ بَعْضُ النَّاسِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - يُحْسَدُ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرًا، فَإِذَا ذَكَرَ الْخَيْرَ أَتَى بِالِاسْتِذْرَاكِ بـ (لَكِنْ)، يَقُولُ الْحَاسِدُ أَوْ الْحَاقِدُ: وَاللَّهِ هَذَا رَجُلٌ يُنْفِقُ الْمَالَ بِكَثْرَةٍ، وَطَيِّبٌ، وَخَيْرٌ، لَكِنْ فِيهِ كُذُيَّاتٌ. يَجِيءُ بِهَا بِالتَّصْغِيرِ، أَوْ يَقُولُ: فَلَانٌ وَاللَّهِ طَيِّبٌ وَيُنْفِقُ كَثِيرًا فِي سُبُلِ الْخَيْرِ، لَكِنَّهُ أَهْمَقُ، يَغْضَبُ عِنْدَ كُلِّ كَلِمَةٍ. لَكِنَّهُ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ الْأَمْرِ بِالْوَفَاءِ بِبَيْعَةِ الْخُلَفَاءِ، رَقْمُ (١٨٤٤).

الحَسَدُ - والعِيَاذُ بالله - فهل تَرْضَى أَنْ أَحَدًا يَقْدَحُ فِيكَ وَأَنْتَ تَعْمَلُ الْخَيْرَ؟ إِذَنْ، لَا تَفْعَلْ أَنْتَ بِأَخِيكَ. فَصَارَتْ تَرْكِيبَةُ النَّفْسِ فِيهَا يَتَعَلَّقُ بِحَقِّ اللَّهِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِحَقِّ الْخَلْقِ.

زَكَ نَفْسِكَ مَعَ النَّاسِ، أَحْسِنِ الْخُلُقَ، أَحِبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، أَعْنِهِمْ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، حَذَّرَهُمْ عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ، كُلُّ هَذَا مِنْ وَاجِبَاتِ الْإِخْلَاقِ لِأَخِيهِ.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ [الشمس: ١٠]، أي: مَنْ أَهْلَكَهَا وَحَرَمَهَا الْخَيْرَ فَهَذَا خَائِبٌ خَاسِرٌ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ.

قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ١١]، ثَمُودُ هُمْ قَوْمٌ صَالِحٌ، وَمَدَائِنُهُمْ مَعْرُوفَةٌ الْآنَ فِي الْحِجْرِ، هَؤُلَاءِ كَذَّبُوا وَطَغَوْا - وَسَيَأْتِي ذِكْرُ طُغْيَانِهِمْ - هَذِهِ الْمَدَائِنُ الْآنَ مَوْجُودَةٌ وَمَعْرُوفَةٌ، وَيَكْثُرُ تَرَدُّدُ النَّاسِ إِلَيْهَا، لَكِنْ مَعَ الْأَسْفِ فَإِنْ كَثُرًا مِنَ النَّاسِ يَذْهَبُ إِلَيْهَا لِلْإِعْتِبَارِ بِقُوَّةِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَنَحْتِهِمُ الْمَسَاكِينَ مِنَ الْجِبَالِ، وَيَرَوْنَ هَذَا مِنَ الْآثَارِ، وَهَذَا - وَاللَّهِ - عَيْنُ الْخَطَا، إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ فِي طَرِيقِهِ إِلَى تَبُوكَ بِهَذِهِ الْمَدَائِنِ، فَقَنَّعَ رَأْسَهُ - أَيْ غَطَّاهُ - وَخَفَضَهُ، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ، وَقَالَ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»^(١). فَأَيْنَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْآنَ عَلَى أَهْلِ الْمَدَائِنِ بَاكِينَ؟! هُمْ قَلِيلُونَ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: مَعْدُمُونَ، فَأَكْثَرُهُمْ يَذْهَبُ لِلْمُشَاهَدَةِ وَلَا سَتِيانَ قُوَّةِ هَؤُلَاءِ، وَهَذَا عَيْنُ الْخَطَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، رقم (٤٢٣)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠).

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» وهذه الأُمَّةُ مُحَمِّيَّةٌ أَنْ تُصَابَ بِعُقُوبَةٍ عَامَّةٍ، وهذا مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؟

قُلْنَا: إِنَّ قَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ: «أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» لَا يَعْنِي الرَّجْفَةَ وَالصَّيْحَةَ، وَلَكِنْ يَعْنِي الِاسْتِكْبَارَ عَنِ الْحَقِّ وَقَبُولَهُ، فَرُبَّمَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي ذَهَبَ إِلَى هَذِهِ الْمَدَائِنِ لِيَرَى قُوَّةَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُعَذِّبِينَ، رُبَّمَا يَقَعُ فِي قَلْبِهِ تَعْظِيمٌ لَهُؤُلَاءِ وَأَثَارِهِمْ، وَحِينَئِذٍ يَهْلِكُ كَمَا هَلَكُوا؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَظَّمَهُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ اسْتِكْبَارُهُمْ فِي نَفْسِهِ قَلِيلًا، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، فيقول: هَؤُلَاءِ عَذَّبُوا عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- وَحِينَئِذٍ يَهْلِكُ؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَالَ: كَيْفَ يَقُولُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» وهذه الأُمَّةُ مُحْرُوسَةٌ أَنْ يُصِيبَهَا عَذَابٌ عَامٌّ؟ فنقول: الإِصَابَةُ هُنَا لَيْسَتْ إِصَابَةً الْعُقُوبَةِ، بَلْ إِصَابَةُ التَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ، وَالِاسْتِكْبَارِ عَنْهُ، فَقَدْ يُبْتَلَى الْإِنْسَانُ بِهَذَا.

ولذلك أَنَا أَنْصَحُ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى هَذِهِ الْأَمَاكِنِ إِلَّا يَذْهَبُوا إِلَّا بِالشَّرْطِ الَّذِي قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو أَنْ يَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ يَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا يَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، وَلَا يَقْرُبُوهُمْ.

قَوْلُهُ: ﴿إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١١-١٢]، أَي: أَشَقَى هَذِهِ الْقَبِيلَةَ، وَأَشَقَى هُنَا اسْمٌ تَفْصِيلٌ، فـ﴿أَشَقَاهَا﴾ يَعْنِي: أَشَقَى الْقَوْمَ، فَهُوَ لَيْسَ فِعْلًا، ﴿أَنْبَعَثَ﴾ يَعْنِي: لَمَّا طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَعْقِرَ النَّاqَةَ، فَعَقَرَهَا، وَهُوَ شَيْطَانُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، وَهَذِهِ النَّاqَةُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ اعْطَاهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى صَاحِبًا؛ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا.

قال تعالى: ﴿نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] تأتي إلى هذا البئر بئر الناقة - وهو معروف الآن بهذا الاسم - وتشرب منه يومًا كاملاً، وفي اليوم الثاني لهم شرب في هذا البئر، قال بعض العلماء: إنها في اليوم الذي تأتي وتشرب يأتي الإنسان ويسقيها دلوًا من ماءٍ ويأخذ بدله دلوًا من حليب، هذه من آيات الله، فأعطاهم الله سبحانه وتعالى هذه الآية، لكنهم كفروا بها: عقروها، قال لهم نبيهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، فأندروا بالعذاب إنذار أمر واقع، فبقوا ثلاثة أيام، فأخذتهم الرجفة والصيحة حتى هلكوا عن آخرهم.

قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]، نُصِبَتْ: ﴿نَاقَةٌ﴾ بتقدير: ذروا، أي: ذروها تاكل في أرض الله، ف﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ مفعول لفعل محذوف، أي: ذروا ناقة الله وسقياها، ولكنهم كذبوه، ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمُ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤] أي: محآها حتى هلكوا عن آخرهم.

قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥] الفاعل في قوله: ﴿يَخَافُ﴾ يعود على الله من لا يخاف عاقبة هذا الأمر؛ لأن الأمر إليه، يعني: لو أنك مثلاً هدمت بناء شخص، قد تخاف العاقبة، لكن الرب عز وجل من ذا الذي يعاقبه حتى يخاف من عاقبة هذا الأمر؟! لا أحد.

وعلى هذا انتهى الكلام على هذه السورة العظيمة.



سورة الليل

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝١ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝٣ إِنَّ
سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝٤ فَمَا مَنِ اعْطَى وَالْفَقْرَى ۝٥ وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ۝٦ فَسَيَسْرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ
وَأَسْتَفْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ۝٩ فَسَيَسْرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا
لَلْهُدَى ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝﴾ [الليل: ١-١٣].

قوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾ إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أقسم بالليل إذا يغشى، أي إذا غطى
البسيطة، أي الأرض؛ لأن التغطية بمعنى التغطية، فهذا الليل بسواده إذا عم الأرض
صار كأنه غطاءً غطّاها.

وأقسم به عز وجل حين يغشى؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بالليل إلا الله
عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾؟ الجواب: لا أحد إلا الله
﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢].

قوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٢] أي: إذا ظهر وبان؛ لأن النهار يظهر ويبين إذا انفلق الصبح، وأقسم الله به حين تجليه لأنه من آياته عز وجل؛ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾؟ [القصص: ٧١] الجواب: لا أحد إلا الله عز وجل.

فأقسم بشيئين متقابلين:

■ الليل إذا يُغْطَى.

■ والنهار إذا يُجَلَّى.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ٣] أيضًا أقسم بخلقه عز وجل لصنفين من بني آدم؛ هما الذكر والأنثى، والذكورة والأنوثة متقابلان.

والمقسم عليه أيضًا شيئان متقابلان: ﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَيْءٌ﴾ [الليل: ٤] أي: أعمالكم متفرقة، وقسمها الله عز وجل إلى قسمين أساسيين:

أولهما: قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿

[الليل: ٥-٧].

ثلاثة أشياء: (أعطى) أي: بذل ما يجب عليه من عمل أو مال، و(اتقى) أي: اتقى المحارم، و(صدق بالحسنى) أي: صدق بالقولة الحسنى، وهي قول الله ورسوله. والجواب: ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ وهذا وعد ممن لا يخلف الميعاد، أن الإنسان إذا اتصف بهذه الصفات الثلاث: البذل، والتقوى، والتصديق بما أخبر به الله ورسوله ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾.

قوله: ﴿فَسَنِيَرُهُ﴾ السين هنا للتحقيق والتقريب. وقال: ﴿فَسَنِيَرُهُ﴾ بالنون

الدَّالَّةُ عَلَى الْجَمْعِ، وَلَمْ يَقُلْ: فَسَأَيُسِّرُهُ؛ لِبَيَانِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ ذُو عَظَمَةٍ عَظِيمَةٍ، فَهُوَ الَّذِي يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَحْرِمُ مَنْ يَشَاءُ.

ولذلك تجدُ عملَ الإنسانِ المتَّصِفِ بهذه الصفاتِ يكونُ ميسرًا؛ إِنْ أَصَابَهُ ضُرٌّ صَبَرَ واحتسبَ الأجرَ واطمأنتَ نفسه به؛ لِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهُوَ مُطْمَئِنٌّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَهُ سَرَّاءُ شَكَرَ اللَّهَ وفرحَ بذلك، وأنشَرَ صدره، فهو دائماً أمورُهُ مُيسَّرةٌ، وتجدُ مَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ بالعكسِ، فتجدُهُ دائماً فِي قَلْقٍ، ودائماً فِي ضِيقِ صدرٍ، حَتَّى يَصِلَ الأمرُ بِأَحَدِهِمْ إِلَى أَنْ يَنْحَرَ نَفْسَهُ والعياذُ بِاللَّهِ.

فَقُولُهُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝﴾ هَذَا قِسْمٌ وَصَنَفٌ. وَضِدُّهُ: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝﴾ [الليل: ٨-١٠].

(أَعْطَى) ضِدُّ (بَخِلَ). و(اسْتَغْنَى) ضِدُّ (اتَّقَى) يَعْنِي اسْتَغْنَى بِنَفْسِهِ وَلَمْ يُبَالِ، وَلَمْ يَتَّقِ اللَّهَ. وَقُولُهُ: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ ضِدُّ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝﴾.

إِذْنِ، الْمُقَسَّمُ بِهِ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ مُتَقَابِلَةٌ: اللَّيْلُ وَيَقَابِلُهُ النَّهَارُ، وَالذَّكْرُ وَيَقَابِلُهُ الْأُنْثَى.

وَالْمُقَسَّمُ عَلَيْهِ شَيْئَانِ مُتَقَابِلَانِ أَيْضًا: عَمَلٌ صَالِحٌ وَعَمَلٌ سَيِّئٌ.

وَالْجُزْأُ أَيْضًا شَيْئَانِ مُتَقَابِلَانِ: التَّيْسِيرُ لِلْيُسْرَى، وَالتَّعْسِيرُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الْأَرْضَ، فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ».

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

فكُلُّ إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ مَقْعَدُهُ؛ هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ.

فَلَمَّا قَالَ هَذَا قَالَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ مَا دَامَ كُلُّ إِنْسَانٍ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، إِذَنْ لَا نَعْمَلُ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ مَقْعَدُهُ مَعْرُوفٌ وَلَا حَاجَةٌ لِلْعَمَلِ.

فَأَجَابَهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِجَوَابٍ جَامِعٍ مَانِعٍ، لَا يَمَكِنُ الْجِدَالَ فِيهِ، فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَفَى ۝٥ وَصَدَقَ بِالْحَسَنَى ۝٦ فَسَيَّرَهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ۝٩ فَسَيَّرَهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠﴾ (١).

فَلَا يَمَكِنُ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَقُولَ: إِنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ قَدَّرَ لِي وَلَدًا فَسَيَأْتِي وَإِنْ لَمْ أَتَزَوَّجْ، وَلَوْ قَالَ هَذَا لَقَالُوا: هَذَا مَجْنُونٌ، إِنَّ اللَّهَ يُقَدِّرُ لَكَ الْوَلَدَ إِذَا فَعَلْتَ السَّبَبَ، فَتَزَوَّجْ وَابْتَغِ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْوَلَدِ، أَمَّا أَنْ يَأْتِيَ وَلَدٌ بِدُونِ زَوَاجٍ، فَهَذَا لَا يَمَكِنُ.

إِذَنْ، مَقْعَدُ الْجَنَّةِ لَا يُمَكِنُ بِلَا عَمَلٍ لَهُ، وَمَقْعَدُ النَّارِ لَا يَمَكِنُ بِلَا عَمَلٍ لَهُ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة الليل إذا يغشى، باب ﴿فَسَيَّرَهُ لِلْعُسْرَى﴾، رقم (٤٦٦٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اعْمَلُوا فِكْلٌ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ». اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ يَا حَيُّ يَا قِيَوْمُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ يَا حَيُّ يَا قِيَوْمُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ».

ثم تلا قول الله تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾. قرأ ذلك استدلالاً لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتأيداً لقوله.

وفي هذا فائدة عظيمة، وهي أن رسول الله ﷺ يستدلُّ بالقرآن، مع أنه لا ينطق عن الهوى، لكن يستدلُّ بالقرآن؛ لأن القرآن دليلٌ لكلِّ إنسانٍ مؤمنٍ، والسنة دليلٌ لكلِّ إنسانٍ مؤمنٍ، فتلا النبي ﷺ هذه الآيات استدلالاً لما قال وتأيداً لما قال.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ ثَلَاثَةُ أوصافٍ ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ تتعسَّرُ عليه الأمورُ حتَّى وإنْ بُسِطَ له في الدنيا، ووُسِّعَ له في الرزق، وخدمته الرجال، وخدم أهل بيته النساء، فإنه في عُسْرَى، وفي ضَنْكٍ، وفي ضيقٍ، لا يعلم ما في قلبه من حرِّ البلاءِ إلَّا هو؛ لأن هذا إذا فكَّرَ هل هذا النعيم الذي هو فيه سيبقى، فسيعرف أنه لا يبقى، بل الأمر كما قال الشاعر^(١):

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنْغَصَّةً لَذَائِهِ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ

(١) البيت من الشواهد النحوية التي لا يعرف قائلها، انظر أوضح المسالك (١/٢٤٢)، وجمع الهوامع (١/١٧٧).

فكُلُّ إنسانٍ مآله إلى أحدٍ أمرين: إما موتٍ، أو هَرَمٍ، أي تخريفٍ.

فَمَنْ بَخِلَ بما يَجِبُ عليه بذله، واستغنى بنفسه عن تقوى الله عزَّ وجلَّ وكذب بالحسنى، أي بالصدق، وهو ما جاء في كتابِ الله ورسوله ﴿فَسُنِّيَرُهُمُ لِلْعُسْرَى﴾.

والمانع للزكاة بخیلٌ. وَمَنْ البخلِ أن يُذكرَ النبي ﷺ عندَ الإنسانِ ولا يُصَلِّي عليه، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ، كما جاء في الحديث: «البَخِيلُ الَّذِي مَنْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»^(١). اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عليه، فكلَّمَا ذُكِرَ اسمُ الرَّسُولِ ﷺ فصلَّ عليه، والمصلحة للمُصَلِّي على الرَّسُولِ، فالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في غِنَى عَنْكَ، لكن أنتَ لستَ في غِنَى عن شريعته، وأنتَ إذا صليتَ عليه صلى اللهُ عليك بها عَشْرًا، إذن المصلحة لك.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ﴾ [الليل: ١١] أي: ما يُغْنِي عن هذا البَخِيلِ ﴿مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ أي: إذا هَلَكَ، فأَيُّ شَيْءٍ يُغْنِي المَالَ إذا مَنَعَ الإنسانُ ما يَجِبُ بذله منه؟! لا شيء، بل هو ضَرَرٌ عليه، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، لا يُغْنِي شَيْئًا.

والعجيبُ - يا إخواننا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ألقى على أصحابِهِ لُغْزًا، قال: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالٍ وَارِثِهِ. قال: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا أَخَّرَ»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب قولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ»، رقم (٣٥٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له، رقم (٦٤٤٢).

فَإِذَا تَصَدَّقَ الْإِنْسَانُ مِنْ مَالِهِ فَهَذَا الْمَالُ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَالِ لَهُ، فَإِنْسَانٌ عِنْدَهُ عَشْرَةُ آلَافٍ، وَتَصَدَّقَ بِأَلْفٍ، فَالْمَالُ الَّذِي هُوَ الْأَلْفُ لَهُ وَلَيْسَ لِلْوَارِثِ؛ لِأَنَّهُ قَدَّمَهُ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]. فَإِذَا مَاتَ وَكَانَ الْبَاقِي تِسْعَةَ آلَافٍ، فَهَذِهِ التَّسْعَةُ لِلْوَرِثَةِ.

إِذَنْ، مَا لَكَ مَا قَدَّمْتَ، وَمَالُ وَارِثِكَ مَا أَخَّرْتَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ ١٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من الْمَالِ، فَهُوَ كَانَ بَخِيلًا لَا يُنْفِقُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُؤَكِّدًا هَذِهِ الْمَقَالَةَ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُعَادَ ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٢-١٣] مَا أَحْلَمَ اللَّهُ، مَا أَرْحَمَ اللَّهُ، مَا أَكْرَمَ اللَّهُ، مَا أَجْوَدَ اللَّهُ! ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ (عَلَى) لِلْجُوبِ، ﴿لَلْهُدَى﴾ اللَّامُ لِلتَّوَكُّيدِ، وَ(إِنْ) لِلتَّوَكُّيدِ، أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَهْدِيَ الْخَلْقَ، لَكِنْ هِدَايَةَ دَلَالَةٍ، فَكُلُّ الْخَلْقِ أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَهْدِيَهُمْ وَأَنْ يَدُلَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ، لَكِنَّ التَّوْفِيقَ بِيَدِ اللَّهِ، فَالتَّوْفِيقُ شَيْءٌ وَالدَّلَالَةُ شَيْءٌ آخَرُ، فَأَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَهْدِيَ الْخَلْقَ وَيَبَيِّنَ لَهُمْ.

وَهَذَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]. فَأَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُبَيِّنَ وَأَنْ يَهْدِيَ الْخَلْقَ، فَيُبَيِّنُ لَهُمُ الْحَقَّ، لَكِنْ لَا يُلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَهْدِيَ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّغُوتِ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴿[النحل: ٣٦]، لكنَّ
 اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَا بُدَّ أَنْ يُبَيِّنَ لِلْعِبَادِ، فَأَرْسَلَ الرُّسُلَ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا
 يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

قوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ (لنا) مقابل (على)، فبيَّن عزَّوَجَلَّ أَنَّهُ مِنْ حَيْثُ
 الشَّرَائِعُ قَدْ بَيَّنَّهَا وَالتَّزَمَ بَيَانُهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمَّا مِنْ حَيْثُ الْمُلْكُ فَلَهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى.
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ
 وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.



الدرس الثاني:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ ١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝ ٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ ٣﴾ إِنَّ

سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿[الليل: ١-٤].

الواوُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّيْلِ﴾ حَرْفُ جَرٍّ وَقِسْمٌ، أَيُّ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُقَسِّمُ بِاللَّيْلِ حِينَ غَشِيَانِهِ الْأَرْضَ، وَتَغْطِيَتِهِ الْأَرْضَ، وَهَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٢]، أَيُّ: ظَهَرَ وَبَانَ، وَهَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ، مَنْ يَأْتِي بِالنَّهَارِ إِذَا ذَهَبَ اللَّيْلُ؟ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، لَوْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ مِنْ جَنٍّ وَإِنْسٍ وَمَلَائِكَةٍ وَغَيْرِهِمْ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِهَذَا النَّهَارِ لَمْ يَتِمَّ كُنُوزُ ذَلِكَ، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]، فَأَقْسَمَ اللَّهُ بِاللَّيْلِ وَبِالنَّهَارِ، قَسَمًا بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ.

ثُمَّ أَرَدَفَ هَذَا الْقِسْمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ٣]، وَ(مَا) هُنَا اسْمٌ

موصولٌ بِمَعْنَى الَّذِي، يَعْنِي وَالَّذِي خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، وَهُوَ اللَّهُ، وَهُوَ وَاحِدٌ.
وَقَدْ تَكُونُ (مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، أَيُّ: وَخَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ
مُقَابِلَةٌ بَيْنَ الزَّمَانِ وَبَيْنَ الْخَلْقِ، الزَّمَانُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالْخَلْقُ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى، وَإِذَا
جَعَلْنَاهَا اسْمًا مَوْصُولًا صَارَ عطفَ مفردٍ على اثنين؛ لِأَنَّ الْخَالِقَ وَاحِدًا.

لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ (مَا) اسْمًا مَوْصُولًا، وَيَكُونُ التَّعَدُّدُ بِاعْتِبَارِ
الْمَخْلُوقِ، لَا بِاعْتِبَارِ الْخَالِقِ، وَالْمَخْلُوقُ هُوَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، وَهُمَا مُتَقَابِلَانِ، فَأَقْسَمَ اللَّهُ
تَعَالَى بِاثْنَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ فِي الزَّمَانِ وَفِي الذَّوَاتِ، فَاَلْمَقْسَمُ عَلَيْهِ اثْنَانِ مُتَضَادَّانِ فِي
الْعَمَلِ.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤]، وَلِيَتَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ لِيَرْبِطَ بَيْنَ الْمَقْسَمِ بِهِ وَالْمَقْسَمِ
عَلَيْهِ مِنْ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ وَيُظْهِرُ فِيهِ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ مَا لَا يَظْهَرُ لِلْغَافِلِ، مَا خَلَقَ
الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنَ الْبَشَرِ، أَوْ مِنَ الْجِنِّ، أَوْ مِنَ الْبَهَائِمِ، أَوْ مِنَ الْوُحُوشِ، أَوْ مِنَ
الْحَشَرَاتِ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الْأَشْيَاءِ الَّتِي فِيهَا ذَكَورٌ وَإِنَاثٌ، فِيهَا ذَكَورٌ تَلْقَحُ
الْإِنَاثَ، النَّخْلُ إِذَا لَمْ يَلْقَحْ لَمْ يَنْفَعِ.

وَلِهَذَا لَمَّا قَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ ذَاتَ نَخِيلٍ، وَمَكَّةُ لَا نَخْلَ
بِهَا، رَأَى النَّاسَ يَأْخُذُونَ مِنْ طَلْعِ الْفَحَالِ، وَيَضْعُونَ فِي ثَمَارِ النَّخْلِ، قَالَ: «مَا أَظُنُّ
ذَلِكَ يُجْدِي شَيْئًا»؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَعْهَدُ هَذَا الشَّيْءَ، فَتَرَكَ الصَّحَابَةُ هَذَا،
قَالُوا: مَا دَامَ لَا يُجْدِي كَمَا يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَفْعَلَهُ، فَلَمَّا لَمْ يَفْعَلُوا
فَسَدَ الثَّمَرُ، فَجَاءُوا لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا...، رقم (٢٣٦٣).

وهو ﷺ أعلم منا بأمور ديننا.

إذن؛ الذكر والأنثى هنا من كل شيء كما قلنا آنفاً.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ السعي هنا بمعنى العمل، لا بمعنى الجري بشدة، وهو يطلق -أعني السعي- تارة على الجري بشدة، كقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لَا تَأْتُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ تَسْعُونَ»^(١). يعني تجرون بشدة، وتارة يُرادُ بالسعي مُطلقُ العمل، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، فالمقصودُ بالسعي هنا أي: العمل، ومعنى ﴿لَشَتَّى﴾ أي: مُتفرق ومختلف، لا في الدين؛ بل في الدنيا، فهذا مزارعٌ، وهذا تاجرٌ، وهذا بناءٌ، وهذا حدادٌ، وهذا نجارٌ، فهو سعيٌ مُختلفٌ؛ لأنَّ النَّاسَ لو كان سعيهم واحداً لتعطلت المصالحُ.

لو قَدَرْنَا كُلَّ النَّاسِ بَنَائِينَ، من يصنعُ القدورَ والأواني؟! وكذلك لو قَدَرْنَا أَنَّ كُلَّهُمْ مُزَارِعُونَ؛ مَنْ يَأْتِي بِبَضَائِعٍ مِنَ الْأَسْوَاقِ؟! كذلك كُلُّهُمْ تُجَّارٌ مَنْ يَزْرَعُ؟! لكنَّ لحكمةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ جعلَ سَعِينَا مُخْتَلِفًا، كُلُّ يَسْعَى حَسَبَ مَا يُقَدَّرُ لَهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُعَمَّرَ الدُّنْيَا.

كَذَلِكَ فِي الدِّينِ، وَمَا أَعْظَمَ التَّفَرُّقَ فِي الدِّينِ! وَمَا أَكْثَرَ التَّفَرُّقَ فِي الدِّينِ! رَجُلٌ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- خُلِقَ لِلْكَفْرِ وَالِاسْتِكْبَارِ وَالْجُحُودِ، وَرَجُلٌ آخَرُ مُؤْمِنٌ؛ لَكِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ جَانِبُ الْعِبَادَةِ مَعَ الْجَهْلِ، وَآخَرُ مُؤْمِنٌ عَابِدٌ يَغْلِبُ عَلَيْهِ جَانِبُ الْعِلْمِ؛ لَكِنَّهُ لَيْسَ كَالأَوَّلِ فِي الْعِبَادَةِ، وَالثَّانِي جَامِعٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ عِلْمٍ وَعِبَادَةٍ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة، رقم (٦٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٣).

رجل سيئ الخلق، مُستكبر، فخور، مختال، وآخر بالعكس، حسن الخلق، متواضع للخلق، متواضع للحق، بشوش، يبدأ بالسلام، ويرد السلام بطلاقة، وهلم جرا.

تجد أيضا رجلاً حريصاً على اتباع السنة، سنة رسول الله ﷺ، لا يبيعها بأي ثمن، لا في العقيدة، ولا في العمل، ولا في الفعل، ولا في الترك، يمشي مع هدي النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عقيدةً وقولاً وفعلًا وتركًا، وآخر بالعكس، مبتدع، يقول في ديننا ما ليس فيه، يفعل ما لم يؤمر به، يترك ما أمر به، بينهما فرق عظيم.

وأعظم شيء في ذلك هو الانحراف في العقيدة، فالانحراف في العقيدة أخطر ما يكون، ونضرب لكم مثلاً فيما عليه كثير من المتكلمين، حيث لا يُقرّون بكثير من صفات الله عزَّ وجلَّ، يُقرّون بصفات معدودة لا تبلغ عدد أصابع اليدين، وينكرون الباقي، لكن إنكارهم إياها ليس إنكار تكذيب؛ بل إنكار تأويل؛ لأنه لو كان إنكار تكذيب لكَفَرُوا؛ لكنه إنكار تأويل، فقد يُعذروا فيه، وقد لا يُعذروا، وأضرب لكم مثلاً أبين لكم الفرق بين إنكار التكذيب وإنكار التأويل:

رجل قال في تفسير الآية التي أشرنا إليها قبل قليل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قال: هي النظر إلى وجه الله، قال: والمراد بالنظر إلى وجه الله: النظر إلى ثواب الله، أي: إلى ما أعدَّ الله في الجنة. فهذا قد أقرَّ بالنظر إلى وجه الله، ولم يقل: إنه ليس بنظر؛ ولكنه أول تأويلاً فاسداً؛ لأنَّ هناك فرقاً عظيماً بين من يقول: النظر إلى وجه الله، والنظر إلى نعيم الله. وبين من يقول: أبداً لا ينظرون إلى وجه الله، هذا نقول له: إنَّكَ كافر؛ لأنه كذب، والذي يقول: ينظرون إلى وجه الله

لكنَّ المرادَ بِذلكَ النظرُ إلى ثوابه، هَذَا مُؤَوَّلٌ.

والمؤوَّلُ لَهُ دَرَجَاتٌ، تَارَةٌ تُنْزَلُ تَأْوِيلُهُ إِلَى مَا لَا يَكُونُ سَائِغًا لُغَةً وَلَا شَرْعًا، وَهَذَا فِيهِ حَكْمُ التَّكْذِيبِ، وَتَارَةٌ يَكُونُ لَهُ وَجْهٌ سَائِغٌ، إِمَّا فِي اللُّغَةِ، أَوْ فِي نَصُوصٍ أُخْرَى تُشْتَمِلُ عَلَيْهِ، وَهَذَا لَيْسَ فِيهِ حَكْمُ التَّكْذِيبِ.

فَمَثَلًا قَوْلُهُ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، قَالَ بَعْضُهُمْ: اسْتَوَى يَعْنِي اسْتَوَى. وَقَالَ الْبَعْضُ الْآخَرُ: لَا، لَمْ يَسْتَوِ عَلَى الْعَرْشِ. وَالثَّلَاثُ قَالَ: اسْتَوَى بِمَعْنَى عَلَا عَلَى وَجْهِ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ. فَهَذِهِ رَوَايَاتُ ثَلَاثٍ، فَالَّذِي قَالَ: لَمْ يَسْتَوِ عَلَى الْعَرْشِ؛ هَذَا مَكْذُوبٌ، كَافِرٌ، وَالَّذِي قَالَ: اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بِمَعْنَى اسْتَوَى. هَذَا مُؤَوَّلٌ، وَالَّذِي قَالَ: اسْتَوَى بِمَعْنَى عَلَا عَلَى وَجْهِ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، لَا نُكَيِّفُ وَلَا نُثَبِّتُ؛ فَهَذَا سَلَفِيٌّ، عَلَى مَذْهَبِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، إِذْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ: إِنَّ اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوَى، أَبَدًا؛ بَلْ كَانُوا يَقُولُونَ: اسْتَوَى أَيُّ: عَلَا عَلَى عَرْشِهِ عَلَى وَجْهِ يَلِيقُ بِهِ، لَا نُكَيِّفُ وَلَا نُثَبِّتُ.

فَالْمَقْصُودُ بِالسَّعْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أَيُّ: الْعَمَلُ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا مُطَابَقَةُ الْقِسْمِ يَعْنِي الْمَقْسَمَ بِهِ لِلْمَقْسَمِ عَلَيْهِ؟

قُلْنَا: الْمُطَابَقَةُ ظَاهِرَةٌ جَدًّا، أَقْسَمَ اللَّهُ بِأَشْيَاءٍ مُتَضَادَّةٍ: لَيْلٍ وَنَهَارٍ، ذِكْرِ وَأُنْثَى، السَّعْيُ أَيْضًا مُتَضَادٌّ، إِيمَانٌ وَكُفْرٌ، مَعَاصٍ وَاسْتِقَامَةٌ، وَهَكَذَا.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾، هَذَا تَفْصِيلُ التَّفَرِيقِ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى

⑥ فَسَيَّرَهُ لِلْيُسْرَى ﴿[الليل: ٥-٧]، هَذِهِ الْآيَةُ جَمَعَتْ فِعْلَ الْأَوَامِرِ، وَتَرَكَ النِّوَاهِي،

وَتَصَدِّقَ الْأَخْبَارِ، وَهَذَا هُوَ الشَّرْعُ، الشَّرْعُ أَوَامِرٌ، وَنَوَاهٍ، وَأَخْبَارٌ، هَذِهِ الْآيَةُ تَتَضَمَّنُ

الثلاثة، فإمّا أن يُخْرِجَ مِنْ مَالِهِ كَالصَّدَقَةِ وَالزَّكَاةِ، أَوْ يَبْذُلَ جَهْدَهُ كَالْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ
مِثْلَ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

وَمَعْنَى: ﴿وَأَتَّقِ﴾ أَي: اتَّقِ الْمَعَاصِيَ، أَي: تَجَنَّبْهَا، ﴿وَصَدَّقْ بِالْحُسْنَى﴾ أَي:
صَدَّقْ بِقَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَهِيَ الْخَيْرُ الصَّادِقُ.

بِهَذَا تَكُونُ الْآيَةُ قَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، فِعْلُ الْأَوَامِرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَعْطَى﴾؛
لأنَّ الْإِعْطَاءَ بِمَعْنَى الْبَذْلِ، أَي: بَذَلَ الْمَالِ وَالنَّفْسَ، وَأَيْضًا تَرَكُ النَّوَاهِي فِي قَوْلِهِ:
﴿وَأَتَّقِ﴾، وَأَيْضًا التَّصَدِيقُ بِالْأَخْبَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَصَدَّقْ بِالْحُسْنَى﴾، إِذَنْ جَمَعَتِ الدِّينَ
كُلَّهُ.

﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٧]، التَّيْسِيرُ هُنَا هُوَ تَحْقُوقُ الْأَمْرِ مَعَ قَرْبِهِ، فَالْسَيْنُ تَدُلُّ
عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ مُتَحَقِّقٌ، وَأَنَّهُ قَرِيبٌ، فَجَوَابُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾،
هُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَسَنِّيَرُهُ﴾، وَالْفِعْلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَنِّيَرُهُ﴾ عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا قَالَهَا بَنُونَ
الْجَمْعِ، وَلَمْ يَقُلْ: أُيَسِّرُهُ؛ لِأَنَّ هَذَا جَمْعٌ لِلتَّعْظِيمِ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ النُّصْرَانِيُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ
عَلَى تَعَدُّدِ الْأَلْهَةِ، حَيْثُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَقَالَ: دَلِيلِي قَوْلُهُ: ﴿فَسَنِّيَرُهُ﴾،
وَهَذَا لِلْجَمْعِ.

فَكَيْفَ يَقُولُ هَذَا وَيَتْرَكَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾
[المائدة: ٧٣]؟! هَلِ اتَّبَعَ الْمُتَشَابِهَ وَتَرَكَ الْمَحْكَمَ، أَوْ أَخَذَ بِالْمَحْكَمِ وَحَمَلَ الْمُتَشَابِهَ عَلَيْهِ؟
وَالْجَوَابُ: أَنَّهُ اتَّبَعَ الْمُتَشَابِهَ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يَتَّبِعُونَ
مَا تَشَابَهَ مِنْهُ.

وَلِهَذَا إِذَا قَالَ النُّصْرَانِيُّ: إِنَّ الْأَلْهَةَ مُتَعَدِّدَةٌ، قُلْنَا: إِنَّ اللَّهَ كَفَّرَكَ بِهَذَا الْقَوْلِ

وكذَّبكَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ هَذَا حَكْمٌ بِالْكَفْرِ، التَّكْلِيفُ، ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، فَإِذَا كُنْتَ تَسْتَدِلُّ عَلَيْنَا بِقَوْلِ اللهِ؛ فَهَذَا اللهُ يُكَذِّبُكَ وَيُكَفِّرُكَ بِمَا قُلْتَ، لَكِنَّكَ زَائِعٌ، تَتَّبِعُ الْمُتَشَابِهَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَيِّئُ السُّرَى﴾: هِيَ كُلُّ مَا تَيْسَرُ مِنَ الْأُمُورِ، أَيُّ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَيْسِرُ لَهُ الْأُمُورَ حَتَّى الْأُمُورَ الشَّاقَّةَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا تَكُونُ عَلَيْهِ يَسِيرَةً؛ لِأَنَّهُ رَاضٍ بِاللَّهِ رَبًّا، مُدَبِّرًا، إِلَهًا، حَكِيمًا، لَا يُقَدَّرُ شَيْئًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ، فَهُوَ رَاضٍ دَائِمًا، أُمُورُهُ مُتَيْسِرَةٌ حَتَّى فِي الْأُمُورِ الصَّعَابِ تَكُونُ عَلَيْهِ مُيسرةً سَهْلَةً، حَتَّى تَجِدَهُ قَانِعًا بِكُلِّ مَا قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ، إِنْ أُعْطِيَ شُكْرًا، وَإِنْ ابْتُلِيَ صَبْرًا، وَإِنْ أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ؛ لِأَنَّهُ مَيْسَرٌ لِلْيُسْرَى، وَجَرَبٌ هَذَا يَا أَخِي؛ تَجِدُ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ حَقًّا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فَاللهُ تَعَالَى لَمْ يَقُلْ: فَلَنُوسِعَنَّ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ، أَوْ فَلَنُعْطِيَنَّهُ الزَّوْجَاتِ وَالْأَوْلَادَ وَالْقُصُورَ وَالْمَرَاقِبَ وَالْمُلُوكَ، بَلْ قَالَ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾، أَيُّ: يَكُونُ دَائِمًا فِي سُرُورٍ، دَائِمًا فِي نَعِيمٍ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ»^(١). وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَّن لَّمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ، قِيلَ: وَمَا الْجَنَّةُ؟ قَالَ: نَعِيمُ الْقَلْبِ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِذِكْرِهِ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ»^(٢). هُوَ دَائِمًا سَائِرٌ مَعَ اللهِ، يَمْتَثِلُ أَمْرَهُ، وَيَجْتَنِبُ نَهْيَهُ، يُدِيمُ ذِكْرَهُ، وَيَرْضَى

(١) قاله إبراهيم بن أدهم، حلية الأولياء (٧/ ٣٧٠).

(٢) كذا نسبه ابن القيم في مدارج السالكين: (١/ ٥٣٦)، والوابل الصيب (ص: ١٠٩) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

بِقَضَائِهِ، هذه وَاللهِ الحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ، وليس المقصودُ بِالحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ نعيمَ البدنِ، فَنعيمُ البدنِ يَزُولُ بِزوالِ البدنِ، لكنَّ نعيمَ القلبِ هو النعيمُ.

إذن، (نيسرُهُ لِلْيُسْرَى): أي: نَجْعَلُ أُمُورَهُ كُلَّهَا ميسرةً، إن همَّ بعبادةٍ تيسرتُ عليه، إن همَّ بأيِّ شيءٍ مِمَّا يَنْفَعُهُ فِي دينِهِ ودُنْيَاهُ يَجِدُهُ مُيسراً عليه.

الرَّدُّ عَلَى مَنْ احتجَّ بِالْقَدْرِ:

﴿وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَغْنَى﴾ [الليل: ٨]، (بِخْلٍ) مقابلُ (أَعْطَى)، و(استغنى) مقابلُ (اتَّقَى)، يَعْنِي استغنى بِنَفْسِهِ عَن رَّبِّهِ، وَلَمْ يَخَفْ رَبَّهُ، و(كَذَّبَ بِالْحَسَنَى) مقابلُ (صَدَّقَ بِالْحَسَنَى)، فَسُنُسِرُهُ لِلْيُسْرَى مُقَابِلُ فَسُنُسِرُهُ لِلْيُسْرَى، فَهَذَا فِيهِ تَقَابُلٌ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ضَلَالَ مَنْ ضَلَّ إِنَّمَا هُوَ بِنَفْسِهِ، أَي: هُوَ السَّبَبُ فِي ضَلَالِهِ، وَإِلَّا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَمْنَعْ فَضْلَهُ مَن طَلَبَ فَضْلَهُ، لَكِنَّ الَّذِي يَسْتَغْنَى عَن رَّبِّهِ هُوَ الَّذِي جَنَى عَلَى نَفْسِهِ.

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ هَذَا ظَاهِراً؛ فَاقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، لَمْ يُزِغِ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ حَتَّى زَاغُوا، وَأَيْضاً قَوْلُهُ: ﴿فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

إذن؛ فَتَشْ فِي نَفْسِكَ يَا أَخِي قَبْلَ أَنْ تَعْتَبَ عَلَى رَبِّكَ، هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَسُنُسِرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ عِنْدَمَا قَرَأَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ»، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مَقَاعِدَنَا مَقَاعِدَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، كُلُّ إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ

مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمِنَ النَّارِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَدْعُ الْعَمَلَ وَنَتَّكِلُ؟! قَالَ: «اعْمَلُوا، فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(١)، هذه الكلمة: «اعْمَلُوا، فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، وهذه العبارة مُكوَّنة من جُمْلَتَيْنِ: فـ «اعْمَلُوا» هذه جملة، و «كُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، جملة ثانية، فـ (كُلُّ) مُبتدأ، و (مُيسَّرٍ) خبرُ المبتدأ، و (لِمَا) معمولٌ لميسَّر، يعني جار مُتعلق بـ (مُيسَّرٍ)، و (خُلِقَ لَهُ) جملة؛ لكنَّها صارت مَوْصُولَةً، وجملة الموصول بِمَنْزِلَةِ الْمَفْرُودِ.

أَخْلَصُ مِنْ ذَلِكَ فَأَقُولُ: هَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ أَغْتَا عَنْ مَجْلَدَاتٍ كَبِيرَةٍ، فَبَدَلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ الْإِنْسَانُ بِفِلْسَافَةٍ وَكَلَامٍ طَوِيلٍ عَرِيضٍ؛ هَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ يُغْنِيَانِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ: «اعْمَلُوا، فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

فَإِنْ قَالَ: وَمَاذَا أَعْمَلُ؟ نَقُولُ: اْعْمَلِ الْخَيْرَ، وَسَيُسِّرُهُ اللَّهُ لَكَ؛ لِأَنَّا نَقُولُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ، وَقَالَ: مَا دَامَ الْأَمْرُ مَكْتُوبًا فَلِمَ الْعَمَلُ؟! أَقُولُ: يَا أَخِي اْعْمَلْ، وَإِذَا رَأَيْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ يَسَّرَ لَكَ الْخَيْرَ فَهَذِهِ بُشْرَى سَارَةٍ، أَنَّكَ مِنْ يُسَّرَتْ لَهُ الْيُسْرَى، وَنَقُولُ لَكَ بِكُلِّ بَسَاطَةٍ: هَلْ أَنْتَ تَتْرُكُ الزَّوْاجَ وَتَقُولُ: لَا حَاجَةَ أَنْ أَتَزَوَّجَ، إِنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ كَتَبَ لِي أَوْلَادًا، فَسَيَأْتُونَ، تَزَوَّجْتُ أَمْ لَمْ أَتَزَوَّجْ؟! هَلْ يَقُولُ عَاقِلٌ بِهَذَا؟! فَالْأَوْلَادُ مَرْبُوطَةٌ بِالزَّوْاجِ، وَالْجَنَّةُ مَرْبُوطَةٌ بِالْعَمَلِ، وَمِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ السَّابِقِ لَا يُقْبَلُ عَقْلًا؛ بَلْ إِنَّ النَّاسَ يَسْعَوْنَ جَادِّينَ لِلْحَصُولِ عَلَى الْبَاءَةِ لِيَتَزَوَّجُوا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة الليل إذا يغشى، باب ﴿فَسَيِّئُهُ لِلْعُسْرَى﴾، رقم (٤٦٦٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

نقول أيضًا: الجنة مكتوبة لك بعمل، اعمل لها حتى تُدرَكها؛ ولهذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اعْمَلُوا، فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، أمّا أهل السعادة هكذا في الحديث فيُيسرون لعمل أهل السعادة، وأمّا أهل الشقاوة فيُيسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم تلا هذه الآيات: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ ﴿١٠﴾ وَلِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَاصِي أَنْ يَحْتَجَّ بِالْقَدَرِ؛ لَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ إِذَا احْتَجَّ بِالْقَدَرِ فَهُوَ ضَالٌّ.

لو قال قائل: أنا لن أبيع ولا أشتري، إن كان لم يرد الله لي أن آتي بالدرهم. فهل يقبل منه؟ فإن قلنا: لا، فقد أخطأنا، وإن نعم فقد أخطأنا أيضًا؛ لأن مسألة الرزق ليست محصورة في البيع والشراء؛ لَأَنَّهُ قَدْ يَأْتِيهِ الْمَالُ هَبَةً، وَقَدْ يَأْتِيهِ بِالْإِرْثِ، أَمَّا مسألة الزواج فالأمر مختلف فيها؛ لَأَنَّهُ لَوْ قَالَ: وَاللَّهِ إِنْ كَانَ أَوْلَادِي سَيِّئَاتُونَ، فَلِمَ الزَّوْجُ؟ فهل يُمكنُ أَنْ يَقُولَ بِهَذَا عَاقِلٌ؟! الجواب: لا يمكن، فإذا أمكن أن يُعارضنا في مسألة الرزق؛ فإنه لا يستطيع المعارضة في هذه المسألة.

كَذَلِكَ الْعَاصِي لَا يُمْكِنُ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُ حُجَّةٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِطْلَاقًا؛ وَلِهَذَا أَبْطَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْحُجَّةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وَلَوْ كَانَتْ حُجَّتُهُمْ مَقْبُولَةً، هَلْ يَذِيقُهُمُ اللَّهُ بِأَسْهٍ؟ لَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَظْلِمُ أَحَدًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

إذن؛ لَا حجةَ لِلْعَاصِي بِقَدَرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

ثُمَّ نَقُولُ لِلْعَاصِي أَيْضًا: هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ عَلَيْكَ الْمَعْصِيَةَ؟! هُوَ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَهَا لَا يَدْرِي، لَكِنَّهُ بَعْدَ فِعْلِهَا يَدْرِي أَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَهَا عَلَيْهِ وَلَا شَكَّ؛ إِذَنْ أَنْتَ الْآنَ أَقْدَمْتَ عَلَى الْفَعْلِ، وَأَنْتَ حِينَ إِقْدَامِكَ لَا تَعْلَمُ، فَلِمَ إِذَا لَمْ تُقَدِّرِ الْحُسْنَى فِي حَقِّكَ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ أَنَّكَ مِنَ الْمُتَّقِينَ فَتَتَّقِيَ اللَّهَ؟!!

وَالْمَسْأَلَةُ وَاضِحَةٌ، أَنَّهُ لَا حجةَ لِلْعَاصِي لَا شَرْعًا وَلَا حِسًّا وَلَا عَقْلًا عَلَى مَعْصِيَتِهِ بِأَنَّهُ كَانَ أَجْدَرَ بِهِ أَنْ يُقَدَّرَ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ لَهُ الْهُدَايَةَ، وَأَنْ يَفْرَحَ كُلَّمَا عَمَلَ طَاعَةً، وَيَنْشِطَ، وَيَقُولَ: هَذَا مِنْ عَلامَةِ التَّوْفِيقِ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ بِفَعْلِ طَاعَةٍ أَنْ يَنْشِطَ عَلَى فَعْلِ الطَّاعَةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَنْ يَقُولَ: هَذِهِ بُشْرَى مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ يَسَّرَنِي لِلْيُسْرَى.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١]، فـ(ما) هُنَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اسْمَ اسْتِفْهَامٍ، يَعْنِي: أَيُّ شَيْءٍ يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى؟ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ نَافِيَةً، أَيُّ: لَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ شَيْئًا إِذَا هَلَكَ، هَذَا الَّذِي بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، إِذَا هَلَكَ لَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ شَيْئًا.



الدرس الثالث:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ
حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ،
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١].

هَذَا قَسَمٌ بِاللَّيْلِ إِذَا غَشِيَ الْبَسِيطَةَ، وَغَطَّاهَا بِسَوَادِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ ثَوْبٌ أَسْوَدُ
أُلْقِيَ عَلَى الْأَرْضِ فَيُغَطِّيْهَا، وَيَقَابِلُ ذَلِكَ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٢]، أَيِ ظَهَرَ وَبَانَ،
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَلَيْلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ
تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧-٣٨].

فَأَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِشَيْئَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ: الْأَوَّلُ: اللَّيْلِ إِذَا غَشِيَ الْبَسِيطَةَ،
وَالثَّانِي: النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَظَهَرَ وَبَانَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [الليل: ٣]؛ (مَا) هُنَا تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ
مَوْصُولَةً بِمَعْنَى (الَّذِي)، وَالثَّانِي: أَنْ تَكُونَ مَصْدَرِيَّةً، فَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ الْمَعْنَى:
وَالَّذِي خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، فَيَكُونُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ أَقْسَمَ بِذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ؛ الَّذِي
خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الذَّكَرَ مُقَابِلٌ لِلْأُنْثَى، فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِشَيْئَيْنِ
مُتَضَادَّيْنِ.

أما على أن (ما) مصدرية فإن (ما) المصدرية يُسبق ما بعدها بمصدر، وعلى هذا فيكون (وَمَا خَلَقَ) تقديره: وخلق الذكر والأنثى، فيكون ذلك إقسامًا بصفة من صفات الله؛ وهي خلق الذكر والأنثى، وهما أيضًا متقابلان، وفيه دليل على تمام قدرة الله عز وجل؛ كما قال الله تعالى في سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى ۝٣٧﴾ ثم كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۝٣٨ فَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ۝﴾ [القيامة: ٣٧-٤٠].

فهذه أربعة أشياء متقابلة: الأول والثاني: الليل والنهار؛ الليل إذا غشي البسيطة، والثاني: النهار إذا تجلّى؛ أي ظهر وبان. الثالث والرابع: الذي خلق الذكر والأنثى، وهو الله؛ فيكون الله تعالى أقسم بذاته المقدسة، وهذا بناء على أن (ما) اسمٌ موصولٌ.

والمقسم عليه ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤]؛ سعي بني آدم شتى، متفرق، مختلف، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

والسعي هو العمل، سواء كان برفق أو بسرعة، وليس السعي هو الجري بسرعة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، وقال النبي ﷺ: «إِذَا نُوبَ^(١) بِالصَّلَاةِ فَلَا يَسْعَ إِلَيْهَا أَحَدُكُمْ، وَلَكِنْ لِيَمْشِرِ وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ»^(٢).

(١) أي: أقيمت الصلاة. انظر: فتح الباري (٢/ ١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار، رقم (٦٣٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيًا، رقم (٦٠٢).

فالسعي في قوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: بادِرُوا وسَابِقُوا إليه، والسعي المنهي عنه هو العجلة والسرعة.

إذن ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ المراد بذلك العمل ﴿لَشَقِّ﴾ لمُخْتَلِفٌ، وهذه الجملة التي وَقَعَ الإقسامُ عليها نقول: إنها مؤكدة بثلاثة مؤكّدات: القسم، و(إن)، واللام.

وانظر في قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَقِّ﴾ مُطَابَقَةُ الْمُقْسَمِ بِهِ لِلْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، فالمقسمُ به أشياء متضادةٌ، مُتَقَابِلَةٌ، والمقسمُ عليه كذلك مُتَقَابِلٌ متضادٌّ؛ ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَقِّ﴾ مِنْ النَّاسِ مَنْ سَعْيُهُ صَالِحٌ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ سَعْيُهُ فَاسِدٌ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ سَعْيُهُ أَصْلَحُ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ دُونَ ذَلِكَ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ سَعْيُهُ أَفْسَدُ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ دُونَ ذَلِكَ، فالسعي مُخْتَلِفٌ، متفرّق غاية التفرّق، فتجدُ اثنين يُصَلِّيَانِ بَعْضُهُمَا إِلَى جَنْبِ الْآخَرِ، وَبَيْنَ عَمَلَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَهُمَا يُصَلِّيَانِ جَمِيعًا، خَلْفَ إِمَامٍ وَاحِدٍ، وَأَفْعَالُهُمَا وَاحِدَةٌ، لَكِنْ بَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَذَلِكَ لِمَا قَامَ فِي قَلْبِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْإِحْلَاصِ وَالْإِخْبَاتِ لِلَّهِ وَالْمَتَابَعَةِ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومن هذه النقطة أحبُّ أن أوجّهَ إلى شيئين:

الشيء الأول: عندما نفعلُ المأمورَ به يَنْبَغِي أن نستحضرَ أَنَّنَا فَعَلْنَاهُ لِأَمْرِ اللَّهِ بِهِ، لِيَحْدُونَا ذَلِكَ إِلَى الْإِحْلَاصِ.

يعني عندما أقومُ وأتوضأُ أستحضرُ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِهَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَايَأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وكأنني أنفذُ أَمَرَ اللَّهِ أَمْرًا أَمْرًا؛ لِأَنَّهُ أَمَرَنِي بِذَلِكَ.

الشَّيْءُ الثَّانِي: أن نستحضر أننا مُتَّبِعُونَ بهذا لرسولِ الله ﷺ؛ حتى يتمَّ تجريدُ المتابعةِ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وهذان الأمران - مع الأسف الشديد - نغفلُ عنهما كثيراً، فحاسبْ نفسك؛ هل أنت يوماً من الأيام والصنوبرُ يصبُّ علي يدك استحضرتَ أن الله قال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]؟

حاسبْ نفسك يا أخي؛ حتى تكونَ مُنفِذاً لأمرِ الله، ويقومَ في قلبك من الإخلاصِ لله، والتقربِ إليه، وتعظيمِهِ عزَّجَلَّ ما لم يكنْ عندك حينَ الغفلةِ.

كذلك أيضاً تستحضرُ أنك متابعٌ لرسولِ الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكأنَّ الرسولَ ﷺ أمامك يتوضأ، وانتبه لَتَتِمَّ المتابعةُ والأسوةُ التي قالَ اللهُ عنها: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهكذا نقولُ في الصَّلَاةِ، ونقولُ في الصَّيَامِ، ونقولُ في الصَّدَقَةِ، ونقولُ في الحجِّ، ففي كلِّ العباداتِ نستحضرُ أننا نفعلُ هذا امتثالاً لأمرِ الله؛ لأن هذا يؤدي إلى قوة اليقين.

ونفعلُ هذا اتباعاً للرسولِ ﷺ، وهذا أيضاً يؤدي إلى كمالِ محبةِ الرسولِ ﷺ والتأسي به.

فينبغي الانتباهُ لهذا؛ لأن الغفلةَ تَسْتَوِي علينا كثيراً، ويقومُ الإنسانُ لِيَتَوَضَّأَ لأجلِ أن الوضوءَ شرطٌ لصحةِ الصَّلَاةِ، لكن لا يستحضرُ أنه يتوضأُ امتثالاً لأمرِ الله، أو متابعةً لرسوله ﷺ، إلّا أن هذا قائمٌ في قلبِ كلِّ مؤمنٍ، فكلُّ مؤمنٍ لو سأله: لماذا تتوضأ؟ لقال: مُخْلِصاً لله، مُمْتِثاً لأمرِهِ. ولو سأله: لماذا تؤدي الوضوءَ

على هذه الصفة؟ فإنه يقول: اتِّبَاعًا لِسَنَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ ثُمَّ فَصَّلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ ٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿[الليل: ٥-٧]، هذه أوصافٌ ثلاثة يَتَرَتَّبُ عليها سعادة الدُّنْيَا والآخرة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾، والثاني: ﴿وَاتَّقَى﴾، والثالث: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾، فهذه ثلاثة أمور؛ (أَعْطَى) أي: بذل ما أمر به من مالٍ أو عملٍ، و(اتَّقَى): اجْتَنَبَ ما نُهي عنه، فهاتان الكلمتان انتظمتا الأمر والنهي.

بَقِيَ عندنا الخبر؛ لأنَّ الشرعَ كلُّه إنشاءٌ وخبرٌ، وفي الخبرِ قَالَ: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾؛ وبذلك تَمَّ الدِّينُ كُلُّهُ، فالدينُ كُلُّه إعطاءٌ، واتقاءٌ، وتصديقٌ، فَمَنْ جَمَعَ بينَ هذه الأمورِ الثلاثةِ ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ وتيسيرُ الله للعبدِ لليُسْرَى بحسبِ ما قامَ به من عملٍ أو تصديقٍ، فكلِّما كان أحسنَ عملاً، وكلِّما كان أشدَّ اجتناباً للنهي، وكلِّما كان أقوى يقيناً وإيماناً، كانت اليسرى له أسرعَ ممَّا إذا كان على خلاف ذلك.

ولنبينا مُحَمَّدٍ ﷺ من هذا أكبرُ الحُظِّ والنصيب، قَالَ اللهُ تَعَالَى له: ﴿وَنُيَسِّرْكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: ٨]؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قامَ بهذه الأوصافِ على الوجهِ الأكملِ؛ أَعْطَى، وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَبَذَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ مِنْ مَالِهِ، وَبَدَنِهِ، وَجَاهِهِ ما لم يَبْذُلْهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَاتَّقَى ما لم يَتَّقِهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَقَالَ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي»^(١).

قال: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ والحُسْنَى كُلُّ خَيْرٍ أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فَإِنَّهُ حُسْنَى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، رقم (١١١٠).

قال: ﴿فَسَيِّئْرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ أي: للخصلة اليسرى، ولم يُقَيِّدِ اللهُ تَعَالَى هَذَا التَّيْسِيرَ فِي الدُّنْيَا، بَلْ قَالَ: ﴿فَسَيِّئْرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ فَهَذَا التَّيْسِيرُ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْإِنْسَانُ مُضْطَرٌّ إِلَى التَّيْسِيرِ فِي الْآخِرَةِ أَشَدَّ مِنْ اضْطِرَارِهِ إِلَى التَّيْسِيرِ فِي الدُّنْيَا.

قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ ٥ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ ٦ ﴿فَسَيِّئْرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ هَذَا قِسْمٌ، وَالْقِسْمُ الثَّانِي: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ ٨ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ ٩ ﴿فَسَيِّئْرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٨-١٠] (بَخِلَ) ضِدُّ (أَعْطَى)، و(اسْتَغْنَى) ضِدُّ (اتَّقَى)، وَالثَّلَاثُ: (كَذَّبَ بِالْحُسْنَى) ضِدُّ (صَدَّقَ بِالْحُسْنَى).

قوله: ﴿مَنْ بَخِلَ﴾ أي: بنفسه، وماله، وجاهه، وكلُّ ما أُمِرَ بِبَذْلِهِ، بِخِلَ بِهِ وَامْتَنَعَ عَنْ إِعْطَائِهِ.

قوله: ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ أي: رَأَى نَفْسَهُ غَنِيًّا عَنِ اللهِ، وَاعْتَزَّ بِنَفْسِهِ فَلَمْ يَتَّقِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَمْ يَبَالِ بِأَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ.

وَالثَّلَاثُ: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ لَمْ يُصَدِّقْ بِالْقَوْلَةِ الْحُسْنَى؛ وَهِيَ قَوْلَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ، بَلْ كَذَّبَ بِهَا؛ إِمَّا صِرَاحَةً، وَإِمَّا تَلْمِيحًا وَتَلْوِيحًا، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَهَذَا يُيسِّرُ لِلْعُسْرَى؛ أَيِ تَكُونُ أُمُورُهُ كُلُّهَا عَسِيرَةً، حَتَّى لَوْ تَيَسَّرَتْ ظَاهِرًا، فَهِيَ عَسِيرَةٌ بَاطِنًا؛ وَفِي قَلْبِهِ مِنَ الْحَرَارَةِ وَالضُّيْقِ وَالضَّنْكِ وَالْغَمِّ وَالْهَمِّ مَا يَجْعَلُ كُلَّ أَمْرِهِ عَسِيرًا عَلَيْهِ.

هَاتَانِ الْآيَتَانِ قَرَأَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ حِينَما حَدَّثَ أَصْحَابَهُ وَهُوَ عَلَى قَبْرِ فِي الْبَقِيعِ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا

خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»^(١).

والحمد لله أن الله عزَّ وجلَّ يُسِّرُ الرَّدَّ على كلِّ إشكالٍ حقيقيٍّ يَحْتَاجُ إلى رَدٍّ؛ يُسَّرُ أن يسألَ عنه أحدُ الصحابةِ حتَّى يُزَالَ الإشكالُ على لسانِ رسولِ الله ﷺ؛ ولهذا قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]؛ فما من مشكلةٍ حقيقيةٍ إلا وقد حُلَّتْ؛ إما من كتابِ الله، أو سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ؛ إما ابتداءً وإما لسببٍ من الأسبابِ.

قال: «اعْمَلُوا فِكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» الله أكبر! كلمتان يمكن أن يكتبَ عنهما أصحابُ الكلامِ وأصحابُ الفلسفةِ مجلَّداتٍ، ولا يستطيعون إقناعَ النفوسِ؛ ولهذا تجدُ الذين يتكلمون في القضاءِ والقدرِ من المتكلمين وغيرهم يُبدون ويُعيدون من الكلامِ والثَّرَثَةِ، ولكن لا تَصِلُ إلى نتيجةٍ أبدًا.

لكنَّ رسولَ الله ﷺ الذي أُعْطِيَ جوامعَ الكَلِمِ وبلغَ من فصاحةِ المخلوقينَ أعلاها قالَ: «اعْمَلُوا فِكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ». ثمَّ تلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠].

الحمد لله، هذه بشارة عظيمة للمؤمن؛ فإذا رأيتَ الله تَعَالَى قد يسَّرَ لك لليُسْرَى،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة الليل إذا يغشى، باب ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾، رقم (٤٦٦٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

وأعانتك على نفسك، وأعطيت ما يجب عليك بذله، واتقيت ما يجب عليك اجتنابه، وصدقت بخبر الله ورسوله، إذا رأيت من نفسك هذا فاحمد الله؛ فإنك ممن يُيسرون لليُسرى، ومن أهل السعادة؛ لأن الإنسان السعيد يُيسر لعمل أهل السعادة. وإذا رأيت من نفسك خلاف ذلك فصَحِّح الوضع قبل أن يفجأك الموت وأنت على هذه الحال.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُيسِّرَنا وإياكم لليُسرى ويُجَنِّبَنا العُسرى.

تجدُ إنساناً لا يُصَلِّي مع الجماعة فتنصحه، فيقابلك بقوله: الله يهديني، هكذا كتب الله عليّ. فنقول له: أتعلم أن الله كتب عليك هذا؟ لأن القدر مكتوم لا يعلمه أحدٌ إلا الله، فنحن لا نعلم قدر الله إلا بعد وقوع المقدور، فنقول لهذا الرجل الذي يقول: عسى الله أن يهديني، هذا شيء مُقدَّر عليّ. نقول: الماضي نعم مُقدَّر عليك، ونوافقك على المقدَّر، لكن في المستقبل صحَّح مسيرتك، ولا تُقل: إنه كُتِبَ عليّ، فالله تعالى قد هدى أقواماً بعد ضلالهم.

إذن، لا تحتج بِقدر الله على شيء مُستقبل، أما الماضي فربما يُعذر الإنسان؛ فمثلاً لو أن شخصاً فعل معصية من المعاصي، فلمناه عليها، وقال: والله هذا شيءٌ قُدِّر عليّ، والحمد لله على كلِّ حال. فإننا نقول: ليس في هذا ما يُخالف، نوافقك على هذا ونعذرُك بهذا، لكن لا نعذرُك في شيءٍ مُستقبل وهو التوبة، نقول: أنت فعلت المحرَّم وهذا قضاء وقدر، وقد كُتِبَ ووقع، لكن تُب إلى الله، وليس هناك ما يحول بينك وبين التوبة.

فإذا قال: لو قدر الله عليّ التوبة ثُبْتُ. قلنا: أفلا تُقدِّر أحسن التقديرين، أفلا

تَقْدِّرُ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ لَكَ التَّوْبَةَ فَتُتُوبُ؟ قَدِّرْ هَذَا يَا أَخِي.

لذلك لا يمكنُ لإنسانٍ أن يُصِرَّ على معصيةٍ ويحتجُّ بالقدر، لا يمكنُ إطلاقاً، لو قيل لإنسانٍ: تزوّج حتّى يأتِكَ الولدُ، فقال: الولدُ بقضاءِ الله وقدره، إذا كان قد كُتِبَ لي ولدٌ فسيأتي. قلنا: فإنّه لن يأتي من نفسه، لا بُدَّ من أن يفعل الإنسانُ الأسبابَ حتّى يصلَ إلى النتيجة.

ومن أنكرَ فعلَ الأسبابِ فهو سَفِيهٌ في عقله، ضالٌّ في دينه، فكلُّ شيءٍ له سببٌ؛ لأنَّ مَبْنَى أفعالِ الله عَزَّوَجَلَّ وأحكامه على الحكمة؛ وبناءُ الأشياءِ على أسبابها لا شكَّ أنّه حِكْمَةٌ؛ لأنَّ شيئاً يكونُ بلا سببٍ معناه أنّه جاء عَفْواً بدونِ أيِّ سببٍ، يعني بدونِ مُبرِّرٍ.

ولكنِ اعلمْ يا أخي أنك قاصِرٌ، وأنت لا تَعْلَمُ كلَّ الأسبابِ، فما أكثرَ الأشياءِ التي تقعُ وأنت لا تَعْرِفُ أسبابها، وما أكثرَ الأشياءِ التي شرَّعها الله وأنت لا تَعْرِفُ أسبابَ شرَّعها، لكنَّ الواجبَ على المؤمنِ في هذه الأمورِ التي لا يَعْرِفُ أسبابها التسليمُ، يقولُ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، سَمِعْنَا وَآمَنَّا. بدونِ أن يأتي بِـ(لِمَ) و(كيف)، فيُسَلِّمُ تسليماً كاملاً.

وعلينا أن ننظرَ إلى الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وامتثالهم لأمرِ الله ورسوله، وإن لم يَعْلَمُوا السببَ؛ سَأَلَتِ امْرَأَةٌ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: ما بال الحائضِ تقضي الصَّوْمَ ولا تقضي الصَّلَاةَ؟ وهو سؤالٌ واردٌ، لماذا نقولُ للحائضِ إذا طَهَّرَتْ: اقضي الصَّوْمَ ولا تقضي الصَّلَاةَ، فقالت لها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَحْرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟». وهذا يَحْتَمِلُ أنّه استفهامٌ إنكارٍ، أو أنّه استفهامٌ استعلامٍ. والحرورية هي

المرأة من الخوارج؛ لأنَّ الخوارج يُلقَّبون بهذا اللَّقب؛ حرورية، نسبةً إلى المكان الذي خرجوا فيه على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قالت: «أحرورية أنت؟» لأن الخوارج من تشدُّدهم في الدين، وهم على ضلالٍ في تشدُّدهم، من تشدُّدهم يقولون: إن المرأة الحائض تقضي الصوم والصلاة.

فقالت المرأة: «لستُ بحرورية، ولكنِّي أسأل». سؤال استعلام، فقالت عائشة: «كَانَ يُصَيِّبُنَا ذَلِكَ، فَتُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا تُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ»^(١). فجعلت الحكمة أمر النبي ﷺ وعدم أمره؛ أمرنا فامتثلنا، لم يأمرنا فلا يلزمنا أن نفعل ما لم يأمرنا به، فالمرأة سلَّمت واستسلمت.

ولو كان الإنسان لا يعبدُ اللهَ إلَّا حيثُ يعرفُ الحكمةَ لاختلفتِ الأهواءُ: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

إذن، فالإنسانُ المؤمنُ هو الذي يَنقَادُ لأمرِ اللهِ وَيَسْتَسْلِمُ لأمره، ولا يحتجُّ بِقَدَرِهِ على شرِّعه؛ لأنَّ القَدَرَ سرٌّ مكتومٌ، لو سَأَلْتَ أَيَّ واحدٍ من النَّاسِ: أتعلمُ ما قَدَّرَ اللهُ عليك غَدًا؟ لَأَجَابَ: لا عِلْمَ لي، واللهُ يقولُ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤].

فإذا كنتَ لا تدري فقدَّرَ أحسنَ التقديرين أن اللهَ قَدَّرَ لك السَّعادةَ، واعْمَلْ عَمَلَ السُّعْدَاءِ حَتَّى تَصِلَ إِلَيْهِ، وَأَعْطِ وَاتَّقِ وَصَدِّقْ بِالْحُسْنَى، وَحِينَئِذٍ تُسَرُّ لِلْيُسْرَى، وَإِذَا رَأَيْتَ مِنْ نَفْسِكَ وَسَوَاسًا، كَمَا يَوْجَدُ فِي بَعْضِ الْمُلْتَزِمِينَ؛ يَكُونُ فِي قُلُوبِهِمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

وساوسٌ عظيمةٌ تَخْرُ لها الجبالُ، فاعلم أن هذه الوسائسَ ليست غريبةً على المؤمن؛ فإنها أصابت خيرَ القرونِ من وَلَدِ آدَمَ إلى يَوْمِنَا هَذَا، وهم الصحابةُ؛ خيرُ الناسِ قرناً.

هذه الوسائسُ أصابت الصحابةَ، حتَّى شكَّوا هذا إلى النَّبِيِّ ﷺ، قالوا: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاضَّمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ.

إذن، هَذَا الَّذِي يَجِدُونَهُ فِي نَفْسِهِمْ شَيْءٌ خَطِيرٌ، قَدْ يَتَعَلَّقُ بِالْشَّرْعِ، وَقَدْ يَتَعَلَّقُ بِالْقُرْآنِ، وَقَدْ يَتَعَلَّقُ بِالرَّسُولِ، وَقَدْ يَتَعَلَّقُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ، فَالشَّيْطَانُ يُلْقِي الشُّبُهَةَ وَالشُّكوكَ فِي أَعْظَمِ الْأَشْيَاءِ وَأَبْيَنِ الْأَشْيَاءِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟». قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^(١). سبحانَ الله! ومعنى الصريح أي الذي لا يُخَالِطُهُ شَيْءٌ.

قال: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» مع أَنَّهُ مِنْ إِقَاءِ الشَّيْطَانِ فِي قُلُوبِهِمْ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ لِقَلْبٍ شَاكٍّ لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ الشَّكَّ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كُفِيَ الْمُؤْمِنَةَ، إِنَّمَا يَأْتِي لِلْقَلْبِ الْخَالِصِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يُلْقِيَ الشَّكَّ فِيهِ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هَذِهِ نِعْمَةٌ - فَيُلْقِي الشَّكَّ فِيهِ حَتَّى يَهْدِمَهُ.

ولهَذَا قِيلَ لِابْنِ مَسْعُودٍ أَوْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ الْيَهُودَ يَقُولُونَ: نَحْنُ نَصْلِي وَلَا نُؤَسُّوسُ فِي صَلَاتِنَا. فَإِذَا صَلَّيْتَ أَحْيَانًا تَجِدُ الْقَلْبَ يَحُومُ حَوْلَ الْبَيْتِ، وَحَوْلَ السُّوقِ، وَحَوْلَ الْمَدْرَسَةِ، فَهَذِهِ الْوَسَائِسُ الَّتِي تَصِيبُ الْإِنْسَانَ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَوْ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَدَقُوا، وَمَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ بِقَلْبٍ خَرَابٍ؟!^(٢)

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٦٠٨) عن بعض السلف.

هَذَا الشَّاهِدُ: وما يصنعُ الشَّيْطَانُ بقلبِ خرابٍ؟ أي قَصْرٍ مُنْهَدِمٍ، فلا نأتي
بالشيءِ الَّذِي يَهْدِمُهُ، فما من حاجةٍ، فالشَّيْطَانُ لا يأتي أبداً بالوساوسِ إِلَّا للقلوبِ
الحيةِ المؤمنةِ؛ من أجلِ أن يُفْسِدَ عليها دينَهَا. نعوذُ باللهِ منه.

وَإِذَا ابْتُلِيَ الْإِنْسَانُ بِهَذَا -وواللهِ يأتون ويسألون، ويبكون، فهم مساكينُ
مُبتَلَوْنَ بهذا- فإنه يصنعُ كما قال الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ كلمتين: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ
وَلْيَتَّخِذْ»^(١).

فذكر النَّبِيُّ ﷺ له وصفتين من الدواء، وصفةٌ لا طاقةَ له بها، ووصفةٌ أخرى
له بها طاقةٌ، أمَّا الوصفةُ الَّتِي لا طاقةَ له بها إِلَّا بِاللَّهِ فهو الشَّيْطَانُ، وَلِهَذَا قَالَ:
«فَلْيَسْتَعِذْ» فِرًّا إِلَى رَبِّكَ عَزَّوَجَلَّ؛ حَتَّى يُعِيدَكَ مِنْهُ. والوصفةُ الثَّانِيَّةُ: «وَلْيَتَّخِذْ»؛ لِأَنَّ
الانتهاءَ مِنْ فِعْلِهِ يَقْدِرُ عَلَيْهِ.

إِذْنًا، ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وصفتين: الوصفةُ الأولى
لا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ وَهُوَ أَنْ يَسْتَعِذَ بِاللَّهِ؛
يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. والوصفةُ الثَّانِيَّةُ ينتهي، ومعنى يَنْتَهِي أَنْ
يُعْرِضَ عَنْ هَذَا، وَلَا يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، وَيَنْسَاهُ؛ وَهُوَ إِذَا تَنَاوَلَ هَاتَيْنِ الْوَصْفَتَيْنِ، فَإِنِ
وَاثِقٌ أَتَمَّ الْوُثُوقِ أَنَّهُ لَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ هَذِهِ الْوَسَاوِسُ وَالشُّكُوكُ.

شَكَاهُ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَثْرَةَ الْوَسَاوِسِ فِي
الصَّلَاةِ.. وما أَكْثَرَ الْوَسَاوِسَ فِي الصَّلَاةِ الْآنَ، وَلَا يَتَسَلَّطُ الشَّيْطَانُ فِي هَذِهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب
الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

الوساوس إلا إذا دخل الإنسان في الصلاة، سبحانه الله! فيأتي الإنسان للمسجد ما في قلبه شيء، ويقف في الصف وما في قلبه شيء، فإذا كبر انهالت عليه الوساوس والتفكيرات، ويخرج من صلاته ولم يكتب له إلا عشرها.

شكا رجل إلى النبي ﷺ هذه الحال، فقال له النبي ﷺ: «ذاك شيطان يُقال له: خنزب» سمّاه الرسول عليه الصلاة والسلام «فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثاً»^(١).

وهذه وصفة خاصة فاستعملها، قال الصحابي رضي الله عنه: ففعلت ذلك فأذهب الله عني.

إذن، افعل هذا الدواء الذي وصفه النبي ﷺ لك حتى يزول ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١]؛ يعني: أي شيء يغنيه ماله إذا بخل به وأمسكه. ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ الفاعل يعود على من بخل، وليس على المال، يعني ما يغني عنه ماله إذا هلك. وصدق الله، الجواب: لا يغنيه شيئاً، فإذا هلك لا ينفعه مال كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ٨٨ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

ثم تأمل هذه الآيات العظيمة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ ١٢ ﴿وَلَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٢-١٣]، هذا فضل الله عز وجل، فدلالة الخلق وإرشاد الخلق أوجبها الله على نفسه، فأوجب الله عز وجل على نفسه أن يهدي الخلق، لكن ليس هداية توفيق، بل هداية دلالة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة، رقم (٢٢٠٣).

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ كلمة (على) تُفيد الوجوب، ونحن لا نُوجبُ على الله شيئاً، بل الله يُوجبُ علينا سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو يوجبُ على نفسه، قال الله تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

إذن، لله تَعَالَى أن يُوجبَ على نفسه ما شاء، وله أن يُحرّمَ على نفسه شيئاً؛ كما قال الله تَعَالَى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا»^(١).

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى﴾ أي: بيان الحق؛ فالله أوجبَ على نفسه أن يبين الحق؛ بطريق إرسال الرسل، كما قال تَعَالَى في سورة النساء: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فبين الحق لكل أمة.

وانظر الآية التي بعدها: ﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾؛ لأن الآخرة والأولى ملك لله؛ فاللام هنا للملك، واللام هنا للاختصاص، فليس أحد له الآخرة والأولى إلا الله عز وجل، وليس أحد يملك الآخرة والأولى إلا الله عز وجل.

وتأمل يا أخي: ﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ قدّم الآخرة على الأولى، مع أن الأولى أسبق؛ لسببين:

السبب الأول: أن ظهور ملك الله في الآخرة أعظم وأبين من ظهوره في الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، مع أنه يملك كل شيء.

والثاني: مُراعاة فواصل الآيات؛ لأن فواصل الآيات إذا كانت متشابهة كان

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

ذلك أَدْعَى للتلاوة والاستماع، لو قَالَ: وَإِنَّ لَنَا لِلأولى والآخرة، لم تَتطابق رؤوسُ الآيات، لكن قَالَ: ﴿لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾. ومراعاةُ فواصلِ الآياتِ من البلاغة.

أرأيتم يا إخواننا إذا ذَكَرَ اللهُ مُوسَى وهَارُونَ فإنه يُقَدِّمُ مُوسَى على هَارُونَ؛ لأنَّه أَفْضَلُ من هَارُونَ، ولكن في سورة طه قُدِّمَ هَارُونَ على مُوسَى، فقالت سَحْرَةُ فِرْعَوْنُ: ﴿ءَأَمَنَا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠] مع أنهم كانوا يقولون: ﴿ءَأَمَنَا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿[الأعراف: ١٢١-١٢٢] فَقُدِّمَ ذِكْرُ هَارُونَ في سورة طه من أجل أن تتناسبَ الفواصلُ؛ لأنَّه إذا كانت متناسبةً كان أَدْعَى للاستماع، وأوفق للطبيعة.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ إذن مُلْكُ الآخرة والأولى لله عَزَّوَجَلَّ، وهدايةُ عبادِ الله واجبةٌ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾، وهذا من مُقتضى رحمته وإحسانه إلى خلقه، والمقصودُ بالهُدَى هنا هو هُدَى الدلالة، ولو كان المرادُ هُدَى التوفيقِ لكان جميعُ الخلقِ يَهْتَدُونَ، ولكنه هُدَى الدلالة والإرشاد، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، هديناهم يعني بالدلالة، لكنهم لم يُوفِّقُوا -والعياذُ بالله- واستحبُّوا العمى على الهدى.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤] وإعرابها: (الفاء) حَسَبَ ما قبلها، (أَنْذَرَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكون؛ لأنَّه اتصلتْ به تاءُ الفاعلِ، والتاءُ فاعلٌ، والكاف مفعولٌ به أولٌ، والميم للجمع، (نَارًا) مفعولٌ به ثانٍ لِـ (أَنْذَرَ)؛ لأنَّه ينصب مفعولين، (تَلَظَّى) فعل مضارعٌ، وأصله تَتَلَطَّى، لكن أحياناً تُحذفُ التاءُ لوجودِ مثيلها في الكلمة.

قوله: ﴿لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْأَشَقَى ۝١٥﴾ الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿[الليل: ١٥-١٦] أي: لا يَحْتَرِقُ بها إِلَّا هَذَا الَّذِي جَمَعَ الوصفين، وهما التكذيب والتولي؛ كَذَبَ بالخبر وتَوَلَّى عن الأمر.

قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝﴾ [الليل: ١٧] والأتقى هنا اسم تفضيل؛ يعني الَّذِي بَلَغَ بالتقوى مَبْلَغًا اسْتَحَقَّ أَنْ يُوصَفَ بِهَذَا الوصف.

قوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝﴾ [الليل: ١٨] يعني: يُعْطِي مَالَهُ عَلَى وَجْهِ يَتَزَكَّى بِهِ وَيُطَهِّرُ نَفْسَهُ، فخرَجَ بِذَلِكَ رَجُلَانِ؛ الأول مَنْ لَا يُعْطِي مَالَهُ وَهُوَ الْبَخِيلُ، والثاني مَنْ يُعْطِيهِ عَلَى وَجْهِ لَا يَتَزَكَّى بِهِ وَهُوَ الْمُسْرِفُ؛ وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَوْصَافِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُمْ ﴿إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ۝﴾ [الفرقان: ٦٧].

إِذَنْ ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ ۝﴾ خَرَجَ بِهِ الْبَخِيلُ ﴿يَتَزَكَّى ۝﴾ خَرَجَ بِهِ الْمُسْرِفُ؛ لِأَنَّ الْمُسْرِفَ يُؤْتِي مَالَهُ عَلَى وَجْهِ لَا يَتَزَكَّى بِهِ؛ لِإِسْرَافِهِ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ.

قوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝﴾ [الليل: ١٩] أي: أَنَّهُ يُعْطِي الْمَالَ لَا مِكَافَأَةً عَلَى نِعْمَةٍ سَابِقَةٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أُعْطِيَ مَالَهُ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ مِكَافَأَةً لِنِعْمَةٍ سَابِقَةٍ، بَأَن يَكُونَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي أُعْطِيَتْهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ مِنْ قَبْلُ فَمِكَافَأَتُهُ، لَكِنْ هَذَا يُعْطِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝﴾ أَيُّ يُكَافَأُ عَلَيْهَا.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝﴾ نَجِدُ هَذَا السِّيَاقَ مُتَضَمِّنًا لِمَبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ، ثُمَّ إِذَا نَظَرْنَا فِيهِ لَمْ نَجِدْ فِيهِ كَلِمَةً مَرْفُوعَةً، مَعَ أَنَّهَا جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ بِلا شَكٍّ، فَتُخَرَّجُ عَلَى أَنَّ التَّقْدِيرَ: مَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ نِعْمَةٌ تُجْزَى، وَيُوجَدُ فِي الْقُرْآنِ حُرُوفٌ زَائِدَةٌ فِي الْإِعْرَابِ فَقَطْ، لَكِنْ فِي الْمَعْنَى لَيْسَتْ زَائِدَةً، بَلْ تَفِيدُ مَعْنَى؛ وَهُوَ التَّوَكِيدُ.

قوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠] (إلا) هنا أداة استثناءٍ مُنْقَطِعٌ؛ يعني لكن ابتغاء وجه ربه الأعلى؛ أي طلب وجه ربه الأعلى.

قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ٢١] مَنْ؟ قال قبلها: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾ أي الذي يُؤْتِي ماله يَتَزَكَّى لَسَوْفَ يَرْضَى؛ يعني عند الله تعالى بالثواب الجزيل.

قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّ هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا شك أن أبا بكر الصديق له منها النصيب الأوفر، ولكن اعلّموا أن الآية إذا نزلت بسبب، فإنها لا تختص بالسبب، ولهذا من القواعد المقررة في أصول الفقه: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. والله الموفق.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه.



الدرس الرابع:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝﴾ [الليل: ١-٤]؛ أَقْسَمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ؛ لِأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَأَقْسَمَ اللَّهُ بِهَا عَزَّوَجَلَّ تَعْظِيمًا لَشَأْنِهَا، وَبَيَانًا لَكَوْنِهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي لَا يَخْلُقُ أَحَدٌ مِثْلَهَا.

قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارُ﴾؛ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَعْرُوفَانِ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ جَاءَ مَثَانِي مَثَانِي، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ۝﴾ [الحجر: ٨٧-٨٨]؛ وَلِهَذَا تَجِدُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَلَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَذْكُرُ الشَّيْءَ وَمُقَابِلَهُ؛ حَتَّى يَكُونَ الْإِنْسَانُ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ آخِذًا مِنْ هَذَا وَمِنْ هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّيْلُ﴾؛ الْمُرَادُ الْجِنْسُ، يَعْنِي: كُلُّ اللَّيْلِ، وَلَيْسَ لَيْلَةً وَاحِدَةً، وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا يَغْشَى﴾؛ أَي: يَغْطِي الْأَرْضَ بِظُلْمَةِ سَوَادِهِ، وَأَنْتَ إِذَا رَأَيْتَ اللَّيْلَ قَدْ غَطَّى النَّهَارَ تَتَعَجَّبُ فَكَأَنَّهُ ثَوْبٌ أَسْوَدُ مَلْفُوفٌ عَلَى أَشْيَاءَ بِيضَاءَ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ إِذَا كُنْتَ

في الطائفة عند غروب الشمس.

﴿وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى﴾، هذا قسم آخر، وليس معطوفاً على قوله ﴿وَاللَّيْلَ﴾، بل هو قسم مستقل.

﴿وَاللَّيْلَ﴾، أي: بأن واتضح، وكشف عن سواد الليل، وهذا أيضاً من آيات الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾؛ هذا أيضاً قسم ثالث، أقسم الله تعالى بنفسه؛ لأنه - سبحانه - هو الذي خلق الذكر والأنثى، والذكورة والأنوثة وصفان متغايران، فهذه ثلاثة أقسام: الليل، والنهار، وخلق الذكر والأنثى.

ثم يذكر الله تعالى القسم عليه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾، أي: إن عملكم لمتفرق متشتت، هذا عمل صالح وهذا سيئ، وهذا عدل، وهذا جور، وهذا لين، وهذا صعب، وما أشبه ذلك.

وكان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذات يوم عند دفن إحدى بناته، وهو على القبر، فقال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ»، فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَفَلَا نَدْعُ الْعَمَلَ وَنَتَّكِلُ عَلَى مَا كُتِبَ، قَالَ: «لَا، اْعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ؛ أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا

أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُسَرُّونَ لَعْمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ». ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ٥-١١] ^(١).

فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَكْتُوبٌ، لَكِنْ بَعْمَلٍ يُقَدِّمُهُ الْعَبْدُ، وَلَيْسَ بِمُجَرَّدٍ أَنَّهُ كُتِبَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ.

فَعَلَيْكَ يَا أَخِي الْمُسْلِمَ أَنْ تُحَاسِبَ نَفْسَكَ، وَأَنْ تَسْتَعِدَّ لِمَا سَيَكُونُ أَمَامَكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَأَنْ تَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا تُرْضِي بِهِ رَبَّكَ ﷻ، وَأَلَّا تَكُونَ إِمْعَةً مَعَ النَّاسِ حَيْثُمَا كَانُوا، فَإِنْ ذَلِكَ لَنْ يُغْنِيَ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا.

وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَافِقِ إِذَا دُفِنَ وَأَتَاهُ الْمَلَكَانِ يَسْأَلَانِهِ عَنْ دِينِهِ وَنَبِيِّهِ وَكِتَابِهِ؛ فَيَقُولُ: «هَاهُ، هَاهُ، لَا أَذْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ» ^(٢).

عَلَيْكَ يَا أَخِي أَنْ تُثَبِّتَ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِكَ بِاللُّجُوءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَسُؤَالِهِ الْعِصْمَةَ، وَأَنْ يُثَبِّتَكَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ قَبْلَ أَلَّا يَنْفَعَ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١]، يَغْنِي: أَيُّ شَيْءٍ يُغْنِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة الليل إذا يغشى، باب ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾، رقم (٤٦٦٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، رقم (٨٦)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ما عُرِضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ، رقم (٩٠٥).

هذا الرَّجُلُ الذي لم يُنْفَقْ مالهُ فيما يجبُ عليه، ما الَّذي يَغْنِيهِ؟ إنه لا أَحَدَ يُغْنِيهِ.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَلِإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٢-١٣]، تَأَمَّلِ
الآيَةَ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾؛ فَأَوْجَبَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَهْدِيَ الْعِبَادَ، وَأَنْ يَدُلَّهُمْ
عَلَى مَا فِيهِ الْحَيَرُ، وَقَدْ فَعَلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَقَدْ بَيَّنَّ لِعِبَادِهِ أَعْظَمَ بَيَانٍ عَلَى أَيْدِي
الرُّسُلِ -عليهم الصلاة والسلام-، وَلَا سِيَّامَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤]، أَي: تَتَلَهَّبُ، ﴿لَا يَصْلَاهَا
إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝١٦ وَسُيْجَنِبُهَا الْاُتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝١٨
وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٥-٢١]،
سُيْجَنِبُ هَذِهِ النَّارَ الَّتِي تَتَلَهَّبُ، وَالْأَطْوَعُ لَهُ، وَالْأَقْوَمُ فِي دِينِهِ.



سورة الضحى

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَجَرِيًّا عَلَى عَادَتِنَا فِي الْكَلَامِ عَلَى مَا سَمِعْنَاهُ مِنْ قِرَاءَةِ إِمَامِنَا فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، نَتَكَلَّمُ بِمَا نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَفْتَحَ بِهِ عَلَيْنَا فِيهَا سَمِعْنَاهُ، فَقَدْ قَرَأَ إِمَامُنَا سُورَتَيْنِ كِلْتَاهُمَا تَتَعَلَّقُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الْأُولَى الضُّحَى، وَالثَّانِيَةِ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالضُّحَى ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١-٣]، أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِشَيْئَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ؛ أَوَّلُهُمَا: الضُّحَى الَّذِي بِهِ الْإِشْرَاقُ وَالنُّورُ وَالضِّيَاءُ، وَالثَّانِي: اللَّيْلُ إِذَا سَجَى أَي: غَطَّى الْأَرْضَ بِظِلَالِهِ، وَإِنَّمَا أَقْسَمَ اللَّهُ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَمِنْ أَكْبَرِ الْأَدِلَّةِ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعِبَادِهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ

مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ ﴿[القصص: ٧١]، الجواب: لا أحد، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾
 ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ
 يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴿[القصص: ٧١-٧٢] لا أحد، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ
 رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[القصص: ٧٢-٧٣]، ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يعودُ إِلَى اللَّيْلِ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعودُ إِلَى
 النهار، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولأجلِ أَنْ تَشْكُرُوا اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ
 الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ أَنْ تَأْتِيَ بِاللَّيْلِ إِذَا
 ذَهَبَ، وَلَا أَنْ تَأْتِيَ بِالنَّهَارِ إِذَا ذَهَبَ، فَالْكُلُّ مُسَحَّرٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَاللَّيْلُ
 لِلسُّكْنَى، وَالنَّهَارُ لِابْتِغَاءِ الْفَضْلِ مِنَ اللَّهِ، يَتَشَرُّ الْعَالَمُ فِيهِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ.

ولكن مع الأسف كثير من الناس اليوم صار ليْلُهُمْ نهارًا، ونهارُهُمْ ليلاً،
 فَتَجِدُهُمْ يَسْهَرُونَ فِي اللَّيْلِ إِلَى قُرْبِ طُلُوعِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَنَامُونَ، وَرَبِّمَا نَامُوا عَنْ
 صَلَاةِ الْفَجْرِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ يَسْهَرُونَ؟ يَسْهَرُونَ عَلَى شَيْءٍ إِمَّا أَنْ
 يَكُونَ لَغْوًا لَا خَيْرَ فِيهِ، وَإِمَّا ضَرَرًا، هَذَا هُوَ الْغَالِبُ، وَقَلٌّ مَنْ يَسْهَرُ لِلْعِلْمِ، كَمَا
 فَعَلَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يُحْيِي أَكْثَرَ اللَّيْلِ لِحِفْظِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَلِهَذَا أَوْصَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُوتَرَ قَبْلَ أَنْ
 يَنَامَ^(١).

(١) يعني حديث: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَا أَدْعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ،
 وَصَلَاةُ الضُّحَى، وَنَوْمٌ عَلَى وَتَرٍ». أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب صلاة الضحى في
 الحضر، رقم (١١٧٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى،
 رقم (٧٢١).

عَلَى كُلِّ حَالٍ، أَقْسَمَ اللَّهُ بِالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى لِمَا فِيهِمَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَعَلَى كَمَالِ رَحْمَتِهِ.

ولكن هنا سؤال يَرُدُّ كثيرًا، وقد فَهِمنا الجواب عنه فيما سبق، وهو: كيف أَقْسَمَ اللَّهُ بِالضُّحَى وهو مخلوقٌ مِنَ المخلوقات؟ وكيف أَقْسَمَ بِاللَّيْلِ وهو مخلوقٌ مِنَ المخلوقات؟ وقد أَجَبنا عن ذلك فيما سبق، بل أَجَبتم أنتم عنه فيما سَبَقَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُقْسِمَ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحْكُمُ وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ، وَيَأْمُرُ وَلَا يُؤْمَرُ، وَهُوَ جَلَّ وَعَلَا لَهُ الْحُكْمُ.

إِنَّ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ إِذَا فَعَلَهُ الْإِنْسَانُ كَانَ مُشْرِكًا بِاللَّهِ، وَلَمَّا تَرَكَهُ الْإِنْسَانُ صَارَ كَافِرًا، وَلَمَّا تَرَكَهُ الْمَأْمُورُ صَارَ كَافِرًا، شَيْءٌ مَعِيْنٌ خَاصٌّ إِذَا فَعَلَهُ الْإِنْسَانُ كَانَ مُشْرِكًا بِاللَّهِ، وَإِذَا تَرَكَهُ مَنْ أُمِرَ بِهِ صَارَ كَافِرًا بِاللَّهِ، هُوَ السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَحُكْمُهُ أَنَّهُ شِرْكٌ أَكْبَرُ مُخْرِجٌ عَنِ الْمِلَّةِ، فَمَنْ سَجَدَ لِأَيِّ أَحَدٍ: لَوَلِيٍّ، أَوْ إِمَامٍ، أَوْ سُلْطَانٍ، أَوْ وَزِيرٍ، أَوْ أَمِيرٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، مَنْ سَجَدَ لِأَيِّ مَخْلُوقٍ فَإِنَّهُ كَافِرٌ: ﴿وَمِنْ عَآيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

لكن هَذَا السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ صَارَ تَرْكُهُ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ كُفْرًا بِاللَّهِ، وَذَلِكَ حِينَ أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِآدَمَ ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فَحَقَّتْ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ حِينَ اسْتَكْبَرَ وَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ.

إِذَنْ، يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُ اللَّهِ، إِذَا أَمَرَ بِشَيْءٍ صَارَ هَذَا الشَّيْءُ عِبَادَةً، وَلَوْ كَانَ نَوْعُهُ فِي وَقْتٍ آخَرَ شِرْكًا وَكُفْرًا.

قَتْلُ النَّفْسِ:

قَتْلُ النَّفْسِ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ، وَمِنْ الْمُوَبِّقَاتِ، وَمَعَ ذَلِكَ صَارَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ قَتْلُ النَّفْسِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَذَلِكَ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَرْهُ الْأَوَّلِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتْيًا، رَزَقَهُ اللَّهُ إِسْمَاعِيلَ، وَهُوَ أَبُو الْعَرَبِ، وَإِسْحَاقَ وَهُوَ أَبُو بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَالْعَرَبُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ أَبْنَاءُ عَمٍّ، رَزَقَهُ اللَّهُ إِسْمَاعِيلَ وَهُوَ بِكَرْهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ، يَعْنِي: كِبَرَ وَصَارَ يَسْعَى مَعَ أَبِيهِ، لَيْسَ بِالطِّفْلِ الَّذِي لَا يُؤْبَهُ لَهُ، وَلَا بِالْكَبِيرِ الَّذِي انْفَصَلَ، وَأَشَدُّ مَا تَتَعَلَّقُ النَّفْسُ بِالْوَلَدِ إِذَا كَانَ بَيْنَ الطُّفُولَةِ وَبَيْنَ الْكِبَرِ، تَتَعَلَّقُ بِهِ النَّفْسُ؛ لِأَنَّهُ صَغِيرٌ يَسْعَى مَعَ أَبِيهِ، وَيَمْشِي مَعَ أَبِيهِ، وَأَبُوهُ يُحِبُّهُ، وَيَأْتِي بِهِ فِي الْمَجَالِسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] أَرَاهُ اللَّهُ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُ ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ وَلَدَهُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ سِوَاهُ، وَقَدْ أَتَاهُ عَلَى كِبَرٍ، اسْتَشْعِرُوا هَذَا الْأَمْرَ، إِنْسَانٌ بَلَغَ الْكِبَرِ، وَأَتَاهُ اللَّهُ وَلَدًا لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ سِوَاهُ، فَكَيْفَ تَكُونُ مَحَبَّةُ هَذَا الْوَلَدِ؟

لَا شَكَّ أَنَّهَا عَظِيمَةٌ شَدِيدَةٌ، لَا سِيَّمَا وَأَنَّهُ بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ، فَأَرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُهُ، وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَخِيٍّ.

عَرَضَ الْأَمْرَ عَلَى إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: ﴿يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾، فَكَانَ جَوَابُ هَذَا الْبِنِ جَوَابَ الرَّشِيدِ الْعَاقِلِ الْمُؤْمِنِ، ﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ! يَعْنِي: أَذْبَحْنِي، وَعَرَضَ إِبْرَاهِيمَ هَذَا الْأَمْرَ عَلَى ابْنِهِ لَيْسَ اسْتِشَارَةً لَهُ، وَلَا يُمْكِنُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَسْتَشِيرَ ابْنَهُ فِي أَمْرِ أَمْرِهِ

الله به، أبدًا، ولكن لِيُخْتَبَرَ الابن ما موقِفُه؟ فكان موقِفُه أَسَدَ المواقِفِ.

﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿الله أكبر! قال: سَتَجِدُنِي مِنَ الصَّابِرِينَ، ومع ذلك إسماعيل لم يَعْتَمِدْ عَلَى قُوَّتِهِ، بل قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿لم يقل: سَتَجِدُنِي مِنَ الصَّابِرِينَ. لَأَنَّهُ يَوْمُنُ بَأْنِ الْأَمْرِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ تَمَّ الْأَمْرُ الْآنَ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ الفاعل اثنان، هما إبراهيم وإسماعيل.

﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، تَلَّهُ إبراهيم بِقُوَّةٍ ﴿لِلْجَبِينِ﴾ حَتَّى وَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَعَ جَبِينُهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ؛ لِئَلَّا يُشَاهِدَ وَجْهَهُ حِينَ ذَبْحِهِ، وَلِئَلَّا يُشَاهِدَ الْابْنُ السَّكِينُ وَأَبُوهُ يَهْوِي بِهَا إِلَى رَقَبَتِهِ، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ حِينَئِذٍ جَاءَ الْفَرَجُ مِنَ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] جاء الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ نَبِيُّنَا وَإِمَامُنَا وَأُسُوتُنَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(١).

لَمَّا صَدَقَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعْهُمَا﴾ [الصافات: ١٠٤] الْوَاوُ هَذِهِ لَيْسَتْ زَائِدَةً كَمَا قَالَ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُعَرِّبِينَ، بَلِ الْوَاوُ عَاطِفَةٌ عَلَى شَيْءٍ مُقَدَّرٍ، أَي: فَلَمَّا أَسْلَمَا، تَبَيَّنَ صِدْقُهُمَا، وَتَمَّ انْقِيَادُهُمَا لِلَّهِ.

﴿وَنَدَيْنَاهُ﴾ ناداه الله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَنْ يَتَّبِعْهُمَا﴾ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥]، بَلَوَى عَظِيمَةً.

(١) أخرجه أحمد (٣٠٧/١، رقم ٢٨٠٤)، والطبراني (١٢٣/١١، رقم ١١٢٤٣)، والضياء (٢٣/١٠)، رقم (١٣).

هذا الأمر أمرٌ بقتلِ نفسٍ، وأيضًا هي نفسٌ ليست بعيدةً، بل من الأقارب، فالابنُ بضعةٌ من أبيه، فهو من أقربِ الأقربين إليه، فاجتمع في ذلك قتلُ نفسٍ، وقطيعةٌ رَحِمٍ، هذه القطيعةُ، وهذا القتلُ لما كان بأمرِ الله صار عبادةً.

إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَبَيَّنَ بذلك أَنَّهُ مُحِبُّ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى عنده فوق كُلِّ أمرٍ، فوق هوى النفسِ، ولذلك جُوزي بأن جَعَلَهُ اللَّهُ خَلِيلًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وكان نبيُّنا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ خَلِيلًا أيضًا كما قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(١). ولهذا لا تُوجَدُ الخُلَّةُ - فيما نَعْلَمُ - إِلَّا لشخصين فقط، هما إبراهيمُ ومُحَمَّدٌ -عليهما الصلاة والسلام- يعني: لا يمكنُ أن أقولَ: مُوسَى خليلُ الله، ولا أن أقولَ: عيسى خليلُ الله، ولا أن أقولَ لأيٍّ أحدٍ من المخلوقات: خليلُ الله، إِلَّا بِعِلْمٍ مِنَ اللَّهِ، ولم نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا إِلَّا إبراهيمَ ومُحَمَّدًا -صلى الله عليهما وسلم-.

وهنا سؤالٌ: أيُّهما أعظمُ محبةً وأقوى محبةً: الخليلُ أم الحبيبُ؟

الجوابُ: الخليلُ، إذن، الَّذِينَ يَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ حبيبُ اللَّهِ. الواقعُ أَنَّهُمْ قَصَّروا، بل نقولُ: مُحَمَّدٌ خليلُ اللَّهِ، والخُلَّةُ فوقَ المَحَبَّةِ.

واللَّهُ يَحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَحِبُّ الصَّادِقِينَ، وَيَحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَيَحِبُّ الْمُقْسَطِينَ، المَحَبَّةُ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِكُلِّ مَنْ اتَّبَعَ رُسُلَهُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣٢).

الله ﷻ [آل عمران: ٣١]، لكنَّ الحُلَّةَ ليس كُلُّ أَحَدٍ يَنَالُهَا، فَالْمَحَبَّةُ أَدْنَى رُتَبَةٍ مِنَ الحُلَّةِ، فَمَنْ قَالَ عَنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ: إِنَّهُ خَلِيلُ اللَّهِ، فَقَدْ أَثْبَتَ لَهُ الْمَحَبَّةَ وَزِيَادَةً، وَلِهَذَا نَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا خَلِيلُ اللَّهِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ الْأُسْوَةُ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ فِي كُلِّ مَا شَرَعَهُ لِأُمَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

اتَّضَحَ الْآنَ أَنَّ قَتْلَ النَّفْسِ الْمَحْرَمِ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ صَارَ عِبَادَةً.

نَعُودُ إِلَى الْإِقْسَامِ بِغَيْرِ اللَّهِ، الْإِقْسَامُ بِغَيْرِ اللَّهِ حَرَامٌ عَلَيْنَا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١). هَذَا لَا إِشْكَالَ فِيهِ، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَيْضًا: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»^(٢)، لَكِنَّهُ شِرْكٌ أَصْغَرُ مَا لَمْ يَعْتَقَدْ أَنَّ لِلْمَحْلُوفِ بِهِ مِنَ التَّعْظِيمِ مَا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مُشْرَكًا شَرَكًا أَكْبَرَ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يُحْكَمُ وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ، وَيَحْلِفُ بِمَا شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ.

لَكِنْ اْعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَحْلِفُ بِشَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ ذُو قِيَمَةٍ عَظِيمَةٍ، لَا يَحْلِفُ بِشَيْءٍ تَافِهِ، بَلْ بِذِي قِيَمَةٍ عَظِيمَةٍ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الْيَمِينِ، أَوِ الْحَلْفَ تَأْكِيدُ الشَّيْءِ بِذِكْرِ مُعْظَمِ بَصِيغَةٍ مَخْصُوصَةٍ.

وَحُرُوفُ الْقَسَمِ ثَلَاثَةٌ: (الواو، والباء، والتاء)، تَقُولُ: أَحْلِفُ بِاللَّهِ، وَتَقُولُ:

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْأَيْمَانِ وَالنَّذُورِ، بَابُ لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، رَقْمُ (٦٦٤٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْأَيْمَانِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْحَلْفِ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، رَقْمُ (١٦٤٦).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٢٥/٢)، رَقْمُ (٦٠٧٢)، وَأَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْأَيْمَانِ وَالنَّذُورِ، بَابُ فِي كِرَاهِيَةِ الْحَلْفِ بِالْأَبَاءِ، رَقْمُ (٣٢٥١)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ النَّذُورِ وَالْأَيْمَانِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي كِرَاهِيَةِ الْحَلْفِ بِغَيْرِ اللَّهِ، رَقْمُ (١٥٣٥).

والله لَفَعَلَنَ كَذَا، وتقول: تالله لَفَعَلَنَ كَذَا، قال إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَتَاللَّهِ
لَأَكِيدَنَّ أَصَنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

إذن، لله أَنْ يُقَسِّمَ بما شاء مِنْ خَلْقِهِ، أما نَحْنُ فلا نُقَسِّمُ إِلَّا باللهِ، إما باسمِ
اللهِ، مثل: واللهِ، أو باسمِ الرَّحْمَنِ: والرَّحْمَنِ، أو باسمِ رَبِّ العالمين: وَرَبِّ العالمين،
أو بأيِّ صِفَةٍ مِنْ صفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ المعنوية.

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣]، ﴿وَدَّعَكَ﴾ تَرَكَكَ، ﴿قَلَى﴾
أَبْغَضَ؛ وذلك رَدًّا عَلَى قولِ مَنْ قال: إِنَّ مُحَمَّدًا تَرَكَهُ رَبُّهُ، إِنَّ مُحَمَّدًا أَبْغَضَهُ رَبُّهُ.
فَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأنه ما وَدَّعَهُ، وما تَرَكَهُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، (رَبُّ) مُضَافٌ،
والكافُ مُضَافٌ إليه، الرُّبُوبِيَّةُ مُضَافَةٌ إِلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإضافةُ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَى
شخصٍ مُعَيَّنٍ تعني العِنايةَ التامةَ بهذا المَرْبُوبِ.

اللهُ عَزَّوَجَلَّ رَبُّ العالمين، لكن إذا أَضَافَ الرُّبُوبِيَّةَ إِلَى شخصٍ مُعَيَّنٍ، كان
ذلك دليلاً عَلَى عِنايته بهذا الشخصِ المُعَيَّنِ، قالت السَّحَرَةُ: ﴿ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
[الأعراف: ١٢١] ثم قال بعده ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢] الأولى رُبُوبِيَّةٌ عامَّةٌ،
والثَّانِيَّةُ رُبُوبِيَّةٌ خاصَّةٌ، فإذا أَضَافَ اللهُ الرُّبُوبِيَّةَ إِلَى شخصٍ مُعَيَّنٍ، كان ذلك دليلاً
عَلَى عِنايته به، ولهذا تُسَمَّى عند العُلَمَاءِ الرُّبُوبِيَّةُ الخاصَّةُ.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ الَّذِي رَبَّاكَ بِنِعَمِهِ صَغِيرًا وَكَبِيرًا قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا، وَأَتَمَّ
نِعْمَتَهُ إِلَيَّ أَنْ ماتَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أي ما تَرَكَكَ، ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي
ما أَبْغَضَكَ.

ونفى اللهُ ذلك رَدًّا لِقَوْلِ المُكَذِّبِينَ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّ اللهَ تَرَكَهُ

وَقَلَاهُ. فَأَبْطَلَ اللَّهُ تَعَالَى دَعْوَاهُمْ.

إِذْنِ، نَفْيُ التَّركِ، وَنَفْيُ البُغْضِ المرادُ به إثباتُ كمالِ الضَّدِّ، فِضْدُ التَّركِ العِنايةُ بالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَضِدُّ البُغْضِ المَحَبَّةُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اعْتَنَى بِكَ، وَإِنَّهُ قَدْ أَحَبَّكَ عِنايةً لَيْسَ فِيهَا تَرْكٌ، وَحُبًّا لَيْسَ فِيهِ بُغْضٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤] الآخِرَةُ يعني: الدَّارَ الآخِرَةَ، ﴿خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أي: مِنَ الدُّنْيَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المعْنَى: وَلِلْعَاقِبَةِ الآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى، يعني: إِنَّ عَاقِبَةَ أَمْرِكَ سَتَكُونُ خَيْرًا لَّكَ مِنْ بَدِئِهِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ أُودِيَ، حَتَّى اضْطَرَّهَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى تَرْكِ أَحَبِّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ، وَأَشْرَفِهَا عِنْدَهُ، وَهِيَ مَكَّةُ، فَخَرَجَ مِنْهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَائِفًا عَلَى نَفْسِهِ، وَقِصَّةُ الْهَجْرَةِ مشهورةٌ.

وَأَنَا بِهِذِهِ الْمُنَاسِبَةِ، أَكْرَرُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، أَكْرَرُ عَلَى إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقْرَؤُوا سِيرَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِأَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي الْإِيمَانِ، وَيَزِيدُ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَتَتَبَيَّنُ بِهِ حِكْمَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَيَحْصُلُ بِذَلِكَ لِلإِنْسَانِ كَمَالُ الْإِتِّبَاعِ وَالْأُسُوءَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَمَعَ الْأَسْفِ بَعْضُ النَّاسِ لَوْ تَسَاءَلَهُ عَنْ تَارِيخِ عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ الْكُفَّارِ: مَتَى وُلِدَ؟ وَكَيْفَ تَطَوَّرَتْ حَيَاتُهُ، قَالَ: وُلِدَ فِي كَذَا، وَتَطَوَّرَتْ حَيَاتُهُ كَذَا وَكَذَا، وَلَوْ تَسَاءَلَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا أَدْرِي.

فَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ اللَّهُ لَهُ: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾، أَقُولُ: الْآخِرَةُ هِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ، ﴿خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أَوْ أَنَّ الْآخِرَةَ يعني: الْعَاقِبَةُ خَيْرٌ

لك من الأولى، فيكون في هذا بشارَةٌ من الله عزَّ وجلَّ للرَّسُولِ ﷺ أَنَّ اللهَ سيجعلُ العاقبةَ له.

قوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ وهل الآخرةُ خيرٌ من الأولى لمن اتَّبعه؟
الجواب: نعم، والله خيرٌ من الأولى لمن اتَّبعه ظاهراً وباطناً في العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملة، كل إنسانٍ يتَّبِعُ الرَّسُولَ ﷺ في هذه الأشياء، فإنَّ الآخرةَ خيرٌ له من الأولى، ولهذا جاء في الحديث أن «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(١)، لأنَّ المؤمنَ إذا نَسَبَ الحياةَ الدُّنْيَا إِلَى الآخرةِ وَجَدَهَا سِجْنًا عَلَى أَنَّهُ - أي المؤمن - حياته طيبةٌ.

ويذكر عن ابنِ حَجَرٍ العسقلاني رَحِمَهُ اللهُ وكان قاضي القضاة في مصر، وتعرفون أن قاضي القضاة يَمُرُّ بِمَوْكِبٍ، فَمَرَّ يَوْمًا مِنَ الْيَوْمِ فِي مَوْكِهِ عَلَى الْعَرَبَةِ تَجَرُّهُ الْخَيُْولُ، أَوِ الْبِغَالُ، وَالنَّاسُ وَرَاءَهُ، وَمَرَّ بِيَهُودِيٍّ فِي مِصْرَ، يَهُودِيٌّ زَيَّاتٍ يَبِيعُ الزَّيْتَ، وَكُلُّ ثِيَابِهِ مَلَوْنُهُ بِالزَّيْتِ، فَأَوْقَفَ الْمَوْكِبَ، وَقَالَ لَهُ: يَا قَاضِيَ الْقَضَاةِ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- إِنْ نَبَّيْكُمْ يَقُولُ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ». فكيف كان ذلك؟

هَذَا الْيَهُودِيُّ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّقَاءِ، زَيَّاتٌ مُتَعَبٌ فَقِيرٌ، وَابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِي مِنْ حُفَّازِ الْأُمَّةِ، وَمِنْ خَدَمُوا السُّنَّةِ، وَهُوَ قَاضِي الْقَضَاةِ، مُكْرَّمٌ مُعَظَّمٌ مُبَجَّلٌ، كَيْفَ هَذَا؟ يَقُولُهُ الْيَهُودِيُّ، يَرِيدُ أَنْ يَعْتَرِضَ؛ لِأَنَّ أَعْدَاءَ الْمُسْلِمِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يَعْتَرِضُوا عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ مَنَفَذًا لِلطَّعْنِ فِيهِمَا - قَاتِلَهُمُ اللَّهُ -

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرفائق، باب، رقم (٢٩٥٦).

فقال له ابنُ حَجَرٍ: نعم، أنا فيما ترى مِنَ النعيمِ، وأنت فيما ترى مِنَ البؤسِ، ولكنَّ النعيمَ الَّذي أنا فيه بالنسبةِ لنعيمِ الآخرةِ سَجَنٌ، وأنت بما أنت فيه مِنَ البؤسِ والشَّقَاءِ فِي جَنَّةٍ^(١).

لأنَّ هَذَا اليهودي إذا مات ذَهَبَ إِلَى النَّارِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- وَالنَّارُ أَشَدُّ حَرًّا، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١]، اليهوديُّ بُهِتَ؛ لِأَنَّ هَذَا جَوَابٌ مُسَدِّدٌ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. آمَنَ؛ لِأَنَّ تَطْبِيقَ الْحَدِيثِ عَلَى الْوَاقِعِ يَزِيدُ الْإِنْسَانَ إِيقَانًا، وَمِثْلُ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ -وإن كنتُ ما أَحَبُّ أَنْ أُطِيلَ عَلَيْكُمْ- لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ نَذْكُرَهَا؛ لِأَنَّهَا تُفِيدُ الْإِنْسَانَ فَائِدَةً عَظِيمَةً.

يَقَالُ: إِنَّ أَحَدَ الْعُلَمَاءِ كَانَ فِي مَطْعَمٍ فِي بَلَدٍ أُرُوبِيٍّ، وَالْمَطْعَمُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُ فِي بَلَدٍ أُرُوبِيَّةٍ، وَفِيهِ رَجُلٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى، رَأَى هَذَا الشَّيْخَ يَأْتِي النَّاسُ إِلَيْهِ، يَسْتَفْتُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ، فَعَرَفَ أَنَّهُ عَالِمٌ كَبِيرٌ، فَاتَى إِلَيْهِ يُرِيدُ أَنْ يَدُقَّ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ لَهُ: كَيْفَ أَجَدُ فِي الْقُرْآنِ كَيْفَ أَصْنَعُ هَذِهِ السَّمْبُوسَةَ، وَهَذَا الْمَرْقَ، وَهَذَا الْخُبْزَ؟ كَيْفَ أَصْنَعُهُ؟ مَا وَجَدْتُ فِي الْقُرْآنِ، أَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتَمَتِهِ مَا أَجَدُ فِيهِ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ تَصْنَعَ السَّمْبُوسَةَ، فَافْعَلْ كَذَا وَكَذَا.

الْقُرْآنُ مَا هُوَ كِتَابُ مَطْبَخٍ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ هَكَذَا، لَكِنَّ الرَّجُلَ أَرَادَ بِهَذَا وَخَزَ

الإسلام من هذه الناحية، أَنَّ الْقُرْآنَ ما هُوَ بَيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، قال: واللهِ الْقُرْآنُ
 بَيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ الْعَالِمَ دعا صاحبَ المطعم، قال: تعال، كيف تصنعُ
 هذا؟ قال: أفعلُ كذا وكذا وكذا، ووصفَ الطَّبْخَةَ تمامًا مِئَةً بِالمِئَةِ، قال: هكذا قالَ
 الْقُرْآنُ، سُبْحَانَ اللَّهِ! أينَ الَّذِي قالَ الْقُرْآنُ؟ قال: إِنَّ اللَّهَ تعالى قال: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ
 الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] سُبْحَانَ اللَّهِ! أرشدَ الْقُرْآنُ إِلَى أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي
 نجهله نسألُ أَهْلَ الْعِلْمِ به، فعلى هذا صارَ الْقُرْآنُ بَيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ.

فأريدُ مِنَ الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ ذا انتباه عندما تَحُلُّ به الْمُعْضِلَات، حَتَّى يُدْحِضَ
 أَعْدَاءَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ يَتَرَبَّصُونَ بِنا الدَّوَائِرَ، وَيُرِيدُونَ أَنْ نَشُكَّ فِي دِينِنا وفي
 رُسُولِنا، وفي رَبِّنا عَزَّوَجَلَّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْضَ﴾ [الضحى: ٥] اللَّهُمَّ لك الحمد،
 وعدُّ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَكِن لا حِظُوا الْآيَةَ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾، ف(سَوْفَ) تَدُلُّ
 عَلَى التَّحْقِيقِ لَكِن بِمُهْلَةٍ، بِخِلَافِ السَّيْنِ، فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى التَّحْقِيقِ، لَكِن بِسُرْعَةٍ،
 فَإِذَا قُلْتُ: سأعطيك كذا. فمعناه أَنَّ إعطائي إياك مُحَقَّقٌ فوري، وإِذَا قُلْتُ: سوف
 أعطيك، فمعناه لَيْسَ فوريًا، أنا وعدتُكَ الآنَ، لَكِن ما هُوَ فوريٌّ، والآية: ﴿وَلَسَوْفَ
 يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْضَ﴾، وَفِعْلًا حَصَلَ، فَقَدْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ طَرِيدًا
 خَائِفًا عَلَى نَفْسِهِ، وَلَمْ تَمْضِ ثَمَانِي سِنَوَاتٍ إِلَّا وَقَدْ دَخَلَهَا عَزِيزًا مُتَّصِرًا مُظْفَرًا
 -صلوات الله وسلامه عليه- حَتَّى إِنَّهُ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ أَنَّهُ أَخَذَ بِعِصَاةٍ بَابِ الْكَعْبَةِ،
 وَقُرَيْشٌ زُعَمَاءُ هُمْ وَكُبَرَاءُ هُمْ تَحْتَهُ، قال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فاعِلٌ فِيكُمْ؟»،
 وَهُمْ الَّذِينَ طَرَدُوهُ، وَأَذَوْهُ، قَالُوا: خيرًا -يعني: تفعلُ بنا خيرًا- أَخْ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ

كَرِيمٍ، فقال لهم: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ»^(١). -صلوات الله وسلامه عليه- وهذا تمام العَفْوِ، العَفْوُ مَعَ الْقُدْرَةِ هُوَ الْعَفْوُ الْحَقِيقِيُّ، ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَاً غَفُوراً﴾ [النساء: ٩٩]، أما العَفْوُ مَعَ الْعِجْزِ فَلَيْسَ بِعَفْوٍ.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْمَالِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَجِدُ الْمَالَ، فَيَمْضِي عَلَيْهِ الشَّهْرَانِ وَالثَّلَاثَةُ لَا يُوقَدُ فِي بَيْتِهِ نَارٌ، قِيلَ لِعَائِشَةَ: فَمَا طَعَامُكُمْ؟ قالت: «الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ»^(٢)، الشَّهْرَانِ وَالثَّلَاثَةُ لَا يُوقَدُ فِي بَيْتِهِ نَارٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَكَانَ يُقَدَّمُ إِلَيْهِ الرَّجُلُ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُ: «هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟»، فَإِذَا قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَهَلْ تَرَكَ شَيْئاً؟»، إِذَا قَالُوا: لَا، قَالَ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ». لِأَنَّ صَلَاةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الْمَيِّتِ شِفَاعَةٌ، وَصَاحِبُ الدَّيْنِ لَا تَنْفَعُ فِيهِ الشَّفَاعَةُ، فَكَانَ يَتَخَلَّى عَنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»^(٣).

وَقَدَّمَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ذَاتَ يَوْمٍ، فَتَقَدَّمَ خُطَوَاتٍ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ سَأَلَ: «هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟» قَالُوا: نَعَمْ، عَلَيْهِ دَيْنَارَانِ، قَالَ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ». وَتَرَكَ الصَّلَاةَ، فَتَقَدَّمَ أَبُو قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: الدِّينَارَانِ عَلَيَّ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «حَقُّ الْغَرِيمِ، وَبَرِيٌّ مِنْهُمَا الْمَيِّتُ». قَالَ: نَعَمْ، فَصَلَّى عَلَيْهِ^(٤).

(١) عزاه ابن كثير في السيرة النبوية (٣/ ٥٧٠) لابن إسحاق.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب، رقم (٢٥٦٧)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب، رقم (٢٩٧٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب إن أحال دين الميت على رجل جاز، رقم (٢١٧٣).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠، رقم ١٤٥٩٠).

ولما فتح الله عليه، وكثرت الأموال عنده، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ»، تحقيقاً لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، «فَمَنْ تُؤْفَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دِينًا، فَعَلَى قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ»^(١). فصار يقضي الدين هو بنفسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين فتح الله عليه، كُلُّ هَذَا دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

وكذلك أيضًا العطاء الأكبر يوم القيامة: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فَإِنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ؛ لِأَنَّ الْيَوْمَ طَوِيلٌ، وَقَدْرُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، الشَّمْسُ تَذْنُوبًا مِنْهُمْ بِمِقْدَارِ مِيلٍ، وَيَلْحَقُهُمْ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، فيقولون: اطلُّبُوا مَنْ يَشْفَعُ لَنَا يُرِيحُنَا مِنْ هَذَا الْمَقَامِ، فَيَأْتُونَ إِلَى آدَمَ، فيعتذِرُ بأنه أكل من الشجرة، ومع ذلك فقد تَابَ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَهَدَاهُ، لَكِنْ نَظَرًا لِشِدَّةِ تَعْظِيمِهِ لِرَبِّهِ صَارَ فِيهِ هَذَا الْحَجَلُ، خَجَلٌ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِيَشْفَعَ فِي الْخَلْقِ؛ لِأَنَّهُ فَعَلَ مَعْصِيَةً، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْمَعْصِيَةَ لَمْ يَبْقَ أَثَرُهَا عَلَيْهِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ أَوَّلِ رَسُولٍ أُرْسِلَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، يَطْلُبُونَ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ، فيقول: لَا أَسْتَطِيعُ لِأَنِّي سَأَلْتُهُ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَذَلِكَ لِمَا وَعَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُنَجِّيَهُ وَأَهْلَهُ، صَارَ أَحَدُ أَوْلَادِهِ كَافِرًا، أَحَدُ أَوْلَادِ رَسُولٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَافِرٌ، نَعَمْ، صَارَ كَافِرًا، وَصَارَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ، قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي أُنَادِي بِأَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥] وقد وعدت أن تُنَجِّينِي وَأَهْلِي، ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ⑤

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكفالة، باب من تكفل عن ميت ديناً، فليس له أن يرجع، رقم (٢١٧٦)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، رقم (١٦١٩).

قَالَ يَنْتُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴿[هود: ٤٥-٤٦]﴾،
 الله أكبر! نُوحٌ مِنْ أُولِي الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، كَيْفَ يَخَاطَبُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ هَذَا الْخَطَابَ:
 ﴿فَلَا تَسْتَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

رَسُولٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوجِّهُ الرَّبُّ إِلَيْهِ الْمَوْعِظَةَ وَهُوَ مِنْ أُولِي الْعِزْمِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ نَسَبٌ، فَأَكْرَمُ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
 أَتَقَى اللَّهَ﴾ [الحجرات: ١٣] وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آخِرُ الرُّسُلِ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ
 أَتَقَى اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، اللَّهُ أَكْبَرُ! وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي
 لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ»^(١). وَيُوجِّهُ اللَّهُ لَهُ الْخَطَابَ وَيَقُولُ: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ أَتَقَى اللَّهَ
 وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ
 إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
 وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١-٣]، وَيَقُولُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ
 عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ
 عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ
 بِالْعِتْقِ، بَلْ إِنَّ إِنْعَامَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ بِالْعِتْقِ مِنْ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَيْضًا:
 ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾
 انظر: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ اللَّهُ أَكْبَرُ! كَلَامٌ عَظِيمٌ،
 ﴿وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ كَانَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب الحج،
 باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصيام،
 رقم (١٤٠١).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا لَكُمْ هَذِهِ^(١).

ووالله ما كنتم حرفاً من القرآن، وبلغ ما أنزل إليه من ربه، وبين أيضاً ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وقد بين - صلوات الله وسلامه عليه - للناس ما نزل إليهم باللفظ والمعنى.

المهم أن نوحاً ﷺ يعتذر عن الشفاعة بأنه سأل الله ما ليس له به علم.

يأتون إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيعتذر بشيء ليس ذنباً، لكنه لقوة تعظيمه لله عز وجل خاف أن يكون ذنباً، فيعتذر بثلاث كذبات كذبها، وليست كذباً في الواقع، قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيما قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، وليس قصده أنه يعتقد أن الكوكب ربه؛ لأنه إمام الحنفاء، لكن يريد أن يتحدث هؤلاء الذين يعبدون الكواكب، وكذلك في القمر، وكذلك في الشمس.

ولما حطّم الأصنام ورجع قومه إليها: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] قال ذلك تحدياً لقومه، كأنه يقول: كبير الأصنام لا يرضى أن يشاركه أحد في العبادة، ولذلك كسر الأصنام. والواقع أن هذا الصنم لم يكسر الأصنام، لكنه يريد أن يبين لهم أن الله لا يرضى أن يشرك به أحد، وهذا الذي ذكرناه يطابق قول الله عز وجل: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] - استمع إلى ضرب المثل - ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾، معنى الآية يقول: الآن أنت لك عبد تملكه،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَاثَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]، رقم (٧٤٢٠).

هل هذا العبدُ يشاركُك في مالِك؟ الجواب: لا، ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فإذا كان كذلك، فكيف تجعلون لله شريكًا فيما خلق؟

عَلَى كُلِّ حَالٍ، نرجعُ إلى إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الكَذِبَةُ الثَّالِثَةُ أَنَّهُ قَالَ لِلْمَلِكِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَسْطُو عَلَى امْرَأَتِهِ، قَالَ: هَذِهِ أُخْتِي. وليست أُخْتَهُ مِنَ النِّسْبِ، ولكنها أُخْتُهُ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ^(١).

عَلَى كُلِّ حَالٍ، هَذِهِ إِذَا تَأَمَّلْتَهَا وَجَدْتَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَذِبًا، لكنها تَوْرِيَّةٌ، لكنَّ مقامَ الأنبياءِ مقامٌ عالٍ، لا يريدون أن تَنخَدِشَ أَعْمَالُهُمْ بِأَيِّ شَيْءٍ.

يأتون بعد ذلك إلى مُوسَى -وهو من أولي العزم- فيعتذرُ بأنه قَتَلَ نَفْسًا لَمْ يُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا، خَرَجَ يَوْمًا مِنَ الْيَامِ، وَوَجَدَ إِسْرَائِيلِيًّا -أَي: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ- وَقِبْطِيًّا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَجَدَهُمَا يَخْتَصِمَانِ: ﴿فَاسْتَغْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَكَزَهُ، أَيْ: طَعَنَهُ بِجُمُوعِ كَفِّهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: وَكَزَهُ بِعَصَا كَانَتْ مَعَهُ، ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] أَيْ: هَلَكَ وَمَاتَ؛ لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ أَشَدِّ الْأَنْبِيَاءِ، فَهُوَ قَوِيٌّ جَدًّا، وَلِهَذَا لَمَّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ بَعْدَ مِيقَاتِ رَبِّهِ، وَوَجَدَهُمْ يَعْبُدُونَ الْعِجْلَ، أَلْقَى الْأَلْوَحَ الَّتِي كُتِبَتْ فِيهَا التَّوْرَةُ، قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ: حَتَّى تَكْسَرَتْ، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠] يَقُولُ: كَيْفَ تَفْعَلُ؟ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤]؛ لِأَنَّ هَارُونَ وَعَظَمَهُم،

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، رقم (٣١٧٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، رقم (٢٣٧١).

لكن قالوا: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِيفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

المهم أن موسى عليه السلام اعتذر.

يأتي الناس إلى عيسى عليه السلام، كل هذا يوم القيامة - نسأل الله أن ينجينا وإياكم من أهواله - يأتون إلى عيسى، فلا يتعلل بشيء، لكن يريد أن يُعطِيَ الفضل لأهله، فلا يذكر عن نفسه شيئاً، لكن يقول: اذهبوا إلى محمد - صلوات الله وسلامه عليه - وأسأل الله ألا يحرمني وإياكم من شفاعته، عبدٌ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتون إلى محمد عليه الصلاة والسلام فيقول: «أنا لها». ثم يسجد تحت العرش، ويؤذن له بالشفاعة^(١)، هذا أيضاً مما أعطاه الله عز وجل ولم يُعطه أحداً من الناس، وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] هذا المقام يُحمد فيه الأولون والآخرون من أمته، ومن غيرهم.

ثم قال عز وجل مُذَكِّراً نَّبِيَّهُ بِنِعْمِهِ عَلَيْهِ، حَتَّى يَقِيسَ مَا يُسْتَقْبَلُ عَلَى مَا مَضَى، أليس الله قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْحَ﴾ [الضحى: ٥]؟ قرَّر الله عز وجل نِعْمَهُ عليه الماضية من أجل أن يقيس ما يأتي على ما مضى، قال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ [الضحى: ٦] يعني: قد وجدك.

وهنا قاعدةٌ مهمةٌ في العربية: إذا أتى اسمُ الاستفهامِ مقترناً بالنفي، فهو للتحقيق، فإذا قال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ يعني: قد وجدك، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] يعني: قد شرحنا لك صدرك، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ بلى، كان النبي ﷺ يَتِيماً

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

الأب والأم، والعادة أن اليتيم إذا لم يكن أحد يؤويه يضيع، ولهذا أوصى الله تعالى باليتامى في عدة مواضع من القرآن.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ أي: لا أم له ولا أب، ﴿فَتَّأَوَى﴾ آواه أولاً بجده عبد المطلب، ثم لما مات وله ثماني سنوات عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كفله عمه أبو طالب.

ومفعول (آوى) محذوف، وهنا قاعدة أيضاً في النحو: إذا حُذِفَ المفعول دَلَّ عَلَى الْعُمُومِ، فعلى هذا يكون: (آوى) أي: آواكَ وآوى بك، وكَمِ مِنْ أَنْاسٍ آوَوْا إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وآواهم، فإذن حُذِفَ المفعول للْعُمُومِ، يعني: لم يُؤْوِكَ وَحْدَكَ، بل آواكَ وآوى بك أيضاً.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] الله أكبر! انظر نعمة الله على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان في الأول ضالًّا لا يعرف شيئاً إطلاقاً، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ آمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكِ الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يُوحَ إليه، وإنما ذكَّره الله تعالى بحاله قبل الوحي ليتبين بذلك قَدَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ بالوحي، ولهذا يُقال: بِضِدِّهَا تَبَيَّنَ الْأَشْيَاءُ.

إذن، اذكر نعمة الله عليك حيث كنت لا تعلم شيئاً، ﴿ضَالًّا﴾ يعني: ليس عندك علم، ﴿فَهَدَى﴾ هدى هداية الدلالة، وهداية التوفيق، وهداية الدلالة أن تدلَّ أحداً على خير، وهداية التوفيق أن يفعل هذا الخير.

هداية الدلالة مثلاً تأتي للإنسان، وتقول: يا أخي، ترى الصلاة واجبة مع الجماعة، ويجب عليك أن تتابع الإمام، وألا تسبق الإمام، هذه هداية دلالة، لكن

كونه يُصَلِّي مَعَ الجماعة، وَيُتَابِعُ الإمامَ، هَذِهِ هِدَايَةُ تَوْفِيقٍ، فَهِدَايَةُ التَّوْفِيقِ لَيْسَتْ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ - اللَّهُمَّ اهْدِنَا - هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَلِلرُّسُلِ، وَلِوَرَثَةِ الرُّسُلِ مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَكُلُّهُمْ يَهْدُونَ النَّاسَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] يعني: تَدُلُّ النَّاسَ عَلَيْهِ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، هَذِهِ الْهِدَايَةُ الَّتِي نَفَاها اللَّهُ عَنْهُ، هِيَ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، لَا أَحَدَ يَقْدِرُ أَنْ يَهْدِيَ أَحَدًا، أَيْ أَنْ يُؤَفِّقَهُ فَيَعْمَلَ.

أحيانًا تأتي بأولادك تنصحهم، وتبين لهم الحقَّ، ولكن لا يوافقون؛ لِأَنَّ هِدَايَةَ التَّوْفِيقِ بِيَدِ اللَّهِ.

إِذَنْ، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ يعني الهِدَايَتَيْنِ جَمِيعًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] هَذِهِ هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ، وَهِدَايَةُ التَّوْفِيقِ أَهْدَى النَّاسِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ هُوَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَكَلِمَةُ (هَدَى) تَحْتَاجُ إِلَى مَفْعُولٍ، وَالتَّقْدِيرُ: هَذَاكَ أَنْتَ، وَهَدَى بِكَ، فَكَمْ مِنْ أَنْاسٍ ضَالِّينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ عَلَى يَدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَلْ قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ أَرْسَلَهُ إِلَى خَيْبَرَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»^(١)، أَيْ: الْإِبِلِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، رقم (٢٩٤٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٠٦).

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، ﴿عَائِلًا﴾ أي: فقيرًا، ﴿فَأَغْنَى﴾ أي: وسَّع لك في المال، أعطاك المال الكثير.

وهنا نقول: (أغنى) تحتاج إلى مفعول، وهو هنا محذوف، والتقدير: أي: أغناك وأغنى بك، وكما سمعتم في أول الدرس أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما فتح الله عليه بالمغانم الكثيرة، صار يقضي الدين عن المدينين، كذلك الأمة اغتننت غنى عظيمًا بسبب اتباعها لرسول الله ﷺ.

ألم تعلموا -بارك الله فيكم- أن تاج كسرى -ملك الفرس- جيء به من المدائن إلى المدينة النبوية هذه، لم تُفقد منه خرزة واحدة، جيء به إلى عمر رضي الله عنه جيء به محمولاً على جملين -كما يقول المؤرخون- لم يكن هناك سيارات، ولا نقالات، إنما هي الإبل، رُبط على جملين، وصارا يسيران به من المدائن إلى المدينة، ووضع بين يدي عمر الفاروق رضي الله عنه الذي فتح الله به الأمصار، وأذل به أهل الكفر والنفاق، وضع بين يديه، فتعجب، لم تُفقد منه خرزة واحدة، فقال: «إِنَّ قَوْمًا أَدَّوْا هَذَا لَأَمْنًا». فقال له علي بن أبي طالب: «إِنَّكَ عَفَفْتَ فَعَفَّت رَعِيَّتُكَ، وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعْتَ»^(١). وهذا حق.

على كُلِّ حالٍ، (فأغنى) معناه أغناك وأغنى بك، ثم لما ذكَّره الله بهذه النعم العظيمة عطف على ذلك، فقال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]، مُقابل قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦]، يعني: ما دُنا أويناك فأوِ اليتامى، لا تقهرهم.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]، ﴿السَّائِلَ﴾ المُسْتَجِدِّي المال، وكذلك السائل عن العلم.

وهنا نعطيكُم - بَارِكُ اللهُ فيكُم - قَاعِدَةٌ فِي التفسير: إذا كانت الآيةُ الكريمةُ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ عَلَى السَّوَاءِ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، وَجَبَ أَنْ تُحْمَلَ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ مَاذَا يَحْتَمِلُ هَذَا اللَّفْظُ، فَإِذَا كَانَ يَحْتَمِلُ الْمَعْنَيْنِ، فَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ ذَلِكَ، فَاحْمِلْهُ عَلَى الْمَعْنَيْنِ، أَمَا إِذَا كَانَ الْمَعْنِيَانِ أَحَدُهُمَا أَظْهَرُ مِنَ الْآخَرِ، فَاحْمِلْهَا عَلَى الْأَظْهَرِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ عَلَى السَّوَاءِ، وَلَكِنَّهُمَا يَتَنَافَيَانِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجْتَمِعَا، فَحِينَئِذٍ اطْلُبِ الْمُرْجَحَ لِأَحَدِ الْمَعْنَيْنِ عَلَى الْآخَرِ، فَإِنْ حَصَلَ فِذَاكَ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ فَتَوَقَّفْ، وَقُلْ: سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا.

ولكن اعلَمُوا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَوْجَدَ فِي كِتَابِ اللَّهِ شَيْءٌ لَا تَعْلَمُهُ الْأُمَّةُ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَعْلَمَهُ الْأُمَّةُ، إِمَّا كُلُّهَا، وَإِمَّا أُولُو الْعِلْمِ مِنْهَا، أَمَا أَنْ يُوجَدَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَيْسَ لَهُ مَعْنَى، فَهَذَا مُسْتَحِيلٌ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَفْهُومًا.

إِذَا أَتَاكَ فَقِيرٌ يَسْأَلُكَ، يَقُولُ: أَعْطِنِي، أَنَا مُحْتَاجٌ، ابْنُ سَبِيلٍ، فَلَا تَنْهَرُهُ، إِمَّا أَنْ تَقُولَ لَهُ قَوْلًا كَرِيمًا، تَقُولُ: وَاللَّهِ يَا أَخِي مَا عِنْدِي شَيْءٌ، مَا فِي يَدَيَّ شَيْءٌ، وَإِمَّا أَنْ تُعْطِيَهُ، أَمَّا أَنْ تَنْهَرَهُ تَقُولُ مِثْلًا: اغْرُبْ عَنْ وَجْهِي، مَا عِنْدِي شَيْءٌ، اذْهَبْ. فَهَذَا لَا يَصِحُّ، فَرَبِّمَا يَأْتِي يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ تَكُونُ أَنْتَ سَائِلًا بِمَنْزِلَتِهِ، الدُّنْيَا لَيْسَتْ مَعْلُومَةً. وَكَذَلِكَ السَّائِلُ عَنِ الْعِلْمِ، يَأْتِيكَ إِنْسَانٌ يَسْأَلُكَ، وَيُرِيدُ أَنْ تُبَيِّنَ لَهُ حُكْمَ اللَّهِ، فَيَجِبُ أَنْ تُبَيِّنَهُ، وَ«مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم (٣٦٥٨)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم (٢٦٤٩)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه، رقم (٢٦٥).

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ السَّائِلَ يُرِيدُ التَّعَنُّتَ، أَوْ يَرِيدُ أَنْ يَضْرِبَ
آرَاءَ الْعُلَمَاءِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَحِينَئِذٍ انْهَرُ.

وَيَذُلُّ لَذَلِكَ عَمَلُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، فَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى إِمَامٍ دَارِ الْهِجْرَةِ
مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، كَيْفَ
اسْتَوَى؟ لَمْ يَقُلْ: مَا مَعْنَى اسْتَوَى، قَالَ: كَيْفَ؟ فَالسُّؤَالُ إِذْنٌ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ لَا عَنِ
الْمَعْنَى، فَأَطْرَقَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ بِرَأْسِهِ، حَتَّى عَلَاهُ الرَّحَضَاءُ -أَي: الْعَرَقُ- يَعْنِي:
حَتَّى صَارَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا؛ وَذَلِكَ لِعِظَمِ السُّؤَالِ فِي قَلْبِهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ قَوْلُهُ
الْمَشْهُورَةُ: «الْإِسْتَوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ
عَنْهُ بَدْعٌ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا». ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ^(١). وَهَذَا
نَهْرٌ شَدِيدٌ، أُخْرِجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؛ لِأَنَّهُ سَوَّلَ مُبْتَدِعٌ، أَنْتَ تَسْأَلُ عَنِ كَيْفِيَّةِ صِفَاتِ
اللَّهِ، مَنْ يَسْأَلُ عَنِ كَيْفِيَّةِ صِفَاتِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلٌ مُتَعَنِّتٌ مُبْتَدِعٌ.

وَلِهَذَا نَجِدُ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَهُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، وَأَشَدُّ مِنَّا تَعْظِيمًا لِلَّهِ،
وَأَشَدُّ مِنَّا حِرْصًا عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، لَا يَسْأَلُونَ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ،
الَّذِي عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، فَلَا يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ
أَبَدًا.

وَبِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ، أَوْدُ أَنْ أُوجِّهَ نَصِيحَةً إِلَى إِخْوَانِنَا مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ الَّذِينَ
يُرِيدُونَ أَنْ يُحَقِّقُوا فِي جَانِبِ الْعَقِيدَةِ وَالتَّوْحِيدِ، وَهُمْ يُشْكِرُونَ عَلَى هَذَا، لَكِنَّا
تَجَدُّهُمْ يُنْقَبُونَ عَنْ أَشْيَاءَ مَا سَأَلَ عَنْهَا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَلَا بَحْثُوا فِيهَا، يَأْتِي مَثَلًا

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ (٦/ ٣٢٥)، وَابِيهَقِي فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ (٢/ ٣٠٥، رَقْم ٨٦٧).

إِنْسَانٌ يَقُولُ: إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا»^(١)، ثُمَّ يُتَعَبُونَكَ: هل يُوصَفُ اللَّهُ بِالْمَلَلِ أَوْ لَا؟! سُبْحَانَ اللَّهِ! هل أنت أحرص من الصَّحَابَةِ؟ والمسؤول الذي يوجهُ إليه السؤال الآن في وقتنا هذا هل هو أعلم من الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ الجواب: لا.

إذن، السببُ موجودٌ، والمانعُ مفقودٌ في عهدِ الصَّحَابَةِ، ومع ذلك لما قال الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَذَا الكلامَ، ما قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هل يُوصَفُ اللَّهُ بِالسَّامَةِ أَوْ بِالْمَلَلِ؟ فَلَيْسَ عَنكَ مَا وَسِعَهُمْ.

ويبحث بعضُ النَّاسِ: «أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إصْبَعٍ»^(٢)، إِلَى آخِرِهِ، والذي عَلِمْنَا فِي الْبَخَارِيِّ أَنَّهَا خَمْسَةُ أَصَابِعَ الَّتِي ذَكَرَهَا الرَّسُولُ ﷺ لَنَا، يَأْتِي فيقول: هل له أَكْثَرُ مِنْ خَمْسَةِ أَصَابِعٍ؟! يَا نَاسُ اتَّقُوا اللَّهَ، هل أنتم أحرص من الصَّحَابَةِ عَلَى معرفةِ اللَّهِ؟ والمسؤول الذي يُوجَّهُ إليه السؤال الآن هل هو أعلم بالله من الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

إذن، إذا كَانَ الْعِلْمُ موجودًا فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنَّا، وموجودٌ مَنْ هُوَ أَحْرَصُ مِنَّا عَلَى معرفةِ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَمْ يَسْأَلُوا، فالواجبُ الكفُّ عَنْ هَذَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله عزَّ وجلَّ أدومه، رقم (٤٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن، رقم (٧٨٥).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، رقم (٤٥٣٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب، رقم (٢٧٨٦).

ولذلك أنصح إخواني طلاب العلم، ولا سيما الذين يريدون أن يحققوا في باب العقيدة والتوحيد، أنصحهم بالبعد عن التّعنت والتنطع، وأقول: قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»، قالها ثلاثاً^(١). يا أخي، سر على ما سار عليه السلف، ولا تسأل عما لم يسألوا عنه، فهم خير منك.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، حَدِّثِ النَّاسَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، لا افتخاراً عليهم، ولكن إظهاراً لِنِعْمَةِ اللَّهِ، والتحدثُ بنعمة الله ينقسم إلى قسمين: تَحَدَّثُ بِاللِّسَانِ، بأن تقول: أنا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِوَلَدٍ، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِزَوْجَةٍ، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِمَالٍ، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِعِلْمٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

والثاني: تَحَدَّثُ بِالْفِعْلِ، بأن تُري أثر النعمة عليك، فإذا كنت غنياً تلبس ما يلبس الأغنياء، وتركب ما يركب الأغنياء، وتطعم ما يطعم الأغنياء، أما أن تلبس لباس الفقراء وأنت قد أغناك الله، فهذه شأته يشمت الناس بك، وليس تَحَدَّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ.

فإن قال قائل: رَجُلٌ كَانَ مُسْرِفاً عَلَى نَفْسِهِ، كَانَ مُنْحَرِفاً فِي عَقِيدَتِهِ، وَفِي أَخْلَاقِهِ، وَفِي عِبَادَتِهِ، وَفِي مَعَامِلَتِهِ، فَهَلْ لَهُ أَنْ يَقُولَ: كُنْتُ كَذَا، فَهَدَانِي اللَّهُ؟

فالجواب: عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ لَا تَقُلْ؛ لِأَنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنَ الْمَجَاهِرِينَ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ الْمُنْكَرَ فَيَسْتُرُهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ يَتَحَدَّثُونَ بِهِ، لَكِنْ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ لَا بَأْسَ أَنْ تَقُولَ: وَاللَّهِ كُنْتُ ضَالًّا ضَائِعًا تَائِهًا، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ بِالْهُدَايَةِ وَبِالْإِسْقَامَةِ. فَلَا بَأْسَ، أَمَّا عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ، فَهَذَا أَخْشَى أَنْ يَكُونَ مِنَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

المجاهرة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَاذِي إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ»^(١).



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم (٥٧٢١)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، رقم (٢٩٩٠).

الدرس الثاني:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪﴾ [الضحى: ١-١١].

قوله: ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ②﴾ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالضُّحَى، وهو انتشار نور الشمس في أول النهار، وأقسم بالليل إذا سَجَى؛ أي: إذا غطى البسيطة؛ أي الأرض، وهو يُشَبِّهُ ما سَبَقَ في السورة التي قبلها، حيث أَقْسَمَ بالليل إذا يَغْشَى والنهار إذا تَجَلَّى. والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى له أن يُقَسِّمَ بما شاء مِنْ خَلْقِهِ، وإِقْسَامُهُ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ يَدُلُّ على عَظَمَةِ هَذَا المَخْلُوقِ الَّذِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ، أما نحنُ فلا يَحِلُّ لَنَا أن نُقَسِّمَ بِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»^(١).

(١) أخرجه أحمد (١٢٥/٢)، رقم (٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

وقال: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١).

وقال: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»^(٢).

وكانوا في الجاهلية يَحْلِفُونَ بِالْآبَاءِ تَعْظِيمًا لِآبَائِهِمْ، فجاء الإسلامُ المبنيُّ على الإخلاصِ والتوحيدِ بنسخِ ذلكِ وتحريمِهِ، وجَعَلَهُ مِنَ الشَّرِكِ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣] أي: ما تركك وأهملك، بل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَحُوطُ نَبِيَّهَ بِالنَّصْرِ والتأييدِ والتثبيتِ، حتَّى في إنزالِ القرآنِ، أنزله الله عليه مُفَرَّقًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

﴿كَذَلِكَ﴾ يعني أنزلناه كذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي نقوي قلبك؛ لأنَّه كلما نزلت آيةٌ ثَبَّتْ قلبَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وازداد الذين آمنوا بها إيمانًا، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

فالله عَزَّوَجَلَّ ما وَدَّعَ النبيَّ ﷺ وما تركه، بل ثَبَّتَهُ وأعانَهُ وقوَّاه حتَّى ظَهَرَ -والله الحمد- على أعدائه.

- (١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، رقم (٦٦٤٦)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).
- (٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

قوله: ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي: وما أبغض. ولم يقل: ما أبغضك. تكريماً لرسول الله ﷺ أن يُضاف إليه البُغْض، بل أحبَّ الله رُسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لأن رُسُولَهُ امْتَثَلَ أَمْرَ اللهِ؛ لأن رُسُولَهُ اتَّبَعَ أَمْرَهُ، وكلما كان الإنسانُ لأَمْرِ اللهِ اتَّبَعَ كان لله أحبَّ؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

اللَّهُمَّ ارزقنا حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ الْعَمَلِ الَّذِي يَقَرِّبُنَا إِلَى حُبِّكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَيْنَا، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ نَفْسِنَا وَأَبْنَائِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَهْلِنَا، وَحُبَّ رَسُولِكَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ إذا انتفى البُغْضُ فإنه تَبَتُّ المحبَّةُ الخالصةُ الَّتِي لَا يَعْتَرِيهَا أَيُّ بُغْضٍ.

قوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤] ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، عَلَى ثَلَاثَةِ وجوهٍ: مُطْلَقَةً، وَمُقَيَّدَةً بِشَخْصٍ، وَمُقَيَّدَةً بِوصْفٍ.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧] فَمُطْلَقُ الْآخِرَةِ ذَاتُهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَأَبْقَى مِنَ الدُّنْيَا، حَتَّى إِنْ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «مَوْضِعُ سَوَاطِئِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(١).

فمَوْضِعُ السَّوْطِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنْ أَوَّلِ مَا خُلِقَتْ إِلَى أَنْ تَفْنَى، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ سَاكِنِي الْجَنَّةِ. فهذا مُطْلَقٌ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

والمقيّد بوصف قول الله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، فكل إنسان مُتَّقٍ فالآخرة خيرٌ له من الدنيا، حتّى أول الآخرة، أوّل يوم يموت الإنسان فيه فإنه يرى أن موته خيرٌ من الدنيا؛ ولهذا إذا حُمِل الإنسان على نعشه وخُرج به من بيته يقول: قَدَّمُونِي قَدَّمُونِي؛ لأنّه عند الموت قد بُشِّر بالجنة، فيقول: قَدَّمُونِي قَدَّمُونِي^(١). أي لهذا الذي بُشِّر به. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ.

إذن، الآخرة خيرٌ لمن اتقى، فأَيُّ إنسانٍ مُتَّقٍ فالآخرة خيرٌ له، حتّى القبر خيرٌ له من قُصوره الّتي فارقها في الدنيا؛ لأنّه يُفْتَح له بابٌ إلى الجنة ويأتيه من روحها ونعيمها، وينسى ما كان فيه من النّعيم في الدنيا.

والثالث مقيّد بشخص، مثل هذه الآية التي معنا، يقول الله للرسول ﷺ: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، ولهذا خطب النبي ﷺ في آخر حياته وقال: «إِنَّ عَبْدًا خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ». فبكى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢)، ولم يُنْقَل أن غيره من الصّحابة بكى، لأن أبا بكر أخصّ النَّاس برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، حتّى أعلن النبي ﷺ في مرضه أنّه لو اتخذ من أمّته خليلاً لَاتَّخَذَ أبا بكرٍ خليلاً^(٣). رضي الله عن أبي بكر،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول الميت وهو على الجنازة: قدموني، رقم (١٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم (٣٩٠٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلى المدينة، رقم (٣٩٠٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢).

بكى أبو بكر لما سمع هذا من الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ الرَّسُولَ هُوَ الْمَخِيرُ، وَأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ اخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَ النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] (سوف) تدل على أمرين؛ تدل على تحقق الأمر ولكن متأخرًا.

وقد أعطاه الله، فقد فتح النبي ﷺ بدعوته مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، أَقُولُ: بدعوته؛ لَأَنَّهُ بِنَفْسِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِنَّمَا فَتَحَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ، لَكِنَّ خُلَفَاءَهُ الرَّاشِدِينَ فَتَحُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَفَتَحُوا الْعِرَاقَ، وَالشَّامَ، وَالْيَمَنَ، وَمِصْرَ، وَاتَّسَعَتْ مَمْلَكَةُ الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ اتِّسَاعًا هَائِلًا، وَلَمْ يَوْجَدْ أَيْ دَعْوَةٍ أَشَدَّ وَأَسْرَعَ انْتِشَارًا مِنَ الدَّعْوَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَمَا فَتَحَهُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ مِنْ أَرْضِي الْكُفَارِ كَالَّذِي فَتَحَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ أَيَّ حَسَنَةٍ تَقُومُ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مِثْلُهَا، فَمَنْ يُحْصِي حَسَنَاتِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؟ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

إِذَنْ، كُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلِلرَّسُولِ مِثْلُ أَجْرِهِ، فَلَوْ يَقُولُ الْإِنْسَانُ مِنَّا: سُبْحَانَ اللَّهِ. فَلِلرَّسُولِ مِثْلُ أَجْرِهِ، وَلَوْ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. فَلِلرَّسُولِ مِثْلُ أَجْرِهِ، وَمِنْ هُنَا نَعْرِفُ قِلَّةَ بَصِيرَةِ أَوْلِيَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ وَيَقُولُونَ: لِرُوحِ مُحَمَّدٍ، يَعْنِي يَجْعَلُونَ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَيَذْبَحُونَ أَضْحِيَّةً فِي أَيَّامِ الْأَضْحَايِ وَيَقُولُونَ: لِمُحَمَّدٍ، أَوْ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: لِرُوحِ مُحَمَّدٍ، وَيَتَصَدَّقُ فِي رَمَضَانَ وَيَقُولُ: لِرُوحِ مُحَمَّدٍ. نقول: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَسْفَهَكَ! إِنْ

مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِكَ سِوَاءَ قُلْتَ هَذَا أَمْ لَمْ تَقُلْ، وَلِهَذَا كَانَ أَشَدُّ النَّاسِ مَحَبَّةً لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ الصَّحَابَةُ، لَمْ يَفْعَلُوا مِثْلَ هَذَا، فَلَمْ يَفْعَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ طَاعَةً وَيَقُولُ: لِرُوحِ مُحَمَّدٍ، أَوْ ثَوَابِهَا لِمُحَمَّدٍ.

وأول ما عُرف هذا في القرنِ الرَّابِعِ، سُبْحَانَ اللَّهِ! القرنِ الرَّابِعِ حَصَلَ فِيهِ مِنَ الْبِدْعِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ؛ لِأَنَّهُ بَعْدَ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْمَفْضَلَةِ، أَمَّا الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ، الْعَارِفُونَ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- مَا نَفَعُ حَسَنَةً إِلَّا وَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهَا، لَا شَكَّ.

إِذَنْ، لَا فَائِدَةَ أَنْ تُعْطِيَهِ الثَّوَابَ، إِذَا أُعْطِيَ الثَّوَابَ فَقَدْ حَرَمْتَ نَفْسَكَ، وَلَمْ تُجِدْ نَفْعًا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ انْتَفَعَ بِهَذِهِ الْحَسَنَةِ حَيْثُ إِنَّهُ الدَّالُّ عَلَيْهَا.

ثُمَّ قَرَّرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ نِعْمَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ بِشَيْءٍ وَاقِعٍ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقِيسَ عَلَيْهِ الْمُسْتَقْبَلَ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦]؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَاشَ يَتِيمًا، وَقَدْ مَاتَ أَبُوهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَمَاتَ أُمُّهُ فِي أَوَّلِ وَلَادَتِهِ، وَلِهَذَا اسْتَرْضَعَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهِيَ مَاتَتْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ.

إِذَنْ، نَشَأَ يَتِيمًا لَيْسَ لَهُ أَبٌ وَلَيْسَ لَهُ أُمٌّ، فَكَفَلَهُ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، وَلَمَّا مَاتَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ كَفَلَهُ عُمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، حَتَّى أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ أَي: فَاقْدِ الْأُمَّ وَالْأَبَ، وَهَنَا نَسَأُ: هَلِ الْيَتِيمُ شَرَعًا مَنْ فَقَدَ الْأُمَّ أَوْ مَنْ فَقَدَ الْأَبَ؟

الجواب: مَنْ فَقَدَ الْآبَ حَتَّى يَبْلُغَ، فَإِذَا بَلَغَ زَالَ عَنْهُ الْيَتِيمُ، ولهذا يأتي بعضُ النَّاسِ الْآنَ يَسْأَلُ الْمَالَ وَيَقُولُ: أَنَا يَتِيمٌ. واللَّحْيَةُ مَوْجُودَةٌ، فهذا غَيْرُ صَحِيحٍ، فَالْيَتِيمُ هُوَ الَّذِي فَقَدَ أَبَاهُ وَلَمْ يَبْلُغْ.

قوله: ﴿فَتَاوَى﴾ آوَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْأَوَّلِ عِنْدَ جَدِّهِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، ثُمَّ عِنْدَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، حَتَّى أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالرَّسَالَةِ، وَهَذَا وَاقِعٌ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ اسْتِفْهَامٌ لِلتَّقْرِيرِ، وَحَسُنَ أَنْ يَعْطِفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ فَعَطَفَ الْفِعْلَ الْمَاضِيَ عَلَى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾؛ لِأَنَّ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ بِمَعْنَى قَدْ وَجَدَ.

قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] ضَالًّا: يَعْنِي لَيْسَ عِنْدَكَ عِلْمٌ مِنَ الشَّرْعِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ كَانَ أُمِّيًّا كَسَائِرِ قَرِيشٍ، لَا يَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ الْكِتَابَةِ، وَلَا يَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ الْقِرَاءَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

لَكِنْ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ لَمْ يَكُنْ أُمِّيًّا، بَلْ كَانَ مُعَلِّمًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

إِذَنْ ﴿ضَالًّا﴾ بِمَعْنَى جَاهِلًا بِشَرِيعَةِ اللَّهِ لَا تَعْلَمُ مِنْهَا شَيْئًا، ﴿فَهَدَى﴾ أَيِ فَدَلَكَ عَلَى شَرْعِهِ جَلَّوَعَلَا وَوَفَّقَكَ لَهُ.

قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَابِلًا﴾ يَعْنِي فَقِيرًا، ﴿فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨] يَعْنِي: وَسَّعَ عَلَيْكَ

العطاء بعد أن كنتَ فقيرًا، ولكن -يا إخواني- أغناه الله عزَّ وجلَّ وأغنى به، وهذا من الحكمة في كونِ المفعولِ به محذوفًا؛ لأنَّه قال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾، ولم يقل: فهذا، بل قال: ﴿فَهَدَى﴾، أي هداك وهدى بك.

ولهذا لو قال قائلٌ: ما الفائدةُ من حذفِ المفعولِ به في قوله: ﴿فَهَدَى﴾؟
قلنا: فائدتان: لفظيةٌ ومعنويةٌ.

اللفظيةُ: مناسبةُ الفواصلِ -رؤوسِ الآياتِ بعضها لبعضِ-.

والمعنويةُ: ليكونَ ذلكَ أعمَّ؛ لأنَّ المعنى: فهذاك وهدى بك.

قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩] لما ذَكَرَ اللهُ نبيَّه بِيُتْمِهِ قال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾؛ لِيَتَذَكَّرَ الْإِنْسَانُ الَّذِي كَانَ يَتِيمًا حَالَهُ حَتَّى يَرْحَمَ الْيَتِيمَ الَّذِي فَقَدَ أَبَاهُ قبل أن يبلغ، فاليتيم لا تَقْهَرِه.

ولكن هل تؤدِّبُ اليتيمَ، بمعنى أنه لو أساء الأدبَ ولم ينتهِ إلَّا بالضربِ أتُضربُه؟

نقول: نعم أَضْرِبُه؛ لأنني إذا ضربتُ الطفلَ تأديبًا له فهذا إحسانٌ إليه، فعليه ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ إلَّا أن يكونَ ذلكَ تأديبًا له فلا بأسَ، فلو أرادَ اليتيمُ أن يُحْرِقَ ماله ومنعه وليَّه وانقهرَ اليتيمُ، وقام يصيحُ، فَمَنْعُهُ هذا ليس قَهْرًا ولكن لمصلحته، وهذا لا يُنْهَى عنه؛ لأنَّ الشريعةَ الإسلامية -والحمدُ لله- إنَّما جاءتْ بتحصيلِ المصالحِ الخالصةِ أو الراجحةِ، ودَفْعِ المفاسدِ الخالصةِ أو الراجحةِ.

وقد جاء في الحديثِ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ»،

وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى^(١). يعني أننا رُفقاء، لكن ما معنى كفالة اليتيم؟
 معنى كفالة اليتيم أن تضمّه إلى عِيَالِكَ يأكل معهم، ويشرب معهم، وتكسوه معهم، وتؤدّبه معهم، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧].
 فعلى هذا نقول: يجب علينا أن نُولي اليتيم رعاية خاصة، وإحساناً خاصاً؛
 لأنّه انكسر قلبه بفقد أبيه، فاحتاج إلى الرفق واللين والإحسان بقدر المستطاع.
 قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] السائل عن العلم أو السائل
 للمال؟

إن قلت: السائل للعلم فهو يُناسبُ قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾
 يعني: الجاهل يحتاج إلى الرفق إذا سأل، وإن نظرت إلى قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾
 قلت: إن السائل يناسبُ سائلَ المال، الفقير، حتّى يكونَ عنده ما يعيشُ به.
 وإذا قال قائلٌ: أفلا يصحُّ أن نجعل الآيةَ شاملةً للمعنيين؟ يعني: وأما السائل
 سؤالَ علم، أو وأما السائل سؤالَ مالٍ، فإنه يجوزُ، بل إنّه تقرّر في قواعد التفسير
 أن الآيةَ إذا كانتْ تُحمِلُ معنيين لا مُرَجِّحَ لأحدهما على الآخر ولا تناقضَ بينهما،
 فإنها تُحمَلُ على المعنيين جميعاً، فإذا احتملتُ معنيين؛ الشرطُ الأولُ: لا مُرَجِّحَ
 لأحدهما على الآخر، والثاني: ولا منافاةَ بينهما، وَجَبَ أن تُحمَلَ عليهما جميعاً،
 فإن وُجدَ مُرَجِّحٌ أُخِذَ بالراجح، وإن لم يُمكنِ الجمعُ بينهما رجعنا إلى النسخ؛
 فننظر أيهما أقدمُ، فالسابقُ منسوخٌ باللاحق، وإن لم نعلمِ النسخَ وَجَبَ علينا أن
 نَتَوَقَّفَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيماً، رقم (٦٠٠٥).

قوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي لا تنهره إذا سألَكَ، وأنت تعلم أنه سأل ليسترشد، وانتبه يا أخي إلى هذا القيد؛ تعلم أن السائل سأل ليسترشد؛ لأن الذين يسألون منهم من يسأل ليسترشد، فهو جاهل يريد أن تعلمه، فيجب أن تعلمه، وألا تزجره وألا تنهره.

الثاني: سائل يريد أن يعرف ما عندك من العلم، وهو ما يعمل بما تقول أبداً، ولا أراد أن يعمل بما تقول، لكن يمتحنك، فلا يجب عليك أن تعلمه، فإذا علمت أن الرجل يريد أن يمتحني فما أجيبه.

وسائل يسأل لا ليتعلم، ولا ليمتحن، ولكن ليضرب آراء العلماء بعضها ببعض، فيقول: سألت فلاناً وقال كذا، وسألت فلاناً وقال كذا، وإذا وجد ثالثاً سأل الثالث، يقول: انظر العلماء يختلفون، فهذا يقول كذا، وهذا يقول كذا، قصده أن يضرب آراء العلماء بعضها ببعض، فهذا أيضاً لا يجاب، فإذا عرفت أنه من هذا الطراز الذين ليس لهم هم إلا أن يسألوا العلماء من أجل أن يضربوا أقوال بعضهم ببعض فلا تجبه، وأنت معذور.

وإذا علمت أنه يسألك من أجل أن ينتقدك في جوابك، ويُشيعه في الناس، فلا تجبه ولا كرامة له، وهل لك أن تنهره إذا علمت ذلك؟

نقول: نعم لك أن تنهره، وتقول: اتق الله، لا تمتحن العلماء، ولا تتبع زلات العلماء، فالعلماء كغيرهم من الناس يُخطئون ويصيبون، وإذا أخطأ العلماء مرة فقد أصابوا مرات، وهم أولى الناس بالعدر، لا سيما إذا علمنا من هذا العالم أنه ليس له هوى، وليس له غرض، فإذا أخطأ فإنه يجب أن يُغتفر الخطأ في جانب الصواب.

ولهذا قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ (القواعد): «الْمُنْصِفُ مَنْ اغْتَفَرَ قَلِيلَ خَطَأِ الْمَرْءِ فِي كَثِيرِ صَوَابِهِ»^(١). فلهذا المنصف، وليس الذي يرى بعين عوراء فيأخذ السيئ ويكتم الحسن.

وإذا كنت -يا طالب العلم- لا تريد أن تجيب السائل فهل تُحيله على شخص معين، أو تقول: اسأل العلماء؛ اسأل غيري؟

نقول: الأصل ألا تُحيله إلى شخص معين، بل قل: اسأل غيري، وهو بنفسه يتحرى لنفسه، إلا إذا علمت أنه قد يسأل (المتعلم)، وهو الذي يدعي العلم، وهو أجهل من الجاهل البسيط؛ على ما يقولون، فإذا خفت أن يذهب هذا الرجل إلى شخص جاهل نصف متعلم، ما هو نصف عالم؛ فأفتيه، واصبر على أذاه.

كان الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ تُشْكِلُ عَلَيْهِ يَقُولُ: اسأل عنها غيري. ولكن إذا خشيت مفسدة بهذا التحويل فادراً المفسدة، وقل: اسأل فلاناً، ولا بأس.

إذن، إذا كان الإنسان لا يريد أن يجيب السائل، وأراد أن يحيله على عالم، فهل يحيله على عالم بعينه، أو يقول: اسأل العلماء؟

نقول: الأصل أن تُحيله إحالة عامة، فتقول: اسأل العلماء، وهو بنفسه يبحث عما يسأل؛ لكن إذا كنت في زمن قد انبرى للفتوى من ليس أهلاً لها، فهنا يجب عليك أن تُعين له من تراه أوثق الناس في علمه وأمانته.

سئل أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ مِيتٍ مَاتَ عَنْ بِنْتٍ وَابْنَةٍ ابْنٍ وَأُخْتٍ،

فَقَالَ: «لِلْبِنْتِ النَّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النَّصْفُ» فهذا مَبْلَغُ عِلْمِهِ، ولكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاف أن يكونَ قد أخطأ، فقال للسائل: «وَأَتِ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَسَيَتَابِعُنِي». فَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأُخْبِرَ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى فَقَالَ: «لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذْنُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، أَقْضِي فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِلْابْنَةِ النَّصْفُ، وَلِلْابْنَةِ ابْنِ السُّدُسِ تَكْمِلَةُ الثُّلُثَيْنِ، وَمَا بَقِيَ فَلِلْأُخْتِ»^(١).

ووجهُ خطأ أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لم يُورَثْ بنتَ الابنِ وقال: «لِلْبِنْتِ النَّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النَّصْفُ»، فجعلَ للأختِ فَرْضًا، والأختُ هنا لا ترثُ بالفرضِ، بل ترثُ بالتعصيبِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ذَكَرْنَا أن السائلينَ أقسامٌ؛ فمنهم مَنْ لك أن تَنْهَرَهُ، وتمتنعُ من إجابته، ومنهم مَنْ يجبُ عليك أن تُجيبَهُ، فمثلاً إذا عرفتَ أن هذا السائلَ لن يَثِقَ بغيرك، وهو قد سألَ عن مسألةٍ سهلةٍ كُلُّ يَعْرِفُهَا من طلبةِ العلمِ، لكن تعرّفُ أنه لن يَثِقَ إِلَّا بك؛ فهنا يجبُ عليك ويتعيّنُ عليك أن تجيبَ بما تعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] هذا آخِرُ السورةِ، وقد أنعمَ الله على رسوله أنه آواه حينَ كان يتيماً، وهَدَاهُ بعدَ أن لم يكنُ عالماً، والثالثُ: أغناه بعدَ الفقرِ.

فقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ يعني: حدّث بها النَّاسَ لا فخرًا، ولكن شُكْرًا، قل: أنا كنتُ كذا وكذا، وهداني الله، وكنتُ فقيرًا فأغنانِي الله، لكن لا افتخارًا على

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب ميراث ابنة الابن مع بنت، رقم (٦٧٣٦).

غيرك، وإنما أداء لشكر نعمة الله عليك.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا وَإِيَّاكُمْ إِخْلَاصًا لَهُ، وَاتِّبَاعًا لِرَسُولِهِ، وَحُسْنَ
أَخْلَاقٍ فِي مَعَامِلَةِ الْخَلَائِقِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.


وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى
آلِهِ وَصَحْبِهِ.



الدرس الثالث:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّيَ وَأُسَلِّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ
وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

نتكلم الآن يسيراً على ما تلاه إمامنا في هذه الليلة، وقد تلا سُورَتَيْنِ مبدوءتين
بالْقَسَمِ.

وفي الليلة الماضية أيضاً قرأ الإمام بِسُورَةٍ مبدوءةً بِالْقَسَمِ ﴿وَالضُّحَى﴾ (١) 
وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١-٢].

الضُّحَى معروف، وَهُوَ عِنْدَ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي إذا غطى الأرض، وأقول عن مشاهدة، كنتُ راكباً في
الطائرة عندما غربت الشمس، فلما ارتفعت الطائرة وإذا الليل بالنسبة للأرض التي
تحتنا كأنه غطاء أسود يُغطي الأرض، فسبحان الله! ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي غطى
الأرض بظلماته.

فأقسم الله بشيئين مُتَبَايِنَيْنِ: الضُّحَى، وَهُوَ أَنْوَرُ مَا يَكُونُ، والليل.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: ٣] أي ما تركك، ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي وما أبغضك، وَهَذَا
يَدُلُّ عَلَى عناية الله تعالى برسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وعلى محبة الله له،
اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ الْعَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُنَا إِلَى حُبِّكَ.

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ لأنه لما تأخر الوحي قال مَنْ قَالَ مِنَ النَّاسِ:
إِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدٌ قَدْ قَلَكَ وَأَبْغَضَكَ، فأنزل الله هذه الآية وأقسم عزَّوَجَلَّ عَلَى هَذَا

الْحَبَرِ: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿[الضحى: ١-٤]﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ اللامُ للابتداء، دَخَلَتْ عَلَى الْمَبْتَدَأِ لكنها تفيدُ التوكيدَ، يعني مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. وغيرُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْأُولَى بِالوصفِ، يعني لا يوجدُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ خَاطَبَهُ اللَّهُ وَقَالَ: الْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى، لكن بالوصفِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْقَى﴾ [النساء: ٧٧].

أخي المسلم المتقي الله، إِنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى، إِنَّكَ تَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ تَخْشَى مُفَارَقَةَ الْحَيَاةِ، وَلَكِنَّكَ إِذَا كُنْتَ مِنَ الْمُتَّقِينَ فَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْمُتَّقِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَلِهَذَا يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنُ -جَعَلَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ- يُبَشِّرُ عِنْدَ مَوْتِهِ بِرُوحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٌّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَيَسْهُلُ خُرُوجُ الرُّوحِ مِنَ الْبَدَنِ، وَتَنْسَلُّ مِنَ الْبَدَنِ كَمَا تَنْسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ، فَالشَّعْرَةُ إِذَا وَجَدَتْهَا فِي الْعَجِينِ مُنْغَمِسَةً فِيهِ وَنَزَعَتْهَا لَا تَجْدُ فِيهَا صُعُوبَةً، فَرُوحُ الْمُؤْمِنِ -اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا جَمِيعًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ- إِذَا بُشِّرَتْ بِهَذَا انْسَلَّتْ مِنَ الْبَدَنِ وَخَرَجَتْ لِأَنَّهَا بُشِّرَتْ بِدَارٍ خَيْرٍ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ، إِي وَاللَّهِ، هَذِهِ الدَّارُ كُلُّهَا نَكْدٌ وَتَنْغِيصٌ.

فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: هَلْ ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ؟
يعني غير مُقَيَّدَةٍ بِشَخْصٍ وَلَا بِوَصْفٍ؟ قلنا: نعم، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١١) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿[الأعلى: ١٦-١٧]﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة والضحي، باب، رقم (٤٩٥٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٧).

إذن، ثلاث آيات ذُكرت للتأكيد أنَّ الآخرة خيرٌ مِنَ الأولى، مرةً عُمومًا، ومرةً مُقَيَّدةً بِوَصْفٍ ومرةً مُقَيَّدةً بِشَخْصٍ، والشخص هو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَتْبَاعِهِ، اللَّهُمَّ احْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] لسوف: (اللام) للتوكيد، و(سوف) للتحقيق لكن متأخرًا، وهذا من جمال اللغة العربية، فالحمد لله على أننا عربٌ، إذا قلت: سيقوم زيدٌ. فالخبر مؤكدٌ ومعناه: سيقوم الآن، وإذا قلت: سوف يقوم زيدٌ. فالخبر مؤكدٌ، ومعناه: سوف يقوم في المستقبل.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] ولقد أعطاه الله عزَّ وجلَّ ما رضي به، فما توفاهُ الله حتى فتح له، وأعطاه خزائن الأرض، أعطاه كنوز كسرى وقیصر، لكن ليس قبل موته، بل بعد موته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فتح أصحابه وخلفاؤه البلاد بِسُنَّتِهِ وَشَرِيعَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ مُقَرَّرًا هَذَا الْمَعْنَى ﴿أَلَمْ يَحْذِكْ يَتِيمًا فَاَوَى﴾ [الضحى: ٦] والجواب هنا: بلى، وإذا قلت: نعم. فمعناه: ما أعطاه، وما وَجَدَهُ يَتِيمًا، ولا آوَاهُ، فإذا قلتُ لك: أَلَمْ تَقُمْ؟ فإذا قلت: نعم. فمعناه أنك قاعدٌ، وإذا قلت: بلى. فمعناه أنك قمت، وفي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠] تقول: بلى.

يُذَكِّرُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ تَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: «وَلَوْ قَالُوا: نَعَمْ لَكَفَرُوا»^(١).

فإذا قلتَ لِرَجُلٍ: أَلَمْ تُطَلِّقِ امْرَأَتَكَ؟ فلو قال: نعم. لا تُطَلِّقْ؛ لأنه صدق

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي (١/٤٥٦).

النفي، ولو قال: بلى. تُطَلَّق.

﴿أَلَمْ يَحْذَكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦] فالجواب: بلى، كان النبي ﷺ يتيمًا، مات أبوه وهو حَمْلٌ وأُمُّهُ ماتت وهو صغيرٌ، لكن آواه الله عزَّ وجلَّ.

وحذف المفعول في قوله: ﴿فَآوَى﴾ لمُعْنَيْنِ:

المعنى الأول: لَفْظِيٌّ، وَهُوَ مُرَاعَاةُ فَوَاصِلِ الْآيَاتِ، ولو قال: فأواك، لم تتناسب مع ما قبلها، ولا مع ما بعدها.

المعنى الثاني: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَآوَى﴾ لَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّهُ آوَى الرَّسُولَ فَقَطْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، بل المعنى آواك أنت وآوى بك، فكم من فقير يأتي للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيُعْطِيهِ، حتى إن رجلاً من الأعراب أتى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأعطاه غَنَمًا بين جبَلَيْنِ -يعني كثيرة- والأعرابيُّ يحبُّ الغَنَمَ، فاستاق الغَنَمَ، ولكن هذا العطاء أثر في نفسه، فذهب إلى قومه وقال: يا قوم أسلموا فإن مُحَمَّدًا يعطي عطاءً مَنْ لا يخشى الفقر^(١). اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ.

الحاصلُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَآوَى﴾ أي آواك أنت وآوى بك أيضًا، فكم من أناسٍ أَوْوا إلى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فأواهم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] يعني لَيْسَ عِنْدَكَ عِلْمٌ فَهَذَاكَ اللَّهُ، وما كان عند الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِلْمٌ مِنَ الْوَحْيِ قَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب ما سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شيئاً قط فقال لا وكثرة عطائه، رقم

وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴿٤٩﴾ [هود: ٤٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يكن يعلم بشريعة الله إِلَّا بَعْدَ الْوَحْيِ، لكن قد عَصَمَهُ اللهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ مِنَ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ، وكل ما يخالفُ المروءة والشَّرَفَ ﷺ، ولهذا صار أهلاً لهذه الرسالة العظيمة.

والأصل هنا أَنْ يَقُولَ: فَهَذَاكَ، لكن قال: ﴿فَهَدَى﴾، يعني هداك وهدى بك كلَّ الأمة التي تَبِعَتْهُ، فكلُّها مهديةٌ بطريقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بِإِذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١] وإلا ما استطاع أَنْ يَهْدِيَ أَحَدًا، فاللهُ هداهُ وهدى به.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨] ﴿عَائِلًا﴾ يعني فقيراً، ﴿فَأَغْنَى﴾، أغناك اللهُ عَزَّوَجَلَّ، كان النبي ﷺ أول الأمر إِذَا قُدِّمَ إِلَيْهِ رَجُلٌ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مَا يُصَلِّي عَلَيْهِ، وهذا زَجْرٌ كبيرٌ لمن يتهاونُ بِالْدِّينِ، كان النبي ﷺ لَا يُصَلِّي عَلَى رَجُلٍ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَأُتِيَ بِمَيْتٍ فَسَأَلَ: «هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟» قالوا: نَعَمْ، دِينَارَانِ. فقال: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ». فقال أَبُو قَتَادَةَ: هُمَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ. فصلى عليه، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حَقُّ الْغَرِيمِ، وَبَرِيٌّ مِنْهُمَا الْمَيْتُ»، فتقدَّم وصلى^(١).

ونحن الآن كثيرٌ منا يتهاونُ بِالْدِّينِ، يَسْتَدِينُ لِأَجْلِ أَنْ يَضَعَ دِيكُورًا فِي بَيْتِهِ، يَسْتَدِينُ لِأَخْذِ سَيَارَةٍ بِخَمْسِينَ أَلْفًا، وَهُوَ يَجِدُ سَيَارَةً بِعَشْرِينَ أَلْفًا، فهذا خَطَأٌ

عَظِيمٌ، احْذَرِ الدِّينَ.

يقول في الحديث: فلما فَتَحَ اللهُ عليه وكثُرَتِ الأموالُ عنده مِنَ الْغَنَائِمِ قال ﷺ: «أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تُوِّفِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دِينًا، فَعَلِيَ قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ»^(١).

وقوله: ﴿فَأَغْنَى﴾ أغناكَ أَنْتَ وأغنى بك، فما أعظمَ كتابَ الله! اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا تِلَاوَتَهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيكَ عَنَا، كما قالتِ الْجَنُّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴿[الجن: ١-٢]﴾.

إِذَنْ ﴿فَأَغْنَى﴾ يعني أغناكَ وأغنى بك، فكلُّ الْغَنَائِمِ التي حَصَلَتْ بِجِهَادِهِ أَوْ جِهَادِ خُلَفَائِهِ كُلِّهَا بسببِ النَّبِيِّ ﷺ.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩-١١] هذه مُقَابَلَةٌ، ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ لَا تَقْهَرُهُ، أَعْطِهِ ما يريدُ إِلَّا المحرَّماتِ. واليتيم هو الذي فَقَدَ أَبَاهُ بالموتِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ، الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى سواءَ كُلُّهُمُ أَيْتَامٌ.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] السائل هنا ينقسم إلى قِسْمَيْنِ: السائلُ لِلْمَالِ وَالسائلُ لِلْعِلْمِ، فإذا جاءَ إِلَيْكَ فَقِيرٌ وقال: أنا والله ما عندي ما أَشْتَرِي لأولادي غَدَاءً أَوْ عَشَاءً. فهذا سائلٌ، وإذا جاءَ إنسانٌ يَسْتَفْتِيكَ يقول: أنا فعلتُ كَذَا وكَذَا فما الْحُكْمُ؟ هذا أَيْضًا سائلٌ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكفالة، باب من تكفل عن ميت ديناً، فليس له أن يرجع، رقم (٢١٧٦)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، رقم (١٦١٩).

إذن، السائل للمال والسائل للعلم لا تنهره، لأنه سائل مُستجد، لكن إذا علمت أن هذا السائل الذي يسأل المال إنما يسأل تكثراً فلا بأس أن تنهره وتنصحه؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكْثُرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَهْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»^(١).

وما أكثر السائلين الذين إذا ماتوا وجد الناس عندهم أموالاً كثيرة، نسأل الله العافية.

وقال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَا يَزَالُ يَسْأَلُ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا فِي وَجْهِهِ مُرْغَةُ لَحْمٍ»^(٢). ولهذا كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُباع أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً، حتى إن الواحد منهم لَيَسْقُطُ مِنْهُ سَوْطُهُ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ وَلَا يَقُولُ: يَا فَلانَ نَاوِلْنِي إِيَّاهُ، بَلْ يَنْزِلُ مِنَ الْبَعِيرِ وَيَأْخُذُهُ»^(٣).

وبالنسبة لسائل العلم، إذا جاء يسأل فلا تنهره، لأنه جاهل يريد أن تعلمه، ولكن إذا علمت أن هذا السائل يريد الفتنه، يعني يأتي إليك يستفتيك حتى يذهب فيستفتي الآخر ويقول له: فلان قال كذا وكذا خلاف ما تقول. يفتن بين العلماء، ويقول: أنت لئس عندك علم، فلان قال كذا وكذا. أو يقول للثاني: فلان قال كذا وكذا. هذا انهره وانصحه لأنه -والعياذ بالله- نمام، ولهذا قال الله لنبيه في الذين يستفتونه من بني إسرائيل قال: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ ثم قال:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً، رقم (١٤٠٥)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤٣).

﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤٢].

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] فلتنتبه لهذا، إذا أنعم الله عليك بما لا
فحدّث بنعمة الله عليك، وقل: الحمد لله، وأثنِ على الله عزّوجلّ واشكّر له، واعترف
بفضل الله عزّوجلّ عليك، هذا هو المحمود.

أما إذا قاله تفاخراً فهذا مذموم، واسمع قصة الرّجلين في سورة الكهف،
قال أحدهما للآخر: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] فهذا يفتخر،
وهذا مذموم.

ونعمة الله على العبد تتعدّد من مال، أو صحّة، أو قوّة، أو أولاد، أو جاه،
أو علم، وغير ذلك كثير، قال الله عزّوجلّ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾
إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [إبراهيم: ٣٤]، فاللهم ارزقنا شكر نعمتك وحسن
عبادتك.

قال النّبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلّم لمعاذ بن جبل: «يَا مُعَاذُ إِنِّي لِأُحِبُّكَ»،
قال ذلك تودّداً وتلطّفاً، ومن أجل أن يتلقى معاذ ما يذكره الرّسول ﷺ على أنه
صاير من محبّ حبيب، «إِنِّي أُحِبُّكَ، فَلَا تَدَعَنَّ أَنْ تَقُولَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ:
اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(١).

ادع الله عزّوجلّ بهذا الدعاء لأنه صدر من النّبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلّم
لمعاذ بن جبل مُصدّراً بقوله: «إِنِّي أُحِبُّكَ».

(١) أخرجه أحمد (٤٣٠ / ٣٦)، رقم (٢٢١١٩)، وأبو داود: كتاب الصّلاة، باب في الاستغفار، رقم
(١٥٢٢)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٣).

كل صلاة مكتوبة إذا أكملت التشهد فقل: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ. ثم سَلِّمْ حتى تَخْتِمَ به دعاء التشهد، هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية -وهو حق- وقد جاءت بعض الروايات بهذا، أنك تقولها قبل السلام^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكَانَ شَيْخُنَا يُرَجِّحُ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ السَّلَامِ، فَرَأَجَعْتُهُ فِيهِ، فَقَالَ: دُبِّرْ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهُ، كَدُبْرِ الْحَيَوَانِ»^(٢).

فاختم صلاة الفريضة بقول: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ، ثم سَلِّمْ.



(١) الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٢٠٥).

(٢) زاد المعاد، لابن القيم (١/ ٢٩٥).

الدرس الرابع:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالضُّحَى ۝۱﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝﴾ [الضحى: ١-٢] هَذَانِ شَيْئَانِ مَتَضَادَّانِ، فَالضُّحَى: عُلُوُّ الشَّمْسِ حَتَّى يَصْفَرَّ الْجَوُّ، وَاللَّيْلُ: هُوَ الظُّلْمَةُ.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝﴾ أَي: إِذَا غَطَّتِ الْأَرْضَ ظُلْمَةٌ، فَالظُّلْمَةُ وَالضِّيَاءُ مَتَقَارِنَانِ. أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿وَالضُّحَى ۝۱﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝﴾ فَأَقْسَمَ بِشَيْئَيْنِ: الضُّحَى، وَاللَّيْلِ. لِأَنَّ هَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِالنَّهَارِ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِاللَّيْلِ إِلَّا اللَّهُ. فَهُمَا آيَتَانِ عَظِيمَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ النَّهَارَ مَعَاشًا، يَعِيشُ النَّاسُ فِيهِ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سُبَاتًا يَنَامُونَ، فَيَقْطَعُ عَنْهُمْ التَّعَبَ، وَيُعْطِيهِمْ نَشَاطًا لِلْمُسْتَقْبَلِ.

لَكِنْ مَعَ الْأَسْفِ فَإِنَّا فِي وَقْتِنَا هَذَا صَارَ النَّهَارُ سُبَاتًا وَاللَّيْلُ مَعَاشًا، بَلْ إِنَّهُ مَا هُوَ مَعَاشٌ بِالْمَعْنَى الْمَعْرُوفِ، بَلْ أَصْبَحَ سَهْرًا بَلَا فَائِدَةٍ، بَلْ رُبَّمَا يَكُونُ مَضَرَّةً، وَهَذَا قَلْبٌ لِلْحَقِيقَةِ. وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، وَيَكْرَهُ

الحديث بعد صلاة العشاء^(١). فإذا نمت بعد أن تُصلي العشاء فهذا أحسن لك دينًا ودُنياً.

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿﴾ في هذا الإقسام إشكال، وهو الإقسام بغير الله، فنحن نعرف أنه «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ»^(٢). فلو قلت مثلاً: والنبى محمد، لأفعلن كذا وكذا. هذا نوع من الشرك، ولو قلت: والوطن لأفعلن كذا. فهذا نوع من الشرك. فالحلف لا يجوز إلا بالله وحده، قال النبى ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٣).

إذن، هنا المشكلة، كيف يُقسم الله بالضحى والليل وهما مخلوقان؟

نقول: لأن الحاكم هو الله، وله أن يحكم بما شاء، إذن، له أن يحرم على العباد الإقسام بالمخلوق، وله هو عز وجل أن يُقسم بالمخلوق، ويُقسم بما شاء؛ لأن الله حاكم، ولا يُحكم عليه، فله أن يُقسم بما شاء من خلقه.

لكن اعلم أن الله لا يُقسم بشيء إلا وهو من أعظم آياته، حتى إنه أقسم بيوم القيامة: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة: ١]؛ لأنه من أعظم الآيات أن يقوم الناس من

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت العصر، رقم (٥٢٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها، رقم (٦٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٥/٢)، رقم (٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم (٢٦٧٩)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ بِصِيحَةٍ وَاحِدَةٍ.

أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ قَتْلَ الْأَبْنَاءِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ صَارَ مِنْ أَجْلِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي كُوفِيَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ بِوَصْفٍ عَظِيمٍ لَا يَنَالُهُ إِلَّا مَنْ يَتَحَقَّقُ، مَعَ أَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْمَحْرَمَاتِ، فَقَدْ أَمَرَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ، فَصَارَ الذَّبْحُ طَاعَةً وَقُرْبَةً مِنْ أَفْضَلِ الْقُرْبِ، وَلِهَذَا جَازَاهُ اللَّهُ بِأَنْ جَعَلَهُ خَلِيلًا لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَابَرَهَيْمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿[الصافات: ١٠٣-١٠٦] أَي: وَاللَّهُ هَذَا بَلَاءٌ مُبِينٌ، وَامْتِحَانٌ عَظِيمٌ؛ أَنْ يُؤَمَّرَ الْإِنْسَانُ بِأَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ سِوَاهُ، وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَتَى إِبْرَاهِيمَ عَلَى كِبَرٍ، وَلَيْسَ لَهُ سِوَاهُ، وَمَعَ ذَلِكَ ابْتِلَاؤُهُ رَبُّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ أَنْ يَذْبَحَهُ، فَوَافَقَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ إِسْمَاعِيلَ إِشْكَالٌ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَاطَبَ ابْنَهُ بِلُطْفٍ شَدِيدٍ وَرِفْقٍ وَلِينٍ، فَقَالَ: ﴿يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] فَكَيْفَ يَشَاوِرُ إِبْرَاهِيمُ ابْنَهُ فِي أَمْرِ أَمْرٍ بِهِ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَخْتَبِرَ الْإِبْنَ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْتَشِيرَهُ فِي تَنْفِيدِ أَمْرِ اللَّهِ، فَكَانَ مَقَامُ الْإِبْنِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَقَامَاتِ وَأَعْجَبِهَا، وَانْظُرُوا مَاذَا قَالَ لِأَبِيهِ: ﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢] لَمْ يَقُلْ: يَا أَبَتِ اذْبَحْنِي. قَالَ: ﴿يَتَابَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ لِيُنَبِّهَهُ أَنَّهُ إِذَا ذَبَحَهُ فَإِنَّمَا فَعَلَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، نَعَمْ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَنْ الصَّابِرِينَ، أَمَا الْآنَ فَلَوْ أَنَّكَ قُلْتَ لِابْنِكَ: سَأُضْرِبُكَ، سَأُقِيدُكَ. وَلَّى وَهَرَبَ، لَكِنَّ هَذَا الْإِبْنَ لَهَا قَالَ لَهُ أَبُوهُ: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي

أَذْبَحْكَ فَنَنْظُرَ مَاذَا تَرَى ﴿١﴾ وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَخِي، قَالَ: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، فَهَذَا أَصْبَحَ ذَبْحُ الْإِبْنِ طَاعَةً بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي لَهُ الْحُكْمُ.

وكذلك السجود، فهو لغير الله شِرْكٌ، ولكن كان يوماً ما السجود لغير الله عبادةً، وتركه كُفْرٌ؛ وَذَلِكَ عِنْدَمَا أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِآدَمَ، فَسَجَدُوا امْتِثَالاً لِأَمْرِ اللَّهِ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

فَتَبَيَّنَ الْآنَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَهُ أَنْ يَأْمُرَ بِمَا شَاءَ، وَلِجَمِيعِ أَوَامِرِهِ حِكْمَةٌ لَيْسَ فِيهَا لَعِبٌ وَلَا بَاطِلٌ، بَلْ كُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ. سَأَلَتِ امْرَأَةٌ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ، وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ قَالَتْ: «كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ»^(١). أَجَابَتْهَا بِمَا هُوَ الْحِكْمَةُ؛ لِأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ كَوْنَ اللَّهِ يَأْمُرُ الْحَائِضَ أَنْ تَقْضِيَ الصَّوْمَ دُونَ الصَّلَاةِ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحِكْمَةُ، مَجَرَّدُ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ حِكْمَةٌ، اسْمَعُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] مَا دَامَ اللَّهُ أَمَرَ بِهَذَا فَهُوَ الْحِكْمَةُ، نَهَى عَنْ هَذَا فَهُوَ الْحِكْمَةُ.

وَقَدْ يَسْأَلُ بَعْضُ النَّاسِ فَيَقُولُ: إِنَّهُ أَكَلَ لَحْمِ إِبِلٍ، وَهُوَ عَلَى وُضوءٍ، وَأَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ، فَلِمَاذَا يَلْزَمُهُ أَنْ يُصَلِّيَ وَهَذَا اللَّحْمُ حَلَالٌ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ؟ نَقُولُ: لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِهِ وَكَفَى، وَلَا مَأْمُورَ بِهِ إِلَّا لِلْحِكْمَةِ إِنْ عَقَلْتَهَا عَقْلَتَهَا، وَإِنْ لَمْ تَعْقِلْهَا فَإِنَّ هَذَا أَمْرُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الحائض الصوم، رقم (٣٣٥).

ولهذا كان القول الراجح من أقوال العلماء: أَنَّ الإنسانَ إِذَا أَكَلَ لَحْمَ إِبِلٍ نَبِيًّا
أَوْ مَطْبُوحًا، هَبْرًا أَوْ شَحْمًا، أَوْ كَبِدًا أَوْ أَمْعَاءً، أَوْ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْبَعِيرِ، فَإِنَّهُ
يُنْتَقِضُ وَضُوءُهُ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَضَّأَ إِذَا أَرَادَ الصَّلَاةَ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَغْسِلَ
فَرْجَهُ، مَعَ أَنْ بَعْضَ الْعَوَامِ يَظُنُّونَ أَنَّ غَسْلَ الْفَرْجِ مِنْ شُرُوطِ الْوُضُوءِ، وَهَذَا غَيْرُ
صَحِيحٍ، فَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَضَى حَاجَتَهُ بِبَوْلٍ أَوْ غَائِطٍ السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ ضُحًى، ثُمَّ
جَاءَ لَصَلَاةِ الظُّهْرِ، وَأَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَوَضَّأَ: يَغْسِلُ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَيَمْسَحَ
رَأْسَهُ وَيَغْسِلَ رِجْلَيْهِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَغْسِلَ فَرْجَهُ.

الخلاصة: أَنَّ الْإِشْكَالَ الْوَارِدَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالضُّحَى ①﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى ﴿
هُوَ الْإِقْسَامُ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَالْجَوَابُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُقْسِمَ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ
الْحَاكِمُ وَلَيْسَ الْمَحْكُومَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُقْسِمُ بِشَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ
مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِهِ.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣]: الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوَحْيَ قَدْ
تَأَخَّرَ، فَقِيلَ: إِنْ مُحَمَّدًا تَرَكَهُ رَبُّهُ وَكَرِهَهُ. فَأَقْسَمَ اللَّهُ أَنَّهُ مَا وَدَّعَهُ وَمَا قَلَاهُ، أَي: مَا تَرَكَهُ
وَمَا أَبْغَضَهُ، بَلِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَاعِيهِ، وَهُوَ الَّذِي اعْتَنَى بِهِ أَعْظَمَ
اعْتِنَاءٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنْ قُرَيْشًا قَدْ سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: أَخْبِرْنَا عَنْ رَجُلٍ مَلَكَ
مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَعَنْ قَوْمٍ اخْتَبَأُوا فِي غَارٍ مَدَّةً طَوِيلَةً - يَعْنُونَ أَصْحَابَ
الْكَهْفِ - وَعَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ؟ أَخْبِرْنَا عَنْهُمْ إِذَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ تَقُولُ إِنَّهُ يَأْتِيكَ الْخَبَرُ
مِنَ السَّمَاءِ؟ قَالَ: «غَدًا أَخْبِرُكُمْ»^(١).

(١) انظر: تفسير البحر المحیط، لأبي حيان (٦/ ٩٣).

ولكنَّ الوحي قد تأخر خمسة عشر يوماً، ثم نزل الوحي ببيان أصحاب الكهف وبيان ذي القرنين، وفي هذا من الحكم العظيمة ما يظهر للمتأمل، فلو أنه أخبرهم في الموعد الذي حدّده، لاتهموه باختلاق الكلام وبالكذب، لكن لما تأخر الوحي، وهو قد واعدهم، علموا أنه لا يتكلّم إلا بوحي، ولو كان كاذباً - وحاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك - لكان يأتي بما يأتي به تصديقاً لكلامهم الذي وعدهم به، لكنه لا يتلو إلا ما يوحي إليه فقط، فصار في هذا من الحكم العظيمة ما يظهر عند المتأمل.

كذلك أيضاً أراد الله عزّ وجلّ أن يُبيّن لنبيه أن الأمر أمر الله، وأن رسول الله ﷺ ليس له من الأمر شيء، ولهذا قال له في سورة الكهف: ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۚ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤] وإذا كان هذا تربية الله عزّ وجلّ لرسله فما بالك بنا نحن؟ نحن نقول: غداً نأتيك، غداً كذا. دون أن نقول: إن شاء الله. ولذلك لا يُبارك لنا في وعِدنا، ولا يُبارك لنا في عمَلنا؛ لأننا لم نقل: إن شاء الله. هذه القصة - أعني كون الله آخر الوحي لأن رسول الله لم يقل: إن شاء الله - حدثت مع محمد وهو رسول الله.

وقد وقعت مثل هذه القصة تماماً من حيث المعنى مع نبي آخر، هو سليمان عليه السلام، كان سليمان ملكاً نبياً، وكان عنده نساء، فقال: «والله لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل واحدةٍ منهن غلاماً يُقاتل في سبيل الله». فقيل له: قل إن شاء الله. فلم يقل إن شاء الله؛ لأنه عازم غير مُتردّد، ففهم أن التعليق يعني التردّد، وهو عازم على ذلك، فجاء تسعين امرأة، فولدت واحدةً منهن فقط شقّ إنسان.

سبحان الله، فالأمر أمر الله، ولدت واحدة فقط شق إنسان! هذا شيء يعجز عن تفسيره حتى الأطباء، فهم لا يعتقدون أن يأتي مولود بهذه الصورة ويعيش، والله أعلم هل عاش أو لا؟، لكن المهم أن الله أراد عز وجل أن يري نبيه سليمان أن الأمر بمشيئة الله، ولهذا قال نبينا محمد عليه الصلاة والسلام: «لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ وَلَقَاتَلُوا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

إذن: لا تقل شيئاً إلا قارناً إياه بمشيئة الله؛ لأن هذا من أسباب عون الله لك.

ولو قال رجل: والله لا تصدقن اليوم بعشرة دراهم. ثم غابت الشمس، ولم يتصدق، فعليه كفارة. وإذا قال آخر: والله لا تصدقن اليوم بعشرة دراهم إن شاء الله. وغابت الشمس فليس عليه شيء. والفرق بين الرجلين واضح؛ لأن هذا قرنها وعلقها بمشيئة الله، ولو شاء الله أن يتصدق لتصدق.

إذن: امتنع عن الصدقة؛ لأن الله لم يشأ، لذلك أوصيكم أن تعودوا ألسنتكم أنكم كلما حلفتُم على شيء فأتُّموا وقولوا: إن شاء الله.

فإذا قلتم هذا استفدتم فائدتين:

الفائدة الأولى: أن ذلك من أسباب تيسير الأمور لكم.

الفائدة الثانية: إذا تخلفت المسألة لم يكن عليكم كفارة.

أنا أوصيكم بهذا، وما أكثر الذين يحلفون ويحشون في أيمانهم وتلزمهم

(١) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في اليمين، رقم (٦٧٢٠)، ومسلم:

كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

الكفارة، لكن إذا قال: إن شاء الله، وحِث فليس عليه شيء.

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤] اللامُ هنا في قوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ﴾ للتوكيد، ﴿خَيْرٌ لَّكَ﴾ الخطابُ للرَّسُولِ ﷺ، والآخرةُ معروفةٌ، ﴿مِنَ الْأُولَى﴾ الأولى هي: الدنيا، فقد أخبر الله رسوله عليه الصلاة والسلام ووعده بأن الآخرة خيرٌ له من الأولى، ولغير الرسول جاء مُقَيَّدًا، فقد قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْقَى﴾ [النساء: ٧٧].

ويجب أن تعرف الفرق، فالرسول عليه الصلاة والسلام قال الله له: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤] بدون قيد؛ لأنه إمام المتقين عليه الصلاة والسلام، ومن سواه قال له: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْقَى وَلَا نُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وهذا صحيح، فالآخرة خيرٌ للمؤمن، ولكنها شرٌ للكافر.

يذكر أن ابن حجر العسقلاني رحمه الله كان قاضي القضاة في مصر، وهو صاحبُ (فتح الباري)، الكتاب المعروف، كانه علم على نارٍ، وكان قاضي القضاة، وكان إذا خرج من منزله إلى مكان القضاء ركبَ عربةً تجرُّها الخيول، والناس من بين يديه ومن خلفه في موكبٍ، فمرَّ بيهوديَّ زيات، وهذا عمله، وثيابه متسخة وهو مُتَعَبٌ من عمله، فاستوقفه اليهودي وقال له: يا قاضي القضاة، قف. فوقف، وقال: ما لك؟ قال: إن نبيكم يقول: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(١)، كيف يتفق هذا الكلام مع حالي وحالك، أنت الآن مؤمنٌ، وأنا في نظرك كافرٌ، ولكنني أراك في جنةٍ ونعيمٍ، وأراني في بلاءٍ وعناءٍ ونارٍ؟ فقال له: أما أنا فما أنا فيه من النعيم فهو سِجْنٌ بالنسبة لنعيم الآخرة، وأما أنت مع هذا العناء والتعب فهو جنةٌ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦).

بالنسبة لعذاب الآخرة. فقال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله^(١).

أسلم لأن الأمر تبين له، وهو الحق، فجميع نعيم الدنيا ليس بشيء بالنسبة للآخرة، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لَوْضِعُ سَوْطٍ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(٢). اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ سَاكِنِي الْجَنَّةِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ سَاكِنِي الْجَنَّةِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ سَاكِنِي الْجَنَّةِ.

نعم مع أن السوط قصير، لكن مساحته في الجنة خير من الدنيا كلها - من أولها إلى أن تقوم الساعة - وما فيها.

إذن، لا تعارض بين قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤] وبين قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧]؛ لأن الرسول إمام المتقين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ جاء مثلها في موضع آخر بالنسبة لعموم الناس، لكنه جاء مُقَيِّدًا، وموضع التقييد قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧]؛ لأنه يخاطب جميع الناس، ولا تكون الآخرة لجميع الناس خيراً لهم، وإنما هي خير لمن اتقى.

ولهذا إذا حُلِ المِيتُ وكان صالحاً فإن نفسه تقول: قدّموني قدّموني^(٣)؛ لأنها قد بشرت بالرحمة والرضوان، فتقول: قدّموني قدّموني لهذه الرحمة والرضوان.

(١) فيض القدير (٣/ ٥٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب كلام الميت على الجنازة، رقم (١٣١٤).

جَعَلَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ بِالْعَكْسِ غَيْرَ صَالِحَةٍ فَإِنَّهَا تَقُولُ: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا. ولهذا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بالإسراع بالجنائز، فقال: «أُسْرِعُوا بِالْجِنَازَةِ، فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا، وَإِنْ يَكُ سِوَى ذَلِكَ، فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ»^(١).

ولهذا قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: الإسراعُ بِالْجِنَازَةِ فِي تَغْسِيلِهَا، وَتَكْفِينِهَا، وَالصَّلَاةَ عَلَيْهَا هُوَ السُّنَّةُ، وَهُوَ الْأَفْضَلُ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَيِّتِ؛ لِأَنَّ الْمَيِّتَ يَرِيدُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى مَا بُشِّرَ بِهِ مِنَ النَّعِيمِ. وقالوا كذلك: لَا بَأْسَ أَنْ يُؤَخَّرَ إِلَى كَثْرَةِ الْجَمْعِ، مِثْلُ: أَنْ يَمُوتَ فِي أَوَّلِ الضُّحَى فَيُؤَخَّرُ إِلَى صَلَاةِ الظُّهْرِ مِنْ أَجْلِ كَثْرَةِ الْجَمْعِ؛ لِأَنَّ كَثْرَةَ الْجَمْعِ عَلَى الْمَيِّتِ مِنْ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ»^(٢).

وَأَمَّا مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ، إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ انتَظَرَ حَتَّى يَأْتِيَ أَهْلُهُ مِنْ أَقْطَارٍ بَعِيدَةٍ، وَيَبْقَى يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، فَهَذَا جِنَايَةٌ عَلَى الْمَيِّتِ، وَإِسَاءَةٌ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْمَيِّتَ الصَّالِحَ يَقُولُ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي. وَهَؤُلَاءِ حَبَسُوهُ عَمَّا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ النَّعِيمِ، فَصَارُوا بِذَلِكَ مُسِيئِينَ إِلَى الْمَيِّتِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، لَكِنَّ التَّأخِيرَ الْيَسِيرَ - كَمَا قُلْتُ لَكُمْ - لَا بَأْسَ بِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ مَاتَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَلَمْ يُدْفَنْ إِلَّا لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب السرعة بالجنائز، رقم (١٣١٥)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب الإسراع بالجنائز، رقم (٩٤٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفَعوا فيه، رقم (٩٤٨).

فالجواب: بلى، هذا حدث لا شك، لكن الصحابة رضي الله عنهم أخرجوا دفنه حتى يقوم الخليفة بعده؛ حتى لا تبقى الأمة الإسلامية بلا قائد يقودها، فلما تمت البيعة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه دفنوه.

فلا حجة في هذا التأخير الذي كان من الصحابة لرسول الله ﷺ؛ لأن العلة الموجودة التي حصل بها التأخير لا توجد في غيره، وهي أنهم لا يريدون أن يدفنوا رسول الله حتى يقوم الخليفة بعده، ولو دفن قبل أن يكون الخليفة لبقيت الأمة الإسلامية بدون خليفة؛ لذلك أخرجوا دفنه -صلوات الله وسلامه عليه-.

المهم: أن السنة هي الإسراع في غسل الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه؛ لأنه إذا كان من المتقين فالآخرة خير له، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْقَى﴾ [النساء: ٧٧].

قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] هذه الآية لم تحدّد هل المراد إعطاؤه في الدنيا أم في الدنيا والآخرة؛ لأن الله لم يقيّد ذلك بالآخرة، ولم يقيّد ذلك بالدنيا، وإذا وردت النصوص القرآنية أو النبوية مطلقة فإن الواجب إطلاقها، وألا تُقيّد بشيء، فالله عز وجل يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، وهذا يشمل ما أعطاه في الدنيا وما أعطاه في الآخرة.

أما ما أعطاه في الدنيا فقد فتح به قلوباً غلفاً، وآذاناً صماً، وأعيناً عمياً، وأيضاً بسط الله له في الرزق؛ فجاءت المغانم كثيرة، وفتح خلفاؤه الراشدون من مشارق الأرض ومغاربها ما هو معلوم، ومن المعلوم أن فتح الخلفاء الراشدين لمشارق الأرض ومغاربها إنما كان بدعوة الرسول ﷺ، هم فتحوا البلاد بالإسلام،

ولم يَفْتَحُوهَا بِقُوَّتِهِمْ، بل بالإسلام الذي اتَّبَعُوهُ خَلْفًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

إذن، فالله أعطى رسوله ﷺ في الدُّنْيَا ما رَضِيَ بِهِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

أَمَّا عَطَاؤُهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ فَسَوْفَ يُعْطِيهِ مَا يُرْضِيهِ، يُعْطِيهِ الشَّفَاعَةَ الْعُظْمَى

التي لا يَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الرُّسُلِ الْكَرَامِ، حَتَّى تَصِلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

والشفاعة العظمى هي: أَنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَبْقَوْنَ خَمْسِينَ أَلْفَ

سَنَةٍ، لَا أَلْفًا وَلَا عَشْرَةَ آلَافٍ، بَلْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، لَا طَعَامَ وَلَا شَرَابَ وَلَا شَيْءَ،

الشَّمْسُ تَذُوُّ مِنْهُمْ مَقْدَارَ مِيلٍ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ حَرِّهَا إِلَّا مَنْ أَظْلَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ

يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ.

يَلْحَقُ النَّاسَ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَيَتَعَبُونَ تَعَبًا عَظِيمًا، وَيَقُولُ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَا تَطْلُبُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى اللَّهِ؛ لِيُرِيحَنَا مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ؟ فَيُلْهِمُهُمُ

اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَأْتُوا آدَمَ، وَآدَمُ هُوَ أَبُو الْبَشَرِ، وَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ آدَمُ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ،

وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، اشفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا

نَحْنُ فِيهِ، فَيَعْتَذِرُ عَنِ الشَّفَاعَةِ بِأَنَّ اللَّهَ نَهَاهُ عَنِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَلَكِنَّهُ أَكَلَ

مِنْهَا، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَى ۚ ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ، فَتَابَ

عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ يَعْتَذِرُ مَنْ ذَنْبٍ تَابَ مِنْهُ وَاللَّهُ تَعَالَى اجْتَبَاهُ بَعْدَهُ وَهَدَاهُ؟

قُلْنَا: لِأَنَّ مَقَامَ الشَّفَاعَةِ عَظِيمٌ، وَيَحْتَاجُ إِلَى مَنْزِلَةٍ عَالِيَةٍ، وَآدَمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

خَجَلَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ شَفِيعًا لِلخَلْقِ، مَعَ أَنَّهُ عَصَى رَبَّهُ وَتَابَ مِنْ هَذَا

الذَّنْبِ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ.

فيذهبون إلى نوح، وهو أول الرُّسل، أما أول الأنبياء فهو آدم، أوحى الله إليه بما أوحى، لكنَّ الرُّسل أولهم نوح، يأتون إليه ويقولون له: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض - ويذكرون من مناقبه - ألا ترى ما نحن فيه؟ اشفع لنا إلى الله. فيعتذر بأنه سأل ما ليس به علم؛ لأنه سأل ما ليس له به علم، فقد وعد الله نوحاً عليه الصلاة والسلام أن يُنجيه وأهله، وكان أحد أبناء نوح كافراً، كافراً بأبيه وهو يرى الآيات، لكن من يضلِّل الله فلا هادي له.

فلما أراد الله عزَّ وجلَّ أن يهلك الكافرين فتح أبواب السماء بماء منهمر، ماء عظيم جداً منهمر، وتأمل قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١] لِيَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ السَّمَاءَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ تُمَطِّرُ، ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]. لم يقل سبحانه: وفجرنا عيون الأرض. بل كل الأرض صارت عيوناً، ومعنى عيوناً: أي: مياهها، ﴿فَالْنَقَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، وملاً الماء الأرض حتى وصل إلى قمم الجبال، وانصرف ابنه، فقال له أبوه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْرِلٍ يَبْنَى أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ٤٢ قَالَ سَاوِيَ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴿[هود: ٤٢-٤٣] فقال نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]، وقد وعدتني أن تنجيني أنا وأهلي، ﴿وَلِإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] قال الله له: ﴿قَالَ يَنْوَحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَلَوَّنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] وهذا كلام الله لأول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض يقول: ﴿فَلَا تَتَلَوَّنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

في هذه الآية مسألة فقهية؛ وهي: أن الكافر لا يرث من المسلم، نأخذها من

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ مع أنه ابنه، فيستفاد من هذه الآية الكريمة أنه إذا اختلف دين الميت وأقاربه فإنهم لا يرثون منه؛ لأنهم ليسوا من أهله، وإن كانوا قرابته في النسب، لكن الأواصر الدينية هي الأصل.

ثم يأتي الناس إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إمام الخنفاء، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] يأتون إليه ويقولون: أنت خليل الله - ويذكرون من صفاته - اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيعذر بأنه كذب ثلاث كذبات، وهذه الكذبات ليست كذباً حقيقة ولكنها تورية.

والتورية هي أن يريد المتكلم بكلامه ما يخالف ظاهره، فمثلاً لو سألك سائل فقال: أتعرف فلاناً؟ وأنت تعرفه تماماً فقلت: لا أعرفه. هو يفهم أنك لا تعرفه، وأنت في الواقع تعرفه، فكيف يمكن أن يكون هذا النفي حقاً؟ يكون حقاً لو قصدت أنك لا تعرفه مسافراً، وهذا يصح، أو تقصد أنك لا تعرفه كذاباً، لا تعرفه متزوّجاً، لا تعرفه شيخاً. وهكذا، ويسمى هذا تأويل، وفي التأويل مندوحة عن الكذب، وهكذا قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام قولاً هو فيه متأول، لكنه بحسب السامع غير صحيح.

أما الكذبات الثلاث التي كذبها ﷺ هي في الواقع غير كذبات، وهي:

الأولى: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿[الصفات: ٨٨-٨٩] لأن قومه كانوا يعبدون النجوم، ولهذا حاجهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] وهل هو ربه؟ لكنه يقول على زعمهم: ﴿فَلَمَّا

أَفَلَمْ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴿٧٦﴾ أَي: عَلَى زَعَمِ قَوْمِهِ ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿[الأنعام: ٧٦-٧٨]. وَلَكِنَّهُ عِنْدَمَا قَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أَي: مَرِيضٌ، لَمْ يَكُنْ مَرِيضًا حِينَئِذٍ، وَلَكِنَّهُ سَيَكُونُ، وَالْأَصْنَامُ لَا تُغْنِي شَيْئًا، هَذِهِ وَاحِدَةٌ.

الثانية: إبراهيم عليه الصلاة والسلام دَعَا قَوْمَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، فَخَرَجُوا ذَاتَ يَوْمٍ، فَعَادَ إِلَى أَصْنَامِهِمْ فَكَسَرَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِثَالِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿[الأنبياء: ٦٠-٦٣]، وَالصَّنَمُ الْكَبِيرُ لَمْ يَكُنْ هُوَ مَنْ كَسَرَ بَقِيَّةَ الْأَصْنَامِ، بَلْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ هُوَ الْفَاعِلُ، لَكِنَّهُ قَالَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ تَحْدِيًا لِقَوْمِهِ، أَي: أَنْ هَذَا الْكَبِيرَ لَا يُرِيدُ أَنْ يُنَازِعَهُ أَحَدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَالْوَهِيَّتِ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ - وَهُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ - لَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ شَرِيكًا لَهُ فِي الْعِبَادَةِ. وَهَذِهِ الثَّانِيَّةُ.

الثالثة: مَرَّ إِبْرَاهِيمُ بِمَلِكٍ ظَالِمٍ يُرِيدُ زَوْجَتَهُ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: هَذِهِ أُخْتِي. وَهِيَ فِي الْوَاقِعِ زَوْجَتُهُ، لَكِنَّهُ تَأَوَّلَ أَنَّهَا أُخْتُهُ فِي الْإِسْلَامِ. هَذِهِ حَقِيقَةٌ لَيْسَتْ كَذَبَاتٍ بِاعْتِبَارِ الْحَقِيقَةِ، لَكِنَّهَا بِاعْتِبَارِ الْمَخَاطَبِ كَذَبَاتٌ، فإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اعْتَذَرَ أَنَّهُ كَذَبَ هَذِهِ الْكَذَبَاتِ، مَعَ أَنَّهَا حَقِيقَةٌ لَيْسَتْ كَذَبَاتٌ.

فيقول لهم إبراهيم: اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى. فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ

أفضل أنبياء بني إسرائيل، فيقولون: أنت موسى كلمك الله واضطفاك لنفسه - ويذكرون من مناقبه - اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيعتذر بأنه قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، وحقيقة الأمر أن موسى عليه الصلاة والسلام مرَّ برجلٍ من بني إسرائيل ورجلٍ من الأقباط يتنازعان، فاستغاث الإسرائيلي موسى عليه الصلاة والسلام، أي: طلب منه الغوث على القبطي، وكان موسى عليه الصلاة والسلام رجلاً شديداً قوياً، فوكز القبطي فقتل عليه، أي: هلك ومات.

ومرَّ مرةً أخرى فإذا صاحبه الإسرائيلي ينازع قبطياً آخر ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تُقَتِّلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩]، وكان آل فرعون يبحثون عن الذي قتل صاحبهم، فعلم بذلك أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس، ولم يقتله في اليوم الثاني، فقال: إنه قتل نفساً لم يؤمر بقتلها. وجعل ذلك من الأسباب التي تجعل منها أن يكون شافعاً إلى الله عز وجل.

وهكذا ذهبوا إلى أربعة أنبياء: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى عليهم السلام.

ثم ذهبوا إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، وذكروا من مناقبه، وطلبوا منه أن يشفع لهم إلى الله، ولكنه لم يفعل، ولم يعتذر بذنب، وإنما أحالهم إلى محمد رسول الله ﷺ؛ لأن الرسل كلهم يعترفون بأن محمداً هو أفضلهم، جعلني الله وإياكم من أتباعه؛ لأنه في ليلة المعراج صلى بهم إماماً، وكلهم خلفه، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فأحالهم إلى النبي ﷺ، ولم يذكر شيئاً يعتذر به، وهذه من حكمة الله عز وجل؛

أَنَّ اللَّهَ أَلْهَمَ الْبَشَرَ أَنْ يَذْهَبُوا أَوَّلًا إِلَى آبِيهِمْ، ثُمَّ إِلَى أَوَّلِ رَسُولٍ، ثُمَّ إِلَى خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ إِلَى مُوسَى، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ يَعْتَذِرُونَ بِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ، أَمَّا عِيسَى فَلَا يَعْتَذِرُ بِشَيْءٍ، لَكِنَّهُ يَعْتَرِفُ بِالْفَضْلِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَكُونُ نَهَايَةُ الطَّلَبِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا بَيْنَ مَعْتَذِرٍ مِنْهَا لَهَا يَرَى أَنَّهُ مَانِعٌ مِنَ الشَّفَاعَةِ، وَبَيْنَ مَعْتَرِفٍ بِالْفَضْلِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَقُومُ النَّبِيُّ ﷺ وَيَشْفَعُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الرَّسُولَ يَرْضَى بِهَذَا وَيَفْرَحُ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وَهَذَا وَاللَّهُ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ، يَحْمَدُهُ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، الَّذِينَ مِنْ أُمَّتِهِ، وَالَّذِينَ سَبَقُوهَا، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُعْطِيهِ رَبُّهُ فَيَرْضَى^(١).

وَهُنَاكَ أَمْرٌ آخَرُ، يُنْصَبُ الصِّرَاطُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَيَمُرُّ النَّاسُ عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ، الْمَهْمُ: أَنَّ النَّاسَ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَأَوَّلُ النَّاسِ عُبُورًا لِهَذَا الصِّرَاطِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ^(٢)، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ وَمِيزَةٌ وَمَنْقَبَةٌ، يَأْتِي النَّاسُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَجِدُونَهُ مَغْلَقًا، فَيَطْلُبُونَ الشَّفَاعَةَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ لِيَفْتَحَ لَهُمْ^(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]،

رقم (٤٤٧٦)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب

الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر

الأنبياء تبعاً»، رقم (١٩٦).

وهذه مقاماتٌ عظيمةٌ داخلَةٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾

[الضحى: ٥].

بعد ذلك قال الله تعالى مُقَرَّرًا نِعَمَهُ على رسوله لِيَسْتَدِلَّ بها حَدَثَ على مَا لم يُحْدِثْ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦]، واليَتِيمُ: مَنْ مَاتَ أَبُوهُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مَاتَ أَبُوهُ وَهُوَ حَمْلٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، ﴿فَآوَى﴾ أَي: آوَاهُ بِمَا قَيَّدَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يَحْنُو عَلَيْهِ، وَيُعْطِفُ عَلَيْهِ، وَيَقُومُ بِأَمْرِهِ، فَيَسِّرَ اللَّهُ لَهُ جَدَّهُ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ، فَكَفَلَهُ أَحْسَنَ كِفَالَةٍ، ثُمَّ تُوفِّيَ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ، فَقَيَّدَ اللَّهُ لَهُ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ، وَكَفَلَهُ أَحْسَنَ كِفَالَةٍ، وَاعْتَنَى بِهِ وَدَافَعَ عَنْهُ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ صَادِقٌ، أَعْلَنَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ صَادِقٌ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ شِعْرٌ.

ولعل كثيرًا مِنَّا لا يحفظُ هذا الشَّعْرَ، ولكن أنصحكم ونفسي بوجوبِ معرفةِ سيرةِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّ مَعْرِفَتَهَا تَزِيدُ فِي الْإِيمَانِ، وَتَزِيدُ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُكْسِبُ الْإِنْسَانَ أُسُوءَ حَسَنَةٍ: كَيْفَ كَانَ خُلُقُ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْبِهِ وَبُيُوتِهِ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ جِدًّا.

يقول أبو طالب^(١):

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ
مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

إِذْنِ: اعْتَرَفَ بِأَنَّهُ دِينٌ، وَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ مِنْ خَيْرِ الْأَدْيَانِ، وَلَكِنْ انظُرُوا مَاذَا

مَنَعَهُ مِنْ اتِّبَاعِهِ:

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ
لَوْجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَاكَ مُبِينَا

وله قصيدة طويلة، قال عنها ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في البداية والنهاية^(١): ينبغي أن تكون من المعلقات، والمعلقات سبع قصائد رأت العرب أنها أحسن ما قالتها العرب، فعلقوها في الكعبة، وهذه القصيدة لأبي طالب تُسمى اللامية، وقد قال فيها فيما قال:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

أي: لقد علمت قريش أن رسول الله ﷺ ليس بمكذب لديهم، وليس من شيمه قول الأباطيل، وهذه شهادة له بأنه صادق، لكنه لم يؤمن، ولهذا قال عن نفسه: لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ

وفي آخر رمق له حضره النبي ﷺ وقال له: «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»^(٢). ولكن كان عنده جلساء السوء من قريش، فقالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فكان آخر ما قال: بل على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. اللهم أحسن خاتمتنا، اللهم اختم لنا بالتوحيد والإيمان، إنك على كل شيء قدير.

ولكن نظرًا لما لهذا الرجل من مواقف دافع فيها عن الإسلام وعن رسول الإسلام أذن الله لرسوله أن يشفع فيه، مع أنه كافر، وقد صار إلى ضحضاح من نار عليه نعلان يغلي منهما دماغه من الحرارة^(٣)، وما دون الدماغ؛ لأن القدمين

(١) البداية والنهاية (٤/١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

أسفل ما يكون في الجسد، والدماغ أعلى ما يكون.

فإذا كان أعلى ما يكون من الجسد، وهو أبعد ما يكون من القدمين، يغلي -نسأل الله السلامة والعافية- فما دون الدماغ من باب أولى، ولكن لا ينتهي الأمر إلى هذا الحد، وهو أهون أهل النار عذاباً، ولكنه يرى أنه أشدُّهم عذاباً، والإنسان إذا رأى أنه أشدُّ من يعاقب تزيد عليه العقوبة ألماً بدنياً أو نفسياً، لكن لو رأى أنه أهون الناس لهان عليه الأمر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]. بينما الناس في الدنيا إذا اشتروا في العذاب هان عليهم الأمر، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا حيث قالت^(١):

وَلَوْ لَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

مما يدل على أن الإنسان إذا شاركه غيره في ألمه وعذابه هان عليه الأمر.

فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦] أمرٌ محقق، ولهذا قال علماء العربية: الاستفهام هنا في ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ للتقرير، أي: إنَّ هذا شيءٌ مقررٌ.

وجواب الاستفهام هنا هو: بلى، وهذه مسألة، وهي جواب الاستفهام المقرون بالنفي، لا يعرفها كثير من الناس، فلو سألنا شخصين، فقلنا لأحدهما: أَلَسْتَ قد طَلَقْتَ امرأتك؟ فقال: نَعَمْ. وقلنا للآخر فقال: بلى. فكان الذي قال: بلى، هو مَنْ طَلَّقَ امرأته، أما الذي قال: نَعَمْ. فلم يُطَلِّقْ امرأته. لأن الإجابة بـ: نَعَمْ عن السؤال المنفي هو تقرير للنفي، أي: نَعَمْ لم أفعل؛ أما الإجابة بـ: بلى فمعناه: بلى قد فعلت.

وهذه المسألة لا يعرفها العامي؛ فإذا قيل له: أَلَسْتَ قد طَلَقْتَ امرأتك؟

قال: نعم. وهو يريدُ معنى (بلى) لا شكَّ في هذا، لكنَّ طالِبَ العِلْمِ الذي يَعْرِفُ مدلولاتِ الألفاظِ العَرَبِيَّةِ هو الذي يُفَرِّقُ.

على كُلِّ حالٍ فإن جوابَ قولِهِ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦]: بلى، أي: تقريرٌ أن اللهَ وَجَدَهُ يَتِيمًا فَأَوَاه، ولهذا قال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]، فَعَطَفَ الفِعْلَ المَاضِيَّ على الفعلِ المضارعِ؛ لأنَّ المعنى قد وَجَدَكَ يَتِيمًا فَأَوَاكَ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَاكَ، والضلالُ هنا ليس ضلالَ الغيِّ، لكنَّه ضلالٌ عَدَمِ العِلْمِ، أي: وَجَدَكَ لَا تَعْلَمُ فَعَلَّمَكَ.

وهذا هو الحقُّ؛ كان النَّبِيُّ ﷺ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. ولما قالَ لَهُ جِبْرِيلُ حينَ نَزَلَ عَلَيْهِ بِالوَحْيِ أَوَّلَ مَرَّةٍ: اقْرَأْ. قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»^(١). أي: لَسْتُ مِنَ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَغَيْرِهِ مِنَ الْعَرَبِ الْأُمِّيِّينَ، قَالَ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

إِذْنِ، الضَّلَالُ هنا بِمَعْنَى عَدَمِ العِلْمِ، وليس بِمَعْنَى الغيِّ، كما نقولُ للكافِرِ: إنه ضالٌّ، لا ولكنَّ المعنى أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ. أليس اللهُ تعالى يَقُولُ لِرَسُولِهِ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وَقَالَ لَهُ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

لَكِنَّ الرِّسُولَ هَدَاهُ اللهُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَحْيِ، وَلِهَذَا قَالَ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠).

ضَالًّا فَهَدَى ﴿ [الضحى: ٧]، وهذا واقعٌ، فقد هداهُ الله تعالى علماً وعملاً؛ لأنَّ الهداية تنقسمُ إلى قسمين: هداية بيانٍ، وهداية توفيقٍ.

أما هداية البيان: فهي عامةٌ لكلِّ إنسانٍ، حتى الكفارُ هداهم الله هداية بيانٍ، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا آلَ عَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

أما هداية التوفيق: فهي خاصةٌ لمن وفقه الله للإيمان، ولهذا قال الله لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]. وقال في آيةٍ أخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فكيف يجتمع النفي والإثبات؟ نقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هداية توفيقٍ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هداية بيانٍ. فالرسول ﷺ ما ترك شيئاً إلا بينه لأُمَّته، حتى إنَّ أبا ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَقَدْ تُوِّفِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرْنَا مِنْهُ عِلْماً»^(١).

وقال رجلٌ من المشركين لسلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ قَالَ: فَقَالَ: «أَجَلٌ». ومعنى كلامه: عَلَّمَكُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى قَضَاءِ الْحَاجَةِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَهُمْ كَيْفَ يَفْعَلُونَ. قال: «أَجَلٌ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَايِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ»^(٢).

وأهمُّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْأَثَرِ أَحَبُّ أَنْ أُبَيِّنَهُ هُوَ قَوْلُهُ: «أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَايِطٍ»

(١) أخرجه أحمد (١٦٢/٥)، رقم (٢١٤٧٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٢).

وهذا الحديث عامٌ يشملُ الفضاءَ والبُنيانَ، لكنْ دَلَّتِ السُّنَّةُ على أنه يجوزُ في البُنيانِ استدبارُ القبلةِ دونَ استقباليها، فقد قال ابنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «رَقِيتُ يَوْمًا عَلَى بَيْتِ حَفْصَةَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْضِي حَاجَتَهُ مُسْتَقْبِلَ الشَّامِ مُسْتَدْبِرَ الْكَعْبَةِ»^(١).

وبهذه المناسبةِ أودُّ أن أقولَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ بَنَوْا مَرَا حِيضَهُمْ عَلَى اتِّجَاهِ الْقِبْلَةِ: غَيِّرُوهَا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ ذَلِكَ، نَهَى عَنْ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ بِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، فَأَنْتَ لَا تَرْضَى أَنْ تَقْضِيَ حَاجَتَكَ وَتَمَارِسَ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ. وَتَغَيِّرُ هَذِهِ الْمَرَا حِيضَ سَهْلٍ، لَا يَكْلَفُ إِلَّا شَيْئًا يَسِيرًا.

قد يقولُ قائلٌ: أَنَا أَجْلِسُ عَلَيْهَا وَأَجْعَلُ الْقِبْلَةَ عَنْ يَمِينِي أَوْ عَنْ شِمَالِي؟

نقول: إِذَا فَرَضْنَا أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ فِعْلَ هَذَا، فَهَلْ كُلُّ مَنْ يَدْخُلُ هَذَا سَيَفْعَلُ مِثْلَكَ؟ فَهَذَا الْمَرَحِاضُ تَدْخُلُهُ أَنْتَ فِي حَيَاتِكَ وَيَدْخُلُهُ غَيْرُكَ مِنْ بَعْدِكَ، وَبِالتَّأَكِيدِ أَنْتَ لَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ آثَامُهُمْ عَلَيْكَ؟

ولهذا أقول: إِنْ اتَّجَاهَ الْمَرَا حِيضُ إِلَى الْقِبْلَةِ حَرَامٌ، وَاسْتِدْبَارُهَا جَائِزٌ، وَالذَّلِيلُ عَلَى الْجَوَازِ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ: «رَقِيتُ يَوْمًا عَلَى بَيْتِ حَفْصَةَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْضِي حَاجَتَهُ مُسْتَقْبِلَ الشَّامِ مُسْتَدْبِرَ الْكَعْبَةِ».

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨] ﴿عَائِلًا﴾ أَي: فَقِيرًا، ﴿فَأَغْنَى﴾ أَي: أَغْنَاكَ. وَنُلاحِظُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ وَلَمْ يَقُلْ: فَأَوَّاكَ، وَقَالَ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ وَلَمْ يَقُلْ: فَهَدَاكَ، وَقَالَ: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾، وَلَمْ يَقُلْ: فَأَغْنَاكَ. وَالْحِكْمَةُ مِنْ هَذَا نَوْعَانِ: لَفْظِيَّةٌ، وَمَعْنَوِيَّةٌ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٦).

أما اللَّفْظِيَّةُ: حتى تَنَاسَبُ الآيَاتُ فِي خِتَامِهَا، ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ١ ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَىٰ﴾ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ ٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ٥، فَأَخِرُ الآيَاتِ هُوَ الْأَلِفُ، وَحَتَّى تَنَاسَبَ الآيَاتُ حُذِفَ الْمَفْعُولُ، وَإِلَّا فَلَا أَصْلَ: آوَاكَ، فَهَذَاكَ، فَأَغْنَاكَ. لَكِنْ حُذِفَ لِفَائِدَةٍ لَفْظِيَّةٍ وَهِيَ تَنَاسُبُ الآيَاتِ.

الفائدة المعنوية: أن قوله: ﴿فَتَاوَىٰ﴾ أي: آوَاكَ وَأَوَىٰ بِكَ، وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ آوَاهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: هَدَاكَ وَهَدَىٰ بِكَ، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي: أَغْنَاكَ وَأَغْنَىٰ بِكَ. هَذِهِ هِيَ الْفَائِدَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لِلْأَنْصَارِ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا، فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِِي؟ وَعَالَةً، فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِِي؟ وَمُتَفَرِّقِينَ، فَجَمَعَكُمُ اللَّهُ بِِي؟» (١).

إِذْنًا، حُذِفَ الْمَفْعُولُ هُنَا لَهُ فَائِدَتَانِ: فَائِدَةٌ لَفْظِيَّةٌ وَفَائِدَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، الْفَائِدَةُ اللَّفْظِيَّةُ: تَنَاسُبُ رُؤُوسِ الآيَاتِ. الْفَائِدَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ: الْعُمُومُ، أَي: أَنَّ اللَّهَ آوَاهُ وَأَوَىٰ بِهِ، وَهَدَاهُ وَهَدَىٰ بِهِ، وَأَغْنَاهُ وَأَغْنَىٰ بِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]، وَهِيَ فِي مُقَابِلِ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَتَاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، أَي: مَا دَامَ اللَّهُ آوَاهُ وَهُوَ يَتِيمٌ يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ حَالَ الْيَتِيمِ، وَالْيَتِيمُ - كَمَا سَبَقَ - هُوَ مَنْ مَاتَ أَبُوهُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ، وَقَدْ أَوْصَى اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَكَذَلِكَ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩] وَدَارِهِ وَأَفْسَحَ لَهُ، وَيَسِّرْ لَهُ الْأَمْرَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٠٧٥)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلف قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦١).

وهكذا ينبغي أيضا أن نفعل بالصغار فلا نقهرهم، فالصغير غير مُمَيِّز، فقد يدخل على القوم الكبار من أشراف البلد ووجعائها، فيكون منه تصرفات غير مسؤولة تجاههم؛ لأنه لم يعقل بعد، ولا يصح للكبار أن يزجروهم، ويطردهم، وهذا خطأ، بل عليهم أن يتركوه، ويفسحوا له ليفعل ما يخلو له؛ لأنك إذا قهرته وكبته تحول ذلك إلى عقدة نفسية.

وهذا ليس من هدي الرسول عليه الصلاة والسلام، بل كان ﷺ يمازح الصبيان، حتى إنه قال لصبي ذات يوم: «يا أبا عمير، ما فعل النغير»^(١). والنغير طائر صغير، وكان هذا الصبي يلعب به مسرورا بطيره، الذي يلعب به كما يلعب صبياننا الآن، فمات النغير، وهو حبيب إلى أبي عمير، فحزن، فكان النبي ﷺ يمازحه ويقول: «يا أبا عمير، ما فعل النغير».

وكان يوما ﷺ يصلي بالناس، فجاءه الحسن أو الحسين رضي الله عنهما، وهو ساجد، فركب على ظهره، يريد أن يجعله ناقة له، فأطال السجود، فلما انصرف من صلاته قال للناس: «ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»^(٢).

هذا خلق عظيم منه ﷺ، فلو حدث هذا لأحدنا اليوم، لدفع الصبي، ولكنه لا يقول: انزل. لأنه لو قال ذلك لبطلت صلاته، لكنه يدفعه بيده، أما النبي عليه الصلاة والسلام وهو يصلي بأشرف المجتمعات الصحابة رضي الله عنهم لم يفعل ذلك.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس، رقم (٥٧٧٨)، ومسلم: كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته، رقم (٢١٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٩٣، رقم ١٦٠٧٦)، والنسائي: كتاب التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، رقم (١١٤١).

وروي كذلك أن أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانَتْ مَعَهُ وَهُوَ يُصَلِّي
بِالنَّاسِ، فَكَانَ يَحْمِلُهَا وَهُوَ يُصَلِّي، إِذَا قَامَ حَمَلَهَا، وَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا^(١). وَهَذَا مِنْ
مُلَاطَفَتِهِ بِالْأَطْفَالِ ﷺ.

إِذْنًا، عَلَيْنَا أَنْ نُلَاطِفَ الصِّبْيَانَ، وَأَنْ نَتَسَاهَلَ مَعَهُمْ فِي الْأُمُورِ.

وَقَدْ يَحْتَجُّ عَلَيْنَا بَعْضُ النَّاسِ فَيَقُولُ: إِذَا تَرَكْنَا الصِّبْيَانَ فِي الْمَسْجِدِ يَلْعَبُونَ
تَعَوَّدُوا عَلَى هَذَا. فَنَقُولُ: هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّا عِنْدَمَا كُنَّا صِغَارًا كُنَّا نَلْعَبُ عِنْدَ
النَّاسِ فِي الْمَجَالِسِ، وَلَمَّا كَبُرْنَا أَصْبَحَ أَوْلَادُنَا هُمْ مِنْ يَلْعَبُونَ، فَإِذَا مَا كَبُرُوا مِثْلَنَا
تَوَقَّفُوا وَلَعِبَ أَوْلَادُهُمْ، وَهَكَذَا. فَدَعُوهُمْ لَا تَحْبِسُوا حُرِّيَّتَهُمْ، اتْرَكُوا الصِّبْيَانَ
يَنْطَلِقُونَ يَفْرَحُونَ، فَالْحَيَاةُ أُمَامَةٌ وَاسِعَةٌ، إِلَّا فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ، فَيَجِبُ إِلَّا نُمَكِّنَهُمْ
مِنْهُ، وَهُوَ الْحَرَامُ، فَلَوْ قَالَ الصَّبِيُّ: أَنَا أَحَبُّ الْمُغْنِيِّ الْفُلَانِي، فَاتْرَكَ التِّلْفِيزِيُونَ حَتَّى
أَشَاهِدَهُ. فَهَذَا الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَمْنَعَهُ مِنْهُ، لِأَنَّا لَوْ تَرَكْنَاهُ لَتَعَوَّدَ عَلَيْهِ.

وَلِهَذَا أُحَذِّرُ غَايَةَ التَّحْذِيرِ مِنْ شُرُورِ الدُّشُوشِ ذَوَاتِ الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ؛
لَأَنَّ فِيهَا مِنَ الْمَفَاسِدِ الْعَظِيمَةِ فِي الْأَخْلَاقِ، وَفِي الْعَقِيدَةِ، وَفِي الْأَفْكَارِ، مَا لَا يَعْلَمُهُ
إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَالَّذِينَ يُشَاهِدُونَ هَذِهِ الدُّشُوشَ يَذْكُرُونَ لَنَا -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- مِنَ
الْفَضَائِحِ مَا لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمَرْءِ الَّذِي يَتَّقِي اللَّهَ
عَزَّوَجَلَّ، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ، أَنْ يَكْسِرَ مَا عِنْدَهُ مِنْ هَذِهِ الدُّشُوشِ تَكْسِيرًا؛ لِمَا
فِيهَا مِنَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ إِذَا حَمَلَ جَارِيَةٌ صَغِيرَةً عَلَى عُنْقِهِ فِي الصَّلَاةِ، رَقْمُ (٥١٦)،
وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ جَوَازِ حَمْلِ الصِّبْيَانِ فِي الصَّلَاةِ، رَقْمُ (٥٤٣).

وقد قال أهل العلم بوجوب تكسير آيات اللّهُ، فنقول لهذا الإنسان: لديك هذا البلاء في بيتك، الذي لا يشاهد فيه إلا ما يبته أعداؤك وأعداء الله ورسوله، فعليك أن تكسره، ولا تهتم بما دفعت فيه من مال، فانت تُضيّع في ذات الله عزّ وجلّ، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

وقد قال المفسّرون في قول الله تبارك وتعالى في قصة سليمان عليه السّلام: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعِثِّي الصَّفِينَتُ الْجِيَادُ﴾ [ص: ٣١]، والعِثِّي: آخر النهار، والصّافِنَاتُ الجياد: الخيل الجيدة؛ لأنّه يُحبُّ الجهاد في سبيل الله كغيره من الرّسل، عُرِضَتْ عليه، فجعل يُعجبُ بها حتى توارت بالحجاب، توارت أي: الشّمس، بالحجاب أي: بالأرض، والمعنى غابت، فألهته عن صلاة العَصْرِ، فقال: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ [ص: ٣٣]، فردّوها عليه، فجعل يضربها في سوقها، وفي أعناقها؛ انتقاماً من نفسه بنفسه؛ حيث ألهته عن ذكر الله قال: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (٣٢) رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿ [ص: ٣٢-٣٣] فقد أتلّفها وهي خيل صافِنَاتُ جِيَادٍ؛ انتقاماً من نفسه بنفسه، وغضباً لله عزّ وجلّ.

وها هو نبيّكم وإمامكم عليه الصّلاة والسّلام، أهدى إليه رجلٌ، يقال له أبو جهم، خميصة - والخميصة: كساءٌ معلّمٌ جيّدٌ وجميلٌ - فجاء عليه الصّلاة والسّلام يُصلي، فنظر إلى أعلامه أي إلى خيوطه، نظرةً واحدةً، فلما قضى صلاته قال: «اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ، وَأُتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ، فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي أَنْفًا عَنْ صَلَاتِي»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها، رقم (٣٧٣)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة في ثوب له أعلام، رقم (٥٥٦).

فَتَرَكَهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ أَنَّهَا كِسَاءٌ جَمِيلٌ تَرَكَهَا لِأَنَّهَا أَهْلُهُ، نَظَرَةٌ وَاحِدَةٌ أَهْلُهُ عَنْ صَلَاتِهِ. وَالْأَنْبِجَانِيَّةُ: كِسَاءٌ غَلِيظٌ لَيْسَ فِيهِ أَعْلَامٌ.

وَقَدْ طَلَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَبِي جَهْمٍ الْأَنْبِجَانِيَّةَ جَبْرًا لِحَاطِرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ رَدَّ عَلَيْهِ مَا أَهْدَى إِلَيْهِ مِنَ الْحَمِيصَةِ، وَلَمْ يَأْخُذْهَا، لَكَانَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ، وَلَكِنَّهُ طَلَبَ مِنْهُ بَدِيلًا حَتَّى يُرْضِيَهُ.

فَأَقُولُ لِإِخْوَانِي الَّذِينَ عِنْدَهُمْ هَذِهِ الدُّشُوشُ: إِذَا كَسَرُوهَا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَلْيُبَشِّرُوا بِالْخَيْرِ، وَلْيُبَشِّرُوا بِالْخَلْفِ الْعَاجِلِ، وَلْيُبَشِّرُوا بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ، فَإِنَّهُمْ سَيَذُوقُونَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ يَسْلَمُونَ مِنْ شُرُورٍ عَظِيمَةٍ، فَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ مَا سَيَفْعَلُ أَهْلُكَ وَأَوْلَادُكَ مِنْ بَعْدِكَ، وَخَاصَّةً بَعْدَ أَنْ تَمُوتَ وَهَذَا الْجِهَازُ فِي بَيْتِكَ، وَأَنْتَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِكَ الَّتِي اسْتَرْعَاكَ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَالِدَّلِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]، وَلَمْ يَأْمُرْنَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ نَقِي أَهْلِينَا نَارًا إِلَّا لَنَمْنَعَهُمْ مِمَّا يَكُونُ سَبَبًا مِنْ دُخُولِ النَّارِ.

إِذَنْ، فَنَحْنُ رِعَاةٌ عَلَيْهِمْ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، أَمَا السُّنَّةُ فَاسْمَعُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «الرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١). هَذِهِ مَرْتَبَةٌ.

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ: هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي يَشَاهِدُ أَهْلَهُ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ الْعَظِيمَةَ الْمُفْسِدَةَ لِلْعَقِيدَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمَجْتَمَعِ، وَهُوَ يَشَاهِدُهُمْ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِإِزَالَةِ هَذِهِ الْآلَةِ الْحَبِيثَةِ عَنْهُمْ، هُوَ غَاشٌّ لَهُمْ، وَإِذَا كَانَ غَاشًّا نُذِرْجُهُ تَحْتَ الْحَدِيثِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ الْجُمُعَةِ فِي الْقُرَى وَالْمَدَن، رَقْمُ (٨٩٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ فَضِيلَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَعَقُوبَةِ الْجَائِرِ، وَالْحَثُّ عَلَى الرِّفْقِ بِالرَّعِيَةِ وَالنَّهْيُ عَنْ إِدْخَالِ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ، رَقْمُ (١٨٢٩).

الصحيح: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(١).

والنصوصُ التي تَرُدُّ في الوعيدِ أو في الوَعْدِ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ لَا تَنْطَبِقُ عَلَى شَخْصٍ بَعِيْنِهِ، بَلْ تَنْطَبِقُ عَلَى كُلِّ النَّاسِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْعُمُومَاتِ، سَوَاءٌ كَانَتْ وَعِيدًا أَمْ وَعْدًا، هِيَ عُمُومَاتٌ، لَكِنْ قَدْ لَا تَثْبُتُ لَكَ وَاحِدَةً، قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ مَوَانِعُ تَمْنَعُ مِنْ نَفُوذِ الْوَعِيدِ، أَوْ هُنَاكَ حَسَنَاتٌ كَثِيرَةٌ، أَوْ هُنَاكَ عَفْوُ اللَّهِ فِيمَا دُونَ الشُّرْكِ، وَلِهَذَا مَثَلًا إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ فُلَانًا مَاتَ، وَقَدْ تَرَكَ الدَّشَّ عِنْدَ أَهْلِهِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الْجَنَّةَ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ التَّعْمِيمِ وَالتَّعْيِينِ، فَالتَّعْيِينُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ نَصٍّ عَلَى الشَّخْصِ بَعِيْنِهِ، وَالتَّعْمِيمُ لِلْعُمُومِ.

نحن نقول: الْجَنَّةُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، وَأَهْلُهَا هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَإِذَا رَأَيْنَا رَجُلًا مُؤْمِنًا مُتَّقِيًا لِلَّهِ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَجْعَلَهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، لَكِنْ نَقُولُ: نَرْجُو أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَلَا نُعَيِّنُهُ، فَقَدْ لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ أَكَلَ الرَّبَا وَمَوَكِلُهُ وَشَاهِدِيهِ وَكَاتِبُهُ، وَقَالَ: «هُمْ سَوَاءٌ»^(٢). فَإِذَا رَأَيْنَا أَحَدًا يَأْكُلُ الرَّبَا فَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَخُصَّهُ بِاللَّعْنِ؛ لِأَنَّ هَذَا وَعِيدٌ عَامٌّ، وَلَا نَحْكُمُ بِاللَّعْنَةِ عَلَى شَخْصٍ بَعِيْنِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ يَهْدِيهِ، فَتَنْتَفِي عَنْهُ اللَّعْنَةُ، وَلَا حِظُّوا الْفَرْقَ.

ولهذا قَالَ الْعُلَمَاءُ فِي عَقَائِدِهِمْ: لَا نَشْهَدُ لِأَحَدٍ بِالْجَنَّةِ أَوْ بِالنَّارِ بَعِيْنِهِ إِلَّا مَنْ شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ، مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، رقم (٧١٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم (١٤٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا وموكله، رقم (١٥٩٨).

ﷺ شَهِدَ لَهُ، وكذلك عمرُ، وعثمانُ، وعُكَاشَةُ بنُ مُحْصِنٍ، وثابتُ بنُ قَيْسٍ بنِ شَمَّاسٍ، وسَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، وبلالُ بنُ رباحٍ، وكلُّ من عَيَّنَهُ الرسولُ نَشَهِدُ لَهُ بِالْجَنَّةِ، وكذلك أَهْلُ بَدْرٍ، نَشَهِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْعُمومِ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(١)، وَأَهْلُ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ رَبُّ الْعِزَّةِ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِّنْ بَايَعِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»^(٢)، هَؤُلَاءِ نَشَهِدُ لَهُمْ كَمَا شَهِدَ لَهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَمَا الْعُمومُ فنَشَهِدُ أَيضًا بِأَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ فِي الْجَنَّةِ، وَكُلَّ كَافِرٍ فِي النَّارِ، أَمَا التَّعْيِينُ فَلَا.

ولا يجوزُ لصاحبِ هذه الدُّشُوشِ الخَبِيثَةِ أَنْ يَبِيعَهَا لِإِنْسَانٍ آخَرَ، بَلْ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَكْسِرَهَا، فَإِنْ اللَّهُ إِذَا حَرَّمَ شَيْئًا حَرَّمَ ثَمَنَهُ^(٣). وكذلك إِذَا بَاعَهَا فَسُوفَ يَسْتَعْمِلُهَا الْمُشْتَرِي عَلَى وَجْهِ مُحَرَّمٍ، وَإِذَا بَاعَهَا لَهُ كَانَ مِنْ بَابِ التَّعَاوُنِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِذَا تَرَكَ الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ لِلَّهِ عَوَّضَهُ خَيْرًا مِنْهُ^(٤)، وَجَعَلَ فِي قَلْبِهِ حِلَاوَةً الْإِيمَانِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْهَدَايَةَ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكْتِبَ أَعْدَاءَنَا وَأَنْ يَجْعَلَ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٢٨٤٥)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان - رضي الله تعالى عنهم -، رقم (٢٤٩٦).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الإجارة، باب في ثمن الخمر والميتة، رقم (٣٤٨٨).

(٤) أخرجه أحمد (٣٦٣/٥)، رقم: (٢٣١٢٤).

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] والسائل هنا: هو المستفتي عن العلم، وقد يكون: المستجدي الذي يطلب مالا، والكلمة تحتمل المعنيين، وهنا نُقرّر مسألة وقاعدة نافعة، لا سيما طلبه العلم: إذا كان القرآن أو السنة يحتمل معنيين على السواء، ولا منافاة بينهما، فإنه يجب أن يُحمّل النصّ عليهما جميعاً؛ لأن الله عزَّ وجلَّ يعلم ما أراد بكلامه، وما دام كلامه يحتمل معنيين فلا بد أن نحمله عليهما، وكذلك النبي ﷺ.

ففي هذه الآية يحتمل السائل أن يكون للعلم، ويحتمل أنه سائل المال، وكلاهما على السواء، فقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] يناسبه القول بأن المراد بالسائل المستفتي؛ لأنه سائل عن علم.

وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨] يُناسب أن يكون المراد بالسائل المستجدي مالا، وما دامت الآية تحتمل معنيين، وفيها ما يؤيد هذا، ويؤيد هذا، فالواجب حملها على المعنيين.

فإذا سألك سائل، وقال: إنه فقير، أو ابن سبيل قد انقطعت به الحبال في سفر، ويريد معونة. فالمشروع في حقك أن تعطيه إذا غلب على ظنك صدقه، وإن لم يكن معك شيء فلا تنهره، وردّه ردّا جميلاً، ولهذا قال الله تعالى في الأقارب: ﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨] فأعطه، واليد العليا خير من اليد السفلى.

وإذا كنت تعلم أن هذا الرجل يسأل المال تكثراً، وأن عنده ما يغنيه، لكنه يسأل من أجل أن يزيد ماله، فلك أن تنهره، فقد ارتكب محرماً وإثمًا؛ لقول النبي

ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكْثُرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»^(١).
وأخبر النبي ﷺ عن الرجل يأتي يوم القيامة، وليس في وجهه مِرْعَةٌ لَحْمٍ؛ لِكثْرَةِ
سؤاله للناس^(٢). وعلى هذا فإذا كُنْتُ أعْرِفُ أن هذا الرجل غنيٌّ، ولكنه يُكْرَرُ
السؤال، فلي أن أُنْهَرُهُ، وأقول له: اتَّقِ اللهَ، أنت غنيٌّ، فكيف تسألني، وأنت لا تحتاج.
هذا لا بأس به.

ثم نأتي لسائل العلم، وهو الذي يسأل ويستفتي، فيقول مثلاً: إنه طاف ستة
أشواطٍ، وسعى وقصر وتحلل، فأتى زوجته، فماذا يفعل؟ هذا لا يجب أن نوبّخه،
ونقول: كيف تفعل هذا؟ أنت ظالمٌ، أنت عاصٍ، بل نُلَاقِيهِ بِصَدْرٍ مُنْشِرِحٍ، ولنا
في ذلك أُسُوءَةٌ؛ رسولُ الله ﷺ.

فقد جاء رجلُ النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله هَلَكْتُ. قال: «مَا الَّذِي
أَهْلَكَكَ؟» قال: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ. وكان ذلك في رمضان، قد ارتكَبَ
ذَنْبًا كَبِيرًا، فَقَدْ أَفْطَرَ فِي صِيَامِ رَمَضَانَ وَهُوَ فَرَضٌ، وَرَكُنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ.
فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ
أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟» قَالَ: لَا، فَقَالَ: «فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟»
قَالَ: لَا. طَلَبَ مِنْهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ: عِتْقُ رَقَبَةٍ، أَوْ صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ. أَوْ إِطْعَامُ
سِتِّينَ مِسْكِينًا، وَكُلُّهَا لَا يَجِدُهَا الرَّجُلُ، فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ
النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ - وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ - قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» فَقَالَ: أَنَا، قَالَ:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً، رقم (١٤٠٥)، ومسلم: كتاب
الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤٠).

«خُذْهَا، فَتَصَدَّقْ بِهِ». فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرِ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا - يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ - أَهْلُ بَيْتِ أَفْقَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي. أَقْسَمَ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِحَالِ بُيُوتِ الْمَدِينَةِ كُلِّهَا، لَكِنَّهُ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ هَذَا، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَطْعِمْنَاهُ أَهْلَكَ»^(١).

هذا الرجل جاء مستفتيًا نادمًا، لا مستهترًا ولا مستكبرًا، بل هو نادمٌ يريدُ الخلاصَ، فقابلهُ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْيُسْرِ وَالسُّهولةِ، وفي النهاية رَجَعَ إِلَى زَوْجَتِهِ، وَمَعَهُ تَمْرٌ يُطْعَمُهُ وَتَطْعَمُهُ. هَكَذَا تَجَذِبُ قُلُوبَ النَّاسِ إِلَيْكَ بِاللِّينِ وَاللُّطْفِ. إذن، الذي يأتينا مستفتيًا نادمًا، ولو فَعَلَ أَكْبَرَ مَا يَكُونُ مِنَ الْجَرِيْمَةِ، يَقَابِلُ بِاللُّطْفِ وَاللِّينِ، وَلَا يَقَابِلُ بِالْعُنْفِ، صَحِيحٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَكُونُ مُسْتَكْبِرًا وَمُسْتَهْتِرًا هَذَا لَهُ حَالٌ، لَكِنْ مِنْ جَاءَ يَسْتَهْدِيكَ، يَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَهْدِيَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هَذَا لَهُ حَالٌ.

هناك بعضُ الناسِ يَكُونُ مَوْلَعًا بِضَرْبِ آرَاءِ الْعُلَمَاءِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَتَجِدُهُ يُجِئُ وَيَسْأَلُ فَلَانًا؛ لِيَرَى مَا عِنْدَهُ، ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى الْعَالِمِ الْفُلَانِي يَسْأَلُهُ لِيَرَى مَا عِنْدَهُ، فَمِثْلُ هَذَا لَا يَجِبُ عَلَى الْمَسْئُولِ أَنْ يُجِيبَهُ؛ فَهُوَ إِنْسَانٌ يَسْأَلُ وَلَا يَرِيدُ الاِسْتِرْشَادَ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَرَى مَا عِنْدَكَ، وَيَرَى مَا عِنْدَ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّالِثِ، وَهَكَذَا، فَلَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُجِيبَهُ، وَلَا يُعَدُّ هَذَا مِنْ كِتْمَانِ الْعِلْمِ، بَلْ هَذَا مِنَ الرَّعَايَةِ وَالتَّرْبِيَةِ؛ حَتَّى يَعْرِفَ هَذَا السَّائِلُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ قَدْرٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان، ولم يكن له شيء، فتصدق عليه فليكفر، رقم (١٨٣٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان، رقم (١١١١).

﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] لَا تُرِيدُونَ الْحَقَّ.

ولكن هناك أناس يسألون ويتتبعون الرخص، فتراه يذهب ويستفتي عالماً، فإن قال له هذا حرام، تركه وذهب إلى عالم آخر حتى يقول له: هو حلال. فهذا لا يجب على العالم أن يجيبه.

أما الذي نعلم أنه يريد أن يسترشد، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]: النعمة هنا مفردة، ولكن معناها نعم كثيرة، والدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

إذن، نعمة الله هنا مفرد مضاف، والقاعدة الأصولية أن المفرد إذا أُضيف إلى معرفة صار عاماً، وهذا مضاف إلى معرفة، ﴿فَحَدِّثْ﴾ وهنا التحديث يكون بالجنان وهو القلب، وباللسان وبالجنان.

الأول: التحديث بالجنان، ومعناه أن الإنسان يتأمل ويفكر بما أنعم الله عليه من الصحة والعقل والعافية والعلم والمال والأهل والبنين، ويحدث نفسه فيقول: يا نفس هذه نعم عظيمة، تحتاج إلى شكر. فلا يغفل ولا يتناسى، هذا يسمى حديث النفس، يحدث نفسه بما أنعم الله عليه، ويفكر، فإن كان مريضاً نظر إلى من هو أشد منه مريضاً، ولهذا جاء في الحديث: «انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»^(١). فإذا رأيت بنفسك مريضاً فلا تنظر للصحيح، بل انظر للذي هو أشد منك مريضاً حتى تعرف نعمة الله عليك.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرفائق، رقم (٢٩٦٣).

والتَّحَدُّثُ بِالْقَلْبِ نِعْمَةٌ، أَي: يُذَكِّرُ نَفْسَهُ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَعْتَرِفُ لِلَّهِ تَعَالَى بِقَلْبِهِ؛ لِأَن هَذِهِ النِّعَمَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمَ»^(١).

الثاني: التَّحَدِيثُ بِاللِّسَانِ أَنْ تَقُولَ لِإِخْوَانِكَ: كُنْتُ فَقِيرًا فَأَغْنَانِي اللَّهُ، وَكُنْتُ جَاهِلًا لَا أَعْرِفُ فَعَلَّمَنِي اللَّهُ، وَكُنْتُ فَرِيدًا فَرَزَقَنِي اللَّهُ زَوْجَةً وَأَوْلَادًا. هَذَا حَدِيثٌ بِاللِّسَانِ، لَكِنْ يَجِبُ أَلَّا تَقُولَ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْإِفْتِخَارِ وَالْإِعْجَابِ وَالْعُلُوِّ، وَلِهَذَا قَالَ سَيِّدُ الْبَشَرِ مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»^(٢). أَي: لَا أَفْتَخِرُ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ أَتَحَدَّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ.

الثالث: التَّحَدُّثُ بِالْأَرْكَانِ، وَهُوَ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ، فَإِذَا كَانَ غَنِيًّا فَلْيَلْبَسْ مَا يَلْبَسُهُ الْأَغْنِيَاءُ، وَلْيَسْكُنْ مَا يَسْكُنُهُ الْأَغْنِيَاءُ، وَلْيَرْكَبْ مَا يَرْكَبُهُ الْأَغْنِيَاءُ. هَذَا تَحَدُّثٌ بِنِعْمَةِ اللَّهِ؛ لِأَنِّي إِذَا رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ عَلَيْهِ ثِيَابٌ جَمِيلَةٌ، ثِيَابُ الْأَغْنِيَاءِ، فَسَوْفَ أَقُولُ: هُوَ غَنِيٌّ.

إِذَنْ، هُوَ تَحَدَّثَ لَدَيَّ بِنِعْمَةِ اللَّهِ بِالْفِعْلِ، لَكِنْ لَوْ أَنَّ رَجُلًا غَنِيًّا ظَهَرَ بَيْنَنَا بِلِبَاسٍ لَا يَلْبَسُهُ إِلَّا الْفُقَرَاءُ، لِبَاسٌ وَسِخٌ مُرَقَّعٌ، فَهَذَا لَيْسَ تَحَدُّثًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ، بَلْ رُبَّمَا أُخْرِجُ أَنَا مِنْ جَنِّي وَأَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَحَدَّثْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ.

وَمَنْ التَّحَدَّثَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَلَا سِيَّمَا لِأَهْلِ الْعِلْمِ، أَنْ يَنْشُرُوا عِلْمَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).

لأن طالب العلم ليس كغيره، فطالب العلم يجب عليه أن ينشر العلم بكل وسيلة، ويجب عليه أيضاً أن يتحلّى بأخلاق طالب العلم، ويجب عليه أن يتعبّد عبادة طالب العلم؛ لأن طالب العلم يُحصى الناس أقواله وأفعاله، إذا كان الناس ينظرون بعضهم إلى بعض بعينين، فإنهم ينظرون إلى العالم بألف عين، يراقبون هذا العالم: كيف عبادته، وكيف صلاته، وكيف معاملته للناس في البيع والشراء، كيف أخلاقه: هل هو صدوق، أم كذوب، هل هو يفي بالوعد أو لا؟ المهم: أن طالب العلم لا ينظر الناس إليه كرجل عامي، بل كرجل أسوة وقُدوة، فيجب على طالب العلم ما لا يجب على غيره.

فمثلاً: رفع اليدين في الصلاة مشروع في مواضع أربعة: عند تكبيرة الإحرام، وعند الركوع، وعند الرفع منه، وعند القيام من التشهد الأول، فلو أن طالب علم ممن يقتدى به، ويتأسى به، ترك الرفع لكان تركه للرفع من باب كتم العلم؛ لأن أي إنسان يراه لا يرفع يديه، فسوف يقول: رفع اليدين ليس بسنة؛ لأنني رأيت فلان بن فلان العالم لا يرفع يديه، ولو كان رفع اليدين سنة لفعل.

ولو رأينا مثلاً رجلاً عالماً يتعامل بالربا، لكن بطريقة ملتوية، فقد يأتي إنسان فيقول: أريد سيارة فأقرضني جزاك الله خيراً. فقال: لا، اشتري السيارة وأبيعك إياها بزيادة. مثلاً السيارة تُساوي خمسين ألفاً، فجئت إلى التاجر فقلت: يا فلان، أقرضني خمسين ألفاً، أريد أن اشتري سيارة. قال: لا، لست مستعداً؛ لكن أقرضك خمسين ألفاً على أن تكون بعد السنة ستين ألفاً. نقول: هذا الربح حرام، لكن إذا قلنا للتاجر هذا، قال: هناك حل، اذهب يا أيها الرجل، اشترِ السيارة التي تريد من

المعرض، وأعلمني بها، وأنا أشتريها لك بخمسين ألفاً، وأبيعها لك بستين ألفاً. ولكن هذه حيلة واضحة، ولا تخفى على أحد إلا أن يشاء الله. فهل هو يخادع رب العالمين؟ ولكن الله يعلم النية وهي الزيادة.

فهذا التاجر لم يشتري السيارة أولاً ثم عرضها للبيع، ولكنه اشتراها لما طلبتها أنت، فهو في الحقيقة قد اشتراها ليكسب، وكلنا نعرف أن هذه حيلة، إذا كان اليهود قد تحايّلوا بأقل من هذه الحيلة القريبة، ودعا عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «قاتل الله اليهود! إنه لما حرمت عليهم الشحوم جملوها - يعني أذابوها فصار بعد الإذابة ودكاً - فباعوه وأكلوا ثمنه»^(١). وقالوا: نحن لم نأكل الشحم، فجعل النبي ﷺ ذلك حيلة، مع أنها حيلة مركبة من ثلاث مراحل، لكن حيلة صاحبنا هذا مرحلة واحدة.

على كل حال، أنا أقول: إن طالب العلم يجب أن يسير في معاملاته على الشريعة؛ لأنه قذوة.

وأود أن أنبه على نعمة نذكرها جميعاً - والحمد لله - وهي الطعام والشراب؛ إذ لا يمكن أن يقوم البدن إلا بهما، ومع هذا فهذه النعمة تحتها نعم، إذا أردت أن تأكل فسوف تقول: باسم الله. وجوباً، وليس استحباباً كما يظن أكثر الناس، كما قاله أكثر العلماء أيضاً. وهو واجب؛ لأنه إذا لم يقل باسم الله شاركه الشيطان في أكله، ولا يرضى أحد منا أن يشاركه عدوه في أكله.

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكها، رقم (٢٢٢٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر، رقم (١٥٨١).

وكذلك عندما تأكل تأكل بيمينك، ولا تظنوا أن الأكل باليسار سهل، بل هو حرام، والدليل قول النبي ﷺ: «لَا يَأْكُلُ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلَا يَشْرَبُ بِشِمَالِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»^(١). ولذلك لا يحل لنا أن نتأسى بالشیطان، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١]، وقد تسلط الشيطان على أعداء الإسلام وهم الكفار، فجعلهم يأكلون باليسار؛ لأنهم جنود الشيطان، وحزب الشيطان، وليس لنا أن نتأسى بأعداء الإسلام.

فإذا رأيت شخصاً يأكل بالشمال فانصحه، ولكن باللطف واللين، وإن كان من أصحاب المكانة العالية، فتستطيع إذا انتهى الأكل أن تمسك يده وتقول: يا فلان، رأيتك تأكل بشمالك، وهذا حرام، فنيك عليه الصلاة والسلام كان يأكل بيمينه، وينهى عن الأكل بالشمال.

وكذلك الشرب يكون باليمين، لكن إذا كان الإناء ثقيلاً، ولا تستطيع أن تمسكه بيد واحدة، فلك أن تستعين بيدك اليسرى؛ لقول الله تعالى: ﴿فَأَنقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وتسمى قبل الشرب، تقول: باسم الله. ثم إذا شربت تنفست في الشرب ثلاثاً، ولا تزد، ومن الأحسن أن نمصه مصاً أحسن.

وعند الانتهاء من الطعام فقل: الحمد لله، قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُ عَلَيْهَا وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُ عَلَيْهَا»^(٢). وكلنا يريد

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم (٢٠٢٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٥).

رِضَا اللَّهِ، نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْضَى عَنَّا كُلَّنَا، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُدْرِكَ رِضَا اللَّهِ إِذَا أَكَلْتَ فَاحْمَدِ اللَّهَ، وَإِذَا شَرِبْتَ فَاحْمَدِ اللَّهَ.

إِذَنْ: مِنَ النَّعَمِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَكَلَ وَحَمِدَ اللَّهَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَإِذَا رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْعَبْدِ فَهَذِهِ غَايَةُ مُنَاهُ.

فائدة:

تَعْلِيْقًا عَلَى الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا». نقول: لو أَنَّ رَجُلًا قَالَ فِي نَفْسِهِ: زَوْجَتِي طَالِقٌ. فَقَدْ أَغْضَبَتْهُ مَثَلًا فَقَالَ فِي نَفْسِهِ ذَلِكَ دُونَ أَنْ يَنْطِقَ بِلِسَانِهِ، فَإِنْ زَوْجَتَهُ لَا تُطَلِّقُ؛ وَالِدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمَ». وَهَذِهِ الْمَشْكِلَةُ مَثَلْتُ بِهَا؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَقَعُ فِيهَا، تَجِدُهُ مَصَابًا بِالْوَسْوَاسِ، يُحَدِّثُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ: انْتَهَى الْأَمْرُ، أَنَا لَا أُرِيدُ زَوْجَتِي، زَوْجَتِي طَالِقٌ. لَكِنْ مَا نَطَقَ لِسَانُهُ بِهَذَا، فَزَوْجَتُهُ عَلَى هَذَا لَا تُطَلِّقُ؛ لِأَنَّ حَدِيثَ النَّفْسِ مَعْفُوفٌ عَنْهُ، إِلَّا إِذَا عَمِلَ الْإِنْسَانُ، أَوْ تَكَلَّمَ، فَهَذَا يَقَعُ مَا عَمِلَهُ أَوْ تَكَلَّمَ بِهِ. وَهَذَا مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَنْ مَا تَحَدَّثْتُ بِهِ نَفْسُنَا لَا يَضُرُّنَا شَيْئًا، حَتَّى فِي أَشَدِّ الْحَالَاتِ، حَتَّى لو حَدَّثْتُكَ نَفْسُكَ بِالشُّرْكِ وَالْكُفْرِ، دُونَ أَنْ تَرْكَنَ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ حَدِيثُ نَفْسٍ عَابِرٌ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ، وَهَذَا مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ.



الدرس الخامس:

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١-٢].

الضحى: هو ارتفاع النهار، إذا ارتفعت الشمس فهذا هو الضحى، وأقسم الله بالضحى؛ لأن به يفتح النور على البسيطة، ويزول الظلم.

ضد ذلك ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢] أي غطى البسيطة، فأقسم الله تعالى بشيئين متضادين، أحدهما الضحى والثاني الليل إذا سجد.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣]، ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أي: ما تركك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: ما أبغضك.

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] يقول للرسول عليه الصلاة والسلام: الآخرة خيرٌ له من الأولى، وغيره مثله، اقرأ قول الله تعالى في سبح: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، وقال الله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٢١] أي: في الدنيا: هذا غني وهذا فقير، هذا صحيح وهذا مريض، هذا قصير وهذا طويل، هذا جاهل وهذا عالم، إلى آخر الفروق العظيمة.

يقول الله جلَّ وعلا: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَةٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَصْحَابَ الْغُرَفِ كَمَا تَرَاءَوْنَ النُّجُومَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفْقِ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا مَنَازِلُ قَوْمٍ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٥٦)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، رقم (٢٨٣١)، من حديث أبي سعيد الخدري.

آمَنَّا بِاللَّهِ، وَصَدَّقْنَا بِرَسُولِهِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ
الْغُرَفِ.

إِذَنْ: الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنَ الدُّنْيَا، لَكِنْ كَيْفَ نَقُولُ فِيمَا وَرَدَ مِنَ
الْحَدِيثِ: «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(١) فَإِذَا كَانَتْ جَنَّةُ الْكَافِرِ فَهِيَ خَيْرٌ
مِنَ الْآخِرَةِ؟

هُنَاكَ قِصَّةٌ ظَرِيفَةٌ تَدُلُّ عَلَى الذِّكَاةِ مِنْ رَجُلٍ مِنْ عَسْقَلَانَ، وَهُوَ عَلِيُّ بْنُ
حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، صَاحِبُ (فَتْحِ الْبَارِي فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ) كَانَ قَاضِي الْقَضَاةِ فِي
مِصْرَ، وَكَانَ إِذَا ذَهَبَ مِنْ مَنَزِلِهِ إِلَى مَقَرِّ عَمَلِهِ يَرْكَبُ عَرَبَةً تَجْرُهَا الْخَيُْولُ، وَوَرَاءَهُ
النَّاسُ، وَهَذَا أَفْخَمُ مَرْكُوبٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، أَمَّا فِي وَقْتِنَا الْآنَ الْمَرْكُوبُ الْفَاخِرُ هُوَ
السَّيَّارَةُ الْفَارِهَةُ، لَكِنْ عِنْدَهُمُ الْعَرَبَةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا، مَرَّ بِرَجُلٍ
يَهُودِيٍّ زَيَّاتٍ -أَيُّ: يَبِيعُ الزَّيْتَ- ثِيَابُهُ كُلُّهَا زَيْتٌ، فَأَوْقَفَ الْيَهُودِيُّ قَاضِي الْقَضَاةِ
وَقَالَ لَهُ: نَبِّئْكُمْ يَقُولُ: «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» أَنْتَ الْآنَ فِي هَذِهِ
الرَّفَاهِيَةِ وَهَذَا النَّعِيمِ، وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَهَؤُلَاءِ الْأَصْحَابِ، وَهُوَ -أَيُّ الْيَهُودِيُّ-
زَيَّاتٌ قَدْ أَحْرَقَ وَجْهَهُ حَرُّ النَّارِ، وَأَوْسَخَ ثِيَابَهُ وَسَخُ الزَّيْتِ، يَقُولُ الْيَهُودِيُّ: أَنَا
فِي سِجْنٍ وَأَنْتَ فِي جَنَّةٍ، فَكَيْفَ هَذَا؟ وَكَانَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ رَجُلًا ذَكِيًّا، فَقَالَ: مَا
أَنَا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ هُوَ بِالنَّسْبَةِ لِنَعِيمِ الْآخِرَةِ سِجْنٌ، وَمَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الشَّقَاءِ بِالنَّسْبَةِ
لِعَذَابِ الْآخِرَةِ جَنَّةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ
اللَّهِ^(٢)؛ لِأَنَّهُ حَقٌّ وَاضِحٌ فَعَجَزَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكر هذه القصة المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/٥٤٦).

قِصَّةٌ أُخْرَى يُقَالُ: إِنَّ وَاحِدًا مِنَ النَّصَارَى قَالَ لِرَجُلٍ عَامِّيٍّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ:
لِمَاذَا يَجُوزُ لَكُمْ أَنْ تَتَزَوَّجُوا مِنَّا، وَنَحْنُ لَا نَتَزَوَّجُ مِنْ نِسَائِكُمْ؟

فَمِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ الْجَوَابُ وَاضِحٌ، لَكِنْ مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ الْعَامِّيِّ الْمُقْنِعِ قَالَ لَهُ:
لَا تَنَا نُؤْمِنُ بِرُسُولِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِرُسُولِنَا؛ لِذَلِكَ أَخَذْنَا مِنْ نِسَائِكُمْ؛ لِأَنَّا نُؤْمِنُ
بِرُسُولِكُمْ، لَكِنْ آمَنُوا بِرُسُولِنَا نُعْطِيَكُمْ مِنْ نِسَائِنَا، لَا مَانِعَ.

وَهَذَا جَوَابٌ وَاضِحٌ مُقْنِعٌ مِنْ عَامِّيٍّ، فَقَدْ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ
عَلَى عَالِمٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

يَقُولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ۖ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾

[الضُّحَى: ٤-٥].

(لَسَوْفَ) اللَّامُ يَقُولُ النَّحْوِيُّونَ إِنَّهَا مُوَطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَاللَّهُ لَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى، أَيْ يُعْطِيكَ رَبُّكَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَتَرْضَى بِمَا أَعْطَاكَ،
بَدَلًا مِنْ أَنَّكَ مَثَلًا فَقِيرٌ، وَلَيْسَ لَكَ شَوْكَةٌ الْآنَ سَوْفَ تَجِدُ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضُّحَى: ٦] الْجَوَابُ: بَلَى، كَانَ
النَّبِيُّ ﷺ يَتِيمًا، مَاتَ أَبُوهُ وَهُوَ حَمْلٌ، وَمَاتَتْ أُمُّهُ وَهُوَ فِي الرِّضَاعَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ أَوَاهُ
اللَّهُ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضُّحَى: ٧] أَيْ: وَجَدَكَ غَيْرَ عَالِمٍ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ
مِنْ عِبَادِنَا ﴿[الشُّورَى: ٥٢] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا
تَخْطُوهُ بِيَمِينِكَ﴾ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿[العنكبوت: ٤٨].

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ [الضحى: ٧] أي: غَيْرَ عَالِمٍ ﴿فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] ﴿وَوَجَدَكَ عَابِلًا﴾ [الضحى: ٨] أي: فَقِيرًا ﴿فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨].

هَذَا سُؤَالٌ: لِمَاذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦] وَلَمْ يَقُلْ: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَاكَ، مَعَ أَنَّ الْخِطَابَ لِلرَّسُولِ؟

وَالْجَوَابُ: يَقُولُ النَّحْوِيُّونَ وَالْبَلَاغِيُّونَ: إِنَّ حَذْفَ الْمَفْعُولِ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ، وَالْمَعْنَى فَآوَاكَ وَآوَى بِكَ غَيْرَكَ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ لَازَ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَمَعَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ!

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] وَلَمْ يَقُلْ فَهَدَاكَ، أَيْ: هَدَاهُ وَهَدَى بِهِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْأَنْصَارِ: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِِي»^(١) إِذَنْ (هَدَى) هَدَاهُ وَهَدَى بِهِ.

﴿وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨] وَلَمْ يَقُلْ فَأَغْنَاكَ؛ لِيَكُونَ عَامًّا، أَغْنَاكَ وَأَغْنَى بِكَ.

وَانْظُرْ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي عُنْفَوَانِ شَبَابِهَا كَيْفَ تَكَدَّسَتْ عِنْدَهُمُ الْأَمْوَالُ الْعَظِيمَةُ حَتَّى كَانَتْ الدَّرَاهِمُ وَالْدَّنَانِيرُ تُرْمَى فِي الْمَسْجِدِ، وَتُقَسَّمُ بَيْنَ النَّاسِ، كُلُّ ذَلِكَ بِبَرَكَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَبَرَكَةِ دِينِهِ، قَاتَلُوا عَلَى دِينِ اللَّهِ، وَغَنِمُوا أَمْوَالَ أَعْدَاءِ اللَّهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفات قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، رقم (١٠٦١)، من حديث عبد الله ابن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

إِذْنُ: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨] أي: أغناك وأغنى بك.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩] لأنَّ الله تعالى وجدك يتيماً فأواك،
إِذْنُ تَذَكَّرَ حَالَكَ فِي الْأَوَّلِ وَارْحَمَ الْيَتِيمَ.

وَالْيَتِيمُ هُوَ الَّذِي مَاتَ أَبُوهُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ، فَلَوْ أَنَّ غُلَامًا لَهُ سِتُّ عَشْرَةَ سَنَةً
قَدْ مَاتَ أَبُوهُ فَلَا نُسَمِّيهِ يَتِيمًا؛ لِأَنَّهُ بَالِغٌ، أَيْضًا غُلَامٌ لَهُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ سَنَةً، لَكِنْ قَدْ
نَبَتَتْ عَانَتُهُ فَلَيْسَ يَتِيمًا؛ لِأَنَّهُ بَالِغٌ، كَذَلِكَ غُلَامٌ لَهُ ثَلَاثُ عَشْرَةَ سَنَةً، لَكِنَّهُ اخْتَلَمَ
فَأَنْزَلَ مَنِيًّا، فَغَيْرُ يَتِيمٍ؛ لِأَنَّهُ بَالِغٌ؛ لِأَنَّ الْبُلُوغَ يَكُونُ وَاحِدًا مِنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

■ إِمَّا تَمَامُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً.

■ وَإِمَّا إِنْبَاتُ الْعَانَةِ.

■ وَإِمَّا إِنْزَالُ الْمَنِيِّ بِاخْتِلَامٍ أَوْ يَقْظَةٍ.

وَالْمَرْأَةُ تَزِيدُ رَابِعًا وَهُوَ الْحَيْضُ.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ وَلِهَذَا أَوْصَى اللَّهُ تَعَالَى بِالْيَتَامَى فِي عِدَّةِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ؛
لَأَنَّ الْيَتِيمَ قَدْ انْكَسَرَ قَلْبُهُ، يَجِدُ الصِّبْيَانَ حَوْلَهُ لَهُمْ آبَاءٌ يُحِبُّونَهُمْ وَيُعْطُونَهُمْ وَهُوَ لَيْسَ
لَهُ أَبٌ.

إِذْنُ: ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] هَلِ الْمُرَادُ بِالسَّائِلِ سَائِلُ الْمَالِ، أَمْ الْمُرَادُ

سَائِلُ الْعِلْمِ؟

الْجَوَابُ: إِذَا نَظَرْنَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] قُلْنَا:

المُرَادُ سَائِلُ الْعِلْمِ، وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الزُّحَرِيُّ: ٨] قُلْنَا: الْمُرَادُ سَائِلُ الْمَالِ، وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَنَّ الْآيَةَ إِذَا كَانَتْ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ لَا يَتَنَافِيَانِ وَلَا مُرَجَّحَ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى الْمَعْنَيْنِ.

إِذَنْ: ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ﴾ سَائِلُ الْمَالِ ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ﴾ سَائِلُ الْعِلْمِ ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الزُّحَرِيُّ: ١٠] فَإِذَا جَاءَ إِنْسَانٌ يَسْأَلُكَ عَنِ الْعِلْمِ فَلَا تَنْهَرُهُ، وَلَا تَقُلْ: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ لَا تُشْكِلُ عَلَى أَحَدٍ، فَكَيْفَ تَخْفَى عَنْكَ، كَيْفَ تَخْفَى عَلَيْكَ يَا غَبِيٌّ؟ لَا تَقُلْ هَكَذَا، بَلْ قَابِلُهُ بِإِنْشِرَاحِ صَدْرٍ حَتَّى يَسْمَعَ مِنْكَ وَيَفْهَمَ، أَمَّا أَنْ تُقَابِلَهُ بِإِنْتِهَارٍ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَنْ يَقْبَلَ مِنْكَ، وَأَنْ نَفْسَهُ سَوْفَ تَنْسَدُ، وَلَا يَدْرِي مَا تَقُولُ، هَذَا وَاحِدٌ.

وَقَدْ يَأْتِيكَ سَائِلُ الْمَالِ، وَيَقُولُ: أَنَا رَجُلٌ مُحْتَاجٌ فَقِيرٌ، فَلَا تَقُلْ لَهُ: اذْهَبْ لَا يُوجَدُ فَقْرٌ، فَالْبِلَادُ غَنِيَّةٌ، أَنْتَ كَذَّابٌ، أَنْتَ جَمَاعٌ لِلْمَالِ، لَا تَقُلْ هَكَذَا. وَلَكِنْ فِي مَسَائِلِ الْعِلْمِ يَأْتِيكَ رَجُلٌ تَعْرِفُ أَنَّهُ مُتَعَنِّتٌ، أَوْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُوءٍ، فَهَلْ تُقَابِلُهُ بِاللُّطْفِ وَاللِّينِ أَوْ تَنْهَرُهُ؟

الْجَوَابُ: أَنْهَرُهُ؛ لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ الْحَقَّ، مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ قَالَ لِلرَّجُلِ الَّذِي قَالَ: كَيْفَ اسْتَوَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ؟ قَالَ لَهُ: مَا أُرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا، وَأَمَرَ أَنْ يُخْرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، فَإِذَا كُنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ هَذَا رَجُلٌ جَدَلِيٌّ لَا يُرِيدُ الْحَقَّ، وَيُرِيدُ أَنْ يَنْتَصِرَ لِنَفْسِهِ، أَوْ يُرِيدُ أَنْ يَزِلَّ هَذَا الْعَالِمُ، فَلَكَ أَنْ تَنْهَرَهُ، وَلَا حَرَجَ.

أَمَّا إِذَا جَاءَكَ سَائِلٌ يَسْأَلُ الْمَالِ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ الرَّجُلَ غَنِيٌّ، لَكِنَّهُ يَسْأَلُ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ؛ تَكْثُرًا فَلَكَ أَنْ تَنْهَرَهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ

تَكْثُرًا» يَعْنِي: يُرِيدُ أَنْ يُكْثِرَ أَمْوَالَهُ «فَاتِّمَّا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلَيْسَتْ قِلٌّ أَوْ لَيْسَتْ كَثْرٌ»^(١).

على كُلِّ حَالٍ السَّائِلُ الْعَادِي، سَوَاءٌ كَانَ سَائِلٌ عِلْمٍ أَوْ سَائِلٌ مَالٍ لَا تَنْهَرُهُ، لَكِنْ إِنْ وَجِدَ شَيْءٌ يَقْتَضِي أَنْ تَنْهَرَهُ فافْعَلْ؛ لِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ دِينُ الْحَزْمِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي مَقَامِ الْوَعِيدِ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٩٨] فَبَدَأَ بِالْتَّهْدِيدِ ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٩٨] وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَفِي مَقَامِ الْإِنْبَاءِ عَنْ صِفَاتِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ قَالَ ﴿بَيْنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ❶ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الْحَجَر: ٥٠] فَبَدَأَ بِذِكْرِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ قَبْلَ ذِكْرِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ إِخْبَارٍ عَنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَهُوَ مَقَامُ إِنْذَارٍ وَوَعِيدٍ وَتَهْدِيدٍ، فَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحَى: ١١] هَذِهِ الْآيَةُ ضَلَّ بِهَا أَقْوَامٌ وَاهْتَدَى بِهَا أَقْوَامٌ، إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ نِعْمَةً فَحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ، لَكِنْ مِنْ غَيْرِ افْتِخَارٍ عَلَيْهِمْ، أَوْ اسْتِعْلَاءٍ عَلَيْهِمْ، حَدِّثْ بِهَا لَتَنْشُرَ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ» فَهَذَا تَحَدُّثٌ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَبَعْدَهَا «وَلَا فَخْرٌ»^(٢) يَعْنِي: لَا أَفْتَخِرُ بِذَلِكَ وَأُسْتَعْلِي بِذَلِكَ عَلَيْكُمْ، لَكِنِّي أَتَحَدَّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٢) أخرجه أحمد (٢/٣)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم (٣١٤٨)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم (٤٣٠٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فَإِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِنِعْمَةٍ وَتَحَدَّثْتَ بِهَا؛ إِظْهَارًا لِفَضْلِ اللَّهِ، وَشُكْرًا لِنِعْمَتِهِ فَهَذَا خَيْرٌ، أَمَّا إِذَا ذَكَرْتَهَا لِتَسْتَعْلِيَ بِهَا عَلَى النَّاسِ، وَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّكَ فَوْقَهُمْ فَهَذَا لَا يَجُوزُ، فَلَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ كَانَ يَفْخَرُ بِالْأُخْسَابِ وَالْأَنْسَابِ، فَلَا تَفْتَخِرْ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] لَا لِيَفْخَرَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَعْلُوَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَقُولُ أَنَا مِنَ النَّسَبِ الْفُلَانِيٍّ، أَنَا مِنَ الْهَاشِمِيِّينَ، أَنَا مِنَ الْقُرَشِيِّينَ، أَنَا مِنَ آلِ الْبَيْتِ، لَا بَأْسَ، لَكِنْ لَا تَفْتَخِرْ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ بِهَذَا، فَأَبُو هَبٍ مِنْ آلِ الْبَيْتِ نَسَبًا، لَكِنَّهُ لَيْسَ مِنْ آلِ الْبَيْتِ حَقًّا، يَعْنِي لَيْسَ لَهُ حَقُّ آلِ الْبَيْتِ؛ لِأَنَّهُ كَافِرٌ، أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ سُورَةً كَامِلَةً: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥].

إِذْنُ: حَدَّثَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ افْتِخَارٍ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ.



سورة الشرح

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ وصلواتُ الله وسلامُهُ على محمدٍ، وعلى آله، وأصحابِهِ، ومن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، أمَّا بعدُ:

فإنَّ الله يقولُ لرسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] يعني: للإسلام، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] يعني: أنك تُذَكِّرُ على وجهِ الرَّفْعَةِ، وعلو المنزلة، ويُذَكِّرُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في كُلِّ العباداتِ؛ لأنَّ العبادةَ مبنيةٌ على أمرين: الإخلاصِ لله، والثَّاني: المتابعةُ، فأنا عندما أُصلي، أو أتوضأ، أو أصوم، أو أتصدق، أشعُرُ بأنِّي بذلك مُخْلِصٌ لله، ومُتَّبِعٌ لرسولِ الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إذن، كُلُّ عبادةٍ فالرَّسُولُ ﷺ مذكور بها إذا فَتَحَ اللهُ على القلبِ، وأحيا القلبَ، بحيثُ يشعُرُ الإنسانُ أَنَّهُ في عبادتِهِ مُخْلِصٌ لله، مُتَّبِعٌ لرسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] هذه نعمةٌ، يقولُ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فيما يروى عنه: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»^(١)، ففي قوله: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ العسر هنا معرفة، لأنَّه محلي بـ(أل)، و﴿يُسْرًا﴾ نكرة، والاسم إذا تكرر مُنْكَرًا صار الثَّاني غيرَ الأولِ، وإذا تكرر مُعْرَفًا صار الثَّاني هُوَ الأولِ، فيكون العسرُ حينئذٍ واحدًا، ويكون اليُسْرُ اثنين، ولهذا قال: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ».

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٧٥، رقم ٣٩٤٩، ٣٩٥٠) مرسلًا عن الحسن، وروى موقوفًا من قول عمر، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

فأنت - يا أخي - إذا قَدَّرَ اللهُ عليك في أمرٍ من الأمور أن تَعَسَّرَتِ أمورُك، فاذكُرِ اليُسْرَ السابقَ، واذكُرِ اليُسْرَ الَّذِي تُوعَدُ به، وهو اليُسْرُ اللَّاحِقُ، كما قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(١).

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧-٨] يعني: إذا فَرَغْتَ مِمَّا يُلهيك عن الطاعة ﴿فَانصَبْ﴾ للعبادة، فمثلاً: إِنْسَانٌ قُدِّمَ الْعِشَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فعليه أن يُقَدِّمَ الْعِشَاءَ، حَتَّى يَأْتِيَ الصَّلَاةَ وَقَلْبُهُ فَارِغٌ، وَيُصَلِّيَ. لو قال قائلٌ: أَسْمَعُ الْإِمَامَ يُصَلِّي وَأَنَا أَكُلُ؟

نقول: سُبْحَانَ اللهِ! نَعَمْ، كُلْ ولو كان الإمامُ يقرأ، وكان ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وهو من أَشَدِّ النَّاسِ عِبَادَةً، كان يأكل -يتعشى- والإمامُ يُصَلِّي، ويسمعُ قراءته^(٢)، لكن لَيْسَ معنى هَذَا أَنَّكَ تَجْعَلُ كُلَّ يَوْمٍ عِشَاءَكَ فِي وَقْتِ الصَّلَاةِ، لا، لكن إذا صَادَفَتِ الْمَسْأَلَةَ وَقُدِّمَ الْعِشَاءُ لَكَ، فَكُلْ حَتَّى تَأْتِيَ الصَّلَاةَ وَأَنْتَ فَارِغُ الْقَلْبِ.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ، لا تَرْغَبْ إِلَّا إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَهُوَ مَلْجَأُكَ، وَمَلَاذُكَ، وَهُوَ مَعَاذُكَ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ، ارْغَبْ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، واسألهُ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَاجُهُ، فَإِنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُعْطِيكَ مَا تَسْأَلُهُ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) أخرجه أحمد (١/٣٠٧، رقم ٢٨٠٤)، والطبراني (١١/١٢٣، رقم ١١٢٤٣)، والضياء (١٠/٢٣، رقم ١٣).

(٢) أخرجه البخاري تعليقا: كتاب الأذان، باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السَّاعَةِ لِي وَلَكُمْ الْهِدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى،
وَأَنْ يُحَسِّنَ لَنَا الْعَاقِبَةَ، وَيُحَسِّنَ لَنَا الْخَاتِمَةَ، وَيَجْعَلَ مُسْتَقْبَلَنَا خَيْرًا مِنْ مَاضِينَا، إِنَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



سورة التين

الدرس الأول:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأصلي وأسلم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ
 المتقين، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين، أما بعدُ:

التين والزيتون معروفان، أقسم الله بهما لما فيهما من الخير والبركات، وقيل:
 إنه أقسم بهما؛ لأنَّهما في أرضِ الشامِ التي هي مكانُ بعثِ الأنبياءِ من بني إسرائيل.

قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو الطُّورُ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ مِنْهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،
 ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ يعني مَكَّةَ الَّتِي بُعِثَ مِنْهَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ، أقسم الله بهذه
 الأماكن؛ لأنها أماكنٌ حَدِثٍ عَظِيمٍ، وهي الرِّسَالَاتُ الإلهية.

قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ اللامُ للتوكيد، وقد للتَّحْقِيقِ، فهي
 توكيدٌ، فتكونُ هَذِهِ الجُمْلَةُ مُؤَكَّدَةً بثَلَاثَةِ مُؤَكَّدَاتٍ:

الأول: القسم.

والثاني: اللام.

والثالث: قد.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: أليسَ خَبَرُ اللهِ حَقًّا وَصِدْقًا بِدُونِ يَمِينٍ، وهو مَقْبُولٌ بِدُونِ
 يَمِينٍ، إذن لماذا يُقْسِمُ اللهُ؟ نقول: إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَزَلَ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مَبِينٍ؛ قَالَ اللهُ

تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿الشعراء: ١٩٢-١٩٥﴾، وَاللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمُبِينُ يُؤَكِّدُ الْأَشْيَاءَ الْهَامَّةَ بِأَنْوَاعِ الْمُؤَكَّدَاتِ، فَأَقْسَمَ اللَّهُ هَذَا الْقَسَمَ الْمُؤَكَّدَ؛ لِأَنَّ هَذَا أُسْلُوبُ عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ نَزَلَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ.

ولقد أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ ﷺ أَنْ يُقْسِمَ عَلَى الْحَقِّ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةً، مِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿وَيَسْتَنِيْثُوْنَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]، ﴿وَيَسْتَنِيْثُوْنَكَ﴾ يعني: يَطْلُبُونَ مِنْكَ أَنْ تُنَبِّهَهُمْ هَلْ هُوَ حَقٌّ أَمْ غَيْرُ حَقٍّ؟ فَقَالَ اللَّهُ: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ هَذَا وَاحِدٌ. الْمَوْضِعُ الثَّانِي فِي التَّغَابُنِ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]. الْمَوْضِعُ الثَّلَاثُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٣].

إِذْنًا، أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ أَنْ يُقْسِمَ جَاءَ ذَلِكَ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ هَامٌّ، وَهُوَ: كَوْنُ الْقُرْآنِ حَقًّا، وَالثَّانِي: قِيَامُ السَّاعَةِ، وَالثَّلَاثُ: الْبَعْثُ.

نَعُودُ إِلَى السُّورَةِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أَيْ خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ عَلَى الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجَّسَّانِهِ»^(١). إِنْ كَانَ أَبَوَاهُ يَهُودِيَّيْنِ صَارَ يَهُودِيًّا، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيَّيْنِ كَانَ نَصْرَانِيًّا، وَإِنْ كَانَ مَجُوسِيَّيْنِ كَانَ مَجُوسِيًّا؛ لِأَنَّهُ عَاشَ فِي أَحْضَانِ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ: الْيَهُودِ، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسِ، وَالْإِنْسَانُ تُؤَثِّرُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨).

عليه البيئة، فيتأثر، يكون يهوديًا أو نصرانيًا أو مجوسيًا، وفي هذا دليل واضح على أن اليهود والنصارى -الذين يُسمّون أنفسهم (المسيحيين)- والمجوس كلهم في مرتبة واحدة، بمعنى: أنهم كلهم على باطل، كلهم مخالفون للفطرة.

ولهذا ندحض قول من يحاولون اليوم أن يخلطوا بين الحق والباطل، ويقولون: هذه أديان سماوية! اليهود على دين سماوي، والنصارى على دين سماوي، والمسلمون على دين سماوي! نقول: هذا أكذب الكذب، وأكذب كلمة قالها قائلها هذه الكلمة، هل اليهود الآن على دين سماوي؟ لا والذي فطر السموات والأرض، ليسوا على دين سماوي، بل على دين باطل، نسخه الله تعالى بشريعة عيسى.

وهل النصارى الذين يُسمّون أنفسهم (مسيحيين) نسبة للمسيح، هل هم على دين الحق؟ لا والذي فطر السموات والأرض، إنهم على دين باطل، أي: منسوخ، نسخ برسالة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فليسوا على دين.

إذا كان اليهود يقولون: ﴿لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]، والنصارى يقولون: ﴿لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]، فنحن نقول: ليست اليهود ولا النصارى على شيء؛ لأنهم كفروا. فإذا قالوا: نحن نؤمن بالله، وقد قال الله تعالى: ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاْمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فنقول لهم: أنتم فرقتم بين الرسل، وكذبتم محمدًا عليه الصلاة والسلام أنتم أيها اليهود، وكذبتم عيسى، بل كذبتم موسى، فالذين كذبوا محمدًا عليه الصلاة والسلام من

اليهود والنصارى، كَذَّبُوا عِيسَى وَكَذَّبُوا مُوسَى؛ لَأَنَّ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَوْجُودَةٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَيَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ.

ثم نقول: مَنْ كَذَّبَ وَاحِدًا مِنَ الرُّسُلِ فَقَدْ كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ، حَتَّى رَسُولَهُ الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ يَتَّبِعُهُ قَدْ كَذَّبَهُ، وَالدَّلِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] وهل هناك رَسُولٌ بُعِثَ قَبْلَ نُوحٍ؟ لا، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ: كَذَّبَتْ الْمُرْسَلِينَ، فَقَوْمُ نُوحٍ الَّذِينَ كَذَّبُوا نُوحًا كَذَّبُوا جَمِيعَ الرُّسُلِ الَّذِينَ بَعْدَهُ، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَذَّبُوا جَمِيعَ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، فَهُمْ مُكَذِّبُونَ، فَكَيْفَ يَقَالُ: إِنْ هَؤُلَاءِ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ؟ كَيْفَ يُحَاوَلُ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ دِيَانَاتٍ مَنْسُوخَةٍ، وَبَيْنَ دِينٍ قَائِمٍ؟ أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]؟ بلى، فَأَيُّ إِنْسَانٍ يَقُولُ: إِنْ هُنَاكَ دِينًا يَقْبَلُهُ اللَّهُ، فَهُوَ مُكَذِّبٌ لِلآيَةِ.

المسألة خَطِيرَةٌ - يا إخواني - نَحْنُ يُمَكِّنُ أَنْ نُعَاهِدَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى عَلَى مُعَاهَدَاتٍ بِالشَّرْوَطِ الشَّرْعِيَّةِ، لَكِنْ لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ نُقَرَّ بِأَنَّهُمْ عَلَى دِينٍ مَقْبُولٍ عِنْدَ اللَّهِ أَبَدًا، وَبِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

الْأَمْرُ خَطِيرٌ، وَالَّذِينَ يُدَاهِنُونَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لِقُوَّتِهِمِ الْمَادِيَّةِ هُمْ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ، وَنَحْنُ نَشْهَدُ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَجَمِيعَ خَلْقِهِ أَنَّ الْيَهُودَ لَيْسُوا عَلَى دِينٍ، وَأَنَّ النَّصَارَى لَيْسُوا عَلَى دِينٍ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْجَمِيعِ أَنْ يَدِينُوا بِدِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِجَمِيعِ الْأَدْيَانِ.

وَمِنَ النُّكْتِ الَّتِي سَمِعْنَاهَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ النَّصَارَى قَالَ لِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ:

أَنْتُمْ ظَلَمْتُمْ، لَيْسَ عِنْدَكُمْ عَدْلٌ، لَيْسَ عِنْدَكُمْ حَقٌّ؛ لَأَنْتُمْ تَمْنَعُونَ أَنْ يَتَزَوَّجَ النَّضْرَانِيُّ مُسْلِمَةً، وَتَقُولُونَ: يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَزَوَّجَ نَضْرَانِيَّةً؟ سَمِعْتُمْ احْتِجَاجَ النَّضْرَانِيِّ عَلَى الْمُسْلِمِ، فَقَالَ لَهُ الْمُسْلِمُ عَلَى الطَّبِيعَةِ: نَحْنُ نُؤْمِنُ بِرُسُولِكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِرُسُولِنَا، آمِنُوا بِرُسُولِنَا كَمَا آمَنَّا بِرُسُولِكُمْ، وَنُعْطِيكُمْ بَنَاتِنَا.

فَهَذَا الْجَوَابُ جَمِيلٌ جَدًّا، أَلْقَمَهُ حَجْرًا بِكُلِّ سُهولةٍ، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَدْيَانِ أَبَدًا، دِينُ الْإِسْلَامِ دِينٌ مُسْتَقِلٌّ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكْمِيلٍ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى دِينٍ آخَرَ، وَالْدِّيَانَاتُ الْأُخْرَى كُلُّهَا مَنْسُوخَةٌ بِالْدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم



الدرس الثاني:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ
حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوْا تُسَلِّمُوا عَلَى اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ،
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

هذا الاستفهام للتقرير، يعني تثبيت الأمر ووقوعه، فمعنى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ
الْحَاكِمِينَ﴾ قد ثبت أن الله أحكم الحاكمين.

فما معنى أحكم الحاكمين؟

هذا يتناول شيئين: الشيء الأول أن حكم الله عَزَّوَجَلَّ نافذ؛ لأن حكم غيره
قد ينفذ وقد لا ينفذ.

ولو رأينا ملكاً من أكبر ملوك الدنيا حكم بشيء أن يفعل أو ألا يفعل، فإننا
لا نتيقن أنه سيقع ما حكم به، فقد لا يقع، لكن الله عَزَّوَجَلَّ ما حكم به فلا بُدَّ أن
يقع.

ثم إنه أيضاً لا معقب لحكمه عَزَّوَجَلَّ، فحكمه تام نافذ، لا يمكن لأحد أن
يتخلف عنه، حتى لو كان أكبر ملوك الدنيا.

وجه آخر: أن الله أحكم الحاكمين من حيث الحكمة، بمعنى أن حكم الله عز وجل ليس عبثاً ولا لعباً ولا لهواً؛ إنما هو جدٌ وحكمةٌ بالغةٌ قد تصل إليها العقول وقد لا تصل إليها العقول.

إذن: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ من حيث الحكم ونفوذه، ومن حيث الحكمة، فإذا آمنت بهذا فإنه لا يمكنك أن تعترض على حكم من أحكام الله أبداً، سواء كان هذا الحكم قدرياً أو شرعياً.

فلا يمكن أن تقول: لماذا منع الله المطر ثم أتى به؛ اعتراضاً على الله؛ لأننا نعلم أنه منعه لحكمة، وأنه أتى به لحكمة عز وجل.

كذلك أيضاً لا يمكن أن تقول: لماذا أوجبت الشريعة الإسلامية أن الإنسان إذا أكل لحم إبل انتقص وضوءه، ووجب عليه أن يتوضأ، ولو أكل لحم خرفان لم يجب عليه أن يتوضأ، ما دمت تعلم أن الله عز وجل أحكم الحاكمين، فإذا أوجبت الشريعة على من أكل لحم إبل أن يتوضأ ولم تُوجب ذلك على من أكل لحم غنم فإننا نعلم أن هذا لحكمة؛ لأنه صادر من أحكم الحاكمين.

وأجر على هذا كل ما يمر بك من أحكام الله الكونية، وأحكام الله الشرعية، فكلها صادرة عن حكمة، لكن العقول قد تدرك هذه الحكمة وقد لا تدركها، إلا أننا نؤمن بأن كل ما شرعه الله أو كل ما قدره لحكمة قطعاً.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا

إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[الدخان: ٣٨-٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال عز وجل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾
[الأنبياء: ١٧].

وهذه نقطة عظيمة تُوجبُ للإنسان إذا اعتقدها الاستسلام للقضاء القدري،
وللحكم الشرعي، فإذا آمنت إيماناً حقيقياً بأن الله أحكم الحاكمين لزم من ذلك
الإيمان الاستسلام لقضاء الله القدري، ولقضاء الله الشرعي، فلا بُدَّ ما دُمْتَ آمنتَ
بهذا، فإذا قدر الله على خلقه حروباً، أو مجاعةً، أو مرضاً، أو زلزالاً، أو صواعقاً،
فإنك تعلم أن هذا لحكمة، وتؤمن بهذا، فيهُونُ عليك الأمر؛ لأن هذا إنما أتى من
عند الله الذي هو أحكم الحاكمين.

وإذا ابتلاك الله بمرضٍ لآزمَكَ على الرغم من العلاج، وعلى الرغم من الرقية،
فإنك تعلم أن لهذا حكمة عند الله عز وجل.

ومن الحكمة أن يُوفِّقَكَ للصبر حتى تنال درجة الصابرين، والصبرُ درجةٌ
عالية، لا ينالها إلا من امتحن فصبراً، وقد حصل لرسول الله ﷺ من الأذى الكثير
والشديد بسبب دعوته للحق، ولكن الله يُصبرُّه ويقول: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا
الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد حصل له من القدر الذي يقضيه الله عليه مما لم يقضه على غيره شيءٌ
كثير؛ كان النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلّم- إذا أتته الحمى يُوعك كما يُوعكُ

الرجلانِ مِنَّا^(١). يعني يُضَعَّفُ عليه المرضُ أكثرَ كما يُوعَكُ الرجلانِ مِنَّا.

فإن قيل: لماذا وهو رسولُ الله؟

قلنا: لينالَ درجةَ الصابرينَ؛ إذ إن الصبرَ لا يُنالُ بدونَ شيءٍ يُصَبِّرُ عليه،
فلهذا كان رسولُ الله ﷺ أَصْبَرَ النَّاسِ على الشَّرِيعَةِ، وَأَصْبَرَ النَّاسِ على قضاءِ الله،
وأقواهم في تنفيذِ أوامرِ الله.

فيا أخي الزم هذه القاعدة: كُلُّ ما قَضَى اللهُ عليك أو على غيرك فاعلم أنه
لحكمة، إن وُفِّقَتْ لِفَهْمِهَا فهذا المطلوبُ، وإن لم تُوفَّقْ فيكفي أن تؤمنَ بأن ذلك
حُكْمُ اللهِ، والله تَعَالَى الحِكْمَةُ البالغةُ: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَكْمَرَ الْحَكِيمِينَ﴾.

والْحَمْدُ لله الذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا مُحَمَّدٍ
وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، رقم (٥٦٤٨)،
ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو
ذلك، حتى الشوكة يشاكها، رقم (٢٥٧١).

الدرس الثالث:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ [التين: ١-٥]، هُنَا يُقَسِّمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالثَّيْنِ، وَهُوَ ثَمَرٌ مَعْرُوفٌ، وَلَهُ فَوَائِدُ عَدِيدَةٌ تَكَلَّمَ عَنْهَا أَهْلُ الْعِلْمِ، وَمِمَّنْ تَكَلَّمَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَالزَّيْتُونُ أَيْضًا مَعْرُوفٌ، وَهُوَ مِمَّا يُؤْتَدَّمُ بِهِ، وَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِللَّاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هُوَ طُورُ سَيْنَاءَ، وَهُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى عِنْدَهُ. ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أَي مَكَّةَ، وَهِيَ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ مِنْهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وَإِقْسَامُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ هَذَا الْمَخْلُوقِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْلِفُ إِلَّا بِشَيْءٍ عَظِيمٍ، وَلِهَذَا عَرَّفَ الْعُلَمَاءُ الْقَسَمَ أَوِ الْحَلِفَ بِأَنَّهُ تَأْكِيدُ الشَّيْءِ بِذِكْرِ مُعْظَمِ بَصِغَةٍ مُخْصُوصَةٍ، وَهِيَ حُرُوفُ الْقَسَمِ الثَّلَاثَةُ: الْوَاوُ وَالْبَاءُ وَالتَّاءُ.

قال الله تعالى: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦] هنا القسمُ بالباءِ، وقال الله تعالى: ﴿وَتَأْلَهُ لَاصِدًا أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] وهنا القسمُ بالتاءِ، أما القسمُ بالواوِ ففي آيتنا هذه: ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾، فأداةُ القسمِ هنا هي الواوُ، والمقسمُ به هذه الأربعة: التَّيْنُ، والزيتونُ، وطُورِ سِينِينَ، والبلدُ الأَمِينُ.

وصَفَ اللهُ هذا البلدَ بالأَمِينِ؛ لأنه يَأْمَنُ فيه كُلُّ شَيْءٍ، فَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، ولو أَصَابَ إنسانٌ حَدًّا ودَخَلَ حَرَمَ مَكَّةَ صارَ آمِنًا؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

فالأشجارُ البرِّيَّةُ التي أنبتَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ تكونُ آمِنَةً، حتى الأشجارُ المؤذِيَّةُ ذاتُ الشُّوكِ الذي يكونُ كالإبرِ، هي آمِنَةٌ؛ لقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا»^(١). ومعلومٌ أنَّ الأشجارَ بَعْضُهَا يُؤْذِي، وبعضُها لا يُؤْذِي، فلا يَجُوزُ قَطْعُ الشَّجَرِ المؤذِي ولا غَيْرِهِ؛ وذلك لأنَّ الشَّجَرَ لا يُؤْذِي إِلَّا مَنْ يَأْتِيهِ، فلم نَرِ شَجَرَةً تَمْشِي إلى شَخْصٍ لِتَضْرِبَهُ بِشَوْكِهَا! إذن الشَّجَرُ لا يُؤْذِي إِلَّا مَنْ يَأْتِيهِ؛ ولذلك كانت الصُّيُودُ إذا أَذَتْ قُتِلَتْ في الحَرَمِ، والشَّجَرُ لا يُقْطَعُ، والفرقُ ظَاهِرٌ، فالصُّيُودُ هي التي تأتي فتؤْذِي الناسَ، والشَّجَرُ لا يَمْشِي؛ ولذلك لو قال قائلٌ: فَرَّقُوا لَنَا بَيْنَ مَا يُؤْذِي مِنَ الْحَيَوانِ فيُقْتَلُ، وَبَيْنَ مَا يُؤْذِي مِنَ الشَّجَرِ فلا يُقْطَعُ؟ نقولُ: الفرقُ هو أَنَّ الصَّيْدَ يَأْتِي بِنَفْسِهِ فيؤْذِي، وأما الشَّجَرُ فلا يُؤْذِي إِلَّا مَنْ أَتَى إِلَيْهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل الحرم، رقم (١٥٨٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلوها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

والحيوان في حدود الحرم، وهي واسعة، ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يؤذي طبعًا، أي إن طبيعته الأذى، فهذا يقتل على كل حال، ولو في جوف المسجد، ومثال ذلك الحية والعقرب، فهذه تقتل على كل حال، حتى لو رأيت عقربًا في هذا المكان فاقتله؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «خمس فواسق، يقتلن في الحل والحرم: الحية والغراب الأبقع والفأرة والكلب العقور والحديا»^(١).

فلو رأيت وزغًا فاقتله؛ لأنه مؤذ بطبعه، وقد أمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقتل الوزغ، وأفاد أن فيه إذا قتله في أول مرة مئة حسنة^(٢). وأخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه بخبيته كان ينفخ النار على إبراهيم^(٣).

وصدق رسول الله، وفعل الوزغ هذا يدل على كراهته للتوحيد، ولمن قام به، فاحرص على قتل الوزغ بضربة شديدة تقتله من أول مرة، ولا تهرب منه.

القسم الثاني: ليس مؤذيًا، لكن قد يصول عليك، فهذا يقتل، إن صال يقتل، وإن لم يصل فدعه ولا تقتله، وإن قتله فلا إثم عليك. مثل الحشرات كالخنفساء والجعل والصرصور، وما أشبهها، فهي لا تؤذي، لكن قد تصول على الإنسان، أي تصعد عليه وتقرصه وتؤذيه بالمشي على جلده، وما أشبه ذلك، ولا تدفع إلا بالقتل،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم، رقم (١١٩٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب استحباب قتل الوزغ، رقم (٢٢٤٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، رقم (٣٣٥٩).

لكن إن لم يكن منها صَوْلٌ فلا تَقْتُلْهَا، واعْلَمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةِ، وَالنَّحْلَةِ، وَالْهُذُودِ، وَالصُّرَدِ^(١).

القسم الثالث: حَيَوَانٌ أَهْلِيٌّ غَيْرٌ وَحْشِيٌّ، وَهُوَ حَلَالٌ، مِثْلُ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ وَالِدَّجَاجِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهَذِهِ مِمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ لَنَا، مَتَى شِئْنَا ذَبَحْنَاهُ وَأَكَلْنَاهُ، وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ.

القسم الرابع: وَهُوَ الصَّيْدُ، وَهُوَ الْحَيَوَانُ الْبَرِّيُّ الْحَلَالُ الْمُتَوَحَّشُ، مِثْلُ: الْحَمَامِ وَالْعَصَافِيرِ وَالْجُرَادِ، فَهَذِهِ يَحْرُمُ قَتْلُهَا فِي الْحَرَمِ، وَلَا يَحِلُّ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَقْتُلَهَا. لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦]، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَ حِينَ فَتَحَ مَكَّةَ بِأَنَّ صَيْدَهَا لَا يُنْفَرُ وَلَا يُقْتَلُ^(٢).

أَيُّ أَنْكَ لَوْ رَأَيْتَ حَمَامَةً قَارَةً فِي ظِلٍّ فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُنْفَرَهَا؛ لِأَنَّ الْحَيَوَانَ فِي هَذَا الْمَكَانِ مُحْتَرَمٌ، لَكِنْ لَوْ أَنَّ هَذَا النُّوعَ مِنَ الْحَيَوَانِ صَالَ عَلَى الْإِنْسَانِ وَلَمْ يَنْدَفِعْ إِلَّا بِالْقَتْلِ يُقْتَلُ، فَكُلُّ صَائِلٍ يُقْتَلُ إِذَا لَمْ يَنْدَفِعْ إِلَّا بِالْقَتْلِ.

وَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَشَى بِسَيَّارَتِهِ، فَصَدَّمَ حَمَامَةً، فَإِنْ تَعَمَّدَ أَنْ يُشِيرَهَا وَيَصْدِمَهَا فَعَلِيهِ الْجَزَاءُ، وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ قَدْ طَارَتْ وَصَدِمَتْ بِالسَّيَّارَةِ فَلَيْسَ عَلَيْهِ جَزَاءٌ. وَكَذَلِكَ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ فِي قَتْلِ الذَّرِّ، رَقْمُ (٥٢٦٧)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الصَّيْدِ، بَابُ مَا يَنْهَى، عَنْ قَتْلِهِ، رَقْمُ (٣٢٢٤).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ الْإِذْخَرِ وَالْحَشِيشِ فِي الْقَبْرِ، رَقْمُ (١٢٨٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخِلَافِهَا وَشَجَرِهَا وَلَقَطَتِهَا إِلَّا لِمَنْشَدٍ عَلَى الدَّوَامِ، رَقْمُ (١٣٥٥).

لو دَهَسَهَا ولم يَرَهَا فليس عليه جزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥]، فعُلِمَ من ذلك أَنَّ غيرَ المُتَعَمِّدِ لا شيء عليه، وهذا ما تَقْتَضِيهِ قَوَاعِدُ الشَّرِيعَةِ.

نَعُودُ إِلَى الْقَسَمِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي بَيَّنَّ أَيْدِينَا، خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ صُورَةً وَفِطْرَةً؛ ولهذا لا يُوجَدُ شيءٌ من الحيوانِ أَقْوَمَ من الْآدَمِيِّ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. وما في سورة الانفطار: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ١-٧] أي: عَدَلَ قَامَتَكَ، فالرَّأْسُ هو الْأَعْلَى، والجَسَدُ هو الْأَسْفَلُ، وأنت تَمْشِي على قَدَمَيْنِ اثْنَيْنِ مَشْيًا مُعْتَدِلًا قَوِيًّا، ولا يُوجَدُ في الحيوانِ نَظِيرٌ لِلْإِنْسَانِ. إذن، قوله تعالى: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: في الصورة وفي الْفِطْرَةِ؛ لأنَّ الْإِنْسَانَ مَفْطُورٌ عَلَى الْإِسْلَامِ.

ثم قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ هذا الْإِنْسَانُ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ رَدَّهُ فِي أَسْفَلَ سَافِلِينَ، وليس رَدُّ اللَّهِ الْإِنْسَانَ فِي أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ؛ لقولِ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ولقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْتُ أَنَّنَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٦] أي: آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ، ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. أي: ثَوَابٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، ثم قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ [التين: ٧] أي: بعدَ هذا الْبَيَانِ أَيُّ شَيْءٍ يُكَذِّبُكَ بِالذِّينِ؟

والجواب: لا شيء، فالأمر واضح وجلي.

ثم ختم الله تعالى السورة بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨] والجواب: بلى، أحكم الحاكمين قوة وتنفيذاً، أحكم الحاكمين حكماً وسياسةً؛ ولهذا لا يوجد حكم أحسن من حكم الله عز وجل، ولو أن المسلمين اتبعوا حكم الله في منهج حياتهم، وفي سياساتهم في الداخل والخارج، لسعدوا وسعادة لا توصف.

لكن صار كثير من المسلمين -مع الأسف- يدهن الكفار، أو واقعاً تحت سيطرة الاستعمار الأجنبي، فصار يأخذ من قوانينهم وأنظمتهم ويطبّقها في عباد الله، ويدع شرع الله خلف ظهره، وربما يصرح ويقول: هذا الدين لا يمكن أن يُنفذ في هذا العصر؛ لأنّ العصر اختلف، ولكلّ حادث حديث.

وعلى هذا يكون -على حدّ قوله- إذا تطورت الأمة في الدنيا ألقت العمل بالشرع، وإذا تخلف تطورها في الدنيا عملت بالشرع، فيكون الشرع ألعوبة بين البشر، إن شاؤوا عملوا به، وإن شاؤوا لم يعملوا به.

وهؤلاء الذين وضعوا قوانين مخالفة للشرعية لا شك أنهم ضلّوا ضلالاً مبيناً، واتبعوا الأسوأ بدلاً عن الأحسن، وكانوا كقوم موسى الذين قالوا: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآيَهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، والله ما في القوانين المخالفة للشرعية خير، بل كلّها شرٌّ، ولو لم يكن منها إلا العدوّل عن شريعة الله لكان ذلك كافياً، ولكن كما قال عز وجل: ﴿فَاتَّبَعُوا مَا تَتَّبِعُونَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومن الحُكَّامِ مَنْ يُزَيِّنُ لَهُمْ عُلَمَاءُ الشُّوءِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مُخَالَفَةِ الشَّرْعِ فِي الْحُكْمِ، فيقولون: هذا جَائِزٌ، هذا مَصْلُحَةٌ، والدِّينُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْمَصَالِحِ، وما أَشْبَهَ ذلكَ مما يُوسَّسُونَ بِهِ لِلْحُكَّامِ، وكثيرٌ من الحُكَّامِ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ بِالشَّرِيعَةِ، فيَغْتَرُّ بِقَوْلِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ الْمُضِلِّينَ؛ ولهذا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الْأَثِمَةُ الْمُضِلُّونَ»^(١). فَتَجِدُ الْحَاكِمَ يُقَرِّبُ هَذَا الْعَالِمَ الْمُضِلَّ فيَفْتَحُ لَهُ مِنْ أَبْوَابِ التَّحْرِيمِ وَالتَّأْوِيلِ مَا يَجْعَلُهُ يُخَالِفُ الشَّرِيعَةَ، وَيَقُولُ: أَنَا عَلَى حَقٍّ.

وَالْعَجِيبُ أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَكَّلَ أُمُورَ الدُّنْيَا إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا يَفْعَلُونَ مَا يَشَاءُونَ. وَاسْتَدَلَّ بِشُبْهَةٍ لَا يَسْتَدِلُّ بِهَا إِلَّا مَنْ زَاغَ قَلْبُهُ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْأَدِلَّةِ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ السُّنَّةِ، وَمَا يَسْتَدِلُّ بِهِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»^(٢). أَيُّ أَعْلَمُ مِنِّي. وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَ حُكْمِي وَحُكْمُكُمْ فَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالِاتِّبَاعِ؛ لِأَنَّكُمْ أَعْلَمُ!

وَلَا أَعْلَمُ كَيْفَ اسْتَدَلَّ هَؤُلَاءِ بِمَا لَا دَلِيلَ لَهُمْ بِهِ، بَلْ يُلَبِّسُونَ عَلَى الْحُكَّامِ بِكَلَامِ الرَّسُولِ هَذَا، فنقول لهم: اعْرِفُوا سَبَبَ الْحَدِيثِ حَتَّى تَعْرِفُوا مُرَادَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا هَاجَرَ

(١) أخرجه أحمد (٤٥/٤٧٨، رقم ٢٧٤٨٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا، على سبيل الرأي، رقم (٢٣٦٣).

من مَكَّةَ إلى المدينة، ولم يَكُنْ بِمَكَّةَ نَخْلٌ، بل هي وادٍ غيرُ ذي زرع، وجدَّ الناسُ في المدينة يُلقِّحون النَّخِيلَ، والتَّلْقِيحُ هو أَخْذُ اللَّقَاحِ من ذَكَرِ النَّخْلِ لِيُلْقَى في ثَمَرَةِ النَّخْلَةِ، فإذا فُعِلَ هذا ظَهَرَ الثَّمَرُ صالحًا، وإن لم يُفْعَلْ ظَهَرَ الثَّمَرُ غيرَ صالحٍ وفاسدًا، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ».

فلَمَّا رَأَى الصحابةَ يَصْعَدُ الرجلُ منهم أَوَّلًا لِلذَّكْرِ، فَيَأْخُذُ لِقَاحًا، ثم يَنْزِلُ وَيَصْعَدُ النَّخْلَةَ حَتَّى يَضَعَ فِيهَا اللَّقَاحَ، وَيَنْزِلُ، وهذا أَمْرٌ شاقٌّ، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ من الأُمُورِ أَيْسَرَهَا، فقال: لا دَاعِيَ لِهَذَا. فقال الصحابةُ: سَمِعُ وطاعةً. فَتَرَكَوا التَّلْقِيحَ، فَفَسَدَ الثَّمَرُ، فجاؤوا للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقالوا: يا رسولَ اللهِ، فَسَدَ الثَّمَرُ. فقال: اصْنَعُوا ما شِئْتُمْ أو كَلِمَةً نَحْوَهَا. أي: أنتم أَعْلَمُ بالصَّنْعَةِ لا بالأَحْكامِ، فَالصَّنْعَةُ لَنْ يَفْعَلَ بِهَا شَيْئًا، أما الأَحْكامُ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، كما في قولهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْلَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فَالْحُكْمُ إِلَى اللهِ فِي الْأَحْكامِ، لكن فيما يَتَعَلَّقُ بِإِصْلاحِ الثَّمَرَةِ وَسَقِيَّهَا وَحَرْثِهَا فهذا يَرْجِعُ لِلإِنْسَانِ.

أَرَأَيْتَ لو أَنَّ شَخْصَيْنِ أَحَدُهُما عَالِمٌ، وَالْآخَرُ جَاهِلٌ، لكن الثاني نالَ شَهادَةَ الدُّكتوراه في إِصْلاحِ المَسْجَلاتِ! أما العالمُ فلا يَعْرِفُ كيف يُصْلِحُ هذا الجِهازَ، فأَيُّها أَعْلَمُ في أُمُورِ الدُّنيا هذه؟ الثاني، وليس هذا تَناقُضًا؛ فهذا الجاهلُ أَعْلَمُ، لكن أَعْلَمُ في فَنِّهِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ عالِمٍ في فَنِّهِ، وهذا يَتَعَلَّقُ بالصَّنَاعَةِ وما يَتَعَلَّقُ بِهَا.

على كُلِّ حالٍ هؤلاء الذين يُريدونَ أَنْ يَتَحَلَّلَ المسلمونَ من أَحْكامِ الشَّريعةِ بِما يَتَعَلَّقُ بالمعامَلاتِ دَليلُهُم لا حُجَّةَ فِيهِ.

كذلك أيضًا بعض العلماء يقول: الربا حرام، إذا كان فيه ظلم، وأما إذا لم يكن فيه ظلم فليس حرامًا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ تُبْتِغُوا فَتَكُمُ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، إذن المسألة راجعة إلى الظلم، فإذا لم يكن ظلم فلا بأس. ثم يقول: يجوز الربا الاستثماري دون الربا الاستغلالي. فقسم الربا إلى نوعين: استثماري، ويقول فيه: هذا جائز. واستغلالي يقول فيه: هذا حرام.

ومثال الاستثماري - كما يقول - أن يكون هناك رجل عامل جيد، أو زارع جيد، أو صانع جيد، لكن لا يملك المال، فيأتي إلى رجل غني عنده مال كثير، ولكن لا يتعرف صنعة من هذه، فيقول: أعطني مليون ريال بمليون ومئة ألف. ثم يأخذ هذا المال ويشتري به معدات ليصنع ويُنْتِج، أو حراثات ليزرع ويُنتج.

وهكذا يستثمر بهال هذا الغني ويستفيد هو ويستفيد الشعب ما يُنتج، وسوف يزداد المليون بزيادة مئة ألف فقط، وهذا ربا جائز، فهذه مصلحة لأكبر الربا وموكل الربا، والربا المحرم هو الذي يشتمل على الظلم.

هكذا يلبس هذا العالم على الناس، فإذا جاء هذا العالم بأساليب بيانية بليغة، وقدمها للحاكم، والحاكم من الناس الذين لا يعرفون عن الشرع شيئًا، فسوف يقول: هذا صواب، هذا حسن، هذا هو العالم الذي علمه يوافق المعقول، ويوافق الواقع.

ولكن هذا التفسير باطل من أصله، وأضرب لكم مثلاً يدل على بطلانه، أتى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بتمر جيد، فقال: «مِنْ أَيْنَ هَذَا؟» قالوا:

كُنَّا نَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعِينَ مِنَ الرَّدِيِّ، وَالصَّاعِينَ مِنْ هَذَا بِثَلَاثَةِ مِنَ الرَّدِيِّ، فَقَالَ: «أَوْهَ عَيْنُ الرَّبَا»^(١). فَرَدَّهٗ.

هذه الصورة في ظاهرها ليس فيها ظلم إطلاقاً، يَشْتَرُونَ التَّمَرَ الطَّيِّبَ الصَّاعَ بِالصَّاعِينَ مِنَ الرَّدِيِّ، وَالْقِيَمَةُ وَاحِدَةٌ، فَمَثَلًا صَاعَانِ مِنَ الرَّدِيِّ يُسَاوِي رِيَالَيْنِ، وَصَاعٌ مِنَ الطَّيِّبِ يُسَاوِي رِيَالَيْنِ، إِذَنْ لَيْسَ فِيهِ ظُلْمٌ أَبَدًا، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ عَيْنُ الرَّبَا». وتَأَوَّه منه، وأمر برده، وإفساد البيع، فمن أين قَسَمَ هذا الرَّجُلُ الرَّبَا إِلَى قِسْمَيْنِ: استغلالي واستثماري، الاستغلالي حرام، والاستثماري حلال؟!!

المهم أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ والجواب: بلى بالإجماع، وعلى هذا يَتَبَيَّنُ أَنَّ جَمِيعَ الْأَنْظِمَةِ وَالْقَوَانِينِ الْمُخَالَفَةِ لِلشَّرِيعَةِ بَاطِلَةٌ؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ حُكْمُ اللَّهِ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].



(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، رقم (٢٢٠١)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب بيع الطعام مثلاً بمثل، رقم (١٥٩٤).

الدرس الرابع:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالزَّيْتُونِ ۝ وَالنِّينِ ۝ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣] أربعة أشياء أقسم الله تبارك وتعالى بها، فالواو هنا للقسم، والتين: فاكهة معروفة، والزيتون كذلك، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هذا هو طور سيناء كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٌ لِّلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ المشار إليه مكة، فهذا البلد أمينٌ في كل الأحوال، أمينٌ في حقوق بني آدم، فلا يحلُّ لمسلم أَنْ يَسْفِكَ فِيهِ دَمًا إِلَّا مَا كَانَ قِصَاصًا مِنْ قَاتِلٍ فِي هَذَا الْبَلَدِ، فهذا لَا بُدَّ مِنْ تَنْفِيزِ الْقِصَاصِ فِيهِ.

أمينٌ في الحيوان غير الإنسان، فلا يُنْقَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يُقْتَلُ، لو وجدت حمامة في الطريق فليس لك أَنْ تَنْفُضَ ثوبَكَ عَلَيْهَا حَتَّى تَطِيرَ بِلَدْعِهَا، فَإِنْ طَارَتْ بِمُرُورِكَ فَلَا شَيْءَ عَلَيْكَ، لَكِنْ أَنْ تَقْصِدَ تَنْفِيرَهَا فَهَذَا حَرَامٌ عَلَيْكَ؛ لِأَنَّ هَذَا الْبَلَدَ آمِنٌ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

بل الأشجارُ في هذا الحرمِ آمنةٌ، لا يحلُّ لأحدٍ في مكةَ وحرمِها أنْ يعْضُدَ شجرةً، أو يكسرَ غصناً، لأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حرم ذلك^(١)، وهذا من تمام الأمانة.

أمينٌ في الأموالِ، فلا يحلُّ لأحدٍ أنْ يجدَ لُقْطَةً في مكةَ أو حرمِها فيأخذها، إلا إذا أخذها لينشدها مدى الحياة، لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحِلُّ سَاقِطُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ»^(٢). فعلى هذا لو وجدتَ مئةَ ريالٍ في مكةَ فلا تأخذها إلا إذا كنتَ تريدُ أنْ تنشدها مدى الحياة، وغير مكةَ إذا وجدتَ لُقْطَةً تنشدها لمدة سنة، فإن جاء صاحبُها، وإلا فهي لك، أما مكةَ فلتبقى مُنشداً لها، وإذا مُتَّ فأوصِ ورثتك أنْ ينشدها، وإذا مات ورثتك يوصون كذلك.

فإذا قال قائل: هذا فيه مشقة. نقول: دَعُها. فإن قال: أخشى إن تركتها أنْ يأخذها مَنْ يأكلُها. فالجواب: افعلْ ما أُمِرتَ به، وإذا فعل ذلك أحدٌ بعدك فلا حرجَ عليك منه.

لكن هنا مخرج، وهو أنك إذا وجدتَ لُقْطَةً في مَكَّةَ أو حرمِها فإنك تدفعها إلى الجهاتِ المسؤولةِ عن الضائع، وتبرأ بذلك ذمتك، فما كان في الحرم، أو حوله

(١) لحديث: «حَرَّمَ اللهُ مَكَّةَ فَلَمْ يَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا لِأَحَدٍ بَعْدِي، أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، لَا يُجْتَلَى خَلَاها وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُها، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُها، وَلَا تُلْقَطُ لُقْطُها إِلَّا لِمُعْرِفٍ». أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الإذخر والحشيش في القبر، رقم (١٢٨٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلالها وشجرها ولقطنها إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، رقم (٢٣٠٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلالها وشجرها ولقطنها، إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

يعني في المسجد هذا أو حوله، فهناك مكانٌ في جانبِ المسجدِ مكتوبٌ عليه (المفقودات) فَأَعْطَاهُمْ وَتَبَرَّأَ ذِمَّتُكَ، وَإِنْ كَانَ لَيْسَ حَوْلَ الْمَسْجِدِ فَاَلْمَحْكَمَةُ الشَّرْعِيَّةُ هي التي تتولى ذلك، فَأَعْطَاهُ الْمَحْكَمَةُ لِتَسْلَمَ مِنْ إِثْمِهِ.

هذا البلدُ آمينٌ من كلِّ طاغيةٍ، فلا يَقْدِرُ عليه أحدٌ حتى في حال الجاهلية لم يَقْدِرْ عليه أَبْرَهَةُ مَلِكُ الْيَمَنِ الذي جاء بِفِيْلِهِ وَجُنُودِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَهْدِمَ الْكَعْبَةَ، مَنَعَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ ذَلِكَ، وَكَانَ سَبَبُ هَذَا أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ اتَّخَذَ كَعْبَةً فِي الْيَمَنِ لِيُحْجَّ النَّاسُ إِلَيْهَا ارْتِزَاقًا، يَرِيدُ أَنْ يَأْتِيَ النَّاسَ إِلَيْهِ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ قَرِيْشٍ وَتَغَوَّطَ فِيهَا إِهَانَةً لَهَا؛ لِأَنَّ الْكَعْبَةَ الَّتِي تُحْجُّ وَتُقَصَّدُ هِيَ هَذِهِ الْكَعْبَةُ، فَتَغَيَّظَ الْمَلِكُ وَقَالَ: لَا أَهْدِمَنَّ هَذِهِ الْكَعْبَةَ. يَعْنِي هَذِهِ الْكَعْبَةُ الْمُعَظَّمَةُ، فَأَتَى بِجُنُودِهِ وَفِيْلِهِ الْعَظِيمِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَمَاهَا، لَمَّا اقْتَرَبُوا مِنْ مَكَّةَ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ۖ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ۖ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٣-٥]

وفي هذا يقول أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ^(١):

حَبَسَ الْفِيلَ بِالْمُغَمَّسِ حَتَّى ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورٌ

فَقَوْلُهُ: «حَبَسَ الْفِيلَ» يَعْنِي حَبَسَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَحَمَاهَا، وَهَذَا مِنْ أَمْنِهِ.

عِنْدَنَا أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهَا هِيَ: التِّينَ، وَالزَّيْتُونَ، وَطُورَ سِينِينَ، وَهَذَا الْبَلَدُ الْآمِنُ، الْمَقْسَمُ عَلَيْهِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ فِي صُورَتِهِ الظَّاهِرَةِ، وَفِي صُورَتِهِ الْبَاطِنَةِ، فِي

(١) تاج العروس، مادة: غمس.

فطرته المستقيمة، فكل ما يُمكنُ أَنْ يَكُونَ تقويًا خلقه الله في أحسن تقويم، ولَهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ مَا عَرَّفَكَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ ۖ﴾ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿[الانفطار: ٦-٨]﴾، فالإنسان -والحمد لله- يَقِفُ على قَدَمَيْهِ وَقُوفًا مُتَزِنًا كَأَنَّمَا وَقَفَ على ثَلَاثٍ أو أَرْبَعَةٍ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانِ لَا يُمكنُ أَنْ يَقِفَ هذا الموقِفَ.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هو في الشكل الظاهر والباطن.

ثم بعد هذه الخِلْقَةُ ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥] رَدَدْنَاهُ بَعْدَ هذا التقويم ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ وَالسَّفْلُ نَقْصٌ، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] يعني فلم تَرُدُّهُمْ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، بل لهم ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين آمنوا بما يَجِبُ الإيمانُ به، والذي يَجِبُ الإيمانُ به ذَكَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لجبريل حين سألَهُ عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ، ولا يكونُ الْعَمَلُ صَالِحًا إِلَّا إِذَا كَانَ مَبْنِيًّا على أمرين، أو إذا كان مشتملاً على أمرين: هما الإخلاصُ لله، والمتابعةُ لرسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩).

أركانُ الإيمان:

الإيمان هو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

أولاً: الإيمان بالله:

أما الإيمان بالله عزَّ وجلَّ فهو يتضمن أربعة أشياء:

الأول: أن تؤمن بوجوده عزَّ وجلَّ، وأنه هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

الثاني: أن تؤمن بتوحيده في الربوبية، يعني توحّد الله في الربوبية بأن تعتقد أنه لا خالق، ولا مالك، ولا مدبر للخلق إلا الله.

الثالث: أن تؤمن بتوحيده في الألوهية، بأن تؤمن وتعتقد أنه لا معبود حق إلا الله.

الرابع: أن تؤمن بتوحيده بالأسماء والصفات، بمعنى أن تؤمن بأن الله تعالى لا مثل له في صفاته ولا في أسمائه.

وبالنسبة للإيمان بوجود الله فهناك من أنكر وجود الله، لكن إنكاره عن جحود واستكبار، وليس عن اقتناع، قال الله عزَّ وجلَّ في فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وظُلُومًا﴾ [النمل: ١٤]، لأنه ما من إنسان عاقل -فضلاً عن مؤمن- يُنكر وجود الله أبداً، نقول مثلاً: من خلق السموات والأرض والشمس

وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالسَّحَابَ وَالْأَنْهَارَ وَالْجِبَالَ وَالرَّمَالَ؟ كُلُّ يَقُولُ: اللَّهُ. وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ أَحَدًا خَلَقَهَا سِوَى اللَّهِ.

إِذْنًا، لَا أَحَدٌ يُنْكِرُ وَجُودَ اللَّهِ إِلَّا رَجُلٌ مُكَابِرٌ وَمُعَانِدٌ وَجَاحِدٌ اسْتِكْبَارًا كَمَا حَصَلَ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ.

ولهذا قال موسى ﷺ لفرعونَ وَهُوَ يُجَاوِرُهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] اللهُ أَكْبَرُ! يُخَاطِبُ هَذَا الرَّجُلَ الْعَنِيدَ بِهَذَا الْخُطَابِ الْغَلِيظِ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ فَهَؤُلَاءِ الرِّجَالُ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ فَلَمْ يَقُلْ فِرْعَوْنُ: لَمْ أَعْلَمْ، بَلْ أَقَرَّ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ لَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ: ﴿ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

فهذا الرجلُ الْكَافِرُ الْعَنِيدُ الَّذِي يُقَتِّلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْآنَ أَصْبَحَ تَبَعًا لَهُمْ، مَا قَالَ: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، بَلْ قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ فَكَانَ آخِرَ حَيَاتِهِ أَنْ صَارَ تَبَعًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿ءَاكُنْ﴾ تَقُولُ هَكَذَا ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٩١ فَالْيَوْمَ تُنَجِّيكَ يَدُنَا لِيَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً ﴿[يونس: ٩١-٩٢] لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ لَمْ يَشَاهِدُوا بَدَنَهُ طَافِيًا عَلَى الْمَاءِ لَصَارَتْ عِنْدَهُمْ شُكُوكٌ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ قَدْ أَرْعَبَهُمْ: هَلْ غَرِقَ أَوْ مَا غَرِقَ؟ فِإِذَا شَاهَدُوهُ اقْتَنَعُوا.

أَمَّا الْإِيْمَانُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي أَلُوْهِيَّتِهِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَي:

الذين يُلَوِّذُونَ بِالْقُبُورِ، وَيَسْتَجِيرُونَ بِهِمْ وَيَدْعُونَهُمْ وَيَعْبُدُونَهُمْ، دَعَّاهُمْ عَنْكَ، إِنَّ ذَلِكَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا.

الأمرُ الرابعُ مِنَ الإِيْمَانِ بِاللَّهِ: الإِيْمَانُ بِتَوْحِيدِهِ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَأَنْ تُثَبِّتَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ كُلَّ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، أَوْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ، أَثْبَتَهُ كَمَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ، لَا تُحَرِّفْ وَلَا تُثَمِّلْ.

لِلَّهِ تَعَالَى سَمْعٌ وَاسِعٌ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] فهذه امرأةٌ ظاهراً منها زوجها بعد أن بلغت مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، وجاءها أولاد، فقال لها يوماً: أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي. والظَّهَارُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِرَاقُ بَائِنٍ، فَمَا عَادَتْ تُحِلُّ لَهُ إِطْلَاقًا، فجاءت هذه المرأةُ تَشْتَكِي إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتُحَاوِرُهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، يَسْمَعُ تَحَاوُرَهُمَا، وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ فِي الْحُجْرَةِ، وَيَخْفَى عَلَيْهَا بَعْضُ حَدِيثِهَا، وَلِهَذَا قَالَتْ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي الْحُجْرَةِ -أَي: حُجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ- وَالْمَرْأَةُ تُجَادِلُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهَا، وَإِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ حَدِيثِهَا»^(١). وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ سَمِعَ قَوْلَهَا الَّذِي تُجَادِلُ بِهِ، وَسَمِعَ التَّحَاوُرَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ سَمْعِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

إِذَا آمَنْتَ بِهَذَا فَلَا تُسْمِعْ رَبَّكَ عَزَّوَجَلَّ مَا لَا يَرْضَاهُ؛ لِأَنَّهُ يَسْمَعُهُ، فَكَلَامُ الْإِنْسَانِ مَعَ أَهْلِهِ يَسْمَعُهُ اللَّهُ، وَكَلَامُهُ مَعَ صَدِيقِهِ يَسْمَعُهُ اللَّهُ، فَاحْذَرِ أَنْ تُسْمِعَ رَبَّكَ مَا لَا يَرْضَاهُ عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه أحمد (٤٦/٦)، رقم (٢٤٦٩٩).

عِلْمُ اللَّهِ ثَابِتٌ وَعَامٌّ لِلْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالْحَاضِرِ وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَمَا يَفْعَلُ
هُوَ بِنَفْسِهِ، وَمَا يَفْعَلُهُ الْعِبَادُ، وَوَاسِعٌ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ
رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ
يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِلْعُلَمَاءِ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾
[الطلاق: ١٢]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ
عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الماضي الذي وقع يعلمه الناس، فكلُّ ما وَقَعَ فِي وَقْتِهِمْ هَذَا لَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمُوهُ،
وَالْحَاضِرُ يَعْلَمُونَهُ، أَمَّا الْمُسْتَقْبَلُ فَلَا يَعْلَمُونَهُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وَمَا نَسْمَعُ عَنْ بَعْضِ الْكُفَّانِ، وَعَنْ بَعْضِ مَنْ لَا يُقَدِّرُونَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ مِنْ
أُمُورِ الْغَيْبِ الْمُسْتَقْبَلَةِ فَكُلُّهُ بَاطِلٌ، وَلَا يَجُوزُ تَصْدِيقُهُ، وَمَنْ صَدَّقَهُ فَهُوَ كَافِرٌ بِالْقُرْآنِ؛
لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ أحيانًا فِي الصُّحُفِ بِأَن عُمَرَ الدُّنْيَا كَذَا وَكَذَا، أَوْ أَنَّهُ
سَيَحْضُلُ فِي الْيَوْمِ الْفُلَانِي كَذَا وَكَذَا، مَوْقِفُنَا نَحْوُهُمُ التَّكْذِيبُ وَجَوَابًا، وَلَا نُصَدِّقُهُمْ،
وَلَا نَشْكُ فِيهِمْ، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ فَقَدْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ، وَمَنْ شَكَّ فِي ذَلِكَ فَقَدْ كَفَرَ
بِالْقُرْآنِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ نُكْذِّبَهُمْ، وَأَنْ نَضْرِبَ هَذَا التَّكْذِيبَ عَلَى وَجْهِهِمْ، كَذَبُوا ثُمَّ
كَذَبُوا ثُمَّ كَذَبُوا، ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

يُوجَدُ أَنَاسٌ يَقُولُونَ: أَنْتَ وُلِدْتَ فِي النَّجْمِ الْفُلَانِي، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حَيَاتَكَ

حياة نحس. نقول: كذبتُم ثم كذبتُم ثم كذبتُم.

وآخر يقول: هذا ولد في نوء سعد السعد - وسعد السعد هذا أحد النجوم المعروفة - فيقولون: ما شاء الله حياته سعيدة. فنقول: هذا كذب.

وآخر يقول: هذا ولد في سعد بلع، هذا يريد أن يبلع الدنيا كلها؛ لأنه ولد في سعد بلع. نقول: كذب، ثم كذب.

فيا أهل الإسلام، اذخروا هؤلاء، لا تصدقوهم، بل ولا تشكوا في أمرهم، فإنهم كذبة، لأنه ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

من صفات الله عز وجل أنه فعال لما يريد، كل ما أَرَادَهُ اللهُ عز وجل فهو قادرٌ على فعله، وفاعلٌ له، لا أحد يمنعُه مما أَرَادَ، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿[البروج: ١٢-١٦]، وقال عز وجل: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فهو الفاعل لما يريد، ولنضرب لهذا أمثلة:

١ على العرش فعلٌ يفعله الله عز وجل، وهو علوه على العرش علواً يليقُ بجلاله وعظمته، ولا يُماثل استواء المخلوق على المخلوق، فنؤمن بأن الله استوى على العرش حقيقة، وليس المعنى استولى؛ لأن معنى الاستيلاء عدوانٌ على النص من وجهين:

الأول: أنه صرفٌ عن ظاهره.

والثاني: أنه أثبت له معنى لا يدل عليه.

قال الله عز وجل ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴿[الزخرف: ١٢-١٣] وَمَعْنَى ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أَي: تَعْلُونَ عَلَيْهِ، فقولهُ تعالى: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] أَي: علا على العرش حقاً، ولا يجوز أن تُفسره بـ (استوى) لأن هذا - كما قلت لكم - جناية على القرآن.

نؤمن أيضاً بأن الله تبارك وتعالى على كل شيء قدير، وأن الله تعالى لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كُن. فيكون.

ولنضرب هذا المثل: البعث يوم القيامة: فهو - سبحانه - الذي يبعث كل الخلائق بكلمة (كن) بدون تكرار، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال الله عز وجل: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] صيحة واحدة صيح بهم أن اخرجوا ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ و(إذا) هنا فجائية، والمعنى أنه حصل الاجتماع في لحظة.

وقال عز وجل في سورة النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤] أي على وجه الأرض.

فيجب أن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو على السنة رُسليه، لكن بدون تمثيل، نعلم أن الله لا مثل له عز وجل لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

ثانيًا: الإيمان بالملائكة:

الملائكة هُم خَلْقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ غَيْبِيٌّ، وَقَدْ يُشَاهَدُ، لَكِنَّ الْأَصْلَ أَنَّهُ غَيْبِيٌّ، خَلَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نُورٍ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ بُطُونًا، بَلْ هُمْ لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ، وَإِنَّمَا وَظِيفَتُهُمُ الْقِيَامُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّعْظِيمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ أَقْوِيَاءُ أَشِدَّاءُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي مَلَائِكَةِ النَّارِ: ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتٌ غَلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]. أَي هُمْ قَادِرُونَ عَلَى تَنْفِيزِهِ، وَلَا يَتَأَخَّرُونَ، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ①٩ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: ١٩-٢٠].

هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَصَالِحِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ②١٦ إِذْ يَنْفَقُ الْمُرْسَلُونَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿[ق: ١٦-١٧] هَؤُلَاءِ عِنْدَكَ يَكْتُبُونَ كُلَّ مَا تَقُولُ، وَكُلَّ مَا تَفْعَلُ لئَلَّا يَضِيعَ.

وَجَعَلَ اللَّهُ لَكَ مَلَائِكَةً يَحْفَظُونَكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ غَيْرِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وَيُوجَدُ مَلَائِكَةُ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

هَمْ مُسَخَّرُونَ لَكَ يُقَاتِلُونَ مَعَكَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ

أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ [الأنفال: ١٢]. فالملائكة تُقاتل معك.

إذن، هم مُسَخَّرُونَ لك، وهم ملائكة كرام عند الله عَزَّوَجَلَّ.

ثالثاً: الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله:

والإيمان بالكتب: أي نُؤْمِنُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنزَلَ عَلَى كُلِّ رَسُولٍ كِتَابًا، أَوَّلَهُم نُوحٌ، فَكُلُّ رَسُولٍ أَنزَلَ اللهُ عَلَيْهِ كِتَابًا، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

والكتب المعلومة لنا هي التوراة، والإنجيل، والزبور، وصُحُف إبراهيم، وصُحُف موسى، والقرآن الكريم، وأعظمها وأشرفها والذي له السيطرة والسلطة القرآن الكريم، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] فَالْهَيْمَةُ: السَّيْطَرَةُ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَحْكُمُ عَلَى الْكِتَابِ السَّابِقَةِ، وَلَا تَحْكُمُ عَلَيْهِ، كُلُّ الْكِتَابِ السَّابِقَةِ مَنْسُوخَةٌ لَا يَدِينُ بِهَا أَحَدٌ عِنْدَ اللهِ أَبَدًا، وَمَنْ دَانَ بِهَا فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَلَا يَنْفَعُهُ التَّدِينُ بِهَا، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْكِتَابَ - غَيْرَ الْقُرْآنِ - لَا يَنْفَعُ التَّدِينُ لِهَذَا قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وَلِهَذَا خَسِرَ

مَنْ حَاوَلَ أَنْ يُقَرِّبَ بَيْنَ الْأَدْيَانِ؛ لِأَنَّ هَذَا الَّذِي يَحَاوِلُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُقَرِّبَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَبَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ، وَهَذَا إِنْ كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ تَبْقَى الْجُمُرَةُ فِي وَسْطِ الْمَاءِ فَهَذَا مُمْكِنٌ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَبْقَى الْجُمُرَةُ فِي وَسْطِ الْمَاءِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ^(١):

إِذَا شَابَ الْغُرَابُ لَقِيتُ أَهْلِي وَصَارَ الْقَارُ كَاللَّبَنِ الْحَلِيبِ

هَذَا وَعَدَ أَهْلَهُ بِأَنَّهُ سَيَأْتِي إِلَيْهِمْ إِذَا شَابَ الْغُرَابُ، وَالْغُرَابُ لَا يَشِيبُ، يَظَلُّ أَسْوَدَ، وَصَارَ الْقَارُ كَاللَّبَنِ الْحَلِيبِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْقَارُ الْأَسْوَدُ كَاللَّبَنِ.

أَقُولُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَلُّوا وَانْخَنَعُوا أَمَامَ الدُّوَلِ الْكَافِرَةِ يَرِيدُونَ أَنْ يُقَارِبُوا بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْكَفْرِ، قَبَّحَ اللَّهُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ، فَإِنَّهَا فِكْرَةُ الْحَادِ، فِكْرَةٌ تَقْتَضِي أَنْ لَا دِينَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا حَاوَلْنَا أَنْ نُقَرِّبَ بَيْنَ الْأَدْيَانِ الثَّلَاثَةِ - كَمَا يَزْعُمُونَ - جَاءَتِ الْأَدْيَانُ الْأُخْرَى فَقَالَتْ: نَحْنُ مَعَكُمْ قَرَّبُوا. وَهَذِهِ الْمَحَاوَلَةُ مُحَاوَلَةٌ كُفْرِيَّةٌ وَثَنِيَّةٌ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذِي أَمَرْنَا بِالتَّائِسِي بِهِ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤]، فَنَحْنُ نَقُولُ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾.

نَحْنُ لَنْ نَدْعُوَكُمْ أَنْ تَتَّبِعُونَا، بَلْ نَدْعُوَكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ

الْكُتُبِ، وَجَمِيعِ الْكُتُبِ مَنْسُوخَةٌ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

أيها المسلمون لا تَتَّخِذُوا بِهِذِهِ الْأَفْكَارِ الْبَاطِلَةِ الْمُنْحَرِفَةِ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تُفْتَتَ دِينَكُمْ، وَأَنْ تُؤْهِنَ قُوتَكُمْ، دَعُوا هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَإِنَّهُمْ وَاللَّهِ مَا دَعَوْا إِلَّا إِلَى الْكُفْرِ، سُبْحَانَ اللَّهِ! رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ الَّذِي يُشَرِّعُ مَا يَشَاءُ، وَيَنْسَخُ مَا يَشَاءُ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ونحن نقول: قَرَّبْ لَنَا الْأَدْيَانَ؟! ويقول: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، ونحن نقول: نَتَّخِذُهُمْ أَوْلِيَاءَ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

الْإِيمَانُ بِالْكِتَابِ أَنْ تُؤْمِنَ بِكُلِّ كِتَابٍ عَلِمْتَهُ، لَكِنْ لَا تَتَّبِعْهُ اللَّهُ بِهِ، الْكِتَابُ الَّتِي نَعْرِفُهَا الْآنَ هِيَ التَّوْرَةُ، وَالْإِنْجِيلُ، وَالزَّبُورُ، وَصُحُفُ إِبْرَاهِيمَ، وَصُحُفُ مُوسَى، نُوْمِنُ بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَكِنْ هُنَا سَوَالٌ: هَلِ التَّوْرَةُ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِي الْيَهُودِ الْيَوْمَ هِيَ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى مُوسَى؟ لَا، بَلْ مُحَرَّفَةٌ مُبَدَّلَةٌ مُغَيَّرَةٌ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

الْإِنْجِيلُ الَّذِي فِي أَيْدِي النَّصَارَى هَلْ هُوَ الْإِنْجِيلُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى عِيسَى؟ لَا، بَلْ مُحَرَّفٌ وَمُبَدَّلٌ، هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ دِينِ عِيسَى أَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ؟! لَا أَبَدًا، عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَغَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ إِنَّمَا جَاءَ لِلدَّعْوَةِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَإِنْكَارِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ إِلَهٌ آخَرُ سِوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلِهَذَا يَقُولُ اللَّهُ لِعِيسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فَمَاذَا يُجِيبُ ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ تَنْزِيهًا لَكَ أَنْ أَدْعُو هَذِهِ الدَّعْوَةَ ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ

فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿[المائدة: ١١٦-١١٧].

فهذا كلام عيسى ﷺ الذي يدعي هؤلاء النصارى أنهم تابعون له، وكذبوا، ثم كذبوا، ثم كذبوا.

والله لو آمنوا بعيسى لآمنوا بمحمد ﷺ لأن عيسى بشر بمحمد قال لبي إسرائيل: ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ يعني فآمنوا بها ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ يعني فآمنوا به واقبلوا هذه البشرى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي الرسول الذي بشر به عيسى لما جاءهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

الذين آتاهم الله الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما يعرفون أبناءهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] لأن صفة موجوده في التوراة والإنجيل ولكن ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فلا تنخدع بهذه الدعايات المهزوزة المهزولة الانهزامية، فإنها - والله - باطلة، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نُقَرِّبَ بَيْنَ أَدْيَانٍ فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهَا وَنَسَخَهَا بهذا الدين، الإيمان بالكتب بأن نؤمن بأن الله عز وجل أنزل على كل رسول كتابا.

رابعا: الإيمان بالرسل:

كذلك نؤمن بالرسل الذين أرسلهم الله عز وجل، والله تبارك وتعالى أرسل إلى كل

قرية نذيراً، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

إذن، لم يقص الله علينا قصص كل الرسل، فقص بعضنا علينا، وبعضها لم يقصص.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [١٦٣] ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [١٦٤] ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [١٦٤] ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [١٦٥] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

فأمن بهؤلاء الرسل المسمين الذين سمّاهم الله، فلا بُدَّ أن تؤمن بهم بأعيانهم، وأما الذين لم يُسموا فأمن بهم إجمالاً.

خامساً: الإيمان باليوم الآخر:

اليوم الآخر يوم القيامة، وسمي آخرًا لأنه لا يوم بعده، هو مُنتهى كل شيء لا يوم بعده، إذ إنَّ الناس في هذا اليوم يأوون إمّا إلى الجنة -اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين- وإمّا إلى النار، ويُنْتَهِي كُلُّ شَيْءٍ، يُخَلَّدُ أَهْلُ النَّارِ فِيهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ، وَيُخَلَّدُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ، هذا اليوم هو اليوم الآخر.

وأما ما نقرؤه من بعض الكتاب، إذا مات الإنسان قالوا: إنه دُفِنَ إِلَى مَثْوَاهُ

الأخير. فهذه كلمة عظيمة جدًا، لأن الذي يسمعها يظن أن المتتهى القبر، وأنه لا بعث، فهذه الكلمة مضمونها خطرٌ جدًا، فالقبر ليس المثنوى الأخير، إنما القبر مزار، قال تعالى: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿ [التكاثر: ١-٨]

فالزائر سيرحل، ولهذا سمع أعرابيُّ رجلًا يقرأ: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿ فقال هذا الأعرابي بسليقته وطبيعته: إِنَّ الزَّائِرَ سَيَرْحَلُ مِنْ مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ^(١). الأعرابُ أحيانًا يفهمون ما لا يفهمه المقيمون.

قرأ رجل قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ ثم ختمها بقوله: وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، فقال أعرابيُّ: اقرأ الآية، هذا غلطٌ، فقرأها القارئ وأعادها كما قرأها، قال له: لا يُمكن، اقرأ. فقرأ الثالثة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] قال الأعرابيُّ: الآن قرأتها قراءةً صحيحةً، لأن الله تعالى لو غفر وَرَحِمَ مَا قَطَعَ، وَلَمَّا عَزَّ وَحَكَمَ قَطَعَ. سُبْحَانَ اللهِ! فَهَمْ عَجِيبٌ، اللهُ أَكْبَرُ.

فاليوم الآخر هو يومُ القيامة، يوم يخرجُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرُلَا»^(٢). الحُفَاة: لَيْسَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ نِعَالٌ، العُرَاة: لَيْسَ

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

على أجسامهم لباس، الغزل: يعني أنهم غير محتوين، والختان هو أخذ القلفة التي على الحشفة، هذه القلفة أخذها من الفطرة، لأن الذين لا يَحْتَتُونَ يجدون صعوبة في الجماع ويفقدون اللذة هم ونسائهم، فإذا كان يوم القيامة، وبُعث الناس تَعُودُ هذه القلفة، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وفي رواية لَيْسَتْ في الصحيحين: «بُهِمَا»^(١)، يعني يُبعثون بُهِمَا، قال العلماء: أي لَيْسَ لهم مال؛ لأنهم خَرَجُوا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ لَيْسَ معهم مال.

هذا اليومُ يَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ بأنه كائنٌ لا محالة، ولولا أنه كائنٌ لا محالة لكانت حياتنا الدنيا لعباً ولهواً وعبثاً، ولولا أَنَّ الإنسانَ يُؤْمِنُ بأن هناك يوماً يُبعثُ فيه الناسُ ويُجَازَوْنَ بأعمالهم لماتَ غمًا، يجدُ أمامه رجلاً قد أَنْعَمَ اللهُ عليه في الدنيا بجميع أنواع النعم وهو فقيرٌ، لكن إذا عَلِمَ أن هناك يوماً آخِرَ اطمأنَّ وقال: لَعَلِّي أُسَبِّقُ هذا التاجر، لأن الناسَ يُجَازَوْنَ يومَ القيامةِ على قَدْرِ أعمالهم.

وفي اليومِ الآخرِ صُحُفٌ مكتوبٌ فيها الأعمالُ، يُعْطَى كُلُّ إنسانٍ كِتَابُهُ ويقال له: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، قال بعضُ السلف: «لَقَدْ أَنْصَفَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبًا عَلَىٰ نَفْسِكَ بِعَمَلِكَ»^(٢). يعني حاسِبُ نَفْسِكَ، هذا كتابٌ مكتوبٌ مُحَقَّقٌ، ما فيه زيادةٌ ولا نقصٌ، فاقْرَأْ.

في هذا اليوم أيضاً الموازين، تُوزَنُ الأعمالُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥، رقم ١٦٠٨٥)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١/ ١٣٣) قال الهيثمي:

فيه عبد الله بن محمد ضعيف. والحاكم (٢/ ٤٧٥، رقم ٣٦٣٨) وقال: صحيح الإسناد. والضياء

(٩/ ٢٥ رقم ١٠). وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (ص: ٣٣٧، رقم ٩٧٠).

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٥٤٥، رقم ١٥٦٣).

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]
 وقال النبي ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).

وفي يوم القيامة الصراطُ، يَعْبُرُ النَّاسُ بِهِ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سَرِيعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ بَطِيئًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَدِّشُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُكَرِّدُسُ فِي النَّارِ^(٢)، والعياذُ بالله.

في ذلك اليوم تدنو الشمسُ على الخلائقِ حتى تكونَ على الرؤوسِ قَدَرِ المِيلِ^(٣)، ولا ينجو من ذلك إلا مَنْ أَظْلَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، منهم: «الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابُّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، ففَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(٤).

اللَّهُمَّ أَظِلَّنَا فِي ظِلِّكَ، اللَّهُمَّ أَظِلَّنَا فِي ظِلِّكَ، اللَّهُمَّ أَظِلَّنَا فِي ظِلِّكَ يَوْمَ لَا ظِلَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَنَضَعُ الْمَوَزِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن، رقم (٧١٢٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤).

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٨٤، رقم ١٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، رقم (٢٨٦٤).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

إِلَّا ظِلُّكَ، يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، ارْزُقْنَا الْإِخْلَاصَ لَوَجْهِكَ، وَالِاتِّبَاعَ لِرَسُولِكَ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا إِخْلَاصًا لَا شَرِكَ مَعَهُ، وَإِيمَانًا لَا كُفْرَ مَعَهُ، وَيَقِينًا لَا شَكَّ مَعَهُ، وَاتِّبَاعًا لَا ابْتِدَاعَ مَعَهُ، اللَّهُمَّ حَقِّقْ لَنَا الْإِيمَانَ، وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهِهِ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ.

ومما يدخلُ في الإيمانِ باليومِ الآخرِ مَا يَكُونُ فِي الْقَبْرِ، فالإنسانُ إذا خَرَجَتْ رُوحُهُ فِي الدُّنْيَا انْتَقَلَتْ فُورًا إِلَى عَالَمِ الْآخِرَةِ، وَيَكُونُ فِي الْبَرْزَخِ سَوَالٌ وَجَوَابٌ، يُسْأَلُ الْمَرْءُ عَنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فيقولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ -اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ- وَأَمَّا الْمُنَافِقُ الْمُرْتَابُ فيقولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَذْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ^(١).

نَعُودُ بِاللَّهِ، مَا دَخَلَ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، إِنَّمَا يَسْمَعُ فيقولُ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَى قَلْبِهِ، ثُمَّ يَنْعَمُ الْأَوَّلُ، وَيُعَذِّبُ الثَّانِي، إِنَّهُ لِيَأْتِيَهُ هَذَانِ الْمَلَكَانِ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِ الْمُسَيِّعِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا لِتَشْيِيعِهِ وَدَفْنِهِ إِذَا انْصَرَفُوا.

ولهذا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا فَرَّغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ قَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»^(٢).



(١) أخرجه أحمد (٢٨٧/٤، رقم ١٨٥٥٧)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت، رقم (٣٢٢١).

الدرس الخامس:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالَّذِينَ وَالِيتُونَ ١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ٢ ﴿وَهَذَا أَلْبَدَ الْأَمِينِ ٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦ ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿[التين: ١-٨].

والبسملَةُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي كَلَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهِيَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَهِيَ آيَةٌ مُسْتَقْلَةٌ لَيْسَتْ مِنَ الْفَاتِحَةِ وَلَا مِنْ غَيْرِ الْفَاتِحَةِ، وَلِذَلِكَ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرُويهِ عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْثُ ﴿١﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿٢﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٣﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٤﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ﴿٥﴾. ولم يذكر البسملة، فليست من الفاتحة.

ولهذا لم يكن النبي ﷺ يجهرُ بها في القراءة الجهرية؛ لأنها ليست من الفاتحة، ولو كانت منها لكان لها حكمها في الجهر بها في الصلاة الجهرية، وقد روي عنه ﷺ أنه جهر بها ^(١) لكن الأحاديث الكثيرة الصحيحة الصريحة تدلُّ على أنه لم يجهر بها، وإن جهر بها فهو قليل.

ويدلُّ لهذا أيضاً أنك إذا قسمت الصلاة بين الله وبين العبد تبين لك أن أول الفاتحة هي قوله: ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾:

قَالَ تَعَالَى: ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ فهذه لله، وقوله: ﴿٥﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْثُ ﴿٦﴾ بين العبد وبين ربه، وهي الآية الوسطى من سبع آيات، ثم قال: ﴿٧﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٨﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٩﴾ وهذه للعبد. فثلاث لله، وثلاث للعبد، والوسطى الرابعة بين العبد وبين ربه.

إذن، البسملة ليست من السورة التي بعدها، ولا من التي قبلها، لكنها آية

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب من رأى الجهر بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، رقم (٢٤٥) بلفظ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ بِـ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).

من كتاب الله يؤتى بها في أول كل سورة؛ إلا في سورة براءة.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ الواو عند أهل اللغة للقسم، وحروف القسم ثلاثة: الواو والباء والتاء، أما الواو فكثير، وأما الباء ففي مثل قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى﴾ [النحل: ٣٨]. الباء هنا للقسم.

وأما التاء ففي قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]. فالتاء هنا للقسم.

والتين هو الثمر المعروف، وهو فاكهة وقوت، وأقسم الله به لكثرة منافعه، وكذلك الزيتون هو أيضاً معروف، ويؤخذ منه الزيت الجيد الصافي، وأقسم الله به لكثرة منافعه.

قوله: ﴿وَطُورٍ سِينِينَ﴾ طور سنين هو جبل الطور، أي طور سيناء، الذي كلم الله منه موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ يعني مكة، و(هذا) اسم إشارة للقريب وليس للبعيد، ولهذا نقول: إن هذه السورة مكية؛ لأن الله أشار للبلد الذي نزلت فيه بإشارة القريب، فهي إذن مكية.

أقسم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالتين والزيتون، وهما في أرض الشام وفلسطين، وهي محل الرسالات، أكثر رسالات بني إسرائيل، وطور سنين وهو الجبل الذي أُرْسِلَ منه موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا البلد الأمين الذي أُرْسِلَ منه سيّد المرسلين

وخاتم النبیین محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وجعلني اللهُ وإياكم من أتباعه، اللهم اجعلنا من أتباعه ظاهراً وباطناً، اللهم توفنا على ملتته، اللهم احشُرنا في زمرته، اللهم اسقنا من حوضه، اللهم أَدْخِلْنَا في شفاعته، اللهم اجمعنا به في جنات النعيم مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، آمين.

ووصفَ اللهُ هذا البلدَ بأنه آمينٌ لأنه يأمنُ فيه كلُّ شيءٍ؛ فالآدميُّ آمِنٌ، والحيوانُ، والصيدُ آمِنٌ، والأشجارُ آمنةٌ، والحشائشُ آمنةٌ.

فالآدميُّ آمِنٌ: قال النبي ﷺ معلناً ذلك: «لا يحلُّ لامرئٍ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أنْ يسفِكَ بها دماً، ولا يعصِدَ بها شجرةً، فإنَّ أحدَ ترخصٍ لِقِتالِ رَسولِ اللهِ ﷺ فيها، فقولوا: إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ»^(١). فبقي هذا البلدُ آمناً.

وكذلك الصيدُ آمنةٌ، ولا يحلُّ لأحدٍ أن يصيدَ بها صيداً، بل ولا أن يُنفرَ الصيدَ بأن يزعجه حتى يطير، بل إذا رأيتَ حمامةً فإنك تمشي الهوينى حتى لا تطير وتنفَر؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا يُنفرُ صيدها»^(٢).

وإذا رأيتَ في مكةَ فأرةً فإنك تقتلُها وهي حيوانٌ، لكنها مؤذيةٌ من الفواسقِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب في اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، رقم (٢٤٣٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

وقد قال النبي ﷺ: «خَمْسٌ فَوَاسِقٌ، يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ: الْفَأْرَةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْحِدَاةُ، وَالْغُرَابُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»^(١).

إذن، فالمؤذي يُقتل حتى في الحرم؛ لدفع أذاه.

والحية إذا وجدتها في منى أو في مزدلفة فإنك تقتلها؛ لأنه إذا جاز قتل العقرب فقتل الحية من باب أولى، بل قد جاءت السنة بقتل الحية.

والأشجار في الحرم آمنة، ولا يحل للإنسان أن يكسر غصناً من شجرة، ولا أن يحط ورقة من شجرة؛ لأنها آمنة، حتى لو فرض أن الشجرة ذات أشواك فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا»^(٢). يعني: لا يُقطع شوكها.

والإنسان الذي يمشي وفي طريقه شجرة ذات أشواك لا يقطعها ويتنحى عنها يمينا أو شمالا، وتبقى هي آمنة.

وكذلك الحشائش والنبات الصغير في الأرض فهو آمن؛ لأن النبي ﷺ قال: «لَا يُخْتَلَى خَلَاهَا»^(٣). أي لا يُحش حشيشها.

إذن، كل شيء في البلد الأمين آمن؛ إنسان، وحيوان، وأشجار، وحشائش.

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب ما يقتل المحرم من الدواب، رقم (١٨٢٩)، ومسلم:

كتاب الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم، رقم (١١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل الحرم، رقم (١٥٨٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب

تحريم مكة وصيدها وخلوها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الإذخر والحشيش في القبر، رقم (١٣٤٩)، ومسلم: كتاب

الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلوها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٣).

وما أنبتة الإنسان؛ كرجلٍ غرس نخلةً، أو غرس برتقالةً، أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يحرم عليه قطعها؛ لأنها له، وإذا كانت له فهي ملكه، فله أن يقطع النخلة التي غرسها، وله أن يقلع الشجرة التي غرسها، وله أن يحصد الزرع الذي بذره؛ لأنه ملكه.

ولو أن إنساناً أتى بصيدٍ من خارج الحرم وأدخله الحرم فهل يحرم عليه ذبحه، أو لا يحرم؟ يعني: دخل بالصيد غير محرم إلى مكة، مثاله اصطاد أرنباً في عرفة ودخل بها إلى مكة، فهل يحرم عليه ذبح هذا الأرنب؟

نقول: اختلف العلماء على قولين؛ فمن العلماء من قال: إنه إذا دخل بالصيد في الحرم فهو آمن، فلا يجوز أن يذبحه. ومنهم من قال: إذا دخل بالصيد فهو ملكه يتصرف فيه بما شاء. وهذا القول هو القول الراجح؛ كما لو غرس شجرة، فالشجرة ملكه يفعل بها ما يشاء، كذلك إذا ملك صيداً خارج الحرم ودخل به الحرم فإنه ملكه، فله أن يذبحه.

ولو أن رجلاً محرماً خلع شجرة في عرفة وهو محرم فإن ذلك يجوز؛ لأن عرفة خارج الحرم، وأشجارها لا حرمة لها.

ولو أن رجلاً محلاً غير محرم قطع شجرة في مزدلفة فذلك حرام عليه؛ لأن مزدلفة من الحرم، والحرم آمن.

فتبين بهذا عظمة القسم بالبلد الأمين؛ لأن البلد أمين، وأهله مطمئنون. واللقطة يجدها الإنسان في مكة -وهي المأل الضائع- لا يجوز أن يأخذها

إلا إذا كان يريد أن ينشدها مدى الدهر، إلى يوم القيامة، فإذا مات أوصى أهله؛ قال: إني وجدت لقطعة في الحرم فاطلبوا أهلها؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا تحل ساقطتها إلا لمنشد»^(١)؛ إلا لإنسان يريد أن يعرفها.

واللُّقطة في غير مكة خذها وعرفها سنة، فإن جاء صاحبها وإلا فهي لك، لكن مكة لا، عرفها دائماً وإلا لا تأخذها.

فإذا أنا مثلاً مررت بهذه اللقطة وقلت: لا آخذها لأنني سأتعب، فمرّ آخر وقال مثلاً قلت: لا آخذ هذه اللقطة لأنه سوف يتعب، ومرّ الثالث ولم يأخذها لأنه يقول: لست مُنشدًا لأن ذلك يُتعبني، ومرّ عشرة أنفار، ومئة نفر ولم يأخذوها، فإنها تبقى في مكانها حتى يرجع إليها صاحبها.

حتى اللقطة الضائعة هي آمنة، فما بالكم بالذي يسرق الحجاج؟ نقول: يكون من كبائر الذنوب؛ إن النبي ﷺ رأى في النار رجلاً يسرق الحجاج بمحجنه^(٢). والمحجن: عصا منحنية الرأس، فإذا جلب المتاع وفطن له صاحبه قال: والله هذا المحجن تعلق به بغير إرادتي، وإن لم يفطن له أخذه. رآه النبي ﷺ يعذب في النار بمحجنه والعياذ بالله؛ لأنه يسرق به الحجاج، فالناس في جاهليتهم يخدمون الحجاج وهم في الجاهلية وفي الشرك ويقدمون لهم كل ما يسرهم، وهذا يأتي

(١) أخرجه البخاري: كتاب في اللقطة، باب كيف تعرف لقطعة أهل مكة، رقم (٢٤٣٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (٩٠٤).

يسرق الحجاج والعياذ بالله! فهذا الرجل قد فسق قلبه والعياذ بالله، ولا خوف عنده من الله، ولا رحمة له بالخلق، فلا رحمة بالمخلوق ولا خوف من الخالق.

إذن، فهذا البلد آمن.

والقسم لا بد فيه من: مُقسِم، ومقسَم به، ومقسَم عليه، وأداة قسم. وفي الآيات: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿فَالْمَقْسَمُ هو الله، والمقسم عليه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، والمقسم به: التين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين، وأداة القسم الواو.

فالمقسم عليه: أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، ولذلك لا يوجد في الحيوان شيء أحسن من خلقه الإنسان أبداً.

وهنا إشكال: القسم بغير الله غير جائز، فإذا أقسم بالنبى محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنه لا يجوز، فالقسم بغير الله لا يجوز، بل هو شرك، لكنه شرك أصغر، إلا أن يعتقد الحالف بأن للمحلف به من التعظيم مثل ما لله، فحينئذ يكون مشركاً شركاً أكبر.

وهنا قسم بالتين، وهو مخلوق، وكذلك الزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين، فكيف يُقسم بالمخلوق؟

الجواب: أن المقسم هو الله عَزَّوَجَلَّ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يحكم ما يريد، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فله أن يقسم بما شاء من خلقه، ولسنا الذين نحكم على الله، بل الله هو الذي يحكم علينا؛ أرايتم السجود لغير الله، فهو غير جائز، ألم تعلموا أن السجود لغير الله في وقت من الأوقات كان عبادةً، وتاركه كافر؟ أمر الله الملائكة أن

تسجدَ لآدمَ فسجدُوا إلا إبليسَ أبى واستكبرَ وكانَ مِنَ الكافرينَ، فالسجودُ لغيرِ الله صارَ عبادةً، وصارَ مَنْ لم يسجدَ هذا السجودَ الذي أمرَ الله به كافراً.

وقتلُ الولدِ حرامٌ ومنْ كبائرِ الذنوبِ، وفي يومٍ مِنَ الأيامِ كانَ قربةً وعبادةً، وهوَ قتلُ إبراهيمَ لابنِهِ إسماعيلَ، لكنْ لاحظُوا أنَ رحمةَ الله عزَّوجلَّ أدركتْ هذا الأمرَ، وتعلمونَ -يا إخواني- أنَ ابنَهُ هذا هوَ وحيدُهُ، وما لَهُ ابنٌ غيرُهُ، وأتاهُ على كبرٍ، والولدُ إذا كانَ واحداً وأتى والدُهُ على كبرٍ فإنه تكونُ منزلتُهُ في قلبِهِ منزلةً عظيمةً، قالَ إبراهيمُ لابنِهِ: ﴿بُنَيَّ﴾ نداءً بلطفٍ ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، ورؤيا الأنبياءِ حقٌّ ووحىٌّ، ولم يُرهِ الله عزَّوجلَّ أَنه يذبحُ ابنَهُ إلا لأنَّهُ أباحَ لَهُ أنَ يذبحَهُ، بلْ أمرَهُ، ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ وهو لا يشاورُهُ في أمرِ الله أبداً، ولا يمكنُ لإبراهيمَ الخليلِ أنَ يشاورَ ابنَهُ في تنفيذِ أمرِ الله، لكنَّهُ يختبرُهُ لينظرَ ماذا عنده، فكانَ جوابُ الابنِ: ﴿قَالَ يَتَابَتِ﴾ وهيَ كلماتٌ رقيقةٌ: ﴿بُنَيَّ﴾ و﴿يَتَابَتِ﴾. قالَ: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإسماعيلُ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ، ﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وهذه -والله- همةٌ عاليةٌ، قالَ: ﴿سَتَجِدُنِي﴾ وهذا الفعلُ مؤكدٌ بالسينِ، لكنَّهُ لم يأخذهُ الغرورُ فيجزمَ، بل قالَ: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي استسَلَمَا لأمرِ الله، وانقادا لأمرِ الله ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] أي تلَّ إبراهيمُ ابنَهُ للجبينِ، أي على جبينِهِ، أي على جبهتِهِ؛ لئلا يرى وجهَهُ وهو يصبوُّ السكينَ إلى رقبتِهِ؛ لأنَ هذا منظرٌ عظيمٌ فظيعٌ؛ لما تلَّهُ للجبينِ حينئذٍ صدقتْ محبةُ إبراهيمَ لله عزَّوجلَّ وأَنَّهُ يُقدِّمُ ما يحبُّهُ الله على كُلِّ محبوبٍ.

قال الله تعالى: ﴿وَنَذِّنُهُ أَنْ يَتَذَكَّرَ إِنْ آتَاكَ بُخْرَىٰ مِّنْ مَّوْءٍ أَوْ يَأْتِيَهُمْ حِصْنٌ مِّنْ صَدَقَاتِنَا ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥].

إذن، نعودُ إلى أصلِ المسألة، وهي كيفَ جازَ أن يُقسمَ بالتينِ والزيتونِ وطورِ سينَ وهذا البلدِ الأمين؟

نقولُ: لأن المقسمَ هو الله، والله تعالى له أن يُقسمَ بما شاء من خلقه؛ لأنه يحكمُ ولا يُحكمُ عليه، ويُجيزُ ولا يُجَارُ عليه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ [التين: ٤] الإنسانُ المرادُ به الجنسُ، يعني خلقَ الله الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ في خلقته، وفي فطرته، وكلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة؛ على التوحيدِ الخالصِ، وعلى معرفةِ الله عزَّ وجلَّ، وعلى الإيمانِ به، لكنَّ البيئةَ تؤثرُ؛ قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجَّسَّانِهِ»^(١). أي يجعلانه يهوديًا أو نصرانيًا أو مجوسيًا، فكلُّ إنسانٍ مخلوقٌ في أحسنِ تقويمٍ؛ في البدنِ، وفي الهيئةِ، وفي العقلِ، وفي الإدراكِ، وفي الفطرة، فالإنسانُ لو رجعَ إلى فطرته لعرفَ الله عزَّ وجلَّ وآمنَ به.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥] الضميرُ في ﴿رَدَدْنَاهُ﴾ يعودُ على الإنسانِ، رَدَّه الله بعدَ أحسنِ تقويمٍ إلى أسفلِ السافلين، وذلك الكافرُ، فالكافرُ في أسفلِ السافلين، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم (٢٦٥٨).

[الأنفال: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]. فما خلق الله أحدا شرًّا من الكافر، سواء من اليهود أو النصارى أو غيرهم. وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَإِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

ولهذا كانت الآية: ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَشْفَلَ سَفَلِينَ﴾، ولم يقل: من أسفل، بل هو أسفل السافلين.

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

ثم جعل الاستثناء - والحمد لله - وفرَّج الله للمؤمنين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، استثنى الله تعالى من اتَّصف بوصفين عظيمين؛ أولهما: الإيمان، والثاني: العمل الصالح.

الإيمان كما في حديث عمر بن الخطاب في قصة جبريل، حين سأل جبريل النبي ﷺ، وجبريل أفضل الرسل من الملائكة، ومحمد أفضل البشر والملائكة، قال له جبريل: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

أركانُ الإيمان ستة:

أولاً: الإيمان بالله:

الإيمان بالله: تؤمن بالله أي بأن الله تعالى خالق كل شيء، ومالك كل شيء،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩).

ورازق كل شيء، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، تؤمن بالله عز وجل بأنه منفرد بالربوبية، وتؤمن أيضاً بأنه منفرد بالالوهية؛ لأنك تقول كل صلاة: أشهد أن لا إله إلا الله. فكلنا نشهد، ونسأل الله أن يملأ قلوبنا بها: أشهد أن لا إله إلا الله، أي أعترف بلساني، وأوقن بقلبي أنه لا معبود حق إلا الله، فكل المعبودات باطلة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]. أتت (هو) التي هي ضمير الفصل للتوكيد.

كذلك أيضاً تؤمن بانفراده تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته، وأنه لا شريك له في صفاته، وأنه ليس كمثله شيء، وأن صفاته حق، وأنها ثابتة، ولهذا قال العلماء: التوحيد ثلاثة أقسام:

الأول: توحيد الربوبية.

والثاني: توحيد الألوهية

والثالث: توحيد الأسماء والصفات.

وهي مجتمعة في قول الله تبارك وتعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]:

توحيد العبودية من الآية: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

توحيد الألوهية، وهو العبادة: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾.

توحيد الأسماء والصفات: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ يعني لا تعلم له مسامياً

وشبيهاً ونظيراً، أبداً.

وأما مَنْ زادَ قسمًا رابعًا: توحيدُ الحاكمية، فقدَ أخطأ، فليسَ هناكَ توحيدُ الحاكمية، فالحكمُ من مقتضياتِ الربوبية، والربُّ لا بد أن يكونَ حاكمًا؛ حاكمًا بين العبادِ وفي العبادِ، ولا حاجةَ لزيادةِ هذا، ولم ينصَّ عليه علماءُ أجلاءُ ذهبوا منذُ مئاتِ السنين ولم يأتوا بهذا القسمِ الرابع، فهو محدثٌ ولا داعيَ له؛ لأنَّ الحكمَ من مقتضياتِ الربوبية، فإذا كانَ الربُّ هو المنفردُ بالخلقِ والمُلْكِ والتدبيرِ فلا حاجةَ إلى أن نأتي بالحاكمية، إلا أن يُرادَ بها معنى مبطنٌ، فلا ندري، لكن إذا أُريدَ بها المعنى الظاهرُ من كلمة (حكم) فلهِ الحكمُ لا شك: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصاص: ٨٨]، لكن كونه له الحكمُ لا يخرجُ عن الربوبية؛ لأنَّ الربَّ هو الخالقُ المالكُ المدبرُ.

زادَ بعضهم توحيدَ المتابعة، وهذا أيضًا غلطٌ؛ لأنَّ توحيدَ المتابعة لا علاقةَ له بالعبادةِ إلا بتصحيحِها إذا كانتَ على الطريقِ التي جاءَ بها هذا المتابعُ، صحيحٌ أنه يجبُ علينا أن نُوحِدَ رسولَ الله ﷺ بحيثُ لا نتابعُ غيره إذا خالفَ ما جاءَ به الرسولُ.

ولهذا لو قالَ قائلٌ: هل التقليدُ حلالٌ أم حرامٌ؟

قلنا: أما مَنْ قدَّمَ متبوعه على رسولِ الله ﷺ فهو حرامٌ، والإنسانُ قد يخطئُ. فمثلاً تقولُ: قالَ رسولُ الله ﷺ كذا، فيقولُ: لا، قالَ الإمامُ كذا وكذا، سبحانَ الله! مَنْ إمامنا نحنُ المسلمين؟ محمدٌ رسولُ الله، هذا إمامنا، فأَيُّ أحدٍ يعارضُ قولَ رسولِ الله ﷺ لقولِ أحدٍ كائنًا مَنْ كان فهو على خطرٍ عظيمٍ. يذكرُ عن عبدِ الله بنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ

حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ^(١).

فالذي عارض قول الرسول بقول أبي بكر وعمر يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء.

إذن، الذي يعارض قول الرسول ﷺ بقول من هو دون أبي بكر وعمر بمراحل عظيمة فإنه ينزل عليه أكبر من الحجارة! لأن هذا أعظم؛ أن تُعارض قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقول أحد.

إذن، لدينا توحيدان، لا حاجة لهما، زائدان على ما ذكر العلماء، وهما توحيد الحاكمية وتوحيد المتابعة، فلا حاجة لهما إطلاقاً، اللهم إلا أن يكون وراء ذلك شيء مبطن، أعني كلمة (الحاكمية)، فهذا لا ندري عنه، لكن إذا كان الحكم بمعنى القضاء بين الناس، وفي الناس، فهذا لا يخرج عن توحيد الربوبية.

ثانياً: الإيمان بالملائكة:

والملائكة عالم غيبي ليس معلوماً لنا إلا ما أعلمنا الله به ورسوله، خلقوا من نور، وخلق الجن من نار، ولهذا طبيعتهم الطيش، كما أن النار تلهب ليس لها قرار، فالجن خلقوا من النار، والملائكة خلقوا من النور، ونحن البشر من تراب أصلاً، وصار طيناً، وصار صلصالاً، وصار جسداً بإذن الله، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧].

والملائكة عالم غيبي، وهم رسل كما قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾

(١) أخرجه أحمد (١/٣٣٧، رقم ٣١٢١).

[فاطر: ١]، ولا نعلم من أسمائهم وصفاتهم إلا ما أعلمنا الله عزَّ وجلَّ، فنعرف جبريلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، ومالكًا.

وجبريلُ ﷺ موكلٌ بالوحي، يرسله الله عزَّ وجلَّ إلى أنبيائه ورسله، وميكائيلُ موكلٌ بالقطرِ والنباتِ؛ بالأمطارِ والنباتِ، وإسرافيلُ موكلٌ بالنفخِ في الصورِ.

إذن، كلُّ واحدٍ من هؤلاء الثلاثة الملائكة موكلٌ بما فيه الحياة، فجبريلُ موكلٌ بما فيه حياة القلوب، وهو الوحي؛ لأن الوحي - يا إخواني - فيه حياة القلوب؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا.

وإسرافيلُ موكلٌ بما فيه حياة الأبدان، وذلك يومَ البعث، وتلك الحياة التي لا مُنتهى لها، فالحياة الأخرى ليس لها منتهى؛ أهل النار في النار أبدًا، وأهل الجنة في الجنة أبدًا.

وميكائيلُ موكلٌ بما فيه حياة الأرض؛ حياة النبات.

ولهذا انظروا اختيار النبي ﷺ هؤلاء الثلاثة يفتحُ بذكرهم صلاة الليل: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١).

فكان النبي ﷺ يفتحُ صلاة الليل بهذا الاستفتاح، فما يقول: سبحانك

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠).

اللهم وبحمدك، أو يقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي، فيفتح صلاة الليل بهذا لأنها أول صلاة يقوم بها بعد بعثته، وأقول: أول صلاة يقوم بها بعد بعثته؛ لأن النوم موت، فهو موت أصغر، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].
والأخرى هي التي توقاها في منامها.

ومالك وظيفته أنه خازن النار، ولهذا يقول أهل النار، أعاذنا الله وإياكم منها: ﴿يَمْلِكُ لِقَضَائِنَا رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا تَكُونُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فليس هناك راحة، وليس هناك موت يستراح فيه، ولا حياة كريمة، ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣].

بقي أحد من الملائكة معروف وهو رضوان، هذا إذا صحَّ أن رضوان خازن الجنة.

وهناك منكر ونكير اللذان يسألان الإنسان في قبره.

وهناك ملك الموت، واشتهر عند البعض أن ملك الموت اسمه عزرائيل، وهذا ليس بصحيح، إنما ملك الموت كما سماه الله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنُكُمْ مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، ولا نُسَمِّي أحدا غائبا عنا بغير ما نعلم، فأمر الغيب نتلقاها من الوحي، فلا نعلم.

وهناك ملائكة تختلف وظائفهم عن هؤلاء الثلاثة الذين أخبرنا بوظائفهم، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وكذلك مالك خازن النار، وكذلك ملك الموت الذي يقبض الأرواح، أقول: هناك ملائكة سياحون في الأرض يلتمسون حلق الذكر، فإذا وجدوا حلقة حفوهم إلى الله عز وجل.

وهناك ملائكة يحفظون الإنسان؛ حفظة، قال الله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، اللهم لك الحمد، الملائكة مسخرون لنا يحفظوننا، ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

هؤلاء الحفظة يجتمعون في صلاة الفجر، هؤلاء ينزلون وهؤلاء يصعدون إلى الرب عز وجل، وفي صلاة العصر، ولهذا كان أشرف الصلوات صلاتان: صلاة العصر وصلاة الفجر، التي قال عنها رسول الله ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤُوسِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»^(١).

والصلاة قبل طلوع الشمس هي الفجر، والصلاة قبل غروبها هي العصر. إذن، هاتان الصلاتان أفضل الصلوات، وأفضل الصلاتين الفجر والعصر، وصلاة العصر هي الصلاة الوسطى التي خصها الله بالذكر فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ أي العصر ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣).

ولهذا - يا أخي - استحضِرْ وأنت تصلي العصر أنك تمثل أمر الله الذي أمرك بالمحافظة على صلاة العصر أمراً خاصاً.

فإذا جاء إنسانٌ يُصلي ونوى أن يصلي الصلاة الوسطى ولم ينو العصر فإنه تصحُّ صلاته؛ لأن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، وهكذا قال النبي ﷺ^(١).

وهناك ملائكةٌ أخصُّ من هؤلاء الملائكة، وهم: ﴿وَلِإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كُنُوبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]. وقال تعالى: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]. نسأل الله النجاة، فكل إنسانٍ عن يمينه وعن شماله ملكان يكتبان ما يقول وما يفعل، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، والفعل من باب أولى، فكل كلمة تتفوه بها تُكتب.

قيل للإمام أحمد رحمه الله، إمام أهل السنة، وهو مريضٌ ويثنُّ: إن طاوساً كان يكره الأئنين في المرض، فلما قيل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل ذلك أمسك عن الأئنين^(٢). اللهم ارض عنه، هكذا يكون الأئمة، والمراد بأئنين المريض الأئنين الذي يوحى بالتشكي، أما الأئنين الطبيعي فهذا لا يكتب على الإنسان.

فكل كلمة تقولها تُكتب يا أخي، ولو أن ملكاً من الملوك جعل على صدرك

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، رقم (٢٩٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، رقم (٦٢٧).

(٢) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١١٩/٢).

مسجلاً يسجل كل ما تقول، وكل ما تفعل، ثم سمعت هذا المسجل بعد يومٍ ستجدُ عليك شيئاً كثيراً، وليس قليلاً، فما أكثر كلامنا، وما أكثر أفعالنا، وهذا يكتب: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

أقول: كل قول يكتب، ونستفيد أن كل قول يكتب من الآية من قوله: ﴿مِنْ﴾ فـ(من) في سياق النفي تفيد العموم، وهي قاعدة نحوية مفيدة. فالمعنى: ما يلفظ من قول أي قول يقوله.

وانظر إلى آية أخرى نظيرتها: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩] يعني لا بشير قليل ولا كثير.

إذن، كل قول يكتب، نسأل الله أن يعاملنا وإياكم بعفوهِ، فالمسألة شديدة، والمسألة عظيمة، ولهذا كان عباد الرحمن لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً، يحفظون أنفسهم، أما نحن فنسأل الله أن يعاملنا بالعفو، فما أكثر اللغو، وما أكثر الزور، والزور كل قول محرم.

وهناك ملائكة موكلة بحفظ روح الإنسان بعد موته، فإذا حضر الرجل الموت نزل عليه ملائكة من السماء؛ إن كان مؤمناً -جعلني الله وإياكم منهم، وختم لي ولكم بالخير- فإن هؤلاء الملائكة يكونون بيض الوجوه، بيض الثياب، من رأيهم سر بهم، فيأخذون روحه إذا قبضها ملك الموت يجعلونها في كفن من الجنة وحنوط من الجنة، ويصعدون بها إلى الله، وتفتح لها أبواب السماء حتى تصل إلى الرب عز وجل، اللهم اجعل أرواحنا تصل إليك يا رب العالمين، ثم يقول عز وجل:

«اَكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّنَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ»^(١).

والكافر والعياذُ بالله إذا حضره الموتُ نزلَ عليه ملائكةٌ من السماءِ سودُ الوجوه، سودُ الثيابِ، لا يُسرُّ بهم مَنْ رَأَاهُمْ، فإذا قبضَ ملكُ الموتِ رُوحَه فإذا هم قَدْ هَيَّؤُوا كَفَنًا مِنَ النَّارِ وَحَنُوطًا مِنَ النَّارِ، ثم يصعدونَ بها إلى السماءِ، ولكن لا تفتحُ لها أبوابُ السماءِ، فيطرحُ طرحًا إلى الأرضِ، ويُكتبُ في أسفلِ السافلينَ والعياذُ بالله. أعاذنا الله وإياكم من هذا.

فالمهمُّ أن الملائكةَ -عليهم الصلاة والسلام- يجبُ علينا أن نؤمنَ بهم، وأنهم حقٌّ.

وهل هم أجسادٌ أو أرواحٌ؟

نقول: أجسادٌ، إن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رأى جبريلَ على الصورة التي خُلِقَ عليها له ستُّ مئةِ جناحٍ قد سدَّ الأفقَ^(٢). لا إلهَ إلا اللهُ! سبحانَ الخالقِ العليمِ! ومرةً أتى إلى النبيِّ ﷺ في صورة رجلٍ^(٣)؛ لأن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

فهذا الإيمانُ بالملائكةِ.

(١) أخرجه أحمد (٢٨٧/٤، رقم ١٨٥٥٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدره المنتهى، رقم (١٧٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، رقم (٣٢٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، رقم (١٧٧).

مسألة: الملائكة أقوى أو الجن؟

الجواب: الجن ما هم شيء، فالملائكة أقوى، والدليل: قال سليمان ﷺ ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨]، أي: عرش بلقيس ملكة اليمن، وكان لها عرش عظيم، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي: قوي شديد ﴿أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، وكان له عادة يقوم فيها، يعني له وقت محدد؛ لأنه قد نظم وقته؛ فله وقت محدد يقوم فيه، ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩] أي مؤتمن، ما يأخذ شيئاً.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فهو أسرع، فقبل أن يرتد إليه طرفه أسرع من قبل أن يقوم من مقامه فقبل أن يرتد إليه طرفه هذه لحظة، ﴿فَلَمَّا رَآهُ﴾ انتبه للفاء، جاءت الفاء الدالة على التعقيب، ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ عنده، ولم يقل: فلما رآه عنده؛ لأن كلمة (مستقراً) تعطي معنى غير مجرد الوجود، مستقراً يعني فيه قرار تام، كأنه قد وضع قبل سنوات، ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

قال العلماء: إنما جاء بهذه السرعة لأن الذي عنده علم من الكتاب دعا الله عز وجل فحملته الملائكة من اليمن إلى الشام في لحظة، طرفه عين، فتبين بهذا أن الملائكة أقوى من الجن، صحيح أن الجن أقوى من البشر، لكنهم ليسوا أقوى من الملائكة.

ومن ثم أقول: إن الله تعالى فوق الجميع، وهو أقوى من كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، قال الله

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فهو أقوى من كل شيء.

إذن، يا أخي اعتمد على الله، وإياك أن تتخيل أن الجن قد اعتدوا عليك، أو أنهم فعلوا، أو كلما أصابك شيء كان الذي قام به جني وأصابك بمس، فالآن ابتلي الناس بهذا لأنهم قلّ توكلهم على الله، وضعف توكلهم على الله، فصار كلما أصيب الإنسان بركمة قالوا: به مس من الجن. فأين الجن عن الأولين؟! لكن الجن تسلط على كل من خاف منها، وضعف توكله على الله، لكن إذا توكلت على الله عز وجل فهو نعم المولى ونعم النصير، يمنعك من هؤلاء الجن، ويحميك منهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الجن وقوتهم، وله كل شيء، وإياك أن تتوهم أو يصيبك هذا الخبال والتخيل، واستعمل الأوراد الواردة عن النبي ﷺ؛ فمن قرأ آية الكرسي في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح^(١)، وآية الكرسي سهلة وكل يقرأها: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فإذا قرأتها في ليلة فقد أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى أنه لا يقربك شيطان، ولا يزال عليك من الله حافظ حتى تصبح، فلا تهملها يا أخي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً، فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، رقم (٢٣١١).

واقراها كل ليلة، بل إنه ينبغي للإنسان أن يقرأها دبر كل صلاة مكتوبة، فيقرأ آية الكرسي ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

ثالثاً: الإيمان بالكتب:

ذكرنا الإيمان بالله وملائكته، والثالث: كتبه، والكتب جمع كتاب، وأشرف الكتب على الإطلاق وأفضلها وأعمها وأقومها وأبقاها هو القرآن الكريم، الذي جعله الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيماً عليه، والقرآن يحكم ولا يحكم عليه، وله الهيمنة على جميع الكتب، فما في الكتاب العزيز القرآن فإنه ناسخ لجميع الأديان، ولا قيام للأديان بعد هذا الدين أبداً: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولقد ضلّ أتم الضلال، لقد ضلّ أتم الضلال، لقد ضلّ أتم الضلال، أقولها في هذا المكان، وفي هذه الأيام الفاضلة، وفي استقبال حج بيت الله الحرام: لقد ضلّ من حاول أن يجمع بين الأديان الثلاثة؛ بين اليهودية والنصرانية والإسلام، فهذا أضلّ الضلال، بل من اعتقد أن ديناً سوى الإسلام قائماً يرضاه الله فهو كافر؛ لأنه مكذب لله عز وجل؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ونحن لا يمكن ولا يحق لنا أن نكفر من لم يكفره الله، ولا أن نقول عن شخص: هو مؤمن وهو كافر بالله

أبدًا، فالتكفير والتفسيق وعدم ذلك إلى الله عزَّوجلَّ، فإذا قال ربُّنا: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ثم قال آخر: ومن تهود أو تنصر قبل منه؛ فيكون هذا تكذيبًا، وإذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ وقال قائل: من تهود أو تنصر فدينه مقبول فهذا تكذيب لله، وهذا معناه أن تقلَّ الغيرة على دين الله، وأن يُنسخ من قلوبنا تعظيم الإسلام، وأن يكون هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم على حدٍّ سواء؛ لأنه إذا حاول اليهود والنصارى أن يجعلوا الدين الإسلاميِّ مقارنةً لهم، وأنَّ اختلاف دين الإسلام مع اليهودية والنصرانية كاختلاف المالكية مع الشافعية والحنبلية والحنفية، فغداً سيُقال أيضًا: هات الأديان الأخرى، فهي أيضًا لا تخالف الإسلام.

رابعًا: الإيمان بالرسول:

الإيمان بالرسول -عليهم الصلاة والسلام- أن تؤمن بأنهم صادقون فيما جاؤوا به من عند الله، وأن أولهم نوح عليه الصلاة والسلام، وآخرهم محمد ﷺ، وليس قبل نوح رسول، وعلى هذا فمن زعم أن إدريس قبل نوح فقد أخطأ؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، قال: ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

وفي حديث الشفاعة المشهور أن أهل الموقف يقولون: «اثتوا نوحًا، أوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

أما إدريسُ فالظاهرُ -واللهُ أعلمُ- أنه من أنبياء بني إسرائيل، أما أن يقال: إنه قبل نوح فهذا خطأٌ مخالفٌ لظاهر الكتاب والسنة، بل لظاهر القرآن وصریح السنة؛ لأن قول الناس: «اثتوا نوحًا، أوّل رسول بعثه الله» صریحٌ في هذا.

وكيف نؤمن بالرسول؟

يجب أن نؤمن بأن جميع الرسل صادقون مصدوقون، وأنهم من عند الله تبارك وتعالى، ولكن هل نتبع شرائعهم؟

الجواب: لا، لا نتبع شرائعهم؛ لأن شريعة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم نسخت جميع الشرائع، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فالشريعة الإسلامية نسخت جميع الشرائع، لكن إذا جاءت الشرائع عن طريق صحيح لا يخالف شريعتنا، فهل نعتبرها شريعة لنا، أو لا نعتبرها؟

في هذا للعلماء قولان:

القول الأول: أن شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه.

والقول الثاني: أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا حتى يأتي شرعنا بوفاقه.

وهذا ينبني عليه مسائل كثيرة، فالله تعالى قد قص علينا في القرآن قصصًا

كثيرة عن قبلنا، فهل نعتبر بها جاء في هذا أو لا، فهذا ينبني على الخلاف.

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ: ﴿فَاتَّبَعُوا أَحَدَكُمْ بِرِزْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩].

فَنَأْخُذُ مِنْ هَذَا جَوَازِ التَّوَكُّلِ؛ أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْجَمَاعَةِ أَنْ يُوَكِّلُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿فَاتَّبَعُوا أَحَدَكُمْ﴾.

ثَانِيًا: أَنَّهُ يَجُوزُ تَفْوِيضُ الْوَكِيلِ دُونَ تَحْدِيدِ لَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾.

فَنَقُولُ: إِنَّهُ يَجُوزُ لَنَا إِذَا كُنَّا جَمَاعَةً أَنْ نُوَكِّلَ جَمَاعَةً مِّنَا يَأْتُونَنَا بِطَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ لِبَاسٍ أَوْ فَرَّاشٍ؛ اسْتِدْلَالًا بِقِصَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ.

وكَذَلِكَ أَيْضًا مَا وَرَدَ عَنْ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ أَصَابَهُ الضَّرُّ وَحَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ مَا أَوْجَبَ أَنْ يَحْلِفَ أَنْ يَضْرِبَهَا مِئَةَ جَلْدَةٍ، فَأَفْتَاهُ اللَّهُ قَالَ: ﴿وَاخْذُ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]. فَهَلْ نَقُولُ: إِنَّ هَذَا مِثْلًا جَائِزٌ فِي شَرِيعَتِنَا؟ فَنَقُولُ: يَنْبَغِي عَلَى الْخِلَافِ؛ إِنْ قُلْنَا: شَرِيعَةٌ مِّن قَبْلِنَا شَرِيعَةٌ لَنَا مَا لَمْ يَرُدْ شَرْعُنَا بِخِلَافِهِ، قُلْنَا: نَعَمْ، وَإِذَا قُلْنَا: لَيْسَ شَرِيعَةٌ لَنَا إِلَّا أَنْ يَرُدَّ شَرْعُنَا بِوِفَاقِهِ، قُلْنَا: لَيْسَ بِحُجَّةٍ.

وَالْقَوْلُ الرَّاجِحُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ شَرِيعَةً مِّن قَبْلِنَا شَرِيعَةٌ لَنَا، مَا لَمْ يَرُدَّ شَرْعُنَا بِخِلَافِهَا.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ﴾

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف: ١١١].

وعلى هذا فجميع ما تستنبطه من الفوائد والأحكام فيما قص الله علينا من قصص الأنبياء فهو حجة، ما لم يرد شرعنا بخلافه، فإن ورد شرعنا بخلافه فإن شرعنا ناسخ لكل ما سبق.

إذن، الإيمان بالرسول نؤمن بأنهم صادقون مصدوقون، وأن ما جاؤوا به حق، ولكن بالنسبة لاتباعهم فإننا لا نتبع من شرائعهم ما يخالف شريعتنا.

خامساً: الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة، والله تبارك وتعالى يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به دائماً؛ يعني كثيراً ما يذكر الإيمان بالله واليوم الآخر.

فهل الإيمان باليوم الآخر أشد من الإيمان بالرسول؟

نقول: لا، هو مما جاءت به الرسول، لكن لا يستقيم للإنسان عمل إلا إذا آمن باليوم الآخر؛ لأنه إذا لم يؤمن باليوم الآخر فكيف يعمل! فهؤلاء الذين ينكرون البعث ويقولون: ليس هناك يوم آخر لا يمكن أن يعملوا عملاً صالحاً أبداً، وإنما يتبعون أهواءهم.

واليوم الآخر له أسماء كثيرة؛ سمي باليوم الآخر - بالكسر - لأنه يوم لا يوم بعده، وليس الآخر؛ لأن الآخر معناها المغاير، ولا يلزم أن يكون هو الأخير، لكن اليوم الآخر يعني الأخير، فلا يوم بعده، إذ إن الناس إذا حُشروا فإما إلى

الجنة وإما إلى النار، وكلٌّ من أهل الجنة والنار خالداً فيها هو فيه أبداً الآبدین.

وهناك كلمةٌ يقولها بعض الناس، يقول: فلان مات ثم نُقل إلى مثواه الأخير. يعني إلى القبر، وهذه الكلمة ليست صحيحة، فلو أن الإنسان يعتقد مدلولها لكان كافراً؛ لأنه إذا جعل القبر مثواه الأخير فمعناه ليس هناك بعث، فهذه الكلمة التي نسمعها دائماً أو نراها تكتب في الصحف دائماً يجب أن نحترز منها، ويجب أن نبين أنها كلمة باطلة لا يجوز إطلاقها أبداً؛ لأن مدلولها لو أن الإنسان أقرب به لكان كافراً منكراً للبعث.

ومن ثم أقول: يجب علينا أيها الإخوة أن نتأمل فيما يقع على ألسن العامة من الكلمات التي قد تكون خطيرة جداً، ونحن نأخذها تقليداً دون تروٍّ، فكثير من الناس يقول: لو حصل زلزال لا سمح الله لكان كذا وكذا. وهذا غلط، فلا تقل: لا سمح الله، فهل أحدٌ يكره الله عز وجل حتى نقول: يسمع أو لا يسمع! نقول: لا، لكن قل: لا قدر الله، من التقدير، ولا تقل: لا سمح الله.

فعلى كل حال هناك كلمات ترد على ألسن الناس لا يقيمون لها وزناً، ولا يفكرون فيها.

واليوم الآخر سُمي باليوم الآخر لأنه لا يوم بعده، ويُسمى يوم القيامة؛ لأمرٍ ثلاثة:

الأول: أن الناس يقومون من قبورهم لرب العالمين؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ

يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

الثاني: أنه يقوم به الأَشهادُ، الرسلُ تشهدُ على أُمَمِها أَنَّهُم بَلَّغُوهم شريعةَ الله، والعلماءُ يشهدونَ أيضًا، يشهدونَ للرسلِ بأنهم بَلَّغُوا، وعلى العامةِ بأنهم بَلَّغُوا، بل الجوارحُ تشهدُ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمُ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

إذن، سُمِّيَ يومَ القيامةِ لأنه يقومُ الناسُ فيه من قبورهم لربِّ العالمين، ثانيًا: يقومُ به الأَشهادُ.

الثالثُ: يَقامُ فيه العدلُ؛ لقولِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فيقامُ العدلُ في ذلكَ اليومِ، ويُقْتَصُّ للمظلومِ من الظالمِ، ولو كان أباهُ، أو ابنه، بل يُقْتَصُّ للمظلومِ من الظالمِ حتى بالحيوانِ، فيُقْتَصُّ للشاةِ الجَلْحَاءِ من الشاةِ القَرْنَاءِ^(١)، والشاةُ القَرْنَاءُ لها قرونٌ تنطِحُ الشاةُ الجَلْحَاءُ التي ليسَ لها قرونٌ، فإذا كان يومُ القيامةِ فإن الله يقضي بَيْنَهُما، فيقامُ العدلُ.

ولليومِ الآخرِ أسماءٌ أخرى لا يتسعُ المقامُ لذكرها.

الإيمانُ بكلِّ ما أخبر به النبي ﷺ مما يكونُ بعدَ الموتِ:

ولا يكفي أن نؤمنَ فقط بأن الساعةَ ستقومُ وأن الناسَ سيعثونَ، ولكنَّ يجبُ أن نؤمنَ بكلِّ ما أخبر به النبي ﷺ مما يكونُ بعدَ الموتِ.

ولهذا قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ في العقيدةِ الواسطية - ونعمَ الكتابُ هي - قال: «ومنَ الإيمانِ باليومِ الآخرِ الإيمانُ بكلِّ ما أخبر به النبي ﷺ مما

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢).

يكونُ بعدَ الموتِ»^(١). لأن الإنسان إذا مات فقد قامت قيامته، ولهذا يقال للموت: القيامة الصغرى.

فأنت إذا مُتَّ فارقت الحياة، وذهبت كأنك لم تكن على الأرض، ودخلت في عالم القيامة، ولهذا قالوا: مَنْ ماتَ فقدَ قامتَ قيامته، وانتهى العلم، وانتهى الوجودُ على الأرض، فما بقي إلا الجزاء.

وما الذي يكونُ بعدَ الموتِ؟

يكونُ أشياء: منها أن الإنسان إذا مات وخرجت رُوحه فإنه إن كان مؤمناً - وأسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يجعلني وإياكم من المؤمنين - بُشِّرَ بالجنة وهو في سياق الموت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

فإذا بُشِّرَ الإنسان عند الموت بهذه البشارة العظيمة سهلُ خُروج رُوحه، وخرَجَتْ منقادةً كما تُسحبُ الشعرة من العجين، فيسهلُ انقيادها وخروجها لأنها بُشِّرَتْ برضا الله عزَّ وجلَّ، والإنسانُ أيضاً يشعرُ بأنه انتقل من دارِ الكدرِ والغمِّ والحزنِ إلى دارِ السرورِ والصفاء.

وكثيرٌ من الأموات إذا شاهدته بعد موته وجدت وجهه أحسن مما كان حياً

(١) العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة (ص: ٦٥).

وأنور، وربما يرى بعضهم يتبسم؛ لأنه بُشِّرَ بالجنة: ﴿وَابْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

فيجب علينا أن نؤمن بهذا، فإذا حُمِلَ الإنسانُ على أعناقِ الرجالِ إن كان صالحًا فإن رُوحَه تقول: قدَّموني قدموني. للثوابِ ورضا الرحمن، وإن كان سيئًا ذلك فإن رُوحَه تقول: يا ويلها أين تذهبون بها؟ وقد أخبرنا بهذا الخبر رسول الله ﷺ الصادق المصدوق، وإلا فنحن لا ندري ماذا تقول الروح، فإننا نحمل الميت إلى القبر ولا ندري ماذا تقول روحه، ولكن النبي ﷺ أخبرنا بهذا، وهو الصادق المصدوق؛ أن نفس المؤمن تقول: قدَّموني قدموني؛ لأنها بُشِّرَتْ بالجنة، ونفس غير المؤمن تقول: يا ويلها أين تذهبون بها؛ لأنها بُشِّرَتْ بالنار^(١).

اللهم أحسن خاتمتنا، اللهم أحسن خاتمتنا، اللهم أحسن خاتمتنا، اللهم اجعل خير أعمالنا آخرها، وخير أعمالنا خواتمتها، وخير أيامنا وأسعدِها يوم نلقاك يا رب العالمين، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وإذا دُفِنَ الميت وتولَّى أصحابه عنه حتى إنه ليسمعُ قرعَ نعالهم^(٢) - وهو في القبر يسمعُ قرعَ النعال، ويعلمُ أن أهله ودَّعوه، وأنهم ودَّعوه في هذا القبر - يأتيه ملكان، يأتيه ملكان فيسألانه عن ثلاثة أسئلة: مَنْ ربُّك؟ ما دينك؟ من نبيُّك؟ فهذه الأصول الثلاثة التي بنى عليها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رسالة

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول الميت وهو على الجنازة: قدموني، رقم (١٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال، رقم (١٣٣٨)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٠).

صغيرة سماها: (الأصول الثلاثة)، ونحن ننصح جميع إخواننا أن يقرأوا هذه الرسالة؛ لما فيها من العقيدة السليمة الصافية.

يقولون: مَنْ ربك؟ فالمؤمن يجب بالصحیح: ربّ الله. ما دينك؟ ديني الإسلام. مَنْ نبيك؟ محمدٌ. وحينئذ ينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، ويفسح له في قبره مدّ بصره.

وغير المسلم إذا أتاه الملكان قالاً: مَنْ ربك؟ ما دينك؟ مَنْ نبيك؟ فإنه يقول -أعاذنا الله وإياكم- يقول: هاهاهاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

وهذا ينطبق تماماً على المنافق، وتنطبق تماماً على مَنْ وصفهم الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنه يخرج قومٌ «سُفَهَاءُ الْأَخْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١). والعياذُ بالله.

فهذا يقول: هاهاهاه، وتعني كلمة هاهاهاه كأنه يتذكر شيئاً نسيه، كما لو سألت عن شيء فقلت: يا فلان تعرف كذا وكذا؟ فيقول: هاهاهاه والله يعني نسيْتُ أو كلمة نحوها.

ولهذا أحثُّ إخواني أن يُطَهَّرُوا قُلُوبَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُطَهَّرُوا جَوَارِحَهُمْ، فالمدارُ على القلب، فكم من إنسانٍ يُصَلِّي ويتصدق ويصوم ويحج لكن قلبه فارغ، والعياذُ بالله.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب التحريض على قتال الخوارج، رقم (١٠٦٦).

فعليك يا أخي بتطهير القلب حتى لا تقول في قبرك: سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته.

فينادي منادٍ من السماء أن كَذَبَ عبدي، فأفرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه؛ تشتبك من شدة التضيق.

وهذا الذي أقوله الآن من الذي أخبرنا به هو الرسول ﷺ الصادق المصدوق^(١).

ولعل زنديقاً ملحداً يقول: نحن ندفنُ الأموات المؤمنين وغير المؤمنين، ولا نجدُ القبرَ اتسع إذا كان قبرَ مؤمنٍ، ولا أن الميتَ اختلفت أضلاعه إذا كان غير مؤمنٍ. فماذا نقولُ له؟

نقول: لو أنك رأيتَ ذلكَ حساً لكانَ إيمانك به غير مفيدٍ، والإيمانُ المفيدُ هو الإيمانُ بالغيبِ.

ونقول: أليسَ النائمُ يرى في منامه أنه في مكانٍ فسيحٍ، وفي بساتينٍ نضرةٍ، وفي قصورٍ، أليسَ يرى هذا وهو في فراشه تحت لحافه، ويرى العكس أنه في ضيقٍ ويصعدُ جبلاً وعرةً، ويسقطُ في مياهٍ مغلقةٍ وهو في منامه لا يتحركُ؟ فإذا كنا نشاهدُ هذا في الحياة فكيف لا نؤمنُ به بعدَ المماتِ؟!

إذن، من الإيمانِ باليومِ الآخرِ الإيمانُ بفتنةِ القبرِ وعذابِ القبرِ ونعيمِ القبرِ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

الإيمان بأن الناس يبعثون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً:

من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بأن الناس يبعثون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً، ومعنى (حفاة): ليس عليهم نعال ولا خفاف ولا جوارب، حافية أقدامهم.

ولهذا كان النبي ﷺ ينهى عن كثرة الإرفاه يعني عن كثرة الرفاهية ويأمر بالاحتفاء أحياناً^(١)، يعني يأمر أن تمشي أحياناً حافياً، حتى لا تنغمس في الرفاهية، وحتى لا تكون مشابهاً بمن قال الله فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥].

و(عراة) يعني ليس عليهم لبس.

و(غرلاً): جمع أغرل، والأغرل هو الذي لم يختن، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. فأنت أول ما تخرج من بطن أمك تكون حافياً عارياً أغرل، فيخرج الله تعالى هؤلاء البشر من بطون الأرض كما أخرجهم من بطون أمهاتهم على هذا الوصف: حافياً عارياً أغرل.

أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَمْتَهُمَ ذَاكَ»^(٢).

فالأمر مذهب ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ۖ وَصَدِيقِيهِ ۖ وَبَنِيهِ ۖ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

فهل أنت تفر من أهلك في الدنيا ولا تعرفه؟ وهل أنت في الدنيا تفر من أمك..

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الرجل، باب النهي عن كثير من الإرفاه، رقم (٤١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

مِنْ أَخِيكَ.. مِنْ زَوْجَتِكَ.. مِنْ ابْنِكَ؟! أَبَدًا، بِالْعَكْسِ؛ تَأْوِي إِلَيْهِمْ وَيَأْوُونَ إِلَيْكَ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ يَفِرُّ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْبُرُّ مِنْ أَخِيهِ﴾ لِأَنَّ أَخَاهُ قَدْ لَا يَقُومُ قَائِمًا بِالتَّوَجُّهِ فِي تَرْبِيَّتِهِ وَتَوْجِيهِهِ، فَيَطَالِبُهُ، يَقُولُ: أَنْتَ مَا قَمْتَ بِوَأَجِبِي، فَلِذَلِكَ يَهْرُبُ وَيَفِرُّ مِنْهُ، كَذَلِكَ الزَّوْجَةُ، قَدْ يَكُونُ غَيْرَ قَائِمٍ بِوَأَجِبِهِ بِالنِّسْبَةِ لَهَا، فَيُضَيِّعُ حَقُوقَهَا وَيَدْعُهَا تَتَسَكَّعُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَبَالِي بِهَا، فَتَغَالِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَفِرُّ، وَكَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِلْأُمِّ وَالْأَبِ وَالْإِبْنِ.

وَمَنْ ثَمَّ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَقُومَ بِحَقِّ مَنْ لَهُمْ حَقٌّ عَلَيْنَا؛ مِنْ قَرَابَةٍ، أَوْ زَوْجِيَّةٍ، أَوْ وِلَاةٍ، حَتَّى لَا يَطَالِبَنَا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُمَدُّ مَدًّا الْأَدِيمِ:

وَمَنْ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تَوْمَنَ بِأَنَّ الْأَرْضَ تُمَدُّ مَدًّا الْأَدِيمِ^(١)، يَعْنِي مَدَّ الْجِلْدِ، وَهِيَ الْآنَ كُرْوِيَّةٌ، مَدْرُورَةٌ، لَكِنَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَزُولُ مِنْهَا الْجِبَالُ وَالْأَوْدِيَةُ وَالْأَشْجَارُ وَالْبَنَاءُ وَتُمَدُّ كَأَنَّهَا أَدِيمٌ، أَيُ كَأَنَّهَا جِلْدٌ، مَنْ أَجَلَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ فِيهَا عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يَنْفَذُهُمُ الْبَصَرُ، وَيُسَمِعُهُمُ الدَّاعِي، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَوْمَنَ بِهَذَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ﴾ [الانشقاق: ١-٣]، وَهِيَ الْآنَ غَيْرُ مَمْدُودَةٍ، فَالْآنَ هِيَ مَدْرُورَةٌ، لَكِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُمَدُّ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَوْمَنَ بِهَذَا، وَأَنْ نَوْمَنَ بِأَنَّ هَذِهِ الْجِبَالَ الصَّمَّ الصُّلْبَةَ تَكُونُ كَثِيبًا مَهِيلًا، ثُمَّ تَكُونُ كَالْعَهْنِ الْمَنْفُوشِ، ثُمَّ تَكُونُ هَبَاءً طَائِرًا، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! لِأَنَّ الَّذِي خَلَقَهَا

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١/ ٣٧٥، رَقْمُ ٣٥٥٦)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الْفِتَنِ، بَابُ فِتْنَةِ الدَّجَالِ وَخُرُوجِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، رَقْمُ (٤٠٨١).

وأوجدَها قادرٌ على إزالتها، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

الإيمانُ بأن الأعمالَ توزنُ يومَ القيامةِ:

ومنَ الإيمانِ باليومِ الآخرِ أن تؤمنَ بأن الأعمالَ توزنُ.

وهلْ هي موازينٌ حسيَّةٌ، أو موازينٌ بمعنى إقامةِ العدلِ؟

الجوابُ: هي حسيَّةٌ بلا شكٍّ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ

الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وقالَ تَعَالَى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

[الأعراف: ٨-٩].

هذا من القرآن.

ومنَ السُّنَّةِ: قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى

الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»^(١).

فهاتانِ الكلمتانِ وَصَفَهُمَا النبيُّ ﷺ بهذه الأوصافِ الثلاثةِ: «حَبِيبَتَانِ إِلَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤).

الرَّحْمَنُ» وشيءٌ يحبه الرحمنُ عَزَّوَجَلَّ فإنك تكونُ حريصًا عليه، فهو حبيبٌ إلينا ولذا فإننا نحبه. «خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ» أي سهلةٌ على اللسانِ، لا تحتاجُ إلى عناءٍ، وليستُ مثلاً خمسَ صفحاتٍ، بل كلمتان: سبحانَ اللهِ وبحمده، سبحانَ اللهِ العظيمِ. «ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ» هذا الشاهدُ، يعني يومَ القيامةِ إذا وُضِعَتَا فِي الْمِيزَانِ صَارَتَا ثَقِيلَتَيْنِ.

فهذه ثلاثةٌ أوصافٍ، نؤمنُ بها، ونشهدُ أنها حقٌّ، لكن يَبْقَى علينا يا إخواننا -اللهمَّ عامِلنا بعفوك يا ربَّ العالمين- يَبْقَى علينا التطبيقُ، إن كلمتينِ هذا شأنهما لجديرتانِ ألا يَبْسَ اللسانُ منهما، وأن يقولَ الإنسانُ دائماً: سبحانَ اللهِ وبحمده، سبحانَ اللهِ العظيمِ، ولا يضرُّه هذا، فهو خفيفٌ على اللسانِ، ولو بَقِيَ الإنسانُ يقولُهما دائماً وأبداً ما تعبَ، وربما يَمَلُّ لكن لا يتعبُ.

فأكثرُ -يا أخي- مِنْ هذه الكلمةِ حتى وأنتَ في شُغْلِكَ، حتى وأنتَ تمشي، وأنتَ نائمٌ، وأنتَ قائمٌ، وأنتَ قاعدٌ: سبحانَ اللهِ وبحمده، سبحانَ اللهِ العظيمِ؛ لأن اللهَ يحبُّ ذلكَ، ولأنها ثقيلةٌ في الميزانِ.

إذن، القرآنُ والسنةُ دَلَالَةٌ على أن الميزانَ حَسْبِي، وليسَ معنويًّا، لكن ما كَيفِيَّةُ

الميزانِ؟

ليسَ معروفًا، فالميزانُ الذي تُوزَنُ بِهِ الأَعْمَالُ يومَ القيامةِ غيرُ معروفٍ؛ لأنَّ اللهَ أخبرنا عنه ولم يخبرنا عن كَيفِيَّتِهِ، وأنا أقولُ لكم: جميعُ أخبارِ الغيبِ إذا لم تُخْبَرْ عن كَيفِيَّتِهَا فالواجبُ الإِمساكُ.

فلو سألكَ سائلٌ: كيفَ هذا الميزانُ؟ فإنكَ تقولُ: اللهُ أعلمُ، ما وُصِفَ لنا،

وإن كان قد وَرَدَتْ بعض الآثارِ تَدُلُّ على أن له كِفَتَيْنِ، ولكن إن صَحَّتِ الآثارُ في ذلكَ عن معصوم وجبَ علينا قبولُها، وإن لم تصحَّ قلنا: الله أعلمُ، لكن نؤمنُ بأنَّ الأعمالَ توزنُ، وأنها تثقلُ وأنها تنحفُ.

الإيمانُ بأن الشمسَ تدنو من الخلائقِ يومَ القيامةِ:

ومن الإيمانِ باليومِ الآخرِ أن تؤمنَ بأن الشمسَ تدنو من الخلائقِ على قدرِ ميلٍ، والشمسُ ارتفاعُها الآنَ بعيدٌ جدًّا، لكن يومَ القيامةِ تدنو من الخلائقِ بقدرِ ميلٍ، والميلُ هو ميلُ المسافةِ، أو ميلُ المُكْحَلَةِ، أيَّا كان فهي قريبةٌ، سواءً كان ميلُ المُكْحَلَةِ، وميلُ المكحلةِ قصيرٌ، أو كان ميلُ المسافةِ.

والآنَ الشمسُ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبا: ١٣] شديدَ الحرارة، ويقالُ: إنه لو حَامَ حولُها أقوى فولاذٍ في الأرضِ صارَ شعاعًا هبَاءً من شدةِ حرارتها، وهذا واضحٌ، وبيننا وبينها من المسافةِ الآنَ أبعادٌ طويلةٌ، ومع ذلكَ تصلُ حرارتُها إلى الأرضِ، حتى إن الإنسانَ في أيامِ الصيفِ لا يكادُ يمشي على الأرضِ بدونِ نعلٍ، وهي بعيدةٌ، ويومَ القيامةِ تدنو من الخلائقِ، ويَعْرِقُ الناسُ على قدرِ أعمالِهِم، فمنهم مَنْ يَصِلُ العرقُ إلى كعبيه، ومنهم مَنْ يَصِلُ إلى ركبتيه، ومنهم مَنْ يَصِلُ إلى حقويه، ومنهم مَنْ يُلْجِئُهُ ويغطيه.

وهذا العرقُ وهُم في مقامٍ واحدٍ، وهنا إشكالان:

الإشكالُ الأولُ: كيفَ لا يحترقُ الناسُ من الشمسِ إذا دنت منهم إلى هذه

المسافةِ؟

والإشكال الثاني: كيف يَبْلُغُ العرقُ إلى الكعبين، والركبتين، والحقوين، وهم في مكانٍ واحدٍ؟ فهذا مُشْكِلٌ.

والجوابُ أولاً أن نقول: الذي قال هذا هو المعصومُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(١)، فَصَدِّقْ، ولا تَقُلْ: كيف؟ فأمورُ الغيبِ لا يُقالُ فيها: كيف إطلاقاً، وأمورُ الآخرة لا تُشبهُ أمورَ الدنيا، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ قَادِرٌ على أن يُدْنِيَ الشمسَ من الخلائقِ ويعطي الخلائقَ قوةً تمنعُ مِنَ التأثيرِ بها، وأحوالُ الآخرة لا تقاسُ بأحوالِ الدنيا.

وهذه قاعدةٌ ينبغي أن تعرفوها، فيما أخبرَ الله بِهِ عن اليومِ الآخرِ، وفيما أخبرَ الله بِهِ عن نفسه، حتى في صفاتِ الله، فهناك أشياء يُخْبِرُ اللهُ بها لا يستطيعُ الإنسانُ أن يَتَصَوَّرَها بعقله، أو يُدْرِكَها بعقله.

والإشكال الثاني: العرقُ كيف يبلغُ عندَ شخصٍ إلى الكعبين، وعندَ آخرٍ إلى الركبتين؟ والجوابُ أن أمورَ الآخرة يجبُ علينا فيها التصديقُ، وألا نسأل: لمَ، ولا كيف؟ لأن عقولنا لا تُدْرِكُ ذلكَ، لكن نؤمنُ بها؛ لأنها جاءتْ مِنَ الصادقِ المصدوقِ، فلا يجوزُ أن نقولَ: لمَ وكيف.

الاستظلالُ مِنَ الشمسِ يومَ القيامةِ:

ويمكنُ أن يَسْتَظِلَّ الإنسانُ بظلِّ من هذه الشمسِ؛ كما في الحديثِ الذي ذَكَرَ فِيهِ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سبعةً، فقال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإمامُ العادلُ، وشابٌّ نشأَ بِعِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، رقم (٢٨٦٤).

وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ. وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، ففَاضَتْ عَيْنَاهُ^(١). أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يجعلنا وإياكم منهم، فليس هناك ظلُّ يوم القيامة إلا ظلُّ الله عزَّ وجلَّ، فليس هناك قصورٌ، ولا أشجارٌ، ولا مغاراتٌ، ولا جبالٌ، ولا جدرانٌ، ولا شيءٌ، فليس ظلُّ إلا ظلُّ الله عزَّ وجلَّ:

الأول: إمامٌ عادلٌ، والثاني: شابٌّ نشأ في طاعة الله، والثالث: رجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد، والرابع: رجلانِ تحابَّا في الله، اجتمعَا عليه وتفرَّقَا عليه، والخامس: رجلٌ تصدَّقَ بصَدَقَةٍ فأخفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، والسادس: رجلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، والسابع: رجلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ، فهو خالٍ ما عنده أحدٌ يرائيه، ولا يريدُ أن يراه، لكنه خالٍ، ففاضت عيناه. فهو لاءٍ سبعة.

ويمكنُ أَنْ يَتَّصِفَ شَخْصٌ بِهَذِهِ السَّبْعَةِ كُلِّهَا، يعني يمكنُ أَنْ يَكُونَ إِمَامٌ عَادِلٌ وَهُوَ مِنْذُ شَبَابِهِ نَاشِئٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، ويمكنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِمَامُ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، يعني بِالصَّلَوَاتِ وَأَمَاكِنِ الصَّلَاةِ، فَإِنْ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ فَقَلْبُهُ فِي الْمَسْجِدِ، لَكِنْ مَا ظَنُّكُمْ - يَا إِخْوَانُنَا - بِمَنْ هُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَقَلْبُهُ فِي الشَّارِعِ؟! فَهَذَا مَعَاكِسٌ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْآنَ وَهُمْ فِي الصَّلَاةِ هُمْ فِي الْمَسَاجِدِ وَلَكِنْ قُلُوبُهُمْ فِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، رقم (١٤٢٣)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

الخارج؛ في أمرٍ لا فائدة منه.

والعجبُ أن الإنسان إذا دخل في الصلاة انفتحت عليه الوسوسُ التي ما كانت تطرأ على قلبه، ولا كان يَعْرِفُهَا، وإذا سَلَّمَ طارت وراحت؛ لأن الشيطانَ لنا عدوٌّ، وهو الذي يصرفُ قلوبنا عن طاعة الله، قال تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦].

قوله: «رَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ» المعنى أحبَّ أحدهما الآخر في الله؛ لأنه رآه عابداً لله، مَخْبِتاً إلى الله، كافاً سمعه وبصره عما يُغْضِبُ الله، دائم الطاعة، فأحبه الله، ولم يحبه لمالٍ، ولا لشرفٍ، ولا لقرايةٍ، ولا لجوارٍ، ولا لأيِّ شيءٍ، إنما أحبه الله، فهذان الرجلانِ تحابَّا في الله، اجتمعاً عليه وتفرقاً عليه، يعني ماتا على ذلك، أي على المحبة في الله.

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان ألا يحب المرء إلا لله، وهذا من كمال اليقين أن تحب المرء لا تحبه إلا لله.

قوله: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا» لا يريدُ جزاءً ولا شكوراً من الذي أعطاه إياها، وإنما هي لله.

وقوله: «حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ» هذا له معنيان:

المعنى الأول: حتى لا تعلم شماله أي من كان على شماله، ما تنفقه يمينه، يعني واحداً بجانبه على الشمال وجاءني الفقير فأدخلتُ يدي في جيبه ثم أعطيته

ولكن مَنْ على شِمالي بجانبِي لا يدري.

المعنى الثاني: أو أن هذا من المبالغة حتى إنه لو كان يمكنُ ألا تعلمَ يده اليسرى ما تنفقُ اليمنى لكانَ كذلك.

على كلِّ حالٍ المقصودُ المبالغةُ في إخفاءِ الصدقةِ.

وهل الأفضلُ إخفاءُ الصدقةِ أو الأفضلُ إعلانُ الصدقةِ؟

نقولُ: حَسَبَ الحالِ، ولهذا يَمْدَحُ اللهُ الذينَ يُنْفِقُونَ سِرًّا وعَلَانِيَةً: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤] وبدأ بالسِّرِّ لأنه أفضلُ، والعلانيةُ قد يكونُ فيها خيرٌ، فلو فَرَضْنَا أن إنسانًا عَرَضَ مشروعَ خيرٍ على جماعةٍ، فهل الأفضلُ أن كلَّ واحدٍ فيهم يعطيه سِرًّا أو الأفضلُ أن يقومَ واحدٌ ويقولُ: تفضلُ خُذِ الصدقةَ، والثاني كذلك والثالثُ كذلك؟

نقولُ: الثاني أفضلُ، وهذا من أجلِ أن يتسابقَ الناسُ إلى الإنفاقِ.

أما إذا كنتَ تريدُ أن تتصدقَ على شخصٍ معينٍ، فالأفضلُ الإسرارُ، حتى لا يَحْجَلَ أمامَ الناسِ، وحتى لا يَنْكَسِرَ قلبُه أمامَ الناسِ، فالأصلُ في الصدقةِ أن السِّرَّ فيها أفضلُ، وقد يكونُ الإعلانُ أفضلَ إذا كانتِ المصلحةُ فيه.

قوله: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ» في مكانٍ خالٍ، وهذا الرجلُ شابٌّ أو غيرُ شابٍّ، لكنْ بهِ شهوةٌ، دَعَتْهُ امرأةٌ في مكانٍ خالٍ ليسَ معها إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ «فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ» إذن الرجلُ ليسَ عندهُ ضعفٌ جنسيٌّ، وليسَ عندهُ أحدٌ

مَنْ الْبَشَرِ يَشَاهِدُهُ؛ لِأَنَّهُ لَهَا دَعَتْهُ مَا قَالَ: اُنْتَظِرِي، النَّاسُ يَنْظُرُونَ. فَالَّذِي مَنَعَهُ خَوْفُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ. وَالْمَرْأَةُ لَيْسَ فِيهَا عَيْبٌ مَعْنَوِيٌّ وَلَا عَيْبٌ حِسِّيٌّ، فَهِيَ ذَاتُ جَمَالٍ، وَذَاتُ مَنْصَبٍ، شَرِيفَةٌ وَلَيْسَتْ وَضِيعَةٌ مِنْ سَاقَطَاتِ النِّسَاءِ، بَلْ هِيَ شَرِيفَةٌ وَجَمِيلَةٌ، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ. إِذْنُ مَنَعَهُ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ خَوْفُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ. وَمَنْ مَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ خَوْفُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قَوْلُهُ: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا، إِذَا خَلَا الْإِنْسَانُ عَنْ مَشَاغِلِ الدُّنْيَا فِي مَكَانٍ لَا يُقْبَلُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، وَأَحْضَرَ قَلْبَهُ وَذَكَرَ اللَّهَ بِلَفْظِ الذِّكْرِ، أَوْ ذَكَرَ اللَّهَ بِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَسُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ، فَإِنَّ عَيْنَهُ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ؛ شَوْقًا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَمَحَبَّةً لِلَّهِ، وَتَعْظِيمًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

هَؤُلَاءِ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ.

إِذْنُ، يَخْلُقُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ظِلًّا يَتَظَلَّلُونَ بِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «كُلُّ أَمْرٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ»^(١). وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مُفِيدَةٌ؛ فَالْإِنْسَانُ إِذَا تَصَدَّقَ فَإِنَّ هَذِهِ الصَّدَقَةَ سَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَكُونُ ظِلًّا عَلَيْهِ مِنَ الشَّمْسِ.

الإيمان بالشفاعة:

وَمَنْ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تَوْمَنَ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَشَفَاعَتِهِ ﷺ خَاصَّةٌ وَعَامَةٌ؛ خَاصَّةٌ يَعْنِي لَا أَحَدَ يَشَارِكُهُ فِيهَا، وَعَامَةٌ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

(١) أخرجه أحمد (٤/١٤٧، رقم ١٧٣٧١).

الشفاعة العامة:

والشفاعة العامة هو أن الناس يُحْشَرُونَ وَيَقْفُونَ في موقفٍ مقداره خمسون ألف سنة، لا طعام ولا شراب، حافية أقدامهم، شاخصة أبصارهم، عارية أجسامهم، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويلحقهم من الغم والكرب ما لا يُطيقون، الله أكبر!

«فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَّغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ااتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشفع لنا إلى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي».

فيعتذر بذكر خَطِيئَتِهِ أنه أكل من الشجرة، وهي شجرة في الجنة التي أَسْكَنَهُ اللهُ إياها هو وزوجه، وقال لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، فجاء الشيطان فوسوس لهما وقاسمهما؛ أقسم قال: ﴿إِنِّي لَكُمَا لِمَنْ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. فأكلَا من الشجرة. وكان الله تعالى قد ستر عورتَهما، فبَدَتْ لهما سَوَاءُتُهُمَا ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

آدَمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يذكر هذه المعصية، كأنه يقول: أنا أخجل أن أشفع إلى

الله وأنا قد عصيته، واعتذاره هذا من باب التواضع، وإلا فإن هذا الذنب الذي حصل له قد زال أثره بالكلية، قال الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (١٢١) ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿[طه: ١٢١-١٢٢].

فكان آدم بعد التوبة خيراً منه بعدها، فتاب الله عليه وانتهى كل شيء، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، لكن لعلّ منزلته رأى أن هذه المعصية وإن كان قد تاب منها تحوّل بينه وبين أن يكون أهلاً للشفاعة، ولكنه يحيلهم إلى أول الرسل نوح «اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ» فيأتون إلى نوح ويقولون له: «يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا» ولكنه يعتذر لأنه سأل ما ليس له به علم؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمره أن ينجو بأهله في الفلك، وكان له ابنٌ كافرٌ، ابنٌ من نبي صار كافراً! سبحان الله! وهناك نبي من أب كان كافراً وهو النبي عليه الصلاة والسلام؛ من أب كافرٍ، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام كذلك.

ونوح لما أدرك ابنه الغرق قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٥) قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ ﴿[هود: ٤٥-٤٦] لأنه كافرٌ، والكافر ليس من أهل المؤمنين، ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إن هذه الآية تشهد لما جاء به الحديث الصحيح أنه «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلَا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ»^(١)، يعني واحد مات عن ابن عم بعيد، وعن ابنه القريب، لكن الابن كافرٌ، فالذي يرثه ابن عمه البعيد، وابنه الكافر لا يرث؛ لأنه ليس من أهله.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، رقم (٦٧٦٤)، ومسلم: كتاب الفرائض، رقم (١٦١٤).

نوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يعتذرُ ويُحيلُهم على مَنْ؟ على إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
أفضلِ الرسلِ بعدَ محمدٍ ﷺ ولكنه يعتذرُ بشيءٍ فعَلَهُ، ويحيلُهم إلى موسى، ولكنه
يعتذرُ كذلك بشيءٍ فعَلَهُ، ويحيلُهم موسى على عيسى، وعيسى لا يعتذرُ بشيءٍ
فَعَلَهُ لكنه يقولُ: «اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ
الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ».

فسبحانَ الله! انظروا إلى حكمةِ الله؛ أَلْهَمَ اللهُ الخلقَ أن يذهبوا إلى آدمَ، ثم
إلى نوحٍ، فيعتذرُ آدمُ بفعلِ شيءٍ يرى أنه يَمْنَعُهُ من أن يكونَ شافعًا، ونوحٌ يعتذرُ
أيضًا بفعلِ شيءٍ يرى أنه يَمْنَعُهُ من أن يَكُونَ شافعًا، وإبراهيمُ كذلك يعتذرُ بشيءٍ
يرى أنه يَمْنَعُهُ من أن يكونَ شافعًا، وموسى كذلك يعتذرُ بأنه فَعَلَ شيئًا يَمْنَعُهُ من
أن يكونَ شافعًا، وعيسى لا يعتذرُ بشيءٍ لكن يرى أن محمدًا ﷺ أحقُّ منه بالشفاعةِ،
فيأتونَ إلى محمدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيشفعُ، فيأتي اللهُ تعالى للقضاءِ بينَ العبادِ ويرِيحُهُم
من هذا الموقفِ العظيمِ^(١).

وهذه الشفاعةُ هي الشفاعةُ العُظمى، التي تشملُ جميعَ الخلقِ؛ المؤمنَ والكافرَ،
والبرَّ والفاجرَ، والتي لا يقومُ بها إلا واحدٌ من الخلقِ، وهو الرسولُ محمدٌ ﷺ.

الشفاعةُ الخاصةُ:

فنؤمنُ بهذه الشفاعةِ، وأنها لا بدَّ أن تكونَ، ونؤمنُ كذلك بشفاعةٍ أخرى

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

لِلرَّسُولِ ﷺ خَاصَّةٌ بِهِ، وَهِيَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا عَبَرُوا عَلَى الصَّرَاطِ وَوَصَلُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَجَدُوا الْأَبْوَابَ مَغْلَقَةً، فَيَشْفَعُ لَهُمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ فَيُفْتَحُ لَهُ، وَهِيَ شَفَاعَةٌ خَاصَّةٌ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَهَنَّاكَ شَفَاعَاتٌ أُخْرَى عَامَّةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِغَيْرِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ. وَمِنَ الشَّفَاعَةِ أَنَّ الَّذِينَ يُصَلُّونَ عَلَى الْمَيِّتِ يَشْفَعُونَ لَهُ، فِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ»^(١).

سادساً: الإِيْمَانُ بِالْقَدْرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ:

أَمَّا الْإِيْمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ فَنَقُولُ: الْقَضَاءُ وَالْقَدْرُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ إِنْ انْفَرَدَ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ، وَإِنْ ذُكِرَا جَمِيعًا فَقِيلَ: الْقَضَاءُ وَالْقَدْرُ صَارَ الْقَدْرُ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ لَا وَكُتِبَ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، وَالْقَضَاءُ مَا فَعَلَهُ.

وَمِثَالُ ذَلِكَ رِسَالَةُ النَّبِيِّ ﷺ قَدَّرَهَا فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ ثُمَّ قَضَاهَا فِي الْإِرْسَالِ.

قَالَ: «وَتُؤْمِنُ بِالْقَدْرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ» الْقَدْرُ إِمَّا خَيْرٌ لِلْإِنْسَانِ وَإِمَّا شَرٌّ، وَلَكِنْ هَلْ هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِفِعْلِ اللَّهِ، أَوْ بِالنِّسْبَةِ لِمَفْعُولِ اللَّهِ؟ يَعْنِي مِثْلًا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقَدِّرُ الصَّحَّةَ، وَالْخَصْبَ، وَالرَّغَدَ، وَالْعِلْمَ، وَالْعِبَادَةَ، فَهَذَا كُلُّهُ خَيْرٌ، وَيُقَدِّرُ عَرَجًا ضِدَّ ذَلِكَ؛ يُقَدِّرُ الْفَقْرَ، وَالْمَرَضَ، وَالْجَهْلَ، وَالْفُسُوقَ، وَالْعَصْيَانَ، وَهَذَا شَرٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، لَكِنْ كَوْنُ اللَّهِ يَقْدِرُ هَذَا الشَّيْءَ لَيْسَ شَرًّا؛ لِأَنَّهُ عَرَّجَلَّ إِنَّمَا قَدَّرَهُ لِحِكْمَةٍ، وَإِذَا

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ شَفَعُوا فِيهِ، رَقْمُ (٩٤٨).

كَانَ قَدْرُهُ لِحِكْمَةٍ صَارَ خَيْرًا؛ لِأَنَّهُ لَهُ عَاقِبَةٌ حَمِيدَةٌ.

إِذْنًا، هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الْقَدْرِ وَالْمَقْدُورِ، فَالَّذِي يَنْقَسِمُ إِلَى خَيْرٍ وَشَرٍّ هُوَ الْمَقْدُورُ، أَمَّا الْقَدْرُ الَّذِي هُوَ فِعْلُ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَنْقَسِمُ إِلَى هَذَا التَّقْسِيمِ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ مُحَضَّرٌ.

الآن، إِنْسَانٌ مَنَحَرَفٌ كَافِرٌ عَاصٍ، كُلُّ مَا يُذَكَّرُ مِنْ مَعْصِيَةٍ يَرْتَكِبُهَا، فَأُصِيبَ بِالْمَرَضِ، وَكَانَ بِالْأَوَّلِ صَاحِبًا نَشِيطًا، وَحِينَئِذٍ أُصِيبَ بِالْمَرَضِ فَكَرَّرَ فِي الْأَمْرِ فَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ، فَالْمَرَضُ بِالنِّسْبَةِ لِهَذَا الرَّجُلِ مَكْرُوهٌ وَلَيْسَ مَحْبُوبًا، وَخَيْرٌ وَلَيْسَ شَرًّا، هُوَ نَفْسُهُ شَرٌّ لَكِنْ صَارَ خَيْرًا؛ لِأَنَّهُ هَذَا الرَّجُلُ الْفَاسِقُ الطَّاعِي لَمَّا أُصِيبَ بِالْمَرَضِ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَفَكَرَّرَ وَقَالَ: أَيْنَ أَنَا! أَنَا ضَائِعٌ. ثُمَّ عَادَ إِلَى اللَّهِ، فَصَارَ هَذَا الْمَرَضُ الَّذِي أَصَابَهُ خَيْرًا لَهُ.

وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ بَلَغَنِي عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ فَاسِقًا مَنَحَرَفًا فَمَاتَ أَبُوهُ، فَأُصِيبَ، ثُمَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لَمَّا مَاتَ أَبُوهُ اسْتَقَامَ الرَّجُلُ.

إِذْنًا، الْمَصَائِبُ بِنَفْسِهَا مَكْرُوهَةٌ، لَكِنْ قَدْ تَكُونُ خَيْرًا، وَاسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ وَالْفَسَادُ شَرٌّ، شَرٌّ وَلَيْسَ خَيْرًا ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَعَرَفُوا أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْفَسَادِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ، فَحِينَئِذٍ اسْتَقَامُوا وَصَارَ هَذَا الْفَسَادُ خَيْرًا، وَهَذَا شَيْءٌ مُشَاهَدٌ.

إِذْنًا، الْقَدْرُ بِالنِّسْبَةِ لِتَقْدِيرِ اللَّهِ خَيْرٌ مَهْمَا كَانَ، وَبِالنِّسْبَةِ لِلْمَقْدُورِ يَكُونُ خَيْرًا وَيَكُونُ شَرًّا.

اللهُ عَزَّوَجَلَّ قَسَمَ الْعِبَادَ إِلَى مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢٠] وَالْإِيْمَانُ خَيْرٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَالْكَفْرُ شَرٌّ، لَكِنْ كَوْنُ اللَّهِ يُقَدِّرُ الْكَفْرَ خَيْرٌ، فَلَوْلَا الْكَفْرُ لَمْ يَعْرِفِ الْإِنْسَانُ قَدَرَ الْإِيْمَانِ.

وَلِهَذَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ عُرْوَةٍ إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْجَاهِلِيَّةَ»^(١). كَلَامٌ عَجِيبٌ! لَا يَنْقُضُ الْإِسْلَامَ إِلَّا مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْكَفْرَ، أَمَا مَنْ عَرَفَ الْكَفْرَ ثُمَّ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَتَمَسَّكُ بِالْإِسْلَامِ.

إِذَنْ، هَذَا الْكَفْرُ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ فَائِدَةٌ عَظِيمَةٌ، فَلَوْلَا الْكَفْرُ لَمْ يُعْرِفِ الْإِيْمَانُ، وَلَوْلَا الْكَفْرُ لَمْ تَقُمْ رَايَةُ الْجِهَادِ، يَعْنِي الْجِهَادَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكَافِرِينَ، وَلَوْلَا الْكَفْرُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي جَهَنَّمَ، وَقَدَّرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلنَّارِ وَلِلْجَنَّةِ أَنْ يَكُونََا فِيهِمَا مِلْئُهُمَا. وَالْمَصَالِحُ كَثِيرَةٌ فِي وَجُودِ الْكَفْرِ.

إِذَنْ، لَوْ سَأَلْتُكَ سَائِلٌ: هَلْ فِي الْقَدَرِ خَيْرٌ وَشَرٌّ؟

فَقُلْ: أَمَا بِالنِّسْبَةِ لِتَقْدِيرِ اللَّهِ نَفْسِهِ فَهُوَ خَيْرٌ، وَأَمَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمَقْدُورِ فَمِنْهُ خَيْرٌ وَمِنْهُ شَرٌّ.

إِذَنْ، لَوْ أَنَّكَ قُلْتَ: لَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا شَرَّ فَخَطَأٌ، وَلَيْسَ فِيهِ شَرٌّ خَطَأٌ، وَلَيْسَ فِيهِ خَيْرٌ خَطَأٌ، فَلَا بَدَّ مِنَ التَّفْصِيلِ فَيَقَالُ: أَمَا بِالنِّسْبَةِ لِلْقَدَرِ الَّذِي هُوَ تَقْدِيرُ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ شَرٌّ إِطْلَاقًا، وَأَمَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمَقْدُورِ فَمِنْهُ خَيْرٌ وَمِنْهُ شَرٌّ.

ولو قَالَ لَكَ قَائِلٌ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الشَّرَّ لَا يَنْسَبُ إِلَى فِعْلِ اللَّهِ؟
 قُلْنَا: الدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي
 يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(١). فَلَا يَنْسَبُ الشَّرُّ إِلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَى مَقْدُورِ اللَّهِ.
 وَهَنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الْقَدْرِ الَّذِي هُوَ فِعْلُ اللَّهِ، وَالْمَقْدُورِ الَّذِي هُوَ مَفْعُولُهُ.

مراتبُ الإيمانِ بالقدرِ:

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدْرِ لَهُ مَرَاتِبٌ، وَلَا بَدَأَ مِنَ الْإِيمَانِ بِهَا:

المرتبةُ الأولى: الإيمانُ بالعلمِ:

وَمَعْنَى الْإِيمَانِ بِالْعِلْمِ أَنَّ تَوْمَنَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، أَزْلًا وَأَبَدًا،
 أَزْلًا بِاعْتِبَارِ الْمَاضِي، وَأَبَدًا بِاعْتِبَارِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، سَوَاءً مِمَّا
 يَفْعَلُهُ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْ مِمَّا يَفْعَلُهُ الْخَلْقُ، فَهُوَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ أَزْلًا وَأَبَدًا.

قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا سَأَلَهُ فِرْعَوْنُ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ٥١ قَالَ
 عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿طه: ٥١-٥٢﴾. فَلَا يَجْهَلُ وَلَا يَنْسَى،
 فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ أَزْلًا وَأَبَدًا.

وَهُوَ يَعْلَمُ أَفْعَالَ الْعِبَادِ قَبْلَ وَقُوعِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي
 الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

فَطَهَّرَ قَلْبَكَ - يَا أَخِي - وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١).

فطَهَّرَ قَلْبَكَ، ولا تتظاهر أمام الناس بأنك مؤمنٌ ولكن القلبُ خربان، فطَهَّرَ القلبَ قبلَ كلِّ شيءٍ، فعليه المدارُّ، وأسألُ اللهَ أن يصلحَ قلبي وقلوبكم، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ﴾ [العاديات: ٩-١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۖ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۖ﴾ [الطارق: ٨-٩].

فكم من إنسانٍ إذا رأيته أعجبك بهيئته، وإذا قال فإذا قوله من أحسن ما يكون، ولكنه -والعياذُ بالله- من أفسق عبادِ الله، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۖ ﴿٥٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]. أعاذنا الله وإياكم من هذا.

وقال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ أَجْسَامٌ وَهِيئةٌ كَأَنَّهُمْ مَشِخَةٌ أَوْ عِبَادٌ ۖ ﴿١﴾ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ۖ فَصَحَاءُ مِنْ أَفْصَحِ النَّاسِ وَأَبِينِ النَّاسِ قَوْلًا، لكن ﴿كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُّسْنَدَةٌ ۖ﴾ خشبةٌ ما تستقيم، بل هي خشبةٌ مسندةٌ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صِدْقَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

فأقول يا أخي: طَهَّرَ قَلْبَكَ، وفكَّرْ في قلبك هل فيه إنابةٌ إلى الله، وهل فيه إخلاصٌ لله، وهل فيه محبةٌ لما شرع الله، وهل فيه محبةٌ لعبادِ الله الصالحين أو لا؟ طَهَّرَ قَلْبَكَ فهو الأصل والمدارُّ، قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

إذن، المرتبة الأولى من مراتب الإيمان بالقضاء والقدر الإيمان بالعلم، أي بأن الله تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، لا من أفعال العباد، ولا من أفعاله نفسه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهذا لا بدَّ منه.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقالت الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

المرتبة الثانية: الكتابة:

أن تؤمن بأن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء إلى قيام الساعة، فكلُّ شيء مكتوبٌ عند الله عزَّ وجلَّ لا يتغير، وكتب قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، لا إله إلا الله!

ومتى كانت الكتابة؟

كتب قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وهي مدةٌ طويلةٌ.

وكيف كانت الكتابة؟

خلق الله القلم، وهو قلمٌ لا نعرف كيفيته، ولا نعرف مادته، ولا ندري أمن ذهبٍ أو فضةٍ أو من لؤلؤ، أو من جوهر: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(١). أمرٌ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة (ن)، رقم (٣٣١٩).

مُوجَّهٌ لِقَلَمٍ جَمَادٍ فَكُتِبَ الْقَلَمُ بِأَمْرِ اللَّهِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وهنا نسأل: هل القلم امتثل أو لا؟

نقول: نعم، امتثل؛ لأنه سأل: ماذا يكتب، فالأمر المَجْمُلُ يحتاجُ إلى بيان، ولهذا لما قال: «اُكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». فجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامة، سبحانه الله! الربُّ عَزَّوَجَلَّ يوجَّهُ الخطابَ إلى الجَمَادِ فيمتثل.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوِيَ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ تخبرُ الأرضُ بما عَمَلَ عليها من خيرٍ وشرٍّ، ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤-٥]، فاللهُ تعالى له الملكُ، إذا خاطبَ شيئاً فلا بدَّ أن يمتثل.

إذن، المرتبةُ الثانيةُ هي الإيمانُ بالكتابة، أي بأن الله كتبَ في اللوحِ المحفوظِ مقاديرَ كلِّ شيءٍ إلى أن تقومَ الساعةُ، ودليلُ هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠] والجملةُ هنا استفهامٌ تقرير، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] يعني قد شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ، قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ هذا الكتابُ هو العلمُ ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

فما أصابَ الإنسانَ لم يكنْ ليخطئهُ، وما أخطأهُ لم يكنْ ليصيبهُ، ولهذا ترى نفسك أنك تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِكَ تريدُ شيئاً وإذا بالقَدَرِ يصيبُك، وأنتَ لم تُرْدهُ، أليسَ

الواحد من الناس يذهب يسافر يريد غرضاً من الأغراض فإذا بالقدر يحول بينه وبين هذا الغرض؛ لأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

المرتبة الثالثة: الإيمان بمشيئة الله:

أي بعموم مشيئة الله، وأن كل شيء في الكون لم يكن إلا بمشيئة الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فما شاءه الله عزَّ وجلَّ لا بدَّ أن يكون، فنؤمن بعموم مشيئة الله في كل ما يكون.

وهذا بالنسبة لفعل الله عزَّ وجلَّ واضح أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وكذلك بالنسبة لفعل العبد فهو واقع بمشيئة الله؛ فأنت الآن تتحرك وتخرج من بيتك وتأتي إلى المسجد، وترجع من المسجد إلى البيت، وتبيع وتشتري، وتطلب العلم، وتسافر وتقيم، فهذا فعلك، وفعلك هذا بمشيئة الله.

والدليل على أن فعل العبد من مشيئة الله قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. إذن فعل العبد بمشيئة الله.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فكل أفعال العباد المؤمنين والكافرين والفاسقين والأبرار كلها بمشيئة الله عزَّ وجلَّ.

فإذا قال قائل: إذا كان بمشيئة الله فما ذنب الفاسق أن يعذبه الله، والشيء قد

وقع بمشيئة الله وما للإنسان قدرة، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فكيف يعذب الفاسق والكافر والمجرم وفعله بمشيئة الله؟

نقول: إن الله تعالى أجاب على ذلك هو بنفسه جلّ وعلا، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]. ولو كان لهم حجة في ذلك ما أذاقهم الله بأسه؛ لأن الله تعالى أرحم وأعدل من أن يعذب من لا يستحق العذاب.

إذن، يا إخواني كون ما نفعه بمشيئة الله لا يبيح لنا، ولا يسوغ لنا أن نحتج على معاصينا بقدر الله؛ لأن الله أبطل هذه الحجة ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ ما ينفعهم هذا العذر، فكون الفعل بمشيئة الله هل الله عز وجل أجبرك عليه، أو جعل لك مشيئة وإرادة، فهل الله أجبركم على الفعل أو جعل لكم مشيئة وإرادة؟

نقول: جعل لنا مشيئة وإرادة، فالإنسان يدخل الجامعة ويدخل المعهد ويدخل المدرسة باختياره، ولا يشعر أبداً أن أحداً أجبره، ولا أن هناك مشيئة أجبرته، بل هو باختياره.

ولكن اعلم يا أخي أنك لن تفعل فعلاً ولن تشاء شيئاً إلا وقد سبقتك مشيئة الله، فإذا شئت شيئاً علمنا أن الله قد شاءه، وإذا فعلت شيئاً علمنا أن الله تعالى قد خلقه بها أعطاك من القدرة على الفعل؛ أي المشيئة والإرادة.

وهل للإنسان إرادة مطلقة، أو مقيدة؟

نقول: له إرادة مطلقة، لكنها لن تكون إلا بإرادة الله، ولهذا اشتهر عند بعض الناس الآن هل الإنسان خيرٌ أو مسيرٌ، نقول: هذه جملة محدثة، فما كانت في كلام السلف الصالح ولا في كلام الأئمة، فهي محدثة.

والواقع أن الإنسان خيرٌ إلا فيما لا طاقة له به، فليس اختياره، فلو سافر الإنسان وأصيب بحادث فسفره مخيرٌ فيه، فلو شاء سافر وإن شاء ما سافر، وحدوث الحادث مسيرٌ فيه ومقدرٌ عليه، فما لا طاقة لك به كأنه ليس من إرادتك، وأما ما ليس لك به طاقة فإنه من إرادتك، وأنت مختار.

قال الله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾

[آل عمران: ١٥٢].

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَفَّرْتَهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرَهُ أَيْمَنُكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] وهذا في الأيمان، فأنت هنا خيرٌ ولست مسيرًا، تفعل هذا أو هذا، فأنت حرٌّ.

فإذن، للإنسان حرية وله اختيار، ولكن متى اختار شيئًا علمنا أن هناك إرادة سبقته، وهي إرادة الله.

المرتبة الرابعة: الخلق:

أن تؤمن بأن الله تعالى خالق كل شيء، والدليل على أن الله خالق كل شيء قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال

تَعَالَى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

فكل شيء هو مخلوق لله، خلق السموات والأرض، والنجوم والقمر، فلا أحد يستطيع أن يخلق مثلها، لكن من خالق ركوع الإنسان؟ ومن خالق سجود الإنسان؟ ومن خالق قيامه؟ ومن خالق قعوده؟

نقول: الإنسان فاعل والله خالق، فالإنسان فاعل، فهو الذي يصلي ويصوم ويتصدق، ويفعل الخير، ولكن الله هو الخالق، فكيف يكون الإنسان فاعلاً والله هو الخالق؟

نقول: تصوّر هذا سهلاً، ففعلك ناشئ عن أمرين: الأمر الأول: الإرادة، والأمر الثاني: القدرة، فعندما أحرك يدي فهذا ناشئ عن إرادة الحركة، وعن قدرة، فإذا لم يُرد الإنسان الشيء فلا يكون ولا يتحرك بدون إرادة، وكذلك لا بد من القدرة، فلو أن إنساناً مشلولاً -أجارنا الله وإياكم من ذلك- أراد أن يقوم ليسابق غيره فإن هذا ما يمكن؛ لأنه غير قادر.

فالآن عندنا أربعة رجالٍ أحدهم مشلول، قال الأول: من يسابقني؟ فقال المشلول: أنا لا أقدر، فقال للثاني: تسابقني؟ قال: لا أريد أن أسابق، فقال للثالث: سابقني، قال: نعم أسابقك.

فالمشلول لم يسابق لعدم القدرة، والثاني لعدم الإرادة، فهو لو قام مشى، لكنه لم يُرد، والأخير الذي تحدّى وقال: أنا أسابقك هذا عنده إرادة وقدرة.

المهم أن نقول: فعل العبد ناتج عن إرادة وقدره، فغير المريد لا يمكن أن يفعل، وغير القادر لا يمكن أن يفعل، والذي خلق الإرادة وخلق القدرة هو الله عز وجل. فصار فعل العبد مخلوقاً لله لأنه ناتج عن إرادته وقدرته، وخالق إرادته وقدرته هو الله عز وجل. وهذا واضح والحمد لله.

من فوائد الإيمان بالقدر:

والإيمان بالقدر له فوائد عديدة، منها طمأنينة القلب؛ أن الإنسان يطمئن قلبه، وينشرح صدره لما وقع؛ لأنه يعلم أنه بقضاء الله، ويعلم أيضاً أنه لا يمكن أن يتخلف، وهذه نقطة هامة، فلا يمكن تغيير ما كان عما كان، فيطمئن، ولهذا قال علقمة، وهو من أكابر أصحاب ابن مسعود، قال في قول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»^(١).

فتجد الإنسان الذي يؤمن بالقدر مطمئناً لأنه يقول: هذا قدر الله ولا بد أن يكون، فمهما حاول الإنسان أن يمنع ما وقع فلن يستطيع، وحينئذ تطمئن وتستريح. ولهذا لا تجد أحداً أطيب نفساً، وأريح قلباً ممن حقق الإيمان بالقدر، قال النبي -صلوات الله وسلامه عليه-: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ». والمراد القوي في إيمانه وليس كبير الجسم قوي العضلات، فالؤمن القوي في إيمانه خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، ثم إن الرسول ﷺ لما قال

(١) أخرجه البخاري تعليقا: كتاب تفسير القرآن، باب سورة التغابن، والبيهقي في السنن الكبير (٦٦/٤).

هذه الجملة رَبِّمَا يَتَوَهَّمُ الإنسانُ أن المؤمنَ الضعيفَ لا خيرَ فيه، فقال: «وَفِي كُلِّ خَيْرٍ»^(١). وانظر إلى الكلام، وأرجو -يا إخواني- الانتباه لإصلاح القول وإصلاح الكلام، قال: «وَفِي كُلِّ خَيْرٍ» ولو لم يقل هذه الجملة لقال قائل: إن المؤمنَ الضعيفَ لا خيرَ فيه، لكن قال: «وَفِي كُلِّ خَيْرٍ».

إن النبي ﷺ كلامه فصلٌ وبيانٌ، وكلامُ الله أعظمُ وأعظمُ، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٥].

فخذ من كلام الله وكلام رسوله الاحتراز أو الاحتراس، فإذا خفت أن يؤهم كلامك شيئاً غير مراده فأت بما يدل على مراده؛ قال النبي ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلِّ خَيْرٍ» ثم قال: «أَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ». يعني ابذل الجهد في تحصيل ما ينفعك من أمور الدين والدنيا، حتى ما ينفع من الدنيا فالإنسانُ مأمورٌ أن يطلبه.

ثم قال: «وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ». اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك ﷺ، لما أمر بالحرص فإنه ربما يعتَمِدُ الإنسانُ على نفسه، لكنه قال: واستعن بالله؛ لا تعجب

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

بنفسِكَ، ولا تعتمدُ على نفسك، بل استعن بالله.

ثم قال: «وَلَا تَعْجِزْ» ومعنى (لا تعجز): لا تتكاسل فتضعف، ولا تهمل، فما دام الشيءُ نافعًا فاستمر فيه.

ولهذا مما يقطعُ حياة الإنسان وينزعُ البركة عن عمله أنه يتخبطُ، فيبدأ بالعمل ثم يعودُ إلى عملٍ آخر، ثم يعودُ إلى عملٍ ثالثٍ، وهلمَّ جرًّا، وهذا غلطٌ، فهذا مما يقطعُ حياتك وعملك.

ويؤثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي شَيْءٍ فَلْيَلْزِمْهُ»^(١).

فإذا رأيت أن الله قد بارك لك في هذا العمل فاستمر فيه، حتى لو كان عندك سيارةٌ قد بارك الله فيها وصارت تعمل ولم تكدر عليك لا بخرابٍ ولا بغيره، فالزمها، ولا تفرط فيها.

ثم قال في الحديث: «وإن أصابك شيءٌ» يعني بعد أن تبذل الجهد وتستعين بالله، وتأتي العمل بقوة ونشاطٍ إن أصابك شيءٌ، يعني خلافَ مرادك «فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا».

إنسانٌ مثلاً سافر إلى مكة للعمرة أو للحج، وفي أثناء الطريق أصيب بحادثٍ

(١) أخرج ابن ماجه: كتاب التجارات، باب إذا قسم للرجل رزق من وجه فليزمه، رقم (٢١٤٧) من حديث أنس بن مالك مرفوعاً: «مَنْ أَصَابَ مِنْ شَيْءٍ فَلْيَلْزِمْهُ» وذكر لفظه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٢٣/١٨) وذكر أنه يؤثر عن بعض السلف.

فانكسرت رجله، فهذا الرجل حَرَصَ على ما ينفعه، واستعان بالله، ومضى في عمله، لكن أصيب بالحادث، ولم يتمكن من أداء العمرة، يقول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا»، فلا تقل: لو أني لم أسافر وبقيت لسلمت من هذا الكسر «وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

وصدق الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإذا قلتَ فيما نزل بك مما تكره: لو أني فعلت. فاعلم أن الشيطان سوف يتسلط عليك وسوف تبقى في الأوهام والخيالات والوساوس، قال النبي ﷺ: «وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ» يعني هذا قدر الله «وَمَا شَاءَ فَعَلَ»، فحينئذ نستسلم للأمر إذا كان الأمر بعد بذل الجهد على خلاف ما تريد، حينئذ استسلم لأمر الله واستسلم للقضاء، ولكن قل: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ.

فهذه بُدْ مهمةٌ فيما يتعلق بالإيمان بالقدر.

مسألة: رجل يعصي الله فقل له في ذلك، فقال: والله هذا شيءٌ مقدَّرٌ عليّ، أسأل الله أن يهديني.

فيقال: نعم أو افقك أن هذا بقدر الله، لكن قد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً، تب إلى الله، فإذا تاب استقامت حاله.

يُذَكَّرُ أن أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جيء إليه بسارق، والسارق هو الذي يأخذ المال بخفية؛ لأنه لو أخذه قهراً سُمِّيَ غاصباً، والذي يأخذ بخفية يسمَّى سارقاً.

أتى لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسارق، فأمر بقطع يده -والدليل قول الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وفي قراءة عبد الله

ابن مسعود: (فاقطعوا أيانهم)^(١) فتقطع اليد اليمنى - فقال: سَرَقْتُ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فَقَالَ لَهُ: «وَأَنَا أَقْطَعُ يَدَكَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ»^(٢).

الله أكبر! وقطع اليد عقوبة عظيمة؛ لأن السارق ربما يتمنى أن يموت ولا يمشي بين الناس مقطوع اليد لأنه سارق، فهو عارٌ عليه، فإن قيل: لماذا لا نَرَحُّهُ ونقول: أعطنا دية اليد خمسين بعيراً ونأخذ الإبل نجعلها في بيت المال، وهذا الرجل السارق تبقى يده؟

قلنا: سبحان الله! نحن أحكم أم الله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]. ولهذا سمع أعرابي - وهو البدوي - قارئاً يقرأ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ والله غفورٌ رحيمٌ. فقال الأعرابي: كلامٌ من هذا؟ قال القارئ: كلامُ الله. قال: أعد فاعاد: والله غفورٌ رحيمٌ، فقال: ليس هذا كلامُ الله، فتنبه القارئ فقال: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]. فقال: أصبت، هذا كلامُ الله. فقال له القارئ: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قال: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا، عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

فالله عَزَّوَجَلَّ أحكمُ منا، وأرحمُ منا، ومع ذلك أمر أن تُقطع يدُ السارق؛ لأن هذا السارق وإن أصيب بمصيبة فهو كفارةٌ له، وعذابُ الدنيا أهونُ من عذابِ الآخرة.

لكن هل هذا يقطع دابر السراقِ ويمنع تكرار السرقة أو لا يمنع؟

(١) تفسير الطبري (١٠ / ٢٩٤).

(٢) منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣ / ٢٣٤).

نقول: يمنع، فأَيُّ واحدٍ يَهْمُ بالسَّرقة وهو يعرفُ أنه إذا سَرِقَ قُطِعَتْ يَدُهُ فلن يَسْرِقَ، ولا يُمكنُ أن يَسْرِقَ، ولقد قرأتُ قديماً من مؤلَّفاتِ الكتَّابِ المنحرفين السفهاءِ مَنْ قال: لو أننا قَطَعْنَا يدَ السارقِ لكانَ نصفُ الشعبِ أَشَلَّ، نقولُ: الآنَ فهمنا أن هذا الرجلَ نصفُ شعبِهِ سُراقٌ! لكن لو قُطِعَتْ أيديهم ما صارَ ولا واحدٌ في الألفِ مِنَ السُّراقِ، لكنَّ هؤلاءِ الكتَّابِ المنحرفين يُموِّهونَ على السذجِ مِنَ الناسِ، كالذي قال: لو قتلنا القاتلَ لَكُنَّا زدنًا قتلَ نفسٍ أُخرى، فرجلٌ قتلَ آخرَ عمداً وتمتَّ شروطُ القصاصِ ونَفَّذْنَا في القاتلِ القصاصَ، فعندنا الآنَ نفسانِ: المقتولُ ظلماً والمقتولُ قصاصاً، يقولُ: لا تَقْتُلْهُ، فأنتَ الآنَ قتلتَ نفسين، لكن لو تركته لم يكن المقتولُ إلا واحداً؟

ولكن نقولُ: كَذَبَ قولُكَ، وكَذَبَ حِسُّكَ، وكَذَبَ ظَنُّكَ، اسمع قولَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فالقصاصُ حياةٌ؛ لأنه عدلٌ، ولهذا جاءتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يعني يا أصحابَ العقولِ المفكرين الذين ينظرونَ في العواقبِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

المهمُّ أنه لا حجةَ للعاصي بقدرِ الله؛ لأن الله أعطاه إرادةً، وأعطاه اختياراً، ويمكنُ أن يتوبَ، فإذا تابَ تابَ اللهُ عليه، ومحا عنه الذنبَ.

فإن قال قائلٌ: وردَ في الحديثِ: «اِخْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيِّبَتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرِ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ

سَنَّةٌ؟» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»^(١). يعني غلبَ آدَمُ موسى بالحجة، وهذه حجةٌ بالقدر، فما الجوابُ عن هذا الحديث؟ فهذا يقتضي أن العاصيَ محتجٌ بالقدرِ على معصيته، والنبِيُّ ﷺ شهدَ بأن الحجةَ معَ آدَمَ، وهذا مُشكِلٌ.

أجابَ العلماءُ بأن موسى لم يُرد الاحتجاجَ على آدَمَ بالمعصية، ولا يمكنُ أن يحتجَّ عليه بالمعصية؛ لأن موسى أبرُّ وأكرمُ من أن يلومَ أباهُ على ذنبٍ تابَ منه، وقبِلَ اللهُ توبةَ آدَمَ واجْتَبَاهُ، وهداهُ، ولا يمكنُ لموسى وهو أحدُ الأنبياءِ بل أحدُ المرسلينِ أولي العزمِ أن يلومَ آدَمَ على شيءٍ تابَ منه، لكنَّ آدَمَ احتجَّ بالقدرِ على المصيبةِ وهي إخراجُه من الجنة، وليسَ على معصيته، وهي أكلُه من الشجرة.

وهذا جوابُ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ^(٢)، وهو جوابٌ سديدٌ يزولُ به الإشكالُ، وهو مناسبٌ تمامًا لمقامِ موسى ومقامِ آدَمَ؛ فإن آدَمَ لم يكن ليحتجَّ بالقدرِ على المعصية، وموسى لم يكن ليلومَ أباهُ على معصيةٍ تابَ منها واجْتَبَاهُ اللهُ تَعَالَى وهداهُ.

إذن، لا حجةَ للعاصي على معصيته بقضاءِ الله وقدره.

ولو أننا أمسكنا زانيًا، وقلنا: إن هذا الزاني ثيبٌ وتمت شروطُ الرجمِ بحقه، فارجموه، فقالَ لنا: هذا بقضاءِ الله وقدره، فإننا نقول: ورجمنا إياك بقضاءِ الله وقدره؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم (٦٦١٤)، ومسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، رقم (٢٦٥٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢٥/٢).

كما قال عمرُ للسارق: «قطعنا يدك بقضاءِ الله وقدره».

ولو أن إنسانًا قذفَ شخصًا فقال له: أنت زانٍ، فإننا نقولُ للقاذفِ: هاتِ شهودًا أربعةً وإلا جلدناكَ ثمانينَ جلدةً، فإن قالَ: الحقيقةُ أنني ما قلتُ هذا إلا بقضاءِ الله وقدره، قلنا له كما قالَ عمرُ: ونحنُ لا نجلدُكَ إلا بقضاءِ الله وقدره.

ولو أن إنسانًا لا يُصلي مع الجماعة، والصلاةُ مع الجماعةِ واجبةٌ على الرجالِ، لكن هذا يتخلفُ، فقال له الأميرُ: لماذا تتخلفُ؟ قالَ: بقضاءِ الله وقدره، قالَ: إذن لا تنمُ إلا بالمسجدِ، وإلا فبادرْ بالصلاةِ مع الجماعةِ، وهل لوليِّ الأمرِ أن يعزِّره هذا التعزيرُ؟ الجوابُ: نعم، إذا كان فيه استقامةٌ له ولغيره، فالتعزيرُ إنما يراذُ به إصلاحُ الخلقِ، والوسائلُ غيرُ معينةٍ، فكلُّ وسيلةٍ يصلحُ اللهُ بها الخلقُ فهي جائزةٌ ما لم يتعدَّ فيها حدودَ الله، فإن تعدَّى المُعزِّرُ حدودَ الله فإنه لا يجوزُ.

ولهذا لو أن رجلًا قبَّلَ امرأةً أجنبيةً منه، ففُضِيَ الحاكِمُ أن يُجلدَ مئةَ جلدةٍ، فإن هذا يجوزُ؛ لأن الزنى وهوَ أعظمُ إذا كان غيرَ ثيبٍ يُجلدُ مئةَ جلدةٍ، فلا يمكنُ أن يتجاوزَ الإنسانُ في التعزيرِ الحدودَ، إذا كانتِ المعصيةُ التي يعذَّرُ عليها من جنسِ المعصيةِ التي بها الحدودُ؛ لئلا نتعدَّى حدودَ الله عزَّ وجلَّ.

والحمدُ لله الذي بنعمتهِ تتمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه.



سورة القدر

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي
اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ،
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ
خَبْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى
مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥].

سُورَةُ الْقَدْرِ هِيَ سُورَةٌ أَنْزِلَتْ كَامِلَةً فِي بَيَانِ فَضْلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ۝١ أَيُّ الْقُرْآنِ ۝٢ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝٣﴾، ثُمَّ فَخَّمَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ
فَقَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٤﴾ يَعْنِي لَتَعْظِيمِ شَأْنِهَا فَهِيَ لَيْلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ:
﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَبْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾، وَأَلْفُ شَهْرٍ أَيُّ ثَلَاثُ وَثَمَانُونَ سَنَةً وَأَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ
تَقْرِيْبًا.

وقوله: ﴿خَبْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ أَيُّ: فِي ثَوَابِهَا وَأَجْرِهَا.

وهذه الليلة -ليلة القدر- لَيْسَتْ إِلَّا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ،

فلا تَلْتَمِسْهَا فِي رَجَبٍ، وَلَا شَعْبَانَ، وَلَا مُحَرَّمٍ، وَلَا أَيَّ شَهْرٍ، بَلْ وَلَا فِي الْعَشْرِينَ الْأُولَى مِنْ رَمَضَانَ، فَهِيَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ.

وَقَدْ اعْتَكَفَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ يَتَحَرَّى لَيْلَةَ الْقَدْرِ، ثُمَّ اعْتَكَفَ فِي الْعَشْرِ الْأَوْسَطِ - وَتَبْدَأُ لَيْلَةَ الْحَادِي عَشْرٍ وَتَنْتَهِي لَيْلَةَ الْعَشْرِينَ - ثُمَّ قِيلَ لَهُ: إِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَاعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ، وَذَكَرَ لِأَصْحَابِهِ أَنْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْتَكِفَ فَلْيَعْتَكِفْ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ؛ تَحَرِّيًّا لِلَّيْلِ الْقَدْرِ^(١).

وَقَدْ أَرَاهَا النَّبِيُّ ﷺ بِعَيْنِهَا، ثُمَّ أَنْسِيَهَا، وَلَكِنَّهُ أُعْطِيَ عَلَامَةً، قَالَ: «وَقَدْ رَأَيْتُنِي أَسْجُدُ فِي صَبِيحَتِهَا فِي مَاءٍ وَطِينٍ»؛ يَسْجُدُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي مَاءٍ وَطِينٍ، وَقَدْ أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَكَانَ مَسْجُدُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَرِيشٍ، يَعْنِي سَقْفَهُ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ، فَنَزَلَ الْمَطَرُ إِلَى الْأَرْضِ، وَابْتَلَّتِ الْأَرْضُ وَصَارَتْ طِينًا، فَأَصْبَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ الْيَوْمَ لَيْلَةَ إِحْدَى وَعَشْرِينَ، وَصَلَّى الْفَجْرَ، وَلَمَّا انْصَرَفَ شَاهَدَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى جَبْهَتِهِ أَثَرَ الْمَاءِ وَالطِينِ.

إِذَنْ، كَانَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ذَلِكَ الْعَامَ لَيْلَةَ الْوَاحِدِ وَالْعَشْرِينَ، لَكِنَّا نَتَّقِلُ. وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ لَهَا عَلَامَاتٌ لَاحِقَةٌ، وَعَلَامَاتٌ مُصَاحِبَةٌ، وَلَيْسَ لَهَا عَلَامَةٌ سَابِقَةٌ؛ وَالْمُصَاحِبَةُ أَنْ تَكُونَ اللَّيْلَةُ لَيْلَةً مُضِيئَةً، يَعْنِي أَنْ نُورَهَا أَكْثَرُ مِنْ نُورِ غَيْرِهَا مِنْ لَيَالِي الْعَشْرِ، هَذَا وَاحِدٌ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب السجود على الأنف والسجود على الطين، رقم (٨١٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتياعاً لرمضان، رقم (١١٦٧).

ثانيًا: أن المؤمنَ يَنشِرُ صَدْرُهُ لها، وينشُرُ لكثرةِ العملِ فيها، وتجذُّه في أسرٍّ ما يكون، وهذا شيءٌ يَقْدِفُهُ اللهُ تَعَالَى في قلبِ المؤمنِ، فيستريحُ للعبادة، ويكثرُ منها، ويخضُرُ قلبه فيها. هذه علامةٌ.

والعلامةُ اللاحقةُ أن صَبِيحَتَهَا تَطْلُعُ الشمسُ صافيةً ليس لها سُعَاعٌ، واستنبطَ بعضُ العلماءِ رَحِمَهُمُ اللهُ الحِكْمَةَ في ذلك، قال: لأنَّ الملائكةَ في تلكِ الليلةِ تَمَلَأُ الأرضَ؛ لأنها تَنْتَزِلُ فيها، وجبريلُ ينزلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والشمسُ إذا طلعتْ تَطْلُعُ بينَ قَرْنَيِ شَيْطَانٍ، كما ثَبَتَ عن النبي ﷺ^(١)، لكن في صَبِيحَةِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ بناءً على أن الملائكةَ مَلَأَتِ الأرضَ فلا مجالَ للشياطينِ في العملِ، فتخرجُ الشمسُ صافيةً، ليس لها سُعَاعٌ. فهذه علامةٌ لاحقةٌ.

فإذا قال قائلٌ: ما فائدَتُنا من العلامةِ اللاحقةِ؟

قلنا: العلامةُ اللاحقةُ لنا فيها فائدةٌ، وهي أن الإنسانَ إذا كان مُوَفَّقًا في تلكِ الليلةِ للعملِ الصالحِ فهذه بُشْرَى وتهنئةٌ له أَنَّهُ وافقَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وهذا من نعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَمَنْ وَفَّقَ في تلكِ الليلةِ للقيامِ، والعملِ الصالحِ، فإنه يكونُ هذا كالتهنئةِ له، والبشرى بأنه أصابَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ.

والْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٢)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها، رقم (٨٢٨).

سورة الزلزلة

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فإِنِّي أودُّ من إخواني المسلمين أَنْ يَعْتَنُوا بِكَلَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَأَنْ يَتَدَبَّرُوا مَعْنَاهُ؛ لِأَنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ مِنْ أَجْلِ إِسْعَادِ الْبَشَرِيَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ١-٨].

قَوْلُهُ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] وَذَلِكَ لِقِيَامِ السَّاعَةِ، فَإِنِهَا تَزْلُزُ الزَّلْزَالِ الْعَظِيمِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَثْقَاءً رَبُّكُمْ إِنْ زُلْزَلَتِ السَّاعَةُ شَوْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرْوَنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ

كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمَلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿الحج: ١-٢﴾.

قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] وما في بطنها من بني آدم، فإن بني آدم يموتون ثم يُدفنون في القبور، يعودون إلى الأرض التي خُلِقُوا مِنْهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وقال نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقومه: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧-١٨].

قوله: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: ٣] يعني: أي شيء لها؟ ما الذي حصل؟ وما الذي كان؟ وذلك من شدة الفرع العظيم.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] هذا جواب (إذا).

ومعنى ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي تخبر عما عَمِلَ عليها من خيرٍ وشرٍّ، والأرض جَمَادٌ، والجمادُ يتكلمُ بأمرِ الله؛ واستمع إلى قولِ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

فالأرض تتكلمُ، فإذا أمرها الله عَزَّوَجَلَّ تكلمت، ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ﴾ [الزلزلة: ٤-٥] الله أكبر! ما أعظم غرورك يا ابن آدم! لا يمكنك أبداً أن تُنكر ما عَمِلْتَ من خيرٍ وشرٍّ، إن أنكرته شَهِدَتْ عَلَيْكَ الجوارحُ، وإن لم تشهدْ عليك الجوارحُ شَهِدَتْ عَلَيْكَ الأرضُ، فلا فِرَارَ لَكَ مِنَ الشُّهُودِ، فاستيقظْ لهذا، وإياكَ أن تعملَ عملاً تشهدُ به عليك جوارحك أو أرضك التي تسيرُ عليها.

وفي قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ هل الخطابُ للرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أم لكلِّ مَنْ يَصِحُّ أَنْ يُوجَّهَ إِلَيْهِ الْخَطَابُ؟

نقول: كلُّ مَنْ يَصِحُّ أَنْ يُوجَّهَ إِلَيْهِ الْخَطَابُ فَإِنَّهُ مُخَاطَبٌ فِي هَذَا، وَعَلَى رَأْسِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ أي: أَوْحَى لَهَا أَنْ تَتَكَلَّمَ وَتَتَحَدَّثَ.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَا﴾ [الزلزلة: ٦] يَصْدُرُونَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مُتَشَتِّينَ مُتَفَرِّقِينَ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا، وَكُلُّ أُمَّةٍ وَحْدَهَا، وَكُلُّ أُمَّةٍ يَشْهَدُ عَلَيْهَا رَسُولُهَا بِأَنَّهُ بَلَغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: لِيُبْصَرُوا، وَ(يُرَى) مَبْنِيٌّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، أَي لِيُرِيَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَعْمَالَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧].

يعني أن الناس يرون أعمالهم ويُجبرون على رؤية أعمالهم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] وَالذَّرَّةُ الَّتِي ضَرَبَ اللَّهُ بِهَا الْمَثْلَ فِي الْقِلَّةِ هِيَ صَغَارُ النَّمْلِ، هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، وَالْقُرْآنُ نَزَلَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَيْسَتِ الذَّرَّةُ الَّتِي اصْطَلَحَ عَلَيْهَا الْفِيزِيَاءِيُّونَ، وَإِنَّمَا الذَّرَّةُ هِيَ صَغَارُ النَّمْلِ، وَيُضْرَبُ بِهَا الْمَثْلُ فِي الْقِلَّةِ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢]. فَالذَّرَّةُ مَضْرِبُ الْمَثْلِ فِي الْقِلَّةِ.

إِذْنُ، مَنْ يَعْمَلْ دُونَ مِثْقَالِ الذَّرَّةِ فَإِنَّهُ يَرَاهُ؛ لَأَنَّ هَذَا التَّقْرِيرَ إِنَّمَا هُوَ لِلْمُبَالَغَةِ،
يعني أنه يضربُ المثلُ في القِلَّةِ بالذَّرةِ.

قَالَ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] فَكُلُّ سَيْرٍ عَمَلُهُ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ،
فِيَجَازِي مَنْ يَرَى خَيْرًا مِنْ عَمَلِهِ الْحَسَنَةِ بَعَشْرَ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، إِلَى
أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا.

وَاسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ
أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]؛ أَيِ
لَا يُنْقُصُونَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ، وَلَا يَزَادُ فِي سَيِّئَاتِهِمْ، هَكَذَا يَكُونُ الْجَزَاءُ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ
وَرَحْمَةً مِنْهُ جَلَّوَعَلَا، وَإِلَّا لَكَانَ يُجَازَى بِالسَّيِّئَةِ سَيِّئَةً وَيُجَازَى بِالْحَسَنَةِ حَسَنَةً، وَلَكِنَّهُ
يُجَازَى بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَهَذَا مِنْ
مُقْتَضَى كَوْنِ رَحْمَةِ اللَّهِ سَبَقَتْ غَضَبَهُ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.



الدرس الثاني؛

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ ② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۖ ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ﴾ [الزَّلْزَلَةُ: ١-٤].

وَكُلُّ هَذَا حَدِيثٌ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، تُزْلَزَلُ الْأَرْضُ: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] وتُخْرِجُ أَثْقَالَهَا، وَأَثْقَالَهَا مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْحَيَوَانِ، وَمِنْهُمْ بَنُو آدَمَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ [الزَّلْزَلَةُ: ٣] مَا الَّذِي غَيَّرَ الْأَرْضَ؟ كَانَتْ الْأَرْضُ حِينَ مَوْتِهِ جِبَالًا وَأَنْهَارًا وَرِمَالًا وَأَشْجَارًا وَبِنَاءً وَغَيْرَ ذَلِكَ، فَأَصْبَحَتْ الْآنَ قَاعًا صَفْصَفًا، مَا لَهَا تَتَزَلْزَلُ؟!

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۖ ④﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿[الزَّلْزَلَةُ: ٤-٥] وَمَعْنَى ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أَيُّ: تُخْبِرُ بِمَا عَمِلَ عَلَيْهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، أَنْطَقَهَا اللَّهُ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ أَهْلُ النَّارِ لِحُلُودِهِمْ: لِمَا شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٢١].

يَأْمُرُهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ فَتَنْطِقُ، تَقُولُ: عَمِلَ عَلَيَّ فُلَانٌ خَيْرًا فِي الْيَوْمِ الْفُلَانِيِّ، وَعَمِلَ عَلَيَّ فُلَانٌ شَرًّا فِي الْيَوْمِ الْفُلَانِيِّ، تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا تَمَامًا؛ وَلِهَذَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ الْمُؤَذِّنَ لَا يَسْمَعُ صَوْتَهُ شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ»^(١)، وَمِنْ هُنَا نَعْرِفُ أَنَّ الْمُؤَذِّنَ أَعْلَى رُتْبَةً مِنَ الْإِمَامِ، فَالْإِمَامُ يَأْتِي وَيُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْصَرِفُ، أَمَّا الْمُؤَذِّنُ فَيَسْمَعُهُ كُلُّ مَا حَوْلَهُ، وَيَشْهَدُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا - أَي: رِقَابًا - يَوْمَ الْقِيَامَةِ، شَرَفًا وَفَخْرًا لَهُمْ يَتَمَيَّزُونَ بِهِ عَنِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَلِهَذَا كَانَ الْأَذَانُ أَفْضَلَ مِنَ الْإِمَامَةِ، وَكَانَ الْمُؤَذِّنُ أَكْمَلَ حَالًا مِنَ الْإِمَامِ، وَلِسْنَا نَحْنُ الَّذِينَ نُقَسِّمُ الْمَرَاتِبَ بَيْنَ النَّاسِ، بَلِ الَّذِي يُقَسِّمُهَا هُوَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. فِإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِذَا قُلْتَ هَذَا لِمَاذَا لَمْ يَتَوَلَّ الرَّسُولُ ﷺ الْأَذَانَ وَلَا أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ وَلَا عُثْمَانُ وَلَا عَلِيٌّ؟

قُلْنَا: لَانْشِغَالِهِمْ بِمَا هُوَ أَهَمُّ، فَاَلْمُؤَذِّنُ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْسَ كَالْمُؤَذِّنِ فِي عَهْدِنَا، فَاَلْمُؤَذِّنُ فِي عَهْدِنَا يَخْرُجُ السَّاعَةَ يَنْظُرُ كَيْمَ السَّاعَةِ ثُمَّ يُؤَذِّنُ، وَهَذَا سَهْلٌ، لَكِنْ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ كَانُوا يُرَاقِبُونَ الشَّمْسَ عِنْدَ الزَّوَالِ، يَبْقَى، هَلْ زَادَ الظِّلُّ أَمْ نَقَصَ؟ وَمَا أَقَلَّ اخْتِلَافَ الظِّلِّ عِنْدَ الزَّوَالِ! يَنْتَظِرُ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، وَهَذَا صَعْبٌ، وَعِنْدَ الْفَجْرِ يَقُومُ الْمُؤَذِّنُ قَبْلَ الْفَجْرِ وَيُرَاقِبُ الْأُفُقَ، وَمَا أَشَدَّ اهْتِمَامَهُ إِذَا كَانَتْ الْأُفُقُ مُغْبَرَّةً أَوْ مُغَيِّمَةً! فَهَذَا صَعْبٌ، وَهَكَذَا بَقِيَّةُ الْأَوْقَاتِ.

فَاَلْمُؤَذِّنُ عَلَيْهِ مَسْئُولِيَّةٌ، ثُمَّ الْمُؤَذِّنُ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُصَلُّونَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي الْمَسْجِدِ، بَلِ الْمُصَلُّونَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي الْمَسْجِدِ وَمَنْ يَسْمَعُ صَوْتَهُ حَتَّى النَّاسُ فِي بُيُوتِهِمْ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء، رقم (٦٠٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَيْضًا الْمُؤَذِّنُ يَتَعَلَّقُ الْمُسْلِمُونَ بِهِ فِي رُكْنَيْنِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَهُمَا: الصَّلَاةُ وَالصَّيَامُ، وَلَيْسَتْ الصَّلَاةُ فَقَطْ؛ لِهَذَا كَانَ الْمُؤَذِّنُ أَعْلَى رُتْبَةً مِنَ الْإِمَامِ. صَحِيحٌ أَنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ مَسْئُولِيَّةٌ مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُتَقَيِّدًا بِالسُّنَّةِ فِي صَلَاتِهِ بِالْجَمَاعَةِ، وَالْأَيُّ طِيلَ إِطَالَةً أَكْثَرَ مِمَّا وَرَدَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ وَهُوَ أَمْرٌ مَعْرُوفٌ، لَكِنْ هَذَا أَفْضَلُ.

إِذَنْ: الْأَرْضُ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، وَالسَّبَبُ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزَّلْزَلَةُ: ٥] أَمَرَهَا أَنْ تُحَدِّثَ أَخْبَارَهَا، فَقَالَتْ: سَمْعًا وَطَاعَةً.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يَصِحُّ أَنْ يُوجَّهَ الْخِطَابُ إِلَى الْأَرْضِ وَهِيَ جَمَادٌ؟

قُلْنَا: يَصِحُّ، فَالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ يُوجَّهُ الْخِطَابُ إِلَى مَنْ شَاءَ، وَقَدْ وَجَّهَ الْخِطَابَ إِلَى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١١] ﴿يَجِبَالُ أَوِيَّ مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سَبَأٌ: ١٠].



سورة التَّكَاثُرِ

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢]، ﴿الْهَنَكُمُ﴾ الخطابُ للبشر، ﴿التَّكَاثُرُ﴾ يعني: في الأموال والأولاد، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] التكاثر يُلهي ولا شك، كما قال الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ مُسْتَقِيمًا مُلتزمًا متجهاً إِلَى اللَّهِ، فَإِذَا كَثُرَ مَالُهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- أَلْهَاهُ الْمَالُ، وَإِذَا كَثُرَ وَلَدُهُ أَلْهَاهُ الْوَلَدُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، (حَتَّى) هنا غائية، والمعنى: أَنَّهُ

أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى مُتُّم، يعني: فهي بمعنى (إلى)، والتعليلية: هِيَ الَّتِي بِمَعْنَى (مِنْ أَجْلِ)، مثالها: قَوْلُ الْمُنَافِقِينَ: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: ٧]، المعنى: مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْفَضُوا عَنْهُ، وليس المعنى: إِلَى أَنْ يَنْفَضُوا، فهنا (حَتَّى) تَعْلِيلِيَّةٌ.

إِذَنْ، نفهمُ أَنَّ (حَتَّى) فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَأْتِي لِلتَّعْلِيلِ وَلِلغَايَةِ، وَهَذَا أَكْثَرُ مَا يَدُورُ فِي الْكَلَامِ، وَتَأْتِي لِمَعَانٍ أُخْرَى لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا.

إِذَنْ، ﴿حَتَّى زُرْتُمُ﴾ [التكاثر: ٢] يعني: إِلَى أَنْ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ، وَالْمُرَادُ بِالزِّيَارَةِ هُنَا لَيْسَتْ زِيَارَةُ الْحَيِّ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ، وَيُسَلِّمَ عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ، بَلِ الْمُرَادُ: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أَي: مُتُّم، فَدُفِنْتُمْ فِي الْمَقَابِرِ.

سَمِعَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢] فَقَالَ: بَعَثُ الْقَوْمَ لِلْقِيَامَةِ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ، فَإِنَّ الزَّائِرَ مُنْصَرِفٌ لَا مُقِيمٌ^(١). وَاللَّهُ هَذَا مِنْ ذِكَاةِ الْأَعْرَابِيِّ، لِأَنَّ الزَّائِرَ يَأْتِي لِصَاحِبِ الْبَيْتِ يَزُورُهُ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ وَيَمْشِي، فَيَقُولُ: أَنْتُمْ فِي الْمَقَابِرِ لَسْتُمْ مُقِيمِينَ أَبَدَ الْأَبْدِينَ، بَلِ هِيَ زِيَارَةٌ مَاشٍ إِلَى الْبَعْثِ، فَاسْتَدَلَّ الْأَعْرَابِيُّ بِفَهْمِهِ الْعَرَبِيِّ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِ الْبَعْثِ، وَوَجْهُ ذَلِكَ مَا سَمِعْتُمْ مِنْ أَنَّ الزَّائِرَ غَيْرُ مُقِيمٍ، فَالَّذِي يُدْفَنُ فِي الْمَقْبَرَةِ إِذَنْ غَيْرُ مُقِيمٍ، وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْخَطِئِ الْفَاحِشِ مَا نَقَرُوهُ أحيانًا فِي الصُّحُفِ، يَقُولُ: فَلَانٌ نُقِلَ إِلَى مَثْوَاهُ الْأَخِيرِ. فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ مُنْكَرَةٌ غَايَةَ الْإِنْكَارِ، وَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ اعْتَقَدَهَا لَكَفَرَ، لَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ يَقُولُهَا تَقْلِيدًا، سَمِعُوهَا مِنْ وَاحِدٍ وَقَلَّدُوهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ الْمَعْنَى.

لو قلنا: إِنَّ الْقَبْرَ هُوَ الْمَثْوَى الْآخِرُ. لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَلَّا يَكُونَ هُنَاكَ بَعْثٌ، ولهذا يجبُ أن تُنْكِرَ عَلَى مَنْ قَالَ هَذَا، وتقول: أتعقدُ أَنَّ الْقَبْرَ هُوَ الْمَثْوَى الْآخِرُ؟ فإن قال: نعم، فَقَدْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ، وإنكارُ الْبَعْثِ كُفْرٌ، وإن قال: لا، قلنا: لماذا تقولُ هَذَا الْكَلَامَ؟ لا تَقُلِ الْمَثْوَى الْآخِرُ، فالْمَثْوَى الْآخِرُ هُوَ إِمَّا الْجَنَّةُ وإِمَّا النَّارُ، ﴿فَيَبْسُ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢] هَذِهِ النَّارُ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ، الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى إِبْثَابِ الْبَعْثِ، حَيْثُ جَعَلَ الْقُبُورَ زِيَارَةً.
وهنا ينبغي أن نتكلمَ عَلَى زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فنقول: زِيَارَةُ الْقُبُورِ سُنَّةٌ سَنَّهَا النَّبِيُّ ﷺ بقوله وفعله، أما فعله فَقَدْ كَانَ يَزُورُ الْبَيْعَ ^(١) عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَزارَ شُهَدَاءَ أَحَدٍ، ودعا لهم ^(٢).

وقد أمر النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِذَلِكَ فقال: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، أَلَّا فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ» ^(٣). وفي لفظ: «فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ» ^(٤). وصدقَ نَبِينَا -صلوات الله وسلامه عليه-، أخوك الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ مَعَكَ، يَأْكُلُ كَمَا تَأْكُلُ، وَيَشْرَبُ كَمَا تَشْرَبُ، وَيَلْبَسُ كَمَا تَلْبَسُ، وَيَتَمَتَّعُ فِي دُنْيَاهُ أَصْبَحَ الْآنَ رَهِينَ عَمَلِهِ فِي هَذَا الْقَبْرِ، لا تَدْرِي مَتَى تَلْحَقُهُ، رُبَّمَا لَا يَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ إِلَّا مَسَافَةٌ قَلِيلَةٌ، فَهِيَ تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

-
- (١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٤).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة أحد، رقم (٤٠٤٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، رقم (٢٢٩٦).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عزَّ وجلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٧).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عزَّ وجلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦).

وزيارتُنا للقُبُورِ للدُّعاءِ لأصحابِ القُبُورِ، وليس لدُّعاءِ أصحابِ القُبُورِ، ولهذا نقولُ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - لَلْآحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ»^(١). هم محتاجون للعافية، محتاجون للمغفرة، ولهذا كان النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ، وَقَفَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّيْبَتَ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»^(٢). الله أكبر! مِنْ حِينَ مَا يَتِمُّ دَفْنُ الْمَيِّتِ قَدْ سُلِّمَ الْآنَ لِلْآخِرَةِ، انتهى مِنَ الدُّنْيَا نَهَائِيًّا، كَأَنْ لَمْ يَكُنْ موجودًا فِي الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، هُوَ الْآنَ انتهى، لَمْ يَكُنْ شَيْئًا موجودًا، وأصبح خبرًا مِنَ الْأَخْبَارِ، انتهى، وَخُتِمَ عَلَى عَمَلِهِ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٣).

إِذْنِ، نَحْنُ ندعو لهم، تَقِفُ عِنْدَ الْقَبْرِ إِذَا تَمَّ الدَّفْنُ، تقولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، واختَرْنَا الثَّلَاثَ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا دَعَا ثَلَاثًا^(٤)، ونقولُ: اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ حِينَ مَا يَنْتَهِي تَسْلِيمُهُ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ يَسْأَلَانِهِ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُثَبِّتَنِي وَإِيَّاكُمْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

وأما زيارةُ القُبُورِ لدُّعاءِ القُبُورِ، فهو سَفَهٌ فِي الْعَقْلِ، وَضَلَالٌ فِي الدِّينِ، سَفَهٌ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يُقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت، رقم (٣٢٢١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم

في العقل، لأنَّ هذا الميِّت لا ينفع نفسه، فكيف ينفعك أنت؟! كيف تأتي إلى جثَّة هامدة ربَّما تكون الأرض أكلتها إلَّا ما شاء الله، ثمَّ تدعوها، وهل يمكن لهذا الميِّت أن يُنقذك من شيء؟ الجواب: لا -والله- أبدًا، هو نفسه محتاجٌ للدعاء، فكيف تدعوه؟! هذا سفة، فلو أنَّ الإنسان جاء إلى شخص حيٍّ لكنه أشلُّ، وقال: يا فلان، أدعوك أن تحمِّل متاعي معي إلى السيارة. سيعتبرُ النَّاسُ هذا سفيهاً، إذ كيف تقول للميت: يا فلان أعطني كذا، ارزقني مالاً، زوِّجني؟ سُبْحَانَ اللَّهِ! امرأتِي لا تحمِّل أجعلها تحمِّل، هذا سفة في العقل، وضلال في الدين، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، هذا استفهامٌ بمعنى النفي، لو بقيت تدعو هذا إلى يوم القيامة ما استجاب لك، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، هنا يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾. لا يفهمون ولا يسمعون، وبعد ذلك: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [٣] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي لَنَا كَرَّةٌ ﴿فَنَتَّبِعُ﴾ منكم كما كنا في الأول نؤايلكم، ﴿فَنَتَّبِعُ﴾ منهم كما تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]، أَجَارَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ ذَلِكَ.

إذن، أهل القبور لا ينفعونك، ولا يحلُّ لك أن تدعوا لهم حتَّى لو أتيت

لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشافعِ المُشفِعِ الشَّفيعِ للأمة، لو أتيت إليه الآن، وقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْفَعْ لي. فهو حرامٌ عليك، النبيُّ لا يَمْلِكُ هذا، إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يملك الشَّفاعةَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

إِنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُصِيبُهُمْ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، فِي يَوْمٍ مَقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَالْوَقْتُ حَارٌّ، وَالشَّمْسُ تَذْنُو بِمِقْدَارِ مِيلٍ، وَالْعَرَقُ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ بِحَسَبِ عَمَلِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَرَقُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى رِكْبَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ، كَرَبٌّ عَظِيمٌ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَصَوَّرَهُ، فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اظْلُبُوا مَنْ يَشْفَعُ لَنَا. يَأْتُونَ إِلَى آدَمَ فَيَعْتَذِرُ، وَيَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ فَيَعْتَذِرُ، وَيَأْتُونَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَيَعْتَذِرُ، وَيَأْتُونَ إِلَى مُوسَى فَيَعْتَذِرُ، وَيَأْتُونَ إِلَى عِيسَى، وَعِيسَى لَا يُقَدِّمُ عُذْرًا، لَكِنَّهُ يُحِيلُ عَلَى مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ، يَقُولُ: «اتُّوا مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ». فَهَلْ رَسُولُ اللَّهِ -جَعَلَهُ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ شَفِيعًا- يَقُومُ وَيَشْفَعُ مُبَاشَرَةً؟ لَا، بَلْ يَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَيَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَحَامِدِ مَا لَمْ يَكُنْ فَتَحَهُ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَيَسْجُدُ سُجُودًا طَوِيلًا حَتَّى يُؤْذَنَ لَهُ، وَيُقَالُ لَهُ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشْفَعْ»^(١).

هَذَا هُوَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْفَعَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، أَبَدًا.

إِذَنْ، لَا يَجُوزُ أَبَدًا أَنْ نَسْأَلَ أَيَّ مَيِّتٍ شَيْئًا مِنْ حَاجَاتِنَا، بَلْ نَسْأَلُ اللَّهَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]،

رقم (٤٤٧٦)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٩٣، رقم ٢٦٦٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، باب، رقم (٢٥١٦).

فاسأل الله واعلم أنه ليس بينك وبين الله واسطة، والرب عز وجل فتح بابه، يقول لك: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، أتريد كرمًا أكثر من هذا؟ هو نفسه عز وجل يفتح الباب: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ويقول لنبيه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

نسأل الله أن يحيينا وإياكم.

إذن، لماذا تسأل مخلوقًا مثلك، وهو مخلوق لا يمكن أن ينفعك ولا يشربه

ماء؟!

إذن، دعاء الأموات سفة في العقل، وضلال في الدين.

ولكن لو قال قائل: إنه ذهب إلى قبر السيد الفلاني، أو الولي الفلاني، ودعاه، وأجيب. ولنقل مثلاً: إنه كان مريضاً، فذهب إلى صاحب القبر، وقال: يا سيدي، يا ولي الله، يا كذا يا كذا، إنه مريض، فشفي، ما العمل؟

نقول: نحن نشهد أن هذا لم يشفك، ونحلف على هذا أنه لم يشفك؛ لأن ربنا عز وجل يقول: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، هل أحد أخبر من الله؟ لا، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ يعني: مثل الله عز وجل ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ فهذا الرجل الذي دعا صاحب القبر وشفي، تقول: الذي شفاك هو الله عز وجل لكن جعل شفاءك على هذا السبب المحرم فتنة لك، فقد يفتن الإنسان، وتهيأ له أسباب المعصية.

أقول لكم -بارك الله فيكم-: كان الصحابة محرمين مع الرسول ﷺ

فابتلاهم الله، المحرّم هل يجوز أن يصيد الصيد؟ لا إله إلا الله، الصيد مباح، رأى
أزنبًا، رأى غزالًا، أيجوز أن يصيدها؟

الجواب: المحرّم لا يجوز أن يصيد هذا الصيد، فابتلاهم الله عزّ وجلّ ابتلى
الصّحابة، فبعث الله عزّ وجلّ الصيد، فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ
فَاعْتَدْتُمْ لِنَفْسِكُمْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّيْدِ تَنَآلَهُ أَيَّدِيكُمْ﴾ [المائدة: ٩٤]: تُمْسِكُهُ مَسْكًَا، ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ الرُّمَحُ، فالطائر
يُصْطَادُ بِالرُّمَحِ وعادة لا يكون إلا بالسهم، والزاحف يكون بالرمح، والآن يؤخذ
باليد، وهذا تسهيل، لكنه اختبار، فسَهَّلْتُ لهم المَعْصِيَةَ لِيَنْظُرَ عَزَّوَجَلَّ أَيْخَانُونَ الله
أَمْ لَا ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

هَذِهِ الْأُمَّةُ -والحمد لله- أُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ مُوقِنَةٌ، اليهود حَرَّمَ اللهُ عليهم صَيْدَ
الْحَوْتِ يَوْمَ السَّبْتِ، قال: لا تَصِيدُوا الْحَوْتَ يَوْمَ السَّبْتِ. فابتلاهم الله، فصارت
الْحَيْتَانُ يَوْمَ السَّبْتِ تَأْتِي شُرْعًا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وفي غير يومِ السَّبْتِ لا يَرَوْنَهَا: ﴿وَيَوْمَ
لَا يَسْئَلُونَكَ عَنْ تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، واليهود -كما تعلمون- لا يُريدون إلا
مَلَأَ الْبُطُونَ، وشهوة الفروج، ناسٌ دُنْيَوِيُّونَ بمعنى الكلمة.

طال عليهم الأمد فقالوا: لا بُدَّ مِنْ حِيلَةٍ، قالوا: ضَعُوا شَبَاكًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ،
وتأتي الحيتان يوم السبت تدخل في الشباك، ولا تستطيع الخروج، وإذا كان يوم
الأحد أخذوها، وتكونون لم تصيدوا يوم السبت.

انظر كيف زينَ لهم الشيطان أعمالهم، ففعلوا، قال تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ
الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حَيْتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْئَلُونَكَ عَنْ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ

بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿[الأعراف: ١٦٣].

ثم انقسموا في هذا إلى ثلاثة أقسام: قسم نَهَوْا هَوْلَاءَ، قَالُوا: لا تأخذوا الصَّيْدَ، ولا تَحْتَالُوا عليه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿[الأعراف: ١٦٤]، فصاروا ثلاثة أقسام: قسم تحيّل، وقسم سَكَتَ لم يُنكر، وقسم أَنْكَرَ، بل الَّذِينَ سَكَتُوا ولم يُنكروا أَنْكَرُوا عَلَى مَنْ أَنْكَرَ، وقالوا لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ هَوْلَاءِ هَلَكُوا، ولا حاجة لِأَنْ تَعِظُوهُمْ، فأجابوا: ﴿مَعَذَرَةَ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿، لا تيأس ربنا يَتَّقِي.

فماذا فعل الله بهم؟ استمع إلى قوله في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿[البقرة: ٦٥] الأمر: ﴿كُونُوا قِرَدَةً ﴿ هنا أمرٌ كَوْنِيٌّ، فكانوا: ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿ قِرَدَةٌ ذَلِيلَةٌ، ما تعلو على أَحَدٍ، أصابهم الله بالذلّ الظاهر والباطن، لكن هذه القُرودُ المعروفة الآن ليست الأُمَّةُ الَّتِي ابْتُلِيَتْ بذلك؛ لأنها هَلَكَتْ.

نعودُ إلى تفسير الآية: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿[التكاثر: ١-٢]

ومعنى: ﴿زُرْتُمُ ﴿ أي: مُتُّم، فذُفِنْتُمْ في المقابر، وليس المرادُ زيارة القبور.

ثم تعرّضنا إلى زيارة القبور المشروعة، وإلى أَنَّ أَهْلَ القبور محتاجون إلى الدعاء لهم، ولا يجوزُ أَنْ تدعوهم.

فإياك يا أخي أن تتعلّقَ إِلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ اسأَلِ الله، فلا واسِطَةً بينك وبينه: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله».

أقول: إن هذا الذي سُفي إنما شفاه الله عزَّ وجلَّ وليس هذا المدفون، ولكن الله تعالى قد يبتلي بعض العباد بتسهيل المعصية عليه؛ حتى يختبره عزَّ وجلَّ.

لو قال قائل: هل التكاثر في الأموال حرام أم حلال، أم مُستحب، أم ماذا؟

فالجواب: أمَّا إذا ألهى عن طاعة الله، فهو حرام؛ إن ألهى عن واجب، ومذموم إن ألهى عن مُستحب، وأمَّا إذا لم يُله، بل كان عونًا على طاعة الله، والإنسان يُتاجر في ماله ليستفيد، ويُفيد إخوانه، فهذا لا بأس به إطلاقًا.

﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ في هذا إشارة إلى أنه لا بُدَّ أن يُدفن الإنسان، ولهذا قال العلماء: إنَّ دفن الميت فرض كفاية. وإذا مات الإنسان في البحر -مثلاً- ولا نستطيع أن نحمله إلى الساحل، قال العلماء: يُغسل ويُكفن ويُصلى عليه، ويُدفن في البحر، يعني: يُغمس في البحر، ويُجعل في رجله ثقلًا يُثقله؛ حتى لا يطفو على سطح الماء، لأنَّه إذا مات وانتفخ فلا بُدَّ أن يطفو على ظهر الماء، فيُجعل في رجله حجرٌ كبير ينزل به إلى الأرض، فإذا أكلته الحيتان فلا مانع، كما أنَّ الأرض تأكله إذا كان في البر.

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ٢ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: ٣-٤] هذه الجملة تُفيد الوعيد والتهديد، يعني: كَلَّا أيها المتكاثرون الذين ألهاكم التكاثر ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: سوف تعلمون ماذا كانت نتيجة تكاثركم في الأموال والأولاد، وإعراضكم عن دين الله عزَّ وجلَّ ويكون هذا العلم عند الموت، وفي القبر، وفي يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، إذا جاءه الأجل، قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِي﴾ إِلَى الدُّنْيَا، ولكن هل يقول: ارجعوني إِلَى الدُّنْيَا لِأَعْمَرَ الْقُصُورِ، وَأَتَزَوَّجَ النِّسَاءَ، وَأَرْكَبَ السَّيَّارَاتِ الْفَخْمَةَ، أَمْ مَاذَا؟ ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فِي الْمَالِ الَّذِي تَرَكْتُهُ ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ فِيهِ، فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾، ﴿كَلَّا﴾ يَعْنِي: لَنْ تَعُودَ: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، ﴿كَلَّا﴾ ثُمَّ أَكَّدَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ لَا بُدَّ أَنْ تُقَالَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ أَي: حَاجِزٌ، ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وَهَذَا الْبَرْزَخُ هُوَ مَا بَيْنَ الْحَيَاتَيْنِ: حَيَاةِ الدُّنْيَا، وَحَيَاةِ الْآخِرَةِ، قَدْ يَكُونُ الْقَبْرُ، وَقَدْ يَمُوتُ الْإِنْسَانُ فِي فَلَاحَةٍ مِنَ الْأَرْضِ لَيْسَ لَهُ أَحَدٌ، فَتَأْكُلُهُ الطُّيُورُ وَالسَّبَاعُ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الْبَحْرِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، الْمَهْمُ أَنَّ الْبَرْزَخَ هُوَ الْحَاجِزُ بَيْنَ حَيَاةِ الدُّنْيَا وَحَيَاةِ الْآخِرَةِ: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، فَهَذَا الرَّجُلُ مَا تَمَّتْ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا لِيُكْمَلَ التَّكَاثُرُ، إِنَّمَا تَمَّتْ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، لِيَفْنِيَ التَّكَاثُرَ فِي طَاعَةِ اللهِ: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿وكرر ذلك للتوكيد.﴾

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]، ﴿لَوْ﴾ هَذِهِ شَرْطِيَّةٌ تَحْتَاجُ إِلَى فِعْلِ الشَّرْطِ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ، فَفِعْلُ الشَّرْطِ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحذُوفٌ، وَلَيْسَ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] بَلْ هُوَ مَحذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ مَا أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَكِنْ إِنَّمَا اسْتَوْلَى عَلَيْكُمْ الشَّيْطَانُ، وَأَوْقَعَكُمْ فِي الشَّكِّ، أَوْ فِي التَّرَدُّدِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ فَهِيَ جُمْلَةٌ لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِمَا قَبْلُهَا.

ولهذا ينبغي للقارئ إذا قرأ أن يَقِفَ عَلَى قوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾^(١) وألَّا يَصِلَ قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ بما قَبْلَهُ؛ لَأَنَّهُ لو وَصَلَهُ بما قَبْلَهُ، لَظَنَّ الظَّانُّ أنه جواب ﴿لَوْ﴾، وهذا يُحِلُّ بالمعنى إخلالاً عظيماً.

وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي: والله لَتَرَوُنَّ، ولهذا يقول علماء العربية: إِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مُؤَكَّدَةٌ بِثَلَاثَةِ مُؤَكَّدَاتٍ: الْقَسَمُ الْمُقَدَّرُ، وَاللَّامُ، وَنُونُ التَّوَكِيدِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَاللهِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ، أي: النَّارَ، وَذَلِكَ حِينَما تُعْرَضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فِيرَاهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ، بَلْ إِنَّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا فَهُوَ يُسَاقُ إِلَيْهَا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ [مريم: ٨٦] وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَإِنَّهُ يَصْعَدُ مَعَ الصِّرَاطِ الْمَوْضُوعِ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُنَجِّينَا وَإِيَّاكُمْ.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] يعني: يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيُسْأَلُ الْإِنْسَانُ عَنِ النَّعِيمِ، أي: عَنِ كُلِّ مَا تَنَعَّمَ بِهِ فِي الدُّنْيَا - نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا وَإِيَّاكُمْ جَوَابًا صَوَابًا - يُسْأَلُ: مِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا؟ وَفِيمَ أَنْفَقْتَهُ؟ وَلِذَلِكَ نَهَى اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ، فَقَالَ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتُ يُقْمَنَ صَلْبُهُ» أي: يُمَسْكَنَ حَيَاتُهُ، «فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَتُلْتُ لِبَطْنِهِ وَتُلْتُ لِشَرَابِهِ وَتُلْتُ لِنَفْسِهِ»^(١). وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَصُولِ الطَّبِّ أَنْ يَأْكَلَ الْإِنْسَانُ مَا يَقُومُ بِهِ جِسْمُهُ، وَلَا يُكْثِرَ، ثُمَّ إِذَا جَاعَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلْيَأْكُلْ، يَعْنِي: لَيْسَ بِلَازِمٍ أَنْ نَأْكُلَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بَلْ نَأْكُلْ قَلِيلًا، ثُمَّ إِذَا جُعْنَا أَكَلْنَا، وَهَلُمَّ جَرًّا.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم (٢٣٨٠).

وإلى هنا ينتهي ما أراد الله عزَّوجلَّ أن نتكلَّم به عن هَذِهِ السُّورَةِ، ولها مَعَانٍ
أَكْثَرُ مِمَّا ذَكَرْنَا، وَاللهُ عزَّوجلَّ لَا نُحِيطُ بِهِ عِلْمًا.



الدرس الثاني:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلْهَمَكُمُ التَّكَاثُرَ﴾ [التكاثر: ١] فَالْخَطَابُ لِلنَّاسِ، وَ﴿أَلْهَمَكُمُ﴾ أَي: شَغَلَكُم عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَعَنِ الصَّلَاةِ، وَعَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَالتَّكَاثُرُ يَعْنِي التَّكَاثُرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] أَلْهَى النَّاسَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وَصَدَقَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، انْظُرْ لِلَّذِينَ ابْتَلَوْا بِحُبِّ الدُّنْيَا وَإِثَارَهَا عَلَى الْآخِرَةِ كَيْفَ أَهْلَتَهُمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ، كَيْفَ شَغَلَتْهُمْ؛ شَغَلَتِ الْقُلُوبَ وَالْفِكَرَ وَالْبَدَنَ لِطَلَبِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

لَكِنْ كُلُّ هَذَا إِلَى مَتَى؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢] يَعْنِي إِلَى أَنْ مِتُّمْ وَدُفِنْتُمْ فِي الْمَقَابِرِ وَأَنْتُمْ لَاهُونَ بِهَا، وَزِيَارَةُ الْمَقَابِرِ بِهَذَا الْمَعْنَى قَرِيبَةٌ، لَكِنَّهَا غَيْرُ مَعْلُومَةٍ لَنَا، رَبَّنَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ فِي الْقَبْرِ آخِرَ النَّهَارِ وَقَدْ كَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ فِي الْقَصْرِ.

وَسَمَّى اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ زِيَارَةً؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَبْقَى فِي قَبْرِهِ، لَا بَدَّ مِنْ بَعْثٍ، فَمُكِّنُهُ فِي الْقُبُورِ زِيَارَةً، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى طَوْلِ أَمَدِ الْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ لَا نِهَآيَةَ لَهَا؛ لِأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ فِي الْقُبُورِ مَنْ لَهُمْ مَلَائِينَ السِّنِينَ.

سَمِعَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا يَقْرَأُ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۖ، فَقَالَ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ: وَاللهِ إِنَّ وَرَاءَ الْمَقَابِرِ شَيْئًا. لِأَنَّ الزَّائِرَ غَيْرُ مُقِيمٍ، فَالَّذِي يَزُورُكَ لَا يَبْقَى عِنْدَكَ دَائِمًا؛ بَلْ يَنْصَرِفُ، فَفَهِمَ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ بِحِسِّهِ الْعَرَبِيَّ - وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَرَبِيٌّ - فَهِمَ أَنَّ الزِّيَارَةَ تَعْنِي أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ مَغَادِرَةِ هَذِهِ الْقُبُورِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ فِيهَا مِنَ السَّعْدَاءِ.

وَهُنَا أَتَبَّهَ عَلَى مَا نَقَرَأُ فِي الصُّحُفِ، أَوْ نَسْمَعُ فِي الْكَلَامِ، يَقُولُونَ: الرَّجُلُ مَاتَ وَنُقِلَ إِلَى مَثْوَاهُ الْآخِرِ. هَذِهِ كَلِمَةٌ خَاطِئَةٌ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَهَا الْإِنْسَانُ؛ بَلْ لَوْ أَخَذْنَا بِمُقْتَضَاهَا لَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ الْقَائِلُ لَهَا مُنْكَرًا لِلْبَعْثِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا جَعَلَ الْمَثْوَى الْآخِرَ هُوَ الْقُبُورَ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا بَعْثَ؛ وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تُنْكَرَ عَلَى مَنْ يَقُولُهُ، سَوَاءً أَكْتَبَهَا فِي الصُّحُفِ، أَوْ قَالَهَا بِلِسَانِهِ، فَنَقُولُ لِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ: اضْبِرُّوا، الْقُبُورُ لَيْسَتْ مَثْوَاهُ الْآخِرَ، الْمَثْوَى الْآخِرُ هِيَ الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٢﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿كَلِمَتَانِ يُؤَكِّدُ بَعْضُهُمَا بَعْضًا، وَالْمَقْصُودُ مِنْهُمَا التَّحْذِيرُ مِنْ أَنْ يُلْهِنَا التَّكَاثُرُ عَنِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ تُرِيدُ أَنْ تُهْدِدَهُ: سَوْفَ تَعْلَمُ، سَوْفَ تَعْلَمُ، فَهُوَ تَهْدِيدٌ لِمَنْ يُلْهِمُهُ التَّكَاثُرُ عَنِ الْآخِرَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] ﴿لَوْ﴾ هَا هُنَا شَرْطِيَّةٌ،

وَجَوَابُهَا مَحْذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ مَا أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ؛ وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْمُؤْمِنَ فِي الدُّنْيَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوَثِّرَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ أَبَدًا، إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ أَغْلَقَ الْمَحَلَّ وَأَوْقَفَ عَمَلَهُ وَذَهَبَ يُصَلِّي؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ الْآخِرَةَ سَتَأْتِي، وَسَيَكُونُ الْجَزَاءُ.

وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] قَدْ يَظُنُّ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ فَهْمٌ لِلْمَعْنَى أَنَّهَا جَوَابُ قَوْلِهِ: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾، هَذَا غَلْطٌ، هَذِهِ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، لَا تَعْلُقُ لَهَا بِمَا قَبْلَهَا، وَالتَّقْدِيرُ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ: وَاللَّهُ لَيَرَوُنَّ الْجَحِيمَ، فَأكَّدَ الْجُمْلَةَ بِالْقِسْمِ الْمَقْدَرِ، وَاللَّامِ، وَنَوْنِ التَّوَكِيدِ، فَهَذِهِ ثَلَاثُ مُؤَكَّدَاتٍ.

وَالْجَحِيمُ هِيَ نَارُ جَهَنَّمَ، أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ رُؤْيَا عَيْنٍ؛ بَلْ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ٧١ ثُمَّ تُنَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴿[مريم: ٧١-٧٢] اللَّهُمَّ أَنْجِنَا مِنْهَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]. فَاَنْظُرْ إِلَى الْأُسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ فِي الْإِقْنَاعِ، سُبْحَانَ اللَّهِ! لَا شَيْءَ مِثْلُهُ، أَوَّلًا أَخْبَرَ خَبْرًا مُؤَكَّدًا بِأَنَّا سَنَرَاهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، وَهَذِهِ مُشَاهِدَةٌ، وَالْمُشَاهِدَةُ أَقْوَى مِنَ الْخَبَرِ؛ وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وَلِمَا بَشَّرَ الْمَلَائِكَةُ زَكَرِيَّا بِوَلَدٍ قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أَيُّ: عَلَامَةً؛ حَتَّى أَطْمَئِنَّ أَكْثَرَ ﴿قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠].

﴿ ثُمَّ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨] الَّذِينَ كُنتُمْ تُكَاثِرُونَ فِيهِ، تُسْأَلُ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ، أَوَّلًا: مَنْ أَيْنَ جَاءَكَ؟ وَكَيْفَ جَاءَكَ؟ ثَانِيًا: فِيمَ صَرَفْتَهُ؟ أَصْرَفْتَهُ فِي مَرْضَاتِ اللَّهِ، أَمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، أَمْ فِي لُغْوٍ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ؟ لَا بَدَّ أَنْ تُسْأَلَ عَنْ هَذَا. إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ ضَيْفًا عَلَى بَعْضِ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَبَسَطَ لَهُمْ بَسَاطًا ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى نَخْلَةٍ فَجَاءَ بِقَنُوفٍ فَوَضَعَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «أَفَلَا تَنْقَبَتْ لَنَا مِنْ رُطْبِهِ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَخْتَارُوا مِنْ رُطْبِهِ وَبُسْرِهِ فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ ظِلٌّ بَارِدٌ؛ وَرُطْبٌ طَيِّبٌ؛ وَمَاءٌ بَارِدٌ»^(١). اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ، أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيُسْأَلُ عَنْ هَذَا: تَمَرٌ وَمَاءٌ وَظِلُّ شَجَرَةٍ، فَمَا بَالُنَا الْيَوْمَ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ؟! كُلُّ شَيْءٍ مَتَوَفَّرٌ، تَفْتَحُ صُنُبُورَ الْمَاءِ يَنْزِلُ لَكَ الْمَاءُ كَمَا تَحِبُّ، إِنْ شِئْتَ بَارِدًا، وَإِنْ شِئْتَ حَارًّا، وَإِنْ شِئْتَ مُتَوَسِّطًا بَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ، عَلَى مَا تَبْغِي وَتُرِيدُ، كَذَلِكَ أَنْوَاعُ الْأَكْلِ الَّذِي تَعْجِزُ عَنْ تَعْدَادِهَا، مَوْجُودَةٌ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، أَمِنْ وَرَخَاءً، وَاللَّهُ لِنُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا.

ثُمَّ هَذِهِ النَّعْمُ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا نُحْشَى مِنْهَا؛ لِأَنَّ النِّعَمَ ابْتِلَاءٌ، وَالنِّقَمَ ابْتِلَاءٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، مِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ أَشْرَكَ وَبَغَى، وَعَصَى وَاسْتَكْبَرَ، وَاسْتَعَانَ بِهَا عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَمِثْلُ هَذَا نَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ النَّعْمَةَ فِي حَقِّهِ نَقْمَةٌ وَاسْتِدْرَاجٌ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالنِّعْمَةِ اسْتَعْمَلَهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَإِذَا اسْتَعْمَلَهَا فِي الْمُبَاحِ اسْتَعْمَلَهَا عَلَى وَجْهِ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ، رقم (٢٣٦٩).

لَا إِسْرَافَ فِيهِ وَلَا تَقْتِيرَ، وَتَصَدَّقْ مِنْهَا، وَأَنْفَقْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهَكَذَا، هَذِهِ أَيْضًا نِعْمَةٌ.

فِيحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نَتَنَبَّهُ، بِمَاذَا سَنَجِيبُ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا سَأَلَنَا عَنْ هَذَا النَّعِيمِ.



الدَّرْسُ الثَّالِثُ:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]؛ ﴿الْهَنَكُمُ﴾ يَعْنِي: أَغْفَلَكُمْ حَتَّى لَهَوْتُمْ بِهِ، ﴿الْهَنَكُمُ﴾ فِي مَاذَا؟ فَسَرَّتْهَا الْآيَةُ الْآخَرَى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، تَجِدُ الرَّجُلَ يَكَاثِرُ غَيْرَهُ يَقُولُ: أَنَا عِنْدِي مِثْلُ بَعِيرٍ، وَهَذَا يَقُولُ: عِنْدِي مِثْلَانِ، هَذَا يَقُولُ: عِنْدِي (فِيلًا) مِمْتَازَةٌ، وَهَذَا يَقُولُ: عِنْدِي (فِلَتَانِ)، وَهَلُمَّ جَرًّا.

أَلْهَى النَّاسَ التَّكَاثُرُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِلزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، فَهَنَا لَا يُلْهِيهُ التَّكَاثُرُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ عَلَى ثَلَاثَةِ وُجُوهِ:

الْوَجْهِ الْأَوَّلُ: خَصَّ بِهَا شَخْصًا مُعَيَّنًا.

الْوَجْهِ الثَّانِي: خَصَّ بِهَا بِالْوَصْفِ، وَهِيَ الْمَقِيدَةُ بِوَصْفٍ.

الْوَجْهِ الثَّالِثُ: أَطْلَقَ الْآخِرَةَ مِنْ حَيْثُ هِيَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا بِلَا شَكٍّ.

فَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَمْ يَضَعْ سَوْطٌ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١). وفي هذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، ولم يَقُلْ: لِكَذَا وَلَا لِكَذَا.

ومن الثاني -مقيّدة بوصفٍ- قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّذِينَ اتَّقَوْا خَيْرٌ لِّالَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

ومن الثالث -مقيّدة بشخصٍ معيّن- ما جاء في قولِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، فهذا خاصٌّ.

ولهذا لما خطب النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في أصحابه ذات يومٍ؛ وقال: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا -بين أن يعيش في الدنيا ما شاء الله أن يعيش-، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ»، فبكى أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره لم يبك^(٢)؛ لأنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمُرَادِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَعَرَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعَبْدِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَكَى، فكان في هذا منقبةٌ لأبي بكرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أَعْلَمُ النَّاسِ بِمُرَادِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ ولهذا لو تَعَارَضَ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَلَا مُرْجَحَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ أَخَذْنَا بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ، ولو تَعَارَضَ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانُ فِي مَسْأَلَةٍ، وَلَيْسَ فِيهَا نَصٌّ يَفْصِلُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ؛ أَخَذْنَا بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ، ولو تَعَارَضَ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَوْلِ عَلِيٍّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم (٤٦٦).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس هناك نصٌّ يفصلُ بينَ القولين؛ أَخَذْنَا بقولِ أبي بكرٍ؛ لأن قولَ أبي بكرٍ أقربُ للصَّوابِ بلا شكٍّ، هو أوَّلُ خليفَةٍ في هذه الأُمَّة.

إذن: التَّكَاثُرُ يعني في الأموال والأولاد.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢] يعني: حَتَّى انتَقَلْتُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْمَقَابِرِ، هذا هو المرادُ مِنَ الزِّيَارَةِ، وليس المعنى: حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ لِلسَّلَامِ عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ، في أن هذا خيرٌ، فقوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: حَتَّى مُتُّمْ وَدُفِنْتُمْ فِي الْمَقَابِرِ.

وذكر ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابِهِ (الجواب الكافي) أن رجلاً حَضَرَتْهُ الوفاةُ، فقلَّ له: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قال: العَشْرُ بِأَحَدِي عَشْرَةٍ، قل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فيقول: العَشْرُ بِأَحَدِي عَشْرَةٍ، قل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فيقول: العَشْرُ بِأَحَدِي عَشْرَةٍ^(١). يعني التجارة، يبيعُ العَشْرَ بِأَحَدِي عَشْرَةٍ، ففَتِنَ في الدُّنْيَا إِلَى هَذِهِ اللَّحْظَةِ.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣] ﴿كَلَّا﴾ هنا بِمَعْنَى حَقًّا، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تَعْلَمُونَ مَا أَنْكَرْتُمُوهُ مِنَ الْبَعْثِ؛ لأن الكفَّارَ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ مَنْ يُغْنِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فَأَجَابَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِمَا ذَكَرَ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، ثُمَّ ذَكَرَ الْأَدِلَّةَ عَلَى هَذَا.



الدرس الرابع:

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبيِّنا محمد خاتم النبيين وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيقول الله عز وجل: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۖ﴾ [التكاثر: ١-٢].

هنا مله وملهى عنه، الهالك من ذكر الله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

إذن: الهالك من ذكر الله التكاثر في الأموال والأولاد، يقول: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] أنا أكثر منك مالا وأكثر ولدا: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مزيم: ٧٧] فالتكاثر في الأموال والأولاد أمر جبلي جبل عليه الخلق.

من الناس من يجعل هذه الكثرة التي يمن الله بها عليه يجعلها في مرضاة الله، وفي هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ عِنْدَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ»^(١) ومن الناس من تكون الكثرة ملهية له عن ذكر الله حتى يتشاغل بما خلق له عما خلق له، يتشاغل بما خلق له وهو المال، فالمال مخلوق لك ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وكل الذي في الأرض مخلوق لنا، بل قال الله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠] سخر الله لنا الشمس والقمر والنجوم، فهذا اشتغل بما خلق له عما خلق هو له وهو عبادة الله عز وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٧)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذَنْ: ﴿الْهَمَّكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢] يَعْنِي حَتَّى مِتُّمُ، وَالْمَقَابِرُ جَمْعُ مَقْبَرَةٍ، وَهِيَ مَدْفَنُ الْمَوْتَى، وَفِي هَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

لِكُلِّ أَنْاسٍ مَدْفَنٌ فِي فَنَائِهِمْ فَهُمْ يَنْقُصُونَ وَالْقُبُورُ تَزِيدُ^(١)

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وَهَذَا الْمَوْتُ أَيْضًا لَيْسَ مَعْلُومًا؛ إِذْ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَذَرِي مَتَى يَفْجُوهُ الْمَوْتُ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ النَّفْسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا: ﴿الْهَمَّكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿[التكاثر: ١-٢].

وَاسْتَدَلَّ أَعْرَابِيٌّ مِنَ الْأَعْرَابِ -وَالْأَعْرَابُ عِنْدَهُمْ ذَكَاءٌ- بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى ثُبُوتِ الْبَعْثِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ بَعْثٍ، قَالَ: وَاللَّهِ إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَزُورُ الْمَقَابِرَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَرْتَحِلَ عَنِ الْمَقَابِرِ، فَالَّذِي يَزُورُكَ لَا يَسْكُنُ عِنْدَكَ، بَلْ يَزُورُ وَيَمْضِي، فَلَا أَعْرَابِيٌّ قَالَ: لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ وَرَاءَ الْمَقَابِرِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢] فَلَا أَعْرَابِيٌّ عِنْدَهُمْ ذَكَاءٌ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: مَا هَكَذَا؟ اقْرَأِ الْآيَةَ، قَالَ: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» قَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا

(١) نسبه في الصحاح (٢/ ٧٨٤)، ولسان العرب (٥/ ٦٨) لعبد الله بن ثعلبة الحنفي، وهو في البيان والتبيين (٣/ ١٢٤)، وعيون الأخبار (٣/ ٧٥) غير منسوب.

كَسَبًا نَكَلًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ [المائدة: ٣٨] قَالَ: الْآنَ عَزَّ وَحَكَمَ فَقَطَعَ، وَلَوْ غَفَرَ وَرَحِمَ مَا قَطَعَ^(١)، سُبْحَانَ اللَّهِ! فَهَمَّ عَمِيقٌ جِدًّا.

إِذْنٌ نَقُولُ: ﴿حَقٌّ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢] تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دُفِنَ فَإِنَّهَا هُوَ زَائِرٌ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ رَحِيلٍ.

وبهذه المناسبة أودُّ أن أنبهكم على كلمة تُقال كثيراً وهي خطأ وخطيرة أيضاً، يقول بعض الناس إذا مات الإنسان: ثُمَّ نُقِلَ إِلَى مَثْوَاهُ الْآخِرِ، وَهَذَا غَلَطٌ، فَالْقَبْرُ لَيْسَ الْمَثْوَى الْآخِرَ، بَلِ الْمَثْوَى الْآخِرُ هُوَ الْجَنَّةُ أَوِ النَّارُ؛ وَلِهَذَا لَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ يَعْتَقِدُ مَذْلُولَ مَا يَقُولُ لَكَانَ كَافِرًا؛ لِأَنَّا لَوْ أَخَذْنَا اللَّفْظَ فِي قَالِهِ لَكَانَ الْمَعْنَى أَنَّ الْقَبْرَ هُوَ النَّهَايَةُ وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَهُنَاكَ بَعَثٌ بَعْدَ الْقَبْرِ؛ وَلِهَذَا انْتَبَهُوا لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الَّتِي تُقَالُ كَثِيرًا فِي الْمَجَلَّاتِ وَالصُّحُفِ وَالْجَرَائِدِ.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ② ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿[التكاثر: ٢-٤] هَاتَانِ جُمْلَتَانِ تَتَضَمَّنَانِ أَشَدَّ الْوَعِيدِ، إِنَّ مِنْ أَسَالِيبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يَقُولَ الْأَعْلَى لِمَنْ دُونَهُ: سَوْفَ تَعْلَمُ، سَوْفَ يَتَبَيَّنُ لَكَ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَائِلَ سَوْفَ يَبْطِشُ بِالْمُخَاطَبِ.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ② ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿① كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿[التكاثر: ٣-٥] وَ(كَلَّا) جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ، وَالْقُرْآنُ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَكِّيٌّ وَمَدَنِيٌّ، مَا نَزَلَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ فَهُوَ مَكِّيٌّ، وَمَا نَزَلَ بَعْدَهَا فَهُوَ مَدَنِيٌّ، وَالآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الْمَكِّيَّةُ

(١) ذكرها السمعاني في تفسيره (٣٦/٢)، والطبي في حاشيته على الكشاف (٣/٣٢٥)، وابن القيم في جلاء الأفهام (ص: ١٧٢).

تَجِدُهَا قَوِيَّةً جَدًّا، أُسْلُوْبُهَا قَاسٍ؛ لِأَنَّهَا نَزَلَتْ بَيْنَ قَوْمِ عِتَاةٍ مُّشْرِكِينَ، لَكِنْ الْآيَاتُ الْمَدَنِيَّةُ تَجِدُهَا سَهْلَةً الْأُسْلُوبِ؛ لِأَنَّهَا تُخَاطَبُ أَنْاسًا أَخَذُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَعَرَفُوا الْإِسْلَامَ، ثُمَّ هِيَ أَيْضًا نَزَلَتْ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ، فَكَانَتْ الْعِبَارَاتُ لَيِّنَةً.

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٢ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾

[التكاثر: ٣-٥] تَكَرَّرَتْ (كَلَّا) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي آيَاتٍ قِصَارٍ.

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٥] جَوَابُ (لَوْ) مَحْذُوفٌ، وَالتَّعْدِيرُ: «كَلَّا

لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَمَّا أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ» يَعْنِي: لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَمَامَكُمْ مِنَ الْوَعِيدِ عِنْدَ اللَّهِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ لَمَّا أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ، فَاجْزَأُ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ [التكاثر: ٦] فَهَذَا لَيْسَ جَوَابَ (لَوْ) وَلِهَذَا

يَحْسُنُ إِذَا قَرَأْتَ هَذِهِ السُّورَةَ أَنْ تَقِفَ فَتَقُولَ: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ وَبَعْضُ الْقُرَّاءِ حَتَّى بَعْضُ أَئِمَّةِ الْمَسَاجِدِ يَصِلُ فَيَقُولُ:

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ [التكاثر: ٥-٦] وَهَذَا يُحْلَلُ

بِالْمَعْنَى؛ لِأَنَّ السَّامِعَ يَظُنُّ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ جَوَابُ ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَاجْزَأُ مَحْذُوفٌ، وَ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مُؤَكَّدَةٌ بِثَلَاثَةِ مُؤَكَّدَاتٍ:

■ الْقَسَمُ الْمَحْذُوفُ.

■ وَاللَّامُ.

■ وَنُونُ التَّوَكِيدِ.

وَأَصْلُ الْعِبَارَةِ: «وَاللَّهِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ كَمَا تَعْلَمُونَ نَزَلَ بِاللِّسَانِ

العَرَبِيَّ، وَالْقَسَمُ يُحَذَفُ فِي مِثْلِ هَذَا التَّقْيِيدِ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ.

وَالْجَحِيمُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ، وَأَسْمَاءُ النَّارِ مُتَعَدِّدَةٌ، وَلَكِنْ كُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْآخَرُ، وَالْأَسْمَاءُ كُلُّهَا تَكُونُ مُشْتَرَكَةً بِالذَّلَالَةِ عَلَى الذَّاتِ، وَتَكُونُ مُتَبَايِنَةً فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْأَوْصَافِ وَالْمَعَانِي الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا كُلُّ اسْمٍ.

فَمَثَلًا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٣] فَالْمَلِكُ، وَالْقُدُّوسُ، وَالسَّلَامُ، وَالْمُؤْمِنُ، وَالْمُهَيْمِنُ، وَالْعَزِيزُ، وَالْجَبَّارُ، وَالْمُتَكَبِّرُ هُوَ اللَّهُ، فَكُلُّ هَذِهِ دَلَّتْ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنْ لِكُلِّ اسْمٍ مِنْهَا مَعْنَى خَاصَّةٌ يَسْتَقِلُّ بِهِ.

وَالنَّارُ لَهَا أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا الْجَحِيمُ، وَجَهَنَّمَ، وَالسَّعِيرُ، كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، أَمَّا فِي الْمَعْنَى فَتَخْتَلِفُ.

﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧] الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى مُؤَكَّدَةٌ لِلْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا: ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا﴾ أَيِ الْجَحِيمِ ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أَيِ: الْمُشَاهَدَةِ، كُلُّ النَّاسِ يُشَاهِدُونَ النَّارَ، أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا، وَأَنْقَذَنَا مِنْهَا بِمَنْهِ وَكَرَمِهِ.

وَهُنَا ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: (عِلْمُ الْيَقِينِ، وَعَيْنُ الْيَقِينِ، وَحَقُّ الْيَقِينِ).

فِي يَدِ الْأَخِ تُفَاحَةٌ، فَأَخْبَرَنِي قَالَ: بِيَدِي تُفَاحَةٌ وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّ الرَّجُلَ ثِقَةٌ، فَهَذَا عِلْمُ الْيَقِينِ، فَإِذَا أَرَانِي إِيَّاهَا فَهَذَا عَيْنُ الْيَقِينِ، وَإِذَا أَكَلْتُهَا فَهَذَا حَقُّ الْيَقِينِ.

ثانيًا: ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧] أي: تُشاهدونها يقينًا ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] مَا أَعْظَمَ هَذَا! و﴿لَتُسْأَلُنَّ﴾ جُمْلَةٌ مُؤَكِّدَةٌ بِثَلَاثَةِ مُؤَكَّدَاتٍ:

الأوّل: الْقَسَمُ الْمَحْذُوفُ.

والثاني: اللامُ.

والثالث: نُونُ التَّوَكِيدِ.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] أي: عَمَّا نَعَّمَكُمُ اللَّهُ بِهِ وَأَعْطَاكُمْ، تُسْأَلُونَ، تُسْأَلُ أَوَّلًا مِنْ أَيْنَ جَاءَكَ هَذَا الْمَالُ؟ لَأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تُمَطِّرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً، فَلَا بُدَّ مِنْ عَمَلٍ وَكَسْبٍ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥] ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] فالْمَالُ لَا بُدَّ مِنْ كَسْبِهِ، وَالْكَسْبُ إمَّا اخْتِيَارِيٌّ وَإِمَّا إِجْبَارِيٌّ قَهْرِيٌّ، فَانْتِقَالَ الْمَالِ مِنَ الْمَيْتِ إِلَى وَارِثِهِ إِجْبَارِيٌّ؛ وَلِهَذَا لَوْ قَالَ الْوَارِثُ: أَنَا لَا أُرِيدُ الْمِيرَاثَ، قُلْنَا: غَضَبٌ عَلَيْكَ، الْمِيرَاثُ حَقٌّ لَكَ مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهُ فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَفَرَّ مِنْهُ.

أَمَّا انْتِقَالُ الْمَلِكِ بِالْبَيْعِ فَاخْتِيَارِيٌّ، فَلَا أَحَدَ يُجْبِرُ عَلَى الْبَيْعِ، اللَّهُمَّ إِلَّا بِحَقِّ كَالْمَحْجُورِ عَلَيْهِمْ، لَكِنْ إِذَا كَانَ سَبَبٌ شَرْعِيٌّ فَهُوَ اخْتِيَارِيٌّ، فَلَا أَحَدَ يُجْبِرُ عَلَى أَنْ يَبِيعَ مَالَهُ، حَتَّى أَبُوكَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجْبِرَكَ عَلَى بَيْعِ مَالِكَ، لَوْ قَالَ لَكَ أَبُوكَ: يَا وَلَدِي بَعْ السَّيَّارَةَ، فَلَا يُجْبِرُكَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»^(١)؟

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٤)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأكل من مال ولده، رقم

فالجواب: بلى، لكن دَعُهُ يَتَمَلَّكُ السَّيَّارَةَ، ثُمَّ يَبِيعُهَا، يَعْنِي: لَوْ شَاءَ أَبِي تَمَلَّكَ السَّيَّارَةَ وَبَاعَهَا، أَمَّا أَنْ يُجْبِرَنِي عَلَى بَيْعِهَا وَهِيَ مِلْكِي فلا.

وَلَوْ قَالَ أَبُوكَ: طَلَّقَ زَوْجَتَكَ! تُطَلِّقُ؟! أَقُولُ: لا، أَنَا أُرِيدُ زَوْجَتِي أُمَّ أَوْلَادِي، أَوْ أَنَّهَا لَمْ تَلِدْ حَتَّى الْآنَ، لَكِنْ أَنَا أُرِيدُهَا، فَلَا يُمَكِّنُ.

يُقَالُ: إِنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَسْتَفْتِيهِ، يَقُولُ: إِنَّ أَبِي أَمَرَنِي أَنْ أُطَلِّقَ زَوْجَتِي وَأَنَا رَاغِبٌ فِيهَا وَهِيَ ذَاتُ دِينٍ وَخُلُقٍ، قَالَ: لَا تُطَلِّقَهَا.

يَقُولُهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَعْلَمُ الْأَئِمَّةِ بِالسُّنَّةِ، وَأَشَدُّهُمْ وَرَعًا وَزُهْدًا وَخَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكُلُّهُمْ عَلَى حَقٍّ، لَكِنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ مَشْهُورٌ بِلَقَبِ إِمَامِ أَهْلِ السُّنَّةِ.

قَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَلَيْسَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَرَ ابْنَهُ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَتَهُ، فَاسْتَفْتَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «طَلِّقَهَا»^(١) فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ جَوَابًا سَدِيدًا قَالَ: هَلْ أَبُوكَ عُمَرُ؟^(٢)

الجواب: لا، فَعُمَرُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَأْمُرَ ابْنَهُ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَتَهُ إِلَّا لِسَبَبٍ شَرْعِيٍّ، لَكِنَّ غَيْرَ عُمَرَ رُبَّمَا يُطَلِّقُهَا لِسَبَبٍ شَخْصِيٍّ، فَبَعْضُ النَّاسِ إِذَا رَأَى أَنَّ ابْنَهُ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِزَوْجَتِهِ يَغَارُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: طَلِّقْ، وَلَا سِيَّامَا بَعْضُ الْأُمَّهَاتِ، فَبَعْضُ الْأُمَّهَاتِ

= (٣٥٣٠)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) أخرجه أحمد (٤٢/٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في بر الوالدين، رقم (٥١٣٨)، والترمذي: كتاب الطلاق، باب ما جاء في الرجل يسأله أبوه أن يطلق زوجته، رقم (١١٨٩)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب الرجل يأمره أبوه بطلاق امرأته، رقم (٢٠٨٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/١٧١)، والآداب الشرعية لابن مفلح (١/٤٤٧).

إِذَا رَأَتْ ابْنَهَا مُتَعَلِّقًا بِزَوْجَتِهِ صَارَتْ كَأَنَّهَا ضَرَّةٌ لَهَا، وَأَمَرَتْهُ أَنْ يُطَلَّقَ، وَهَذَا لَا يَلْزِمُ الْوَلَدَ.

إِذَنْ: يُسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَ الْمَالُ؟ قَدْ يَكُونُ اكْتَسَبَهُ عَنْ طَرِيقٍ مُحَرَّمٍ، فَإِذَا قَالَ: إِنَّهُ اكْتَسَبَهُ عَنْ طَرِيقِ الرَّبَا، كَأَنْ يُعْطِيَ إِنْسَانًا أَلْفَ دِينَارٍ وَيَقُولَ لَهُ: هَاتِيهَا بَعْدَ سَنَةٍ أَلْفًا وَمِئَةَ دِينَارٍ، فَهَذَا يَكُونُ رَبًّا.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمة الله عليه-: إِنَّهُ وَرَدَ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَى الرَّبَا مَا لَمْ يَرِدْ فِي أَيِّ ذَنْبٍ آخَرَ سِوَى الشَّرْكِ^(١)، لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ أَكَلَ الرَّبَا، وَمُوكِلَ الرَّبَا، وَشَاهِدِي الرَّبَا، وَكَاتِبَ الرَّبَا^(٢)، كُلُّهُمْ لُعِنُوا عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَأَكَلَ الرَّبَا أَكَلَ اكْتَسَبَ الْمَالَ بِالْغِشِّ، كإِنْسَانٍ عِنْدَهُ طَعَامٌ، فِيهِ طَيْبٌ وَفِيهِ رَدِيءٌ، فَجَعَلَ الرَّدِيءَ أَسْفَلَ وَالطَّيِّبَ فَوْقَ، حَتَّى يَغْشَى النَّاسَ وَيَغُرَّ النَّاسَ، فَهَذَا حَرَامٌ، بَلْ هُوَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِصَاحِبِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الطَّعَامِ، وَكَانَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ شَمَّ مِنْهُ رَائِحَةً، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الطَّعَامِ فَإِذَا أَسْفَلَ الطَّعَامِ فِيهِ مَاءٌ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ، أَيْ الْمَطَرُ، قَالَ: «هَلَّا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ؛ لِيَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا»^(٣).

(١) انظر: إقامة الدليل على إبطال التحليل [الفتاوى الكبرى] (٦/ ١٣٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب لعن أكل الربا، رقم (١٥٩٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا»، رقم (١٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كَذَلِكَ إِنْسَانٌ قَالَ: أَنَا أَتَعَامَلُ بِالْغِشِّ مَعَ الْكُفَّارِ وَبِالْأَمَانَةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا» بَلْ قَدْ يَكُونُ أَشَدَّ؛ لِأَنَّ غِشَّ الْكَافِرِ يُوجِبُ النُّفْرَةَ عَنِ الْإِسْلَامِ.

فَالَّذِي اكْتَسَبَ الْمَالَ بِالْغِشِّ يُعَاقَبُ عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّهُ اكْتَسَبَهُ عَنْ طَرِيقٍ مُحَرَّمٍ، وَكُلُّ مَنْ اكْتَسَبَهُ عَنْ طَرِيقٍ مُحَرَّمٍ فَهُوَ حَرَامٌ، لَا يَجُوزُ.

إِذَنْ: ﴿لَتَسْتَئِلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التَّكْوِينُ: ٨] عَنِ الْمَالِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبْتَهُ؟

وَتُسْأَلُ أَيْضًا عَنِ الْمَالِ فِيمَا أَفْنَيْتَهُ، قَدْ يَكْتَسِبُ الْإِنْسَانُ الْمَالَ مِنْ طَرِيقٍ حَلَالٍ، لَكِنْ يَضُرُّهُ فِي غَيْرِ مَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ، كإِنْسَانٍ اشْتَرَى بِمَالِهِ الْمُبَاحِ خَمْرًا لِيَشْرَبَهَا، فَإِنَّهُ يُسْأَلُ عَنْ هَذَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُعْطِكَ الْمَالَ لِتَعْصِيهِ بِهِ، وَإِنَّمَا أُعْطَاكَ الْمَالَ لِتَشْكُرَهُ بِهِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرَةُ: ١٧٢] أَمَّا أَنْ تَسْتَعِينَ بِالْمَالِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهَذَا غَيْرُ مَقْبُولٍ لَا شَرْعًا وَلَا عَقْلًا.

أَرَأَيْتَ -وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى- لَوْ أَنَّ شَخْصًا أُعْطَاكَ مَالًا هَدِيَّةً، فَأَخَذْتَ هَذَا الْمَالَ، وَصَرْتَ تَعْصِي الَّذِي أُعْطَاكَ هَذَا الْمَالَ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُعَدُّ مِنَ الْعَقْلِ.

إِذَنْ: أَعِدَّ جَوَابًا لِهَذِهِ الْأَسْئَلَةِ:

السُّؤَالُ الْأَوَّلُ: بِمَآ اكْتَسَبْتَ الْمَالَ؟

السُّؤَالُ الثَّانِي: فِيمَا أَنْفَقْتَ الْمَالَ وَأَفْنَيْتَ الْمَالَ.

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النِّسَاءُ: ٥]

أَيُّ: يَقُومُ بِهِ مَصَالِحُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ^(١)، حَتَّى قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَنْ عُرِفَ بِأَنَّهُ يُضَيِّعُ الْمَالَ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ أَنْ يَحْجُرَ عَلَيْهِ، كَمَنْ عِنْدَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، وَاشْتَرَى مُفْرَقَاتٍ، وَجَعَلَ يَلْعَبُ بِهَا، فَهَذَا سَفِيهٌ نَحْجُرُ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ.

فَإِذَا قَالَ: هَذَا مَالِي.

قُلْنَا: لَكِنْ مَالُكَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُمَكِّنَكَ مِنْ صَرْفِهِ فِي أَمْرٍ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَفِي أَمْرٍ فِيهِ مَضَرَّةٌ مِنْ بَابٍ أَوْلَى أَنْ نَمْنَعَهُ.

وَهُنَا مَسْأَلَةٌ ابْتُلِيَ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ حَتَّى مِنْ أَهْلِ الدِّينِ، وَهِيَ التَّدْخِينُ، وَهُوَ حَرَامٌ، وَالدَّلِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٩] وَالدُّخَانُ سَبَبٌ لَأَمْرَاضٍ تَقْتُلُ الْإِنْسَانَ، فَمِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ السَّرَطَانِ الرَّئَوِيِّ وَالْحَلَقِيِّ شُرْبُ الدُّخَانِ.

دَلِيلٌ آخَرُ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النِّسَاءُ: ٥] وَالْأَمْوَالُ قِيَامٌ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَلَيْسَتْ تُصَرَفُ فِي الْأَشْيَاءِ الضَّارَّةِ.

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ^(٢) وَهَذَا إِضَاعَةٌ.

وَالدَّلِيلُ مِنَ الْعَقْلِ وَالنَّظَرِ: أَنَّ التَّدْخِينَ سَبَبٌ لِثِقَلِ الْعِبَادَاتِ عَلَى الْمُدْخِنِ، وَلَا سِيَّما الصَّوْمَ، تَجِدُ الصَّوْمَ عِنْدَ الْمُدْخِنِ أَثْقَلَ شَيْءٍ، حَتَّى الصَّلَاةُ ثَقِيلَةٌ عَلَيْهِ، فَلَوْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال، رقم (٢٤٠٨)، ومسلم:

كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) التخریج السابق.

حَانَ وَقْتُ صَلَاةٍ وَهُوَ يَشْتَهِي أَنْ يَشْرَبَ سِجَارَةً تَكُونُ الصَّلَاةُ ثَقِيلَةً عَلَيْهِ، وَالَّذِي يَثْقُلُ عَنِ الْعِبَادَاتِ لَا خَيْرَ فِيهِ.

كَذَلِكَ تَجِدُ الْمُدْخِنَ يَتَّبِعُ ابْتِعَادًا تَامًا عَنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الصَّلَاحِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الصَّلَاحِ سَوْفَ يَمْنَعُونَهُ مُبَاشَرَةً أَوْ حَيَاءً - هُوَ يَمْتَنِعُ حَيَاءً أَوْ يَمْتَنِعُ قَهْرًا إِذَا قَالُوا: لَا تُدْخِنْ - وَكُلُّ شَيْءٍ يُنْفِرُكَ عَنْ مُحَالِطَةِ أَهْلِ الصَّلَاحِ فَلَا خَيْرَ فِيهِ.

وَالْأَدِلَّةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ؛ وَلِهَذَا أُشِيرُ عَلَى مَنْ ابْتُلِيَ بِهَذَا التَّدْخِينِ أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنْ يُمَرِّنَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِهِ.

لَكِنْ قَدْ يَقُولُ: أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدْعَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً، فَهَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ أَدْعَهُ عَلَى فتراتٍ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ، مُمَكِّنٌ، نَقُولُ: الْيَوْمَ اشْرَبْ عَشْرَةَ بَدَلًا مِنْ عَشْرِينَ، وَغَدًا خَمْسَةَ بَدَلًا مِنْ عَشْرَةٍ؛ لِأَنَّ هَذَا دَوَاءٌ، وَالِدَوَاءُ يُسَلِّكُ فِيهِ أَقْرَبُ الطَّرِيقِ إِلَى حُصُولِ الْعِلَاجِ.

فَإِذَا قَالَ: أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدْعَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً.

قُلْنَا لَهُ: خَفِّفْ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى تَدْعَهُ بِالْكُلِّيَّةِ.

لَكِنَّ أَكْثَرَ الْمُدْخِنِينَ - نَسَأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَهُمُ الْهِدَايَةَ - لَيْسَ عِنْدَهُمْ عَزِيمَةٌ وَلَا قُوَّةٌ شَخْصِيَّةٌ، يَغْلِبُهُمُ الْهَوَى وَالنَّفْسُ، فَيَعْجِزُونَ عَنْ تَرْكِهِ، لَكِنْ لَوْ مَرَّ نُوا أَنْفُسَهُمْ لَتَرَكَوهُ.

إِذَنْ: سَوْفَ يُسَأَلُ الْإِنْسَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ مَالِهِ، لِمَاذَا صَرَفْتُهُ فِي هَذَا الدُّخَانِ؟

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يُسْأَلُ الْإِنْسَانُ عَنِ الْمَالِ إِذَا كَانَ مُلَائِمًا لِلنَّفْسِ، فَمَثَلًا الْأَكْلُ
أُخْيَانًا لَا يَجِدُ الْإِنْسَانُ مَا يَأْكُلُهُ إِلَّا قُرْصًا وَمَاءً مُسْكِرًا - أَيْ: جُعِلَ فِيهِ سُكْرٌ - فَلَا يَجِدُ
أَنْوَاعَ الْإِدَامَاتِ وَأَنْوَاعَ الْحُبُزِ؟

قُلْنَا: يُسْأَلُ؛ لِأَنَّ كُلَّ نَعِيمٍ بِحَسَبِهِ، فَتَعِيمُ الْغَنِيِّ شَيْءٌ وَنَعِيمُ الْفَقِيرِ شَيْءٌ آخَرُ،
لَكِنْ كُلُّ إِنْسَانٍ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ النَّعِيمِ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُوفِّقَنَا وَإِيَّاكُمْ لَصَرْفِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا فِيمَا يُرْضِيهِ، اللَّهُمَّ
مَنْ عَلَيْنَا بِذَلِكَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ
بِفَضْلِكَ عَلَى طَاعَتِكَ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



سورة العصر

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْعَصْرُ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿[العصر: ١-٢]﴾ الواو هذه للقسم، والعصر هو الدهر؛ وأقسم الله به لأنَّ الدهر خزانٌ للأعمالِ الصَّالحةِ أوِ السَّيِّئَةِ، والعصرُ قِيلَ: إِنَّهُ مِئَةُ سَنَةٍ، أَوْ أَلْفُ سَنَةٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لَكِنَّ الصَّوَابَ أَنَّهُ الدَّهْرُ مُطْلَقًا، وَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي خُسْرٍ، وَالْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ هُنَا كُلُّ إِنْسَانٍ، فَالْإِنْسَانُ هُنَا كَالْإِنْسَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] أَي: كُلُّ إِنْسَانٍ، وَسَأُعْطِي إِخْوَانَنَا الَّذِينَ يَشْمُونَ رَائِحَةَ النَّحْوِ، وَلَيْسَ مَنْ تَشَبَّعُوا مِنْهُ، بَلِ الَّذِينَ يَشْمُونَ الرَّائِحَةَ: أَنَّ (ال) إِنَّ صَحَّ أَنْ يَحُلَّ مَحَلُّهَا (كُل) فَهِيَ لِلْعُمُومِ، فَهُنَا يَصِحُّ أَنْ يَقَالَ: إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ لِفِي خُسْرٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [العصر: ٣]، وَالْإِسْتِثْنَاءُ مَعْيَارُ الْعُمُومِ، كُلُّ إِنْسَانٍ فَهُوَ فِي خُسْرٍ.

وانظر كيف عبر الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، ولم يقل لخاسر؛ لأنَّ ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أعظم وأبلغ، كأنه -أي: الخسر- إناء، والإنسان في وسطه، أي: إنَّ الخسر مُحِيطٌ به من كلِّ جانب؛ لأنَّ (في) للظرفية، والظرف مُحِيطٌ بالمظروف، فالمعنى أنَّ الإنسان في خسر، إِلَّا هَؤُلَاءِ السَّادَةُ الْكَرَامَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، فذكر -سُبْحَانَهُ- أربعة أوصاف:

الوصف الأول: الذين آمنوا بالله، وبما يجبُ الإيمانُ به، وهو الإيمانُ بالله، وملائكته، وكتبه، ورُسُله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

الوصف الثاني: عملوا الصَّالحات، أي: عملوا الأعمال الصَّالحات، وهي العباداتُ المبنية على الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

الوصف الثالث: وتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ، أي: صار بعضهم يُوصي بعضًا بالحق، والحق ما جاء به الشرع.

الوصف الرابع: وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ، أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله، فالصبر ثلاثة أنواع:

النوع الأول: صبرٌ على معاصي الله؛ لأنَّ الشيطانَ والنفسَ الأمارَةَ بالسوء إذا أردت طاعةً جعلًا يوسوسان لك، ويشتطانك، فاصبر، وافعل الطاعات.

النوع الثاني: صبرٌ عن معصية الله؛ لأنَّ الشيطانَ أيضًا يَأْزُكُ أَرْأًا إِلَى الْمَعَاصِي، فاصبر عنها، واحبس نفسك عنها، وما هي إِلَّا ساعاتٌ ثمَّ تنتهي.

النوع الثالث: الصبر على أقدار الله، أقدار الله عَزَّوَجَلَّ مِنْهَا مَا يُولَمُ، ومنها مَا يَلَائِمُ، فالْمُولَمُ مثلُ المَرْضِ والفَقِيرِ، والمَلَائِمُ مثلُ الصَّحَةِ والغِنَى.

إذن، الصبرُ على أقدارِ الله: أن يصبرَ الإنسانُ على ما قدَّرَ اللهُ عليه مِنَ الأشياءِ المؤلمةِ، وأمَّا الملائمةُ فلا يُحتاجُ أن نقولَ له: اصبرْ عليها؛ لأنَّها مُلائمةٌ للطبعِ.

فعلينا أن نتصفَ بهذه الصفاتِ الأربعِ، وعلينا أن نسألَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الثباتَ عَلَيْهَا، اللهمَّ ارزُقنا الاتصافَ بِهَا، والثباتَ عَلَيْهَا، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾.

قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝﴾ [العصر: ٣] الأعمال الصالحات ما جمعت وُصفَيْن: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ۝﴾؛ يعني: أوصى بعضهم بعضًا بالحق، والحق ضدُّ الباطل، فتواصيتهم بالحق يستلزم نهي بعضهم لبعض عن الباطل.

مثال ذلك: أن ترى إنسانًا مُقَصِّرًا في الصلاة، فتقول: يا أخِي؛ أوصيك أن تَتَّقِيَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، وأن تُقِيمَ الصلاةَ. كذلك تجدُ إنسانًا مُقَصِّرًا في بِرِّ الوالدين، تقول: يا فلان؛ أوصيك ببرِّ الوالدين، اتَّقِ اللَّهَ، وهَلَمْ جَرًّا.

لكن لو قال قائل: هل مِنْ ذَلِكَ - من التواصي بالحق - أن يُوصي بعضهم بعضًا بالتَّصديق بَكُلِّ ما أَخْبَرَ اللَّهُ به عَنْ نَفْسِهِ؟

فنقول: نعم مِنْ هَذَا، تقول: يا أخِي؛ لا تُحَرِّفِ الْقُرْآنَ، صَدِّقْ بِكُلِّ ما جاء

فِي الْقُرْآنِ، وَلَا تُحَرِّفْهُ لَهْوَى فِي نَفْسِكَ، كَمَا فَعَلَ طَوَائِفُ أَهْلِ الْبِدْعِ؛ أَهْلُ الْبِدْعِ حَرَّفُوا الْقُرْآنَ وَصَرَّفُوهُ إِلَى مَعَانٍ لَا يُرِيدُهَا اللَّهُ، وَلَا رَسُولُهُ.

ولهذا أمثلة كثيرة من ذلك: منها قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١-٢٢]؛ فَتَرَى بَعْضَهُمْ يَقُولُوا: جَاءَ رَبُّكَ؟ كَيْفَ ذَلِكَ؟ فنقول له: الله جاء أم غيره هو الذي جاء؟ نصُّ الآية: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، فامْتَلِكِ الشَّجَاعَةَ وَقُلْ: الله هو الذي جاء دون غيره، فلو قَالَ لَكَ قَائِلٌ: جَاءَ أَخُوكَ، فَمَنِ الَّذِي جَاءَ؟ الجواب: أَخِي، كَذَلِكَ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، فَالَّذِي جَاءَ هو الله تَعَالَى، وَلَوْ سَأَلْنَا طَالِبَ عِلْمٍ لَمْ يَتَجَاوَزِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَقُلْنَا لَهُ: مَنْ الَّذِي جَاءَ؟ لَقَالَ: اللَّهُ. فهذا له خمس عشرة سنة، وفهم من الآية الكريمة أن الذي جاء هو الله عَزَّوَجَلَّ، فَانْظُرْ إِلَى الْفِطْرَةِ! وَصَدَقَ فِيهَا فَهَمٌ، فَالصَّحِيحُ أَنَّ الَّذِي جَاءَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى. وَنَتَعَلَّمُ مِنْ هَذَا الصَّبِيِّ الَّذِي أَجَابَ بَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي جَاءَ، نَتَعَلَّمُ مِنْهُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ إِذَا فُسِّرَ دُونَ اتِّبَاعِ لِلْهَوَى لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِشْكَالٌ، أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ أَهْلُ التَّحْرِيفِ؟ قَالُوا: جَاءَ رَبُّكَ، أَي: جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ. وَاللَّهُ لِيُسْأَلَنَّ هَؤُلَاءِ عَنْ هَذِهِ الزِّيَادَةِ الَّتِي زَادُوهَا، لِمَاذَا يُقْحِمُونَ (الأمر) فِي آيَةٍ وَاضِحَةٍ لَا إِشْكَالَ فِيهَا؟ فَمَنْ فَسَّرَ مَجِيئَهُ -سَبْحَانَهُ- بِالْأَمْرِ وَقَالَ: الْمَعْنَى: (جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ)؛ فَقَدْ شَهِدَ عَلَى اللَّهِ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كَلَامُ اللَّهِ، وَوَاللَّهُ لِيُسْأَلَنَّ عَنْ هَذِهِ الشَّهَادَةِ.

فَيَنْبَغِي عَلَيْكَ يَا أَخِي أَنْ تَحْتَرِمَ كَلَامَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنْ تَحْتَرِمَ كَلَامَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، لَا تُفْسِّرُهُ بِمُقْتَضَى هَوَاكَ، مَا الَّذِي يَضُرُّكَ إِذَا قُلْتَ: جَاءَ رَبُّكَ، أَي: جَاءَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ نَفْسُهُ؟! هَلْ يَضُرُّكَ شَيْءٌ؟! لَا يَضُرُّكَ، وَلَكَ الْحُجَّةُ

عند الله عزَّوجلَّ؛ أن تقول: يا ربِّ، إني قرأتُ كتابَكَ، وفهمتُ معناه وهذا هو.

بقي أن يقال: هل يمكن أن نعرف كيف جاء؟

والجواب: لا، لا نعرف، معنى المجيء معروف، لكن كيف جاء، الله أعلم، لا نُدري؛ ولهذا سئل الإمام مالك رحمه الله إمام أهل المدينة، الحافظ المعروف، وقد كان في حلقة الدرس فجاء رجل، فقال: يا أبا عبد الله؛ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟ فأطرق الإمام مالك رأسه، ثم جعل يتصبَّب عرقاً، من شدة وقع هذا السؤال على قلبه، ثم رفع رأسه وقال: «يا هذا، الاستواء غيرُ مجهول - يعني: معروف في اللغة العربية - والكيف غيرُ معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مُبتدعاً»^(١).

كلمات أربع تستحق أن تكتب بهاء الذهب على صفحات الفضة: «الاستواء غيرُ مجهول»؛ يعني: معلوم في اللغة العربية؛ استوى على كذا يعني: علا عليه، قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿١٢﴾ لِّتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٣].

«والكيف غيرُ معقول». نحن لا نذكر كيفية صفات ربنا عزَّوجلَّ؛ لأن ذلك أعظم من أن تذكركه العقول، وإذا كان البصر إذا رأى الله عزَّوجلَّ لا يذكركه؛ فكيف بالمعاني المعقولة؟! من حاول أن يكيّف صفات الله عزَّوجلَّ فقد ضلَّ ضللاً مبيناً، وقد تنقّص ربّه.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٢٥ / ٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٠٥ / ٢)، رقم (٨٦٧).

فلا يمكن أن تُكَيَّفَ صفاتِ الله، لو قال قائل: أثبتُ لله وجهًا؟ لقلتُ: نعم، أثبتُ ذلك لله؛ لأن الله أثبتَهُ لنفسِهِ؛ قال عزَّوجلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]. فإن استطرَدَ وقال: إذن؛ هل تستطيعُ أن تصِفَ وجهَ الله؟ نقول: لا؛ لأن الله أخبرنا عن وجهِهِ، ولم يُخبرنا كيف وجهُهُ، وقد قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ثم يقول الإمام مالك رحمه الله: «والإيمانُ بِهِ واجبٌ»، الإيمانُ به أي: بالاستواءِ واجبٌ؛ لأنَّ الله تعالى أخبرَ به عن نفسه، وكلُّ ما أخبرَ به عن نفسه وجبَ علينا قبولُهُ، وعدمُ التردُّدِ فيه، ولكن دون تمثيلٍ، ودون تكيفٍ.

ثم يقول: «والسؤالُ عنه بدعةٌ»؛ أي: السؤالُ عن كَيْفِيَّةِ الاستواءِ، أمَّا السؤالُ عن المعنى فهذا واجبٌ، لا بُدَّ أن نعرفَ معنى كلامِ الله عزَّوجلَّ.

ثم قال: «وما أراك إلا مُبتدعًا»؛ أراك يعني: أظنُّكَ. ثم أمرَ به فأخرجَ من المسجدِ، أي: أخرجَ من مسجدِ الرسول ﷺ، ولم يأمرَ بِهِ أن يخرجَ من الحلقة؛ بل قال: فأخرجَ من المسجدِ، وهكذا يجبُ أن تُبعدَ عن مجالسنا كلَّ مبتدعٍ، وأن نُحذِرَ منه، وألا يثقَ أحدٌ بنفسِهِ ويقولُ: أنا وإن حضرتُ مجلسَهُ لم يضلَّنِي، احذِرْ، فإنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ سَمِعَ بِالِدَّجَالِ فَلْيَنَأْ عَنْهُ»^(١)؛ أي: فليبتعدْ، والدَّجَالُ -كما هو معلوم- يأتي إليه الرَّجُلُ وهو يرى أنه مؤمنٌ، ثم لا يزالُ به حتَّى يفتِنَهُ، هذا معنى الحديثِ، لا تقولُ: أنا الحمدُ لله مُطمئنٌّ ولا يهْمُنِي ولن

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١، رقم ١٩٨٨٨)، وأبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، رقم (٤٣١٩).

يُضَرَّنِي. لا، الشيطانُ يُجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ^(١)، فَإِيَّاكَ وَمَجَالَسَةَ أَهْلِ الْبِدْعِ.
 فالرابعُ بهذه الدُّنْيَا هُوَ الْمُؤْمِنُ. والثاني: الْعَامِلُ الصَّالِحَاتِ. والثالثُ: الَّذِي
 يُوصِي غَيْرَهُ بِالْحَقِّ. والرابعُ: الَّذِي يُوصِي غَيْرَهُ بِالصَّبْرِ، وَالوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ
 كُلَّ مَا يُجْرِي عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ أَوْ الْأُمُورِ الْقَدَرِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يَرْضَى بِهَا،
 وَإِنْ وَجَدَ فِيهَا مَا لَا يُلَائِمُ طَبِيعَتَهُ، فَالْمَرَضُ يُصِيبُ الْإِنْسَانَ، وَهُوَ عَنْهُ غَيْرُ رَاضٍ؛
 لِأَنَّ هَذَا لَا يُلَائِمُ الطَّبِيعَةَ، فَلَا بُدَّ مِنْ صَبْرٍ، أَصْبِرْ، وَتَحَمَّلْ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ
 مُنْتَهَى، لَوْ آلَمَكَ الْمَرَضُ الْآنَ فَسَوْفَ يَنْتَهِي، دَوَامُ الْحَالِ مِنَ الْمَحَالِ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَصْبِرَ
 وَتَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ، فَالْمَرَضُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ عَلَيْكَ، اللَّهُ قَضَى عَلَيْكَ أَنْ تَمْرَضَ، فَيَجِبُ
 أَنْ تَصْبِرَ وَتَرْضَى؛ لِأَنَّكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ، يَفْعَلُ فِيكَ مَا شَاءَ،
 فَكَمَا أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُجْبِي الشَّجَرَةَ وَيُمِيتُهَا، كَذَلِكَ يُمَرِّضُ الْإِنْسَانَ وَيُصَحِّحُهُ، فَأَنْتَ
 عَبْدٌ، وَالرَّبُّ رَبُّ.

كَذَلِكَ فَرَضَ عَلَيْكَ أَنْ تُقَاتِلَ وَتُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَعَلَيْكَ أَنْ تُقَاتِلَ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ، وَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ؛ لِأَنَّ الْقِتَالَ لَا يُلَائِمُ النَّفْسَ، وَلَوْ لَا
 مَا فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ؛ مَا اخْتَارَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُقَدَّمَ رَقَبَتُهُ
 لِأَعْدَائِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]؛
 ﴿وَهُوَ﴾ يَعْنِي الْقِتَالَ، وَلَيْسَ الْكِتَابَةُ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَدْ رَضُوا بِذَلِكَ،
 وَتَقَبَّلُوهُ بِكُلِّ نَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَرِيدُ أَنْ يِقَاتِلَ، إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، رقم (٢٠٣٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، رقم (٢١٧٤).

ولهذا قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»^(١).

إذن، ذَكَرْنَا أَوَّلَ مِثَالٍ، وهو الصَّبْرُ عَلَى الْمَرَضِ، وهو مِنْ قِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، ليس أَمْرًا تَكْلِيفِيًّا، وثاني مثال: وهو الصَّبْرُ عَلَى الْقِتَالِ، وهو صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَقَاتِلْ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَإِنْ كَرِهْتَ الْقِتَالَ.

كَذَلِكَ شُرْبُ الْخَمْرِ، مِثْلًا: رَجُلٌ عَاشَ فِي بَلَدِ الْكُفَّارِ، يَشْرَبُونَ الْخُمُورَ وَلَا يُبَالُونَ، فَكَانَتْ نَفْسُهُ تُرَاوِدُهُ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ، وهو يَتَحَمَّلُ وَيَصْبِرُ، فَهَذَا يُسَمَّى صَبْرًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] أي: إِنْ بَعْضُهُمْ يُوَصِّي بَعْضًا فِي الصَّبْرِ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ أَمْرًا وَمَنْهِيًّا، وَفِي الصَّبْرِ عَلَى قِضَاءِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ.

قال الإمام الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَوْ لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةُ لَكَفَتْهُمْ؛ فَإِنَّهَا حُجَّةٌ»^(٢).

وقد يَرِدُ سَوَالٌ: أَقْسَمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ هُنَا بِالْعَصْرِ، وَالْعَصْرُ مَخْلُوقٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَهَلْ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُقْسِمَ بِمَخْلُوقَاتِ اللَّهِ؟

والجواب: الْقَسَمُ بِغَيْرِ اللَّهِ حَرَامٌ؛ بَلْ هُوَ مِنَ الشَّرْكِ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، رقم (٢٩٦٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمنى لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء، رقم (١٧٤٢).

(٢) تفسير الشافعي (٣/ ١٤٦١).

اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصُمْتُ»^(١)، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»^(٢)، فَلَا يَجُوزُ الْحَلْفُ بِنَبِيِّ، وَلَا بِمَلَكٍ، وَلَا بِشَمْسٍ، وَلَا بِقَمَرٍ، وَلَا بِأَيِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، الْحَلْفُ إِنَّمَا هُوَ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١] فِيهَا قَسَمٌ بِالْمَخْلُوقِ، فَكَيْفَ ذَلِكَ؟

فَنَقُولُ جَوَابًا عَلَيْهِ: إِنَّ الَّذِي أَقْسَمَ بِالْمَخْلُوقِ هُوَ الْخَالِقُ عَزَّوَجَلَّ، وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَحْلِفَ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، لَا أَحَدَ يَحْجِرُ عَلَى اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أَمَا نَحْنُ فَلَا يَجُوزُ أَنْ نَحْلِفَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَبَدًا.

وَنَجِدُ الْآنَ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُونَ: وَالنَّبِيُّ أَفْعَلْ هَكَذَا. وَعِنْدَهُ أَنْ قَوْلُهُ (وَالنَّبِيُّ) أَشَدُّ مِنْ قَوْلِهِ (وَاللَّهُ)، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ، وَهَذَا مَوْجُودٌ، يُجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؛ يَحْلِفُونَ بِالنَّبِيِّ، فَنَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ، لَا تَحْلِفْ بِالنَّبِيِّ، فَإِنْ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ أَشْرَفُ الْخَلْقِ؟ فَلِمَاذَا لَا أَحْلِفُ بِهِ؟ نَقُولُ: هَذَا النَّبِيُّ الَّذِي حَلَفْتَ بِهِ تَعْظِيمًا لَهُ قَالَ لَكَ: لَا تَحْلِفْ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَحَذَّرَكَ مِنْ هَذَا، فَكَيْفَ تَحْلِفُ بِالنَّبِيِّ؟!

وَهُنَا نَذْكُرُ قِصَّةَ ظَرِيفَةٍ: كَلَّمَ شَخْصٌ آخَرَ، فَقَالَ: بِالنَّبِيِّ لَتُخْبِرُنِي، قَالَ لَهُ: هَذَا لَا يَجُوزُ؛ الْحَلْفُ بِالنَّبِيِّ حَرَامٌ، لَا تَعُدْ لِهَذَا، فَقَالَ: وَالنَّبِيُّ لَا أَعُودُ لِهَذَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم (٢٦٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٥/٢)، رقم (٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

فَمِثْلُ هَذَا قَالَ مَا قَالَ لِأَنَّ لِسَانَهُ اعْتَادَ هَذَا الشَّيْءَ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ
تُعَوِّدَ لِسَانَكَ عَلَى مَا كَانَ مَبَاحًا لَكَ، أَمَا الْمُحَرَّمُ فَلَا.



الدَّرْسُ الثَّالِثُ:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝﴾ [العصر: ١-٢] الواو هنا لِلْقَسَمِ، وهنا أَقْسَمَ اللَّهُ بِالْعَصْرِ، وَالْعَصْرُ هُوَ الزَّمَانُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُقْسِمَ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ؛ لِأَنَّهُ حَاكِمٌ لَا مُحْكُومٌ عَلَيْهِ، فَاللَّهُ يُقْسِمُ بِالْعَصْرِ وَبِالضُّحَى وَبِاللَّيْلِ وَبِالشَّمْسِ وَبِالْقِيَامَةِ، وَبِكُلِّ مَا أَرَادَ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَهُ الْحُكْمُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ حُكْمٌ، إِلَّا مَا أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ، قَدْ يَوْجِبُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا فَيَجِبُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۝﴾ [الأنعام: ٥٤] كَتَبَ أَيُّ: أَوْجَبَ.

وكما قُلْنَا فَإِنَّ الْعَصْرَ هُوَ الزَّمَنُ، فَإِنَّا نَقُولُ: عَصْرُ الصَّحَابَةِ، وَعَصْرُ التَّابِعِينَ، وَعَصْرُ تَابِعِي التَّابِعِينَ. وَنَحْنُ نَرِيدُ زَمَنَ الصَّحَابَةِ، وَزَمَنَ التَّابِعِينَ، وَزَمَنَ تَابِعِي التَّابِعِينَ.

إِذَنْ، الْعَصْرُ هُوَ الزَّمَانُ، وَإِنَّمَا أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالزَّمَانِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْعِبَرِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا إجمالاً: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ۝﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فِي الزَّمَنِ يُعَزُّ أَقْوَامٌ، وَيُذَلُّ آخَرُونَ، وَيُغْنَى فِيهِ أَقْوَامٌ، وَيُفْقَرُ فِيهِ آخَرُونَ، وَتَرْتَفِعُ

الأُمم، وتنزل وتُقهَر وتُغلب، فالزمان في الحقيقة كله عبر، بل إن الإنسان في حياته اليومية - وحياة الإنسان منّا قصيرة - يجد العبر، فقد تجد إنساناً - بدون أي سبب معلوم - يوماً مسروراً، ويوماً مغموماً، بل إن الإنسان ربّما يأتي عليه في اليوم الواحد شُرورٌ وحُزنٌ دون أي سبب، وفي هذا يقول الشاعر^(١):

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نَسَاءً وَيَوْمٌ نَسَرُّ

وإنما أقسم الله بالعصر لما يحدث فيه من الآيات والعبر العظيمة، ففي عصر النبي ﷺ انتصر هو وأصحابه في سنة، وبعدها بسنة هُزموا، فقد انتصروا في بدر، وهُزموا في أحد، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠] أي: إن يمسسكم قرحٌ في أحدٍ فقد مسّ القوم قرحٌ مثله في بدر، ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وهذا شيءٌ مشاهدٌ.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]: والإنسان هنا تعني كل إنسان، ف(ال) هنا تنوبُ مناب (كل)، فيصحُّ التقرير: إن كل إنسانٍ لفي خسر. والجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكّدات: الأول: القسم، والثاني: إن، والثالث: اللام في قوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾.

أكّد الله عزّ وجلّ هذا الخبر الصادق بهذه المؤكّدات، تأملوا قوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ ولم يقل: لخسر. والأوّل أبلغُ لأنه جعل الخسر ظرفاً له، والظرف محيطٌ بالمظروف، فكأنه قال: إن الإنسان منغمسٌ في الخسران، إلا من استثنى، لكن لو قال: إن الإنسان لخاسر. فلن تكون في البلاغة مثل قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾.

والخسر ضدُّ الربح، فالإنسان في تعامله إمّا أن يخسر وإمّا أن يربح، وإمّا ألا

(١) البيت للنمر بن تولب، كما في كتاب سيويه (١/ ٨٦).

يَرْبَحَ وَلَا يَخْسِرَ، فَإِذَا اشْتَرَى بِضَاعَةً بِمِئَةٍ، وَبَاعَهَا بِمِئَةٍ وَعِشْرِينَ، فَقَدْ رَبِحَ، وَإِذَا اشْتَرَى بِضَاعَةً بِمِئَةٍ وَبَاعَهَا بِثَمَانِينَ فَقَدْ خَسِرَ، وَإِذَا اشْتَرَى بِمِئَةٍ وَبَاعَهَا بِمِئَةٍ فَلَمْ يَرْبَحْ وَلَمْ يَكْسِبْ.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [العصر: ٣] اسْتَشْنَى اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مَنْ اسْتَشْنَى بِصِفَاتِ أَرْبَعٍ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

الأولى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: الَّذِينَ آمَنُوا بِكُلِّ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ الْإِيمَانَ بِأَكْمَلِ بَيَانٍ، فَقَدْ سَأَلَهُ جِبْرِيلُ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

الثانية: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ بَيْنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ، وَبَيَّنَّ أَصُولَهُ، وَهِيَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ الْبَيْتِ.

واعلم أن العمل لا يكون صالحاً حتى يجتمع فيه شيان:

الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ أَلَّا تَنْوِي بَعَادَتِكَ أَنْ يَمْدَحَكَ النَّاسُ، أَوْ أَنْ تَكُونَ وَجِيهًا بَيْنَهُمْ، أَوْ أَنْ تَكُونَ مُعَظَّمًا فِيهِمْ، وَأَنْ تَنْوِي بَعَادَتِكَ وَجَهَ اللَّهِ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تُبَالِ أَرَأَكَ النَّاسُ أَمْ لَمْ يَرَوْكَ؛ لِأَنَّكَ تَعْمَلُ لِلَّهِ، وَهَذَا هُوَ الْإِخْلَاصُ.

وعلامَةُ الْإِخْلَاصِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ إِذَا أَدَّى عِبَادَةً فَلَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ بِهَا أَوْ لَا، وَهَذَا هُوَ الْمُخْلِصُ؛ الَّذِي لَا يَهْتَمُّ بِالنَّاسِ فِي عِبَادَتِهِ لِلَّهِ، فَهُوَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩).

يَعْبُدُهُ فِي كُلِّ حَالٍ، سِوَاءَ رَأَوْهُ أَوْ لَمْ يَرَوْهُ، وَهَذِهِ عَلَامَةُ الْإِخْلَاصِ.

الثاني: المتابعة للرسول ﷺ. واعلم أن المتابعة لا تتحقق إلا إذا وافقت العبادة الشريعة في أمور ستة:

الأول: أن توافق الشريعة في سببها. الثاني: في جنسها. الثالث: في قدرها. الرابع: في كيفيتها. الخامس: في زمانها. السادس: في مكانها.

الأول: أن توافق الشريعة في السبب، فإذا أحدث الإنسان عبادة بسبب غير شرعي فهي باطلة مردودة عليه؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١). وهذا له أمثلة، منها: أننا نسمع بعض الناس إذا طيبت به بالبخور أو بالدهن قال: اللهم صل على محمد. فجعل التطيب من أسباب الصلاة على النبي ﷺ، فنقول: هذه عبادة مردودة عليك؛ لأنك قيدها بسبب غير شرعي، فإذا احتج علينا فقال: أليس النبي ﷺ يحب الطيب؟ قلنا: إذا كنت كذلك فإذا شربت صل على النبي، إذا أكلت فصل على النبي، إذا أتيت أهلك فصل على النبي، وإذا كان النبي ﷺ يتطيب ولا يصلي على النبي علم أن الصلاة عليه بسبب الطيب صلاة ليس لها أصل.

من ذلك أيضا: ما يسمى بعيد الميلاد النبوي، فهو عيد المولد يُقصد به تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام، وإظهار محبته، ورفع ذكره، ولا شك أن هذه عبادة عظيمة، بل لا يتم الإيمان حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليك من نفسك وولدك ووالدك والناس أجمعين، ونحن نشهد الله عز وجل متحدثين بنعمته علينا أن محبة

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

رسول الله ﷺ أشدُّ من محبتنا لأنفسنا وأولادنا ووالدينا، ولا شك أيضاً أننا نعظم الرسول عليه الصلاة والسلام، وكلامه عندنا فوق كل كلام، وسنته فوق كل سنة، وهديّه فوق كل هدي، ولا نتقدم بين يديه تعظيماً له عليه الصلاة والسلام.

ولا شك أن ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام على ألسنتنا أحلّ من ذكر كل مخلوق، ونحمد الله عزّ وجلّ على هذا، ولا شك أيضاً أننا نرفع ذكر الرسول ﷺ في أعلى مكان في الأذان، فالمؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، وهذا رفع ذكره. وهكذا فإن محبة الرسول عليه الصلاة والسلام عبادة، وتعظيمه عبادة، ورفع ذكره عبادة، ولكننا لا نجعل في شريعته ما لم يشرعه لنا. فإن النبي ﷺ لم يُقم لمولده عيداً، وكذلك أبو بكر رضي الله عنه، ورسول الله ﷺ أحبّ إليه من كل الناس، وعمر وعثمان وعلي، بل الصحابة كلهم، والتابعون، وتابعو التابعين لم يفعلوا.

وما حدثت هذه البدعة إلا في القرن الرابع الهجري، ولا يُعقل أن ثلاثة قرون في الأمة الإسلامية تجهل أن هذا مشروع، أو أنها تعلم ولكنها خالفت. وكل هذا مُمتنع، فالأمة الإسلامية ليست جاهلة أن هذا مشروع لو كان مشروعاً، وليست مخالفة ألا تقوم به لو كان مشروعاً، فكون القرون المفضلة التي قال عنها الرسول عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١). لم تفعله، فهذا يدلُّ دلالة واضحة على أنها ليست من السنة، وأن التعب فيها ضائع.

وعلاوة تعظيم الرسول ألا نتقدم بين يديه، وألا ندخل في دينه ما ليس منه.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب فضل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٦٥١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

وذكرُ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - والحمدُ لله - في كُلِّ عِبَادَةٍ نَتَعَبَّدُهَا؛ لأنَّ جميعَ العباداتِ لا بُدَّ فيها مِنَ الإخلاصِ والمتابعةِ، فإذا كُنْتَ تُصَلِّي وَأَنْتَ تَشْعُرُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ الرَّسُولَ فَهَذَا ذِكْرٌ لِلرَّسُولِ.

إذن: جميعُ العباداتِ التي نقومُ بها هي ذِكْرٌ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأننا نَتَّبِعُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فنحنُ الآنَ نشعرُ أننا إذا صَلَّيْنَا نَقْتَدِي بالرَّسُولِ، وهكذا جميعُ العباداتِ، إذن: نحنُ لسنا بحاجةٍ أَلَّا نُقِيمَ ذِكْرَاهُ إِلَّا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

ثم إنَّ ما يَقَعُ في هذهِ الأعيادِ مِنَ المنكراتِ العظيمةِ يُوَدِّي إلى مَنَعِهَا؛ لأنَّه يقالُ فيها أقوالٌ مُنكَرَةٌ، وَيُفَعَّلُ فيها أفعالٌ مُنكَرَةٌ. وبلادُنا - واللهِ الحمد - لا تُقِيمُ مثلَ هذهِ الاحتفالاتِ، ولكن هناك بلادٌ إسلاميَّةٌ - مع الأسف - تُقِيمُهَا.

وهذا الأمرُ شأنُهُ عظيمٌ وخطيرٌ، وأنا أقولُ وأُكْرِّرُ: يجبُ أن نُبَلِّغَ أهلَ هذهِ البلادِ أن هذا الأمرَ بدعةٌ، والعِلْمُ يأتي شيئاً فشيئاً والتَّطْبِيقُ يأتي شيئاً فشيئاً، فإذا شاعَ بينَ العامةِ أن هذا لا أَصْلَ له وأنَّه بدعةٌ تَرْكُوهُ، فكلُّ إنسانٍ يَفْعَلُ عِبَادَةً فَإِنَّمَا يُرِيدُ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: لا بُدَّ أن تكونَ العِبَادَةُ مطابِقةً لِلشَّرِيعَةِ في جِنْسِهَا، فكلُّ يَعْلَمُ أن الأَصاحِيَّ إِنَّمَا تَكُونُ في عِيدِ الأَضْحَى، والتَّضْحِيَّةُ لِلَّهِ تَكُونُ أَوَّلًا بِالْغَنَمِ، وَثَانِيًا: بِالْبَقَرِ، وَثَالِثًا: بِالْإِبِلِ. فلو أن رَجُلًا ضَحَّى بِفَرَسٍ، وَالْفَرَسُ أَغْلَى مِنَ المَاعِزِ، وَأَغْلَى مِنَ الشَّاةِ، وَرَبَّمَا أَغْلَى مِنَ البَعِيرِ، فَلَا تَصِحُّ التَّضْحِيَّةُ؛ لأنَّه لم يوافقِ الشَّرِيعَةَ في الجِنْسِ.

الثالث: لا بد أن توافِقَ الشَّرِيعَةَ في القَدْرِ، فكلُّنا يَعْلَمُ أن الصلاةَ محدودةٌ،

فصلاة الظهر أربع، فلو أن إنساناً قال: أنا أحب الخير، وأحب الزيادة في العمل، وسأصلي الظهر ست ركعات. قلنا له: لا تصح هذه العبادة؛ لأنها مخالفة للشرعة في قدرها.

الرابع: لا بُدَّ أن تُوافق الشريعة في كَيْفِيَّتِهَا، فإنْ خالفتْ في الكَيْفِيَّةِ لم تَصَحَّ. فمثلاً كَيْفِيَّةُ الوضوء: أن يَغْسِلَ الإنسانُ وَجْهَهُ، ثم يَدَيْهِ، ثم يَمْسَحُ رَأْسَهُ، ثم يَغْسِلُ رِجْلَيْهِ، وهذه هي الأعضاء الأربعة التي ذَكَرَهَا اللهُ تعالى في القرآن: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، فلو أن رجلاً غَسَلَ يَدَيْهِ قَبْلَ غَسْلِ وَجْهِهِ لم يَصَحَّ وُضُوؤُهُ؛ حتى إن غَسَلَ بَعْدَ ذَلِكَ وَجْهَهُ، ثم مَسَحَ رَأْسَهُ، ثم غَسَلَ رِجْلَيْهِ، لأنه خالَفَ في الكَيْفِيَّةِ.

وكذلك في العُمرة، فلو أن إنساناً جاءَ مَعْتَمِراً، فوجَدَ المَطَافَ مُزْدَحِجاً، فبدأ بالسَّعْيِ قَبْلَ الطَّوَافِ، فلا يَصِحُّ سَعْيُهُ؛ لأنه خالَفَ الشريعةَ في الكَيْفِيَّةِ والواجب. ولو أن إنساناً يُصَلِّي فسَجَدَ قَبْلَ أَنْ يَرْكَعَ، ثم قامَ وَرَكَعَ، فلا تَصِحُّ صَلَاتُهُ؛ لأن الركوعَ هُوَ الأوَّلُ، وقد خالَفَ في أصلِ العبادةِ في الكَيْفِيَّةِ.

الخامس: لا بُدَّ أن تُوافقَ الشريعةَ في الزمانِ، فلو أن رجلاً يَتَعَبُّ في النَّهَارِ في عَمَلِهِ، كَالْعَامِلِ أَوِ التَّاجِرِ، فقال: سأَصُومُ في اللَّيْلِ بَدَلاً عَنِ النَّهَارِ. فإنَّ عَمَلَهُ لَا يَصِحُّ؛ لأنه صَامَ في زَمَنِ لَا يُشْرَعُ فِيهِ الصَّوْمُ، فخالَفَ في زَمَنِ العبادةِ.

السادس: لا بُدَّ أن تُوافقَ الشريعةَ في المكانِ، فلو أن رجلاً أَحَبَّ أَنْ يَعْتَكِفَ في العَشْرِ الْأَوَاخِرِ، ولكنه يُصَابُ بِالتَّعَبِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ أَوْ يَتَسَحَّرَ، فأَرَادَ أَنْ

يَعْتَكِفُ فِي بَيْتِهِ، لَا فِي الْمَسْجِدِ، فَلَا يَصِحُّ؛ لَأَنَّهُ خَالَفَ الشَّرِيعَةَ فِي الْمَكَانِ، فَلَا عِتِكَافُ فِي الْمَسَاجِدِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فَالضَّابِطُ لِأَيِّ عِبَادَةٍ هُوَ أَنْ تَكُونَ مُوَافِقَةً لِلشَّرِيعَةِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ السَّتَّةِ.

نَعُودُ إِلَى السُّورَةِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٣] أَي: عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ، وَهِيَ مَا كَانَ الْعَمَلُ فِيهَا خَالِصًا لِلَّهِ، مُوَافِقًا لِشَّرِيعَةِ اللَّهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]: لَمْ يَقْتَصِرِ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ عَلَى صِلَاحِ هَؤُلَاءِ بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ مُحَاوَلَةَ إِصْلَاحِ غَيْرِهِمْ، وَهِيَ الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أَي: جَعَلَ بَعْضُهُمْ يُوصِي بَعْضًا بِالْحَقِّ، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ وَلَا شَكَّ، لَكِنْ نُصَّ عَلَيْهِ لِأَهَمِّيَّتِهِ، أَي جَعَلَ بَعْضُهُمْ يُوصِي بَعْضَهُمْ بِالْحَقِّ، وَالْحَقُّ كُلُّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠]، تَوَاصَوْا بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، يُوصُونَ غَيْرَهُمْ بِالِاتِّزَامِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَبِالشَّرِيعَةِ الزَّمَّ أَوَامِرَهَا، وَاتَّرَكَ نَوَاهِيَهَا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

الرَّابِعَةُ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [البلد: ١٧] وَالصَّبْرُ فِي الْأَصْلِ هُوَ الْحَبْسُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: قُتِلَ فُلَانٌ صَبْرًا، وَذَلِكَ إِذَا أُمْسِكَ، ثُمَّ قُتِلَ، فَقَدْ قُتِلَ وَهُوَ مُحْبُوسٌ عَنُودًا.

فَالصَّبْرُ فِي اللَّغَةِ هُوَ الْحَبْسُ، أَمَا فِي الشَّرْعِ فَهُوَ الصَّبْرُ عَلَى أَوَامِرِ اللَّهِ، وَالصَّبْرُ عَنْ نَوَاهِي اللَّهِ، وَالصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ، وَهَذِهِ ثَلَاثُ جِهَاتٍ:

الأول: الصَّبْرُ على أوامر الله: أن يَحْبِسَ الإنسانُ نَفْسَهُ على فِعْلِ العِبَادَةِ؛ لأنَّ العِبَادَةَ ثَقِيلَةٌ عَلَى النُّفُوسِ، إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، فَيَحْبِسُ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يُصَلِّيَ مَعَ الْجَمَاعَةِ فِي الصَّبَاحِ، يَحْبِسُ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ تَصُومَ، يَحْبِسُ نَفْسَهُ عَلَى بِرِّ وَالِدَيْهِ عَلَى صِلَةِ الْأَرْحَامِ، إِلَى آخِرِ الْأَوَامِرِ الْكَثِيرَةِ.

الثاني: والصَّبْرُ عن نواهي الله: كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣]. وَهَذِهِ نَوَاهٍ، كَذَلِكَ أَيْضًا قَالَ: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١] وَهَذَا نَهْيٌ، قَدْ تَقُولُ الْمَرْأَةُ: أَشَاهِدُ مَنْ تُبْدِي زِينَتَهَا. فَتُسَوِّلُ لَهَا نَفْسَهَا أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ فِعْلِهَا، فَنَقُولُ: اضْبِرِّي عَنْ هَذَا الْمَحْرَمِ، وَلَا تَتَّبِعِي أَهْوَاءَ مَنْ ضَلَّ، اضْبِرِّي وَاحْبِسِي نَفْسَكَ.

النِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ مِثْلًا مِنْهِي عَنْهَا؛ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ مَا بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ أَنْ لَا يَنْحَنَ (١)، فَإِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ لِلْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةُ ضَعِيفَةٌ لَا تَحْمِلُ الصَّبْرَ، وَأَرَادَتْ أَنْ تُنُوحَ عَلَيْهِ، نَقُولُ: اضْبِرِّي وَاحْبِسِي نَفْسَكَ عَنِ النِّيَاحَةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ النِّيَاحَةِ، فَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَعْنِي مِنْ قَبْرِهَا - وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» (٢).

وَقَالَ تَعَالَى كَذَلِكَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾ [الإسراء: ٣٢] وَهَذَا نَهْيٌ، فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَزْنِيَ، إِمَّا بِفَرْجِهِ، أَوْ بِعَيْنِهِ، أَوْ بِسَمَاعِهِ، نَقُولُ: صَبِّرْ نَفْسَكَ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٧، رقم ١٣٠٥٥)، والنسائي: كتاب الجنائز، باب النياحة على الميت، رقم (١٨٥١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، رقم (٩٣٤).

يا أخِي، لا تَنْظُرُ للنِّسَاءِ، ولا تَتَلَذَّذُ بِأَصْوَاتِهِنَّ، ولا تُصَدِّقَ زِنَى العَيْنِ والأُذُنِ بِزِنَى الفَرْجِ، صَبِرْ نَفْسَكَ واحْبِسْهَا.

الثالث: الصَّبْرُ على أقدارِ الله، ومن المعلوم أن أقدارَ الله عَزَّوَجَلَّ نوعان: نوعٌ مُلائمٌ للنَّفْسِ وطَبِيعَتِهَا، ونوعٌ غيرُ مُلائمٍ. فإذا قَدَّرَ اللهُ لَكَ أن تَرْبَحَ رِبْحًا كَثِيرًا في تِجَارَةٍ، فهذا أمرٌ يحتاجُ إلى صَبْرٍ، وهذا مُلائمٌ للإنسانِ، ولو قَدَّرَ اللهُ له أن يَتَزَوَّجَ، فهذا أمرٌ يحتاجُ إلى صَبْرٍ؛ لأنه مُلائمٌ للنَّفْسِ، ولو قَدَّرَ اللهُ تعالى أن يَدْعُوَ شَخْصًا على طعامٍ، وأجابَ الدَّعْوَةَ، وأكَلَ الطَّعامَ، فهذا صَبْرٌ مُلائمٌ.

إذن: أقدارُ الله تعالى لا شَكَّ أنَّها أقدارٌ خَيْرٌ وسُرورٍ، وأقدارٌ مؤلِّمةٌ لا تَتَنَاسَبُ مع الطَّبِيعَةِ. فنقول: اصْبِرْ على ذلك.

ولو أن إنسانًا سَقَطَ مِنْ دَرَجِ السُّلَمِ، وانكسرت ساقه، فهذا مِنَ الأقدارِ المؤلِّمةِ، ونقولُ له: اصْبِرْ وتحَمَّلْ؛ فإن مع العُسْرِ يُسْرًا، إن مع العُسْرِ يُسْرًا. وكذلك إنسانٌ أتى قومَهُ يَدْعُوهُمْ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فدعاهُم ولم يجد استِجَابَةً، فنقولُ: اصْبِرْ على هذا. وهذا يتضمَّنُ الصَّبْرَ على أقدارِ الله؛ لأن عَدَمَ إجابَتِهِمْ من أقدارِ الله.

فعوْذُ نَفْسِكَ الصَّبْرَ، ولذلك نقولُ للمريضِ: اصْبِرْ وانتظِرِ الفَرْجَ، فقد كُنْتَ بالأمسِ صَحيحًا، وأنت الآن مَرِيضٌ، وغداً ستكونُ صَحيحًا.

إذن: قُلْنَا إن الصَّبْرَ يكونُ على ثلاثة أُمُورٍ: الصَّبْرُ على أوامِرِ الله، والصَّبْرُ عن نواهِي الله، والصَّبْرُ على أقدارِ الله. وأشرفُها وأعلاها منزلةٌ هو الصَّبْرُ على طاعةِ الله؛ لأن الصَّبْرَ على الطاعةِ يحتاجُ إلى شَيْئَيْنِ: أولاً: حَبْسِ النَّفْسِ. ثانيًا: الكُفْلَةِ البدنيَّةِ القوليةِ أو الفعليةِ.

وَيَأْتِي بَعْدَهُ: الصَّبْرُ عن نَوَاهِي اللَّهِ؛ لَأَن فِعْلَ الْإِنْسَانِ النَّوَاهِي اخْتِيَارِيٌّ، واجْتِنَابُهُ النَّوَاهِي اخْتِيَارِيٌّ، فالأمرُ بِيَدِهِ، لو شاءَ فَعَلَ الْمُنْهِيَّ عَنْهُ، فإذا كَفَّ عَنْهُ فَقَدْ صَبَرَ عَنْهُ، ولكن الكَفَّ عن الْمُنْهِيَّاتِ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ، إِلَّا حَمَلَ النَّفْسَ عَلَى الصَّبْرِ.

وَأَخِيرًا وَفِي أَدْنَى مَرْتَبَةٍ: الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ؛ لَأَن أَقْدَارَ اللَّهِ لَيْسَتْ بِاخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ قَدَّرَهُ اللَّهُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فِيمَا أَنْ يَصْبِرَ صَبَرَ الْكَرَامِ، وَإِمَّا أَنْ يَسْلُوَ، فَإِنَّ الْمَصَابَ إِذَا صَبَرَ صَبَرَ الْكَرَامِ أُثِيبَ، وَإِذَا لَمْ يَصْبِرْ، فَسَوْفَ يَجْزَعُ بَعْضَ الْأَيَّامِ، ثُمَّ يَنْسَى وَيَسْلُو.

وَنَرَى كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ، فَيَجِدُ أَوَّلَ مَا يُصَابُ بِالْمُصِيبَةِ حَرَارَةً عَظِيمَةً عَلَى الصَّبْرِ عَلَيْهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْسَاهَا، وَلَوْ لَا أَنَا نَنْسَى الْمَصَائِبَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - هَلَكْنَا، فَلَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ كُلَّمَا مَرَّ بِهِ مُصِيبَةٌ بَقِيََتْ فِي ذَهْنِهِ، وَبَقِيَ أَلَمُ صَدْمَتِهَا فِي نَفْسِهِ، مَا هَنَى بَعِيشٍ أَبَدًا.

وَيَجْدُرُ بِنَا هُنَا أَنْ نَذْكُرَ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [البلد: ١٧] أَنْ نَصْبِرَ عَلَى الْحَقِّ وَهُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ؛ لَأَن هَذَا شَدِيدٌ عَلَى النَّفُوسِ، فَإِذَا لَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَسْتَحْسِرُ، وَلَا يَسْتَمِرُّ فِي التَّوَاصِي بِالْحَقِّ.

هَذِهِ السُّورَةُ الْعَظِيمَةُ قَالَ عَنْهَا الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ حُجَّةً إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَّتْهُمْ»^(١). فَأَيُّ إِنْسَانٍ عَاقِلٍ سَيَفْكَرُ أَنَّهُ مَا دَامَ فِي خُسْرَانٍ إِلَّا إِذَا اتَّصَفَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ فَسَوْفَ يَتَّصِفُ بِهَا، وَنَذْكُرُهَا إِنْجَمَالًا:

(١) تفسير الشافعي (٣/ ١٤٦١).

الأول: الإيمانُ بما يجبُ الإيمانُ به، وهو الإيمانُ بالله، وملائكته، وكتبه، ورُسُله، واليومِ الآخر، والقَدَرِ خيرِه وشرِّه.

والثاني: العَمَلُ الصالح.

والثالثُ: التَّوَصِّي بالحق.

والرابعُ: التَّوَصِّي بالصَّبْرِ. جعلنا الله وإياكم من هَؤُلَاءِ الرَّابِحِينَ، إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.



الدرس الرابع:

سُورَةُ الْعَصْرِ سُورَةٌ عَظِيمَةٌ، قَالَ عَنْهَا الشَّافِعِيُّ فِيمَا نُقِلَ عَنْهُ: لَوْ لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ سُورَةٌ غَيْرَ هَذِهِ السُّورَةِ لَكَفَتْهُمْ^(١)، يَغْنِي فِي الْحَثِّ عَلَى الطَّاعَةِ، وَبَيَانِ أَحْوَالِ الْخَلْقِ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّهَا تَكْفِيهِمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الصَّلَاةِ، وَلَا ذِكْرُ الزَّكَاةِ، وَلَا ذِكْرُ الْبَيْعِ، وَلَا ذِكْرُ الرَّهْنِ، وَلَا ذِكْرُ الضَّمانِ، لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا، لَكِنْ مُرَادُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهَا كَافِيَةٌ فِي بَيَانِ أَحْوَالِ الْخَلْقِ، وَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ خَاسِرٌ إِلَّا مَنْ جَمَعَ الْأَصْنَافَ الْأَرْبَعَةَ.

وهذه السُّورَةُ أَقْسَمَ اللَّهُ فِيهَا تَعَالَى بِالْعَصْرِ ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١].

ما المراد بالعصر هنا أهو آخر النهار المقابل للظهر، أو المراد بالعصر جميع الدَّهْر؟

الجواب: الثاني، المراد بالعصر جميع الدَّهْر، وإِنَّمَا أَقْسَمَ اللَّهُ بِالْدَّهْرِ؛ لِأَنَّ الدَّهْرَ مَحَلُّ الْحَوَادِثِ، فَكُلُّ مَا يَحْدُثُ فَهُوَ فِي الْعَصْرِ.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] هَذَا جَوَابُ الْقَسَمِ ﴿الْإِنْسَانَ﴾ أَي: كُلُّ الْإِنْسَانِ فَـ(أَل) هُنَا تَقُومُ مَقَامَ (كُلُّ)، أَي: إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ لِفِي خُسْرٍ.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] الَّذِينَ جَمَعُوا هَذَا الْأَوْصَافَ هُمُ الرَّابِحُونَ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ خَاسِرٌ.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١١٢).

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي الْكُفَّارِ أَهْمُ خَاسِرُونَ أَمْ رَابِحُونَ؟

فَالْجَوَابُ: خَاسِرُونَ، حَتَّى وَإِنْ مُتَّعُوا فِي الدُّنْيَا، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْخِطَابُ لَهُ وَلِلْأُمَّةِ: ﴿لَا يَغْنَثُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلَدِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٦].



سُورَةُ الْهُمَزَةِ

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُْمَزَةٍ ۖ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. ۖ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. ۖ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۖ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۖ (٥) نَارُ اللَّهِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقَةِ ۖ (٦) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۖ (٧) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۖ (٨)﴾ [الهمة: ١-٩].

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُْمَزَةٍ ۖ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. ۖ﴾. الْوَيْلُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَلِمَةٌ وَعِيدٌ وَعَذَابٌ، وَإِنَّمَا تَكُونُ كَلِمَةً وَعِيدٌ وَعَذَابٌ لِأَنَّ مَنْ وَجَّهَتْ إِلَيْهِ يَسْتَحِقُّ هَذَا الْعَذَابَ وَالْوَعِيدَ.

قَوْلُهُ: ﴿هُمَزَةٍ لُْمَزَةٍ ۖ﴾ وَهُوَ الَّذِي يَهْمُزُ النَّاسَ وَيَعْيِيهِمْ، وَيَهْمُزُهُمْ بِالْقَابِ السَّوِّءِ، وَيَلُّ لَهُ.

وهذا الذي يكون همزة لمزة هو أيضًا موصوفٌ بالبخلِ والشحِّ والطمعِ ومحبةِ المالِ، ولهذا قال: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ يعني أنه يجمعُ الأموالَ ويعدُّها ويحصيها كلَّ يومٍ، وكلَّ ليلةٍ، وكلَّ ساعةٍ، لكنه غفلَ عن دينه، وظنَّ أن ماله سيُخلِّده وسيبقى، والواقعُ أن المالَ لن يُخلِّدَ صاحبه، وصاحبُ المالِ لن يُخلِّدَ المالَ لنفسه؛ إذ كلُّ إنسانٍ ذي مالٍ فإنه إما أن يموتَ ويبقى المالُ، وإما أن يفنى المالُ ويبقى صاحبه، أما أن يخلدَ المالُ وصاحبه، فهذا لا يمكن؛ لقولِ الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾ [الكهف: ٧-٨] صعيدًا خاليًا لا يوجد فيه نباتٌ ولا بناءٌ ولا غيره.

فالمالُ أيها الإنسانُ مخلوقٌ لك، ولستَ مخلوقًا للمالِ، وما أحسنَ ما قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله، قال: «يَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ يَسْتَعْمِلُهُ فِي حَاجَتِهِ بِمَنْزِلَةِ حِمَارِهِ الَّذِي يَرْكَبُهُ، وَبَسَاطَةِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ؛ بَلْ بِمَنْزِلَةِ الْكَنِيفِ الَّذِي يَقْضِي فِيهِ حَاجَتَهُ - يعني مكان البول والغائط - مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعْبِدَهُ»^(١).

ولننظرَ غالبَ المسلمينَ اليومَ، جعلُوا أنفسهمَ بمنزلةِ الحمارِ الذي يُركبُ، فجعلُوا أكبرَ همهمَ المالَ، حتى إن بعضهم - والعياذُ بالله - ليكسبُ المالَ من حلالٍ وحرامٍ ولا يبالي بذلك، ويكسبُ المالَ بالكذبِ وبالخديعةِ وبالغشِّ، ولقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى (١٨٩/١٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا»، رقم (١٠١).

وسببُ هذا الحديث أن النبي ﷺ مرَّ بصاحبِ طعامٍ فأدخل النبي ﷺ يده في الطعام وإذا أسفل الطعام به بللٌ، فقال لصاحبه: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَي يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي».

وما أكثر الذين يغشون اليوم! يغشون في البيع، وفي الشراء، وفي الإجارة، وفي الرهن، وفي كثير من المعاملات، حتى إن الرجل ليغش زوجته عند عقد النكاح، أو الزوجة تغش الرجل عند عقد النكاح، لا يبالون بذلك. نسأل الله لنا ولكم السلامة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ قَالَ: ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ ولم يقل: وعدّه؛ إشارة إلى أنه يكرر العدّ كلما مرّ عليه زمنٌ، ولو قصيرًا؛ عدّه لأن المال أكثر عنده.

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٣] يعني أيظن أن المال يُخْلده؟ الجواب: كلا لن يُخلده المال، ولذا إذا جاء أجل الإنسان فلا يمكن أن يؤخّر ولا لحظة واحدة، ولو كان عنده أكبر الأموال، فالمال لا يُخلد صاحبه.

ولكن هل المال يبقى لصاحبه أو لا؟

فإن قال المجيب: لا يبقى، فقد أخطأ، وإن قال: يبقى فقد أخطأ.

والحل أن ما تصدقت به لله فهو باقٍ، وما أنفقته في الدنيا فهو غير باقٍ، فالذي يبقى حقيقة هو ما أنفقته الإنسان في طاعة الله.

فإذا قال قائل: هل إذا أنفقتُ المال على نفسي وأهلي هل أنا مأجورٌ على ذلك،

وهل لي فيه أجرٌ؟

فالجواب: نعم، وفي الحديث أن النبي ﷺ عادَ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مكة في عام حجة الوداع لأنه مريض، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا ذُو مَالٍ -يعني ذو مال كثير- وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ -يعني لا يرثني من أولادي إلا بنت- أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِي مَالِي؟ -يعني اثنين من ثلاثة- قَالَ: «لَا». قَالَ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ -يعني النصف-، قَالَ: «لَا». قَالَ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْهِ؟ قَالَ: «الثلث، وَالثُلُثُ كَثِيرٌ»^(١). وَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَحِبُّ أَنْ يَقْلَلَ عَنِ الثَّلْثِ.

ولهذا نقول: مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوصِيَ فليوصِ بأقل من الثلث؛ كما فهم ذلك الحبرُ عبدُ الله بنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حيثُ قَالَ: لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثُّلُثِ إِلَى الرَّبْعِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الثلث، وَالثُلُثُ كَثِيرٌ»^(٢).

وأحسن من هذا أن يُوصِيَ بالخمس؛ لأن هذا الجزء هو الذي اختاره أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَا أَرْضَى مِنْ مَالِي بِمَا رَضِيَ اللَّهُ بِهِ مِنْ غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ؟!»^(٣). حيثُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١].

ولهذا قَالَ الفقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: ينبغي لمن أَرَادَ أَنْ يُوصِيَ بشيء من بعد موته أن يوصِيَ بالخمس، وإن زاد إلى الربع فجائز، وإلى الثلث فجائز، لكن الثلث كثيرٌ. ثم قَالَ النبي ﷺ معللاً عدم جواز الوصية لما زاد على الثلث، قَالَ: «إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ».

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، رقم (٢٧٤٢)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، رقم (٢٧٤٣)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٩).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبير (٦/٤٤٢، رقم ١٢٥٧٤).

فإذا تركت مالا للورثة وانتفعوا به فهو خيرٌ من أن تتصدق به، خيرٌ من أن تذرهم عالة؛ لأنك لو أنفقت مالك كله وأوصيت به صار الورثة معدمين، ليس عندهم شيءٌ.

ثم قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَأَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللَّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ» يعني إلا جاءك بها أجرٌ، ولكن الرسول ﷺ قيد هذا بقوله: «تُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ».

وإنفاق الإنسان على زوجته واجبٌ، فإنفاق الإنسان على زوجته في مقابلة الاستمتاع بها، ومع ذلك إذا أنفق عليها يبتغي بذلك وجه الله أثيب أجراً على ذلك.

وإذا أنفق الإنسان على نفسه، يعني اشترى لنفسه طعاماً وأكله من أجل أن يحفظ قوته وصحته، فإنه يكون مأجوراً، حتى الذي تنفقه على نفسك فأنت مأجورٌ عليه.

ثم قال سعدٌ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْلَفُ بَعْدَ أَصْحَابِي» يعني أنه خشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يموت في مكة، وسعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المهاجرين، وكانوا يكرهون أن يموت المهاجر في بلده؛ لأن الإنسان إذا هاجر عن بلد ابتغاء وجه الله فإنه لا يجوز أن يرجع ويسكن فيه، كما أنه إذا تصدق بصدقة فإنه لا يجوز أن يرجع فيها، كذلك إذا ترك البلد؛ لأنها بلادٌ كفرٍ وهاجر منها ابتغاء وجه الله، فإنه لا يجوز أن يرجع فيسكنها مرةً أخرى.

المهم أن سعداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْلَفُ بَعْدَ أَصْحَابِي» يعني أموت في مكة وأصحابي المهاجرون لم يموتوا فيها، أشفق أن يكون الأمر كذلك،

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ فَتَعْمَلْ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا أزدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، وَلَعَلَّكَ تُخْلَفُ حَتَّى يُنْفَعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ». لَعَلَّكَ أَنْ تَخْلَدَ يَعْنِي أَنْ تَبْقَى وَتَعْمَرَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ.

والأمرُ وقعَ كذلك؛ كان سعدُ بنُ أبي وقاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو قائدُ الجيشِ يومَ القادسية، وكانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مشهورًا بسدادِ الرأيِ وبالشجاعةِ وبالقوةِ وبالعزيمة، والذي انتفعَ به المسلمون، والذي تضرَّرَ به الكفارُ: «وَلَعَلَّكَ تُخْلَفُ حَتَّى يُنْفَعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ»، فهذا هو الأمرُ الذي وقعَ.

أتدرونَ ماذا كانَ لهذا الرجلِ الذي لم يكنْ لَهُ في حجةِ الوداعِ إلا بنتٌ؟ لقد خلفَ أحدَ عشرَ ولدًا ذكرًا، اللهُ أَكْبَرُ!

أَنْتَ لَا تَعْلَمُ الْمُسْتَقْبَلَ، وَلِذَلِكَ نَقُولُ: إِنْ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَقْسِمُ مَالَهُ بَيْنَ أَوْلَادِهِ بِحَسَبِ الْإِرْثِ، يَعْنِي يَقْدِرُ أَنَّهُ يَمُوتُ ثُمَّ يَقْسِمُ مَالَهُ بَيْنَ وَرَثَتِهِ، وَهَذَا لَيْسَ بِجَائِزٍ، فَلَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ أَنْ تَقْسِمَ مَالَكَ بَيْنَ أَوْلَادِكَ، أَرَأَيْتَ لَوْ مَاتَ أَحَدُهُمْ، أَيْكُونُ وَارِثًا لَوْ مَاتَ أَحَدُهُمْ قَبْلَكَ؟ مَا يَكُونُ وَارِثًا.

كَذَلِكَ أَيْضًا رَبِّمَا تَحْتَاجُ الْمَالَ، فَلَا تَتَعَجَّلْ يَا أَخِي، وَلَا تَقْسِمَ مَالَكَ بَيْنَ وَرَثَتِكَ، وَدَعْ مَالَكَ بِيَدِكَ، وَإِذَا قَضَى اللَّهُ عَلَيْكَ فَإِنَّهُمْ سَوْفَ يَرِثُونَ عَلَى حَسَبِ فَرَائِضِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٤] (كلا) فِي الْقُرْآنِ لَهَا مَعَانٍ؛ مِنْهَا الرَّدْعُ، وَمِنْهَا التَّحْقِيقُ، وَلَهَا مَعَانٍ أُخْرَى. وَلَا تَوْجُدُ (كلا) فِي نَصْفِ الْقُرْآنِ الْأَوَّلِ.

قَالَ: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أَيُّ يُطْرَحَنَّ فِي الْحُطَمَةِ، وَمَا الْحُطَمَةُ؟ قَالَ اللَّهُ

عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾ [الهمة: ٥] هذا استفهامٌ تعظيم، ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمة: ٦] يعني هي نارُ الله الموقدة ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ﴾ [الهمة: ٧] على القلوب، نسأل الله لنا ولكم السلامة منها، ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ [الهمة: ٨] أي: مغلقة، نسأل الله العافية، ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمة: ٩] يعني أن هذه العمدة كانت لتثبت السور الذي وصدت به نارُ جهنم.

وإنهم فيها ليسوا أحياءً وليسوا أمواتاً، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ ١٣ ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١٢-١٣]، يعني لا يموت ميتةً يستريح فيها، ولا يحيا حياةً طيبةً يسلم فيها من العذاب.

ولهذا قَالَ اللَّهُ عَنْ أَهْلِ النَّارِ: ﴿وَنَادَوْا بِمَلِكٍ لِّيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي يهلكنا ويرمينا ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مِّنْكَثُوتٍ﴾ [الزخرف: ٧٧].

اللهمَّ أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ، اللهم أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ، اللهم أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] ﴿وَيْلٌ﴾ كَلِمَةٌ وَعِيدٌ، وَلِهَذَا يُتَوَعَّدُ الْإِنْسَانُ بِهَا، فَالْأَبُ يَتَوَعَّدُ صَبِيَّهُ فِيهِدُّهُ بِهَا وَيَقُولُ: وَيْلٌ لَكَ أَفْعَلْ كَذَا. فـ(ويل) إِذْنٌ كَلِمَةٌ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ، ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ يَعْنِي: الَّذِي يَعِيبُ النَّاسَ بِالْهُمُزِ أَحْيَانًا، وَبِاللَّمْزِ أَحْيَانًا، وَاللَّمْزُ ذِكْرُ مَعَايِبِ الْغَيْرِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: ٢] أَي: جَمَعَ مَالًا كَثِيرًا؛ لِأَنَّ ﴿مَالًا﴾ نَكْرَةٌ، فَهِيَ لِلتَّعْظِيمِ، وَ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ عَدَدَ وَعَدَّ، فَعَدَّ أَي مَرَّةً وَاحِدَةً، عَدَّ الْمَالَ: وَضَعَهُ فِي الصُّنْدُوقِ، لَكِنْ عَدَّدَهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً يَأْتِي فَيَعُدُّهُ مَرَّةً ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، وَيَخْشَى أَنْ يَكُونَ قَدْ نَقَصَ، إِذْن: أَكْبَرُ هَمٍّ هُوَ الْمَالُ.

﴿يَخْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٣] أَي: أَيُظَنُّ هَذَا أَنَّ مَالَهُ سَيُخْلِدُهُ وَيَبْقَى؟ وَالْجَوَابُ: لَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَلَّا﴾ لَنْ يُخْلِدَهُ الْمَالُ، وَكَمْ مِنْ أَنْاسٍ فَارَقُوا الدُّنْيَا وَأَمْوَالَهُمْ عَظِيمَةً، وَهُمْ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ لَهَا حُبًّا وَتَعَلُّقًا، وَلَكِنَّهَا لَا تُفِيدُ، لَكِنَّ

المال الصالح عند الرجل الصالح نعم المعين، إذا اكتسبه الإنسان من حلال، ووضعهُ فيما يُرضي الله عزَّوجلَّ، فهذا ممن يُغبطُ عليه؛ الرجل الذي آتاه الله العلم وعلمه الناس يُغبطُ على علمه، والرجل الذي آتاه الله المال وصرفه فيما يُرضي الله أيضًا يُغبطُ، لذلك نحن لا نلوم الإنسان إذا كثر ماله، فمن الصحابة من كثر ماله مثل: عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، كانت لديهم أموال عظيمة، لكننا نقول: اجعل هذا المال طريقًا لك إلى الآخرة، اكتسبه من حلال، واضرفه فيما يُرضي الله عزَّوجلَّ؛ حتى يكون هذا خيرًا لك في الدنيا وفي الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (٢) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿[الهمة: ٣-٤] (ينبذ) أي: يُطرح، والنبذ: الطرح بقوة، كما في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] أي: طَرَحُوهُ وتركوه، إذن: لَيُنْبَذَنَّ هذا الهمزة اللزمة التي جمع مالا، والصفة الرابعة ﴿وَعَدَدَهُ﴾، سَيُنْبَذُ فِي الْحُطَمَةِ، يُطَرَحُ طَرَحًا عَنيفًا، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [الطور: ١٣]. أعاذنا الله وإياكم من النار.

أهل النار لا يدخلون النار على جهة الإكرام، أما أهل الجنة -جعلني الله وإياكم منهم- يدخلونها على جهة الإكرام، فتتلقاهم الملائكة، ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٢) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴿[الرعد: ٢٣-٢٤]، أما أهل النار فيقول الله عزَّوجلَّ: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾. أي: يُدْفَعُونَ؛ لأنهم تصوَّروا أن النار تُعرض لهم كأنها السراب الذي يكون في الأرض الفسيحة الواسعة، يظنُّه الإنسان ماءً وهم عطاش، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]، أي:

أَشَدُّ مَا يَكُونُ إِلَى الْعَطَشِ، يُسْرِعُونَ إِلَى شَرَابٍ يَظُنُّونَهُ مَاءً، يَرِيدُونَ الشُّرْبَ، فَإِذَا جَاءُوا فَإِذَا هِيَ النَّارُ، فَيَتَوَقَّفُونَ وَلَا يَدْخُلُونَ، فَيَدْعُونَ إِلَيْهَا دَعًّا، أَيْ: يُدْفَعُونَ بِعُنفٍ وَقُوَّةٍ وَيُؤَبَّخُونَ، وَيَقَالُ: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ، وَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ إِلَّا أَنْ تَخْرُجَ الرُّوحُ مِنَ الْجَسَدِ، وَخُرُوجُ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ لَيْسَ لَهُ أَجَلٌ مَعْلُومٌ، فَقَدْ يُخْرَجُ الْإِنْسَانُ مِنْ بَيْتِهِ وَيَرْجِعُ مَحْمُولًا عَلَى نَعْشِهِ، وَقَدْ يَكُونُ عَلَى مَكْتَبِهِ فَيَمُوتُ، وَقَدْ يَسَافِرُ فَيَمُوتُ، لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ إِلَّا الْمَوْتُ، ثُمَّ تَرَى كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَهَا ذَكَرَ أَصْنَافَ النَّاسِ عِنْدَ الْمَوْتِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَصْحَابَ الْيَمِينِ وَأَصْحَابَ الشَّمَالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

وَهَذَا يَقُولُ: ﴿لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْخَطْمَةِ﴾ [الهمزة: ٤] وَ(خُطْمَةً) عَلَى وَزْنِ فُعَلَةٍ، مِنَ الْخُطْمِ وَهُوَ الْإِثْلَافُ، أَيْ: أَنَّهَا تَخْطِمُ خُطْمًا شَدِيدًا، ثُمَّ فَخَمَ اللَّهُ هَذَا الْخُطْمَ فَقَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ﴾ [الهمزة: ٥] أَيْ: مَا الَّذِي أَعْلَمَكَ بِهَا؟ وَهَذَا الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّشْوِيقِ، شَوَّقَنَا اللَّهُ لِنَنْظُرَ مَا هَذِهِ الْخُطْمَةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٦] أَضَافَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ نَارَ الْآدَمِيِّينَ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ الْخُطْبَ وَيُوقِدُونَهُ، وَلَكِنَّا نَارُ اللَّهِ الَّذِي قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ① وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩-٥٠]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]. لِهَذَا أَضَافَ اللَّهُ هَذِهِ النَّارَ إِلَى نَفْسِهِ لِأَنَّهَا مَحَلُّ عِقَابِهِ وَغَضَبِهِ، أَجَارَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمة: ٦] وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ﴾ [التحریم: ٦] أَي: الطَّبَاع، ﴿شِدَادٌ﴾ الْقُوَى، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾؛ لَأَنَّهُمْ مُّمْتَلُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] لَأَنَّهُمْ قَادِرُونَ. فَصِفَاتُهُمْ أَرْبَع: غِلَاطٌ، شِدَادٌ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، لَيْسَتْ مَلَائِكَةٌ رَحْمَةً عَلَى النَّارِ، وَلَكِنَّهَا مَلَائِكَةٌ عَذَابٍ غِلَاطٌ الطَّبَاعِ شِدَادُ الْقُوَى، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، بَلْ هُمْ مُّمْتَلُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ فَلَا يَعْجَزُونَ.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ⑥ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعِدَةِ ﴿[الهمة: ٦-٧] الْأَفْعِدَةُ أَي: الْقُلُوبُ، وَالْمَعْنَى: أَنَهَا تَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿كَلَّمَ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وَهَذَا الْعَذَابُ هُوَ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ وَإِلَى الْأَبَدِ، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-.

اسْمَعْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] أَوَّلًا: هُمْ لَيْسُوا فِي حَالٍ تُؤَهِّلُهُمْ إِلَى أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ بِأَنْفُسِهِمْ، لَا يَسْتَطِيعُونَ، بَلْ طَلَبُوا مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَدْعُوا لَهُمْ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾. وَأَيْضًا خَجِلُوا أَنْ يَقُولُوا: ادْعُوا رَبَّنَا. بَلْ قَالُوا: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]. لَمْ يَقُولُوا: يَرْفَعْ عَنَّا يَوْمًا، بَلْ قَالُوا: ﴿يُخَفِّفْ وَلَمْ يَقُولُوا: أَبَدًا، وَلَكِنْ ﴿يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

وَاللَّهُ إِنْ قَوْمًا هَذِهِ حَالُهُمْ لَتُوجِبُ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَقُولَ: أَيْنَ طَرِيقُ الْجَنَّةِ؟ حَتَّى يَلْجَأَ هَذَا الطَّرِيقَ، اللَّهُمَّ هَيْئَهُ لَنَا، وَهَيْئَنَا لَهُ، وَاجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ،

وَلَا تُزْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.

والله ما سألوا رَفَعَ الْعَذَابِ، وَلَا سألُوا التَّخْفِيفَ دَائِمًا، إِنَّمَا سألُوا أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمْ يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ [غافر: ٥٠]، فَهَلْ يُسْتَجَابُ لَهُمْ؟ اقْرَأْ آخِرَ الْآيَةِ: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨] أَي: النَّارُ، عَلَى أَهْلِهَا مُوَصَّدَةٌ مَغْلَقَةٌ.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٩]: عَمَدٍ تُقَوِّيْهَا وَتَمْنَعُ مِنْ تَفَكُّكِهَا، ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُثَمِّلَ لِهَذَا فَهُوَ مِثْلُ تَنْوِيرٍ عَظِيمٍ مُحَاطٍ بِمَوَاسِيرَ قَوِيَّةٍ مُّمَدَّةٍ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُغْلَقُ فَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِي فِي دَاخِلِهِ يَحْتَرِّقُ، هَذِهِ مُوَصَّدَةٌ فِي عَمَدٍ مَمْدَدَةٍ.



سورة الفيل

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي
اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ،
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ
(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ألم تر أيها الإنسان،
أو ألم تر يا محمد كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، أي ماذا فعل من الأفاعيل.
وأصحاب الفيل هم قوم جاؤوا ليهدموا الكعبة، وسبب ذلك أن أبرهة بنى
بيتاً في اليمن على شكل الكعبة، من أجل أن يصد الناس عن الكعبة التي هي بيت الله
إلى الكعبة التي هي بيته، فخرج رجل من العرب بحمىة الجاهلية ليحج إلى كعبة
اليمن فوضع فيها القدر، فغضب أبرهة وأقسم ليهدم هذه الكعبة، وخرج بجنوده
وبفيله العظيم، وفي ذلك اليوم الفيل مثل الدبابة في يومنا هذا.

خَرَجَ بِفِيلِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَهْدِمَ الْكَعْبَةَ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمُغَمَّسَ -وَالْمُغَمَّسُ أَرْضٌ فَسِيحَةٌ تَقَعُ شَرْقِيَّ عَرَفَةَ، أَعْنَى الشَّرْقِيَّ الشَّمَالِيَّ، وَقَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الْحَرَمَ- كَانَ إِذَا وَجَّهَ الْفِيلَ إِلَى الْكَعْبَةِ حَرْنًا وَأَبَى أَنْ يَتَقَدَّمَ، وَإِذَا وَجَّهَهُ إِلَى الْيَمَنِ انْطَلَقَ مَاشِيًا. وَالَّذِي حَبَسَهُ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ؛ حَمَاةٌ لَبِيَّتِهِ الْعَظِيمِ الْكَرِيمِ.

فَبَقُوا أَيَّامًا وَحَصَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ مَحَاوِرَاتٌ وَمُنَاقَشَاتٌ، فَمَا كَانَ مِنْ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ إِلَّا أَنْ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، يَعْنِي جَمَاعَاتٍ، وَهَذِهِ الطُّيُورُ لَمْ يَبَيِّنِ اللَّهُ لَنَا مَا هِيَ، أَهِيَ حَمَامٌ، أَمْ صَقُورٌ، أَمْ غُرَبَانٌ، فَمَا نَدْرِي.

قَالَ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أَيَّ جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةً ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ تَرْمِي أَصْحَابَ الْفِيلِ، وَحِجَارَةٌ مِّن سِجِّيلٍ أَيَّ مِنْ طِينٍ مَشْوِيٍّ قَوِيٍّ، تَضْرِبُ الرَّجُلَ عَلَى أَمِّ رَأْسِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ، نَعُودُ بِاللَّهِ، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أَيَّ كَالزَّرْعِ إِذَا دَاسَتْهُ الْإِبِلُ أَوْ الْمَوَاشِي وَأَكَلَتْهُ.

وَكُلُّ هَذَا حَمَاةٌ لِلْكَعْبَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

انتهت هذه القصة العظيمة التي فيها من آيات الله تبارك وتعالى ما يُبهرُ العقل.

أهمية معرفة السيرة النبوية:

ويجبُ عليكم -يا إخواني- معرفة سيرة نبيكم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فمعرفة سيرة النبي ﷺ فيها تقوية الإيمان بالله وبرسوله، وفيها محبة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفيها الاهتداءُ بهديه، والتحليُّ بأخلاقه.

فاقرأوا سيرة النبي ﷺ تُرشدوا وتُفلحوا؛ لأن في هذا كما ذكرت زيادة الإيمان والمحبة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وتعظيم الرسول ومحبة ﷺ فرض واجب على كل مؤمن، فيجب أن يُقدم الإنسان محبة الرسول ﷺ على محبة جميع المخلوقين. أقول: يجب أن نقدم محبة الرسول ﷺ على محبة جميع المخلوقين ولا يُستثنى أحد: الأم، أو الأب، أو النفس.

فيجب علينا أن نقدم محبة نبينا -صلوات الله وسلامه عليه، وحشرنا وإياكم في زمرته- على الأم، والأب، والجد، والجدّة، والأخ، والأخت، بل وعلى النفس، وعلى الناس أجمعين.

قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(١).

وهل يجوز أن نقدم محبة على محبة الله؟

نقول: لا، ونحن ما أحبيناه إلا لمحبتنا لله عزّ وجلّ؛ لأنه رسول الله، فكيف نجعل الفرع أفضل من الأصل، هذا خلاف المعقول، فمحبة الله -عزّ وجلّ- وأسأل الله أن يرزقني وإياكم محبته -فوق كل شيء، ومحبة الرسول من محبة الله، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

فإذا كنتم تحبون الله تعالى فإن هناك في القرآن آية تسمى آية المحنة، يعني آية

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم (١٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد، والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة، رقم (٤٤).

الامتحان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] يعني قل للأمة؛ أمة محمد: إن كنتم تحبون الله وأنتم صادقون فاتبعوني، وإذا اتبعتموني يحببكم الله.

فأيُّ إنسانٍ يقول: إني أحبُّ الله، وهو لا يتبعُ رسولَ الله، فهو كاذبٌ في قوله. فصَحِّحْ قولَكَ يا أخِي، وانظُرْ هل أنتَ تتبعُ الرسولَ فأنتَ صادقٌ في محبةِ الله، وهل أنتَ تخالفه، فأنتَ كاذبٌ.

ثم إن كانتِ المخالفةُ في كلِّ شريعته فهو كفرٌ، وإن كانتِ المخالفةُ في بعضِ الشريعة فهو فسوقٌ، حسبَ الأعمالِ التي خالفَ فيها.

فائدة: وفي الآية الكريمة قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وكانَ المتوقعُ أن يقولَ: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني تكونوا صادقين، فلماذا عدلَ عن قوله: تكونوا صادقين إلى قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فجاءَ الجوابُ على خلافِ ما توقع؟

نقول: يعني أن الشأنَ كلَّ الشأنِ أن يحبَّك الله، وإلا كم من إنسانٍ يقول: أنا أحبُّ الله. لكن الشأنَ والمطلوبُ أن يحبَّك الله - اللهم أحبنا يا رب العالمين - فهذا هو الشأن؛ أن يحبَّك الله؛ لأنه «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ»^(١). فالشأنُ كلُّ الشأنِ يا أخِي أن يحبَّك الله.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب المقة من الله تعالى، رقم (٦٠٤٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حبه لعباده، رقم (٢٦٣٧).

أَيْضًا هُنَاكَ فَائِدَةٌ أُخْرَى: أَنَّ اتِّبَاعَ النَّبِيِّ ﷺ سَبَبٌ لِمَحَبَةِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ، وَكَلِمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَتْبَعَ لِرَسُولِ اللَّهِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ.

فاحْرَضَ - يَا أَخِي - عَلَى مَعْرِفَةِ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ احْرَضَ عَلَى اتِّبَاعِهَا، ثُمَّ أَبْشَرَ بِالثَّمَرَةِ الَّتِي لَا يُشَبِّهُهَا ثَمَرَةٌ، أَلَا وَهِيَ مَحَبَّةُ اللَّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا فَلَا تَسْأَلُ عَنْ مَرْتَبَتِهِ وَمَنْزِلَتِهِ.

حَبْسُ نَاقَةِ الرَّسُولِ ﷺ كَحَبْسِ فِيلٍ أَبْرَهَةً:

وَقَدْ وَقَعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَبْسٌ لِنَاقَتِهِ كَحَبْسِ الْفِيلِ؛ فِي شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ خَرَجَ يَرِيدُ الْعُمْرَةَ وَمَعَهُ الْهَدْيُ؛ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ، يَرِيدُ أَنْ يُهْدِيَهَا إِلَى الْبَيْتِ وَيُطْعِمَ أَهْلَ مَكَّةَ وَيَنْعَمَ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى حُدُودِ الْحَرَمِ، أَيِ الْحُدَيْبِيَّةِ -وَالْحُدَيْبِيَّةُ فِي حُدُودِ الْحَرَمِ، بَعْضُهَا فِي الْحِلِّ وَبَعْضُهَا فِي الْحَرَمِ- جُعِلَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحُمِيَّةُ؛ حُمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ، كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا يُمْكِنُ أَنْ تَدْخَلَ مَكَّةَ، فَمَكَّةُ بِلَدُنَا، وَالْحَرَمُ حَرْمُنَا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَدْخَلَ، وَجَرَتْ بَيْنَهُمْ مِرَاسِلَةٌ وَحَصَلَ الصَّلَاحُ.

لَكِنْ قَبْلَ أَنْ يَحْصَلَ هَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا وَجَّهَ نَاقَتَهُ إِلَى مَكَّةَ حَرَنْتْ وَأَبَتْ أَنْ تَمْشِيَ، وَإِذَا وَجَّهَهَا إِلَى الْمَدِينَةِ هَمَلَجَتْ^(١) وَمَشَتْ، فَقَالَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ -أَيِ حَرَنْتْ وَوَقَفَتْ- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ». اللَّهُ أَكْبَرُ! الرَّسُولُ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَدَافِعُ عَنْ عَرَضِ النَّاقَةِ، وَأَنْتُمْ لَا تَدَافِعُونَ عَنْ عَرَضِ إِخْوَانِكُمْ، فَلَوْ سَمِعْتَ أَحَدًا يَسُبُّ شَخْصًا فَقُلْ لَهُ: لَا أَبَدًا، هَذَا الرَّجُلُ مَا يَفْعَلُ هَذَا الشَّيْءَ، وَلَا تَمْشِ مَعَهُ، وَأَكْثَرْنَا لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ.

(١) الهملجة: حسن سير الدابة في سرعة. لسان العرب (هملج).

الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دافع عن عرض الناقة وقال: «مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ». صلواتُ الله وسلامُهُ عليه، يدافع عن الحق للحق، حتى في البهائم.

قال: «وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، وحابسُ الفيل هو الله، أي حبسها، الله. ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»^(١). أقسم، وجرى الصلح، وليس هذا موضع ذكره لأنه طويل.

لكن المقصود أن الله تعالى هو الذي بيده الأمور، حتى البهائم هو يصرفها جَلَّ وَعَلَا، فإذا شاء منعها، وإذا شاء أطلقها، فالأمر بيده، قال تعالى: ﴿وَالَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

فإذا كان الأمر كله بيد الله فإذا استعنت فاستعن بالله، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا مسك الضر فالجا إلى الله، وهكذا لا يكون ملجؤك إلا رب العالمين عزَّوجلَّ، والجا إلى الله في السراء والضراء، حتى إنه جاء في الحديث: «لَيْسَ أَلْأَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتُهُ كُلُّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شَيْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ»^(٢).

فاسأل ربك كل شيء، ولا تقل: هذا بسيط، ما أحتاج أن أسأل الله إياه، بل اسأل الله كل شيء؛ لأن ملجأك هو الله عزَّوجلَّ، إذن لا تسأل غيره، حتى إن بعض العلماء يقول: لا تسأل شخصا أن يدعو لك، فلا تقل: يا فلان، ادع الله لي. بل ادع أنت ربك مباشرة، وبعض العلماء رخص في طلب الدعوة من الرجل الصالح، لكن لا شك أن كون الإنسان يعتمد على الله عزَّوجلَّ ولا يسأل إلا الله؛ «إِذَا سَأَلْتَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٦٠٤). والشيع: أحد سيور النعل.

فَأَسْأَلُ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١)، هذا هو الأحسن، وهو الأحق، أما كون الإنسان يتعلق بغيره ويقول: ادع الله لي. ويجعل بينه وبين الله أحداً فلا.

وربما يقول قائل: أنا أريد أن يدعولي لأنه أقرب إلى الإجابة.

فنقول: يا أخي، كونك تحقر نفسك هذا من أسباب الإجابة؛ لأن معنى هذا إظهار الضعف أمام الله عز وجل.

وقد يقول قائل: إن الرسول ﷺ قال لعمر: «لَا تَسْنَأْ يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ»^(٢). فنقول: هذا الحديث لا يصح.

وقد جاء في الحديث أن الرسول ﷺ أتاه رجل وقال: «يا رسول الله، هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا»^(٣). لكن هذا الدعاء عام وليس خاصاً، ولهذا لا بأس أن تأتي إلى شخص وتقول: يا فلان، إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ مَنَعَ الْمَطَرَ وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يُغِيثَ الْعِبَادَ. وليس في هذا مشكلة؛ لأن هذا وقع في حضرة النبي ﷺ وأجازه، ودعا.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



(١) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، رقم (٢٥١٦).

(٢) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٩٨)، والترمذي: كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب، رقم (٣٥٦٢)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب فضل دعاء الحج، رقم (٢٨٩٤).

(٣) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

سورة الماعون

الدرس الأول:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ،
وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ
الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ
صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ١-٥].

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ﴾ (أَرَأَيْتَ) بمعنى: أخبرني، فقد
فسرها كثير من العلماء بذلك، وكأنهم فسروها باللازم؛ لأنَّ مَنْ رَأَى واستفهم
منه يُخبر: أخبرني عن الذي يكذب بالدين ما حاله وما ماله؟

يقول عز وجل: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ (يَدْعُ) يعني يدفعه بعنف،
فإذا جاءه اليتيم الذي هو محل الرحمة والإحسان دفعه بعنف.

واليتيم هو الذي مات أبوه قبل بلوغه؛ أي بلوغ الولد. فقد انفرد عن أبيه،
وانكسر قلبه بفقد أبيه، فهو محل الرأفة والرحمة، ولهذا تجدون في القرآن الكريم
كثيراً من الآيات فيها الوصية باليتامى.

قوله: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ لا يَحْضُ: يعني لا يَحْتُ النَّاسَ على أن
يُطعموا المساكين، فهو لا يُطعمُ المسكين ولا يَحْتُ النَّاسَ على ذلك. وفي هذا دليل

على أنه ينبغي إكرامُ اليتامى، وينبغي الحثُّ على إطعامِ المساكين، و«مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»^(١).

ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(٤) ويلٌ: كلمة وعيد يُتَوَعَّدُ بها مَنْ خَالَفَ.

وبعضهم لا يقف عند قوله: ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ بل يستمر: ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾^(٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، فنقول:

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ آية، إذن هي محلٌّ وقفٍ؛ لأن جميع رؤوسِ الآيات محلٌّ وقفٍ، فيحسن أن تقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ثم تقول: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

فإن قال قائلٌ: الآيةُ الثانية مرتبطة بالأولى ارتباطاً وثيقاً، فكيف أقف على الآية؟

فالجواب: أنتم أعلمُ أم الله؟! الله عزَّ وجلَّ جعلها آيةً منفصلةً.

ثم إن فيها -يا إخواني- فائدة عظيمة، وهي أن الإنسان إذا قرأ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ فإنه ينتبه ويتحرك قلبه؛ كيف يُتَوَعَّدُ المصلي، فإذا جاءت: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ صارت كالماء البارد على كبد العطشان.

لكن بعض الناس يقول: أخشى إذا قرأ قارئٌ ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ وسكت ثم استأنف أن يتوهم السامعُ أن الثانية لا علاقة لها بالأولى.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير، رقم (١٨٩٣).

فالجواب أَنَّ اللهَ أَعْلَمُ، فنَقَفُ على رَأْسِ الآيَةِ ثُمَّ نَسْتَأْنِفُ، وهذا لا شَكَّ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ.

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يعني هم يصلون لكنهم ساهون عن الصَّلَاةِ، يُصَلُّونَ لَكِنْ يُقَصِّرُونَ، فهم يُقَصِّرُونَ فِي الطَّمَانِينَةِ، فيصلون بِسُرْعَةٍ، فهذا سَاهٍ عَنِ الصَّلَاةِ، وَيُقَصِّرُونَ فِي قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فيَقْرَؤُونَهَا هَذَا^(١) حَتَّى تَسْقُطَ بَعْضُ حُرُوفِهَا، وَيُقَصِّرُونَ فِي أَذْكَارِ الرُّكُوعِ، وَفِي أَذْكَارِ السُّجُودِ، وَفِي التَّشَهُّدِ.

فَهَؤُلَاءِ مُصَلُّونَ لَكِنْ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، وَيُقَصِّرُونَ فِي إِيقَاعِهَا فِي وَقْتِهَا، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا، وَهَذَا سَهْوٌ عَنْهَا، وَيُقَصِّرُونَ بِعَدَمِ الصَّلَاةِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، فَيَسْتَغِلُّ أَحَدُهُمْ بِدُنْيَاةٍ أَوْ بِأَهْلِهِ، فَهَذَا سَاهٍ عَنْهَا.

أحكام سجود السهو:

وهنا قال بعض أهل العلم: الحمد لله الَّذِي قَالَ: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ^(٢).

وسَهَا فِي صَلَاتِهِ يَعْنِي نَسِيَ، فَالسهوُ فِي الصَّلَاةِ يَعْنِي النِّسْيَانَ، نَسِيَ مَثَلًا فَتَرَكَ سَجْدَةً، أَوْ نَسِيَ فَسَلَّمَ قَبْلَ تِمَامِ الصَّلَاةِ.

أَمَّا سَهَا عَنْ صَلَاتِهِ فَالْمَعْنَى أَعْرَضَ عَنْهَا، وَغَفَلَ عَنْهَا، وَهَذَا مَذْمُومٌ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ [٥٩] إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿[مريم: ٥٩-٦٠].

(١) الهذ: هو سرعة القراءة. لسان العرب (هذذ).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٩٣) من قول عطاء بن دينار.

وأما الذي يسهو في صلاته فغير مذموم، فلا يُذَمُّ الإنسانُ إذا سها؛ لأن هذا السهو وقع من أتقى عباد الله وأشدّهم خشيةً له، وهو الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقد سها في صلاته عدة مرات؛ مرةً صلى خمساً، ومرةً صلى اثنتين وسلم، ومرةً قام عند التشهد الأول، فلا يقال: إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فعل في ذلك ما يُذَمُّ عليه، بل سها كما يسهو بنو آدم.

ولهذا لما صلى يوماً من الأيام خمساً وسلم، قال له الصَّحَابَةُ: أزيد في الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: صَلَّيْتُ خَمْسًا، فَثَنَى رِجْلِيهِ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ بَعْدَ مَا سَلَّمَ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ لَوْ حَدَّثَ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي، وَإِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَتَحَرَّرْ الصَّوَابَ، فَلْيُمِّمْ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ»^(١).

وفي يومٍ من الأيام صلى الظُّهْرَ أو العصرَ، ثُمَّ سَلَّمَ مِنْ رَكْعَتَيْنِ، فَبَقِيَ رَكْعَتَانِ، فَلَمَّا سَلَّمَ هَابَهُ الْمُسْلِمُونَ، هَابُوا أَنْ يَكَلِّمُوهُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الْهَيْبَةَ الْعَظِيمَةَ، مَعَ أَنَّهُ مِنْ أَسْهَلِ النَّاسِ خُلُقًا لَكِنَّهُ مَهِيبٌ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْسِيتَ أَمْ قَصُرَتِ الصَّلَاةُ؟ قَالَ: «لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصَرْ». فَنَفَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، أَمَا قَوْلُهُ: «لَمْ تُقْصَرْ» فَهُوَ حَكْمٌ شَرْعِيٌّ يَتَبَيَّنُ بِهِ أَنَّ الصَّلَاةَ الَّتِي سَهَا فِيهَا وَسَلَّمَ رَكْعَتَيْنِ أَرْبَعٍ، وَأَمَا «لَمْ أَنْسَ» فَهَذَا فِي اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ لَمْ يَنْسَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الصَّلَاةَ لَمْ تَتِمَّ أَتَمَّهَا، فَقَالَ الصَّحَابِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَى قَدْ نَسِيتَ. وَهَذَا وَاللَّهِ كِمَالُ الْأَدَبِ، فَلَمَّا قَالَ هَذَا الرَّجُلُ: بَلَى قَدْ نَسِيتَ.

(١) أخرجه البخاري: أبواب ما جاء في السهو، باب إذا صلى خمساً، رقم (١٢٢٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

وهو في نفسه يعتقده أنه أتم؛ احتاج إلى حاكم، وهم الصحابة، فقال: «أَكْمَا يَقُولُ ذُو الْيَدَيْنِ؟» فقالوا: نعم، فتقدم فصلّى ما ترك. والذي تركه ركعتان، ثم سجد سجدتين ثم سلّم، صلوات الله وسلامه عليه^(١).

نأخذ من هذا الحديث أن الإنسان إذا سها في صلاته وسلّم قبل الإتمام فإنه يسجد للسهو بعد السلام، وأكثر المسلمين اليوم لا يعرفون هذا، فيرون أن سجود السهو دائماً قبل السلام، ولكن السنة تدل على خلاف هذا.

وفي يوم من الأيام صلى ﷺ صلاة الظهر، وقام عن التشهد الأول ولم يجلس، فسبحوا به ولكنه مضى، ولما أتم صلاته سجد سجدتين قبل أن يسلم^(٢).

فصار النبي ﷺ تارة يسجد قبل السلام، وتارة يسجد بعد السلام، فهل فعل ذلك على سبيل بيان الجائز، بمعنى أنه أراد أن يبين للأمة أن سجود السهو قبل السلام وبعد السلام كلاهما جائز، أو أن لكل صفة محلها؟

نقول: الصواب أن لكل صفة محلها؛ لأنه لو كانت الصفة واحدة، ومرة سجد قبل السلام، ومرة بعده، تبين أن هذا على التخيير؛ لكن لما اختلفت الصفات تبين أن المسألة ليست تخييراً.

فكيف نُخرج هذا الاختلاف؛ مرة قبل السلام ومرة بعده؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشييك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)،

ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من لم ير التشهد الأول واجباً؛ لأن النبي ﷺ: «قام من

الركعتين ولم يرجع»، رقم (٨٢٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في

الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٠).

نقول: إذا كان سجود السهو عن زيادة فَمَحَلُّه بعد السلام، وإذا كان عن نقص فَمَحَلُّه قبل السلام، فهذا ضابطٌ.

فلما صلى خمسًا سجد بعد السلام؛ لأنه زاد، ولما سلم من ركعتين ثم أتم سجد بعد السلام؛ لأنه زاد التشهد والتسليم أيضًا، فصار زيادة، ولهذا سجد بعد السلام، ولما قام عن التشهد الأول سجد قبل السلام؛ لأنه عن نقص، فقد نقص التشهد الأول، فصارت القاعدة: إذا كان سجود السهو عن زيادة فبعد السلام، وإذا كان عن نقص فقبل السلام.

فإن قال قائل: ما الحكمة؟

قلنا: إذا كان عن زيادة فالسجود بعد السلام لئلا تجتمع في الصلاة زيادتان؛ زيادة السهو وزيادة السجود، وإذا كان عن نقص فإن من الحكمة أن يُجبر النقص قبل تمام الصلاة، وهذا واضح جدًا.

بقينا في الشك الذي يعتري كثيرًا من الناس اليوم؛ هل صلى ثلاثًا أو أربعًا، فماذا يعمل؟ يبني على الأقل أم على الأكثر؟

نقول: إن قيل: على الأقل قلنا: أخطأت، وإن قيل: على الأكثر قلنا: أخطأت، وإن قيل: على اليقين قلنا: أخطأت.

نقول: هل عندك ترجيح أو لا؟ فإذا قال: أرجح أني صليت ثلاثًا فإنه يجعلها ثلاثًا، وإذا قال: أرجح أني صليت أربعًا فإنه يجعلها أربعًا، ولكن يسجد بعد السلام، وعلى هذا فالضابط في الشك أنه إذا ترجح عنه أحد الأمرين عمل بالراجح وسجد بعد السلام، وأقول: اعمل بالراجح، سواء كان الأقل أو الأكثر.

فإذا قال: أنا مُتَرَدِّد، وليس عندي ترجيحٌ لا بالزيادة ولا بالنقص، فنقول
حيثُ: ابنِ على الأقل؛ لأنه ليس عندك ما يُرجَّح، وإذا بنيت على الأقل فاسجد
للسهو قبل السلام.

فصار الشكُّ إن كان فيه ترجيحٌ فإننا نعمل بالراجح، سواء الأقل أو الأكثر،
ونسجد بعد السلام، وإذا لم يكن فيه ترجيحٌ فإننا نعمل بالأقل، ونسجد قبل
السلام.

فهذه القواعدُ التي ذكرنا تحضرك أحكامَ سجودِ السهو، التي يجهلها كثيرٌ
من الناس.

وأحياناً يترددُ الإمامُ في الشيء، فينبههُ المأمومون الذين وراءه، فإنه يأخذُ
بقولهم إذا كان مُتَرَدِّدًا، أما إذا كان جازمًا فلا يأخذُ، بل يأخذُ بصوابِ نفسه؛ لأنه
لا يمكنُ للإنسانِ أن يرجعَ إلى قولٍ غيره مع تيقُّنه أن الصوابَ ما فعله هو.

ولو كان الإنسان بعد أن أتمَّ الصَّلَاةَ شكًّا بعد أن سلَّم، قال: والله ما أدري
صليتُ أربعًا أو ثلاثًا، فإننا نقول: لا عبرة بهذا الشكِّ، وهذا الحكمُ نافعٌ جدًا
للإنسان، فكل شكٍّ بعد الفراغِ فلا عبرة به في كلِّ العباداتِ، حتَّى في الطَّوافِ،
فلو أنه بعد أن طافَ وانتهى من الطَّوافِ وذهبَ ليصلي ركعتينِ خلفَ المقامِ، شكَّ
هل طاف سبعا أو ستًا، قلنا: لا عبرة به.

والحمدُ لله الذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ
وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ السُّورَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، وَلَا مِنَ السُّورَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، بَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، وَلِذَلِكَ لَا تُحْسَبُ مِنْ آيَاتِ السُّورَةِ، فَمَثَلًا الْفَاتِحَةُ أَوَّلُ آيَاتِهَا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [سورة الفاتحة] فهذه سبعُ آياتٍ، أما الْبَسْمَلَةُ فَلَيْسَتْ مِنْهَا، لَكِنْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ رَجَعَهُمُ اللَّهُ قَالَ: إِنَّهَا مِنْهَا. وَعَلَى ذَلِكَ جَرَتْ الطَّبَاعَةُ فِي الْمَصْحَفِ الشَّرِيفِ، فَإِنَّكُمْ تَجِدُونَ الْبَسْمَلَةَ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ مَعْدُودَةً عَلَى أَنَّهَا أَوَّلُ آيَةٍ، وَفِي بَقِيَّةِ السُّورِ لَمْ يُكْتَبْ لَهَا رَقْمٌ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ السُّورَةِ.

قال الله تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ [الماعون: ١] قَالَ الْعُلَمَاءُ رَجَعَهُمُ اللَّهُ: إِذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ فَاَلْمَعْنَى: أَخْبِرْنِي. أَي: أَخْبِرْنِي عَنْ حَالِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ، وَ﴿يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ أَي: لَا يُصَدِّقُ بِهِ، وَالْمُرَادُ بِالْإِيمَانِ

هنا الجزاء، وذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝﴾ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿[الانفطار: ١٧-١٨]، وما أكثر الذين يُكَذِّبُونَ بِالْبُعْثِ، كما قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وهذا الذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ أوصافِهِ:

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢] أي: يَدْفَعُهُ بِالْعُنْفِ، ﴿يَدْعُ﴾ أي: يَدْفَعُهُ بِعُنْفٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [الطور: ١٣] أي: يُدْفَعُونَ بِعُنْفٍ، و(اليتيم) هو الذي مات أبوه قبل بلوغه، أي: الولد، سواء كان ذَكَرًا أم أُنْثَى. هذا هو اليتيم، وأما مَنْ مَاتَتْ أُمُّهُ وَأَبُوهُ حَيًّا فَلَيْسَ بِيَتِيمٍ، وإنما سُمِّيَ يَتِيمًا مِنَ الْيَتَمِ وهو الانفراد؛ لأنه انفردَ عن كاسبٍ يَكْسِبُ لَهُ نَفَقَتَهُ، وَيُرَبِّيهِ وَيُوجِّهُهُ. وقد وردت أحاديثُ وآياتٌ كثيرةٌ تَحُثُّ عَلَى إِكْرَامِ الْيَتِيمِ، وعلى الإحسانِ إليه، وهو في القرآن كثيرٌ، وفي السُّنَّةِ كذلك، حتى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا». وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا^(١).

فقوله: ﴿الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي: يَدْفَعُهُ بِعُنْفٍ، لَيْسَ فِي قَلْبِهِ رَحْمَةٌ -والعياذُ بالله-؛ لِأَنَّ الصَّغَارَ، سواء كانوا أيتامًا أم غير أيتامٍ، يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَرْحَمَهُمْ، وَأَنْ يَرِقَّ لَهُمْ، فَإِنَّ الرَّحْمَةَ بِهِمُ وَالرَّقَّةَ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ رَحْمَةِ اللَّهِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(٢) وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب اللعان، رقم (٤٩٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١)، والترمذي: أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم (١٩٢٤).

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣] هذا أيضًا من صفات الذي يكذبُ بيوم الدين، ﴿وَلَا يَحْضُ﴾ أي: لا يحثُّ الناسَ على طعام المسكين، وهو أيضًا لا يُطعمُ المسكين، فلا خيرَ فيه لنفسه، ولا خيرَ فيه لغيره. والمسكينُ هو الفقير، وسُمِّيَ مسكينًا لأن الفقرَ أسكنه، فليسَ عنده عِزَّةٌ، وليسَ عنده قوةٌ، وليسَ له وَجْهٌ يقابلُ الناسَ لأنه فقيرٌ، إذن المسكينُ هو الفقيرُ.

وقد يقولُ قائلٌ: إذا كان الفقيرُ هو المسكينُ، فكيف فرَّقَ اللهُ بينهما في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فجعلَ الفقراءَ صنفًا، والمساكينَ صنفًا آخرًا؟

نقول: نعم، هناك كَلِمَاتٌ في اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِذَا قُرِنَتْ صَارَ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مَعْنَى، وَإِذَا انْفَرَدَتْ إِحْدَاهُمَا صَارَتْ بِمَعْنَى الْأُخْرَى. انْتَبَهُوا لِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ، هُنَاكَ أَزْوَاجٌ مِنَ الْكَلِمَاتِ إِذَا ذُكِرَتْ إِحْدَاهُمَا مُنْفَرِدَةً شَمِلَتِ الْأُخْرَى، وَإِذَا ذُكِرَتَا مَعًا صَارَ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مَعْنَى. فَالْفَقِيرُ فِي آيَاتِ الصَّدَقَاتِ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ هُنَا أَشَدُّ حَاجَةً مِنَ الْمَسْكِينِ، وَالْمَسْكِينُ دُونَهُ.

وقد قالَ الفقهاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَجِدُ إِلَّا أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ الْكِفَايَةِ فَهُوَ فَقِيرٌ، وَإِنْ كَانَ يَجِدُ النِّصْفَ فَمَا فَوْقَ، لَكِنْ لَا يَجِدُ الْكِفَايَةَ الْكَامِلَةَ، فَهُوَ مَسْكِينٌ، إِذَنْ: فَالْفَقِيرُ أَشَدُّ حَاجَةً، وَلِهَذَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ عَزَّوَجَلَّ.

هناك أيضًا مثالٌ آخر، والأمثلةُ كثيرةٌ: الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ، إِذَا أُطْلِقَ الْإِسْلَامُ وَحْدَهُ دَخَلَ فِيهِ الْإِيمَانُ، وَإِذَا ذُكِرَ الْإِيمَانُ وَحْدَهُ دَخَلَ فِيهِ الْإِسْلَامُ، مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿ [المائدة: ٣]، فالإسلام هُنا شاملٌ للإيمان، وقولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] يَشْمَلُ الْمُسْلِمِينَ. وَهَكَذَا إِذَا ذُكِرَتْ كَلِمَةُ (إِسْلَام)، وَخَدَّهَا وَكَلِمَةُ (إِيمَان) وَخَدَّهَا.

ولكنْ إِذَا ذُكِرَتَا جَمِيعًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ [الذاريات: ٣٥-٣٦]، وَكَذَلِكَ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] فِي الْآيَةِ الْأُولَى فَفَرَّقَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ الْقَرْيَةِ قَرْيَةُ قَوْمِ لُوطٍ، أَخْرَجَ اللَّهُ مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ لُوطٌ وَأَهْلُهُ إِلَّا زَوْجَتَهُ، وَهَذَا الْبَيْتُ الَّذِي كَانَ فِيهَا يَدْخُلُ فِيهِ امْرَأَةُ لُوطٍ، وَهِيَ مُسْلِمَةٌ وَلَيْسَتْ مُؤْمِنَةً؛ لِأَنَّهَا تَتَظَاهَرُ بِالْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠] وَ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بِالْكَفْرِ، وَلَيْسَ بِسُوءِ الْخُلُقِ أَوْ بِالزَّوْنِ مَثَلًا، فَامْرَأَةُ لُوطٍ مُسْلِمَةٌ لَكِنَّهَا لَيْسَتْ مُؤْمِنَةً، إِذَنْ: الَّذِي نَجَا مِنْ أَهْلِ لُوطٍ الْمُؤْمِنُونَ، أَمَّا أَهْلُ الْبَيْتِ فَكُلُّهُمْ مُسْلِمُونَ.

أَمَّا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ الْأَعْرَابُ هُمْ: سُكَّانُ الْبَادِيَةِ، وَالْغَالِبُ عَلَى سُكَّانِ الْبَادِيَةِ الْجَفَاءُ وَالْجَهْلُ، وَفِيهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. فَلَمَّا ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، أَي: إِنَّ الْإِيمَانَ لَمَّا يَدْخُلُ بَعْدُ، وَلَكِنَّهُ مَعَ الْإِسْتِمْرَارِ فِي الْإِسْلَامِ سَيَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] (وَيْلٌ) كَلِمَةٌ وَعِيدٌ، فَمَنْ الَّذِي لَهُ الْوَيْلُ مِنَ الْمُصَلِّينَ؟ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥] لَيْسَ كُلُّ مُصَلٍّ لَهُ الْوَيْلُ، بَلِ الْمُصَلِّي حَقِيقَةٌ لَهُ الْخَيْرُ، لَكِنَّ الْمُصَلِّيَ الَّذِي هُوَ لَا هِيَ عَنْ صَلَاتِهِ هَذَا هُوَ الَّذِي وَيْلٌ لَهُ، أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أَي: غَافِلُونَ مُفَرِّطُونَ، لَا يُبَالُونَ، مَتَى قَامُوا مِنَ النَّوْمِ صَلَّوْا، لَا يُبَالُونَ إِنْ صَلَّوْا مَعَ الْجَمَاعَةِ أَوْ مَعَ غَيْرِ الْجَمَاعَةِ، سَاهُونَ عَنْهَا، وَإِذَا دَخَلُوا فِيهَا حَاصَرَتْهُمْ الْوَسَاوِسُ وَالْهَوَاجِسُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَمَنْ كَانَ هَكَذَا لَمْ يَكُنْ مُصَلِّيًا، وَصَلَاتُهُ كَجِسْمٍ بِلَا رُوحٍ، وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ^(١)؛ لِأَنَّ قَلْبَهُ سَيَكُونُ مَشْغُولًا بِالطَّعَامِ.

فَالْمُصَلِّونَ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ هُمُ الَّذِينَ وَيْلٌ لَهُمْ، وَلِذَلِكَ -أَيُّهَا الْفُقَهَاءُ- مِنْ بَابِ أَوْلَى، إِذَا كَانَ الَّذِي يُصَلِّي وَهُوَ غَافِلٌ وَيْلٌ لَهُ، فَمَنْ لَا يُصَلِّي أَبَدًا أَشَدُّ وَأَشَدُّ، وَلِهَذَا كَانَ أَصَحُّ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الَّذِي لَا يُصَلِّي كَافِرٌ خَارِجٌ عَنِ الْإِسْلَامِ، لَيْسَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي شَيْءٍ، وَإِذَا مَاتَ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُغَسَّلَ، وَلَا يُكْفَنَ، وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَلَا يُدْفَنَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُدْعَى لَهُ بِالرَّحْمَةِ وَلَا بِالْمَغْفِرَةِ؛ لِأَنَّهُ كَافِرٌ، وَلِهَذَا لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يَعْلَمُ مِنْ قَرِيبِهِ أَنَّهُ مَاتَ وَهُوَ لَا يُصَلِّي، أَنْ يَقْدِمَهُ لِلْمُسْلِمِينَ لِيُصَلُّوا عَلَيْهِ، بَلْ يَصْنَعُ بِهِ كَمَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ الَّذِينَ قَالُوا بِكُفْرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ وَهُوَ الْحَقُّ: يُخْرِجُ بِهِ إِلَى أَرْضِ فَلَاةٍ، وَيُخْفَرُ لَهُ حُفْرَةٌ لَا تَكُونُ قَبْرًا، وَيُرْمَسُ فِيهَا بِثِيَابِهِ رَمْسًا، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَحْشَرُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ كِرَاهَةِ الصَّلَاةِ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ الَّذِي يَرِيدُ أَكْلَهُ فِي الْحَالِ وَكِرَاهَةِ الصَّلَاةِ مَعَ مَدَافَعَةِ الْأَخْبَثِينَ، رَقْمُ (٥٦٠).

وقارون وأبي بن خلف، أعاذنا الله وإياكم من ذلك، فالصلاة أمرها خطير، وشأنها عظيم.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وَمَعْنَى سَاهُونَ: أَي غَافِلُونَ لَاهُونَ عَنْهَا مَتَهَاوِنُونَ فِيهَا.

وهنا ملاحظ حسن، لو قال: وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. لَكَانَتْ كَارِثَةً؛ لَأَنَّهُ لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنَ السَّهْوِ فِي الصَّلَاةِ، فَهَذَا النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ أَخْشَعُ النَّاسِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، سَهَا فِي صَلَاتِهِ، سَهَا مَرَّةً وَصَلَّى الظُّهْرَ خَمْسًا^(١)، وَسَهَا مَرَّةً وَسَلَّم مِنْ رَكْعَتَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ أَوْ الْعَصْرِ^(٢)، وَسَهَا مَرَّةً وَقَامَ وَلَمْ يَتَشَهَّدَ التَّشَهُدَ الْأَوَّلَ^(٣)، كُلُّ هَذَا وَقَعَ مِنْهُ، بَلْ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا.

لكن أقول لكم: الذين هم في صلاتهم ساهون ليس لهم الويل، بل الذين لهم الويل هم الذين عن صلاتهم ساهون، ولهذا أذكركم بما قال العلماء، قال العلماء: الحمد لله الذي لم يقل: الذين هم في صلاتهم ساهون.

وهناك آية أخرى تُشَبِّهُ هَذِهِ ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَقُلْ: وَالظَّالِمُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ؛ لَأَنَّهُ لَوْ قَالَ: وَالظَّالِمُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ لَصَارَ الظَّالِمُ كَافِرًا، لَكِنْ قَالَ ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ لِأَنَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، ومسلم:

كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم:

كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من لم ير التشهد الأول واجبا، رقم (٨٢٩).

أَعْظَمَ الظُّلْمَ أَنْ تَكْفُرَ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وهنا سؤال: هذه الآية ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ مستقلة عما بعدها، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾. فهل نقرأها كما هي في المصحف، بمعنى أن نقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾، ثم نقول: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أو نصلها فنقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ؟ هناك قولان في المسألة، بعض الناس قال: لا تقف؛ لأنك لو قلت: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ وسكت بناءً على أنها رأس آية صار هنا إشكال، فلا بُدَّ أن تقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٢) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ فتصل الآيتين.

وبعض العلماء يقول: لا، فالذي أنزل الآيات هو الله عز وجل، والذي يضع الآية في مكانها هو الرسول، كان يقول: «ضَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا» (١). إذن: هاتان آيتان، فلك أن تقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ثم تقف، ثم تقرأ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؛ لأن رؤوس الآيات كلها محل وقف، سواء انقطع المعنى أم لم ينقطع.

وإذا قرأت: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ وسكت فسوف تفكر قائلاً: كيف هذا؟ وتظل متشوّفاً غاية التشوّف لما بعدها، وحينئذ يكون للوقف فائدة عظيمة؛ وهي أن الإنسان إذا سمع ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ تعجب وقال: لا بُدَّ أن هناك أمراً ما، فإذا قرئ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ نزلت عليه كالماء البارد على كبد الإنسان العطشان.

ومع ذلك يجوز الوصل، لكن الوقف لا يُعاب على فاعله، فلا يقال للإنسان: لماذا وقفت، والآية التي بعدها متصلة بها؟ ولكننا نقول: لا بأس، ألسنا نقف في الفاتحة فنقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ثم نقول: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، مع أنها متصلة، ولكننا نقف على كل آية.

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ﴾ [الماعون: ٦] أي يعملون العمل ليراهم الناس فقط، أعاذنا الله وإياكم من ذلك. وهذه صفة المنافقين، فالمنافق لا يهتم ما بينه وبين الله، بل يهتم ما بينه وبين الخلق: هل رآه الناس في الصف الأول أو لا؟ هل رآوه في الركوع والسجود؟ هل رآوه يقرأ القرآن؟ هل رآوه متخشعاً؟ هذا هو الذي يهتم، لا يهتم رب العالمين، يهتم أن يراه الناس، فذلك ليس له حظ في الآخرة، الذي يرائي الناس في صلاته أو صدقته أو صيامه أو حجه أو غير ذلك ليس له في الآخرة من خلاق.

والدليل: قول الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشُرْكُهُ»^(١). أي: لا أقبل منه، ولا أريد، وليس له حظ في الآخرة، ولذلك أوصي نفسي أولاً وأوصيكم ثانياً بالإخلاص لله، طهروا قلوبكم من مراءاة الناس، وهذا أشد ما يكون على الإنسان، فإذا صلى الإنسان ينبغي عليه أن يتم قراءتها وركوعها وسجودها وقيامها وقعودها تماماً على السنة، لكن المشكلة هي تنقية القلب من الرياء، وهو ما يعجز عنه كثير من الناس إلا من شاء الله.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

ولهذا قال بعض السلف: ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص. فالإخلاص صعب شديد؛ فلو أنك رأيت مثلاً وأنت تُصلي إنساناً ينظر إليك، فأعجبت بأن يراك هذا الرجل، حتى يمدح في صلاتك. فالرياء آفة من الآفات، وهو للعبادات كالسوس ينخر في الحبة فيتلفها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أي: ليس لهم إلا أن يراؤوا الناس. وربما نقول: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ داخلة في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾. أي: أنهم غافلون عن الإخلاص فيها، فهم يراؤون الناس.

فإذا قال قائل: أنا أعمل العمل وأحسن العمل ليراني الناس، فيتأسوا بي، فهل هذا رياء أم دعوة إلى الله؟ نقول له: بل أنت داعٍ إلى الله. ولهذا لما صنع المنبر للرسول عليه الصلاة والسلام صلى عليه، يقوم ويركع، وإذا أراد السجود نزل إلى الأرض وسجد، فقال: «فَعَلْتُ هَذَا لِتَأْتُمُّوا بِي» هذه واحدة، والثانية: «وَلِتَعْلَمُوا صَلَاتِي»^(١). وكذلك لما زاحمه الناس في المسعى ركب على بعير، قال ابن عباس رضي الله عنه: «من أجل أن يراه الناس ويتأسوا به»^(٢).

إذن: إذا كان الإنسان أسوة للناس، أي كان عالماً موثقاً عند الناس، وصلى صلاة يطمئن فيها، لا ليراه الناس، ولا ليتقرب إليهم برؤيتهم، ولكن ليتعلموا منه، لم يكن هذا من الرياء، بل هو من الدعوة إلى الله؛ لأن الدعوة إلى الله تكون بالقول وتكون بالفعل. ولذلك ما أشد المسؤولية على العلماء! فالعلماء عليهم

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة، رقم (٥٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (١/٣١١، رقم ٢٨٤٣).

مَسْئُولِيَّةٌ عَظِيمَةٌ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَرَوْنَهُمْ أَئِمَّةً يُقْتَدَى بِهِمْ، فَإِذَا أَخْلَ الْعَالِمُ بِشَيْءٍ مِنَ الشَّرِيعَةِ لَمْ يَكُنْ ضَرَرُهُ عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ عَلَيْهِ وَعَلَى غَيْرِهِ.

فَإِذَا كَانَ الْعَالِمُ مَثَلًا يَتَسَاهَلُ فِي الصَّلَاةِ فِي رَفْعِ الْيَدَيْنِ، وَرَفْعِ الْيَدَيْنِ يَكُونُ عِنْدَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ، وَعِنْدَ الرَّفْعِ مِنَ الرُّكُوعِ، وَعِنْدَ الْقِيَامِ مِنَ التَّشَهُّدِ الْأَوَّلِ، هَذِهِ أَرْبَعَةٌ مَوَاضِعٌ مِنَ السُّنَّةِ، لَكِنْ قَدْ تَكُونُ هَذِهِ السُّنَّةُ فِي حَقِّ الْعَالِمِ وَاجِبَةً؛ لِأَنَّ الْعَالِمَ أُسْوَةٌ، فَإِذَا رَأَاهُ النَّاسُ لَا يَرْفَعُ يَدَيْهِ تَرْكُوهَا هَذِهِ السُّنَّةُ. وَلِذَلِكَ أَقُولُ: إِنْ مَسْئُولِيَّةُ الْعُلَمَاءِ عَظِيمَةٌ، فَهُمْ الَّذِينَ يُقْتَدَى بِهِمُ النَّاسُ، فَأَحْتُ إِخْوَانِي الْعُلَمَاءَ، وَحَتَّى طَلَبَةَ الْعِلْمِ الرَّاقِي، أَحَثُّهُمْ عَلَى أَنْ يَحْرِصُوا عَلَى تَطْبِيقِ السُّنَّةِ مَا اسْتَطَاعُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧] الْمَاعُونُ هُوَ الْقَدَحُ الَّذِي يُجْعَلُ فِي الطَّعَامِ وَالْمَاءِ وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ، وَيُرَادُ بِهِ الْإِنَاءُ، وَمَعْنَى ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أَي: يَمْنَعُونَ طَالِبَ الْمَاعُونِ أَنْ يَسْتَعِيرَهُ. وَالْفِعْلُ (يَمْنَعُ) يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الْبُخْلِ. فَقَدْ يَأْتِي إِلَيْهِمُ الرَّجُلُ وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ آتِيَةً لَوْجُودِ ضَيْوْفٍ عِنْدَهُ، فَيَأْبُونَ، فَهَؤُلَاءِ تَشْمَلُهُمُ الْآيَةُ، فَهُمْ يَمْنَعُونَ إِعَارَةَ الْمَاعُونِ وَهُوَ سِعَادُ إِلَيْهِمْ وَسِيْضَمْنُ أَيْضًا؛ لِأَنَّ الْعَارِيَّةَ تُضْمَنُ عَلَى الْمُسْتَعِيرِ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ ضَرَرٌ.

فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا طَلَبَ مِنْكَ إِعَارَةَ الْمَاعُونِ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّهُ سَيُخْرِبُهُ، فَاْمْنَعُهُ وَلَا تُعْطِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا ضَرَرٌ عَلَيْكَ، وَلَا تُتْلَمُ إِذَا مَنَعْتَ، لَكِنْ لَوْ طَلَبَ شَخْصٌ مِنْكَ أَنْ تُعِيرَهُ الْمَاعُونَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الرَّجُلَ أَمِينٌ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُحْدِثَ فِيهِ شَيْئًا، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَمْنَعَهُ، مَعَ اسْتِغْنَائِكَ عَنْهُ، فَإِنْ مَنَعْتَهُ دَخَلْتَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

وَإِعَارَةُ الْكُتُبِ كَذَلِكَ تَكُونُ كإِعَارَةِ الْمَاعُونِ، فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا جَاءَهُ طَالِبُ عِلْمٍ

فَطَلَبَ مِنْهُ كِتَابًا لِيَقْرَأَهُ وَيَسْتَفِيدَ مِنْهُ، فليس لك أن تَمْنَعَهُ، وإذا فعلت دخلت في الآية؛ لأنه إذا كان إناء الغداء الجسمي، وهو الماعون الذي يُجْعَلُ فيه الطعام، إذا كان مَنَعُهُ مَذْمُومًا، فغذاء الروح من باب أولى.

وكذلك إذا جاءك رجلٌ فقال: أعِزِّي المصحفَ، أريدُ أن أقرأ وليسَ عندي مُصْحَفٌ. فوجِبَ عليك أن تُعِيرَهُ، لكن إذا خِفْتَ أن يُتْلِفَهُ فَلَكَ أن تَمْنَعَهُ، وكذلك إذا خِفْتَ أن يَكْتُبَ عليه حَواشي أو هَوامِش؛ لأن بعضَ طلبةِ العِلْمِ إذا استعارَ كِتَابًا مِنْكَ، ثم رَدَّهِ إِلَيْكَ، فإذا هو قَدْ مَلَأَهُ كِتَابَةً يَمِينًا وَيَسَارًا، فَيَحِقُّ لَنَا مَنَعُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ الكِتَابَ، وَلَا نُنْذِمُ عَلَى ذَلِكَ، لِأَن فِعْلَهُمْ يُضِرُّ بِالْكِتَابِ، وَلَا سِيَّما إذا كانوا طلبةً صغارًا، وَكُتِبُوا فِيهِ ما ليسَ بِصَحِيحٍ. أو تُعْطِيَهُ كِتَابًا فِي الفقه فتَجِدُ قَدْ عَلِقَ عَلَيْهِ بَشْيءٌ مِنَ النَّحْوِ، فكيف هذا؟! لكن تَذَكَّرْ وهو يقرأ في الفقه إعراب بيتٍ أو إعراب جُمْلَةٍ، فكتبها في كتابِ الفقه، فلا يُعَابُ على مَنْ مَنَعَهُ مِثْلَ هذا، وَلَا يَكُونُ مَذْمُومًا.



سورة الكافرون

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّيِّبُهَا الْكَافِرُونَ ۝ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

هَذِهِ السُّورَةُ هِيَ إِحْدَى سُورَتِي الْإِخْلَاصِ، فَسُورَتَا الْإِخْلَاصِ هُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّيِّبُهَا الْكَافِرُونَ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ بِهِتَيْنِ السُّورَتَيْنِ فِي سُنَّةِ الْفَجْرِ^(١)، وَفِي سُنَّةِ الْمَغْرِبِ^(٢)، وَكَذَلِكَ فِي

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ وَقَصَرِهَا، بَابُ اسْتِحْبَابِ رَكْعَتِي سُنَّةِ الْفَجْرِ وَالْحَثُّ عَلَيْهَا وَتَخْفِيفُهَا وَالْمَحَافَظَةُ عَلَيْهَا وَبَيَانُ مَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يُقْرَأَ فِيهَا، رَقْمٌ (٧٢٦).

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ وَالْقِرَاءَةُ فِيهَا، رَقْمٌ (٤٣١)، وَابْنُ مَاجَةٍ: كِتَابُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَالسُّنَّةُ فِيهَا، بَابُ مَا يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، رَقْمٌ (١١٦٦).

رَكَعَتِي الطَّوَافِ^(١)، لَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ مِنَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ عِبَادَةِ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، فَالْكَافِرُونَ يَعْبُدُونَ: الْأَصْنَامَ، وَالشَّجَرَ، وَالْحَجَرَ، وَالشَّمْسَ، وَالْقَمَرَ.

فَيَقُولُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أَيُّ: لَا أَعْبُدُ الَّذِي تَعْبُدُونَهُ، فَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهُ، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أَيُّ: اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَيَعْبُدُونَ اللَّهَ؟

قُلْنَا: نَعَمْ، بَعْضُهُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَيَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَلَكِنْ عِبَادَتُهُ لِلَّهِ لَا تَنْفَعُهُ مَعَ الشِّرْكِ؛ فَلِهَذَا نَفَاهَا، وَقَالَ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٢﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الْآيَاتِ فِيهَا تَكَرُّارٌ.

قُلْنَا: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا التَّكَرُّارِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذَا التَّكَرُّارَ مِنْ بَابِ التَّوَكِيدِ، وَأَنَّ الْأُمُورَ الْهَامَّةَ تُؤَكَّدُ بِالتَّكَرُّارِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبا: ٤-٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦-٧]، فَالْشَّيْءُ الْمُهْمُّ يُحْسَنُ أَنْ يُؤَكَّدَ بِالتَّكَرُّارِ.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْمَنَاسِكِ، بَابُ صِفَةِ حُجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ (١٩٠٧)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الْمَنَاسِكِ، بَابُ حُجَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَقْمُ (٣٠٧٤).

القول الثاني: أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْآيَةِ تَكَرُّارٌ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نَفْيٌ لِلْمَعْبُودَاتِ، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٢) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿نَفْيٌ لِكَيْفِيَّةِ الْعِبَادَةِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَنَا لَا أَعْبُدُ الْأَصْنَامَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا، وَأَنَا لَا أَعْبُدُ عَلَى شِبْهِ عِبَادَتِكُمْ، وَلَا أَتَمَثَّلُ بِهَا، وَلَا أَتَشَبَّهُ بِهَا، فَيَكُونُ الْأَوَّلُ بِاعْتِبَارِ الْمَعْبُودِ، وَالثَّانِي بِاعْتِبَارِ الْعِبَادَةِ، أَي: إِنَّ عِبَادَتِي لَيْسَتْ كَعِبَادَتِكُمْ، وَمَعْبُودِي لَيْسَ مَعْبُودَكُمْ، وَهَذَا الْقَوْلُ جَيِّدٌ؛ لِأَنَّ فِيهِ السَّلَامَةَ مِنْ دَعْوَى التَّكَرُّارِ.

القول الثالث: وَهُوَ قَوْلُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ الْآيَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، نَفْيٌ لِلْفِعْلِ، وَالْآيَتَيْنِ الْآخِرَتَيْنِ نَفْيٌ لِلْقَبُولِ وَالِاسْتِعْدَادِ، يَعْنِي أَنَا لَا أَفْعَلُ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ أَفْعَلَ وَلَا أَقْبَلَ هَذَا^(١).

فَالْمَقَامُ مَقَامٌ عَظِيمٌ، وَيَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ مَعْبُودَاتِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ عِبَادَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنْ يَكُونَ مُخْلِصًا لِلَّهِ فِي عِبَادَتِهِ مُتَّبِعًا لِرَسُولِهِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَمَيَّزَ دِينُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ دِينِ الْكُفَّارِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ النَّهْيُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِهِمْ حَتَّى فِي اللَّبَاسِ، فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(٢). لِأَنَّ التَّشَبُّهَ بِهِمْ فِي الظَّاهِرِ، يُؤَدِّي إِلَى التَّشَبُّهِ بِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَفِي الْعَقِيدَةِ وَفِي الْعَمَلِ.



(١) جامع البيان للطبري (٧٠٢ / ٢٤).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١).

سورة الإخلاص

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

هَذِهِ السُّورَةُ هِيَ إِحْدَى سُورَتِي الْإِخْلَاصِ، فَسُورَتَا الْإِخْلَاصِ هُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّيْنَاهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ بِهَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ فِي سُنَّةِ الْفَجْرِ^(١)، وَفِي سُنَّةِ الْمَغْرِبِ^(٢)، وَكَذَلِكَ فِي رَكْعَتِي الطَّوَافِ^(٣)، لَهَا تَضَمُّنَتَاهُمَا هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ مِنَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ وَقَصَرِهَا، بَابُ اسْتِخْبَابِ رَكْعَتِي سُنَّةِ الْفَجْرِ وَالْحَثِّ عَلَيْهَا وَتَخْفِيفِهَا وَالْمَحَافِظَةَ عَلَيْهَا وَبَيَانِ مَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يُقْرَأَ فِيهَا، رَقْمُ (٧٢٦).

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ وَالْقِرَاءَةُ فِيهَا، رَقْمُ (٤٣١)، وَابْنُ مَاجَةٍ: كِتَابُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَالسُّنَّةِ فِيهَا، بَابُ مَا يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، رَقْمُ (١١٦٦).

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْمَنَاسِكِ، بَابُ صِفَةِ حُجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ (١٩٠٧)، وَابْنُ مَاجَةٍ: كِتَابُ الْمَنَاسِكِ، بَابُ حُجَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَقْمُ (٣٠٧٤).

وهذه السُّورَةُ لَيْسَتْ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، بَلْ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ هِيَ الْفَاتِحَةُ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَكِنَّ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ تَعْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَجْزِي عَنِ الْقُرْآنِ؛ وَلِهَذَا لَوْ كَرَّرَهَا الْإِنْسَانُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي الصَّلَاةِ، وَقَالَ: أَنَا كَرَّرْتُهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَالْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ ثَلَاثُ الْقُرْآنِ، فَأَكُونُ كَأَنِّي قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ. فَلَا يُجْزِئُهُ ذَلِكَ، فَاَلْمُعَادِلَةُ لَا يَلْزَمُ مِنْهَا الْمُقَابَلَةُ فِي الْإِجْزَاءِ، لَكِنَّهَا تَعْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(١) وَالْخَطَابُ فِيهَا لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْخَطَابُ لِلرَّسُولِ خِطَابٌ لَهُ وَلِلْأُمَّةِ.

قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾، أَي: مُتَوَحَّدٌ جَلَّ وَعَلَا فِي ذَاتِهِ وَفِي أَسْمَائِهِ وَفِي صِفَاتِهِ، وَفِي أَحْكَامِهِ، لَهُ الْحُكْمُ، وَلَهُ الْأَمْرُ، وَلَهُ الْخَلْقُ، وَلَهُ التَّدْبِيرُ، فَهُوَ أَحَدٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، الصَّمَدُ يَعْنِي الْكَامِلُ فِي صِفَاتِهِ، فَهُوَ صَمَدٌ مُسْتَغْنٍ عَنِ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، كُلُّ الْخَلَائِقِ تَسْمُو إِلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي تَفْسِيرِهَا: الصَّمَدُ هُوَ الَّذِي تَصْمَدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ فِي حَوَائِجِهَا؛ وَلِهَذَا لَا يَجِدُ الْإِنْسَانُ مَنْ يَصْمَدُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَوَائِجِ إِلَّا اللَّهَ، وَهُوَ أَمْرٌ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، حَتَّى الْكَافِرُ إِذَا غَشِيَهُ مَوْجُ كَالظُّلْلِ يَدْعُو اللَّهَ، وَيَتَّجُهُ الْإِنْسَانُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَمِيعِ حَوَائِجِهِ، وَمَنِ اتَّجَّهُ إِلَى اللَّهِ فِي حَوَائِجِهِ اتَّجَّاهَا صَحِيحًا مُظْهِرًا لِلْإِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ، مُوقِنًا بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَإِجَابَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ حَاجَتَهُ سَوْفَ تُقْضَى فِي كُلِّ حَالٍ.

لَكِنَّ الَّذِي يَعُوزُنَا الصَّدَقُ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ لُجُوءُنَا إِلَى اللَّهِ فِيهِ مَا فِيهِ، أَوْ تَصَدِيقُنَا بِوَعْدِهِ فِيهِ مَا فِيهِ، فَيَقْوَتُنَا خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَإِلَّا فَمَنْ لَجَأَ إِلَى اللَّهِ بِصَدَقٍ وَإِخْلَاصٍ فَحَسْبُهُ اللَّهُ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَابُ فَضْلِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، رَقْمُ (٥٠١٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ وَقَصَرِهَا، بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، رَقْمُ (٨١١).

وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمَشْرِكِينَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نَائِمٌ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَأَخَذَ الْمُشْرِكُ سَيْفَ الرَّسُولِ وَكَانَ مُعْلَقًا بِالشَّجَرَةِ، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ الرَّجُلُ الْمَشْرِكُ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ» قَالَ: فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «مَنْ يَمْنَعُكَ؟» قَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ^(١).

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، فَلْيَرْجِعْ إِلَى كِتَابِ (الْفُرْقَانِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ) لَشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، ذَكَرَ فِيهِ آيَاتٌ عَجِيبَةٌ، جَرَتْ لِبَعْضِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ^(٢).

قَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۖ﴾ ② وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ ﴿ لَمْ يَلِدْ رَدًّا لِمَا زَعَمَهُ النَّصَارَى، وَلِمَا زَعَمَهُ الْيَهُودُ، وَلِمَا زَعَمَهُ الْمَشْرِكُونَ.

فَالنَّصَارَى قَالُوا: إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ اللَّهِ، وَالْيَهُودُ قَالُوا: إِنَّ عَزِيرًا ابْنُ اللَّهِ، وَالْمَشْرِكُونَ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكِدْ ۖ﴾، فَهُوَ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا أَيْضًا، مَا تَبَنَّى أَحَدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يُولَدْ ۖ﴾ هَذَا وَإِنْ كَانَ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ، لَكِنْ مِنْ أَجْلِ الْمَقَابِلَةِ، فَهُوَ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، فَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ عَزَّجَلَّ فَهُوَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنِ كُلِّ أَحَدٍ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى الْوَلَدِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يَعْنِي لَا أَحَدَ يُكَافِئُهُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ، وَفِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من علق سيفه بالشجر في السفر، رقم (٢٧٠٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى، رقم (٤٢٣٨).
(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية (ص: ٢٤٥).

فقوم عادٍ أعطاهم الله تعالى من القوة ما لم يُعطِ أحداً من البشر، حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾. فقال الله لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فلا أحد يكافئه.

ثم انظر إلى هؤلاء الذين قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أهلكهم الله بالطف الأشياء، بالريح اللطيفة، أرسلها الله عز وجل فكانت تأخذ الواحد منهم في السماء، ثم ينقلب على رأسه والعياذ بالله، فصاروا كأنهم أعجاز نخل خاوية.

و فرعون يقول لقومه: ﴿الَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٥١) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ﴿[الزخرف: ٥١-٥٢]، فأهلك الله فرعون بما كان يفتخر به وهو الماء، فأهلك بالغرق، فتبين بهذا أن الله تعالى لا كفاء له، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.



سورة الفلق

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوْا تُ اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

هَاتَانِ السُّورَتَانِ عَظِيمَتَانِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا»^(١). وَلِهَذَا وَجَّهَ اللَّهُ تَعَالَى الْخُطَابَ لِلْعِبَادِ أَنْ يَتَعَوَّذُوا بِهِمَا فَقَالَ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] كَلِمَةً (قُلْ) فِعْلٌ أَمْرٌ، وَالْمَخَاطَبُ فِيهَا وَاحِدٌ، وَالْخُطَابُ مُوجَّهٌ إِلَى كُلِّ مَنْ يَصِحُّ أَنْ يُوجَّهَ إِلَيْهِ الْخُطَابُ. أَمَّا الْخُطَابُ الْمَوْجَّهٌ لِلرَّسُولِ ﷺ فَيَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: مَا دَلَّتْ الْقَرِينَةُ عَلَى أَنَّهُ خَاصٌّ بِهِ، فَهَذَا خَاصٌّ بِهِ لَا يَتَعَدَّاهُ إِلَى غَيْرِهِ، مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالضُّحَى﴾ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٥٢/٤)، رَقْمُ (١٧٤٢٧)، وَأَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْوَتْرِ، بَابُ فِي الْمَعْوِذَتَيْنِ، رَقْمُ (١٤٦٣)، وَالنَّسَائِيُّ: كِتَابُ الْإِسْتِعَاذَةِ، بَابُ، رَقْمُ (٥٤٣٨).

وَمَا قُلْتُ ﴿[الضحى: ١-٣]﴾ فَالْخِطَابُ هُنَا لِلرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ خَاصٌّ بِهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٢] الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ خَاصٌّ بِهِ.

القسم الثاني: مَا دَلَّتِ الْقَرِينَةُ فِيهِ عَلَى الْعُمُومِ، مِثَالُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴿[الطلاق: ١]﴾ فَهُنَا وَجَّهَ الْخِطَابَ أَوَّلًا لِلنَّبِيِّ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ﴾، ثُمَّ عَمَّمَ فَقَالَ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾. فَيَكُونُ هَذَا الْخِطَابُ عَامًّا لِلرَّسُولِ ﷺ وَلِلْأُمَّةِ.

القسم الثالث: مَا كَانَ الْخِطَابُ فِيهِ مَوْجَّهًا لِلرَّسُولِ ﷺ، وَلَيْسَ فِيهِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَهُ وَحْدَهُ، أَوْ لَهُ وَلِغَيْرِهِ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، مِثَالُ ذَلِكَ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١-٢]، فَالْخِطَابُ مَوْجَّهٌ لِلرَّسُولِ ﷺ، لَكِنَّهُ عَامٌّ لِلْأُمَّةِ، وَكَذَلِكَ مَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فَالْخِطَابُ هُنَا لِلْمُفْرَدِ (قُلْ)، لَكِنَّهُ يَرَادُّ بِهِ الْعُمُومُ.

﴿قُلْ﴾ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ فَهُوَ لِلْعُمُومِ، ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١-٢] إِلَى آخِرِهِ، وَقَبْلَهَا سُورَةُ الْإِخْلَاصِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وَبَعْدَهَا سُورَةُ النَّاسِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، كُلُّ هَذِهِ الْأَوَامِرِ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُلْحِدِينَ: إِنَّا لَا نَحْتَاجُ أَنْ نَقُولَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، بَلْ نَقُولُ: اللَّهُ أَحَدٌ، أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: قُولُوا. وَالْمَقُولُ غَيْرُ الْقَوْلِ. وَلَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ

هذا لضلالهم وجهلهم وإلحادهم؛ لأنك إذا قلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، تشعر أن الذي أمرك بهذا هو الله، لكن لو قلت: أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. ما شعرت بهذا، وكأنك قُلْتَهَا مِنْ نَفْسِكَ، الملحدون يُشَبِّهُونَ عَلَى النَّاسِ، ولكن -والحمد لله- أدنى واحد من الناس يعرف أن هذا شبهة وضلال.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (أَعُوذُ): أي: أَعْتَصِمُ بِاللَّهِ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهِ، أَعْتَصِمُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ، مِنْ لَذِّ بَجَلَالِهِ وَجَدَّ مَا يَسُرُّهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ رَبُّ الْفَلَقِ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَالْفَلَقُ لَهُ مَعْنَيَانِ:

الأول: فَلَقُ الصُّبْحِ، والثاني: فَلَقُ النَّوَى؛ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْأَوَّلِ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦] أي: فَلَقَ الصُّبْحِ، وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي بَدْءِ الْوَحْيِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: «كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ»^(١).

الثاني: فَلَقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥] الْحَبُّ مِثْلُ: الْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَالذُّرَّةِ، أَمَا النَّوَى فَمِثْلُ نَوَى التَّمْرِ، وَالزَّيْتُونِ. إِذَنْ: الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ هَذِهِ الْحَبَّةَ الْيَابِسَةَ النَّاشِفَةَ حَتَّى تَكُونَ زَرْعًا هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذِهِ النَّوَاةُ الصُّلْبَةُ تُغْرَسُ فِي الْأَرْضِ، فَيُخْرِجُ اللَّهُ مِنْهَا نَخْلًا، وَهَذَا لَا يَسْتَطِيعُهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠).

ولهذا جاء في الحديث القدسي: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»^(١). ولا أحد يستطيع هذا، فما بالكم بالحيوان ولو كان صغيراً؟! يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] لو كُلُّ ما يُعبدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَخْلُقَ ذُبَابًا، وهو مِنْ أَهْوَنِ الْحَيَوَانَاتِ أَوْ الْحَشَرَاتِ، لَمَا اسْتَطَاعُوا.

إذن: قَرَبُ الْفَلَقِ هو الله، والْفَلَقُ فيها قولان: فَالِقُ الْإِصْبَاحِ، وَفَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢] كَلِمَةُ (مَا) اسْمٌ مَوْصُولٌ، وَالاسْمُ الْمَوْصُولُ يُفِيدُ الْعُمُومَ، أَي: مِنْ شَرِّ كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَوَّلُ مَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ نَفْسُهُ، وَفِي حَدِيثِ خُطْبَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ الَّتِي عَلَّمَهَا لَهُ الرَّسُولُ ﷺ قَالَ: «نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا»^(٢)، فَأَوَّلُ مَا يَدْخُلُ فِي قَوْلِكَ ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢] نَفْسُكَ، فَنَفْسُكَ فِيهَا شَرٌّ، وَاسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣] غَيْرِ نَفْسِ الشَّيَاطِينِ، فَالشَّيَاطِينُ كُلُّهَا شَرٌّ، تُسَلِّطُ عَلَى الْإِنْسَانِ وَتَصُدُّهُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَيْرِ وَالْإِيسْرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩١]، وَفِي الْإِنْسِ شَيَاطِينٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وَهُمْ شِرَارُ خَلْقِ اللَّهِ، وَمِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب نقض الصور، رقم (٥٩٥٣).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الجمعة، باب كيفية الخطبة، رقم (١٤٠٤)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، رقم (١٨٩٢).

عَزَّوَجَلَّ، واستمع إلى قول الله تعالى في الكفار: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [المتحنة: ٢]، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، فبنو آدم فيهم شرٌّ، وفيهم حسدةٌ، وفيهم سحرةٌ، وفيهم من يُصيبُ النَّاسَ بعينه، وفيهم من يشي بالرجل إلى أقاربه وأصحابه، ويقول: هذا رجل ليس فيه خيرٌ، هذا رجل فيه كذا وكذا. وفيهم من يشي بعباد الله إلى الأمراء والسلاطين، كمن وشى بالإمام أحمد بن حنبل حتى حبس، ومن وشى بشيخ الإسلام ابن تيمية، وأولئك هم شرارُ الخلق، هكذا فإن الإنس فيهم شرٌّ.

هناك أيضًا شرٌّ في غير ذوي الإرادة والشعور، فهناك رياحٌ عاصفةٌ تُدمرُ، ولهذا ينبغي للإنسان إذا عصفت الريح أن يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ»^(١).

كذلك أيضًا في الزلازلِ شرٌّ، كل هذا من مخلوقات الله، فكَلِمَةُ ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ اعلم أنها شاملةٌ عامةٌ لكل ذي شرٍّ، سواء كان بإرادة أم بغير إرادة.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣] الغاسقُ: هو الليلُ، كما قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وإِنَّمَا نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِ مَعَ أَنَّهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ؛ لِأَنَّ الْهَوَامَّ وَالسَّبَاعَ كُلَّهُمَا تَكُونُ فِي الْغَالِبِ فِي اللَّيْلِ، بَلْ حَتَّى الْأَوْجَاعُ فِي الْمَرْضَى تَشْتَدُّ فِي اللَّيْلِ أَكْثَرَ مِنْ النَّهَارِ، فَبِهَذَا أَمَرَنَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ نَسْتَعِيذَ بِهِ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ، وَ(وقب) أي: دَخَلَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر، رقم (٨٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] النَّفَّاثَاتُ: جَمْعُ نَفَّاثَةٍ، وهي التي تَنْفُثُ في العُقَدِ، وهي السَّاحِرَةُ؛ فَالسَّاحِرَةُ تَعْقِدُ عُقْدًا، وَتَنْفُثُ عَلَيْهَا هَكَذَا، وَتَقْرَأُ قِرَاءَةً تَسْتَحْدِمُ بِهَا الشَّيَاطِينَ، كُلَّمَا نَفَثَتْ عَقَدَتْ، وَيُصَابُ مَنْ سَحَرَتْهُ. وَقَوْلُهُ ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ قَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْهُ: النِّسَاءُ النَّفَّاثَاتُ، وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْهُ: الْأَنْفُسُ النَّفَّاثَاتُ. وَلَكِنَّ الْقَوْلَ الرَّاجِحَ: الْأَنْفُسُ النَّفَّاثَاتُ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ، يَدْخُلُ فِيهَا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ؛ لِأَنَّ السَّحْرَةَ قَدْ يَكُونُونَ رِجَالًا أَوْ نِسَاءً.

وَالسَّحَرُ أَشَدُّ مَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْهُ ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾؛ لِأَنَّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ تَسْتَعِينُ بِالشَّيَاطِينِ عَلَى الْمَسْحُورِ، فَيُصَابُ، إِمَّا فِي عَقْلِهِ، وَإِمَّا فِي بَدَنِهِ، وَلَهُ أَنْوَاعٌ. فَمَثَلًا: هُنَاكَ مَا يُعْرَفُ بِالصَّرَفِ وَالْعَطْفِ، وَهُوَ مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ السَّحَرِ، بِمَعْنَى أَنْ يُسَحَرَ الرَّجُلُ حَتَّى يَتَعَلَّقَ بِهَذَا الَّذِي سَحَرَ مِنْ أَجْلِهِ تَعَلُّقًا تَامًّا، وَعَكْسُهُ الْعَطْفُ؛ يُسَحَرُ حَتَّى يَكْرَهُ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ، اسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وَالْعَلَاقَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مِنْ أَقْوَى الْعَلَاقَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] فَيَسْلُطُ السَّاحِرُ عَلَى الرَّجُلِ لِيُفَرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، وَلَكِنْ اسْتَمِعْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فَالسَّحَرُ سَبَبٌ لِلضَّرَرِ، لَكِنَّ وَرَاءَ السَّبَبِ خَالِقٌ قَادِرٌ عَلَى إِبْطَالِ هَذَا السَّحَرِ.

وَهُنَاكَ سِحْرٌ بِدُونِ نَفْثٍ، بِأَذْوِيَةٍ تُجْمَعُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ، ثُمَّ تُوَضَعُ فِي مَكَانٍ مَا، فَيَتَأَثَّرُ بِهَا الْمَسْحُورُ. وَالْآيَةُ قَدْ ذَكَرَتْ أَشَدَّ أَنْوَاعِ السَّحَرِ، وَهُوَ سِحْرُ النَّفْثِ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ سِحْرُ الشَّيَاطِينِ، وَالْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَالُوا: إِنَّ السَّاحِرَ الَّذِي

يَنْفُثُ فِي الْعُقَدِ يَكْفُرُ وَيُقْتَلُ، اللهم إلا إذا تاب تَوْبَةً نَصُوحًا، وَعَلِمْنَا أَنَّهُ صَادِقٌ فِي تَوْبَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا.

القِسْمُ الثَّانِي مِنَ السَّحَرَةِ: مَنْ لَا يَصِلُ سِحْرُهُ إِلَى الْكُفْرِ، وَلَكِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُقْتَلَ حَدًّا؛ لِأَنَّهُ مَفْسَدٌ فِي الْأَرْضِ، مُعْتَدٍ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، فَيَجِبُ قَتْلُهُ، لَكِنْ إِذَا تَابَ قَبْلَ أَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ تَابَ إِلَى اللَّهِ، وَرَجَعَ وَأَبْطَلَ السَّحَرَ الَّذِي كَانَ قَدْ عَقَدَهُ لِلنَّاسِ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لَا يُقْتَلُ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: إِنْ السَّاحِرَ يَجِبُ قَتْلُهُ، سَوَاءٌ تَابَ أَوْ لَمْ يَتُبْ؛ لَكَفِّ شَرِّهِ. وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ أَنَّهُ إِذَا تَابَ فَلَدَيْنَا نَصُوصٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] الحاسدُ: هو العائنُ، الَّذِي يَغِيبُ النَّاسَ عَلَى مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ، إِذَا رَأَى شَخْصًا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالمَالِ، أَوْ بِالصَّحَّةِ، أَوْ بِالْوَلَدِ، حَسَدَهُ، وَهِيَ نَفْسٌ شَرِّيرَةٌ، تَكْرَهُ الْخَيْرَ لِلْخَلْقِ، فَيَخْرِجُ مِنْ هَذِهِ النَّفْسِ الشَّرِّيرَةِ قُوَّةً مَعْنَوِيَّةً تُصِيبُ مَنْ أَصَابَتْهُ.

بَعْضُ النَّاسِ - لَا أَقُولُ: أَكْثَرُ النَّاسِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - يَكُونُ حَاسِدًا، يَغِيبُ النَّاسَ عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَى مَا يُعْجِبُهُ فَرَّ قَلْبُهُ كَالْمِدْفَعِ، فَإِذَا صَارَ كَذَلِكَ أَصَابَ مَنْ وَجَّهَ إِلَيْهِ.

ودواء العينِ أمران: دواءٌ سابقٌ، ودواءٌ لاحقٌ، الدواءُ السابقُ أن يقالَ للعائنِ: إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ فَقُلْ: بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ. فَإِذَا قَالَ الْعَائِنُ هَذَا فَإِنَّهُ بِإِذْنِ اللَّهِ لَنْ يُصِيبَ أَحَدًا بَعِيْنِهِ، وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الطَّيِّبِينَ مِنْ أَهْلِ الْعَيْنِ كَانَ كُلَّمَا مَشَى فِي السُّوقِ وَرَأَى مَا يُعْجِبُهُ قَالَ: تَبَارَكَ اللَّهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ. حَتَّى لَا يَصِيبَ أَحَدًا

بَعَيْنِهِ، وَهَذَا دَوَاءٌ سَابِقٌ يَكُونُ مِنَ الْعَائِنِ نَفْسِهِ.

أَمَّا الدَّوَاءُ اللاحِقُ: إِذَا عَلِمَ الْعَائِنُ طُلُبَ مِنْهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ وَضوءَ الصَّلَاةِ، يَغْسِلُ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، وَيَغْسِلُ رِجْلَيْهِ، وَمَا تَنَاسَّرَ مِنَ الْمَاءِ يُجْعَلُ فِي إِنَاءٍ، وَيُعْطَى لِلْمَصَابِ يَشْرَبُ مِنْهُ، وَيَصُبُّ عَلَى رَأْسِهِ وَظَهْرِهِ فَيُشْفَى بِإِذْنِ اللَّهِ فَوْرًا. وَقِصَصُ الْعَائِنِينَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، نَسَمَعُهَا سَابِقًا وَلَا حَقًّا، وَهِيَ حَقِيقَةٌ وَاقِعَةٌ، لَكِنْ إِذَا اسْتَعَدَّتْ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَمَنْ شَرَّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ، وَمَنْ شَرَّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ، وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، إِذَا اسْتَعَدَّتْ بِهِ بِقَلْبٍ مُوقِنٍ مُؤْمِنٍ؛ بِأَنَّهُ سَيَدْفَعُ عَنْكَ هَذَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَدْفَعُهُ.

لَكِنَّ مُصِيبَتَنَا أَنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَقْرَءُونَ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْيَقِينِ، لَكِنْ عَلَى سَبِيلِ التَّجَرُّبَةِ، يَقُولُ: سَأَنْظُرُ هَلْ تَنْفَعُ قِرَاءَتُهَا أَوْ لَا؟ فَهَذَا لَيْسَ عِنْدَهُ يَقِينٌ وَلَا إِيْمَانٌ، فَلَا تَنْفَعُهُ الْمُعَوِّذَتَانِ وَلَا غَيْرُهُمَا.



سورة الناس

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي
اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوْا تُ اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ،
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] ﴿قُلْ﴾ فِعْلٌ أَمْرٌ، الْأَمْرُ هُوَ
اللَّهُ، وَالْمَأْمُورُ هُنَا كُلُّ النَّاسِ، فَهِيَ لِلْعُمُومِ، فَإِنْ كَانَ الْخَطَابُ لَوَاحِدٍ فَالْمُرَادُ بِهِ الْعُمُومُ،
أَي: قُلْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ: أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ... إلخ. و ﴿أَعُوذُ﴾ بِمَعْنَى:
أَعْتَصِمُ، ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَإِنَّمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾
لَأَنَّ النَّاسَ فِيهِمْ شَرٌّ كَثِيرٌ، وَالَّذِي يَمْلِكُهُمْ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهَا:
﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٢] أَي: ذِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ وَالسَّيْطَرَةِ، فَهُوَ رَبُّهُمْ الَّذِي
خَلَقَهُمْ وَأَوْجَدَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ، وَهُوَ رَبُّهُمْ الَّذِي أَمَدَّهُمْ بِمَا تَكُونُ بِهِ الْحَيَاةُ مِنْ طَعَامٍ
وَشَرَابٍ وَهَوَاءٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ أَيْضًا مَلِكُهُمْ الَّذِي لَهُ الْمُلْكُ وَالسُّلْطَانُ وَالسَّيْطَرَةُ،
فَلَا أَحَدَ لَهُ الْمُلْكُ التَّامُّ إِلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾ [الناس: ٣] أَي: مَعْبُودِ النَّاسِ، فـ(إِلَه) بِمَعْنَى مَعْبُودٍ، أَمَا كَوْنُهُ

رَبَّ النَّاسِ فَهَذَا وَاضِحٌ، وَلَا أَحَدٌ يُنْكِرُ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ، حَتَّى الْمَشْرُكُونَ إِذَا سُئِلُوا: مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ فسيقولون: اللَّهُ. وَلَنْ يُنْكِرُوهُ، وَكَوْنُهُ مَلِكًا أَيْضًا لَا يُنْكِرُ؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ مَا أَرَادَ اللَّهُ، وَلَا أَنْ يُوجِدَ مَا مَنَعَ اللَّهُ أَبَدًا.

﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾ أي: معبودِ الناسِ، وَلَكِنْ لَيْسَ النَّاسُ كُلُّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَشْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْقَمَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْبَقَرَ، وَكُلُّهَا أَشْيَاءٌ غَرِيبَةٌ، إِذَا طَالَعَ الْإِنْسَانُ كُتُبَ الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ تَعَجَّبَ مِنْ عُقُولِ بَنِي آدَمَ، كَيْفَ تَصِلُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ؟!

قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ، كَانَ الْعَرَبُ يَعْبُدُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ التَّمَرَ عَلَى صُورَةِ مَعْبُودٍ، وَيَرْكَعُ لَهُ وَيَسْجُدُ، وَإِذَا جَاعَ أَكَلَهُ، سَبَّحَانَ اللَّهَ! رَبُّ يُوْكَلُّ! ذَلِكَ مِنَ السَّفَهَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وَهِيَ التَّوْحِيدُ ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]. وَهَنَاكَ غَرَائِبُ كَثِيرَةٌ تُذَكِّرُ عَنْهُمْ، فَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنْ الْإِنْسَانُ إِذَا نَزَلَ أَرْضًا، وَأَرَادَ أَنْ يَطْبُخَ، أَتَى بِأَرْبَعَةِ أَحْجَارٍ، فَيَرَى أَحْسَنَهَا فِي نَظَرِهِ، فَيَجْعَلُهُ مَعْبُودًا يَعْبُدُهُ، وَثَلَاثَةً يَنْصِبُهَا لِلْقَدْرِ، سَبَّحَانَ اللَّهَ! أَحْجَارُ التَّقَطُّهَا مِنَ الْأَرْضِ، يَجْعَلُ أَحَدَهَا إِلَهًا، وَالثَّلَاثَةَ يَسْتَخْدِمُهَا فِي الْإِيقَادِ!

عَلَى كُلِّ حَالٍ نَقُولُ: إِنْ اللَّهُ عَزَّجَلَّ هُوَ إِلَهُ النَّاسِ حَقًّا، أَمَّا جَمِيعُ الْمَعْبُودَاتِ الَّتِي يَتَّأَلُّهَا مَنْ يَعْبُدُهَا فَهِيَ بَاطِلَةٌ، وَالْدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وَآيَةٌ أُخْرَى فِي سُورَةِ لُقْمَانَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ هِيَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَخَبَرُ (لَا) النَّافِيَةِ لِلْجِنْسِ هُنَا مُقَدَّرٌ؛ لِأَنَّ خَبَرَهَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْرِفَةً عَلَى رَأْيِ الْبَصَرِيِّينَ، وَلَفْظُ الْجَلَالَةِ هُوَ أَعْرَفُ الْمَعَارِفِ، فَيَكُونُ مُقَدَّرًا، وَالتَّقْدِيرُ: لَا إِلَهَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ. فَتَكُونُ أُلُوهِيَّةُ اللَّهِ حَقًّا، وَأُلُوهِيَّةُ مَنْ سِوَاهُ بَاطِلَةً، أَمَا تَقْدِيرُ (لَا إِلَهَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ) فَلَا شَكَّ أَنَّهُ تَقْدِيرٌ أَوْضَحُ جِدًّا، لَكِنَ عِنْدَ التَّأَمُّلِ تَجِدُ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: لَا إِلَهَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ.

قوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٢-٣] وقوله ﴿النَّاسِ﴾ هُنَا عَامٌّ أُرِيدُ بِهِ الْخَاصُّ؛ لِأَنَّ بَعْضَ الْبَشَرِ لَا يَجْعَلُ اللَّهَ إِلَهًا، وَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلْإِنْكَارِ وَالتَّعَجُّبِ، ثُمَّ قَالُوا: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أَي: جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴿لَشَيْءٍ عَجَابٍ﴾ [ص: ٥]. وَاللَّهُ إِنَّ الشَّيْءَ الْعَجَابَ أَنْ تَجْعَلَ الْآلِهَةَ مُتَعَدِّدَةً، أَمَا أَنْ يُجْعَلَ إِلَهًا وَاحِدًا فَهُوَ الشَّيْءُ الصَّوَابُ.

وقال فرعونُ أيضًا لقومِهِ: ﴿يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وَهُوَ فِي ادِّعَائِهِ هَذَا كَاذِبٌ، فَهُوَ نَفْسُهُ يَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ إِلَهًا سِوَاهُ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَحِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وَقَالَ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُخَاطِبُهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] يُخَاطِبُهُ، وَلَكِنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَقُلْ: لَمْ أَعْلَمْ. وَلَيْسَ عَاجِزًا عَنِ الْقَوْلِ؛ لِأَنَّهُ فِي الْمَنَاطَرَةِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُوسَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ صَرَّحَ؛ لَكِنَّهُ فِي الثَّانِيَةِ عَجَزَ لَهَا قَالَ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، فَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ

يُرَدُّ، فَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ أُلُوْهِيَّةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى خَطَأٍ عَظِيمٍ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
الْإِلَهُ وَحْدَهُ.

ولهذا جاءت هذه الكلمة العظيمة (لا إله إلا الله) مُكْرَّرَةً في القرآن العظيم،
قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾
[آل عمران: ١٨] أي: حال كونه قائماً بالقسط، أي: بالعدل. ثم أَكَّدَ هذا بقوله:
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَهْلِ
الْعِلْمِ، الَّذِينَ شَهِدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا أَخْبَرَ رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾، وهذه والله مَزِيَّةٌ وَفَضِيلَةٌ لِلْعُلَمَاءِ لَا يَعَادِلُهَا شَيْءٌ؛ أَنْ
اللَّهُ جَعَلَهُمْ هُمُ الشُّهُدَاءَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ تَرْغِيبٍ فِي الْعِلْمِ
إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ لَكَانَ كَافِيًا.

والمُرَادُ بِأَهْلِ الْعِلْمِ هُنَا هُمْ أُولُو الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَشَرْعِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَكَلَّمَا رَأَيْتَ
مَدْحًا لِلْعِلْمِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ أَبَدًا، وَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ
الشَّرْعِيِّ: الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَبِأَحْكَامِهِ وَبِأَفْعَالِهِ.

قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] والوسواسُ هُنَا صِفَةٌ،
وَلَيْسَتْ مَصْدَرًا؛ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ لَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ خَنَّاسٌ، إِذَنْ: هِيَ صِفَةٌ، فَالْوَسْوَاسُ
هُوَ الشَّيْطَانُ، ﴿يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥] وَيُلْقِي فِي صُدُورِهِمُ
الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، فَبِالشُّبُهَاتِ يُنْكِرُ الْإِنْسَانُ الْأَخْبَارَ وَيُشْكُ فِيهَا.

ولهذا يَأْتِي الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ يُشَكِّكُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ، يَأْتِيهِ وَيُوسْوِسُ فِي
صَدْرِهِ بِأَمْرِ يَتَعَلَّقُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَتَّى إِنَّهُ يَأْتِي الْإِنْسَانَ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟

فيقول: خَلَقَهُ اللهُ. فيقول: مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ فيقول: اللهُ. وهكذا: مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ من خَلَقَ الْهَوَاءَ؟ مَنْ خَلَقَ الشَّمْسَ؟ من خَلَقَ الْقَمَرَ؟ فتكون إجابته: اللهُ. فيقول الشيطان: مَنْ خَلَقَ اللهُ؟ وعندئذٍ ماذا يجبُ على الإنسان أن يفعل؟

الحلُّ عند النبي ﷺ، الذي أعطاه اللهُ طَبَّ الْقُلُوبِ وَالنَّفُوسِ وَالْأَبْدَانِ، فأعلمنا ماذا نصنع، فقال: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَتَّخِذْهُ»^(١). فَأَمَرَنَا بِدَوَاءَيْنِ: دَوَاءٍ لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَدَوَاءٍ لَنَا بِهِ طَاقَةٌ.

أما الدواء الذي لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وهو دَفْعُ الشَّيْطَانِ، فهذا أَمْرٌ لَا نَسْتَطِيعُهُ، إِنَّمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ اللهُ، ولهذا قال: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ».

وأما الدواء الذي نستطيعه فقولُه: «وَلْيَتَّخِذْهُ»، أي: وَلْيَعْرِضْ عَنْ هَذَا الْوَسْوَاسِ، وَلَا يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ، فَإِذَا جَاءَكَ الشَّيْطَانُ يُوسَّوسُ لَكَ مَثَلًا: مَنْ خَلَقَ اللهُ؟ فعليك أن تستعِذَ بالله، وتنتهي، وتعرض عن هذا، وتنصرف إلى أعمالك، وَلَا تَهْتَمَّ، وَهَذَا وَسْوَاسٌ عَظِيمٌ، وَهَذِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ.

النوع الثاني: ما يجعله الإنسان في قلبه من الشهوات، ولستُ أعني بالشَّهَوَاتِ شَهْوَةَ النِّسَاءِ، بَلْ مَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ مِمَّا يَخَالِفُ أَمْرَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَثَلًا عَلَى الْإِنْسَانِ الرَّبَّاءَ، وَلَكِنَّا نَجِدُ إِنْسَانًا يَقُولُ: الرَّبَّاءُ فِيهِ مَصْلَحَةٌ لِلْآخِذِ وَالْمُعْطِي! وَلَنَفَرِضَ أَنْ رَجُلًا أَرَادَ أَنْ يُؤَسِّسَ مَصْنَعًا وَهُوَ فَقِيرٌ، فَجَاءَ إِلَى الْبَنْكِ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ مِليونَ رِيَالٍ بِمِليونٍ وَمِئَةِ أَلْفٍ؛ حَتَّى يُؤَسِّسَ الْمَصْنَعَ، فَتَأْسِيسُ الْمَصْنَعِ فِيهِ فَائِدَةٌ، يَنْتَفِعُ الْمُؤَسِّسُ، وَيَنْتَفِعُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٦٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٤).

فالوسواس وصف وليس بمصدّر، والدليل قوله: ﴿الْخَنَاسِ﴾، وهذا الوسواس يُوسوس في صدور الناس بأمرين أحدهما: بالشبهات، والثاني: بالشهوات، ولا يراد بالشهوات هنا شهوة النساء، بل المراد: كل ما تشتهيه النفس مما يخالف الشرع، فهو داخل في قولنا إنه يوسوس في صدور الناس بالشهوات.

﴿الْخَنَاسِ﴾ هو: الرجاء، من خنس الشيء إذا رجع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقِمْ بِالْخَنَسِ﴾ (١٥) الجوار الكنس [التكوير: ١٥-١٦]، فالشيطان إذا ذكر الله عز وجل خنس وذلل وتقاعس، ولذلك إذا سمع النداء للصلاة أدبر وله ضراط من شدة ما يجد^(١)، فهو خناس؛ لأنه يخنس إذا ذكر الله عز وجل.

وعلى هذا ففي الآية إشارة إلى أن الإنسان إذا أصيب بمثل هذه الوسواس فليذكر الله عز وجل حتى يذهب الشيطان ويهرب منه.

﴿الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥] أي: يلقي الوسوسة في صدور الناس، ولا يؤاخذ الإنسان بالوسوسة؛ لأنها بغير اختياره؛ إلا إذا ركن إليها واعتقدتها، ولهذا لو أن إنساناً أصيب بوسوسة في ذات الله عز وجل، ثم ألقه وأعرض، وفعل ما أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام من الانتهاء، فإن ذلك لا يضره؛ حتى لو كان أعظم شيء.

قال الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله، إننا نجد في قلوبنا -أو قالوا: في نفوسنا- ما يحب أحدنا أن يخرج من السماء ولا يتكلم به. قال: «وجدتم ذلك؟»

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل التأذين، رقم (٦٠٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، رقم (٣٨٩).

قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^(١).

يقول العلماء: وَجْه ذَلِكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يُلْقِي مِثْلَ هَذِهِ الْوَسَاوِسِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْإِيمَانُ قَوِيًّا؛ كَيْ يُمْتَحَنُ الْمَرْءُ: هَلْ يَرْكَنُ لِهَذِهِ الْوَسَاوِسِ، أَمْ يَتْرُكُهَا بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَالْإِعْرَاضِ؟ لَكِنْ مَنْ كَانَ إِيْمَانُهُ ضَعِيفًا أَوْ مَفْقُودًا فَالشَّيْطَانُ قَدْ انْتَهَى مِنْهُ، وَلَا يُوسَّوِسُ لَهُ.

وَنَحْنُ نَضْرِبُ لَذَلِكَ مَثَلًا: إِذَا أَقْبَلَ رَجُلٌ شَجَاعٌ عَلَيْكَ بِالسَّيْفِ، أَلَسْتَ تَسْتَعِدُّ لَهُ؟ أَمَا الْمَيِّتُ فَلَا نَهَابَ أَصْلًا. فَالْقَلْبُ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ لَا يَغْتَرِيهِ الْوَسَاوِسُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَالُوا لَا بِنِ عَبَّاسٍ، أَوْ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّ الْيَهُودَ يَقُولُونَ: نَحْنُ لَا يُوسَّوِسُ لَنَا فِي صَلَاتِنَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ صَلَاةَ الْيَهُودِ مَرْدُودَةٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَغَيْرُ مَقْبُولَةٍ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فَهُمْ يَدْخُلُونَ فِي صَلَاتِهِمْ، وَالشَّيْطَانُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُمْ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَوْ ابْنُ مَسْعُودٍ: «وَمَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ بِقَلْبِ خَرِبٍ»^{(٢)؟!}

وَهَذَا صَحِيحٌ، فَلَوْ جِئْتَ إِلَى بَيْتٍ مَتَهَدِّمٍ فَلَا يُعْقَلُ أَنْ نَأْتِيَ إِلَيْهِ لِنَهْدِمَهُ، لَكِنْ يَصِحُّ هَذَا مَعَ الْبُيُوتِ الْعَامِرَةِ، وَلِذَلِكَ لَا يَأْتِي الشَّيْطَانُ إِلَى الْقَلْبِ الْخَرِبِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ انْتَهَى مِنْهُ.

هَذَا مَعْنَى قَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ شَكَا إِلَيْهِ الصَّحَابَةُ أَنَّهُمْ يَجِدُونَ فِي نَفُوسِهِمْ هَذِهِ الْوَسَاوِسَ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ الْوَسْوَاسَةِ فِي الْإِيمَانِ وَمَا يَقُولُهُ مِنْ وَجْدِهَا، رَقْمُ (١٣٢).

(٢) مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى (٢٢/٦٠٨) عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ.

وقوله: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ عَبَّرَ بِالصُّدُورِ، والمرادُ القلوبُ، لكنه عَبَّرَ بِالمِحْلِّ عن الحالِّ، فالمِحْلُّ هو الصدورُ، والحالُّ هو القلوبُ، والدليلُ على أن القلبَ في الصدرِ قولُ الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٦] يقال: جَنَّةٌ وَجَنَّةٌ وَجَنَّةٌ، مثلثة الجيم، فالجَنَّةُ ما يُتَقَى بِهِ، والجَنَّةُ البستانُ، والجَنَّةُ ما يُجْتَنُّ عن الأعين، أي: يَغِيبُ عَنْهَا. وكلُّها موجودةٌ في القرآن، فالجَنَّةُ بفتح الميم في قوله: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلِ وَعِنَبٍ﴾ [الإسراء: ٩١]، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢]. والجَنَّةُ بضم الجيم في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جَنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٦]، والجَنَّةُ بكسر الجيم في آيتنا هذه ﴿مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ والجنُّ والجَنَّةُ معناهما واحدٌ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

والجَنَّةُ: ما يُجْتَنُّ عن الأعين، والجنُّ عالمٌ غَيْبِيٌّ، الأصلُ فيهم أنهم من عالمِ الغَيْبِ، لا يُشَاهَدُونَ ولا يُرَوْنَ، لكنهم قد يَتَمَثَّلُونَ بصورة إنسانٍ، صورة حيوانٍ، صورة ثعابين، وما أشبه ذلك. ولهذا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عن قَتْلِ الْجِنَّانِ الَّتِي تَكُونُ فِي الْبُيُوتِ، أي: الْحَيَّاتِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ هَذَا إِلَّا الْأَبْتَرَ وَذَا الطُّفَيْتَيْنِ^(١).

وقد قال العلماء عن الأبتَرِ: إنه ثعبانٌ قَطِيعُ الذَّنْبِ، ويجبُ قتلُهُ ولو في الحُجْرَةِ، وقالوا عن ذِي الطُّفَيْتَيْنِ: إنه ثعبانٌ على ظَهْرِهِ خَطَّانِ أُسُودَانِ، وَعَلَّلَ النَّبِيُّ ﷺ

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب قتل الحيات وغيرها، رقم (٢٢٣٣).

قَتَلَهَا بِكُلِّ حَالٍ بِأَنَّهُمَا يُخْطِفَانِ الْبَصَرَ، وَيُسْقِطَانِ مَا فِي بُطُونِ الْحَوَامِلِ، أَمَا غَيْرُهُ مِنَ الْحَيَاتِ فَلَا تَقْتُلُهُ، وَلَوْ فِي الْبَيْتِ، وَلَوْ فِي الْحَجَرَةِ.

وقد يسأل سائل فيقول: لماذا لا أقتل حية أجدها في بيتي؟ فنقول: لأنه ربما تكون حية، فقد ثبت في الحديث الصحيح أن رجلاً شاباً تزوج امرأة، فخرج مع رسول الله ﷺ إلى الخندق فبينما هو به إذ أتاه الفتى يستأذنه فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي أُحْدِثُ بِأَهْلِي عَهْدًا. فَأْذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «خُذْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ بَنَى قُرَيْظَةَ» فَانْطَلَقَ الْفَتَى إِلَى أَهْلِهِ فَوَجَدَ امْرَأَتَهُ قَائِمَةً بَيْنَ الْبَابَيْنِ فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمَحِ لِيَطْعُنَهَا وَأَدْرَكَتْهُ غَيْرَةً، فَقَالَتْ: لَا تَعْجَلْ حَتَّى تَدْخُلَ وَتَنْظُرَ مَا فِي بَيْتِكَ. فَدَخَلَ فَإِذَا هُوَ بِحَيَّةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى فِرَاشِهِ فَرَكَزَ فِيهَا رُمْحَهُ ثُمَّ خَرَجَ بِهَا فَنَصَبَهُ فِي الدَّارِ فَاضْطَرَبَتِ الْحَيَّةُ فِي رَأْسِ الرُّمَحِ وَخَرَّ الْفَتَى مَيِّتًا فَمَا يُدْرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا الْفَتَى أَمْ الْحَيَّةُ^(١). أي أن الرجل مات مباشرة، وماتت الحية كذلك؛ لأن هذه الحية حية، فلما قتلها أخذ أولياؤها بالثأر.

لكنكم تتساءلون: ماذا نفعل إذا وجد الإنسان في بيته حية، قد تؤذي النساء والأولاد؟ نقول: لكل داء دواء، أخرج عليها ثلاث مرات، أقول: أنت مني في حرج إن بقيت في بيتي. فإذا كانت حية ستخرج، وإذا كانت ثعباناً عادياً فستظل مكانها؛ لأنها لا تفقه، فإن بقيت فاقتلها؛ لأننا نعلم أنها ليست حية.

المهم أن الجن في الأصل هم عالم غيبي محبوبون عنا، لكن قد نراهم بصور مختلفة، ولكن الإنس أفضل من الجن بلا شك، ولهذا أجمع العلماء على أن الكافر

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب قتل الحيات وغيرها، رقم (٢٢٣٦).

مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فِي النَّارِ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مُؤْمِنِي الْجِنِّ هَلْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أَوْ لَا؟ وَالْأَدِلَّةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦].

إذن: مِنَ الْجِنَّةِ يَعْنِي: مِنَ الْجِنِّ وَالنَّاسِ، وَكَوْنُ الْجِنِّ يُوسْوِسُ لِلْإِنْسَانِ فَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ، لَكِنْ كَيْفَ يُوسْوِسُ بَنُو آدَمَ لَهُ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فَبَنُو آدَمَ يُوسْوِسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، تَجِدُ الرَّجُلَ يَسِيرُ فِي طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، فَيَأْتِيهِ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ، وَيَتَكَلَّمُ مَعَهُ، وَيُوسْوِسُ لَهُ، وَيَقْلِبُ تَفْكِيرَهُ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ، وَهَذَا مَشَاهِدٌ.

وَلِذَلِكَ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ مَنْ خَلِيلُهُ وَمَنْ صَاحِبُهُ وَمَنْ صَدِيقُهُ، هَلْ هُوَ رَجُلٌ خَيْرٌ أَمْ رَجُلٌ سَوْءٌ، فَإِذَا كَانَ رَجُلٌ خَيْرٍ فَلْيَسْتَمْسِكْ بِغُرْزِهِ، وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ سَوْءٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَفِرَّ مِنْهُ فِرَارَهُ مِنَ الْأَسَدِ، وَلَقَدْ ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ مَثَلَيْنِ، أَحَدُهُمَا لِلْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالثَّانِي لِلْجَلِيسِ السَّوِّءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ، كَمَثَلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ» يُحْذِيكَ أَي: يَهَبَكَ مِنْهُ «وَأَمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً». هَذَا الْجَلِيسُ الصَّالِحُ، وَكُلُّهُ خَيْرٌ. أَمَّا الْجَلِيسُ السَّوِّءُ «وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»^(١)، وَنَافِخُ الْكِيرِ هُوَ نَافِخُ النَّارِ، فَنَافِخُ النَّارِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم (٢٦٢٨).

منه رِيحًا خَبِيثَةً.

وجاء في الحديث «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»^(١). وكم من إنسانٍ مَعْرُوفٍ بالاستِقَامَةِ وَالصَّالِحِ يَتَّصِلُ بِهِ جُلَسَاءُ الشُّوْءِ فَيُفْسِدُونَهُ، وكم من إنسانٍ ليسَ بِصَالِحٍ وَلَا مُلتَزِمٍ، يَتَّصِلُ بِهِ أَهْلُ الْخَيْرِ وَالِاتِّزَامِ، فَيَهْدِيهِ اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ.

ولذلك أنا أَنْصَحُ الشَّبَابَ -وغيرَ الشَّبَابِ- أَنْ يَكُونَ جُلَسَاؤُهُمْ رِجَالًا صَالِحِينَ، يَنْفَعُونَهُ وَيَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَإِذَا رَأَوْا أَحَدًا مِنْ جُلَسَائِهِمْ مُنْحَرِفًا فَلْيَفِرُّوا مِنْهُ فِرَارَهُمْ مِنَ الْأَسَدِ؛ حَتَّى لَا يَتَأَثَّرُوا بِهِ وَبِأَفْكَارِهِ أَوْ بِأَخْلَاقِهِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

إِذَنْ: الْجَنُّ لَهُمْ وَسَاوُسٌ، وَالْإِنْسُ لَهُمْ وَسَاوُسٌ، وَلِهَذَا يَسْتَعِيدُّ الْإِنْسَانُ بِرَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ، وَهَذَا مَسْأَلٌ تَتَعَلَّقُ بِالْوَسْوَاسِ ابْتِلَى بِهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

المسألة الأولى: رَجُلٌ -أَوْ امْرَأَةٌ- ابْتِلَى بِالْوَسْوَاسِ، فَتَجِدُهُ يَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يَظُنُّ أَنَّهُ لَمْ يَنْوِ. فَإِذَا نَوَى وَبَدَأَ ظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يَغْسِلْ يَدَيْهِ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ شَكَّ أَنَّهُ لَا يَغْسِلُ وَجْهَهُ، وَهَكَذَا، فَتَجِدُهُ يَتَوَضَّأُ أَرْبَعَ مَرَاتٍ أَوْ خَمْسًا أَوْ أَكْثَرَ، بِنَاءً عَلَى الْوَسْوَاسِ.

ولِهَذَا نَنْصَحُ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ أَنْ يَسْتَعِيدُّوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَأَنْ يَقْتَصِرُوا عَلَى مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ، إِذَا غَسَلَ الْوَجْهَ وَالْيَدَيْنِ وَمَسَحَ الرَّأْسَ وَغَسَلَ الرَّجْلَيْنِ مَرَّةً وَاحِدَةً كَفَى، فَإِنْ زَادَ مَرَّةً فِيمَا يَغْسِلُ مَرَّةً أُخْرَى فَهُوَ أَفْضَلُ، وَثَالِثُهُ هُوَ أَفْضَلُ، وَمَا زَادَ عَنِ الثَّالِثَةِ فَإِنَّهُ قَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ.

هَكَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَوَضَّأَ مَرَّةً مَرَّةً، وَمَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، وَثَلَاثًا

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ مَنْ يُؤْمَرُ أَنْ يَجَالِسَ، رَقْمُ (٤٨٣٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ رَقْمُ (٢٣٧٨) وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

ثلاثًا وقال: «فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ»^(١).

وكذلك يُبتلى بعض الناس في الصلاة بالوسوسة، فإذا أراد أن يُكَبِّرَ في الصلاة كَبَّرَ ثم يقول بعد قليل: لَعَلِّي لم أَكَبِّرَ. فيُعِيدُ التَّكْبِيرَ مرَّةً ثانية وثالثة ورابعة، وكذلك في القِرَاءَةِ يَشْكُ، وفي الرُّكُوعِ، وفي السُّجُودِ، هذا أيضًا كُلُّهُ يَجِبُ أن يَطْرَحَهُ الإنسان، وألَّا يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ؛ لَأَنَّهُ إِنْ التَفَتَ إِلَيْهِ أَثَّرَ عَلَى سُلُوكِهِ، وَعَلَى عَقْلِهِ، بَلْ رُبَّمَا أَثَّرَ عَلَى عَقِيدَتِهِ، فليَطْرَحْ هذا جَانِبًا.

كذلك بعض الناس يَلْحَقُهُ الْوَسْوَاسُ فِي مَجْتَمَعِهِ، فتراهُ يَمُرُّ عَلَى النَّاسِ مِثْلًا فيقول: النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيَّ نَظْرَةَ غَضَبٍ وَكَرَاهَةٍ. وهذا مما يُوسَّسُ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ بِهِ، أَوْ يَقُولُ: النَّاسُ لَا يُرِيدُونَنِي. ولكن هذا مِنَ الْوَسْوَاسِ، وَالَّذِي يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ هُوَ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ نَظْرَ رِضَا وَفَرَحٍ وَسُرُورٍ؛ حَتَّى يُدْخَلَ السَّرُورَ عَلَى قَلْبِهِ، وَيَلَاقِيَ النَّاسَ بِبِشْرِ وَسُرُورٍ.

من الناس أيضًا مَنْ يَلْحَقُهُ الْوَسْوَاسُ فِي أَهْلِهِ، وَفِي زَوْجَتِهِ، يُوسَّسُ أَنَّهَا إِذَا تَكَلَّمَتْ فِي الْهَاتِفِ فَإِنَّهَا تَخَاطَبُ فُلَانًا، وَيَظَلُّ يَقُولُ لَهُ: امْرَأَتُكَ تَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا. مع أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ رَدَّتْ عَلَى الْهَاتِفِ بِقَوْلِهَا: صَاحِبُ الْبَيْتِ مَوْجُودٌ، أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ. وَلَكِنَّهُ يَشْكُ فِيهَا، وَهَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ السَّلَامَةُ، وَالْأَصْلَ الْعَفَافُ، وَالْأَصْلُ أَنَّ الْمَرْأَةَ تَكُونُ كَمَا يَطْلُبُ الرَّجُلُ وَيَرْضَى.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَلْحَقُهُ الْوَسْوَاسُ فِي أَهْلِهِ فِي مَسْأَلَةِ الطَّلَاقِ، وَهَذَا كَثِيرًا مَا

(١) أخرجه النسائي: كتاب الطهارة، باب الاعتداء في الوضوء، رقم (١٤٠)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي فيه، رقم (٤٢٢).

يَقَعُ، يُوسَّوسُ لِلإِنْسَانِ أَنَّهُ طَلَّقَ، حَتَّى إِنْ بَعْضَهُمْ يَقُولُ لِي: إِنَّهُ إِذَا جَلَسَ يَقْرَأُ الْمَصْحَفَ، وَقَلَبَ الصَّفْحَةَ، أَنَّهُ قَالَ لَامْرَأَتِهِ هِيَ طَالِقٌ. وَيَقُولُ لَهُ الشَّيْطَانُ: إِنَّكَ قُلْتَ: إِنْ فَعَلْتَ امْرَأَتِي كَذَا فَهِيَ طَالِقٌ. فَيُوسَّوسُ لَهُ فِي زَوْجَتِهِ. حَتَّى إِنْ بَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ لَهُ الشَّيْطَانُ: اسْتَخِرْ مِنْ هَذَا الْوَسْوَاسِ، وَطَلِّقْهَا. وَهَذَا لَا يَجُوزُ، فَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ الْعَقْدُ عَلَيْهَا عَلَى وَجْهِ صَحِيحٍ، وَالْأَصْلُ بَقَاءُ الْعَقْدِ، وَأَنْتَ لَمْ تُطَلِّقْ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِيمَا إِذَا شَكَّ فِي وَقْعِ الطَّلَاقِ، هَلِ الْوَرَعُ أَنْ يُمْضِيَ الطَّلَاقَ، أَوِ الْوَرَعُ أَلَّا يُمْضِيَ الطَّلَاقَ؟ الصَّوَابُ: الْوَرَعُ أَلَّا يُمْضِيَ الطَّلَاقَ، بَلِ النِّكَاحُ بَاقٍ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَمْضَى الطَّلَاقَ فَعَلَ جَنَائِيَتَيْنِ: الْجَنَائِيَةَ الْأُولَى: حِرْمَانُهَا مِنْ زَوْجِهَا. الثَّانِيَةَ: إِخْلَالُهَا لغيرِهِ. فَالْأَصْلُ بَقَاءُ النِّكَاحِ الْأَوَّلِ، فَإِذَا شَكَّ كُنَّا فِي وَقْعِ الطَّلَاقِ فَالْأَصْلُ عَدَمُ الطَّلَاقِ، وَالنِّكَاحُ بَاقٍ، وَلَيْسَ الْوَرَعُ أَنْ يُمْضِيَ الطَّلَاقَ، بَلِ الْوَرَعُ أَلَّا يُمْضِيَ الطَّلَاقَ.

كَذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَأْتِي لِلإِنْسَانِ وَهُوَ مُتَوَضِّعٌ، وَيَقُولُ: إِنَّكَ أَحَدَثْتَ، وَرُبَّمَا يُحْسِسُ بِحَرَكَةٍ فِي السَّبِيلَيْنِ، فَنَقُولُ لَهُ: اسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَابْقَ عَلَى طَهَارَتِكَ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَكِيَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ يُحْيِلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ وَجَدَ الشَّيْءَ فِي الصَّلَاةِ - أَيْ وَجَدَ الرِّيحَ أَوْ نُقْطَةَ الْبَوْلِ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - فَقَالَ: «لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا»^(١). أَيْ: حَتَّى يُذَرِكَ الشَّيْءَ بِحِسِّهِ لَا بِوَهْمِهِ، وَإِدْرَاكَ الشَّيْءِ بِالْحِسِّ هُوَ إِمَّا أَنْ يَجِدَ رِيحًا أَوْ يَسْمَعَ صَوْتًا.

بَعْضُ النَّاسِ يُبْتَلَى بِهَذَا، فَيُشَكُّ هَلِ أَحَدَثَ أَوْ لَا، فَيَقُولُ لَهُ الشَّيْطَانُ: يَا رَجُلُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين، من القبل والدبر، رقم (١٧٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على من تيقن الطهارة، رقم (٣٦١).

استرخ من هذا الشك، اذهب إلى الميضأة وتوضأ، وهكذا ينتهي الأمر. ولكن هذا الحل غير صحيح، وبهذا الجزم، لأنه علل بتعليل جيد، لكن هناك تعليل أحسن منه؛ لأن النبي ﷺ قال: «لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا». ولم يقل: ليذهب وينقض الوضوء على يقين.

ولهذا أقول: لا تعدلوا بالكتاب والسنة شيئاً أبداً، كل التعليلات يمكن أن تنقض، لكن الكتاب والسنة لا يمكن أن ينقض، خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، على كل حال الكلام في هذا الباب يطول، والوساوس كثيرة، لكن دواءها أن تستعيد بالرب عز وجل.

ثم إن من الوساوس أيضاً أن يخاطبك أخوك أو صديقك أو صاحبك الذي تعرفه بخطابٍ يحتمل أن فيه ما يدُلُّ على كراهته إياك، وفيه ما لا يدُلُّ، فعليك أن تحمل كلام أخيك على الأحسن، لا على الأسوأ.

وهذه مسألة أُصيبَ كثيرٌ من الناس بخلافها، فنرى بعض الناس إذا تكلم أخوه بكلامٍ يحتمل معنيين: حسناً وسيئاً يحمله على السيئ، وهذا من الوسواس؛ لأن الذي ينبغي للإنسان أن يحمل كلام أخيه على أحسن المحامل.

ولهذا يجيئك رجلٌ يوسوس لك فيقول: فلان يقول فيك كذا وكذا. فيقع في نفسك أن المتكلم بهذا الكلام يُبغضُك ويلمُزُك، وما أشبه ذلك. فالواجب عليك أن تقول: هذا أخي المسلم تكلم بكلامٍ يحتمل أنه حسن، ويحتمل أنه سيئ، وأنا أحمله على الحسن؛ ولهذا أكد السلف رحمهم الله على أنه ينبغي للإنسان أن يحمل الكلام على أحسن محامله ما دام يجد له محملاً حسناً.

ولو استَعْمَلْنَا هذا لاسْتَرَحْنَا مِنْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، لَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَحْمِلُ كَلَامَ أَخِيهِ عَلَى أَسْوَأِ الْمَحَامِلِ، وَهَذَا غَلَطٌ.

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.



تَمَّ الْمُجَلَّدُ الْخَامِسُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ

وَيَلِيهِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُجَلَّدُ السَّادِسُ

وَأَوَّلُهُ دُرُوسُ الْحَدِيثِ



فهرس الآيات

الآية	الصفحة
﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾.....	٥
﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.....	٥
﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾.....	٦
﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.....	٦
﴿وَنَضْعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾.....	٦
﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِ شَاءَ إِنشَاءً وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾.....	٧
﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.....	٧
﴿وَلَنُفِثَنَّ لِنَزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.....	٨
﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.....	٩
﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾.....	٩
﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا﴾.....	١٠
﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَفْسَى﴾.....	١٠
﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.....	١٠
﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.....	١٠
﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾.....	١٣

- ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ١٣
- ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ ١٧
- ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرِنِي ﴿ ١٧
- ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ
- إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٨
- ﴿وَنَادَوْا بِمَمْلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ١٨
- ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ ١٩
- ﴿الْعَمَّ ۝ تَنْزِيلٌ﴾ ٢٢
- ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ٢٢
- ﴿يُحْكَلُونَ فِيهَا مِّنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ٢٥
- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ ٢٦
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتِبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ ٢٦
- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ﴾ ٢٩
- ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ ٢٩
- ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ٢٩
- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ٣٠
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ٣٠
- ﴿إِنَّ قَلِيلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً﴾ ٣١
- ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَتَّبِعْهُ إِسْمُ﴾ ٣١
- ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ٣٢

- ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ٣٢
- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زِينٌ فَيَسْتَبِيعُونَ مَا قَشَبَهُ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ ٣٢
- ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ٣٣
- ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ٣٣
- ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ٣٣
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ٣٤
- ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ٣٤
- ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ ٣٥
- ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٣٦
- ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ ٣٨
- ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ ٣٨
- ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ
- إِنِّي تُبْتُ الْفَنِّ﴾ ٣٩
- ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ٣٩
- ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ ٤٠
- ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ ٤٠
- ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ﴾ ٤٠
- ﴿قُلْ أَبِئْسَ لَكُمْ تَكْفُورًا بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٣
- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ ٤٣
- ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ٤٣

- ﴿فَنَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ ٤٤
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُسِّ﴾ ٤٦
- ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ٤٧
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ ٤٧
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ ٤٧
- ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ٤٨
- ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ ٤٩
- ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ٤٩
- ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ ٥٠
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ ٥٣
- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ٥٣
- ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ٥٤
- ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَثُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ ٥٥
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ ٥٧
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ٥٧
- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ٥٧
- ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ٥٧
- ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ٥٧
- ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ٥٧

- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ﴾ ٥٧
- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ ٥٨
- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ ٥٨
- ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ٥٨
- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ٥٨
- ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ٦٠
- ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ٦٠
- ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ٦٠
- ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ ٦٠
- ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ ٦٠
- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنظَرُونَ﴾ ٦١
- ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ ٦١
- ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِيقَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ ٦١
- ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ٦١
- ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ ٦٢
- ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ٦٢
- ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ٦٣
- ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ٦٤
- ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ٦٤

- ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ ٦٤
- ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ ٦٤
- ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ٦٤
- ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ ٦٥
- ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ٦٥
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ٦٥
- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ ٦٦
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ٦٧
- ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ٦٧
- ﴿فَاطْلَعَ فَرَّاءُهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ٧٠
- ﴿وَاخْرَجَ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٧١
- ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرَ﴾ ٧١
- ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ٧٢
- ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ ٧٣
- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ
- مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ٧٤
- ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ٧٥
- ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ٧٥
- ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ ٧٥
- ﴿وَكَلَّ إِنْسَانَ أَزْمَنَهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ٧٥

- ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ٧٥
- ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ٧٦
- ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ٧٧
- ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ٧٨
- ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ ٧٨
- ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ٧٨
- ﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْنَا لَمَدِينُونَ﴾ ٧٨
- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ٧٨
- ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ٧٨
- ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ٧٨
- ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ ٧٩
- ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ٨٤
- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ ٨٧
- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ ٨٨
- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُّؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ ٨٨
- ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٨٩
- ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ٨٩
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ ٩٢

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ٩٢
- ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً. وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ ٩٢
- ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ٩٣
- ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنسَنُ مَا غَرَكَ رَبُّكَ الْكَرِيمِ﴾ ٩٣
- ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ٩٤
- ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ٩٤
- ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ٩٤
- ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أُنْتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ١٠٠
- ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ١٠٠
- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ١٠١
- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ١٠١
- ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ١٠١
- ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ١٠٢
- ﴿ءَاْمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ ١٠٢
- ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِّنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ١٠٢
- ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ١٠٢
- ﴿تَمْرُجُ الْمَلَكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ ١٠٢
- ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ١٠٥
- ﴿مَا يَكْشُوتُ مِن نُّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ ١٠٥

- ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ ١٠٨
- ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ١٠٨
- ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ١٠٩
- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمَ أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ ١٠٩
- ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ١١١
- ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ١١٢
- ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ١١٢
- ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ١١٣
- ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ١١٤
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ ١١٥
- ﴿فِي يَبُوتِ أذنَ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ ١١٥
- ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ ١١٦
- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ ١١٦
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ١١٧
- ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ١١٧
- ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ١١٩
- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ ١٢٠
- ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ١٢٠
- ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ١٢٠

- ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٢٥
- ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ ١٢٦
- ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ ﴾ ١٢٦
- ﴿ يَا كُوفٍ وَابَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ ١٢٦
- ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴾ ١٢٦
- ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ﴾ ١٢٧
- ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ ١٢٧
- ﴿ وَنَادُوا بِمَلِكِكَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ١٢٧
- ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ ١٢٧
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ ١٢٨
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ ١٢٨
- ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ ١٢٨
- ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .. ١٢٩
- ﴿ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ ١٣٠
- ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ١٣٠
- ﴿ وَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ ١٣٠
- ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ ١٣١
- ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ١٣١
- ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ١٣١

- ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ١٣١
- ﴿كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَسْتَدْكَرُوا وَلِأُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ١٣٢
- ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ ١٣٣
- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ ١٣٥
- ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ١٣٥
- ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ ١٤١
- ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكَبْتُمْ مَا Χَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ١٤١
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ ١٤٢
- ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١٤٥
- ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ﴾ ١٤٥
- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٤٧
- ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ ١٥٠
- ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ١٥٣
- ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ ١٥٤
- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ١٥٥
- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ﴾ ١٥٨
- ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ١٨٢
- ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ١٨٣

- ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ١٨٤
- ﴿وَيُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ ١٨٤
- ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ ١٨٨
- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ ١٨٨
- ﴿فَمَنْ رُحِخَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ ١٨٩
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ ١٨٩
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ ١٨٩
- ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ١٨٩
- ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ١٩٢
- ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ١٩٢
- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأُودُوا﴾ ١٩٣
- ﴿حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٩٣
- ﴿وَالَيْلِ إِذَا عَسَاسَ﴾ ١٩٦
- ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ١٩٧
- ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ١٩٨
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ١٩٨
- ﴿وَجَزَّوْا سَنِينَ سَنِيَّةٍ مِثْلَهَا﴾ ٢٠٣
- ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ ٢٠٥

- ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ
إِنِّي تُبْتُ الْكَفَرَ ٢٠٦
- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ٢٠٦
- ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَتَقَوَّمُ آلِيَّ إِلَىٰ مُلْكِي مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِن
تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٢٠٦
- ﴿وَاحْطُلْ عُقْدَةً مِن لِّسَانِي ٢٠٦
- ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ ٢٠٩
- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ٢١٠
- ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ٢١٠
- ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ٢١١
- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ٢١١
- ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلَيْسَتْهُمْ ءَأْيَدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢١٢
- ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالَهُتَكُمُ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ٢١٢
- ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ٢١٣
- ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ٢١٥
- ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ٢١٦
- ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ٢١٧
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ٢١٧

- ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ . ٢١٧
- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ٢١٨
- ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ ٢١٩
- ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ
- إِنِّي تُبْتُ الْكَفَرَ﴾ ٢٢١
- ﴿كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَّبَرُوا عَابِتِهِ وَلِيَسْتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ٢٢١
- ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا
- عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ٢٢٣
- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ
- مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ٢٢٣
- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ٢٢٣
- ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ٢٢٣
- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ٢٢٤
- ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ ٢٢٧
- ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ ٢٣٢
- ﴿أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ . ٢٣٢
- ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ٢٣٢
- ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ ٢٣٢
- ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ ٢٣٤
- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ٢٣٦

- ﴿وَلَنَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنِ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ٢٣٧
- ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا﴾ ٢٣٧
- ﴿لَا يَقْبَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ ٢٣٧
- ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ٢٤٠
- ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ ٢٤٠
- ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَشَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ٢٤١
- ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ ٢٤٣
- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ٢٤٣
- ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ ٢٤٤
- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ۚ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ ٢٤٧
- ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۖ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ ۚ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٢٤٧
- ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ٢٤٧
- ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ ٢٤٧
- ﴿فَاتَّبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ٢٤٨
- ﴿كَلَّا ۚ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ٢٤٨
- ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ٢٤٨
- ﴿وَنَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٢٤٩
- ﴿الْيَسَّ لِي مَلِكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ٢٥٠

- ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ٢٥٠
- ﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ٢٥١
- ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ٢٥٢
- ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ٢٥٢
- ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَيْنَهَا﴾ ٢٥٢
- ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ٢٥٣
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ ٢٥٣
- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ٢٥٤
- ﴿الْفَارِعَةِ﴾ ٢٥٥
- ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكِمِينَ﴾ ٢٥٧
- ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ٢٥٩
- ﴿وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ ٢٦٠
- ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ٢٦١
- ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ٢٦١
- ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ٢٦١
- ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ٢٦١
- ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ٢٦١
- ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ٢٦١
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ٢٦٢

- ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ٢٦٣
- ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ ٢٦٣
- ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ٢٦٤
- ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ ٢٦٥
- ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٢٦٥
- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَاكُم بِالْحَمْدِ فَلَاحِقَ لَكُمُ الْعَذَابُ بِسَيِّئِكُمْ وَلَعُذِّبْتُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ ٢٦٥
- ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾ ٢٦٦
- ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ٢٦٩
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ٢٦٩
- ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ ٢٧٠
- ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٢٧٠
- ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ ٢٧٠
- ﴿لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَكْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ٢٧١
- ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ ٢٧٢
- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُنَ﴾ ٢٧٢
- ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ ٢٧٢
- ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ٢٧٢
- ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ٢٧٣
- ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ٢٧٣

- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ٢٧٣، ٢٣٩
- ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٢٧٤
- ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ٢٧٤
- ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ٢٧٦
- ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ٢٧٧
- ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ٢٧٨
- ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ٢٧٨
- ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ ٢٧٩
- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ٢٨٠
- ﴿إِذَا نُنَالِي عَلَيْهِم ءَايَاتِ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ ٢٨٠
- ﴿بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ٢٨٠
- ﴿وَنَادَوْا بِمَمْلِكٍ لِّيَقْضِ عَلَيْهِمُ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ ٢٨١
- ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ٢٨٤
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ ٢٨٥
- ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ٢٨٨
- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ ٢٨٨
- ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ ٢٨٩
- ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ٢٨٩

- ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَتَيَّانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ ٢٩٠
- ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ ٢٩٣
- ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ ٢٩٣
- ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ٢٩٥
- ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ٢٩٦
- ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ٢٩٦
- ﴿ وَمِنْهُمْ أُمَيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ﴾ ٢٩٨
- ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ ٣٠١
- ﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ ٣٠١
- ﴿ إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ ٣٠٢
- ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ ٣٠٣
- ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ٣٠٣
- ﴿ لَعَنُوكَ إِنَّمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ٣٠٥
- ﴿ وَاللَّهُ يَخْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ ٣٠٥
- ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ٣٠٩
- ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا ﴾ ٣١٠
- ﴿ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴾ ٣١٠
- ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ ٣١١
- ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ ٣١١
- ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ ٣١٢

- ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُونَ كَمَا تَأْمُونُونَ﴾ ۳۱۵
- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ ۳۱۵
- ﴿وَلِيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ۳۱۶
- ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ۳۱۶
- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ ۳۱۶
- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ۳۱۷
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ۳۱۸
- ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ ۳۱۹
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ۳۱۹
- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ ۳۱۹
- ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ۳۱۹
- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ ۳۲۰
- ﴿وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ ۳۲۳
- ﴿وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ ۳۲۳
- ﴿رَبُّنِيَ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ ۳۲۴
- ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ ۳۲۵
- ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ۳۲۶
- ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ۳۳۱
- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ۳۳۱
- ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ ۳۳۵

- ﴿وَلَا يَحْصِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ ٣٤١
- ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ٣٤٢
- ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ٣٤٢
- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ٣٤٢
- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ٣٤٢
- ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ٣٤٣، ٣٥٣
- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ٣٤٦
- ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ ٣٤٩
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ﴾ ٣٥٠
- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ ٣٥٠
- ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ٣٥١
- ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ ٣٥١
- ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ ٣٥٣
- ﴿وَءَايَةٌ لَهُمُ الْيَلُّ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ ٣٥٥
- ﴿الَّذِيكَ نَفْطَنَ مِنْ مَنِي بَيْتَنِي﴾ ٣٥٦
- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ ٣٥٦
- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ٣٥٧
- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ٣٥٨
- ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ ٣٦٤

- ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ ۳۶۴
- ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ۳۶۷
- ﴿وَلِإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ۳۶۷
- ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ۳۶۸
- ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ ۳۶۹
- ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ۳۶۹
- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ ۳۶۹
- ﴿فَأَنْذَرْتَهُمْ نَارًا تَلْظَىٰ﴾ ۳۶۹
- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ ۳۷۲
- ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ
- وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ۳۷۸
- ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ۳۷۸
- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ ۳۷۹
- ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ۳۸۱
- ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ۳۸۱
- ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ ۳۸۳
- ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ ۳۸۶
- ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ۳۸۶
- ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ۳۸۷
- ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ۳۸۸

- ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ٣٨٩
- ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ ٣٨٩
- ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ﴾ ٣٨٩
- ﴿رَبِّ إِنَّا بَنَىٰ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ ٣٨٩
- ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ٣٩١
- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ ٣٩١
- ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ٣٩١
- ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ ٣٩١
- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ ٣٩٣
- ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ ٣٩٤
- ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ ٣٩٤
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ٤٠٣
- ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ ٤٠٣
- ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ٤٠٤
- ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ٤٠٨
- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ ٤١٨
- ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ٤١٩
- ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ٤٢٢
- ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ٤٢٢

- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ .. ٤٢٧
- ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ٤٢٧
- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ ٤٢٩
- ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ٤٣٥
- ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرِلٍ يَبْنَى أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ٤٣٦
- ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ٤٣٧
- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ ٤٣٧
- ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ ٤٣٨
- ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ ٤٣٩
- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ ٤٤٠
- ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ٤٤٣
- ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ ٤٤٤
- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ٤٤٤
- ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ ٤٤٤
- ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ ٤٤٤
- ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ٤٥٠
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ٤٥١
- ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ ٤٥٣
- ﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ آيَاتِنَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ ٤٥٤

- ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِض عَنْهُمْ﴾ ٤٥٧
- ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ ٤٥٧
- ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ٤٥٧
- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ٤٦١
- ﴿فَأَنْقُضُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ٤٦١
- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ٤٧٢
- ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ ٤٧٤
- ﴿وَيَسْتَفِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ ٤٧٥
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ ٤٧٥
- ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ٤٧٧
- ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ٤٧٩
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾ ٤٨٠
- ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ٤٨١
- ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ ٤٨١
- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ ٤٨٣
- ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ٤٨٤
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَفِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ٤٨٤
- ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآيِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا
- وَبَصَلِهَا﴾ ٤٨٨
- ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ٤٨٨

- ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ ٤٩٠
- ﴿وَأِنْ تَبَيَّنَ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ ٤٩١
- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ٤٩٢
- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ ٤٩٣
- ﴿وَجَعَلُوا بِهَا أَسَافِقَةً أَتَسْفِتْنَاهُمْ ظُلُمًا وَعُلُومًا﴾ ٤٩٧
- ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ٤٩٨
- ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾ ٤٩٨
- ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ ٥٠٠
- ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ٥٠١
- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ ٥٠١
- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ ٥٠١
- ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ٥٠١
- ﴿وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٥٠٢
- ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ٥٠٣
- ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ﴾ ٥٠٣
- ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٥٠٣
- ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتُ غِلَظٍ شِدَادٍ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ٥٠٤
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ٥٠٤
- ﴿وَإِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ٥٠٤

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ ٥٠٥
- ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ٥٠٥
- ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ .. ٥٠٥
- ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۚ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ٥٠٧
- ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ ٥٠٧
- ﴿يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ ٥٠٨
- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٥٠٨
- ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ ٥١٠
- ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ ٥١١
- ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ٥١١
- ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٥١١
- ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ٥١٣
- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ ٥١٦
- ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُولَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ٥١٦
- ﴿وَإِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٢٣
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ٥٢٤
- ﴿وَإِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ٥٢٤
- ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ٥٢٤
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ ٥٢٥

- ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ٥٢٥
- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ ٥٢٩
- ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ٥٢٩
- ﴿بِمَمْلِكٍ لِّقَضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّكَثُونَ﴾ ٥٢٩
- ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ٥٢٩
- ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ ٥٣٢
- ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُوْا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ٥٣٤
- ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ٥٣٤
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ٥٣٥
- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ٥٣٥
- ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٥٣٦
- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ٥٣٦
- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ٥٣٦
- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥٣٨
- ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ٥٣٨
- ﴿فَاتَّبِعُوا أَحَدَكُمْ يَورِقْكُمْ مِنْهُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ ٥٣٩
- ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٥٤٢
- ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ ٥٤٢
- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ٥٥٥

- ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٥٥٧
- ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ ٥٦١
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ ٥٦٤
- ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ ٥٧٢
- ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ٥٧٦
- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ٥٧٩
- ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ٥٨٤
- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ ٥٨٥
- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ ٥٨٩
- ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ٥٨٩
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ٥٨٩
- ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ ٥٩٠
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ إِشْتِيءَ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ ٥٩٦
- ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ ٥٩٦
- ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ٥٩٧
- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ٥٩٧
- ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ ٦٠٥

- ﴿وَلَا تَبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ ٦٤٠
- ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ٦٤٠
- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ٦٤٨
- ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ ٦٥٠
- ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ ٦٥٤
- ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ ٦٦٨
- ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ ٦٧٤
- ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ٦٧٥
- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ ٦٧٦



فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة	الحديث
٦٧٩	«ضَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا»
٦٤١	«النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ»
٤٤٨	«ابْنِي ازْتَحِلْنِي فَكِرِهْتُ أَنْ أُعْجَلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ»
٣١٣	«اثْبُتْ أَحَدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ»
١٢	«أَجْعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدَاءً؟ بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»
٥٧٦ ...	«اِخْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيِّتْنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ»
٦٦٢، ٤٩	«إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ...»
١٢٠	«إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا»
١٦	«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نَادَى مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا...»
٥٩٢	«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ...»
١١٨	«إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَحِيحًا مُقِيمًا»
٤٥٠	«اذْهَبُوا بِخَمِصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ، وَأُتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ، فَإِنَّهَا أَهْلَتْنِي أَنْفًا عَنْ صَلَاتِي»
٣٨٨، ٢٧١	«اذْهَبُوا فَإِنَّكُمْ الطُّلُقَاءُ»
٥٩٤	«ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشْفَعْ»
٥٩٢، ٥١٣	«اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّشْيِيتَ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»
٤٣٣	«أَسْرِعُوا بِالْجِنَازَةِ، فَإِنْ تَكَ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا»

- «أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» ١٠٣
- «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ...» ١٢٥
- «أَعْفُوا اللَّحَى وَحُقُوا الشَّوَارِبَ» ٢٩٢
- «اعْمَلُوا فِكْلٌ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ...» ٣٧٣، ٣٦٠، ٣٥٢، ٣٣٩
- «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» ٤٥٣
- «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ» ٦٣
- «أَلَا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُم أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ» .. ٣٨٢
- «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ» ٥٦٤، ٢٤٦
- «الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكِيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ»
- ٦٢٧، ٣٩٨، ٢٥٧، ١١٤
- «الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ» ٣٨٨
- «الْبَخِيلُ الَّذِي مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ» ٣٤١
- «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ...» ٥٠٠
- «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» ٤٦٤، ٤٣١، ٣٨٥، ١٩٣
- «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» ٣١٧
- «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...» ٥٢٨
- «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ» ٩٠
- «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» ٧١٠
- «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ» ٥٧١، ٥٩

- «أَمَّا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» ١٩٠
- «أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟» ٢٤٥
- «أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَاتَّقَاكُمْ لَهُ» ٣٩٠
- «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ...» ١٩٠، ٢٦٦
- «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الْأَيْمَةُ الْمُضِلُّونَ» ٤٨٩
- «إِنَّ الرَّجُلَ لَا يَزَالُ يَسْأَلُ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا فِي وَجْهِهِ مُزْعَةٌ لَحْمٍ» ٤٢
- «إِنَّ الْعَيْنَ تَذْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا...» ٢٦٨
- «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» ١١٧، ٤٥٨
- «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى» ٢٩٦
- «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» ٣٨١
- «إِنَّ اللَّهَ خَيْرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ» ٦٠٨
- «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يُمِلُّ لِلظَّالِمِ» ١٩٧، ٢٩٦
- «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا...» ٤٦١
- «إِنَّ اللَّهَ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوِثْرَ» ٢٨٨
- «أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ...» ٣٩٩
- «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ...» ٥٦٥
- «أَنَّ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ آوَاهُمُ اللَّيْلُ إِلَى غَارٍ» ١٢٢
- «إِنَّ رَأَيْتُمُونَا نَخْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ...» ٣١٢
- «إِنَّ عَبْدًا خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ...» ٤٠٥
- «إِنَّ قَوْمًا أَدَّوْا هَذَا لَأَمْنَاءُ» ٣٩٦

- «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» ٤١
- «أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِعَائِطٍ» ٤٤٥
- «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ...» ٢٩٤
- «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي» ٦٨٠، ٢٣٠، ١٨٧
- «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ» ٤٦٩، ٤٥٨، ٣٠٩
- «إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ» ٣٦٥، ٩٠
- «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» ٦٧٤، ٤٠٩
- «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ» ٤٨٩، ٣٤٥
- «انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ...» ٤٥٧
- «انْفِذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ...» ٣٩٥
- «إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ» ٦٥٠
- «إِنَّكَ عَفَفْتَ فَعَفَّتْ رَعِيَّتُكَ، وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعْتَ» ٣٩٦
- «إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ فَتَعْمَلْ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا أَرْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً...» ٦٥٢..
- «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»
- ٥٣٠، ٢٥٥، ١٧١، ١٦٠، ١٥٤، ١٣٧، ١٤
- «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» ٣٠٦
- «إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ عُرْوَةٍ إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ» ٥٦٢
- «إِنَّهُ عَيْنُ الرَّبِّ» ٤٩٢
- «إِنَّهُ لَوْ حَدَّثَ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ» ٦٦٩
- «إِنِّي أُحِبُّكَ، فَلَا تَدْعَنَّ أَنْ تَقُولَ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ» ٤٢٢

- «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» ٢٢٤
- «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي» ٢٦٧
- «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ...» ٦٩٣، ٣٢٤
- «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» ٤٤٢
- «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» ٣٤١
- «بِحَسَبِ ابْنِ آدَمَ أَكَلَاتُ يُقَمِّنَ صُلْبَهُ» ٦٠٠
- «ثَوْبِي حَجَرٌ ثَوْبِي حَجَرٌ» ٣١٣
- «خَمْسُ فَوَاسِقُ، يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ: الْفَأْرَةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْحِدَاةُ» ٥١٨، ٤٨٥
- «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» ٦٣٧
- «رَقِيتُ يَوْمًا عَلَى بَيْتِ حَفْصَةَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْضِي حَاجَتَهُ» ٤٤٦
- «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ...» ٥٥٢، ١٢١
- «سُفَهَاءُ الْأَخْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَأُونَ» ٥٤٥
- «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ» ١٢٤، ٨٨، ٦٦
- «عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا» ٣٩٩
- «فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»
- ٥٣٠، ١٦٠، ١٥٤، ١٣٧
- «فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَتُلْتُ لِبَطْنِيهِ وَتُلْتُ لِشَرَابِهِ وَتُلْتُ لِنَفْسِهِ» ٦٠٠
- «قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ! إِنَّهُ لَمَّا حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ جَمَلُوهَا فَبَاعُوه وَأَكَلُوا ثَمَنَهُ» ٤٦٠
- «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ...» ٥١٤، ١٤٨
- «كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا نُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ» ٤٢٧، ٣٦٤

- «كُلُّ أُمَّتِي مُعَاقٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ» ٤١٠
- «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ» ٥٥٦
- «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» ... ٥٢٣، ٤٧٥
- «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ» ٥٤٩، ٥١٢
- «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، أَلَا فَزُرُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ» ٥٩١
- «لَا أَرْضَى مِنْ مَالِي بِمَا رَضِيَ اللَّهُ بِهِ مِنْ غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ» ٦٥٠
- «لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، وَهَذَا مَالُكَ، فَاسْتَأْذِنِي فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا...» ١٢٣
- «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ...» ٦٣٠
- «لَا تَحْلِفُوا بِأَبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصُمْتُ» ٤٠٣، ٥٢، ٣١، ٩
- «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ...» ٣٣٣
- «لَا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ» ٦٦٥
- «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ...» ٢٣٤، ٢٢١، ٢٠٥
- «لَا يَأْكُلُ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلَا يَشْرَبُ بِشِمَالِهِ...» ٤٦١
- «لَا يَحِلُّ لِمَرْءٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا» ٥١٧
- «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلَا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ» ٥٥٨
- «لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا» ٧١٢
- «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» ٣٣١
- «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» ٦٦١
- «لَا تُوفِنَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ... ٤٢٩، ٣٢٧
- «لَقَدْ تُوِّفِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عَلِيمًا» .. ٤٤٥

- «لَوْ ضَعُ سَوَطٌ أَحَدَكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ٢٨٢، ٤٣٢، ٦٠٧
- «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ» ٤٧١
- «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا» ٣٠٢
- «لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثُّلْثِ إِلَى الرَّبْعِ...» ٦٥٠
- «لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ وَالشُّرُورِ لَجَالَدُونَا بِالسُّيُوفِ»
..... ٨٨، ٣٥٠
- «لَيْسَأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شَيْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ» ٦٦٤
- «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ» ١٠٧
- «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ أَنْ يُوصِيَ فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ» ٢٠٨
- «مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ» ٢٨٦
- «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا» ٤٣٣، ٥٦٠
- «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ» ٤٥٢
- «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ»
..... ٣٣٨، ٣٥١، ٣٧٣
- «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ...» ٧٠٩
- «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» ٢٥٤
- «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَرَخَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ...» ٣٣٢
- «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ» ٢٢٣
- «مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي شَيْءٍ فَلْيَلْزِمْهُ» ٥٧٣

- «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» ٢٩٢
- «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ» ٦٣
- «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»
- ٩، ٣١، ٥٢، ٢٣٥، ٢٨٩، ٣٢٣، ٣٨٢، ٤٠٢، ٤٢٥، ٦٣١
- «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيُقْل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ٢٣٥
- «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» ٦٦٧
- «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» ٢٩٣
- «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكْثُرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»
- ٤٢١، ٤٥٥، ٤٦٩
- «مَنْ سَمِعَ بِالذَّجَالِ فَلْيَنَأْ عَنْهُ» ٦٢٨
- «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ٣٩٧
- «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ» ١٣٨، ١٦٠
- «مَنْ عَمِلَ السَّيِّئَةَ كَتَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى سَيِّئَةً وَاحِدَةً» ١٢٠
- «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ٨٢، ١٨٧، ٦٣٦
- «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي» ٦١٧، ٦٤٨
- «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا...» ٢٤٠
- «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»
- ٩، ٣١، ٥٢، ٢٣٥، ٢٤٣، ٢٨٩، ٣٠٥، ٣٢٢، ٤٠٣
- «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقْلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» ٩٥، ٩٦، ٢٦٢
- «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا، فَلْيَضْرِبْ عَلَيْهِ...» ١٩٥

- «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ ...» ١٢٠
- «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» ٢٨٠
- «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» ٤٠٠
- «وَاللَّهُ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ...» ٣٠٢
- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ» ٢٣٤
- «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا» .. ١٠، ٣٦٨
- «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاءٍ غُرْلًا» ١٤١
- «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَابَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ» ٥٢٦



فهرس الفوائد

الصفحة	الفائدة
٦.....	يومُ القيامةِ هو اليومُ الَّذي يُبعثُ فيه النَّاسُ، وسُمِّيَ يومَ القيامةِ لأُمورٍ ثلاثةٍ: ٦.....
١٥.....	إذا تَعَدَّى الفِعْلُ (رَأَى) إلى مَفْعُولٍ واحدٍ فهي رُؤْيَةٌ بَصَرِيَّةٌ، وإذا تَعَدَّى إلى مَفْعُولَيْنِ فهي رُؤْيَةٌ عِلْمِيَّةٌ قَلْبِيَّةٌ. ١٥.....
٣٥.....	لا يُمكن أن يَقَعَ في القرآنِ تَكَرُّرٌ إلا وله فائدةٌ ٣٥.....
٣٦.....	(ما) الاستفهاميةُ إذا دخلَ عليها حرفُ الجَرِّ تُحذفُ أَلِفُها. ٣٦.....
٣٧....	حروفُ المعاني تأتي لمعانٍ كثيرةٍ، والذي يُعيَّنُ المعنى هو السياقُ وقرائنُ الأحوالِ. ٣٧....
٣٨.....	من أَبْرَزِ علاماتِ المَجَازِ صِحَّةُ نَفْيِهِ، وليسَ في القرآنِ شيءٌ يَصِحُّ نَفْيُهُ. ٣٨.....
٣٩.....	القرآنُ ليسَ فيه مَجَازٌ؛ لأنَّ الكلمةَ في موضعها دالةٌ على المعنى المرادِ، ولا يُمكنُ أن يُرادَ سِوَاهَا. ٣٩.....
٤٧.....	الفَجْرُ فَجْرَانِ: فَجْرٌ صَادِقٌ، وفَجْرٌ كاذِبٌ، والفرقُ بينهما من حيثُ المُشاهدةُ من وُجوهٍ ثلاثةٍ: ٤٧.....
٥٤.....	الإنسانُ له مَشِيئةٌ، وله إرادةٌ، ويفعلُ الشيءَ باختياره، ولا يُجبرُ على عَمَلِهِ، لكننا نعلمُ أن ما يَقَعُ في الكونِ فإنما يَقَعُ بمَشِيئةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ٥٤.....
٥٦.....	مَرَاتِبُ القَدَرِ أربعٌ: المَرْتَبَةُ الأولى: العِلْمُ، والثَّانِيَّةُ: الكِتَابَةُ، والثَّالِثَةُ: المَشِيئةُ، والرَّابِعَةُ: الخَلْقُ. ٥٦.....
٨٢.....	الأصلُ في العباداتِ المنعُ حتَّى يقومَ دليلٌ. ٨٢.....
٨٤.....	مَنْ ابتَدَعَ عِبادةً لم تُكُنْ في عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ فإنه على خَطَرٍ عَظِيمٍ؛ لأنَّه يَسْتَلْزِمُ مِنْ هَذِهِ البِدْعَةِ أَنَّ الدِّينَ ناقِصٌ لم يُكْمَلْ. ٨٤.....

- في القرآن الكريم ثلاث آيات صريحة في أن أهل النار خالدون فيها أبدًا: ٩٢
- من عقيدة أهل السنة والجماعة أن أهل الجنة خالدون فيها أبدًا، وأن أهل النار خالدون فيها أبدًا. ٩٢
- يُغَرُّ الإنسان بِرَبِّهِ شَيْئَانِ: الدُّنْيَا وَالشَّيْطَانُ. ٩٤
- الْفِطْرَةُ تَقْتَضِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دَعَا رَبَّهُ فَإِنَّهُ يَجِدُ مِنْ قَلْبِهِ ضَرُورَةً بِطَلَبِ الْعُلُوِّ. ١٠٥
- المعاصي تحوّل بين المرء وبين العلم حتى يلتبس عليه الشيء الواضح. ١٠٩
- كلُّ أمورِ الغَيْبِ لَا يُمكنُ أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ كَيْفِيَّتِهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ كَيْفِيَّتُهَا معلومةً بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. ١١٦
- المؤمن طيبة نفسه، إن أصابته السراء شكر، وقام بالشكر، وإن أصابته الضراء صبر، وقام بالصبر، ولم يتضجر. ١٢٤
- الأحقاب: جمع حقب، وهو الزمن. ١٢٨
- أعلى أنواع التفسير تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسيره بالسنة. ١٣٧
- التطفيف ضابطه أن يأخذ الإنسان بجميع حقوقه، وأن ينقص الحقوق التي عليه. ١٤٠
- أصحاب الأخدود هم الذين خدوا في الأرض -أي حفروا أخدودًا- من أجل أن يلقوا فيها المؤمنين ويحرقوهم. ١٨٥
- كلُّ شيءٍ ممَّا يُصنع في هَذَا الكونِ، أو يقع فيه، فالله تعالى شهيدٌ عليه، بل هو عزَّجَلَّ شهيدٌ على ما في القلوبِ ممَّا لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ. ١٨٥
- الكافر إذا أسلم عفا الله عنه فيما سلف مما فيه اعتداء على الخلق، ومما فيه اعتداء في حق الخالق. ١٩٧

- التوبة هي الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته، وهي قسمان: توبة مُقَيَّدة،
وتوبة مُطْلَقة. ١٩٨
- التوبة المقيَّدة أن تتوب من ذنب مُعَيَّن مع الإصرار على غيره، والتوبة المطلقة أن
تتوب من كلِّ ذنب. ١٩٨
- الإنسان إذا كان من أهل السنة، وكان مُلتزمًا بمذهب السلف، وخرج عن
مذهب السلف في شيء مُعَيَّن، فإننا لا نقول: إنه مبتدع. ١٩٩
- يجب الإسراع في قضاء دين الميت، وينبغي أن يُؤدَّى دين الميت قبل أن يُدفن. ٢٠٩
- اقطعُ تَعَلُّقَكَ بغير الله، لا بالنبيِّ، ولا بالملك، ولا بالوليِّ، ولا بأيِّ أحدٍ، واجعلِ
اتجاهك إلى الله عزَّ وجلَّ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. ٢١٨
- أصحابُ الأخدودِ هم قومٌ كفَرُوا بَيْنَهُمْ قومٌ مؤمنون، فأراد هؤلاء الكفار أن
يَنتَقِمُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِإِيْمَانِهِمْ. ٢٢٤
- كلُّ كافرٍ مَهْمَا أَلَانَ الْقَوْلَ وَوَسَّعَ الْوَجْهَ لِلْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ. ٢٢٤
- مَنْ تَابَ وَفِي نَيْتِهِ أَنَّهُ إِنْ تَسَرَّتْ لَهُ الْمَعْصِيَةُ مَرَّةً أُخْرَى عَادَ إِلَيْهَا لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ. ٢٣١
- يُرْجَعُ فِي التفسيرِ أَوَّلًا إِلَى كَلَامِ اللَّهِ، بِمَعْنَى أَنْ تُفسَّرَ الْقُرْآنُ أَوَّلًا بِالْقُرْآنِ. ٢٤٣
- الحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فِي الصُّدُورِ، وَالْحِسَابُ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا فِي الْجَوَارِحِ،
وَفِي الدُّنْيَا يُحَاسَبُ الْإِنْسَانُ، وَيُقَوَّمُ الْإِنْسَانُ عَلَى حَسَبِ عَمَلِهِ الظَّاهِرِ، وَتُوكَّلُ
السَّرَائِرُ إِلَى اللَّهِ، وَفِي الْآخِرَةِ لَا مَفَرَّ، فَالْعِبْرَةُ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ. ٢٤٤
- (لَا تُمُّ التَّعْلِيلُ) مَكْسُورَةٌ دَائِمًا، وَ(لَا تُمُّ الْأَمْرُ) مَكْسُورَةٌ إِلَّا إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا (وَإِوَاوُ)
الْعَطْفِ) أَوْ (فَاءُ الْعَطْفِ) أَوْ (ثُمَّ). ٢٦٤
- البِسْمَلَةُ يُؤْتَى بِهَا فِي كُلِّ سُورَةٍ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ السُّورَةِ الَّتِي تَلِيهَا، فَهِيَ لَيْسَتْ
مِنَ الْفَاتِحَةِ، وَلَا مِنَ الْبَقَرَةِ، وَلَا مِنْ آلِ عِمْرَانَ، وَلَا مِنْ سُورَةِ النَّاسِ، وَلَا مِنْ

- السُّورِ الَّتِي بَيْنَ ذَلِكَ، بَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقَلَّةٌ، هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ. ٢٧٥
- لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ وَنَعَّمَهُ؛ يَكُونُ إِكْرَامُهُ إِيَّاهُ إِكْرَامًا لَهُ، قَدْ يُكْرِمُ اللَّهُ الْكَافِرَ
بِالنَّعْمَةِ، وَلَكِنْ يُمَهِّلُهُ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ. ٢٩٥
- إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْصِي اللَّهَ، وَنِعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَافِرَةً، فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا اسْتِدْرَاجٌ
مِنَ اللَّهِ. ٢٩٦
- الْقَسَمُ بِالْمَخْلُوقَاتِ حَرَامٌ. ٣٠٥
- الْحَلْفُ بِغَيْرِ اللَّهِ حَرَامٌ، أَمَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَلَهُ أَنْ يَخْلِفَ بِمَا شَاءَ. ٣٠٦
- الْقَسَمُ تَأْكِيدُ الشَّيْءِ بِذِكْرِ عَظِيمٍ، كَأَنَّ الْمُقْسِمَ يَقُولُ: لِعَظْمَةِ هَذَا الشَّيْءِ أُؤَكِّدُ هَذَا
الْحَبَرَ. ٣٠٨
- الْبَشَرُ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ: مَوْجُودٌ بِلَا أُمٍّ وَلَا أَبٍ، وَمَوْجُودٌ بِأُمٍّ بِلَا أَبٍ، وَمَوْجُودٌ بِأَبٍ
بِلَا أُمٍّ، وَمَوْجُودٌ بَيْنَ أَبٍ وَأُمٍّ، وَهَذَا غَالِبُ الْبَشَرِ. ٣١٠
- مِنَ النَّاسِ مَنْ يُوَلَدُ لَهُ ذُكُورٌ دُونَ إِنَاثٍ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُوَلَدُ لَهُ إِنَاثٌ دُونَ
ذُكُورٍ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُوَلَدُ لَهُ مِنَ الصَّنَفَيْنِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُوَلَدُ لَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ. ٣١٠
- مَا لَكَ مَا قَدَّمْتَ، وَمَالٌ وَارِثَكَ مَا أَخَّرْتَ. ٣٤٢
- التَّيْسِيرُ هُوَ تَحَقُّقُ الْأَمْرِ مَعَ قُرْبِهِ. ٣٤٩
- لَا حُجَّةَ لِلْعَاصِي بِقَدَرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ. ٣٥٤
- مَنْ أَنْكَرَ فِعْلَ الْأَسْبَابِ فَهُوَ سَفِيهٌ فِي عَقْلِهِ، ضَالٌّ فِي دِينِهِ، فَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ؛
لِأَنَّ مَبْنَى أَفْعَالِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَأَحْكَامِهِ عَلَى الْحِكْمَةِ. ٣٦٣
- الْإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ هُوَ الَّذِي يَنْقَادُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَيَسْتَسْلِمُ لِأَمْرِهِ، وَلَا يَحْتَجُّ بِقَدَرِهِ عَلَى
شَرْعِهِ؛ لِأَنَّ الْقَدَرَ سِرٌّ مَكْتُومٌ. ٣٦٤

- العِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ ٣٧١
- قَتْلُ النَّفْسِ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ، وَمِنْ الْمُوَبِّقَاتِ ٣٧٩
- لَا يَخْلِفُ اللَّهُ بَشْيَءً إِلَّا وَهُوَ ذُو قِيَمَةٍ عَظِيمَةٍ ٣٨٢
- حُرُوفُ الْقَسَمِ ثَلَاثَةٌ: (الواو، والباء، والتاء)، تقول: وَاللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ كَذَا. وتقول: بِاللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ كَذَا. وتقول: تَاللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ كَذَا. ٣٨٢
- (سَوْفَ) تَدُلُّ عَلَى التَّحْقِيقِ لَكِنْ بِمُهْلَةٍ، بِخِلَافِ السَّيْنِ، فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى التَّحْقِيقِ، لَكِنْ بِسُرْعَةٍ. ٣٨٧
- إِذَا أَتَى اسْمُ الْاسْتِفْهَامِ مُقْتَرِنًا بِالنَّفْيِ فَهُوَ لِلتَّحْقِيقِ ٣٩٣
- إِذَا حُذِفَ الْمَفْعُولُ دَلَّ عَلَى الْعُمُومِ ٣٩٤
- الْيَتِيمُ هُوَ الَّذِي فَقَدَ أَبَاهُ بِالمَوْتِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ ٤٠٨
- مِنْ السُّنَّةِ الْإِسْرَاعُ فِي غُسْلِ الْمَيِّتِ وَتَكْفِينِهِ وَالصَّلَاةَ عَلَيْهِ وَدَفْنِهِ ٤٣٤
- التَّوْرِيَّةُ هِيَ أَنْ يُرِيدَ الْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامِهِ مَا يَخَالِفُ ظَاهِرَهُ ٤٣٧
- الْقَاعِدَةُ الْأُصُولِيَّةُ أَنَّ الْمَفْرَدَ إِذَا أُضِيفَ إِلَى مَعْرِفَةٍ صَارَ عَامًّا ٤٥٧
- مَنْ كَذَّبَ وَاحِدًا مِنَ الرُّسُلِ فَقَدْ كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ ٤٧٧
- كُلُّ مَا قَضَى اللَّهُ عَلَيْكَ، أَوْ عَلَى غَيْرِكَ فاعْلَمْ أَنَّهُ لِحِكْمَةٍ، إِنْ وُفِّقَتْ لِفَهْمِهَا فَهَذَا الْمَطْلُوبُ، وَإِنْ لَمْ تُوَفَّقْ فَيَكْفِي أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّ ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ ٤٨٢
- الْيَوْمُ الْآخِرُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَسُمِّيَ آخِرًا لِأَنَّهُ لَا يَوْمَ بَعْدَهُ ٥٠٩
- الْبَسْمَلَةُ لَيْسَتْ مِنَ السُّورَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، وَلَا مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا، لَكِنَّهَا آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ يُؤْتَى بِهَا فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ؛ إِلَّا فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ ٥١٥
- جَبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ، يُرْسِلُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَمِيكَائِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْأَمْطَارِ وَالنَّبَاتِ، وَإِسْرَافِيلُ مُوَكَّلٌ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ ٥٢٨

- ٥٣٩ يجوز تفويض الوكيل دون تحديد له.
- ٥٣٨ القول الراجح أن شريعة من قبلنا شريعة لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافها.
- ٦٤٠ نواهي الله، والصبر على أقدار الله.
- ٦٤١ الصبر على أوامر الله: أن يحبس الإنسان نفسه على فعل العبادَة.
- ٦٥٠ قال الفقهاء رحمهم الله: ينبغي لمن أراد أن يوصي بشيء من بعد موته أن يوصي بالخمُس، وإن زاد إلى الرُّبع فجائز، وإلى الثُّلث فجائز، لكن الثُّلث كثيرٌ.
- ٦٥١ إنفاق الإنسان على زوجته واجب، فإنفاق الإنسان على زوجته في مُقابَلَة الاستمتاع بها.
- ٦٥٦ (حُطْمَة) على وزن (فُعْلَة)، من الحُطْم وهو الإِثْلَاف.
- ٦٧١ إذا كان سُجود السَّهْو عن زيادة فَبَعْدَ السَّلام، وإذا كان عن نَقْصِ قَبْلَ السَّلام...
- ٦٧٥ هناك كَلِمَات في اللُّغة العربيَّة إذا قُرِنت صارَ لكلِّ واحدَةٍ مَعْنَى، وإذا انفردت إحداهما صارت بمَعْنَى الأُخْرَى.
- ٦٧٥ هناك أزواج من الكَلِمَات إذا ذُكِرَتْ إحداهما مُتَفَرِّدَة شَمِلَتِ الأُخْرَى، وإذا ذُكِرَتَا مَعًا صارَ لكلِّ واحدَةٍ مَعْنَى.
- ٦٩٦ النَّفَّاثَات: جَمْعُ نَفَّاثَةٍ، وهي التي تَنْفُثُ في العُقْد، وهي السَّاحِرَةُ.
- ٧٠٢ المرادُ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ الْعِلْمُ بِاللَّهِ وبأحكامِهِ وبأفعاليهِ.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
سورة القيامة	٥
الدَّرْسُ الأولُ:	٥
الدرس الثاني:	١٢
سورة الإنسان	٢٢
سورة المرسلات	٢٩
ما حكمُ الحَلْفِ بالمخلوقاتِ؟	٣٠
سورة النبأ	٣٦
سورة التكوير	٤٦
وفي هذه الآيات من الفوائد:	٥٢
مراتبُ القَدَرِ أربعٌ:	٥٦
المرتبة الأولى: العلمُ:	٥٦
المرتبة الثانيةُ: الكتابةُ:	٥٧
المرتبة الثالثةُ: المشيئةُ:	٥٧
المرتبة الرابعةُ: الخَلْقُ:	٥٨
سورة الانفطار	٦٠
الدرس الأول:	٦٠
الأدلة على رُؤية المؤمنين ربهم يومَ القيامة:	٦٨

٧٣	الدرسُ الثاني:
٨٤	مِنَ الْبِدْعِ فِي شَهْرِ رَجَبٍ:
٩٣	الدرسُ الثالثُ:
١٠١	أَدْلَةُ عُلُوِّ اللَّهِ تَعَالَى:
١٠٩	أَثَرُ الْمَعَاصِي عَلَى الْإِنْسَانِ:
١١١	الدرسُ الرابعُ:
١١٤	كِتَابَةُ الْمَلَائِكَةِ لِلْأَعْمَالِ:
١٣٣	سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ:
١٣٣	الدرسُ الأولُ:
١٣٦	رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ:
١٣٩	الدرسُ الثاني:
١٤٧	الدرسُ الثالثُ:
١٥٦	الدرسُ الرابعُ:
١٨٢	سُورَةُ الْبُرُوجِ:
١٨٢	الدرسُ الأولُ:
١٨٩	مِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَاتِ: الصَّبْرُ:
١٩٢	الدرسُ الثاني:
٢٠٠	شُرُوطُ التَّوْبَةِ:
٢٠٨	الْوَصِيَّةُ:
٢١١	الدرسُ الثالثُ:

٢٢٠	شُرُوطُ التَّوْبَةِ:
٢٢١	تَنْبِيْهُ:
٢٢٢	الدرسُ الرَّابِعُ:
٢٢٩	البحثُ الأولُ: شروطُ التَّوْبَةِ:
٢٣٤	البحثُ الثاني:
٢٣٦	البحثُ الثالثُ:
٢٣٩	سورةُ الطَّارِقِ
٢٣٩	الدرسُ الأولُ:
٢٤٠	الحِثُّ عَلَى تَدَبُّرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ:
٢٥٢	الدرسُ الثاني:
٢٧٥	سورةُ الأَعْلَى
٢٨٤	سورةُ الفَجْرِ
٢٨٤	الدرسُ الأولُ:
٢٨٨	تنبيهاتُ:
٢٩٥	الدرسُ الثاني:
٢٩٨	سورةُ البَلَدِ
٢٩٨	الدرسُ الأولُ:
٢٩٨	مقدمةٌ في تدبُّرِ القرآنِ الكريمِ:
٣٠٥	القَسَمُ بِغَيْرِ اللَّهِ:
٣٠٦	الطَّلَاقُ المَعْلَقُ:

الدرسُ الثاني:	٣٠٨
سورة الشمس	٣٢٢
سورة الليل	٣٣٦
الدرسُ الأول:	٣٣٦
الدرسُ الثاني:	٣٤٤
الردُّ عَلَى من احتجَّ بِالقدرِ:	٣٥١
الدرسُ الثالثُ:	٣٥٥
الدرسُ الرابعُ:	٣٧٢
سورة الضُّحَى	٣٧٦
الدرسُ الأول:	٣٧٦
قَتْلُ النَّفْسِ:	٣٧٩
الدرسُ الثاني:	٤٠٢
الدرسُ الثالثُ:	٤١٥
الدرسُ الرابعُ:	٤٢٤
فائدة:	٤٦٢
سورة الشرح	٤٧١
سورة التِّينِ	٤٧٤
الدرسُ الأول:	٤٧٤
الدرسُ الثاني:	٤٧٩
الدرسُ الثالثُ:	٤٨٣

٤٩٣	الدرسُ الرابعُ:
٤٩٧	أركانُ الإيمان:
٤٩٧	أولاً: الإيمانُ بالله:
٥٠٤	ثانياً: الإيمانُ بالملائكة:
٥٠٥	ثالثاً: الإيمانُ بالكتبِ المنزلةِ من عندِ الله:
٥٠٨	رابعاً: الإيمانُ بالرسل:
٥٠٩	خامساً: الإيمانُ باليومِ الآخر:
٥١٤	الدرسُ الخامسُ:
٥٢٤	أركانُ الإيمانِ ستةٌ:
٥٢٤	أولاً: الإيمانُ بالله:
٥٢٧	ثانياً: الإيمانُ بالملائكة:
٥٣٦	ثالثاً: الإيمانُ بالكتبِ:
٥٣٧	رابعاً: الإيمانُ بالرسل:
٥٤٠	خامساً: الإيمانُ باليومِ الآخر:
٥٤٢	الإيمانُ بكلُّ ما أخبرَ به النبي ﷺ مما يكونُ بعدَ الموت:
٥٤٧	الإيمانُ بأنَّ الناسَ يبعثونَ يومَ القيامةِ حفاةً عراةً غُرلاً:
٥٤٨	الإيمانُ بأنَّ الأرضَ يومَ القيامةِ تُمدُّ مدَّ الأديم:
٥٤٩	الإيمانُ بأنَّ الأعمالَ توزنُ يومَ القيامة:
٥٥١	الإيمانُ بأنَّ الشمسَ تدنو من الخلائقِ يومَ القيامة:
٥٥٢	الاستظلالُ من الشمسِ يومَ القيامة:

الإيمانُ بالشفاعة:	٥٥٦
الشفاعةُ العامةُ:	٥٥٧
الشفاعةُ الخاصةُ:	٥٥٩
سادسًا: الإيمانُ بالقدرِ خيرُه وشرُّه:	٥٦٠
مراتبُ الإيمانِ بالقدرِ:	٥٦٣
المرتبةُ الأولى: الإيمانُ بالعلمِ:	٥٦٣
المرتبةُ الثانيةُ: الكتابةُ:	٥٦٥
المرتبةُ الثالثةُ: الإيمانُ بمشيئةِ الله:	٥٦٧
المرتبةُ الرابعةُ: الخلقُ:	٥٦٩
من فوائدِ الإيمانِ بالقدرِ:	٥٧١
سورةُ القدرِ	٥٧٩
سورةُ الزلزلةِ	٥٨٢
سورةُ التَّكْوِيْنِ	٥٨٩
الدرسُ الأولُ:	٥٨٩
الدرسُ الثاني:	٦٠٢
الدَّرْسُ الثَّالِثُ:	٦٠٧
سورةُ العصرِ	٦٢٢
الدرسُ الأولُ:	٦٢٢
الدَّرْسُ الثَّانِي:	٦٢٥
الدَّرْسُ الثَّالِثُ:	٦٣٣

٦٤٧.....	سُورَةُ الْهُمَزَةِ
٦٤٧.....	الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:
٦٥٤.....	الدَّرْسُ الثَّانِي:
٦٥٩.....	سُورَةُ الْفِيلِ
٦٦٠.....	أهمية معرفة السيرة النبوية:
٦٦٣.....	حبسُ ناقةِ الرسولِ ﷺ كحبسِ فيلِ أبرهة:
٦٦٦.....	سُورَةُ الْمَاعُونِ
٦٦٦.....	الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:
٦٦٨.....	أحكام سجود السهو:
٦٧٣.....	الدَّرْسُ الثَّانِي:
٦٨٤.....	سُورَةُ الْكَافِرُونَ
٦٨٧.....	سُورَةُ الْإِخْلَاصِ
٦٩١.....	سُورَةُ الْفَلَقِ
٦٩٩.....	سُورَةُ النَّاسِ
٧١٥.....	فهرس الآيات
٧٤٥.....	فهرس الأحاديث والآثار
٧٥٥.....	فهرس الفوائد
٧٦١.....	فهرس الموضوعات

